297.207
A162tA
V.1
C.1

تفسير أبي السعود

المسمى

ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

لخاتمة المحققين وامام المدققين قاضى القضاة

أبي السعود محمد بن محمد العمادى

ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هجرية وتوفى سنة ٩٥١

الجزء الأول

صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقوبلت على عدة نسخ

باشراف

محمد عبد اللطيف

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده

بميدان الأزهر بمصر . ت ٤٨٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وبين له من شعائر الشرائع كل ماجل ودق ، أنزل عليه أظهر بينات وأبهر حجج ، قرآنا عربيا غير ذى عوج ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ، ناطقا بكل أمر رشيد ، هاديا إلى صراط العزيز الحميد ، آمرا بعبادة الصمد المعبود ، كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه الجلود ، تكاد الرواسى لهيبته تمور ، ويذوب منه الحديد ويميع صم الصخور ، حقيقا بأن يسير به الجبال ، وبيسر به كل صعب محال ، معجزا أفحم كل مصقع من مهرة قحطان ، وبكت كل مفلق من سحرة البيان ، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته ومباراته ، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ، نزله عليه على فترة من الرسل ، ليرشد الأمة الى أقوم السبل ، فهداهم إلى الحق وهم فى ضلال مبين ، فاضمحل دجى الباطل وسطع نور اليقين ، فمن اتبع هداه فقد فاز بمناه ، وأما من عانده وعصاه ، واتخذ الهه هواه ، فقد هام فى موامى الردى ، وتردى فى مهاوى الزور ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، صلى الله عليه وعلى آله الأخيار وصحبه الأبرار ، ما تناوبت الأنواء ، وتعاقبت الظلم والأضواء ، وعلى من تبعهم باحسان ، مدى الدهور والأزمان .

وبعد : فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الهادى ، أبو السعود بن محمد العمادى ، إن الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم وماكان حرف منها مسطورا ، والحكمة الكبرى فى تخمير طينة آدم ولم يكن شيئا مذكورا ، ليست إلا معرفة الصانع المجيد ، وعبادة البارىء المبدىء المعيد ، ولاسبيل إلى ذاك المطلب الجليل ، سوى الوقوف على مواقف التنزيل فانه عز سلطانه ، وبهر برهانه ، وإن سطر آيات قدرته فى صحائف الأكوان ، ونصب رايات وحدته فى صفائح الاعراض والأعيان . وجعل كل ذرة من ذرات العالم ، وكل قطرة من قطرات العيلم ، وكل نقطة جرى عليها قلم الإبداع وكل حرف رقم فى لوح الاختراع ، مرآة لمشاهدة جماله ، ومطالعة صفات كماله ، حجة نيرة واضحة المكنون ، وآية بينة لقوم يعقلون برهانا جليا لاريب فيه ، ومنهاجا سويا لا يضل من ينتحيه ، بل ناطقا يتلو آيات ربه فهل من سامع واع ومجيبا صادقا ، فهل له من داع ، يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويرد جوابهم بحسب مقولهم ، يحاور تارة بأوضح عبارة ، ويلوح أخرى بألطف إشارة ، لكن الاستدلال بتلك الآيات والدلائل ، والاستشهاد بتيك الامارات والمخايل ، والتنبيه لتلك الاشارات السرية ، والتفطن لمعانى تلك العبارات العبقرية ، ومافى تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر ، وكنوز آثار التعاجيب والعبر ، مما لا يطيق به عقول البشر ، إلا بتوفيق خلاق القوى والقدر ، فاذن مدار المراد ، ليس إلا كلام رب العباد ، إذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينية ، والمفسر لمشكلات الآيات التكوينية والكاشف عن خفايا حظائر القدس ، والمطلع على خبايا سرائر الإنس ، وبه تكتسب الملكات الفاخره ، وبه يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخره ، خلا انه أيضاً من علو الشأن وسمو المكان ، ونهاية الغموض والاعضال ، وصعوبة المأخذ وعزة المنال ، فى غاية الغايات القاصيه ، ونهاية النهايات النائيه ، أعز من بيض الأنوق ، وأبعد من مناط العيوق لايتسنى العروج إلى معارجه الرفيعه ، ولايتأتى الرقى إلى مدارجه المنيعه ، كيف لاوانه مع كونه متضمنا لدقائق العلوم النظرية والعمليه ، ومنطويا على دقائق الفنون الخفية والجليه ، حاويا لتفاصيل الأحكام الشرعيه ، ومحيطا بمناط

الدلائل الأصلية والفرعيه ، منبئاعن أسرار الحقائق والنعوت ، مخبراً بأطوار الملك والملكوت ، عليه يدور فلك الأوامر والنواهى ، واليه تستند معرفة الأشياء كما هى ، قد نسج على أغرب منوال وأبدع طراز ، واحتجبت طلعته بسبحات الاعجاز ، طويت حقائقه الابية عن العقول ، وزويت دقائقه الخفية عن أذهان الفحول ، يرد عيون العقول سبحانه ، ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه ، ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير فى كل عصر من الأعصار ، وتولى لتيسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحرير فى كل قطر من الأقطار ، فغاصوا فى لججه ، وخاضوا فى ثبجه ، فنظموا فرائده فى سلك التحرير ، وأبرزوا فوائده فى معرض التقرير ، وصنفوا كتباً جليلة الاقدار ، والفوا زبراً جميلة الآثار ، أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعانى وتشييد المبانى وتبيين المرام ، وترتيب الأحكام ، حسبما بلغهم من سيد الأنام عليه شرائف التحية والسلام ، وأما المتأخرون المدققون ، فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقه ، وإبداء خباياه الفائقه ، ليعاين الناس دلائل اعجازه ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه ، عن سائر الكتب الكريمة الربانيه ، والزبر العظيمة السبحانيه ، فدونوا أسفاراً بارعه ، جامعة لفنون المحاسن الرائعه ، يتضمن كل منها فوائد شريفه تقر بها عيون الاعيان ، وعوائد لطيفة يتشنف بها آذان الاذهان ، لاسيما الكشاف وأنوار التنزيل ، المتفردان بالشأن الجليل والنعت الجميل ، فان كلا منهما قد أحرز قصب السبق أى احراز ، كأنه مرآة لاجتلاء وجه الاعجاز ، صحائفهما مرايا المزايا الحسان ، وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقيان ، ولقد كان فى سوابق الايام ، وسوالف الدهور والاعوام ، أوان اشتغالى بمطالعتهما وممارستهما وزمان انتصابى لمفاوضتهما ومدارستهما ، يدور فى خلدى على استمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، أن أنظم درر فوائدهما فى سمط دقيق ، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق ، وأضيف اليهما ما ألفيته فى تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق ، وصادفته فى أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق ، وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق وأسلوب بديع ، حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل ، ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ، ماسنح للفكر العليل بالعناية الربانيه ، وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانيه ، من عوارف معارف يمتد اليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب ، وغرائب رغائب ترنو اليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب ، وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام ، فى مداحض الاقدام ، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام ، من خواطر الأنام ، فى معارك أفكار يشتبه فيها الشئون ومدارك أنظار يختلط فيها الظنون ، وأبرز من وراء أستار الكمون ، من دقائق السر المخزون ، فى خزائن الكتاب المكنون ماتطمئن اليه النفوس وتقر به العيون ، من خفايا الرموز ، وخبايا الكنوز ، وأهديها إلى الخزانة العامرة الغامرة للبحار الزاخره ، لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض ، واصطفاه لسلطنتها فى الطول والعرض ، ألا وهو السلطان الاسعد الأعظم ، والخاقان الأمجد الأفخم ، مالك الامامة العظمى ، والسلطان الباهر ، وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر ، رافع رايات الدين الأزهر ، موضح آيات الشرع الأنور مرغم أنوف الفراعنة والجبابره معفر جباه القياصرة والأكاسره ، فاتح بلاد المشارق والمغارب ، بنصر الله العزيز وجنده الغالب ، الهمام الذى شرق عزمه المنير فانتهى إلى المشرق الأسنى ، وغرب حتى بلغ مغرب الشمس أو دنا ، بخميس عرمرم متزاحم الأفواج ، وعسكر كخضم متلاطم الأمواج ، فأصبح مابين أفقى الطلوع والغروب ، ومابين نقطتى الشمال والجنوب ، منتظما فى سلك ولايته الواسعه ومندرجا تحت ظلال راياته الرائعه ، فأصبحت منابر الربع المسكون ، مشرفة بذكر اسمه الميمون ، فياله من ملك استوعب ملكه البر البسيط ، واستغرق فلكه وجه البحر المحيط ، فكأنه فضاء ضربت فيه خيامه ، أو نصبت عليه

الويته وأعلامه ، مالك ممالك العالم ، ظل الله الظليل على كافة الأمم ، قاصم القياصرة وقاهر القروم ، سلطان العرب والعجم والروم ، سلطان المشرقين ، وخاقان الخافقين ، الإمام المقتدر بالقدرة الربانيه ، والخليفة المعتز بالعزة السبحانيه المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين ، وحماية المقامين الجليلين المفخمين ، ناشر القوانين السلطانيه ، عاشر الخواقين العثمانيه السلطان ابن السلطان ، السلطان سليمان خان ، ابن السلطان المظفر المنصور ، والخاقان الموقر المشهور ، صاحب المغازى المشهورة فى أقطار الأمصار ، والفتوحات المذكورة فى صحائف الأسفار ، السلطان سليم خان ، ابن السلطان السعيد والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان لازالت سلسلة سلطنته متسلسلة إلى انتهاء سلسلة الزمان وأرواح أسلافه العظام متنزهة فى روضة الرضوان ، وكنت أتردد فى ذلك بين اقدام واحجام لقصور شأنى وعزة المرام ، أين الحضيض من الذرى ، شتان بين الثريا والثرى ، وهيهات اصطياد العنقاء بالشباك ، واقتياد الجوزاء من بروج الأفلاك ، فمضت عليه الدهور والسنون وتغيرت الأطوار وتبدلت الشؤون ، فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة فى قضاء البلاد ، وأخرى فى قضاء العساكر والأجناد فحال بينى وبين ما كنت أخال ، تراكم المهمات وتزاحم الأشغال ، وجموم العوارض والعلائق وهجوم الصوارف والعوائق ، والتردد إلى المغازى والأسفار والتنقل من دار إلى دار وكنت فى تضاعيف هاتيك الأمور أقدر فى نفسى أن أنتهز نهزة من الدهور ويتسنى لى القرار وتطمئن بى الدار ، وأظفر حينئذ بوقت خال أتبتل فيه إلى جناب ذى العظمة والجلال وأوجه اليه وجهتى وأسلم له سرى وعلانيتى ، وأنظر إلى كل شىء بعين الشهود ، وأتعرف سر الحق فى كل موجود ، تلافيا لما قدفات ، واستعدادا لما هو آت ، وأتصدى لتحصيل ما عزمت عليه وأتولى لتكميل ما توجهت اليه ، برفاهة واطمئنان ، وحضور قلب وفراغ جنان ، فبينما أنا فى هذا الخيال إذ بدا لى ما لم يخطر بالبال ، تحولت الأحوال والدهر حول ، فوقعت فى أمر أشق من الأول ، أمرت بحل مشكلات الأنام فيما شجر بينهم من النزاع والخصام فلقيت معضلة طويلة الذيول ، وصرت كالهارب من المطر إلى السيول ، فبلغ السيل الزبى وغمرنى أى غمر غوارب ما جرى بين زيد وعمرو ، فاضحيت فى ضيق المجال ، وسعة الاشغال أشهر ممن يضرب بها الأمثال فجعلت أتمثل بقول من قال :

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة ... وأستمرض الأيام وهى صحائح
إلى أن تغشتنى وقيت حوادث ... تحقق أن السالفات منائح

فلما انصرمت عرى الآمال ، عن الفوز بفراغ البال ، ورأيت أن الفرصة على جناح الفوات ، وشمل الأسباب فى شرف الشتات ، وقد مسنى الكبر ، وتضاءلت القوى والقدر ، ودنا الأجل من الحلول ، وأشرفت شمس الحياة على الأفول ، عزمت على إنشاء ما كنت أنويه ، وتوجهت إلى املاء ما ظلت أبتغيه ، ناويا أن أسميه عند تمامه ، بتوفيق الله تعالى وانعامه (إرشاد العقل السليم ، إلى مزايا الكتاب الكريم) فشرعت فيه مع تفاقم المكاره على ، وتزاحم المشادة بين يدى ، متضرعا إلى رب العظمة والجبروت ، خلاق عالم الملك والملكوت ، فى أن يعصمنى عن الزيغ والزلل ، ويقينى مصارع السوء فى القول والعمل ، ويوفقنى لتحصيل ما أرومه وأرجوه ويهدينى إلى تكميله على أحسن الوجوه ، ويجعله خير عدة وعتاد أتمتع به يوم المعاد ، فيا من توجهت وجوه ، الذل والابتهال نحو بابه المنيع ، ورفعت أيدى الضراعة والسؤال إلى جنابه الرفيع ، أفض علينا شوارق أنوار التوفيق ، وأطلعنا على دقائق أسرار التحقيق ، وثبت أقدامنا على مناهج هداك وأنطقنا بما فيه أمرك ورضاك ، ولا تكلنا إلى أنفسنا فى لحظة ولا آن ، وخذ بناصيتنا إلى الخير حيث كان جئناك على جباه الاستكانة ضارعين ، ولأبواب فيضك قارعين ، أنت الملاذ فى كل أمر مهم ، وأنت المعاذ فى كل خطب ملم ، لا رب غيرك ولا خير إلا خيرك بيدك مقاليد الأمور لك الخلق والأمر وإليك النشور .

سورة فاتحة الكتاب سبع آيات

الفاتحة فى الاصل أول مامن شأنه أن يفتح كالكتاب والثوب أطلقت عليه لكونه واسطة فى فتح الكل ثم أطلقت على أول كل شىء فيه تدريج بوجه من الوجوه كالكلام التدريجى حصولا والسطور والأوراق التدريجية قراءة وعدا والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية أو هى مصدر بمعنى الفتح أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر إشعارا بإصالته كانه نفس الفتح فان تعلقه به بالذات وبالباقى بواسطته لكن لا على معنى أنه واسطة فى تعلقه بالباقى ثانيا حتى يرد أنه لا يتسنى فى الخاتمة لما أن ختم الشىء عبارة عن بلوغ آخره وذلك إنما يتحقق بعد انقطاع الملابسة عن أجزائه الأول بل على معنى أن الفتح المتعلق بالأول فتح له أولا وبالذات وهو بعينه فتح للمجموع بواسطته لكونه جزأ منه وكذا الكلام فى الخاتمة فان بلوغ آخر الشىء يعرض للآخر أولا وبالذات وللكل بواسطته على الوجه الذى تحققته والمراد بالاول مايعم الإضافى فلا حاجة إلى الاعتذار بأن اطلاق الفاتحة على السورة الكريمة بتمامها باعتبار جزئها الاول والمراد بالكتاب هو المجموع الشخصى لا القدر المشترك وبين أجزائه على ماعليه اصطلاح أهل الأصول ولا ضير فى اشتهار السورة الكريمة بهذا الإسم فى أوائل عهد النبوة قبل تحصل المجموع بنزول الكل لما أن التسمية من جهة الله عز اسمه أو من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإذن فيكفى فيها تحصله باعتبار تحققه فى علمه عز وجل أو فى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة إلى السماء الدنيا وأملاه جبريل على السفرة ثم كان ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة كما هو المشهور والإضافة بمعنى اللام كما فى جزء الشىء لا بمعنى من كما فى خاتم فضة لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف اليه لا جزئى له ومدار التسمية كونه مبدأ للكتاب على الترتيب المعهود لا فى القراءة فى الصلاة ولا فى التعليم ولا فى النزول كما قيل أما الأول فبين إذ ليس المراد بالكتاب القدر المشترك الصادق على مايقرأ فى الصلاة حتى تعتبر فى التسمية مبدئيتها له وأما الأخيران فلأن اعتبار المبدئية من حيث التعليم أو من حيث النزول يستدعى مراعاة الترتيب فى بقية أجزاء الكتاب من تينك الحيثيتين ولا ريب فى أن الترتيب التعليمى والترتيب النزولى ليسا على نسق الترتيب المعهود وتسمى أم القرآن لكونها أصلا ومنشأ له إما لمبدئيتها له وإما لاشتمالها على مافيه من الثناء على الله عز وجل والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والأحكام العلمية التى هى سلوك الصراط المستقيم والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الاشقياء والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب وتسمى أم الكتاب أيضا كما يسمى بها اللوح المحفوظ لكونه أصلا لكل الكائنات والآيات الواضحة الدالة على معانيها لكونها بينة تحمل عليها المتشابهات ومناط التسمية ماذكر فى أم القرآن لا ما أورده الإمام البخارى فى صحيحه من أنه يبدأ بقراءتها فى الصلاة فانه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشير اليه وتسمى سورة الكنز لقوله عليه السلام أنها أنزلت من كنز تحت العرش أو لما ذكر فى أم القرآن كما أنه الوجه فى تسميتها الأساس والكافية والوافية وتسمى سورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة لاشتمالها عليها وسورة الصلاة لوجوب قراءتها فيها وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه السلام هى شفاء من كل داء والسبع المثانى لانها سبع آيات تثنى فى الصلاة أو لتكرر نزولها على ماروى أنها نزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة وبالمدينة أخرى حين حولت القبلة وقد صح أنها مكية لقوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهو مكى بالنص .

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

اختلف الامة فى شأن التسمية فى أوائل السور الكريمة فقيل انها ليست من القرآن أصلا وهو قول ابن مسعود رضى

الله عنه ومذهب مالك والمشهور من مذهب قدماء الحنفية وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها وقيل أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وهو الصحيح من مذهب الحنفية وقيل هى آية تامة من كل سورة صدرت بها وهو قول ابن عباس وقد نسب إلى ابن عمر أيضا رضى الله عنهم وعليه يحمل اطلاق عبارة ابن الجوزى فى زاد المسير حيث قال روى عن بن عمر رضى الله عنهما أنها أنزلت مع كل سورة وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبير والزهرى وعطاء وعبدالله بن المبارك وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وهو القول الجديد للشافعى رحمه الله ولذلك يجهر بها عنده فلا عبرة بما نقل عن الجصاص من أن هذا القول من الشافعى لم يسبقه اليه أحد وقيل أنها آية من الفاتحة مع كونها قرآنا فى سائر السور أيضاً من غير تعرض لكونها جزأ منها أولا ولا لكونها آية تامة أولا وهو أحد قولى الشافعى على ماذكره القرطبى ونقل عن الخطابى أنه قول ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم وقيل انها آية تامة فى الفاتحة وبعض فى البواقى وقيل بعض آية فى الفاتحة وآية تامة فى البواقى وقيل انها بعض آية فى الكل وقيل انها آيات من القرآن متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزأ منها وهذا القول غير معزى فى الكتب إلى أحد وهناك قول آخر ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبه إلى أحد وهو أنها آية تامة فى الفاتحة وليست بقرآن فى سائر السور ولولا اعتبار كونها آية تامة لكان ذلك أحد محلى تردد الشافعى فانه قد نقل عنه أنها بعض آية فى الفاتحة وأما فى غيرها فقوله فيها متردد فقيل بين أن يكون قرآنا أولا وقيل بين أن يكون آية تامة أولا قال الإمام الغزالى والصحيح من الشافعى هو التردد الثانى وعن أحمد بن حنبل فى كونها آية كاملة وفى كونها من الفاتحة روايتان ذكرهما ابن الجوزى ونقل أنه مع مالك وغيره ممن يقول انها ليست من القرآن هذا والمشهور من هذه الأقاويل هى الثلاث الأول والاتفاق على إثباتها فى المصاحف مع الاجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله عز وجل يقضى بنفى القول الأول وثبوت القدر المشترك بين الاخيرين من غير دلالة على خصوصية أحدهما فان كونها جزأ من القرآن لا يستدعى كونها جزأ من كل سورة منه كما لا يستدعى كونها آية منفردة منه وأما ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى وماروى عن أبى هريرة من أنه عليه السلام قال فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم وماروى عن أم سلمة من أنه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية وإن دل كل واحد منها على نفى القول الثانى فليس شىء منها نصا فى إثبات القول الثالث أما الأول فلانه لا يدل إلا على كونها آيات من كتاب الله تعالى متعددة بعدد السور المصدرة بها لا على ماهو المطلوب من كونها آية تامة من كل واحدة منها الا أن يلتجأ إلى أن يقال أن كونها آية متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزأ منها قول لم يقل به أحد وأما الثانى فساكت عن التعرض لحالها فى بقية السور وأما الثالث فناطق بخلافه مع مشاركته للثانى فى السكوت المذكور والباء فيها متعلقة بمضمر ينبىء عنه الفعل المصدر بها كما أنها كذلك فى تسمية المسافر عند الحلول والارتحال وتسمية كل فاعل عند مباشرة الافعال ومعناها الاستعانة أو الملابسة تبركا أى باسم الله أقرأ أو أتلو وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص كما فى إياك نعبد وتقدير أبدأ لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية مخل بما هو المقصود أعنى شمول البركة للكل وادعاء أن فيه امتثالا بالحديث الشريف من جهة اللفظ والمعنى معا وفى تقدير أقرأ من جهة المعنى فقط ليس بشىء فان مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لا تقدير فعله إذ لم يقل فى الحديث الكريم كل أمر ذى بال لم يقل فيه أو لم يضمر فيه أبدأ وهذا إلى آخر السورة الكريمة مقول على ألسنة العباد تلقينا لهم وإرشادا إلى كيفية التبرك باسمه تعالى وهداية إلى منهاج الحمد وسؤال الفضل ولذلك سميت السورة الكريمة بما ذكر من تعليم المسألة وإنما كسرت ومن حق

الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر كما كسرت لام الأمر ولام الإضافة داخلة على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء والاسم عند البصريين من الأسماء المحذوفة الاعجاز المبنية الأوائل على السكون قد أدخلت عليها عند الابتداء همزة لأن من دأبهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن ويشهد له تصريفهم على أسماء وسمى وسميت وسمى كهدى لغة فيه قال :

والله أسماك سمى مباركا آثرك الله به إيثاركا

والقلب بعيد غير مطرد واشتقاقه من السمو لأنه رفع للمسمى وتنويه له وعند الكوفيين من السمة وأصله وسم حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل أعلاها ورد عليه بأن الهمزة لم تعهد داخلة على ما حذف صدره فى كلامهم ومن لغاتهم سم وسم قال باسم الذى فى كل سورة سمه وإنما لم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا فانها تكون تارة بذاته تعالى وحقيقتها طلب المعونة على إيقاع الفعل واحداثه أى افاضة القدرة المفسرة عند الأصوليين من أصحابنا بما يتمكن به العبد من أداء ما لزمه المنقسمة إلى ممكنة وميسرة وهى المطلوبة بإياك نستعين وتارة أخرى باسمه عز وعلا وحقيقتها طلب المعونة فى كون الفعل معتدا به شرعا فانه ما لم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعة وجب تعيين المراد بذكر الاسم فالمتبادر من قولنا بالله عند الاطلاق لا سيما عند الوصف بالرحمن الرحيم هى الاستعانة الأولى ان قيل فليحمل الباء على التبرك وليستغن عن ذكر الاسم لما أن التبرك لا يكون إلا به قلنا ذاك فرع كون المراد بالله هو الاسم وهل التشاجر إلا فيه فلابد من ذكر الاسم لينقطع احتمال إرادة المسمى ويتعين حمل الباء على الاستعانة الثانية أو التبرك وإنما لم يكتب الألف لكثرة الإستعمال قالوا وطولت الباء عوضا عنها . والله أصله الإله فحذفت همزته على غير قياس كما ينبىء عنه وجوب الادغام وتعويض الألف واللام عنها حيث لزماه وجردا عن معنى التعريف ولذلك قيل يالله بالقطع فان المحذوف القياسى فى حكم الثابت فلا يحتاج إلى التدارك بما ذكر من الادغام والتعويض وقيل على قياس تخفيف الهمزة فيكون الادغام والتعويض من خواص الاسم الجليل ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال والاله فى الأصل اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل أى مع قطع النظر عن وصف الحقية والبطلان لا مع اعتبار أحدهما لا بعينه ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصعق وأما الله بحذف الهمزة فعلم مختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره أصلا واشتقاقه من الالاهة والألوهة والألوهية بمعنى العبادة حسبما نص عليه الجوهرى على أنه اسم منها بمعنى المألوه كالكتاب بمعنى المكتوب لا على أنه صفة منها بدليل أنه يوصف ولا يوصف به حيث يقال اله واحد ولا يقال شىء اله كما يقال كتاب مرقوم ولا يقال شىء كتاب والفرق بينهما أن الموضوع له فى الصفة هو الذات المبهمة باعتبار اتصافها بمعنى معين وقيامه بها فدلولها مركب من ذات مبهمة لم يلاحظ معها خصوصية أصلا ومن معنى معين قائم بها على أن ملاك الأمر تلك الخصوصية فبأى ذات يقوم ذلك المعنى يصح إطلاق الصفة عليها كما فى الأفعال ولذلك تعمل عملها كاسمى الفاعل والمفعول والموضوع له فى الاسم المذكور هو الذات المعينة والمعنى الخاص فدلوله مركب من ذينك المعنيين من غير رجحان للمعنى على الذات كما فى الصفة ولذلك لم يعمل عملها وقيل اشتقاقه من إله بمعنى تحير لأنه سبحانه يحار فى شأنه العقول والافهام وأما أله كعبد وزنا ومعنى فشتق من الإله المشتق من إله بالكسر وكذا تأله واستأله اشتقاق استنوق واستحجر من الناقة والحجر وقيل من أله إلى فلان أى سكن اليه لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح إلى معرفته وقيل من أله إذا فزع من أمر نزل به وآلهه غيره إذا أجاره إذ العائذ به تعالى يفزع اليه وهو يجيره حقيقة أو فى زعمه وقيل أصله لاه على انه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع أطلق

على الفاعل مبالغة وقيل هو اسم علم للذات الجليل ابتداء وعليه مدار أمر التوحيد فى قولنا لا إله إلا الله ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن اطلاقه على غيره أصلا كاف فى ذلك ولا يقدح فيه كون ذلك الاختصاص بطريق الغلبة بعد أن كان اسم جنس فى الأصل وقيل هو وصف فى الأصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلا صار كالعلم ويرده امتناع الوصف به واعلم أن المراد بالمنكر فى كلمة التوحيد هو المعبود بالحق فمعناها لا فراد من أفراد المعبود بالحق إلا ذلك المعبود بالحق وقيل أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الثانية وإدخال الألف واللام عليه وتفخيم لامه إذا لم ينكسر ماقبله سنة وقيل مطلقا وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ولا ينعقد به صريح اليمين وقد جاء لضرورة الشعر فى قوله :

ألا لا بارك الله فى سهيل   إذا ما الله بارك فى الرجال

والرحمن الرحيم صفتان مبنيتان من رحم بعد جعله لازما بمنزلة الغرائز بنقله إلى رحم بالضم كما هو المشهور وقد قيل أن الرحيم ليس بصفة مشبهة بل هى صيغة مبالغة نص عليه سيبويه فى قولهم هو رحيم فلانا والرحمة فى اللغة رقة القلب والانعطاف ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها والمراد هنا التفضل والإحسان وإرادتهما بطريق اطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه البعيد أو القريب فان أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال دون المبادىء التى هى انفعالات والأول من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى وإنما امتنع صرفه الحاقا له بالأغلب فى بابه من غير نظر إلى الاختصاص العارض فانه كما حظر وجود فعلى حظر وجود فعلانة فاعتباره يوجب اجتماع الصرف وعدمه فلزم الرجوع إلى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص بأن تقاس إلى نظائرها من باب فعل يفعل فاذا كان كلها ممنوعة من الصرف لتحقق وجود فعلى فيها علم أن هذه الكلمة أيضاً فى أصلها مما تحقق فيها وجود فعلى فتمنع من الصرف وفيه من المبالغة ما ليس فى الرحيم ولذلك قيل يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وتقديمه مع كون القياس تأخيره رعاية لأسلوب الترقى إلى الأعلى كما فى قولهم فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض لأنه باختصاصه به عز وجل صار حقيقاً بأن يكون قرينا للإسم الجليل الخاص به تعالى ولأن ما يدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها وافراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة (الْحَمْدُ لِلَّهِ) الحمد هو النعت بالجميل على الجميل اختياريا كان أو مبدأ له على وجه يشعر ذلك بتوجيهه إلى المنعوت وبهذه الحيثية يمتاز عن المدح فانه خال عنها يرشدك إلى ذلك ما ترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول فى قولك حمدته ومدحته فان تعلق الثانى بمفعوله على منهاج تعلق عامة الافعال بمفعولاتها وأما الأول فتعلقه بمفعوله منبىء عن معنى الانهاء كما فى قولك كلمته فانه معرب عما يفيده لام التبليغ فى قولك قلت له ونظيره شكرته وعبدته وخدمته فان تعلق كل منها منبىء عن المعنى المذكور وتحقيقه أن مفعول كل فعل فى الحقيقة هو الحدث الصادر عن فاعله ولا يتصور فى كيفية تعلق الفعل به أى فعل كان اختلاف أصلا وأما المفعول به الذى هو محله وموقعه فلما كان تعلقه به ووقوعه عليه على أنحاء مختلفة حسبما يقتضيه خصوصيات الأفعال بحسب معانيها المختلفة فان بعضها يقتضى أن يلابسه ملابسة تامة مؤثرة فيه كعامة الافعال وبعضها يستدعى أن يلابسه أدنى ملابسة اما بالانهاء اليه كالاعانة مثلا أو بالابتداء منه كالاستعانة مثلا اعتبر فى كل نحو من أنحاء تعلقه به كيفية لائقة بذلك النحو مغايرة لما اعتبر فى النحوين الآخرين فنظم القسم الأول من التعلق فى سلك التعلق بالمفعول الحقيقى مراعاة لقوة الملابسة وجعل كل واحد من القسمين الأخيرين من قبيل التعلق بواسطة الجار المناسب له فان قولك أعنته مشعر بانتهاء الاعانة اليه وقولك استعنته بابتدائها منه وقد يكون لفعل واحد مفعولان يتعلق بأحدهما على الكيفية الاولى وبالآخر على الثانية أو الثالثة كما فى قولك حدثنى الحديث وسألنى المال فان التحديث مع كونه فعلا واحداً قد تعلق بك على الكيفية الثانية وبالحديث على الأولى

وكذا السؤال فانه فعل واحد وقد تعلق بك على الكيفية الثالثة وبالمال على الأولى ولاريب فى أن اختلاف هذه الكيفيات الثلاث وتباينها واختصاص كل من المفاعيل المذكورة بما نسب إليه منها مما لا يتصور فيه تردد ولا نكير وإن كان لا يتضح حق الاتضاح إلا عند الترجمة والتفسير وان مدار ذلك الاختلاف ليس إلا اختلاف الفعل أو اختلاف المفعول وإذ لا اختلاف فى مفعول الحمد والمدح تعين أن اختلافهما فى كيفية التعلق لا اختلافهما فى المعنى قطعا هذا وقد قيل المدح مطلق عن قيد الاختيار يقال مدحت زيدا على حسنه ورشاقة قده وأياما كان فليس بينهما ترادف بل أخوة من جهة الاشتقاق الكبير وتناسب تام فى المعنى كالنصر والتأييد فانهما متناسبان معنى من غير ترادف لما ترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول وإنما مرادف النصر الإعانة ومرادف التأييد التقوية فتدبر ثم ان ماذكر من التفسير هو المشهور من معنى الحمد واللائق بالإرادة فى مقام التعظيم وأما ماذكر فى كتب اللغة من معنى الرضى مطلقا كما فى قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وفى قولهم لهذا الأمر عاقبة حميدة وفى قول الأطباء بحران محمود مما لا يختص بالفاعل فضلا عن الاختيار فبمعزل عن استحقاق الإرادة ههنا استقلالا أو استتباعا بحمل الحمد على مايعم المعنيين إذ ليس فى إثباته له عز وجل فائدة يعتد بها وأما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء وآداب الجوارح وعقد القلب على وصف المنعم بنعت الكمال كما قال من قال: أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا فاذن هو اعم منهما من جهة وأخص من أخرى ونقيضه الكفران ولما كان الحمد من بين شعب الشكر أدخل فى اشاعة النعمة والاعتداد بشأنها وأدل على مكانها لما فى عمل القلب من الخفاء وفى أعمال الجوارح من الاحتمال جعل الحمد رأس الشكر وملاكا لأمره فى قوله عليه السلام الحمد رأس الشكر ماشكر الله عبد لم يحمده وارتفاعه بالابتداء وخبره الظرف وأصله النصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرة التى لا تكاد تستعمل معها نحو شكرا وعجبا كأنه قيل نحمد الله حمدا بنون الحكاية ليوافق ما فى قوله تعالى إياك نعبد وإياك نستعين لاتحاد الفاعل فى الكل وأما ما قيل من أنه بيان لحمدهم له تعالى كأنه قيل كيف تحمدون فقيل إياك نعبد فمع أنه لا حاجة إليه مما لا صحة له فى نفسه فان السؤال المقدر لا بد أن يكون بحيث يقتضيه انتظام الكلام وينساق إليه الاذهان والافهام ولاريب فى أن الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك الكيفية اللائقة لا يخطر ببال أحد أن يسأل عن كيفيته على أن ماقدر من السؤال غير مطابق للجواب فانه مسوق لتعيين المعبود لا لبيان العبادة حتى يتوهم كونه بيانا لكيفية حمدهم والاعتذار بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه يتبين كيفية الحمد تعكيس للامر وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالموهوم المقدر وبعد اللتيا والتى إن فرض السؤال من جهته عز وجل فاتت نكتة الالتفات التى أجمع عليها السلف والخلف وإن فرض من جهة الغير يختل النظام لابتناء الجواب على خطابه تعالى وبهذا يتضح فساد ماقيل أنه استئناف جوابا لسؤال يقتضيه اجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها فكأنه قيل ما شأنكم معه وكيف توجهكم إليه فأجيب بحصر العبادة والاستعانة فيه فان تناسى جانب السائل بالكلية وبناء الجواب على خطابه عز وعلا مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله والحق الذى لا محيد عنه أنه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة اتصافه تعالى بما ذكر من النعوت الجليلة الموجبة للاقبال الكلى عليه من غير أن يتوسط هناك شىء آخر كما ستحيط به خبرا وإيثار الرفع على النصب الذى هو الأصل للايذان بأن ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لاثبات مثبت وان ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب وهو السر فى كون تحية الخليل للملائكة عليهم التحية والسلام أحسن من تحيتهم له فى قوله تعالى قالوا سلاما قال سلام وتعريفه للجنس ومعناه الاشارة إلى الحقيقة من حيث هى حاضرة فى ذهن السامع والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعى لتخصيص جميع افرادها به سبحانه على الطريق البرهانى لكن لا بناء على

أن أفعال العباد مخلوقة له تعالى فتكون الافراد الواقعة بمقابلة ما صدر عنهم من الأفعال الجميلة راجعة إليه تعالى بل بناء على تنزيل تلك الأفراد ودواعيها فى المقام الخطابى منزلة العدم كيفاً وكماً وقد قيل للاستغراق الحاصل بالقصد إلى الحقيقة من حيث تحققها فى ضمن جميع أفرادها حسبما يقتضيه المقام وقرىء الحمد لله بكسر الدال اتباعاً لها وبضم اللام اتباعاً لها بالدال بناء على تنزيل الكلمتين لكثرة استعمالهما مقترنتين منزلة كلمة واحدة مثل المغيرة ومنحدر الجبل (رَبِّ الْعٰلَمِينَ) بالجر على أنه صفة لله فان اضافته حقيقية مفيدة للتعريف على كل حال ضرورة تعين ارادة الاستمرار وقرىء منصوباً على المدح أو بما دل عليه الجملة السابقة كأنه قيل نحمد الله رب العالمين ولا مساغ لنصبه بالحمد لقلة اعمال المصدر المحلى باللام ولزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر والرب فى الأصل مصدر بمعنى التربية وهى تبليغ الشىء إلى كماله شيأ فشيأ وصف به الفاعل مبالغة كالعدل وقيل صفة مشبهة من ربه يربه مثل نمه ينمه بعد جعله لازما بنقله إلى فعل بالضم كما هو المشهور سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كرب الدار ورب الدابة ومنه قوله تعالى فيسقى ربه خمرا وقوله تعالى ارجع إلى ربك وما فى الصحيحين من أنه عليه السلام قال لا يقل أحدكم أطعم ربك وضىء ربك ولا يقل أحدكم ربى وليقل سيدى ومولاى فقد قيل ان النهى فيه للتنزيه وأما الأرباب فحيث لم يكن اطلاقه على الله سبحانه جاز فى اطلاقه الاطلاق والتقييد كما فى قوله تعالى أأرباب متفرقون خير الآية . والعالم اسم لما يعلم به كالخاتم والقالب غلب فيما يعلم به الصانع تعالى من المصنوعات أى فى القدر المشترك بين أجناسها وبين مجموعها فانه كما يطلق على كل جنس جنس منها فى قولهم عالم الأفلاك وعالم العناصر وعالم النبات وعالم الحيوان إلى غير ذلك يطلق على المجموع أيضا كما فى قولنا العالم بجميع أجزائه محدث وقيل هو اسم لأولى العلم من الملائكة والثقلين وتناوله لما سواهم بطريق الاستتباع وقيل أريد به الناس فقط فان كل واحد منهم من حيث اشتماله على نظائر ما فى العالم الكبير من الجواهر والأعراض يعلم بها الصانع كما يعلم بما فيه عالم على حياله ولذلك أمر بالنظر فى الأنفس كالنظر فى الآفاق فقيل وفى أنفسكم أفلا تبصرون والأول هو الأحق الأظهر وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الاجناس والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها إذ لو أفرد لربما توهم أن المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هى أو استغراق أفراد جنس واحد على الوجه الذى أشير اليه فى تعريف الحمد وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نزل العالم وإن لم ينطلق على آحاد مدلوله منزلة الجمع حتى قيل انه جمع لا واحد له من لفظه فكما أن الجمع المعرف يستغرق آحاد مفرده وإن لم يصدق عليها كما فى مثل قوله تعالى والله يحب المحسنين أى كل محسن كذلك العالم يشمل أفراد الجنس المسمى به وإن لم ينطلق عليها كأنها آحاد مفرده التقديرى ومن قضية هذا التنزيل تنزيل جمعه منزلة جمع الجمع فكما أن الاقاويل يتناول كل واحد من آحاد الأقوال يتناول لفظ العالمين كل واحد من آحاد الأجناس التى لا تكاد تحصى روى عن وهب بن منبه أنه قال لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم والدنيا عالم منها وإنما جمع بالواو والنون مع اختصاص ذلك بصفات العقلاء وما فى حكمها من الأعلام لدلالته على معنى العلم مع اعتبار تغليب العقلاء على غيرهم واعلم أن عدم انطلاق اسم العالم على كل واحد من تلك الآحاد ليس إلا باعتبار الغلبة والاصطلاح وأما باعتبار الأصل فلا ريب فى صحة الإطلاق قطعا لتحقق المصداق حتما فانه كما يستدل على الله سبحانه بمجموع ماسواه وبكل جنس من أجناسه يستدل عليه تعالى بكل جزء من أجزاء ذلك المجموع وبكل فرد من أفراد تلك الاجناس لتحقق الحاجة إلى المؤثر الواجب لذاته فى الكل فان كل ما ظهر فى المظاهر مما عز وهان وحضر فى هذه المحاضر كائنا ما كان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح إلى عالم التوحيد وأما شمول ربوبيته عز وجل للكل فما لا حاجة إلى بيانه إذ لا شىء مما أحدق به نطاق الامكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات

والجسمانيات الا وهو فى حد ذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه آنا واحداً لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار الا فى مطمورة العدم ومهاوى البوار لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وصفاته وكمالاته ما لا يحيط به فلك التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير ضرورة أنه كما لا يستحق شىء من الممكنات بذاته الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدأ الأول عز وعلا فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلى لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء لما أن الدوام من خصائص الوجود الواجبى وظاهر أن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التى هى علله وشرائطه وان كانت متناهية لوجوب تناهى ما دخل تحت الوجود لكن الأمور العدمية التى لها دخل فى وجوده وهى المعبر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك إذ لا استحالة فى أن يكون لشىء واحد موانع غير متناهية يتوقف وجوده أو بقاؤه على ارتفاعها أى بقائها على العدم مع امكان وجودها فى نفسها فابقاء تلك الموانع التى لا تتناهى على العدم تربية لذلك الشىء من وجوه غير متناهية وبالجملة فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات فى كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه سبحانه ما أعظم سلطانه لا تلاحظه العيون بأنظارها ولا تطالعه العقول بأفكارها شأنه لا يضاهى وإحسانه لا يتناهى ونحن فى معرفته حائرون وفى إقامة مراسم شكره قاصرون نسألك اللهم الهداية إلى مناهج معرفتك والتوفيق لأداء حقوق نعمتك لا نحصى ثناء عليك لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك (الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) صفتان لله فان أريد بما فيهما من الرحمة ما يختص بالعقلاء من العالمين أو ما يفيض على الكل بعد الخروج إلى طور الوجود من النعم فوجه تأخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر وإن أريد ما يعم الكل فى الأطوار كلها حسبما فى قوله تعالى ورحمتى وسعت كل شىء فوجه الترتيب أن التربية لا تقتضى المقارنة للرحمة فايرادهما فى عقبها للإيذان بأنه تعالى متفضل فيها فاعل بقضية رحمته السابقة من غير وجوب عليه وبأنها واقعة على أحسن ما يكون والاقتصار على نعته تعالى بهما فى التسمية لما أنه الانسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل والأوفق لمقاصده (مٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) صفة رابعة له تعالى وتأخيرها عن الصفات الاول بما لا حاجة إلى بيان وجهه وقرأ أهل الحرمين المحترمين ملك من الملك الذى هو عبارة عن السلطان القاهر والاستيلاء الباهر والغلبة التامة والقدرة على التصرف الكلى فى أمور العامة بالامر والنهى وهو الانسب بمقام الاضافة إلى يوم الدين كما فى قوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرىء ملك بالتخفيف وملك بلفظ الماضى ومالك بالنصب على المدح أو الحال وبالرفع منونا ومضافا على أنه خبر مبتدأ محذوف وملك مضافا بالرفع والنصب واليوم فى العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان وفى الشرع عما بين طلوع الفجر الثانى وغروب الشمس والمراد ههنا مطلق الوقت والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ومنه الثانى فى المثل السائر كما تدين تدان والاول فى بيت الحماسة

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وأما الاول فى الاول والثانى فى الثانى فليس بجزاء حقيقة وإنما سمى به مشاكلة أو تسمية للشىء باسم مسببه كما سميت إرادة القيام والقراءة باسمهما فى قوله عز اسمه إذا قمتم إلى الصلاة وقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولعله هو السر فى بناء المفاعلة من الافعال التى تقوم أسبابها بمفعولاتها نحو عاقبت اللص ونظائره فان قيام السرقة التى هى سبب للعقوبة باللص نزل منزلة قيام المسبب به وهى العقوبة فصار كأنها قامت بالجانبين وصدرت عنهما فبنيت صيغة المفاعلة الدالة على المشاركة بين الاثنين وإضافة اليوم اليه لادنى ملابسة كاضافة سائر الظروف الزمانية إلى ما وقع من الحوادث كيوم الاحزاب وعام الفتح وتخصيصه من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والجمع والحساب لكونه

أدخل فى الترغيب والترهيب فان ماذكر من القيامة وغيرها من مبادىء الجزاء ومقدماته وإضافة مالك إلى اليوم إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على نهج الاتساع المبنى على إجرائه مجرى المفعول به مع بقاء المعنى على حاله كقولهم ياسارق الليلة أهل الدار أى مالك أمور العالمين كلها فى يوم الدين وخلو اضافته عن إفادة التعريف المسوغ لوقوعه صفة المعرفة إنما هو إذا أريد به الحال أو الاستقبال وأما عند إرادة الاستمرار الثبوتى كما هو اللائق بالمقام فلا ريب فى كونها إضافة حقيقية كاضافة الصفة المشبهة إلى غير معمولها فى قراءة ملك يوم الدين ويوم الدين وإن لم يكن مستمرا فى جميع الأزمنة إلا أنه لتحقق وقوعه وبقائه أبدا أجرى مجرى المتحقق المستمر ويجوز أن يراد به الماضى بهذا الاعتبار كما يشهد به القراءة على صيغة الماضى وماذكر من اجراء الظرف مجرى المفعول به إنما هو من حيث المعنى لامن حيث الاعراب حتى يلزم كون الإضافة لفظية ألا يرى أنك تقول فى مالك عبده أمس أنه مضاف إلى المفعول به على معنى أنه كذلك معنى لا أنه منصوب محلا وتخصيصه بالإضافة إما لتعظيمه وتهويله أو لبيان تفرده تعالى باجراء الأمر فيه وانقطاع العلائق المجازية بين الملاك والاملاك حينئذ بالكلية واجراء هاتيك الصفات الجليلة عليه سبحانه تعليل لما سبق من اختصاص الحمد به تعالى المستلزم لاختصاص استحقاقه به تعالى وتمهيد لما لحق من اقتصار العبادة والاستعانة عليه فان كل واحدة منها مفصحة عن وجوب ثبوت كل واحد منها له تعالى وامتناع ثبوتها لما سواه أما الأولى والرابعة فظاهر لأنهما متعرضتان صراحة لكونه تعالى ربا مالكا وماسواه مربوبا مملوكا له تعالى وأما الثانية والثالثة فلأن اتصافه تعالى بهما ليس إلا بالنسبة إلى ماسواه من العالمين وذلك يستدعى أن يكون الكل منعما عليهم فظهر أن كل واحدة من تلك الصفات كما دلت على وجوب ثبوت الأمور المذكورة له تعالى دلت على امتناع ثبوتها لما عداه على الاطلاق وهو المعنى بالاختصاص (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) التفات من الغيبة إلى الخطاب وتلوين للنظم من باب إلى باب جار على نهج البلاغة فى افتنان الكلام ومسلك البراعة حسبما يقتضى المقام لما أن التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل فى استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة إلى كل واحد من الآخرين كما فى قوله عزوجل الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا الآية وقوله تعالى حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم إلى غير ذلك من الالتفاتات الواردة فى التنزيل لاسرار تقتضيها ومزايا تستدعيها ومما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى لما أجرى عليه من النعوت الجليلة التى أوجبت له تعالى أكمل تميز وأتم ظهور بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور فاستدعى استعمال صيغة الخطاب والايذان بان حق التالى بعد ما تأمل فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الأقدس المستوجب للمعبودية وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميزة له عن جميع أفراد العالمين وافتقار الكل اليه فى الذات والوجود ابتداء وبقاء على التفصيل الذى مرت اليه الاشارة أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان وينتقل من عالم الغيبة إلى معالم الشهود ويلاحظ نفسه فى حظائر القدس حاضرا فى محاضر الانس كأنه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه وهو يدعو بالخضوع والاخبات ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا يامن هذه شؤن ذاته وصفاته نخصك بالعبادة والاستعانة فان كل ماسواك كائنا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود فضلا عن استحقاق أن يعبد أو يستعان ولعل هذا هو السر فى اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة فى كل ركعة من الصلاة التى هى مناجاة العبد لمولاه ومئنة للتبتل اليه بالكلية وإيا ضمير منفصل منصوب وما يلحقه من الكاف والياء والهاء حروف زيدت لتعيين الخطاب والتكلم والغيبة لامحل لها من الإعراب كالتاء فى أنت والكاف فى أرأيتك وماادعاه الخليل من الإضافة محتجا عليه بما حكاه عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب فمما لايعول

عليه وقيل هى الضمائر وايا دعامة لها لتصيرها منفصلة وقيل الضمير هو المجموع وقرىء إياك بالتخفيف وبفتح الهمزة والتشديد وهياك بقلب الهمزة هاء والعبادة أقصى غاية التذلل والخضوع ومنه طريق معبد أى مذلل والعبودية أدنى منها وقيل العبادة فعل مايرضى به الله والعبودية الرضى بما فعل الله تعالى والاستعانة طلب المعونة على الوجه الذى مر بيانه وتقديم المفعول فيهما لما ذكر من القصر والتخصيص كما فى قوله تعالى واياى فارهبون مع مافيه من التعظيم والاهتمام به قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ولابراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب وتقديم العبادة لما أنها من مقتضيات مدلول الإسم الجليل وإن ساعده الصفات المجراة عليه أيضا واما الاستعانة فمن الأحكام المبنية على الصفات المذكورة ولأن العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المستعين ولأن العبادة واجبة حتما والاستعانة تابعة للمستعان فيه فى الوجوب وعدمه وقيل لأن تقديم الوسيلة على المسؤل ، أدعى إلى الإجابة والقبول ، هذا على تقدير كون إطلاق الاستعانة على المفعول فيه ليتناول كل مستعان فيه كما قالوا وقد قيل أنه لما أن المسؤل هو المعونة فى العبادة والتوفيق لإقامة مراسمهما على ماينبغى وهو اللائق بشأن التنزيل والمناسب لحال الحامد فان استعانته مسبوقة بملاحظة فعل من أفعاله ليستعينه تعالى فى إيقاعه ومن البين أنه عند استغراقه فى ملاحظة شؤنه تعالى واشتغاله بأداء مايوجبه تلك الملاحظة من الحمد والثناء لا يكاد يخطر بباله من أفعاله وأحواله إلا الإقبال الكلى عليه والتوجه التام اليه ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أولا وباستدعاء الهداية إلى مايوصل إليه آخرا فكيف يتصور أن يشتغل فيما بينهما بما لا يعنيه من أمور دنياه أو بما يعمها وغيرها كأنه قيل وإياك نستعين فى ذلك فانا غير قادرين على أداء حقوقه من غير إعانة منك فوجه الترتيب حينئذ واضح وفيه من الاشعار بعلو رتبة عبادته تعالى وعزة منالها وبكونها عند العابد أشرف المباغى والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لا من أعمال نفسه ومن الملائمة لما يعقبه من الدعاء مالا يخفى وقيل الواو للحال أى إياك نعبد مستعينين بك وإيثار صيغة المتكلم مع الغير فى الفعلين للايذان بقصور نفسه وعدم لياقته بالوقوف فى مواقف الكبرياء منفردا وعرض العبادة واستدعاء المعونة والهداية مستقلا وان ذلك إنما يتصور من عصابة هو من جملتهم وجماعة هو من زمرتهم كما هو ديدن الملوك أو للاشعار باشتراك سائر الموحدين له فى الحال العارضة له بناء على تعاضد الأدلة الملجئة إلى ذلك وقرىء نستعين بكسر النون على لغة بنى تميم (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) افراد لمعظم افراد المعونة المسؤلة بالذكر وتعيين لما هو الاهم أو بيان لها كأنه قيل كيف أعينكم فقيل اهدنا والهداية دلالة بلطف على مايوصل إلى البغية ولذلك اختصت بالخير وقوله تعالى فاهدوهم إلى صراط الجحيم وارد على نهج التهكم والأصل تعديته بالى واللام كما فى قوله تعالى قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى واختار موسى قومه وعليه قوله تعالى لنهدينهم سبلنا وهداية الله تعالى مع تنوعها إلى أنواع لا تكاد تحصر منحصرة فى أجناس مترتبة منها أنفسية كافاضة القوى الطبيعية والحيوانية التى بها يصدر عن المرء افاعيله الطبيعية والحيوانية والقوى المدركة والمشاعر الظاهرة والباطنة التى بها يتمكن من إقامة مصالحه المعاشية والمعادية ومنها آفاقية فاما تكوينية معربة عن الحق بلسان الحال وهى نصب الأدلة المودعة فى كل فرد من أفراد العالم حسبما لوح به فيما سلف واما تنزيلية مفصحة عن تفاصيل الأحكام النظرية والعملية بلسان المقال بإرسال الرسل وإنزال الكتب المنطوية على فنون الهدايات التى من جملتها الإرشاد إلى مسلك الاستدلال بتلك الأدلة التكوينية الآفاقية والانفسية والتنبيه على مكانها كما أشير إليه مجملا فى قوله تعالى وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفى قوله عز وعلا إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ومنها الهداية الخاصة

وهى كشف الاسرار على قلب المهدى بالوحى أو الالهام ولكل مرتبة من هذه المراتب صاحب ينتحيها وطالب يستدعيها والمطلوب اما زيادتها كما فى قوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وأما الثبات عليها كما روى عن على وأبى رضى الله عنهما اهدنا ثبتنا ولفظ الهداية على الوجه الأخير مجاز قطعاً وأما على الأول فان اعتبر مفهوم الزيادة داخلا فى المعنى المستعمل فيه كان مجازاً أيضاً وإن اعتبر خارجاً عنه مدلولا عليه بالقرائن كان حقيقة لأن الهداية الزائدة هداية كما أن العبادة الزائدة عبادة فلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز وقرىء أرشدنا والصراط الجادة أصله السين قلبت صاداً لمكان الطاء كمصيطر فى مسيطر من سرط الشىء إذا ابتلعه سميت به لانها تسترط السابلة إذا سلكوها كما سميت لقماً لانها تلتقمهم وقد تشم الصاد صوت الزاء تحريا للقرب من المبدل منه وقد قرىء بهن جميعا وفصحاهن إخلاص الصاد وهى لغة قريش وهى الثابتة فى الإمام وجمعه صرط ككتاب وكتب وهو كالطريق والسبيل فى التذكير والتأنيث والمستقيم المستوى والمراد به طريق الحق وهى الملة الحنيفية السمحة المتوسطة بين الإفراط والتفريط (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) بدل من الاول بدل الكل وهو فى حكم تكرير العامل من حيث أنه المقصود بالنسبة وفائدته التأكيد والتنصيص على أن طريق الذين أنعم الله عليهم وهم المسلمون هو العلم فى الاستقامة والمشهود له بالإستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم الا إليه وإطلاق الانعام لقصد الشمول فإن نعمة الإسلام عنوان النعم كلها فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها وقيل المراد بهم الأنبياء عليهم السلام ولعل الاظهر أنهم المذكورون فى قوله عز قائلا فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بشهادة ماقبله من قوله تعالى ولهديناهم صراطا مستقيما وقيل هم أصحاب موسى وعيسى عليهما السلام قبل النسخ والتحريف وقرىء صراط من أنعمت عليهم والإنعام إيصال النعمة وهى فى الأصل الحالة التى يستلذها الإنسان من النعمة وهى اللين ثم أطلقت على ما يستلذه النفس من طيبات الدنيا. ونعم الله تعالى مع استحالة إحصائها ينحصر أصولها فى دنيوى وأخروى. والأول قسمان وهبى وكسبى والوهبى أيضا قسمان روحانى كنفخ الروح فيه وامداده بالعقل وما يتبعه من القوى المدركة فانها مع كونها من قبيل الهدايات نعم جليلة فى أنفسها وجسمانى كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الأعضاء والكسبى تخلية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والملكات البهية وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المرضية وحصول الجاه والمال. والثانى مغفرة ما فرط منه والرضى عنه وتبوئته فى أعلى عليين مع المقربين والمطلوب هو القسم الأخير وما هو ذريعة إلى نيله من القسم الأول اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم ورحمتك الواسعة (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) صفة للموصول على أنه عبارة عن إحدى الطوائف المذكورة المشهورة بالانعام عليهم وباستقامة المسلك ومن ضرورة هذه الشهرة شهرتهم بالمغايرة لما أضيف اليه كلمة غير من المتصفين بضدى الوصفين المذكورين أعنى مطلق المغضوب عليهم والضالين فاكتسبت بذلك تعرفا مصححا لوقوعها صفة للمعرفة كما فى قولك عليك بالحركة غير السكون وصفوا بذلك تكملة لما قبله وإيذانا بأن السلامة مما ابتلى به أولئك نعمة جليلة فى نفسها أى الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التى هى نعمة الايمان ونعمة السلامة من الغضب والضلال وقيل المراد بالموصول طائفة من المؤمنين لا بأعيانهم فيكون بمعنى النكرة كذى اللام إذا أريد به الجنس فى ضمن بعض الأفراد لا بعينه وهو المسمى بالمعهود الذهنى وبالمغضوب عليهم والضالين اليهود والنصارى كما ورد فى مسند أحمد والترمذى فيبقى لفظ غير على ابهامه نكرة مثل موصوفة وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف اليه مما قبله فان مدارها كون صراط المؤمنين علما فى الاستقامة مشهوداً له بالاستواء على الوجه الذى تحققته فيما سلف ومن البين أن ذلك من حيث اضافته وانتسابه إلى كلهم لا إلى بعض مبهم منهم وبهذا تبين أن لا سبيل الى

جمل غير المغضوب عليهم بدلا من الموصول لما عرفت من أن شأن البدل أن يفيد متبوعه مزيد تأكيد وتقرير وفضل إيضاح وتفسير ولا ريب فى أن قصارى أمر مانحن فيه أن يكتسب مما أضيف اليه نوع تعرف مصحح لوقوعه صفة للموصول وأما استحقاق أن يكون مقصودا بالنسبة مفيدا لما ذكر من الفوائد فكلا وقرىء بالنصب على الحال والعامل أنعمت أو على المدح أو على الاستثناء ان فسر النعمة بما يعم القبيلين والغضب هيجان النفس لإرادة الانتقام وعند اسناده إلى الله سبحانه يراد به غايته بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة الينا على مسببه القريب إن أريد به إرادة الإنتقام وعلى مسببه البعيد إن أريد به نفس الانتقام ويجوز حمل الكلام على التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وارادة الانتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من حال الملك اذا غضب على الذين عصوه وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم وعليهم مرتفع بالمغضوب قائم مقام فاعله والعدول عن إسناد الغضب اليه تعالى كالأنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية فى نسبة النعم والخيرات اليه عز وجل دون أضدادها كما فى قوله تعالى الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين وقوله تعالى وانا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ولا مزيدة لتأكيد ما أفاده غير من معنى النفى كأنه قيل لا المغضوب عليهم ولا الضالين ولذلك جاز أنا زيدا غير ضارب جواز أنا زيدا لا ضارب وإن امتنع أنا زيدا مثل ضارب والضلال هو العدول عن الصراط السوى وقرىء وغير الضالين وقرىء ولا الضألين بالهمزة على لغة من جد فى الهرب عن التقاء الساكنين (آمينَ) اسم فعل هو استجب وعن ابن عباس رضى الله عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين فقال افعل بنى على الفتح كأين لالتقاء الساكنين وفيه لغتان مد ألفه وقصرها قال ويرحم الله عبدا قال آمينا وقال أمين فزاد الله مابيننا بعدا عن النبى صلى الله عليه وسلم لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب وقال انه كالختم على الكتاب وليست من القرآن وفاقا ولكن يسن ختم السورة الكريمة بها والمشهور عن أبى حنيفة رحمه الله أن المصلى يأتى بها مخافتة وعنه أنه لا يأتى بها الإمام لأنه الداعى وعن الحسن رحمه الله مثله وروى الإخفاء عبد الله بن مغفل وأنس بن مالك عن النبى عليه الصلاة والسلام وعند الشافعى رحمه الله يجهر بها لما روى وائل بن حجر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بن كعب ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والإنجيل والقرآن مثلها قلت بلى يارسول الله قال فاتحة الكتاب إنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته. وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا فيقرأ صبى من صبيانهم فى الكتاب الحمد لله رب العالمين فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة .

سورة البقرة مدنية وهى مائتان وسبع وثمانون آية

(بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ)

(الم) الألفاظ التى يعبر بها عن حروف المعجم التى من جملتها المقطعات المرقومة فى فواتح السور الكريمة أسماء لها لاندراجها تحت حد الاسم ويشهد به مايعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الإسم وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية وما وقع فى عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة وأما ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه من أنه عليه السلام قال من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف وفى رواية الترمذى والدارمى لا أقول الم حرف ذلك الكتاب حرف

ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف والذال حرف والكاف حرف فلا تعلق له بما نحن فيه قطعا فإن إطلاق الحرف على مايقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة وإنما الحرف عند الأوائل مايتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة وربما يطلق على الكلمة أيضاً تجوزاً فأريد بالحديث الشريف دفع توهم التجوز وزيادة تعيين إرادة المعنى الحقيق ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية بل بعدد حروفها المكتوبة فى المصاحف كما يلوح به ذكر كتاب الله دون كلام الله أو القرآن وليس هذا من تسمية الشيء باسم مدلوله فى شيء كما قيل كيف لا والمحكوم عليه بالحرفية واستتباع الحسنة إنما هى المسميات البسيطة الواقعة فى كتاب الله عز وجل سواء عبر عنها بأسمائها أو بأنفسها كما فى قولك السين مهملة والشين معجمة مثلثة وغير ذلك مما لا يصدق المحمول إلا على ذات الموضوع لا أسماؤها المؤلفة كما إذا قلت الألف مؤلف من ثلاثة أحرف فكما أن الحسنات فى قراءة قوله تعالى ذلك الكتاب بمقابلة حروفه البسيطة وموافقة لعددها كذلك فى قراءة قوله تعالى الم بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافقة لعددها لا بمقابلة أسمائها الملفوظة والألفات الموافقة فى العدد إذ الحكم بأن كلا منها حرف واحد مستلزم للحكم بأنه مستتبع لحسنة واحدة فالعبرة فى ذلك بالمعبر عنه دون المعبر به ولعل السر فيه أن استتباع الحسنة منوط بإفادة المعنى المراد بالكلمات القرآنية فكما أن سائر الكلمات الشريفة لا تفيد معانيها إلا بتلفظ حروفها بأنفسها كذلك الفواتح المكتوبة لا تفيد المعانى المقصودة بها إلا بالتعبير عنها بأسمائها فجعل ذلك تلفظا بالمسميات كالقسم الأول من غير فرق بينهما ألا يرى إلى ما فى الرواية الأخيرة من قوله عليه السلام والذال حرف والكاف حرف كيف عبر عن طرفى ذلك باسميهما مع كونهما ملفوظين بأنفسهما ولقد روعيت فى هذه التسمية نكتة رائعة حيث جعل كل مسمى لكونه من قبيل الألفاظ صدر الاسمه ليكون هو المفهوم منه أثر ذى أثير خلا ان الألف حيث تعذر الابتداء بها استعيرت مكانها الهمزة وهى معربة إذ لا مناسبة بينها وبين مبنى الاصل لكنها مالم تلها العوامل ساكنة الإعجاز عن الوقف كأسماء الاعداد وغيرها حين خلت عن العوامل ولذلك قيل صاد وقاف مجموعا فيهما بين الساكنين ولم يعامل معاملة أين وكيف وهؤلاء وإن وليها عامل مسها الإعراب وقصر ما آخره ألف عند التهجى لابتغاء الخفة لا لأن وزانه وزان لا تقصر تارة فتكون حرفا وتمد أخرى فيكون اسما لها كما فى قول حسان رضى الله عنه :

ما قال لا قط إلا فى تشهده لولا التشهد لم تسمع له لاء

هذا وقد تكلموا فى شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريد بها فقيل إنها من العلوم المستوردة والأسرار المحجوبة روى عن الصديق رضى الله عنه أنه قال فى كل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور وعن على رضى الله عنه إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عجزت العلماء عن إدراكها وسئل الشعبى عنها فقال سر الله عز وجل فلا تطلبوه وقيل إنها أسماء الله تعالى وقيل كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته تعالى وقيل إنها صفات الأفعال الألف آلاؤه واللام لطفه والميم مجده وملكه قاله محمد بن كعب القرظى وقيل إنها من قبيل الحساب وقيل الألف من الله تعالى واللام من جبريل والميم من محمد أى أنزل الله الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام وقيل هى اقسام من الله تعالى بهذه الحروف المعجمة لشرفها من حيث أنها أصول اللغات ومبادىء كتبه المنزلة ومبانى أسمائه الكريمة وقيل إشارة إلى انتهاء كلام وابتداء كلام آخر وقيل وقيل ولكن الذى عليه التعويل اما كونها أسماء للسور المصدرة بها وعليه إجماع الأكثر وإليه ذهب الخليل وسيبويه قالوا سميت بها إيذانا بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ فيكون فيه إيماء إلى الإعجاز والتحدى على سبيل الإيقاظ فلولا أنه وحى من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته ويقرب منه ما قاله الكلبى والسدى وقتادة من أنها أسماء للقرآن

والتسمية بثلاثة أسماء فصاعداً إنما تستنكر فى لغة العرب إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً كما فى حضرموت فاما إذا كانت منثورة فلا استنكار فيها والمسمى هو المجموع لا الفاتحة فقط حتى يلزم اتحاد الاسم والمسمى غاية الأمر دخول الاسم فى المسمى ولا محذور فيه كما لا محذور فى عكسه حسبما تحققته آنفا وإنما كتبت فى المصاحف صور المسميات دون صور الأسماء لأنه أدل على كيفية التلفظ بها وهى أن يكون على نهج التهجى دون التركيب ولأن فيه سلامة من التطويل لاسيما فى الفواتح الخماسية على أن خط المصحف مما لا يناقش فيه بمخالفة القياس وأما كونها مسرودة على نمط التعديد واليه جنح أهل التحقيق قالوا إنما وردت هكذا ليكون إيقاظا بمن تحدى بالقرآن وتنبيها لهم على أنه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم فلولا أنه خارج عن طوق البشر نازل من عند خلاق القوى والقدر لما تضاءلت قوتهم ولا تساقطت قدرتهم وهم فرسان حلبة الحوار وأمراء الكلام فى نادى الفخار دون الاتيان بما يدانيه فضلا عن المعارضة بما يساويه مع تظاهرهم فى المضادة والمضاره وتهالكهم على المعازة والمعاره أو ليكون مطلع ما يتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابه أنموذجا لما فى الباقى من فنون الإعجاز فان النطق بأنفس الحروف فى تضاعيف الكلام وإن كان على طرف الثمام يتناوله الخواص والعوام من الأعراب والأعجام لكن التلفظ بأسمائها إنما يتأتى ممن درس وخط وأما ممن لم يحم حول ذلك قط فأعز من بيض الأنوق وأبعد من مناط العيوق لاسيما إذا كان على نمط عجيب وأسلوب غريب منبىء عن سر سرى مبنى على نهج عبقرى بحيث يحار فى فهمه أرباب العقول ويعجز عن إدراكه ألباب الفحول كيف لا وقد وردت تلك الفواتح فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم مشتملة على نصفها تقريباً بحيث ينطوى على انصاف أصنافها تحقيقا أو تقريباً كما يتضح عند الفحص والتنقير حسبما فصله بعض أفاضل أئمة التفسير فسبحان من دقت حكمته من أن يطالعها الأنظار وجلت قدرته عن أن ينالها أيدى الأفكار وإيراد بعضها فرادى وبعضها ثنائية إلى الخماسية جرى على عادة الافتنان مع مراعاة أبنية الكلم وتفريقها على السور دون إيراد كلها مرة لذلك ولما فى التكرير والإعادة من زيادة إفادة وتخصيص كل منها بسورتها مما لا سبيل إلى المطالبة بوجهه وعد بعضها آية دون بعض مبنى على التوقيف البحت أما الم فآية حيثما وقعت وقيل فى آل عمران ليست بآية والمص آية والمر لم تعد آية والر ليست بآية فى شىء من سورها الخمس وطسم آية فى سورتيها وطه ويس آيتان وطس ليست بآية وحم آية فى سورها كلها وكهيعص آية وحم عسق آيتان وص وق ون لم تعد واحدة منها آية هذا على رأى الكوفيين وقد قيل أن جميع الفواتح آيات عندهم فى السور كلها بلا فرق بينها وأما من عداهم فلم يعدوا شيئا منها آية ثم إنها على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد لا تشم رائحة الإعراب ويوقف عليها وقف التمام وعلى تقدير كونها أسماء للسور أو للقرآن كان لها حظ منه اما الرفع على الإبتداء أو على الخبرية واما النصب بفعل مضمر كاذكر أو بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن وأما الجر بتقدير حرفه حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه النظام ولا وقف فيما عدا الرفع على الخبرية والتلفظ بالكل على وجه الحكاية ساكنة الإعجاز إلا أن ما كانت منها مفردة مثل ص وق ون يتأتى فيها الإعراب اللفظى أيضاً وقد قرئت بالنصب على إضمار فعل أى اذكر أو اقرأ صاد وقاف ونون وإنما لم تنون لامتناع الصرف وكذا ما كانت منها موازنة لمفرد نحو حم ويس وطس الموازنة لقابيل وهابيل حيث أجاز سيبويه فيها مثل ذلك قال فى باب أسماء السور من كتابه وقد قرأ بعضهم ياسين والقرآن وقاف والقرآن فكأنه جعله اسما أعجميا ثم قال اذكر ياسين انتهى وحكى السيرافى أيضاً عن بعضهم قراءة ياسين ويجوز أن يكون ذلك فى الكل تحريكا لالتقاء الساكنين ولا مساغ للنصب باضمار فعل القسم لأن ما بعدها من القرآن والقلم محلوف بهما وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على

مقسم عليه واحد قبل انقضاء الأول وهو السر فى جعل ماعدا الواو الأولى فى قوله تعالى والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وماخلق الذكر والأنثى عاطفة ولا مجال للعطف ههنا للمخالفة بين الأول والثانى فى الإعراب نعم يجوز ذلك بجعل الأول مجرورا بإضمار الباء القسمية مفتوحا لكونه غير منصرف وقرى ءص وق بالكسر على التحريك لالتقاء الساكنين ويجوز فى طاسين ميم أن تفتح نونها وتجعل من قبيل دارا بجرد ذكره سيبويه فى كتابه وأما ماعدا ذلك من الفواتح فليس فيها إلا الحكاية وسيجىء تفاصيل سائر أحكام كل منها مشروحة فى مواقعها بإذن الله عز سلطانه أما هذه الفاتحة الشريفة فان جعلت اسما للسورة أو للقرآن فمحلها الرفع اما على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا الم أى مسمى به وإنما صحت الإشارة إلى القرآن بعضا أو كلا مع عدم سبق ذكره لأنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا مااشترى فلان واما على أنه مبتدأ أى المسمى به والأول هو الأظهر لأن مايجعل عنوان الموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه عند المخاطب وإذ لا علم بالتسمية قبل ختمها الاخبار بها وادعاء شهرتها يأباه التردد فى أن المسمى هى السورة أو كل القرآن (ذَٰلِكَ) ذا اسم إشارة واللام عماد جىء به للدلالة على بعد المشار اليه والكاف للخطاب والمشار اليه هو المسمى فانه منزل منزلة المشاهد بالحس البصرى ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للإيذان بعلو شأنه وكونه فى الغاية القاصية من الفضل والشرف اثر تنويهه بذكر اسمه وماقيل من أنه باعتبار التقصى أو باعتبار الوصول من المرسل إلى المرسل اليه فى حكم المتباعد وإن كان مصححا لإيراده لكنه بمعزل من ترجيحه على إيراد ماوضع للإشارة إلى القريب وتذكيره على تقدير كون المسمى هى السورة لأن المشار اليه هو المسمى بالإسم المذكور من حيث هو مسمى به لا من حيث هو مسمى بالسورة ولئن ادعى اعتبار الحيثية الثانية فى الأولى بناء على أن التسمية لتمييز السور بعضها من بعض فذلك لتذكير مابعده وهو على الوجه الأول مبتدأ على حدة وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان وقوله عز وعلا (الْكِتَٰبُ) إما خبر له أو صفة أما إذا كان خبرا له فالجملة على الوجه الأول مستأنفة مؤكدة لما أفاده الجملة الأولى من نباهة شأن المسمى لا محل لها من الإعراب على الوجه الثانى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ الأول واسم الإشارة مغن عن الضمير الرابط والكتاب اما مصدر سمى به المفعول مبالغة كالخلق والتصوير للمخلوق والمصور واما فعال بنى للمفعول كاللباس من الكتب الذى هو ضم الحروف بعضها إلى بعض وأصله الجمع والضم فى الأمور البادية للحس البصرى ومنه الكتيبة للعسكر كما أن أصل القراءة الجمع والضم فى الأشياء الخافية عليه واطلاق الكتاب على المنظوم عبارة لما أن مآله الكتابة والمراد به على تقدير كون المسمى هى السورة جميع القرآن الكريم وان لم يتم نزوله عند نزول السورة اما باعتبار تحققه فى علم الله عز وجل أو باعتبار ثبوته فى اللوح أو باعتبار نزوله جملة إلى السماء الدنيا حسبما ذكر فى فاتحة الكتاب واللام للعهد والمعنى أن هذه السورة هو الكتاب أى العمدة القصوى منه كأنه فى احراز الفضل كل الكتاب المعهود الغنى عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما بين الكتب على طريقة قوله عليه السلام الحج عرفة وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن فالمراد بالكتاب الجنس واللام للحقيقة والمعنى أن ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب لغاية تفوقه على بقية الافراد فى حيازة كمالات الجنس كأن ماعداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة اليه كما يقال هو الرجل أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال من مراضى الخصال وعليه قول من قال هم القوم كل القوم ياأم خالد فالمدح كما ترى من جهة حصر كمال الجنس فى فرد من أفراده وفى الصورة الأولى من جهة حصر كمال الكل فى الجزء ولا مساغ ههنا لحمل الكتاب على الجنس لما أن فرده المعهود هو مجموع القرآن المقابل لسائر أفراده من الكتب السماوية لا بعضه الذى ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزءا لهذا الفرد لا باعتبار كونه جزئيا للجنس على حياله ولأن

حصر الكمال فى السورة مشعر بنقصان سائر السور وإن لم يكن الحصر بالنسبة اليها لتحقق المغايرة بينهما هذا على تقدير
كون الكتاب خبرا لذلك وأما إذا كان صفة له فذلك الكتاب على تقدير كون الم خبر مبتدا محذوف اما خبر ثان أو بدل
من الخبر الأول أو مبتدأ مستقل خبره ما بعده وعلى تقدير كونه مبتدأ اما خبر له أو مبتدأ ثان خبره ما بعده والجملة خبر
للمبتدأ الأول والمشار اليه على كلا التقديرين هو المسمى سواء كان هى السورة أو القرآن ومعنى البعد ماذكر من الاشعار
بعلو شأنه والمعنى ذلك الكتاب العجيب الشأن البالغ أقصى مراتب الكمال وقيل المشار اليه هو الكتاب الموعود فمعنى
البعد حينئذ ظاهر خلا أنه إن كان المسمى هى السورة ينبغى أن يراد بالوعد ما فى قوله تعالى إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا كما
قيل وإن كان هو القرآن فهو ما فى التوراة والانجيل هذا على تقدير كون الم اسما للسورة أو للقرآن وأما على تقدير كونها
مسرودة على نمط التعديد لذلك مبتدأ والكتاب إما خبره أو صفته والخبر ما بعده على نحو ما سلف أو يقدر مبتدأ أى
المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب وقرىء الم تنزيل الكتاب وقوله تعالى (لَا رَيْبَ فِيهِ) اما فى محل الرفع على أنه
خبر لذلك الكتاب على الصور الثلاث المذكورة أو على أنه خبر ثان لالم أو لذلك على تقدير كون الكتاب خبره أو للمبتدأ
المقدر آخرا على رأى من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى واما فى محل النصب على الحالية
من ذلك أو من الكتاب والعامل معنى الاشارة واما جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مؤكدة لما قبلها وكلمة
لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق عاملة عمل ان بحملها عليها لكونها نقيضا لها ولازمة للاسم لزومها واسمها مبنى على
الفتح لكونه مفردا نكرة لا مضافا ولا شبيها به وأما ما ذكره الزجاج من أنه معرب وإنما حذف التنوين للتخفيف
فما لا تعويل عليه وسبب بنائه تضمنه لمعنى من الاستغراقية لا أنه مركب معها تركيب خمسة عشر كما توهم وخبرها
محذوف أى لاريب موجود أو نحوه كما فى قوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله والظرف صفة لاسمها ومعناه نفى الكون
المطلق وسلبه عن الريب المفروض فى الكتاب أو الخبر هو الظرف ومعناه سلب الكون فيه عن الريب المطلق وقد
جعل الخبر المحذوف ظرفا وجعل المذكور خبرا لما بعده وقرىء لاريب فيه على أن لا بمعنى ليس والفرق بينه وبين
الأول أن ذلك موجب للاستغراق وهذا مجوز له والريب فى الأصل مصدر رابنى إذا حصل فيك الريبة وحقيقتها قلق
النفس واضطرابها ثم استعمل فى معنى الشك مطلقا أو مع تهمة لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة وفى الحديث دع
ما يريبك إلى ما لا يريبك ومعنى نفيه عن الكتاب أنه فى علو الشان وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب فى
حقيقته وكونه وحيا منزلا من عند الله تعالى لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلا ألا يرى كيف جوز ذلك فى قوله تعالى وان
كنتم فى ريب مما نزلنا الخ فانه فى قوة أن يقال وإن كان لكم ريب فيما نزلنا أو وإن ارتبتم فيما نزلنا الخ الا أنه خولف فى
الاسلوب حيث فرض كونهم فى الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه مع نوع اشعار بأن ذلك من
جهتهم لا من جهته العالية ولم يقصد ههنا ذلك الاشعار كما لم يقصد الاشعار بثبوت الريب فى سائر الكتب ليقتضى المقام
تقديم الظرف كما فى قوله تعالى لا فيها غول (هُدًى) مصدر من هداه كالسرى والبكى وهو الدلالة بلطف على ما يوصل إلى
البغية أى ما من شأنه ذلك وقيل هى الدلالة الموصلة اليها بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته فى قوله تعالى أولئك الذين اشتروا
الضلالة بالهدى وقوله تعالى وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ولا شك فى أن عدم الوصول معتبر فى مفهوم
الضلال فيعتبر الوصول فى مفهوم مقابله ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره فى مفهوم الهدى المتعدى إذ لا فرق بينهما إلا من
حيث التأثير والتأثر ومحصله أن الهدى المتعدى هو التوجيه الموصل لأن اللازم هو التوجه الموصل بدليل أن مقابله الذى
هو الضلال توجه غير موصل قطعا وهذا كما ترى مبنى على أمرين اعتبار الوصول وجوبا فى مفهوم اللازم واعتبار وجود

اللازم وجوبا فى مفهوم المتعدى وكلا الأمرين بمعزل من الثبوت أما الأول فلأن مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول وعدمه على الإطلاق بل هما معتبران فى مفهوميهما على وجه مخصوص به ليتحقق التقابل بينهما وتوضيحه أن الهدى لابد فيه من اعتبار توجه عن علم إلى ما من شأنه الإيصال إلى البغية كما أن الضلال لابد فيه من اعتبار الجور عن القصد إلى ما ليس من شأنه الإيصال قطعا وهذه المرتبة من الاعتبار مسلمة بين الفريقين ومحققة للتقابل بينهما وإنما النزاع فى أن إمكان الوصول إلى البغية هل هو كاف فى تحصل مفهوم الهدى أو لابد فيه من خروج الوصول من القوة إلى الفعل كما أن عدم الوصول بالفعل معتبر فى مفهوم الضلال قطعا إذا تقرر هذا فنقول ان أريد باعتبار الوصول بالفعل فى مفهوم الهدى اعتباره مقارناله فى الوجود زمانا حسب اعتبار عدمه فى مفهوم مقابله فذلك بين البطلان لأن الوصول غاية للتوجه المذكور فينتهى به قطعا لاستحالة التوجه إلى تحصيل الحاصل وما يبقى بعد ذلك فهو إما توجه إلى الثبات عليه واما توجه إلى زيادته ولأن التوجه إلى المقصد تدريجى والوصول اليه دفعى فيستحيل اجتماعهما فى الوجود ضرورة واما عدم الوصول فحيث كان أمرا مستمرا مثل ما يقتضيه من الضلال وجب مقارنته له فى جميع أزمنة وجوده إذ لو فارقه فى آن من آنات تلك الأزمنة لقارنه فى ذلك الآن مقابله الذى هو الوصول فما فرضناه ضلالا لا يكون ضلالا وان أريد اعتباره من حيث أنه غاية له واجبة الترتب عليه لزم أن يكون التوجه المقارن لغاية الجد فى السلوك إلى ما من شأنه الوصول عند تخلفه عنه لمانع خارجى كاخترام المنية مثلا من غير تقصير ولا جور من قبل المتوجه ولا خلل من جهة المسلك ضلالا إذ لا واسطة بينهما مع أنه لا جور فيه عن القصد أصلا فبطل اعتبار وجوب الوصول فى مفهوم اللازم قطعا وتبين منه عدم اعتباره فى مفهوم المتعدى حتما وأما اعتبار وجوده اللازم فيه وجوبا وهو الأمر الثانى فبيانه مبنى على تمهيد أصل وهو أن فعل الفاعل حقيقة هو الذى يصدر عنه ويتم من قبله لكن لما لم يكن له فى تحققه فى نفسه بد من تعلقه بمفعوله اعتبر ذلك فى مدلول اسمه قطعا ثم لما كان له باعتبار كيفية صدوره عن فاعله وكيفية تعلقه بمفعوله وغير ذلك آثار شتى مترتبة عليه متمايزة فى أنفسها مستقلة بأحكام مقتضية لأفرادها بأسماء خاصة وعرض له بالقياس إلى كل أثر من تلك الآثار إضافة خاصة ممتازة عما عداها من الإضافات العارضة له بالقياس إلى سائرها وكانت تلك الآثار تابعة له فى التحقق غير منفكة عنه أصلا إذ لا مؤثر لها سوى فاعله عدت من متمماته واعتبرت الإضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالاعتماد المتعلق بالجسم مثلا وضع له باعتبار الإضافة العارضة له من انكسار ذلك الجسم الذى هو أثر خاص لذلك الاعتماد اسم الكسر وباعتبار الإضافة العارضة له من انقطاعه الذى هو أثر آخر له اسم القطع إلى غير ذلك من الإضافات العارضة له بالقياس إلى آثاره اللازمة له وهذا أمر مطرد فى آثاره الطبيعية وأما الآثار التى له مدخل فى وجودها فى الجملة من غير ايجاب لها تترتب عليه تارة وتفارقه أخرى بحسب وجود أسبابها الموجبة لها وعدمها كالآثار الاختيارية الصادرة عن مؤثراتها بواسطة كونه داعيا اليها فحيث كانت تلك الآثار مستقلة فى أنفسها مستندة إلى مؤثراتها غير لازمة له لزوم الآثار الطبيعية التابعة له لم تعد من متمماته ولم تعتبر الإضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالإضافة العارضة للامر بحسب امتثال المأمور والإضافة العارضة للدعوة بحسب اجابة المدعو فان الامتثال والإجابة وإن عدا من آثار الأمر والدعوة باعتبار ترتبهما عليهما غالبا لكنهما حيث كانا فعلين اختياريين للمأمور والمدعو مستقلين فى أنفسهما غير لازمين للامر والدعوة لم يعدا من متمماتهما ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلول اسم الأمر والدعوة بل جعلا عبارة عن نفس الطلب المتعلق بالمأمور والمدعو سواء وجد الامتثال والإجابة أولا إذا تمهد هذا فنقول كما أن الامتثال والإجابة فعلان مستقلان فى أنفسهما صادران عن المدعو والمأمور باختيارهما غير لازمين للامر

والدعوة لزوم الآثار الطبيعية التابعة للافعال الموجبة لها وان كانا مترتبين عليهما فى الجملة كذلك هدى المهدى أى توجهه إلى ماذكر من المسالك فعل مستقل له صادر عنه باختياره غير لازم للهداية أعنى التوجيه اليه لزوم ماذكر من الآثار الطبيعية وان كان مترتبا عليها فى الجملة فلما لم يعدا من متممات الأمر والدعوة ولم يعتبر الإضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلولهما علم أنه لم يعد الهدى اللازم من متممات الهداية ولم يعتبر الإضافة العارضة لها بحسبه داخلة فى مدلولها ان قيل ليس الهدى بالنسبة إلى الهداية كالامتثال والإجابة بالقياس إلى أصليهما فان تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يقتضى إلا اتصافهما بكونهما مأمورا ومدعوا وليس من ضرورته اتصافهما بالامتثال والإجابة إذ لا تلازم بينهما وبين الأولين أصلا بخلاف الهدى بالنسبة إلى الهداية فان تعلقها بالمهدى يقتضى اتصافه به لأن تعلق الفعل المتعدى المبنى للفاعل بمفعوله يدل على اتصافه بمصدره المأخوذ من المبنى للمفعول قطعا وهو مستلزم لاتصافه بمصدر الفعل اللازم وهل هو الاعتبار وجود اللازم فى مدلول المتعدى حتما قلنا كما ان تعلق الأمر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يستدعى إلا اتصافهما بما ذكر من غير تعرض للامتثال والإجابة إيجابا وسلبا كذلك تعلق الهداية التى هى عبارة عن الدلالة المذكورة بالمهدى لا يستدعى إلا اتصافه بالمدلولية التى هى عبارة عن المصدر المأخوذ من المبنى للمفعول من غير تعرض لقبول تلك الدلالة كما هو معنى الهدى اللازم ولا لعدم قبوله بل الهداية عين الدعوة إلى طريق الحق والاهتداء عين الإجابة فكيف يؤخذ فى مدلولها واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدى المبنى للمفعول للاتصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقا إنما هو فى الأفعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار والمقطوعية والانقطاع وأما الأفعال الاختيارية فليست كذلك كما تحققته فيما سلف ان قيل التعلم من قبيل الأفعال الاختيارية مع أنه معتبر فى مدلول التعليم قطعا فليكن الهدى مع الهداية كذلك قلنا ليس ذلك لكونه فعلا اختياريا على الاطلاق ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل العلم للمتعلم كما قيل فان المعلم ليس بمستقل فى ذلك ففى اسناده اليه ضرب تجوز بل لأن كلا منهما مفتقر فى تحققه وتحصله إلى الآخر فان التعليم عبارة عن إلقاء المبادىء العلمية على المتعلم وسوقها إلى ذهنه شيئا فشيئا على ترتيب يقتضيه الحال بحيث لا يساق اليه بعض منها إلا بعد تلقيه لبعض آخر فكل منهما متمم للآخر معتبر فى مدلوله وأما الهدى الذى هو عبارة عن التوجه المذكور ففعل اختيارى يستقل به فاعله لا دخل للهداية فيه سوى كونها داعية إلى إيجاده باختياره فلم يكن من متماتها ولا معتبرا فى مدلولها ان قيل التعليم نوع من أنواع الهداية والتعلم نوع من أنواع الاهتداء فيكون اعتباره فى مدلول التعليم اعتبار الهدى فى مدلول الهداية قلنا اطلاق الهداية على التعليم انما هو عند وضوح المسالك واستبداد المتعلم بسلوكه من غير دخل للتعليم فيه سوى كونه داعيا اليه وقد عرفت جلية الأمر على ذلك التقدير ان قيل أليس تخلف الهدى عن الهداية كتخلف التعلم عن التعليم فحيث لم يكن ذلك تعليما فى الحقيقة فليكن الهداية أيضا كذلك وليحمل تسمية ما لا يستتبع الهدى بها على التجوز قلنا شتان بين التخلفين فان تخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه كما ان تخلف الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك وأما تخلف الهدى عن الهداية فليس لشائبة قصور من جهتها بل إنما هو لفقد سببه الموجب له من جهة المهدى بعد تكامل ما يتم من قبل الهادى وبهذا التحرير اتضح طريق الهداية وتبين انها عبارة عن مطلق الدلالة على ما من شأنه الايصال إلى البغية بتعريف معالمه وتبيين مسالكه من غير أن يشترط فى مدلولها الوصول ولا القبول وان الدلالة المقارنة لهما أو لأحدهما والمفارقة عنهما كل ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها افراد حقيقية لها وأن ما فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت وقوله تعالى ولو شاء لهدا كم ونحو ذلك مما اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز وانكشف ان الدلالات التكوينية المنصوبة فى الانفس والآفاق والبيانات التشريعية الواردة فى الكتب السماوية على الاطلاق بالنسبة الى كافة

البرية برها وفاجرها هدايات حقيقية فائضة من عند الله سبحانه والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله (لِلْمُتَّقِينَ) أي المتصفين بالتقوى حالا أو مآلا وتخصيص الهدى بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره وإن كان ذلك شاملا لكل ناظر من مؤمن وكافر وبذلك الاعتبار قال الله هدى للناس والمتقي اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة والتقوى في عرف الشرع عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة قال عليه السلام جماع التقوى في قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والإحسان الآية وعن عمر بن عبد العزيز أنه ترك ما حرم الله وأداء ما فرض الله وعن شهر بن حوشب المتقي من يترك ما لا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس وعن أبي يزيد أن التقوى هو التورع عن كل ما فيه شبهة وعن محمد بن حنيف أنه مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى وعن سهل المتقي من تبرأ عن حوله وقدرته وقيل التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك وعن ميمون بن مهران لا يكون الرجل تقيا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر وعن أبي تراب بين يدي التقوى خمس عقبات لا يناله من لا يجاوزهن إيثار الشدة على النعمة وإيثار الضعف على القوة وإيثار الذل على العزة وإيثار الجهد على الراحة وإيثار الموت على الحياة وعن بعض الحكماء أنه لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق فطيف به في السوق لم يستحي ممن ينظر إليه وقيل التقوى أن تزين سرك للحق كما تزين علانيتك للخلق والتحقيق أن للتقوى ثلاث مراتب الأولى التوقي عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى والثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف بالتقوى في الشرع وهو المعنى بقوله تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا والثالثة أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ويتبتل إليه بكليته وهو التقوى الحقيقي المأمور به في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الإلهية المبنية على الحكم الأبية أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث جمعوا بذلك بين رياستي النبوة والولاية وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح ولم يصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين فإن أريد بكونه هدى للمتقين إرشاده إياهم إلى تحصيل المرتبة الأولى ونيلها فالمراد بهم المشارفون للتقوى مجاز الاستحالة تحصيل الحاصل وإيثاره على العبارة المعربة عن ذلك للإيجاز وتصدير السورة الكريمة بذكر أوليائه تعالى وتفخيم شأنهم وإن أريد به إرشاده إلى تحصيل إحدى المرتبتين الأخيرتين فإن عني بالمتقين أصحاب الطبقة الأولى تعينت الحقيقة وإن عني بهم أصحاب إحدى الطبقتين الأخيرتين تعين المجاز لأن الوصول إليهما إنما يتحقق بهدايته المترقبة وكذا الحال فيما بين المرتبة الثانية والثالثة فإنه إن أريد بالهدى الإرشاد إلى تحصيل المرتبة الثالثة فإن عني بالمتقين أصحاب المرتبة الثانية تعينت الحقيقة وإن عني بهم أصحاب المرتبة الثالثة تعين المجاز ولفظ الهداية حقيقة في جميع الصور وأما إن أريد بكونه هدى لهم تثبيتهم على ما هم عليه أو إرشادهم إلى الزيادة فيه على أن يكون مفهوما داخلا في المعنى المستعمل فيه فهو مجاز لا محالة ولفظ المتقين حقيقة على كل حال واللام متعلقة بهدى أو بمحذوف وقع صفة له أو حالا منه ومحل هدى الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو هدى أو خبر مع لا ريب فيه لذلك الكتاب أو مبتدأ خبره الظرف المقدم كما أشير إليه أو النصب على الحالية من ذلك أو من الكتاب والعامل معنى الإشارة أو من الضمير في فيه والعامل ما في الجار والمجرور من معنى الفعل المنفي كأنه قيل لم يحصل فيه الريب حال كونه هاديا على أنه قيد للنفي لا للمنفي وحاصله انتفى الريب فيه حال كونه هاديا وتنكيره

للتفخيم وحمله على الكتاب اما للمبالغة كأنه نفس الهدى أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل هذا والذى يستدعيه جزالة التنزيل فى شأن ترتيب هذه الجمل أن تكون متناسقه تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم يتخلل بينها عاطف فالم جملة برأسها على انها خبر لمبتدأ مضمر أوطائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها دالة على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس مايؤلفون منه كلامهم وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدى لما دلت عليه من كونه منعوتا بالكمال الفائق ثم سجل على غاية فضله بنفى الريب فيه إذ لافضل أعلى مما للحق واليقين وهدى للمتقين مع مايقدر له من المبتدأ جملة مؤكدة لكونه حقا لايحوم حوله شائبة شك ما ودالة على تكميله بعد كماله أو يستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول فانه لما نبه أولا على إعجاز المتحدى به من حيث أنه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته بالمرة ظهر أنه الكتاب البالغ أقصى مراتب الكمال وذلك مستلزم لكونه فى غاية النزاهة عن مظنة الريب إذ لا أنقص مما يعتريه الشك وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين وفى كل منها من النكت الرائقة والمزايا الفائقة مالايخفى جلالة شأنه حسبما حققته (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) اما موصول بالمتقين ومحله الجر على أنه صفة مقيدة له ان فسر التقوى بترك المعاصى فقط مترتبة عليه ترتب التَّحلية على التخلية وموضحة ان فسر بما هو المتعارف شرعا والمتبادر عرفا من فعل الطاعات وترك السيئات معا لأنها حينئذ تكون تفصيلا لما انطوى عليه اسم الموصوف اجمالا وذلك لأنها مشتملة على ماهو عماد الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة فانها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب الداعية إلى التجنب عن المعاصى غالبا ألا يرى إلى قوله تعالى إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر وقوله عليه السلام الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام أومادحة للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات وتخصيص ماذكر من الخصال الثلاث بالذكر لإظهار شرفها وانافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات أو النصب على المدح بتقدير أعنى أو الرفع عليه بتقديرهم واما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الإشارة كما سيأتى بيانه فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام لأنه وقف على مستقل ما بعده أيضا مستقل وأما على الوجوه الأول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق ما بعده به وتبعيته له أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر وأما على تقدير النصب أو الرفع على المدح فلما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الإعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ فى النصب والرفع روما للتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ماقبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما قال أبو على إذا ذكرت صفات للمدح وخولف فى بعضها الاعراب فقد خولف للافتنان أى للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجد فى الاصغاء فان تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب إن قيل لاريب فى أن حال الموصول عند كونه خبر المبتدأ محذوف كحاله عند كونه مبتدأ خبره أولئك على هدى فى أنه ينسبك به جملة اسمية مفيدة لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة ضرورة إن كلا من الضمير المحذوف والموصول عبارة عن المتقين وإن كلا من اتصافهم بالإيمان وفروعه وإحرازهم للهدى والفلاح من النعوت الجليلة فما السر فى أنه جعل ذلك فى الصورة الأولى من توابع المتقين وعد الوقف غير تام وفى الثانية مقتطعا عنه وعد الوقف تاما قلنا السر فى ذلك أن المبتدأ فى الصورتين وإن كان عبارة عن المتقين لكن الخبر فى الأولى لما كان تفصيلا لما تضمنه المبتدأ اجمالا حسبما حققته معلوم الثبوت له بلا اشتباه غير مفيد للسامع سوى فائدة التفصيل والتوضيح نظم ذلك فى سلك الصفات مراعاة لجانب المعنى وإن سمى قطعا مراعاة

لجانب اللفظ كيف لا وقد اشتهر فى الفن أن الخبر إذا كان معلوم الإنتساب إلى المخبر عنه حقه أن يكون وصفا له كما أن الوصف إذا لم يكن معلوم الانتساب إلى الموصوف حقه أن يكون خبر له حتى قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار والإخبار بعد العلم بها صفات وأما الخبر فى الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملا على ما لا ينبىء عنه المبتدأ من المعانى اللائقة كما ستحيط به خبرا للمخاطب فوائد رائقة جعل ذلك مقتطعا عما قبله محافظة على الصورة والمعنى جميعا والإيمان أفعال من الأمن المتعدى إلى واحد يقال آمنته وبالنقل تعدى إلى اثنين يقال آمننيه غيرى ثم استعمل فى التصديق لأن المصدق يؤمن المصدق أى يجعله أمينا من التكذيب والمخالفة واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف وقد يطلق على الوثوق فان الواثق يصير ذا أمن وطمأنينة ومنه ما حكى عن العرب ما آمنت أن أجد صحابة أى ما صرت ذا أمن وسكون وكلا الوجهين حسن ههنا وهو فى الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها وهل هو كاف فى ذلك أو لا بد من انضمام الاقرار اليه للمتمكن منه والأول رأى الشيخ الأشعرى ومن شايعه فان الاقرار عنده منشأ لاجراء الاحكام والثانى مذهب أبى حنيفة ومن تابعه وهو الحق فانه جعلهما جزأين له خلا أن الاقرار ركن محتمل للسقوط بعذر كما عند الاكراه وهو مجموع ثلاثة أمور اعتقاد الحق والاقرار به والعمل بموجبه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ومن أخل بالاقرار فهو كافر ومن أخل بالعمل فهو فاسق اتفاقا وكافر عند الخوارج وخارج عن الايمان غير داخل فى الكفر عند المعتزلة وقرىء يومنون بغير همزة والغيب اما مصدر وصف به الغائب مبالغة كالشهادة فى قوله تعالى عالم الغيب والشهادة أو فيعل خفف كقيل فى قيل وهين فى هين وميت فى ميت لكن لم يستعمل فيه الاصل كما استعمل فى نظائره وأياما كان فهو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة وهو قسمان قسم لا دليل عليه وهو الذى أريد بقوله سبحانه وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته والنبوات وما يتعلق بها من الاحكام والشرائع واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء وهو المراد ههنا فالباء صلة للإيمان اما بتضمينه معنى الاعتراف أو بجعله مجازا من الوثوق وهو واقع موقع المفعول به واما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما فى قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب وقوله تعالى ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى يؤمنون ملتبسين بالغيبة اما عن المؤمن به أى غائبين عن النبى صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة لما روى أن أصحاب ابن مسعود رضى الله عنه ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم فقال رضى الله عنه ان أمر محمد عليه الصلاة والسلام كان بينا لمن رآه والذى لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من الإيمان بغيب ثم تلا هذه الآية واما عن الناس أى غائبين عن المؤمنين لا كالمنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم وقيل المراد بالغيب القلب لأنه مستور والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم فالباء حينئذ للآلة وترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة اما للقصد الى احداث نفس الفعل كما فى قولهم فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الايمان واما للاكتفاء بما سيجىء فان الكتب الالهية ناطقة بتفاصيل ما يجب الايمان به (وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ) اقامتها عبارة عن تعديل أركانها وحفظها من أن يقع فى شىء من فرائضها وسننها وآدابها زيغ من أقام العود اذا قومه وعدله وقيل عن المواظبة عليها مأخوذ من قامت السوق اذا نفقت وأقمتها اذا جعلتها نافقة فانها اذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذى يرغب فيه وقيل عن التشمر لادائها عن غير فتور ولا توان من قولهم قام بالامر وأقامه اذا جد فيه واجتهد وقيل عن أدائها عبر عنه بالاقامة لاشتماله على القيام كما عبر عنه بالقنوت الذى هو

القيام وبالركوع والسجود والتسبيح والأول هو الأظهر لأنه أشهر وإلى الحقيقة أقرب والصلوة فعلة من صلى إذا دعا كالزكوة من زكى وإنما كتبتا بالواو مراعاة للفظ المفخم وإنما سمي العمل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء وقيل أصل صلى حرك الصلوين وهما العظمان الناتئان في أعلى الفخذين لأن المصلي يفعله في ركوعه وسجوده واشتهار اللفظ في المعنى الثاني دون الأول لا يقدح في نقله عنه وإنما سمي الداعي مصليا تشبيها له في تخشعه بالراكع والساجد (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) الرزق في اللغة العطاء ويطلق على الحظ المعطى نحو ذبح ورعي للمذبوح والمرعي وقيل هو بالفتح مصدر وبالكسر اسم وفي العرف ما ينتفع به الحيوان والمعتزلة لما أحالوا تمكين الله تعالى من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول الحرام ألا يرى أنه تعالى أسند الرزق إلى ذاته إيذانا بأنهم ينفقون من الحلال الصرف فإن انفاق الحرام بمعزل من إيجاب المدح وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وأصحابنا جعلوا الإسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الإنفاق والذم لتحريم ما لم يحرم واختصاص ما رزقناهم بالحلال للقرينة وتمسكوا لشمول الرزق لهما بما روي عنه عليه السلام في حديث عمرو بن قرة حين أتاه فقال يا رسول الله إن الله كتب علي الشقوة فلا أرى أرزق إلا من دفي بكفي فأذن لي في الغناء من غير فاحشة من أنه قال عليه السلام لا إذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت أي عدو الله والله لقد رزقك الله حلالا طيبا فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله وبأنه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقا وقد قال الله تعالى وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها والإنفاق والإنفاد أخوان خلا أن في الثاني معنى الاذهاب بالكلية دون الأول والمراد بهذا الإنفاق الصرف إلى سبيل الخير فرضا كان أو نفلا ومن فسر بالزكوة ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها والجملة معطوفة على ما قبلها من الصلة وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة على رؤس الآي وإدخال من التبعيضية عليه للكف عن التبذير هذا وقد جوز أن يراد به الانفاق من جميع المعاون التي منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة ويؤيده قوله عليه السلام إن علما لا ينال به ككنز لا ينفق منه واليه ذهب من قال ومما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) معطوف على الموصول الأول على تقديري وصله بما قبله وفصله عنه مندرج معه في زمرة المتقين من حيث الصورة والمعنى معا أو من حيث المعنى فقط اندراج خاصين تحت عام إذ المراد بالأولين الذين آمنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرائع كما يؤذن به التعبير عن المؤمن به بالغيب وبالآخرين الذين آمنوا بالقرآن بعد الإيمان بالكتب المنزلة قبل كعبد الله بن سلام وأضرابه أو على المتقين على أن يراد بهم الأولون خاصة ويكون تخصيصهم بوصف الاتقاء للايذان بتنزههم عن حالتهم الأولى بالكلية لما فيها من كمال القباحة والمباينة للشرائع كلها الموجبة للاتقاء عنها بخلاف الآخرين فإنهم غير تاركين لما كانوا عليه بالمرة بل متمسكون بأصول الشرائع التي لا تكاد تختلف باختلاف الأعصار ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات بل لاختلاف الصفات كما في قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

وقوله : يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب ... للإيذان بأن كل واحد من الإيمان بما أشير إليه من الأمور الغائبة والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله له شأن خطير مستتبع لأحكام جمة حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل أحدهما تتمة للآخر وقد شفع الأول بأداء الصلوة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجة تحت تلك الأمور المؤمن بها تكملة له فإن كمال العلم بالعمل وقرن الثاني بالإيقان بالآخرة مع كونه منطويا تحت

الأول تنبيها على كمال صحته وتعريضا بما فى اعتقاد أهل الكتابين من الخلل كما سيأتى هذا على تقدير تعلق الباء بالإيمان وقس عليه الحال عند تعلقها بالمحذوف فان كلا من الإيمان الغيبى المشفوع بما يصدقه من العبادتين مع قطع النظر عن المؤمن به والإيمان بالكتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الأمور التى يجب الايمان بها مقرونا بما قرن به فضيلة باهرة مستدعية لما ذكر والله تعالى أعلم وقد حمل ذلك على معنى أنهم الجامعون بين الايمان بما يدركه العقل جملة والاتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية وبين الايمان بما لا طريق اليه غير السمع وتكرير الموصول للتنبيه على تغاير القبيلين وتباين السبيلين فليتأمل وان يراد بالموصول الثانى بعد اندراج الكل فى الأول فريق خاص منهم وهم مؤمنو أهل الكتاب بأن يخصوا بالذكر تخصيص جبريل وميكائيل به اثر جريان ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيما لشأنهم وترغيبا لأمثالهم وأقرانهم فى تحصيل مالهم من الكمال والانزال النقل من الأعلى إلى الاسفل وتعلقه بالمعانى إنما هو بتوسط تعلقه بالاعيان المستتبعة لها فنزول ماعدا الصحف من الكتب الإلهية إلى الرسل عليهم السلام والله تعالى أعلم بأن يتلقاها الملك من جنابه عز وجل تلقيا روحانيا أو يحفظها من اللوح المحفوظ فينزل بها إلى الرسل فيلقيها عليهم عليهم السلام والمراد بما أنزل إليك هو القرآن بأسره والشريعة عن آخرها والتعبير عن إنزاله بالماضى مع كون بعضه مترقبا حينئذ لتغليب المحقق على المقدر أو لتنزيل ما فى شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع كما فى قوله تعالى انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مع أن الجن ماكانوا سمعوا الكتاب جميعا ولا كان الجميع اذ ذاك نازلا وبما أنزل من قبلك التوراة والانجيل وسائر الكتب السالفة وعدم التعرض لذكر من أنزل اليه من الانبياء عليهم السلام لقصد الإيجاز مع عدم تعلق الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به فى قوله تعالى قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل الآية والإيمان بالكل جملة فرض وبالقرآن تفصيلا من حيث انا متعبدون بتفاصيله فرض كفاية فان فى وجوبه على الكل عينا حرجا بينا واخلالا بأمر المعاش وبناء الفعلين للمفعول للايذان بتعين الفاعل والجرى على سنن الكبرياء وقد قرئا على البناء للفاعل (وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) الايقان اتقان العلم بالشىء بنفى الشك والشبهة عنه ولذلك لا يسمى علمه تعالى يقينا أى يعلمون علما قطعيا مزيحا لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والأوهام التى من جملتها زعمهم أن الجنة لا يدخلها الا من كان هودا او نصارى وأن النار لن تمسهم الا أياما معدودات واختلافهم فى أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أولا وهل هو دائم اولا وفى تقديم الصلة وبناء يوقنون على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب فان اعتقادهم فى أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول الى مرتبة اليقين والآخرة تأنيث الآخر كما أن الدنيا تأنيث الأدنى غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الاسماء وقرىء بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقرىء يؤقنون بقلب الواو همزة اجراء لضم ماقبلها مجرى ضمها فى وجوه ووقتت ونظيره مافى قوله :

لحب المؤقدان الى مؤسى وجعدة اذا أضاءهما الوقود

وقوله تعالى (أُولٰئِكَ) اشارة الى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله عز وعلا (عَلٰى هُدًى) خبره ومافيه من الإبهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه كانه قيل على أى هدى هدى لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره وايراد كلمة الإستعلاء بناء على تمثيل حالهم فى ملابستهم بالهدى بحال من يعتلى الشىء ويستولى عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد أو على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للايذان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه وقوله تعالى (مِنْ رَبِّهِمْ) متعلق بمحذوف وقع صفة له مبينة لفخامته الاضافية

اثر بيان فخامته الذاتية مؤكدة لها أى على هدى كائن من عنده تعالى وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى وفنون توفيقه والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضاف اليهم وتشريفهما ولزيادة تحقيق مضمون الجملة وتقريره ببيان مايوجبه ويقتضيه وقد أدغمت النون فى الراء بغنة أو بغير غنة والجملة على تقدير كون الموصولين موصولين بالمتقين مستقلة لا محل لها من الإعراب مقررة لمضمون قوله تعالى هدى للمتقين مع زيادة تأكيدله وتحقيق كيف لا وكون الكتاب هدى لهم فن من فنون مامنحوه واستقروا عليه من الهدى حسبما تحققته لا سيما مع ملاحظة مايستتبعه من الفوز والفلاح وقيل هى واقعة موقع الجواب عن سؤال ربما ينشأ مما سبق كانه قيل ما للمنعوتين بما ذكر من النعوت اختصوا بهداية ذلك الكتاب العظيم الشأن وهل هم أحقاء بتلك الاثرة فأجيب بأنهم بسبب اتصافهم بذلك مالكون لزمام أصل الهدى الجامع لفنونه المستتبع للفوز والفلاح فأى ريب فى استحقاقهم لما هو فرع من فروعه ولقد جار عن سنن الصواب من قال فى تقرير الجواب أن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا وأما على تقدير كونهما مفصولين عنه فهى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ الذى هو الموصول الأول والثانى معطوف عليه وهذه الجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن من تخصيص ماذكر بالمتقين قبل بيان مبادى استحقاقهم لذلك كانه قيل ما بال المتقين مخصوصين به فأجيب بشرح ما انطوى عليه اسمهم اجمالا من نعوت الكمال وبيان مايستدعيه من النتيجة أى الذين هذه شؤنهم أحقاء بما هو أعظم من ذلك كقولك أحب الأنصار الذين قارعوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا مهجتهم فى سبيل الله أولئك سواد عينى وسويداء قلبى واعلم أن هذا المسلك يسلك تارة بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث كقولك أحسنت إلى زيد زيد حقيق بالإحسان وأخرى بإعادة صفته كقولك أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك ولا ريب فى أن هذا أبلغ من الأول لما فيه من بيان الموجب للحكم وإيراد اسم الإشارة بمنزلة إعادة الموصوف بصفاته المذكورة مع مافيه من الاشعار بكمال تميزه بها وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة والإيماء إلى بعد منزلته كما مر هذا وقد جوز أن يكون الموصول الأول مجرى على المتقين حسبما فصل والثانى مبتدأ وأولئك الخ خبره ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بغير المؤمنين من أهل الكتاب حيث كانوا يزعمون أنهم على الهدى ويطمعون فى نيل الفلاح (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) تكرير اسم الإشارة لإظهار مزيد العناية بشأن المشار اليهم والتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من تينك الاثرتين وأن كلا منهما كاف فى تميزهم بها عمن عداهم ويؤيده توسيط العاطف بين الجملتين بخلاف مافى قوله تعالى أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون فإن التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيههم بالبهائم فتكون الجملة الثانية مقررة للأولى وأما الافلاح الذى هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايراً للهدى نتيجة له وكان كل منهما فى نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل مافعل وهم ضمير فصل يفصل الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون فى الآخرة أو اشارة إلى مايعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم هذا وفى بيان اختصاص المتقين بنيل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير اليه فى تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب فى اقتفاء أثرهم والارشاد إلى اقتداء سيرهم مالا يخفى مكانه والله ولى الهداية والتوفيق (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) كلام مستأنف سيق لشرح أحوال الكفرة الغواة المردة العتاة اثر بيان أحوال أضدادهم المتصفين بنعوت الكمال الفائزين بمباغيهم فى الحال والمآل وانما ترك العاطف بينهما ولم يسلك به

مسلك قوله تعالى إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم لما بينهما من التنافى فى الاسلوب والتباين فى الغرض فان الأولى مسوقة لبيان رفعة شأن الكتاب فى باب الهداية والإرشاد وأما التعرض لأحوال المهتدين به فانما هو بطريق الاستطراد سواء جعل الموصول موصولا بما قبله أو مفصولا عنه فان الاستئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام المتقدم فهو من مستتبعاته لامحالة وأما الثانية فمسوقة لبيان أحوال الكفرة اصالة وترامى أمرهم فى الغواية والضلال إلى حيث لايجديهم الإنذار والتبشير ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير فهم ناكبون فى تيه الغى والفساد عن منهاج العقول وراكبون فى مسلك المكابرة والعناد متن كل صعب وذلول وإنما أوثرت هذه الطريقة ولم يؤسس الكلام على بيان أن الكتاب هاد للأولين وغير مجد للآخرين لأن العنوان الأخير ليس مما يورثه كمالا حتى يتعرض له فى أثناء تعداد كمالاته وإن من الحروف التى تشابه الفعل فى عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الأسماء ودخول نون الوقاية عليها كانى ولعلنى ونظائرهما وإعطاء معانيه والمتعدى خاصة فى الدخول على إسمين ولذلك أعملت عمله الفرعى وهو نصب الأول ورفع الثانى إيذانا بكونه فرعا فى العمل دخيلا فيه وعند الكوفيين لاعمل لها فى الخبر بل هو باق على حاله بقضية الاستصحاب وأجيب بأن ارتفاع الخبر مشروط بالتجرد عن العوامل وإلا لما انتصب خبر كان وقد زال بدخولها فتعين أعمال الحرف وأثرها تأكيد النسبة وتحقيقها ولذلك يتلقى بها القسم ويصدر بها الأجوبة ويؤتى بها مواقع الشك والانكار لدفعه ورده قال المبرد قولك عبدالله قائم اخبار عن قيامه وإن عبدالله قائم جواب سائل عن قيامه شاك فيه وإن عبدالله لقائم جواب منكر لقيامه وتعريف الموصول اما للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كابى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة واضرابهم وأحبار اليهود أو للجنس وقد خص منه غير المصرين بما أسند اليه من قوله تعالى سواء عليهم الخ والكفر فى اللغة ستر النعمة وأصله الكفر بالفتح أى الستر ومنه قيل للزارع والليل كافر قال تعالى كمثل غيث أعجب الكفار نباته وعليه قول لبيد فى ليلة كفر النجوم غمامها ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكى الذى غطى السلاح بدنه وفى الشريعة إنكار ماعلم بالضرورة مجىء الرسول عليه الصلاة والسلام به وإنما عد لبس الغيار وشد الزنار بغير اضطرار ونظائرهما كفراً لدلالته على التكذيب فان من صدق النبى عليه السلام لايكاد يجترىء على أمثال ذلك إذ لاداعى اليه كالزنى وشرب الخمر واحتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضى على وجه الاخبار فانه يستدعى سابقة المخبر عنه لامحالة وأجيب بأنه من مقتضيات التعلق وحدوثه لايستدعى حدوث الكلام كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لايستدعى حدوث العلم (سَوَاءٌ) هو اسم بمعنى الاستواء نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة قال تعالى تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم وقوله تعالى (عَلَيْهِمْ) متعلق به ومعناه عندهم وارتفاعه على أنه خبر لأن وقوله تعالى (ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) مرتفع به على الفاعلية لأن الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام لتحقيق الاستواء بين مدخوليهما كما جرد الأمر والنهى لذلك عن معنييهما فى قوله تعالى استغفر لهم أولا تستغفر لهم وحرف النداء فى قولك اللهم اغفر لنا أيتها العصابة عن معنى الطلب لمجرد التخصيص كانه قيل إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه كقولك إن زيدا مختصم أخوه وابن عمه أو مبتدأ وسواء عليهم خبر قدم عليه اعتناء بشأنه والجملة خبر لان والفعل إنما يمتنع الاخبار عنه عند بقائه على حقيقته أما لو أريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على طريقة الاتساع فهو كالإسم فى الإضافة والاسناد اليه كما فى قوله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم وقوله تعالى وإذا قيل لهم لاتفسدوا وفى قولهم تسمع بالمعيدى خير من أن تراه كانه قيل إنذارك وعدمه سيان عليهم والعدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد والتوصل إلى إدخال الهمزة ومعادلها عليه لافادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده كما أشير اليه وقيل سواء مبتدأ وما بعده خبره وليس بذاك لأن مقتضى

المقام بيان كون الانذار وعدمه سواء لا بيان كون المستوى الانذار وعدمه والانذار اعلام المخوف للإحتراز عنه أفعال من نذر بالشيء إذا علمه فحذره والمراد هنا التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصي والاقتصار عليه لما أنهم ليسوا بأهل للبشارة أصلا ولان الانذار أوقع في القلوب وأشد تأثيرا في النفوس فان دفع المضار اهم من جلب المنافع فحيث لم يتأثروا به فلأن لا يرفعوا للبشارة رأسا أولى وقرىء بتوسيط ألف بين الهمزتين مع تحقيقهما وبتوسيطها والثانية بين بين وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسيط وبحذف حرف الاستفهام وبحذفه والقاء حركته على الساكن قبله كما قرىء قد أفلح وقرىء بقلب الثانية ألفا وقد نسب ذلك إلى اللحن (لَا يُؤْمِنُونَ) جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها مبنية لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الإعراب أو حال مؤكدة له أو بدل منه أو خبر لان وما قبلها اعتراض بما هو علة للحكم أو خبر ثان على رأي من يجوزه عند كونه جملة والآية الكريمة مما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق فانه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون فظهر استحالة إيمانهم لاستلزامه المستحيل الذي هو عدم مطابقة اخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالايمان باقين على التكليف ولان من جملة ما كلفوه الايمان بعدم إيمانهم المستمر والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلا من حيث أن الاحكام لا تستدعي أغراضا لا سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء والاخبار بوقوع الشيء أو بعدمه لا ينفي القدرة عليه كاخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره وليس ما كلفوه الايمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلفوا الايمان بعدم إيمانهم المستمر بل هو الايمان بجميع ما جاء به النبي عليه السلام إجمالا على أن كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم وفائدة الانذار بعد العلم بأنه لا يفيد الزام الحجة وإحراز الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الابلاغ ولذلك قيل سواء عليهم ولم يقل عليك كما قيل لعبدة الأصنام سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون وفي الآية الكريمة اخبار بالغيب على ما هو به ان أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهي من المعجزات الباهرة (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) استئناف تعليلي لما سبق من الحكم وبيان لما يقتضيه أو بيان وتأكيد له والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد والختم على الشيء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة له أو لما فيه من التعرض اه كما في البيت الفارغ والكيس المملوء والاول هو الأنسب بالمقام إذ ليس المراد به صيانة ما في قلوبهم بل احداث حالة تجعلها بسبب تماديهم في الغي وانهماكهم في التقليد وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح بحيث لا يؤثر فيها الانذار ولا ينفذ فيها الحق أصلا إما على طريقة الاستعارة التبعية بأن يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلي هو الاشتمال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله ويستعار له الختم ثم يشتق منه صيغة الماضي وأما على طريقة التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من احداث تلك الحالة المانعة من أن يصل اليها ما خلقت هي لاجله من الامور الدينية النافعة وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئة منتزعة من محال معدة لحلول ما يحلها حلولا مستتبعا المصالح مهمة وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لاجله بالكلية ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبه بها فيكون كل من طرفي التشبيه مركبا من أمور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الامر في تصوير تلك الهيئة وانتزاعها وهو الختم والباقي منوي مراد قصدا بألفاظ متخيلة بها يتحقق التركيب وتلك الالفاظ وإن كان لها مدخل في تحقيق وجه الشبه الذي هو أمر عقلي منتزع منها وهو امتناع الانتفاع بما أعد له بسبب مانع قوي لكن ليس في شيء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المجاز بل هي باقية على حالها من كونها حقيقة أو مجازا أو كناية وإنما التجوز في المجموع وحيث كان معنى المجموع مجموع معاني تلك الالفاظ التي ليس فيها التجوز المعهود ولم تكن الهيئة المنتزعة منها مدلولا وضعيا لها ليكون ما دل على الهيئة المشبه بها عند استعماله في الهيئة المشبهة

مستعملا فى غير ماوضع له فيندرج تحت الاستعارة التى هى قسم من المجاز اللغوى الذى هو عبارة عن الكلمة المستعملة فى غير ما وضع له ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبد القاهر وأضرابه إلى جعل التمثيل قسما برأسه ومن رام تقليل الأقسام عد تلك الهيئة المشبه بها من قبيل المدلولات الوضعية وجعل الكلام المفيد لها عند استعماله فيما يشبه بها من هيئة أخرى منتزعة من أمور أخر من قبيل الاستعارة وسماه استعارة تمثيلية وإسناد احداث تلك الحالة فى قلوبهم إلى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق اليه سبحانه وتعالى وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة اليهم فان خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على مااقترفوه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم ونحو ذلك وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل وذكروا فى ذلك عدة من الأقاويل منها أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك فى قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلق المجبول عليه ومنها أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خالية عن الفطن أو بقلوب قدر ختم الله تعالى عليها كما فى سال به الوادى إذا هلك وطارت به العنقاء إذا طالت غيبته ومنها أن ذلك فعل الشيطان أو الكافر وإسناده اليه تعالى باعتبار كونه باقداره تعالى وتمكينه ومنها أن أعراقهم لما رسخت فى الكفر واستحكمت بحيث لم يبق إلى تحصل إيمانهم طريق سوى الالجاء والقسر ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف عبر عن ذلك بالختم لأنه سد لطريق إيمانهم بالكلية وفيه إشعار بترامى أمرهم فى الغى والعناد وتناهى انهماكهم فى الشر والفساد ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه مثل قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينكم حجاب تهكما بهم ومنها أن ذلك فى الآخرة وإنما أخبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ويعضده قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما ومنها أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة يعرفها الملائكة فيبغضونهم ويتنفرون عنهم ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ عطف على ماقبله داخل فى حكم الختم لقوله عز وجل وختم على سمعه وقلبه وللوفاق على الوقف عليه لا على قلوبهم ولاشتراكهما فى الإدراك من جميع الجوانب وإعادة الجار للتأكيد والاشعار بتغاير الختمين وتقديم ختم قلوبهم للإيذان بأنها الاصل فى عدم الايمان وللاشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية بختم سمعهم بناء على أنه طريق اليها فالختم عليه ختم عليها بل هى مختومة بختم على حدة لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على حاله حسبما يفصح عنه قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون والسمع إدراك القوة السامعة وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا إذ هو المختوم عليه إصالة وتقديم حاله على حال أبصارهم للاشتراك بينه وبين قلوبهم فى تلك الحال أو لان جنايتهم من حيث السمع الذى به يتلقى الاحكام الشرعية وبه يتحقق الانذار أعظم منها من حيث البصر الذى به يشاهد الاحوال الدالة على التوحيد فبيانها أحق بالتقديم وأنسب بالمقام قالوا السمع أفضل من البصر لانه عز وعلا حيث ذكرهما قدم السمع على البصر ولان السمع شرط النبوة ولذلك مابعث الله رسولا أصم ولان السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارف التى تتلقف من أصحابها وتوحيده للأمن عن اللبس واعتبار الأصل أو لتقدير المضاف أى وعلى حواس سمعهم والكلام فى إيقاع الختم على ذلك كما مر من قبل ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ الابصار جمع بصر والكلام فيه كما سمعته فى السمع والغشاوة فعالة من التغشية أى التغطية بنيت لما يشتمل على الشىء كالعصابة والعمامة وتنكيرها للتفخيم والتهويل وهى على رأى سيبويه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ماقبلها وإيثار الاسمية للإيذان بدوام مضمونها فان مايدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة فى الآفاق والانفس حيث كانت مستمرة كان تعاميهم من ذلك

أيضاً كذلك وأما الآيات التي تتلق بالقوة السامعة فلما كان وصولها إليها حيناً فحيناً أوثر في بيان الختم عليها وعلى ماهي أحد طريقي معرفته أعني القلب الجملة الفعلية وعلى رأي الأخفش مرتفع على الفاعلية مما تعلق به الجار وقرىء بالنصب على تقدير فعل ناصب اى وجعل على أبصارهم غشاوة وقيل على حذف الجار وإيصال الختم اليه والمعنى وختم على أبصارهم بغشاوة وقرىء بالضم والرفع وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها وغشوة بالكسر مرفوعة وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين غير المعجمة والرفع (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وعيد وبيان لما يستحقونه في الآخرة والعذاب كالنكال بناء ومعنى يقال أعذب عن الشيء إذا أمسك عنه ومنه الماء العذب لما أنه يقمع العطش ويردعه ولذلك يسمى نقاخاً لانه ينقخ العطش ويكسره وفراتاً لانه يرفته على القلب ويكسره ثم اتسع فيه فاطلق على كل ألم فادح وإن لم يكن عقاباً يراد به ردع الجاني عن المعاودة وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذاب كالتقزية والتمريض والعظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير فمن ضرورة كون الحقير دون الصغير كون العظيم فوق الكبير ويستعملان في الجثث والأحداث تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره ووصف العذاب به لتأكيد مايفيده التنكير من التفخيم والتهويل والمبالغة في ذلك والمعنى أن على أبصارهم ضرباً من الغشاوة خارجاً مما يتعارفه الناس وهي غشاوة التعامي عن الآيات ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لايبلغ كنهه ولايدرك غايته اللهم إنا نعوذ بك من ذلك كله ياأرحم الراحمين (وَمِنَ النَّاسِ) شروع في بيان أن بعض من حكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ماذكر من محض الإصرار على الكفر والعناد بل يضمون اليه فنوناً أخر من الشر والفساد وتعديد لجناياتهم الشنيعة المستتبعة لأحوال هائلة عاجلة وآجلة وأصل ناس أناس كما يشهد له إنسان وأناسي وانس حذفت همزته تخفيفاً كما قيل لوقة في ألوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لايكاد يجمع بينهما وأما في قوله: إن المنايا يطلعن على الإناس الآمنينا فشاذ سموا بذلك لظهورهم وتعلق الإيناس بهم كما سمي الجن جناً لاجتنانهم وذهب بعضهم إلى أن أصله النوس وهو الحركة انقلبت واوه ألفاً لتحركها وانفتاح ماقبلها وبعضهم إلى أنه مأخوذ من نسي نقلت لامه إلى موضع العين فصار نيساً ثم قلبت ألفا سموا بذلك لنسيانهم ويروى عن ابن عباس أنه قال سمي الإنسان إنساناً لأنه عهد اليه فنسي واللام فيه اما للعهد أو للجنس المقصور على المصرين حسبما ذكر في الموصول كانه قيل ومنهم أو من أولئك والعدول إلى الناس للإيذان بكثرتهم كما ينبىء عنه التبعيض ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه أو نعت لمقدر هو المبتدأ كما في قوله عز وجل ومنا دون ذلك أي وجمع منا الخ ومن في قوله تعالى (مَنْ يَقُولُ) موصولة أو موصوفة ومحلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذي يقول كقوله تعالى ومنهم الذين يؤذون النبي الآية أو فريق يقول كقوله تعالى من المؤمنين رجال الخ على أن يكون مناط الإفادة والمقصود بالإصالة اتصافهم بما في حيز الصلة أو الصفة ومايتعلق به من الصفات جميعاً لا كونهم ذوات أولئك المذكورين وأما جعل الظرف خبراً كما هو الشائع في موارد الاستعمال فيأباه جزالة المعنى لأن كونهم من الناس ظاهر فالاخبار به عار عن الفائدة كما قيل فان مبناه توهم كون المراد بالناس الجنس مطلقاً وكذا مدار الجواب عنه بأن الفائدة هو التنبيه على أن الصفات المذكورة تنافي الإنسانية فحق من يتصف بها أن لايعلم كونه من الناس فيخبر به ويتعجب منه وأنت خبير بأن الناس عبارة عن المعهودين أو عن الجنس المقصور على المصرين وأياما كان فالفائدة ظاهرة بل لأن خبرية الظرف تستدعي أن يكون اتصاف هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصلة في ثلاث عشرة آية عنواناً للموضوع مفروغاً عنه غير مقصود بالذات ويكون مناط الإفادة كونهم من أولئك المذكورين ولاريب لأحد في أنه يجب حمل النظم الجليل على أجزل المعاني وأكملها وتوحيد الضمير في يقول باعتبار لفظة من وجمعه في قوله (ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) ومابعده

باعتبار معناها والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى مالا يتناهى أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار إذ لاحد وراءه وتخصيصهم للايمان بهما بالذكر مع تكرير الباء لادعاء أنهم قد حازوا الإيمان من قطريه وأحاطوا به من طرفيه وأنهم قد آمنوا بكل منهما على الإصالة والاستحكام وقد دسوا تحته ماهم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن إيمانهم بواحد منهما إيمانا في الحقيقة إذ كانوا مشركين بالله بقولهم عزير ابن الله وجاحدين باليوم الآخر بقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ونحو ذلك وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبثهم ودعارتهم فان ماقالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن ذلك إيمانا فكيف وهم يقولونه تمويها على المؤمنين واستهزاء بهم (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) رد لما ادعوه ونفى لما انتحلوه وما حجازية فان جواز دخول الباء فى خبرها للتأكيد النفى اتفاقى بخلاف التميمية وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة فى الرد بإفادة انتفاء الايمان عنهم فى جميع الأزمنة لا فى الماضى فقط كما يفيده الفعلية ولا يتوهمن أن الجملة الاسمية الايجابية تفيد دوام الثبوت فعند دخول النفى عليها يتعين الدلالة على نفى الدوام فإنها بمعونة المقام تدل على دوام النفى قطعا كما أن المضارع الخالى عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود وعند دخول حرف الامتناع عليه تدل على استمرار الامتناع لا على امتناع الاستمرار كما فى قوله عز وجل ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فان عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرار التعجيل وإطلاق الايمان عما قيدوه به للايذان بأنهم ليسوا من جنس الايمان فى شىء أصلا فضلا عن الايمان بما ذكروا وقد جوز أن يكون المراد ذلك ويكون الاطلاق للظهور ومدلول الآية الكريمة أن من أظهر الايمان واعتقاده بخلافه لا يكون مؤمنا فلا حجة فيها على الكرامية القائلين بأن من تفوه بكلمتى الشهادة فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه مؤمن (يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) بيان ليقول وتوضيح لما هو غرضهم مما يقولون أو استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل مالهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين فقيل يخادعون الله الخ أى يخدعون وقد قرىء كذلك وإيثار صيغة المفاعلة لافادة المبالغة فى الكيفية فان الفعل متى غولب فيه بولغ فيه قطعا أو فى الكمية كما فى الممارسة والمزاولة فإنهم كانوا مداومين على الخدع والخدع أن يوهم صاحبه خلاف مايريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب أو يوهمه المساعدة على مايريد هو به ليغتر بذلك فينجو منه بسهولة من قولهم ضب خادع وخدع وهو الذى إذا أمر الحارش يده على باب جحره يوهمه الاقبال عليه فيخرج من بابه الآخر وكلا المعنيين مناسب للمقام فإنهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنابذين وأن يدفعوا عن أنفسهم مايصيب سائر الكفرة وأياما كان فنسبته إلى الله سبحانه إما على طريق الاستعارة والتمثيل لافادة كمال شناعة جنايتهم أى يعاملون معاملة الخادعين وإما على طريقة المجاز العقلى بأن ينسب إليه تعالى ماحقه أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إبانة لمكانته عنده تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم وقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله مع إفادة كمال الشناعة كما مر وإما المجرد التوطئة والتمهيد لما بعده من نسبته إلى الذين آمنوا والايذان بقوة اختصاصهم به تعالى كما فى قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقوله تعالى إن الذين يؤذون الله ورسوله وإبقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقى بناء على زعمهم الفاسد وترجمة عن اعتقادهم الباطل كأنه قيل يزعمون أنهم يخدعون الله والله يخدعهم أو على جعلها استعارة تبعية أو تمثيلا لما أن صورة صنعهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم بإجراء أحكام الاسلام عليهم وهم عنده أخبث الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار استدراجا لهم وامتثال الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأمر الله تعالى فى ذلك مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين كما قيل عما لا يرتضيه

الذوق السليم أما الأول فلأن المنافقين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعهم بمقابلة خدعهم له لم يتصور منهم التصدي للخدع وأما الثاني فلأن مقتضى المقام إيراد حالهم خاصة وتصويرها بما يليق بها من الصورة المستهجنة وبيان أن غائلتها آيلة إليهم من حيث لا يحتسبون كما يعرب عنه قوله عز وجل (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) فالتعرض لحال الجانب الآخر مما يخل بتوفية المقام حقه وهو حال من ضمير يخادعون أي يفعلون ما يفعلون والحال أنهم ما يضرون بذلك إلا أنفسهم فان دائرة فعلهم مقصورة عليهم أو ما يخدعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يغرونها بالأكاذيب فيلقونها في مهاوي الردى وقرىء وما يخادعون والمعنى هو المعنى ومن حافظ على الصيغة فيما قبل قال وما يعاملون تلك المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم لأن ضررها لا يحيق إلا بهم أو ما يخادعون حقيقة إلا أنفسهم حيث يمنونها الأباطيل وهي أيضا تغرهم وتمنيهم الأماني الفارغة وقرىء وما يخدعون من التخديع وما يخدعون أي يختدعون ويخدعون ويخادعون على البناء للمفعول ونصب أنفسهم بنزع الخافض والنفس ذات الشيء وحقيقته وقد يقال للروح لأن نفس الحي به وللقلب أيضا لأنه محل الروح أو متعلقه وللدم أيضا لأن قوامها به وللماء أيضا لشدة حاجتها إليه والمراد هنا هو المعنى الاول لأن المقصود بيان أن ضرر مخادعتهم راجع إليهم لا يتخطاهم إلى غيرهم وقوله تعالى (وَمَا يَشْعُرُونَ) حال من ضمير ما يخدعون أي يقتصرون على خدع أنفسهم والحال أنهم ما يشعرون أي ما يحسون بذلك لتماديهم في الغواية وحذف المفعول إما لظهوره أو لعمومه أي ما يشعرون بشيء أصلا جعل لحوق وبال ما صنعوا بهم في الظهور بمنزلة الامر المحسوس الذي لا يخفى إلا على مؤوف الحواس مختل المشاعر (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ويوجب الخلل في أفاعيله ويؤدي إلى الموت استعير ههنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدي إلى الهلاك الروحاني والتنكير للدلالة على كونه نوعا مبهما غير ما يتعارفه الناس من الامراض والجملة مقررة لما يفيده قوله تعالى وما هم بمؤمنين من استمرار عدم إيمانهم أو تعليل له كأنه قيل ما لهم لا يؤمنون فقيل في قلوبهم مرض يمنعه (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والانذار والجملة معطوفة على ما قبلها والفاء للدلالة على ترتب مضمونها عليه وبه اتضح كونهم من الكفرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب وقيل زادهم كفرا بزيادة التكاليف الشرعية لأنهم كانوا كلما ازداد التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفرا ويجوز أن يكون المرض مستعارا لما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور عند مشاهدتهم لعزة المسلمين فزيادته تعالى إياهم مرضا ما فعل بهم من إلقاء الروع وقذف الرعب في قلوبهم عند اعزاز الدين بامداد النبي صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة وتأييده بفنون النصر والتمكين فقوله تعالى في قلوبهم مرض الخ حينئذ استئناف تعليلي لقوله تعالى يخادعون الله الخ كأنه قيل ما لهم يخادعون ويداهنون ولم لا يجاهرون بما في قلوبهم من الكفر فقيل في قلوبهم ضعف مضاعف هذه حالهم في الدنيا (وَلَهُمْ) في الآخرة (عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي مؤلم يقال ألم وهو أليم كوجع وهو وجيع وصف به العذاب للمبالغة كما في قوله تحية بينهم ضرب وجيع على طريقة جد جده فان الالم والوجع حقيقة للمؤلم والمضروب كما أن الجد للجاد وقيل هو بمعنى المؤلم كالسميع بمعنى المسمع وليس ذلك بثبت كما سيجيء في قوله تعالى بديع السموات والارض (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) الباء للسببية أو للمقابلة وما مصدرية داخلة في الحقيقة على يكذبون وكلمة كانوا مقحمة لافادة دوام كذبهم وتجدده أي بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذي هو قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر وهم غير مؤمنين فانه اخبار باحداثهم الايمان فيما مضى لا انشاء للايمان ولو سلم فهو متضمن للاخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبي بمعنى الاذعان والقبول قطعا

ويجوز أن يكون محمولا على الظاهر بناء على رأى من يجوز أن يكون لكان الناقصة مصدر كما صرح به فى قول الشاعر

بيذل وحلم ساد فى قومه الفتى وكونك إياه عليك يسير

أى لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذبون على الاستمرار وترتيب العذاب عليه من بين سائر موجباته القوية اما لأن المراد بيان العذاب الخاص بالمنافقين بناء على ظهور شركتهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبه من الاصرار على الكفر كما ينبيء عنه قوله تعالى ومن الناس الخ واما للإيذان بان لهم بمقابلة سائر جناياتهم العظيمة من العذاب مالا يوصف واما للرمز الى كمال سماجة الكذب نظر إلى ظاهر العبارة المخيلة لانفراده بالسببية مع إحاطة علم السامع بان لحوق العذاب بهم من جهات شتى وان الاقتصار عليه للاشعار بنهاية قبحه والتنفير عنه . عن الصديق رضى الله عنه ويروى مرفوعا أيضاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم إياكم والكذب فانه مجانب للايمان وماروى أن ابراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات فالمراد به التعريض وإنما سمى به لشبهه به صورة وقيل ما موصولة والعائد محذوف أى بالذى يكذبونه وقرىء يكذبون والمفعول محذوف وهو اما النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن وما مصدرية أى بسبب تكذيبهم إياه عليه السلام أو القرآن أو موصولة أى بالذى يكذبونه على أن العائد محذوف ويجوز أن يكون صيغة التفعيل للمبالغة كما فى بين فى بان وقلص فى قلص أو للتكثير كما فى موتت البهائم وبركت الإبل وأن يكون من قولهم كذب الوحشى إذا جرى شوطا ثم وقف لينظر ماوراءه فان المنافق متوقف فى أمره متردد فى رأيه ولذلك قيل له مذبذب (وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ) شروع فى تعديد بعض من قبائحهم المتفرعة على ماحكى عنهم من الكفر والنفاق وإذا ظرف زمن مستقبل ويلزمها معنى الشرط غالبا ولا تدخل إلا فى الأمر المحقق أو المرجح وقوعه واللام متعلقة بقيل ومعناها الانهاء والتبليغ والقائم مقام فاعله جملة لاتفسدوا على أن المراد بها اللفظ وقيل هو مضمر يفسره المذكور والفساد خروج الشىء عن الحالة اللائقة به والصلاح مقابله والفساد فى الأرض هيج الحروب والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلال أمر المعاش والمعاد والمراد بما نهوا عنه مايؤدى الى ذلك من افشاء أسرار المؤمنين الى الكفار واغرائهم عليهم وغير ذلك من فنون الشرور كما يقال للرجل لا تقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك فى النار إذا أقدم على ماتلك عاقبته وهو اما معطوف على يقول فان جعلت كلمة من موصولة فلا محل له من الاعراب ولا بأس بتخلل البيان أو الاستئناف وما يتعلق بهما بين أجزاء الصلة فان ذلك ليس توسيطا بالأجنبى وان جعلت موصوفة فمحله الرفع والمعنى ومن الناس من اذا نهوا من جهة المؤمنين عماهم عليه من الإفساد فى الأرض (قَالُوا) اراءة للناهين ان ذلك غير صادر عنهم مع أن مقصودهم الأصلى انكار كون ذلك افسادا وادعاء كونه اصلاحا محضا كما سيأتى توضيحه (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) أى مقصورون على الاصلاح المحض بحيث لا يتعلق به شائبة الافساد والفساد مشيرين بكلمة انما الى أن ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغى أن يرتاب فيه واما كلام مستأنف سيق لتعديد شنائعهم واما عطفه على يكذبون بمعنى ولهم عذاب أليم بكذبهم وبقولهم حين نهوا عن الافساد انما نحن مصلحون كما قيل فيأباه ان هذا النحو من التعليل حقه أن يكون بأوصاف ظاهرة العلية مسلمة الثبوت للموصوف غنية عن البيان لشهرة الاتصاف بها عند السامع أو لسبق ذكره صريحاً كما فى قوله تعالى بما كانوا يكذبون فان مضمونه عبارة عما حكى عنهم من قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر أو لذكر مايستلزمه استلزاما ظاهرا كما فى قوله عز وجل ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب فان ماذكر من الضلال عن سبيل الله مما يوجب حتما نسيان جانب الآخرة التى من جملتها يوم الحساب ومالم يكن كذلك فحقه أن يخبر بعليته قصدا كما فى قوله تعالى ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الآية وقوله ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق الآية الى غير ذلك ولاريب فى أن هذه

الشرطية وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليها ليس مضمون شىء منها معلوم الانتساب إليهم عند السامعين بوجه من الوجوه المذكورة حتى تستحق الانتظام فى سلك التعليل المذكور فاذن حقها أن تكون مسوقة على سنن تعديد قبائحهم على أحد الوجهين مفيدة لاتصافهم بكل واحد من تلك الأوصاف قصدا واستقلالا كيف لا وقوله عز وجل (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ) ينادى بذلك نداء جليا فانه رد من جهته تعالى لدعواهم المحكية أبلغ رد وأدله على سخط عظيم حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدى إلى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع وصدرت الجملة بحرفى التأكيد ألا المنبهة على تحقق ما بعدها فان الهمزة الانكارية الداخلة على النفى تفيد تحقيق الاثبات قطعا كما فى قوله تعالى أليس الله بكاف عبده ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة إلا مصدرة بما يتلقى به القسم وأختها التى هى أما من طلائع القسم وقيل هما حرفان بسيطان موضوعان للتنبيه والاستفتاح وان المقررة للنسبة وعرف الخبر ووسط ضمير الفصل لرد ما فى قصر أنفسهم على الإصلاح من التعريض بالمؤمنين ثم استدرك بقوله تعالى (وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) للايذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة لكن لا حس لهم حتى يدركوه وهكذا الكلام فى الشرطيتين الآتيتين وما بعدهما من رد مضمونهما ولولا أن المراد تفصيل جناياتهم وتعديد خبائثهم وهناتهم ثم اظهار فسادها وإبانة بطلانها لما فتح هذا الباب والله أعلم بالصواب (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف اثر نهيهم عن المنكر إتماما للنصح وإكمالا للارشاد (آمِنُوا) حذف المؤمن به لظهوره أو أريد افعلوا الإيمان (كَمَا آمَنَ النَّاسُ) الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف أى آمنوا إيمانا مماثلا لإيمانهم فما مصدرية أو كافة كما فى ربما فانها تكف الحرف عن العمل وتصحح دخولها على الجملة وتكون للتشبيه بين مضمونى الجملتين أى حققوا إيمانكم كما تحقق إيمانهم واللام للجنس والمراد بالناس الكاملون فى الإنسانية العاملون بقضية العقل فان اسم الجنس كما يستعمل فى مسماه يستعمل فيما يكون جامعا للمعانى الخاصة به المقصودة منه ولذلك يسلب عما ليس كذلك فيقال هو ليس بإنسان وقد جمعهما من قال إذ الناس ناس والزمان زمان أو للعهد والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأضرابه والمعنى آمنوا إيمانا مقرونا بالإخلاص متمحضا عن شوائب النفاق مماثلا لإيمانهم (قَالُوا) مقابلين للامر بالمعروف بالإنكار المنكر واصفين للمراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسان (أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) مشيرين باللام إلى من أشير إليهم فى الناس من الكاملين أو المعهودين أو إلى الجنس بأسره وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد والسفه خفة وسخافة رأى يورثهما قصور العقل ويقابله الحلم والأناة وإنما نسبوهم اليه مع أنهم فى الغاية القاصية من الرشد والرزانة والوقار لكمال انهماك أنفسهم فى السفاهة وتماديهم فى الغواية وكونهم ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا فمن حسب الضلال هدى يسمى الهدى لا محالة ضلالا أو لتحقير شأنهم فان كثيرا من المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس عبد الله بن سلام وأمثاله وأياما كان فالذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعى فخامة شأنه الجليل أن يكون صدور هذا القول عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جوابا عن نصيحتهم وحيث كانوا فحواه تسفيه أولئك المشاهير الأعلام والقدح فى إيمانهم لزم كونهم مجاهرين لا منافقين وذلك مما لا يكاد يساعده السباق والسياق وعن هذا قالوا ينبغى أن يكون ذلك فيما بينهم لا على وجه المؤمنين قال الإمام الواحدى إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم وأنت خبير بأن إبراز ما صدر عن أحد المتحاورين فى الخلاء فى معرض ما جرى بينهما فى مقام المحاورة مما لا عهد به فى الكلام فضلا عما هو فى منصب الإعجاز فالحق الذى لا محيد عنه أن قولهم هذا وإن صدر عنهم

بمحضر من الناصحين لا يقتضى كونهم مجاهرين فإنه ضرب من الكفر أنيق وفن فى النفاق عريق مصنوع على شاكلة قولهم واسمع غير مسمع فكما أنه كلام ذو وجهين مثلهم محتمل للشر بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما ترضاه ونحوه وللخير بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين إرادة المعنى الأخير وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الأول مطمئنون به ولذلك نهوا عنه كذلك هذا الكلام محتمل للشر كما ذكر فى تفسيره وللخير أن يحمل على ادعاء الإيمان كايمان الناس وإنكار ما اتهموا به من النفاق على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء والمجانين الذين لا اعتداد بايمانهم لو آمنوا ولا نؤمن كايمان الناس حتى تأمرونا بذلك قد خاطبوا به الناصحين استهزاء بهم مرائين لارادة المعنى الأخير وهم معولون على الأول فرد عليهم ذلك بقوله عز قائلا (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) أبلغ رد وجهلوا أشنع تجهيل حيث صدرت الجملة بحرفى التأكيد حسبما أشير إليه فيما سلف وجعلت السفاهة مقصورة عليهم وبالغة إلى حيث لا يدرون أنهم سفهاء وعن هذا اتضح لك سر ما مر فى تفسير قوله تعالى انما نحن مصلحون فان حمله على المعنى الأخير كما هو رأى الجمهور مناف لحالهم ضرورة أن مشافهتهم للناصحين بادعاء كون ما نهوا عنه من الافساد إصلاحا كما مر إظهار منهم للشقاق وبروز باشخاصهم من نفق النفاق والاعتذار بأن المراد بما نهوا عنه مداراتهم للمشركين كما ذكر فى بعض التفاسير وبالاصلاح الذى يدعونه إصلاح ما بينهم وبين المؤمنين وأن معنى قوله تعالى ألا إنهم هم المفسدون أنهم فى تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين لاشعارها باعطاء الدنية وانبائها عن ضعفهم الملجىء إلى توسيط من يتصدى لاصلاح ذات البين فضلا عن كونهم مصلحين مما لا سبيل اليه قطعا فان قوله تعالى ولكن لا يشعرون ناطق بفساده كيف لا وانه يقتضى أن يكون المنافقون فى تلك الدعوى صادقين قاصدين للاصلاح ويأتيهم الافساد من حيث لا يشعرون ولا ريب فى أنهم فيها كاذبون لا يعاشرونهم إلا مضارة للدين وخيانة للمؤمنين فاذن طريق حل الاشكال ليس إلا ما أشير اليه فان قولهم إنما نحن مصلحون محتمل للحمل على الكذب وإنكار صدور الافساد المنسوب إليهم عنهم على معنى إنما نحن مصلحون لا يصدر عنا ما تنهوننا عنه من الافساد وقد خاطبوا به الناصحين استهزاء بهم وإراءة لإرادة هذا المعنى وهم معرجون على المعنى الأول فرد عليهم بقوله تعالى ألا إنهم هم المفسدون الآية والله سبحانه أعلم بما أودعه فى تضاعيف كتابه المكنون من السر المخزون نسأله العصمة والتوفيق والهداية إلى سواء الطريق وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون لما أنه أكثر طباقا لذكر السفه الذى هو فن من فنون الجهل ولأن الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوط بالتميز بين الحق والباطل وذلك مما لا يتسنى إلا بالنظر والاستدلال وأما النفاق وما فيه من الفتنة والإفساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسدا فأمر بديهى يقف عليه من له شعور ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بلا يشعرون (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم فى أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين المخاطبين ومساق ما صدرت به قصتهم لتحرير مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ولذلك لم يتعرض ههنا لمتعلق الإيمان فليس فيه شائبة التكرير. روى أن عبد الله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة فقال ابن أبى انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فلما دنوا منهم أخذ بيد أبى بكر رضى الله عنه فقال مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد على كرم الله وجهه فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيد بنى هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل قال له على رضى الله عنه يا عبد الله اتق الله ولا تنافق فان المنافقين شر خلق الله تعالى فقال له مهلا يا أبا الحسن

أنى تقول هذا والله ان إيماننا كايمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا فقال ابن أبى لأصحابه كيف رأيتمونى فعلت فاذا رأيتموهم فافعلوا مثل مافعلت فأثنوا عليه خيرا وقالوا مانزال بخير ماعشت فينافرجع المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت واللقاء المصادفة يقال لقيته ولاقيته أى صادفته واستقبلته وقرىء إذا لاقوا (وإذا خلوا) من خلوت إلى فلان أى انفردت معه وقد يستعمل بالباء أو من خلا بمعنى مضى ومنه القرون الخالية وقولهم خلاك ذم أى جاوزك ومضى عنك وقد جوز كونه من خلوت به إذا سخرت منه على أن تعديته بالى فى قوله تعالى (إلى شيطينهم) لتضمنه معنى الانهاء أى وإذا أنهوا اليهم السخرية الخ وأنت خبير بأن تقييد قولهم المحكى بذلك الانهاء بمالاوجه له والمراد بشياطينهم المماثلون منهم للشيطان فى التمرد والعناد المظهرون لكفرهم وإضافتهم اليهم للمشاركة فى الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم وجعل سيبويه نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال على أنه من شطن إذا بعد فانه بعيد من الخير والرحمة ويشهد له قولهم تشيطن وأخرى زائدة فوزنه فعلان على أنه من شاط أى هلك أو بطل ومن أسمائه الباطل وقيل معناه هاج واحترق (قالوا إنا معكم) أى فى الدين والاعتقاد لانفارقكم فى حال من الأحوال وإنما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة لأن مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين والتأكيد للانباء عن صدق رغبتهم ووفور نشاطهم لالإنكار الشياطين بخلاف معاملتهم مع المؤمنين فإنهم إنما يدعون عندهم احداث الإيمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء الكمال فيه أو الثبات عليه (إنما نحن) أى فى إظهار الإيمان عند المؤمنين (مستهزءون) بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان حقيقة وهو استئناف مبنى على سؤال ناشىء من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم إنا معكم فما بالكم توافقون المؤمنين فى الإتيان بكلمة الإيمان فقالوا إنما نحن مستهزؤن بهم فلا يقدح ذلك فى كوننا معكم بل يؤكده وقد ضمنوا جوابهم أنهم يهينون المؤمنين ويعدون ذلك نصرة لدينهم أو تأكيد لما قبله فإن المستهزىء بالشىء مصر على خلافه أو بدل منه لأن من حقر الاسلام فقد عظم الكفر والاستهزاء بالشىء السخرية منه يقال هزأت واستهزأت بمعنى وأصله الخفة من الهزء وهو القتل السريع وهزأ يهزأ مات على مكانه وتهزأ به ناقته أى تسرع به وتخف (الله يستهزىء بهم) أى يجازيهم على استهزائهم سمى جزاؤه باسمه كما سمى جزاء السيئة سيئة اما للمشاكلة فى اللفظ أو المقارنة فى الوجود أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكونون كالمستهزىء بهم أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم أما فى الدنيا فباجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالامهال والزيادة فى النعمة على التمادى فى الطغيان وأما فى الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا اليه سد عليهم الباب وذلك قوله تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون وإنما استؤنف للايذان بأنهم قد بلغوا فى المبالغة فى استهزاء المؤمنين إلى غاية ظهرت شناعته عند السامعين وتعاظم ذلك عليهم حتى اضطرهم إلى أن يقولوا امامصير أمر هؤلاء وماعاقبة حالهم وفيه أنه تعالى هو الذى يتولى أمرهم ولا يحوجهم إلى المعارضة بالمثل ويستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزاؤهم عنده من باب الاستهزاء حيث ينزل بهم من النكال ويحل عليهم من الذل والهوان مالا يوصف وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار كما يعرب عنه قوله عز قائلا أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين وما كانوا خالين فى أكثر الأوقات من تهتك أستار وتكشف أسرار ونزول فى شأنهم واستشعار حذر من ذلك كما أنبأ عنه قوله عز وجل يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ماتحذرون (ويمدهم) أى يزيدهم ويقويهم من مد الجيش وأمده إذا زاده وقواه ومنه مددت الدواة والسراج إذا أصلحتهما بالحبر والزيت وإيثاره على يزيدهم للرمز إلى أن ذلك منوط بسوء اختيارهم لما أنه

إنما يتحقق عند الاستمداد وما يجرى مجراه من الحاجة الداعية إليه كما فى الأمثلة المذكورة وقرىء يمدهم من الامداد وهو صريح فى أن القراءة المشهورة ليست من المد فى العمر على أنه يستعمل باللام كالاملاء قال تعالى ونمد له من العذاب مدا وحذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل (فى طُغْيَـٰنِهِمْ) متعلق بيمدهم والطغيان مجاوزة الحد فى كل أمر والمراد إفراطهم فى العتو وغلوهم فى الكفر وقرىء بكسر الطاء وهى لغة فيه كلقيان فى لقيان وفى إضافته إليهم إيذان باختصاصه بهم وتأييد لما أشير إليه من ترتب المد على سوء اختيارهم (يَعْمَهُونَ) حال من الضمير المنصوب أو المجرور لكون المضاف مصدرا فهو مرفوع حكما والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر وهو التحير والتردد بحيث لا يدرى أين يتوجه وإسناد هذا المد إلى الله تعالى مع إسناده فى قوله تعالى وإخوانهم يمدونهم فى الغى محقق لقاعدة أهل الحق من أن جميع الأشياء مستند من حيث الخلق إليه سبحانه وإن كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم والمعتزلة لما تعذر عليهم اجراء النظم الكريم على مسلكهم نكبوا إلى شعاب التأويل فأجابوا أولا بأنهم لما أصروا على كفرهم خذلهم الله تعالى ومنعهم ألطافه فتزايد الرين فى قلوبهم فسمى ذلك مددا فى الطغيان فأسند إيلاؤه إليه تعالى ففى المسند مجاز لغوى وفى الاسناد عقلى لأنه إسناد للفعل إلى المسبب له وفاعله الحقيقى هم الكفرة وثانيا بأنه أريد بالمد فى الطغيان ترك القسر والالجاء إلى الايمان كما فى قوله تعالى ونذرهم فى طغيانهم يعمهون فالمجاز فى المسند فقط وثالثا بأن المراد به معناه الحقيقى وهو فعل الشيطان لكنه أسند إليه سبحانه مجازا لأنه بتمكينه تعالى وإقداره (أُولَـٰئِكَ) إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميزة لهم عن عداهم أكمل تمييز بحيث صاروا كأنهم حضار مشاهدون على ما هم عليه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر وسوء الحال ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ) والجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وبيان لكمال جهالتهم فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال باظهار غاية سماجتها وتصويرها بصورة ما لا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز فضلا عن العقلاء والضلالة الجور عن القصد والهدى التوجه إليه وقد استعير الأول للعدول عن الصواب فى الدين والثانى للاستقامة عليه والاشتراء استبدال السلعة بالثمن أى أخذها به لا بذله لتحصيلها كما قيل وإن كان مستلزما له فان المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب الذى هو المعتبر فى عقد البيع ثم استعير لأخذ شىء باعطاء ما فى يده عينا كان كل منهما أو معنى لا للاعراض عما فى يده محصلا به غيره كما قيل وإن استلزمه لما مر سره ومنه قوله:

أخذت بالجمة رأسا أزعرا … وبالثنايا الواضحات الدردرا
وبالطويل العمر عمرا جيدرا … كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعار لأخذها بدلا منه أخذا منوطا بالرغبة فيها والاعراض عنه ولما اقتضى ذلك أن يكون ما يجرى مجرى الثمن حاصلا للكفرة قبل العقد وما يجرى مجرى المبيع غير حاصل لهم إذ ذاك حسبما هو فى البيت ولا ريب فى أنهم بمعزل من الهدى مستمرون على الضلالة استدعى الحال تحقيق ما جرى مجرى العوضين فنقول وبالله التوفيق ليس المراد بما تعلق به الاشتراء ههنا جنس الضلالة الشاملة لجميع أصناف الكفرة حتى تكون حاصلة لهم من قبل بل هو فردها الكامل الخاص بهؤلاء على أن اللام للعهد وهو عمههم المقرون بالمد فى الطغيان المترتب على ما حكى عنهم من القبائح وذلك إنما يحصل لهم عند اليأس عن اهتدائهم والختم على قلوبهم وكذا ليس المراد بما فى حيز الثمن نفس الهدى بل هو التمكن التام منه بتعاضد الأسباب وتآخذ المقدمات المستتبعة له بطريق الاستعارة كأنه نفس الهدى بجامع المشاركة فى استتباع الجدوى ولا مرية فى أن هذه المرتبة من التمكن كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزات

القاهرة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبما سمعوه من نصائح المؤمنين التى من جملتها ماحكى من النهى عن الافساد فى الارض والامر بالايمان الصحيح وقد نبذوها وراء ظهورهم وأخذوا بدلها الضلالة الهائلة التى هى العمه فى تيه الطغيان وحمل الهدى على الفطرة الاصلية الحاصلة لكل أحد يأباه ان اضاعتها غير مختصة بهؤلاء ولئن حملت على الاضاعة التامة الواصلة الى حد الختم على القلوب المختصة بهم فليس فى اضاعتها فقط من الشناعة ما فى اضاعتها مع ما يؤيدها من المؤيدات العقلية والنقلية على أن ذلك يقضى إلى كون ذكر مافصل من أول السورة الكريمة إلى هنا ضائعا وأبعد منه حمل اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد اختيارها عليه من غير اعتبار كونه فى أيديهم بناء على أنه يستعمل اتساعا فى ايثار أحد الشيئين الكائنين فى شرف الوقوع على الآخر فانه مع خلوه عن المزايا المذكورة بالمرة مخل برونق الترشيح الآتى هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم السابقة المحكية وهو الانسب بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما إذا جعل ترجمة عن جناية أخرى من جناياتهم فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وحقية دينه بما كانوا يشاهدونه من نعوته عليه الصلاة والسلام فى التوراة وقد كانوا على يقين منه حتى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عادوارم فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به كما سيأتى ولامساغ لحمل الهدى على ماكانوا يظهرونه عند لقاء المؤمنين فانها ضلالة مضاعفة (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) عطف على الصلة داخل فى حيزها والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها والتجارة صناعة التجار وهو التصدى للبيع والشراء لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال يقال ربح فلان فى تجارته أى استشف فيها وأصاب الربح واسناد عدمه الذى هو عبارة عن الخسران اليها وهو لاربابها بناء على التوسع المبنى على ما بينهما من الملابسة وفائدته المبالغة فى تخسيرهم لما فيه من الاشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته الى مايلابسهم وايرادهما أثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة وتصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسار التجارة الذى يتحاشى عنه كل أحد للاشباع فى التخسير والتحسير ولاينافى ذلك أن التجارة فى نفسها استعارة لانهما كهم فيما هم عليه من ايثار الضلالة على الهدى وتمرنهم عليه معربة عن كون ذلك صناعة لهم راسخة اذ ليس من ضروريات الترشيح أن يكون باقيا على الحقيقة تابعا للاستعارة لايقصد به الا تقويتها كما فى قولك رأيت أسدا وافى البراثن فانك لاتريد به الا زيادة تصوير للشجاع وأنه أسد كامل من غير أن تريد بلفظ البراثن معنى آخر بل قد يكون مستعارا من ملائم المستعار منه لملائم المستعار له ومع ذلك يكون ترشيحا لأصل الاستعارة كما فى قوله :

فلما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش فى وكريه جاش له صدرى

فان لفظ الوكرين مع كونه مستعارا من معناه الحقيقى الذى هو موضع يتخذه الطائر للتفريخ للرأس واللحية أو للفودين أعنى جانبى الرأس ترشيح باعتبار معناه الاصلى لاستعارة لفظ النسر للشيب ولفظ ابن دأية للشعر الأسود وكذا لفظ التعشيش مع كونه مستعارا للحلول والنزول المستمرين ترشيح لتينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور وقرى تجاراتهم وتعددها لتعدد المضاف اليهم (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) أى الى طرق التجارة فان المقصود منها سلامة رأس المال مع حصول الربح ولئن فات الربح فى صفقة فربما يتدارك فى صفقة أخرى لبقاء الأصل وأما اتلاف الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعا فهؤلاء الذين كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطلبتين فبقوا خائبين خاسرين نائين عن طريق التجارة بألف منزل فالجملة راجعة إلى الترشيح معطوفة على ماقبلها مشاركة له فى الترتب على الاشتراء المذكور والأولى عطفها على اشتروا الخ (مَثَلُهُمْ) زيادة كشف لحالهم وتصوير لها غب تصويرها بصورة ما يؤدى إلى

الخسار بحسب المآل بصورة مايفضى الى الخسار من حيث النفس تهويلا لها وابانة لفظاعتها فان التمثيل ألطف ذريعة الى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه وأقوى وسيلة الى تفهيم الجاهل الغبي وقمع سورة الجامح الأبي كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية وابرازها فى معرض المحسوسات الجلية وابداء للمنكر فى صورة المعروف واظهار للوحشى فى هيئة المألوف والمثل فى الأصل بمعنى المثل والنظير يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك إلا قولا بديعا فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير فى البلاد وخليقا بالقبول فيما بين كل حاضر وباد استعير لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها وبين شىء آخر تشبيه ومنه قوله عز وجل ولله المثل الأعلى أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل وقوله تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون أى قصتها العجيبة الشأن (كَمَثَلِ الذِى) أى الذين كما فى قوله تعالى وخضتم كالذى خاضوا خلا أنه وحد الضمير فى قوله تعالى (اسْتَوْقَدَ نَارًا) نظرا الى الصورة وانما جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائم مقام القائمين لأن المقصود بالوصف هى الجملة الواقعة صلة له دون نفسه بل انما هو وصلة لوصف المعارف بها ولأنه حقيق بالتخفيف لاستطالته بصلته ولذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرته ثم اقتصر على اللام فى أسماء الفاعلين والمفعولين ولأنه ليس باسم تام بل هو كجزئه فحقه أن لا يجمع ويستوى فيه الواحد والمتعدد كما هو شأن أخواته وليس الذين جمعه المصحح بل النون فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى ولذلك جاء بالياء أبدا على اللغة الفصيحة أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج أو الفريق المستوقد والنار جوهر لطيف مضىء حار محرق واشتقاقها من نار ينور إذا نفر لان فيها حركة واضطرابا واستيقادها طلب وقودها أى سطوعها وارتفاع لهبها وتنكيرها للتفخيم (فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ) الاضاءة فرط الانارة كما يعرب عنه قوله تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتجىء متعدية ولازمة والفاء للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أى فلما أضاءت النار ما حول المستوقد أو فلما أضاء ما حوله والتأنيث لكونه عبارة عن الاماكن والاشياء أو أضاءت النار نفسها فيما حوله على أن ذلك ظرف لاشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها أو ما مزيدة وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران وقيل للعام حول لانه يدور (ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ) النور ضوء كل نير واشتقاقه من النار والضمير للذى والجمع باعتبار المعنى أى أطفأ الله نارهم التى هى مدار نورهم وإنما علق الاذهاب بالنور دون نفس النار لانه المقصود بالاستيقاد لا الاستدفاء ونحوه كما ينبىء عنه قوله تعالى فلما أضاءت حيث لم يقل فلما شب ضرامها أو نحو ذلك وهو جواب لما أو استئناف اجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالهم أشبهت حالهم حال مستوقد انطفأت ناره أو بدل من جملة التمثيل على وجه البيان والضمير على الوجهين للمنافقين والجواب محذوف كما فى قوله تعالى فلما ذهبوا به للايجاز والأمن من الالباس كأنه قيل فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا فى الظلمات خابطين متحيرين خائبين بعد الكدح فى احيائها واسناد الاذهاب الى الله تعالى اما لان الكل بخلقه تعالى واما لان الانطفاء حصل بسبب خفى أو أمر سماوى كريح أو مطر واما للمبالغة كما يؤذن به تعدية الفعل بالباء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والامساك يقال ذهب السلطان بماله اذا أخذه وما أخذه الله عز وجل فأمسكه فلا مرسل له من بعده ولذلك عدل عن الضوء الذى هو مقتضى الظاهر إلى النور لان ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور فى الجملة لعدم استلزام عدم القوى لعدم الضعيف والمراد ازالته بالكلية كما يفصح عنه قوله تعالى (وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَا يُبْصِرُونَ) فان الظلمة التى هى عدم النور وانطماسه بالمرة لاسيما إذا كانت متضاعفة متراكمة متراكبا بعضها على بعض كما يفيده الجمع والتنكير التفخيمى وما بعدها من قوله تعالى لا يبصرون لا يتحقق الابعد أن لا يبقى من النور عين ولا أثر واما لان المراد بالنور ما لا يرضى به الله تعالى من النار المجازية التى هى

نار الفتنة والفساد كما فى قوله تعالى كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ووصفها باضاءة ماحول المستوقد من باب الترشيح أو النار الحقيقية التى يوقدها الغواة ليتوصلوا بها إلى بعض المعاصى ويهتدوا بها فى طرق العيث والفساد فأطفأها الله تعالى وخيب آمالهم وترك فى الاصل بمعنى طرح وخلى وله مفعول واحد فضمن معنى التصيير فجرى مجرى أفعال القلوب قال :

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

والظلمة مأخوذة من قولهم ماظلمك أن تفعل كذا أى مامنعك لانها تسد البصر وتمنعه من الرؤية وقرىء فى ظلمات بسكون اللام وفى ظلمة بالتوحيد ومفعول لا يبصرون من قبيل المطروح كان الفعل غير متعد والمعنى أن حالهم العجيبة التى هى اشتراؤهم الضلالة التى هى عبارة عن ظلمتى الكفر والنفاق المستتبعتين لظلمة سخط الله تعالى وظلمة يوم القيامة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وظلمة العقاب السرمدى بالهدى الذى هو النور الفطرى المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق أو بالهدى الذى كانوا احصلوه من التوراة حسبما ذكر كحال من استوقد ناراً عظيمة حتى كاد ينتفع بها فأطفأها الله تعالى وتركه فى ظلمات هائلة لايتسنى فيها الابصار (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ) اخبار لمبتدا محذوف هو ضمير المنافقين أو خبر واحد بالتأويل المشهور كما فى قولهم هذا حلو حامض والصمم آفة مانعة من السماع وأصله الصلابة واكتناز الاجزاء ومنه الحجر الاصم والقناة الصماء وصمام القارورة سدادها سمى به فقدان حاسة السمع لما أن سببه اكتناز باطن الصماخ وانسداد منافذه بحيث لايكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموجه والبكم الخرس والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الاصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم وأبوا أن يتلقوها بالقبول وينطقوا بها ألسنتهم ولم يجتلوا ماشاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينظروا إلى آيات التوحيد المنصوبة فى الآفاق والأنفس بعين التدبر وأصروا على ذلك بحيث لم يبق لهم احتمال الارعواء عنه صاروا كفاقدى تلك المشاعر بالكلية وهذا عند مفلقى سحرة البيان من باب التمثيل البليغ المؤسس على تناسى التشبيه كما فى قول من قال :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء

لما أن المقدر فى النظم فى حكم الملفوظ لا من قبيل الاستعارة التى يطوى فيها ذكر المستعار له بالكلية حتى لو لم يكن هناك قرينة لحمل على المعنى الحقيقى كما فى قول زهير : لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

(فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) الفاء للدلالة على ترتب مابعدها على ماقبلها أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لايعودون إلى الهدى الذى تركوه وضيعوه أو عن الضلالة التى أخذوها والآية نتيجة للتمثيل مفيدة لزيادة تهويل وتفظيع فان قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعرى السمع والنطق ولا لاختلال مشعر الابصار وقيل الضمير المقدر ومابعده للموصول باعتبار المعنى كالضمائر المتقدمة فالآية الكريمة تتمة للتمثيل وتكميل له بأن ماأصابهم ليس مجرد انطفاء نارهم وبقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة مع بقاء حاسة البصر بحالها بل اختلت مشاعرهم جميعاً واتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة فبقوا جامدين فى مكاناتهم لايرجعون ولايدرون أيتقدمون أم يتأخرون وكيف يرجعون إلى ماابتدؤا منه والعدول إلى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم وقرىء صماً بكماً عمياً اما على الذم كما فى قوله تعالى حمالة الحطب والمخصوص بالذم هم المنافقون أو المستوقدون واما على الحالية من الضمير المنصوب فى تركهم أو المرفوع فى لايبصرون واما على المفعولية لتركهم فالضميران للمستوقدين (أَوْ كَصَيِّبٍ) تمثيل لحالهم اثر تمثيل ليعم البيان منها كل دقيق وجليل ويوفى حقها من التفظيع والتهويل فان تفننهم فى فنون الكفر والضلال

وتنقلهم فيها من حال الى حال حقيق بأن يضرب فى شأنه الامثال ويرخى فى حلبته أعنة المقال ويمد لشرحه أطناب الاطناب ويعقد لأجله فصول وأبواب لما أن كل كلام له حظ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة لابد أن يوفى فيه حق كل من مقامى الاطناب والايجاز فما ظنك بما فى ذروة الاعجاز من التنزيل الجليل ولقد نعى عليهم فى هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم وهو عطف على الاول على حذف المضاف لما سيأتى من الضمائر المستدعية لذلك أى كمثل ذوى صيب وكلمة أو للايذان بتساوى القصتين فى الاستقلال بوجه التشبيه وبصحة التمثيل بكل واحدة منهما وبهما معا والصيب فيعل من الصوب وهو النزول الذى له وقع وتأثير يطلق على المطر وعلى السحاب قال الشماخ .

عفا آية نسج الجنوب مع الصبا وأسحم دان صادق الوعد صيب

ولعل الاول هو المراد ههنا لاستلزامه الثانى وتنكيره لما أنه أريد به نوع منه شديد هائل كالنار فى التمثيل الأول وأمد به ما فيه من المبالغات من جهة مادته الاولى التى هى الصاد المستعلية والياء المشددة والباء الشديدة ومادته الثانية أعنى الصوب المنبىء عن شدة الانسكاب ومن جهة بنائه الدال على الثبات وقرىء أو كصائب (مِنَ السَّمَاءِ) متعلق بصيب أو بمحذوف وقع صفة له والمراد بالسماء هذه المظلة وهى فى الاصل كل ما علاك من سقف ونحوه ومن الحسن انها موج مكفوف أى ممنوع بقدرة الله عز وجل من السيلان وتعريفها للايذان بأن انبعاث الصيب ليس من أفق واحد فان كل أفق من آفاقها أى كل ما يحيط به كل أفق منها سماء على حدة قال ومن بعد أرض بيننا وسماء كما أن كل طبقة من طباقها سماء قال تعالى وأوحى فى كل سماء أمرها والمعنى انه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالآفاق وقيل المراد بالسماء السحاب واللام لتعريف الماهية (فِيهِ ظُلُمَٰتٌ) أى أنواع منها وهى ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر وظلمة اظلال ما يلزمه من الغمام الاسحم المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل وجعله محلا لها مع أن بعضها لغيره كظلمتى الغمام والليل لما أنهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغة فى شدته وتهويلا لامره وايذانا بانه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام وهو السر فى عدم جعل الظلمات هو الاصل المستتبع للبواقى مع ظهور ظرفيتها للكل إذ لو قيل أو كظلمات فيها صيب الخ لما أفاد أن للصيب ظلمة خاصة به فضلا عن كونها غالبة على غيرها (وَرَعْدٌ) وهو صوت يسمع من السحاب والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض أو من انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها بسوق الرياح اياه سوقا عنيفا (وبرقٌ) وهو ما يلمع من السحاب من برق الشىء بريقا أى لمع وكلاهما فى الاصل مصدر ولذلك لم يجمعا وكونهما فى الصيب باعتبار كونهما فى أعلاه ومصبه ووصول أثرهما اليه وكونهما فى الظلمات الكائنة فيه والتنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقق شرط العمل بالاتفاق وقيل بالابتداء والجملة اما صفة لصيب أو حال منه لتخصصه بالصفة أو بالعمل فيما بعده من الجار أو من المستكن فى الظرف الاول على تقدير كونه صفة لصيب والضمائر فى قوله عز وجل (يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم) للمضاف الذى أقيم مقامه المضاف اليه فان معناه باق وان حذف لفظه تعويلا على الدليل كما فى قوله تعالى وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون فان الضمير للاهل المدلول عليه بما قام مقامه من القرية قال حسان رضى الله عنه :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

قال تذكير الضمير المستكن فى يصفق لرجوعه إلى الماء المضاف إلى بردى والا لأنث حتما وايثار الجعل المنبىء عن دوام والملابسة واستمرار الاستقرار على الادخال المفيد لمجرد الانتقال من الخارج إلى الداخل للمبالغة فى بيان سد المسامع

باعتبار الزمان كما أن ايراد الأصابع بدل الأنامل للاشباع فى بيان سدها باعتبار الذات كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها
فحسب كما هو المعتاد ويجوز أن يكون هذا إيماء إلى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال
الجوارح على النهج المعتاد وكذا الحال فى عدم تعيين الأصبع المعتاد أعنى السبابة وقيل ذلك لرعاية الأدب والجملة استئناف
لا محل لها من الإعراب مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة فماذا يصنعون فى تضاعيف تلك
الشدة فقيل يجعلون الخ وقوله تعالى (مِنَ الصَّوَاعِقِ) متعلق بيجعلون أى من أجل الصواعق المقارنة للرعد من قولهم
سقاه من العيمة والصاعقة قصفة رعد هائل تنقض معها شقة نار لا تمر بشىء إلا أتت عليه من الصعق وهو شدة الصوت
وبناؤها إما أن يكون صفة لقصفة الرعد أو للرعد والتاء للمبالغة كما فى الرواية أو مصدرا كالعافية وقد تطلق على كل
هائل مسموع أو مشاهد يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو بشدة الصوت وسد الآذان إنما يفيد على
التقدير الثانى دون الأول وقرىء من الصواقع وليس ذلك بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين فى التصرف يقال
صقع الديك وخطيب مصقع أى مجهر بخطبته (حَذَرَ الْمَوْتِ) منصوب بيجعلون على العلة وإن كان معرفة
بالإضافة كقوله: وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأصفح عن شتم اللئيم تكرما
ولا ضير فى تعدد المفعول له فان الفعل يعلل بعلل شتى وقيل هو نصب على المصدرية أى يحذرون حذرا مثل حذر الموت
والحذر والحذار هو شدة الخوف وقرىء حذار الموت والموت زوال الحياة وقيل عرض يضادها لقوله تعالى خلق
الموت والحياة ورد بأن الخلق بمعنى التقدير والإعدام مقدرة (وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) أى لا يفوتونه كما لا يفوت
المحاط به المحيط شبه شمول قدرته تعالى لهم وانطواء ملكوته عليهم باحاطة المحيط بما أحاط به فى استحالة الفوت أو شبه
الهيئة المنتزعة من شؤونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط فالاستعارة المبنية على التشبيه الأول استعارة
تبعية فى الصفة متفرعة على ما فى مصدرها من الاستعارة والمبنية على الثانى تمثيلية قد اقتصر من طرف المشبه به على ما هو
العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى الإحاطة والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر
تحريره فى قوله عز وجل ختم الله على قلوبهم والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سد الآذان بالأصابع لا يغنى
عنهم شيئا فان القدر لا يدافعه الحذر والحيل لا ترد بأس الله عز وجل وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع
إلى أصحاب الصيب الايذان بأن ما دهمهم من الأمور الهائلة المحكية بسبب كفرهم على منهاج قوله تعالى كمثل ريح فيها
صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته فان الإهلاك الناشىء من السخط أشد وقيل هذا الاعتراض من
جملة أحوال المشبه على أن المراد بالكافرين المنافقون قد دل به على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله تعالى فى الدنيا
والآخرة وإنما وسط بين أحوال المشبه مع أن القياس تقديمه أو تأخيره لإظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشأن
المشبه (يَكَادُ الْبَرْقُ) استئناف آخر وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق فقيل يكاد
ذلك (يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) أى يختلسها ويستلبها بسرعة وكاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود
لتآخذ أسبابه وتعاضد مباديه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط أو لعروض مانع ولا يكون خبرها إلا مضارعا
عاريا عن كلمة أن وشذ مجيئه اسما صريحا كما فى قوله: فأبت إلى فهم وما كدت آيبا وكذا مجيئه مع أن حملا لها على
عسى كما فى مثل قول رؤبة: قد كاد من طول البلى أن يمحصا كما تحمل هى عليها بالحذف لما بينهما من المقارنة فى
أصل المقاربة وليس فيها شائبة الانشائية كما فى عسى وقرىء يخطف بكسر الطاء ويختطف ويخطف بفتح الياء والخاء بنقل
فتحة التاء إلى الخاء وإدغامها فى الطاء ويخطف بكسرهما على اتباع الياء الخاء ويخطف من صيغة التفعيل ويتخطف

من قوله تعالى ويتخطف الناس من حولهم (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ) كل ظرف وما مصدرية والزمان محذوف أى كل زمان إضاءة وقيل ما نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف أى كل وقت أضاء لهم فيه والعامل فى كلما جوابها وهو استئناف ثالث كأنه قيل ما يفعلون فى أثناء ذلك الهول أيفعلون بأبصارهم ما فعلوا بآذانهم أم لا فقيل كلما نور البرق لهم ممشى ومسلكا على أن أضاء متعد والمفعول محذوف أو كلما لمع لهم على أنه لازم ويؤيده قراءة كلما ضاء (مَشَوْا فِيهِ) أى فى ذلك المسلك أو فى مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم وإيثار المشى على ما فوقه من السعى والعدو للإشعار بعدم استطاعتهم لهما (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ) أى خفى البرق واستتر والمظلم وإن كان غيره لكن لما كان الإظلام دائرا على استتاره أسند إليه مجازا تحقيقا لما أريد من المبالغة فى موجبات تخبطهم وقد جوز أن يكون متعديا منقولا من ظلم الليل ومنه ما جاء فى قول أبى تمام : هما أظلما حالى ثمت أجليـــا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب ويعضده قراءة أظلم على البناء للمفعول (قَامُوا) أى وقفوا فى أماكنهم على ما كانوا عليه من الهيئة متحيرين مترصدين لخفقة أخرى عسى يتسنى لهم الوصول إلى المقصد أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم وإيراد كلما مع الإضاءة وإذا مع الإظلام للإيذان بأنهم حراص على المشى مترقبون لما يصححه فكلما وجدوا فرصة انتهزوها ولا كذلك الوقوف وفيه من الدلالة على كمال التحير وتطاير اللب ما لا يوصف (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) كلمة لو لتعليق حصول أمر ماض هو الجزاء بحصول أمر مفروض فيه هو الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة أو ادعاء ومن قضية مفروضية الشرط دلالتها على انتفائه قطعا والمنازع فيه مكابر وأما دلالتها على انتفاء الجزاء فقد قيل وقيل والحق الذى لا محيد عنه أنه إن كان ما بينهما من الدوران كليا أو جزئيا قد بنى الحكم على اعتباره فهى دالة عليه بواسطة مدلولها الوضعى لا محالة ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول أما فى مادة الدوران الكلى كما فى قوله عز وجل ولو شاء لهداكم أجمعين وقولك لو جئتنى لأكرمتك فظاهر لأن وجود المشيئة علة لوجود الهداية حقيقة ووجود المجىء علة لوجود الإكرام ادعاء وقد انتفيا بحكم المفروضية فانتفى معلولاهما حتما ثم إنه قد يساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما فى المثالين المذكورين وهو الاستعمال الشائع لكلمة لو ولذلك قيل هى لامتناع الثانى لامتناع الأول وقد يساق للاستدلال بانتفاء الثانى لكونه ظاهرا أو مسلما على ابتغاء الأول لكونه خفيا أو متنازعا فيه كما فى قوله سبحانه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وفى قوله تعالى لو كان خيرا ما سبقونا إليه فإن فسادهما لازم لتعدد الآلهة حقيقة وعدم سبق المؤمنين إلى الإيمان لازم لخيريته فى زعم الكفرة ولا ريب فى انتفاء اللازمين فتعين انتفاء الملزومين حقيقة فى الأول وادعاء باطلا فى الثانى ضرورة استلزام انتفاء اللازم لانتفاء الملزوم لكن لا بطريق السببية الخارجية كما فى المثالين الأولين بل بطريق الدلالة العقلية الراجعة إلى سببية العلم بانتفاء الثانى للعلم بانتفاء الأول ومن لم يتنبه له زعم أنه لانتفاء الأول لانتفاء الثانى وأما فى مادة الدوران الجزئى كما فى قولك لو طلعت الشمس لوجد الضوء فلأن الجزء المنوط بالشرط الذى هو طلوعها ليس وجود أى ضوء كان كضوء القمر المجامع لعدم الطلوع مثلا بل إنما هو وجود الضوء الخاص الناشىء من الطلوع ولا ريب فى انتفائه بانتفاء الطلوع هذا إذا بنى الحكم على اعتبار الدوران وأما إذا بنى على عدمه فإما أن يعتبر هناك تحقق مدار آخر له أولا فإن اعتبر فالدلالة تابعة لحال ذلك المدار فإن كان بينه وبين انتفاء الأول منافاة تعين الدلالة كما إذا قلت لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء فإن وجود الضوء وإن علق صورة بعدم الطلوع لكنه فى الحقيقة معلق بسبب آخر له ضرورة أن عدم الطلوع من حيث هو هو ليس مدارا لوجود الضوء فى الحقيقة وإنما وضع موضع المدار لكونه كاشفا عن تحقق مدار آخر له فكأنه قيل لو لم تطلع الشمس لوجد الضوء بسبب آخر كالقمر مثلا ولا ريب فى أن هذا الجزاء منتف عند

انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمرى عند طلوع الشمس وإن لم يكن بينهما منافاة تعين عدم الدلالة كما فى قوله صلى الله عليه وسلم فى بنت أبى سلمة لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ما حلت لى انها لابنة أخى من الرضاعة فان المدار المعتبر فى ضمن الشرط أعنى كونها ابنة أخيه عليه السلام من الرضاعة غير مناف لانتفائه الذى هو كونها ربيبته عليه السلام بل مجامع له ومن ضرورته مجامعة أثريهما أعنى الحرمة الناشئة من كونها ربيبته عليه السلام والحرمة الناشئة من كونها ابنة أخيه من الرضاعة وإن لم يعتبر هناك تحقق مدار آخر بل بنى الحكم على اعتبار عدمه فلا دلالة لها على ذلك أصلا كيف لا ومساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه ليعلم ثبوته عند وقوع ما لا ينافيه بالطريق الأولى كما فى قوله عز وجل قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم وقوله عليه السلام لو كان الإيمان فى الثريا لناله رجال من فارس وقول على رضى الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا فان الأجزية المذكورة قد نيطت بما ينافيها ويستدعى نقائضها إيذانا بأنها فى أنفسها بحيث يجب ثبوتها مع فرض انتفاء أسبابها أو تحقق أسباب انتفائها فكيف إذا لم يكن كذلك على طريقة لو الوصلية فى مثل قوله تعالى يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ولها تفاصيل وتفاريع حررناها فى تفسير قوله تعالى أو لو كنا كارهين وقول عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ان حمل على تعليق عدم العصيان فى ضمن عدم الخوف بمدار آخر نحو الحياء والاجلال وغيرهما مما يجامع الخوف كان من قبيل حديث ابنة أبى سلمة وإن حمل على بيان استحالة عصيانه مبالغة كان من هذا القبيل والآية الكريمة واردة على الاستعمال الشائع مفيدة لكمال فظاعة حالهم وغاية هول ما دهمهم من المشاق وأنها قد بلغت من الشدة إلى حيث لو تعلقت مشيئة الله تعالى بإزالة مشاعرهم لزالت لتحقق ما يقتضيه اقتضاء تاما وقيل كلمة لو فيها لربط جزائها بشرطها مجردة عن الدلالة على انتفاء أحدهما لانتفاء الآخر بمنزلة كلمة ان ومفعول المشيئة محذوف جريا على القاعدة المستمرة فإنها إذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمونا للجزاء فلا يكاد يذكر إلا أن يكون شيأ مستغربا كما فى قوله :

فلو شئت أن أبكى دما لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

أى لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل ولكن لم يشأ لما يقتضيه من الحكم والمصالح وقرىء لأذهب بأسماعهم على زيادة الباء كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة والإفراد فى المشهورة لأن السمع مصدر فى الأصل والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها من الجمل الاستئنافية وقيل على كلما أضاء الخ وقوله عز وجل (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعليل للشرطية وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم بالطريق البرهانى والشىء بحسب مفهومه اللغوى يقع على كل ما يصح ان يعلم ويخبر عنه كائنا ما كان على أنه فى الأصل مصدر شاء أطلق على المفعول واكتفى فى ذلك باعتبار تعلق المشيئة به من حيث العلم والاخبار عنه فقط وقد خص ههنا بالممكن موجودا كان أو معدوما بقضية اختصاص تعلق القدرة به لما أنها عبارة عن التمكن من الإيجاد والإعدام الخاصين به وقيل هى صفة تقتضى ذلك التمكن والقادر هو الذى إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل والقدير هو الفعال لكل ما يشاء كما يشاء ولذلك لم يوصف به غير البارى جل جلاله ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده أنه ان شاء ابقاءه على الوجود أبقاه عليه فإن علة الوجود هى علة البقاء وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى رب العالمين وإن شاء اعدامه أعدمه ومعنى قدرته على المعدوم حال عدمه أنه ان شاء إيجاده أوجده وإن لم يشأ لم يوجده وقيل قدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك وقدرة الله تعالى عبارة عن نفى العجز واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يوقع الفعل بقدر ما تقتضيه إرادته أو بقدر قوته وفيه دليل على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى حقيقة لأنه شىء وكل شىء مقدور له تعالى واعلم أن كل واحد من التمثيلين وإن احتمل

أن يكون من قبيل التمثيل المفرق كما فى قوله : كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى بأن يشبه المنافقون فى التمثيل الأول بالمستوقدين وهداهم الفطرى بالنار وتأييدهم إياه بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمكينهم التام من الانتفاع به بإضاءتها ما حولهم وإزالته بإذهاب النور النارى وأخذ الضلالة بمقابلته بهلا بستهم الظلمات الكثيفة وبقائهم فيها ويشبهوا فى التمثيل الثانى بالسابلة والقرآن وما فيه من العلوم والمعارف التى هى مدار الحياة الأبدية بالصيب الذى هو سبب الحياة الأرضية وما عرض لهم بنزوله من الغموم والأحزان وانكساف البال بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وتصامهم عما يقرع أسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيسد أذنه عنها ولا خلاص له منها واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رفد يحرزونه بمشيهم فى مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم وتحيرهم فى أمرهم حين عن لهم مصيبة بوقوفهم إذا أظلم عليهم لكن الحمل على التمثيل المركب الذى لا يعتبر فيه تشبيه كل واحد من المفردات الواقعة فى أحد الجانبين بواحد من المفردات الواقعة فى الجانب الآخر على وجه التفصيل بل ينتزع فيه من المفردات الواقعة فى جانب المشبه هيئة فتشبه بهيئة أخرى منتزعة من المفردات الواقعة فى جانب المشبه به بأن ينتزع من المنافقين وأحوالهم المفصلة فى كل واحد من التمثيلين هيئة على حدة وينتزع من كل واحد من المستوقدين وأصحاب الصيب وأحوالهم المحكية هيئة بحيالها فتشبه كل واحدة من الأوليين بما يضاهيها من الآخريين هو الذى يقتضيه جزالة التنزيل ويستدعيه فخامة شأنه الجليل لاشتماله على التشبيه الأول إجمالا مع أمر زائد هو تشبيه الهيئة بالهيئة وإيذانه بأن اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلا فى الغرابة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) إثر ما ذكر الله تعالى علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس فى شأنه إلى ثلاث فرق مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق ونعت كل فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال وبين ما لهم من المصير والمآل أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزا لهم إلى الإصغاء وتوجيها للقلوب بهم نحو التلقى وجبرا لما فى العبادة من الكلفة بلذة الخطاب فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراك به ويا حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد إما إجلالا كما فى قول الداعى يا الله ويارب وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصارا لنفسه واستبعادا لها من محافل الزلفى ومنازل المقربين وإما تنبيها على غفلته وسوء فهمه وقد يقصد به التنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه وأى اسم مبهم جعل وصلة إلى نداء المعرف باللام لا على أنه المنادى إصالة بل على أنه صفة موضحة له مزيلة لإبهامه والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلا إشعارا بأنه المقصود بالنداء وأقحمت بينهما كلمة التنبيه تأكيدا لمعنى النداء وتعويضا عما يستحقه أى من المضاف إليه ولما ترى من استقلال هذه الطريقة بضروب من أسباب المبالغة والتأكيد كثر سلوكها فى التنزيل المجيد كيف لا وكل ما ورد فى تضاعيفه على العباد من الأحكام والشرائع وغير ذلك خطوب جليلة حقيقة بأن تقشعر منها الجلود وتطمئن بها القلوب الأبية ويتلقوها بآذان واعية وأكثرهم عنها غافلون فاقتضى الحال المبالغة والتأكيد فى الإيقاظ والتنبيه والمراد بالناس كافة المكلفين الموجودين فى ذلك العصر لما أن الجموع وأسماءها المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستثناء منها والتأكيد بما يفيد العموم كما فى قوله تعالى فسجد الملائكة كلهم أجمعون واستدلال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شائعا ذائعا وأما من عداهم ممن سيوجد منهم فغير داخلين فى خطاب المشافهة وإنما دخولهم تحت حكمه لما تواتر من دينه صلى الله عليه وسلم ضرورة أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للموجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم إلى قيام الساعة ولا يقدح فى العموم ما روى عن علقمة والحسن البصرى من أن كل ما نزل فيه يا أيها الناس فهو

مكى اذليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه بأهلها ولا من قضية اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار إذلم يكن كل أهلها حينئذ كفرة ولاضير فى تحقق العبادة فى بعض المكلفين قبل ورود الأمر لما أن المأمور به القدر المشترك الشامل لانشاء العبادة والثبات عليها والزيادة فيها مع انها متكررة حسب تكرر أسبابها ولا فى انتفاء شرطها فى الآخرين منهم أعنى الإيمان لأن الأمر بها منتظم للامر بما لاتتم إلابه وقد علم من الدين ضرورة اشتراطها به فان أمر المحدث بالصلاة مستتبع للامر بالتوضى لامحالة وقد قيل المراد بالعبادة مايعم أفعال القلب أيضا لما انها عبارة عن غاية التذلل والخضوع وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل ماورد فى القرآن من العبادات فمعناها التوحيد وقيل معنى اعبدوا وحدوا وأطيعوا ولا فى كون بعض من الفرقتين الأخيرتين ممن لايجدى فيهم الانذار بموجب النص القاطع لما أن الامر لقطع الاعذار ليس فيه تكليفهم بما ليس فى وسعهم من الإيمان بعدم إيمانهم أصلا اذلاقطع لأحد منهم بدخوله فى حكم النص قطعا وورود النص بذلك لكونهم فى أنفسهم بسوء اختيارهم كذلك لا ان كونهم كذلك لورود النص بذلك فلاجبر أصلا نعم لتخصيص الخطاب بالمشركين وجه لطيف ستقف عليه عند قوله تعالى وأنتم تعلمون وايراده تعالى بعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد موجب الامر بالاشعار بعليتها للعبادة (الذِى خَلَقَكُمْ) صفة أجريت عليه سبحانه للتبجيل والتعليل اثر التعليل وقد جوز كونها للتقييد والتوضيح بناء على تخصيص الخطاب بالمشركين وحمل الرب على ماهو أعم من الرب الحقيق والآلهة التى يسمونها أربابا والخلق ايجاد الشىء على تقدير واستواء وأصله التقدير يقال خلق النعل أى قدرها وسواها بالمقياس وقرىء خلقكم بادغام القاف فى الكاف (والذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) عطف على الضمير المنصوب ومتمم لما قصد من التعظيم والتعليل فان خلق أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف أى كانوا من زمان قبل زمانكم وقيل خلقهم من قبل خلقكم فحذف الخلق وأقيم الضمير مقامه والمراد بهم من تقدمهم من الأمم السالفة كافة ومن ضرورة عموم الخطاب بيان شمول خلقه تعالى للكل وتخصيصه بالمشركين يؤدى إلى عدم التعرض لخلق من عداهم من معاصريهم واخراج الجملة مخرج الصلة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصول عندهم أيضا مع أنهم غير معترفين بغاية الخلق وان اعترفوا بنفسه كما ينطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله للايذان بأن خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لايتأتى لأحد انكاره وقرىء وخلق من قبلكم وقرىء والذين من قبلكم باقحام الموصول الثانى بين الأول وصلته توكيدا كاقحام اللام بين المضافين فى لا أبالك أو بجعله موصوفا بالظرف خبرا لمبتدأ محذوف أى الذين هم أناس كائنون من قبلكم (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) المعنى الوضعى لكلمة لعل هو انشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول اما محبوب فيسمى ترجيا أو مكروه فيسمى اشفاقا وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل اما من جهة المتكلم كما فى قولك لعل الله يرحمنى وهو الأصل الشائع فى الاستعمال لان معانى الانشاءات قائمة به واما من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتكلم فى التلبس التام بالكلام الجارى بينهما كما فى قوله سبحانه فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز ايذانا بأن ذلك الامر فى نفسه مئنة للتوقع متصف بحيثية مصححة له من غير أن يعتبر هناك توقع بالفعل من متوقع أصلا فان روعيت فى الآية الكريمة جهة المتكلم يستحيل ارادة ذلك المعنى لامتناع التوقع من علام الغيوب عز وجل فيصار اما الى الاستعارة بأن يشبه طلبه تعالى من عباده التقوى مع كونهم مئنة لها لتعاضد أسبابها برجاء الراجى من المرجو منه أمرا هين الحصول فى كون متعلق كل منهما مترددا بين الوقوع وعدمه مع رجحان الاول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة فى الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع واما الى

التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى اياهم مستعدين للتقوى وطلبه إياها منهم وهم متمكنون منها جامعون لأسبابها وينتزع من ذلك هيئة فتشبه بهيئة منتزعة من الراجي ورجائه من المرجو منه شيأ سهل المنال فيستعمل فى الهيئة الأولى ماحقه أن يستعمل فى الثانية فيكون هناك استعارة تمثيلية قدصرح من ألفاظها بماهو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى كلمة الترجي والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كامر مرارا وأماجعل المشبه إرادته تعالى فى الاستعارة والتمثيل فأمر مؤسس على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلف المراد عن إرادته تعالى فالجملة حال اما من فاعل خلقكم أى طالبا منكم التقوى أو من مفعوله وماعطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين لانهم المأمورون بالعبادة أى خلقكم وإياهم مطلوبا منكم التقوى أو علة له فان خلقهم على تلك الحال فى معنى خلقهم لأجل التقوى كأنه قيل خلقكم لتتقوا أوكى تتقوا إما بناء على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة إلى العباد كماذهب اليه كثير من أهل السنة وإما تنزيلا لترتب الغاية على ماهى ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ماهو غرض له فان استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقنة جليلة من غير أن تكون هى علة غائية لها بحيث لولاها لما أقدم عليها مما لانزاع فيه وتقييد خلقهم بما ذكر من الحال أو العلة لتكميل عليته للمأمور به وتأكيدها فان إتيانهم بماخلقوا له أدخل فى الوجوب وإيثار تتقون على تعبدون مع موافقته لقوله تعالى وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون للمبالغة فى إيجاب العبادة والتشديد فى إلزامها لما أن التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده فاذا لزمتهم التقوى كان ما هو أدنى منها ألزم والاتيان به أهون وإن روعيت جهة المخاطب فلعل فى معناها الحقيقي والجملة حال من ضمير اعبدوا كأنه قيل اعبدوا ربكم راجين للانتظام فى زمرة المتقين الفائزين بالهدى والفلاح على أن المراد بالتقوى مرتبتها الثالثة التى هى التبتل إلى الله عزوجل بالكلية والتنزه عن كل ما يشغل سره عن مراقبته وهى أقصى غايات العبادة التى يتنافس فيها المتنافسون وبالانتظام القدر المشترك بين إنشائه والثبات عليه ليرتجيه أرباب هذه المرتبة وما دونها من مرتبتى التوقى عن العذاب المخلد والتجنب عن كل مايؤثم من فعل أوترك كامر فى تفسير المتقين ولعل توسيط الحال من الفاعل بين وصفى المفعول لما فى التقديم من فوات الاشعار بكون الوصف الأول معظم أحكام الربوبية وكونه عريقا فى إيجاب العبادة وفى التأخير من زيادة طول الكلام هذا على تقدير اعتبار تحقق التوقع بالفعل فأما ان اعتبر تحققه بالقوة فالجملة حال من مفعول خلقكم وماعطف عليه على الطريقة المذكورة أى خلقكم وإياهم حال كونكم جميعا بحيث يرجو منكم كل راج أن تتقوا فانه سبحانه وتعالى لما برأهم مستعدين للتقوى جامعين لمباديها الآفاقية والانفسية كان حالهم بحيث يرجو منهم كل راج أن يتقوا لامحالة وهذه الحالة مقارنة لخلقهم وإن لم يتحقق الرجاء قطعا واعلم أن الآية الكريمة مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيده تعالى وتحتم عبادته على كافة الناس مرشدة لهم باشارتها إلى أن مطالعة الآيات التكوينية المنصوبة فى الأنفس والآفاق مما يقضى بذلك قضاء متقنا وقد بين فيها أولا من تلك الآيات مايتعلق بأنفسهم من خلقهم وخلق أسلافهم لما أنه أقوى شهادة وأظهر دلالة ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم فقيل (الذى جعل لكم الأرض فراشا)وهو فى محل النصب على أنه صفة ثانية لربكم موضحة أومادحة أو على تقدير أخص أوأمدح أو فى محل الرفع على المدح والتعظيم بتقدير المبتدأ قال ابن مالك التزم حذف الفعل فى المنصوب على المدح اشعارا بأنه إنشاء كمافى المنادى وحذف المبتدأ فى المرفوع اجراء للوجهين على سنن واحد وأماكونه مبتدأ خبره فلاتجعلوا كما قيل فيستدعى أن يكون مناط النهى ما فى حيز الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل فى ذلك مع كونه أعظم شأنا وجعل بمعنى صير والمنصوبان بعده مفعولاه وقيل هو بمعنى خلق وانتصاب الثانى على الحالية والظرف

متعلق على التقديرين وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون مايعقبه من منافع المخاطبين وللتشويق اليه لأن النفس عند تأخير ماحقه التقديم لاسيمابعد الاشعار بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن أولما فى المؤخر وماعطف عليه من نوع طول فلو قدم لفات تجاوب أطراف النظم الكريم ومعنى جعلها فراشا جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا فان كرية شكلها مع عظم جرمها مصححة لافتراشها وقرىء بساطا ومهادا (والسَّمَاءَ بِنَاءً) عطف على المفعولين السابقين وتقديم حال الأرض لما أن احتياجهم اليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر أى جعلها قبة مضروبة عليكم والسماء اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد أو جمع سماوة أو سماءة والبناء فى الأصل مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ومنه قولهم بنى على امرأته لما أنهم كانوا اذا تزوجوا امرأة ضربوا عليها خباء جديدا (وأنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) عطف على جعل أى أنزل من جهتها أو منها إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض كما روى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام أو المراد بالسماء جهة العلو كما ينبىء عنه الاظهار فى موضع الاضمار وهو على الأولين لزيادة التقرير ومن لابتداء الغاية متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالا من المفعول أى كائنا من السماء قدم عليه لكونه نكرة وأما تقديم الظرف على الوجه الأول مع أن حقه التأخير عن المفعول الصريح فامالان السماء أصله ومبدؤه واما لما مر من التشويق اليه مع مافيه من مزيد انتظام بينه وبين قوله تعالى (فأخرَجَ بِهِ) أى بسبب الماء (مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) وذلك بأن أودع فى الماء قوة فاعلة وفى الارض قوة منفعلة فتولد من تفاعلهما أصناف الثمار أو بأن أجرى عادته بافاضة صور الثمار وكيفيتها المتخالفة على المادة الممتزجة منها وان كان المؤثر فى الحقيقة قدرته تعالى ومشيئته فانه تعالى قادر على أن يوجد جميع الاشياء بلا مباد ومواد كما أبدع نفوس المبادى والاسباب لكن له عز وجل فى انشائها متقلبة فى الاحوال ومتبدلة فى الاطوار من بدائع حكم باهرة تجدد لأولى الابصار عبرا ومزيد طمأنينة إلى عظيم قدرته ولطيف حكمته ماليس فى ابداعها بغتة ومن للتبعيض لقوله تعالى فأخرجنا به ثمرات ولوقوعها بين منكرين أعنى ماء ورزقا كانه قيل وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج من الارض كل الثمرات ولا جعل كل المرزوق ثمارا أو للتبيين ورزقا مفعول بمعنى المرزوق ومن الثمرات بيان له أو حال منه كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج لانه بمعنى رزق وانما شاع ورود الثمرات دون الثمار مع أن الموضع موضع كثرة لانه أريد بالثمرات جماعة الثمرة فى قولك أدركت ثمرة بستانه ويؤيده القراءة على التوحيد أو لأن الجموع يقع بعضها موقع بعض كقوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وقوله تعالى ثلاثة قروء أو لانها محلاة باللام خارجة عن حد القلة واللام متعلقة بمحذوف وقع صفة لرزقا على تقدير كونه بمعنى المرزوق أى رزقا كائنا لكم أو دعامة لتقوية عمل رزقا على تقدير كونه مصدرا كأنه قيل رزقا إياكم (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) اما متعلق بالأمر السابق مترتب عليه كأنه قيل إذا أمرتم بعبادة من هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والافعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكا وانما قيل أندادا باعتبار الواقع لا لان مدار النهى هو الجمعية وقرىء ندا وايقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات اثر تعيينه بالصفات وتعليل الحكم بوصف الالوهية التى عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة والايذان باستتباعها لسائر الصفات واما معطوف عليه كما فى قوله تعالى اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والفاء للاشعار بعلية ماقبلها من الصفات المجراة عليه تعالى للنهى أو الانتهاء أو لان مآل النهى هو

الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها كأنه قيل اعبدوه فخصوها به والاظهار فى موضع الاضمار لما مر آنفا وقيل هو نفى منصوب باضمار أن جوابا للامر ويأباه أن ذلك فيما يكون الأول سببا للثانى ولا ريب فى أن العبادة لا تكون سببا للتوحيد الذى هو أصلها ومبناها وقيل هو منصوب بلعل نصب فأطلع فى قوله تعالى لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى أى خلقكم لتتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه وحيث كان مدار هذا النصب تشبيه لعل فى بعد المرجو بليت كان فيه تنبيه على تقصيرهم بجعلهم المرجو القريب بمنزلة المتمنى البعيد وقيل هو متعلق بقوله تعالى الذى جعل الخ على تقدير رفعه على المدح أى هو الذى حفكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيرة فلا تتخذوا له شركاء وفيه ما مر من لزوم كون خلقهم وخلق أسلافهم بمعزل من مناطية النهى مع عراقتهما فيها وقيل هو خبر للموصول بتأويل مقول فى حقه وقد عرفت ما فيه مع لزوم المصير إلى مذهب الأخفش فى تنزيل الاسم الظاهر منزلة الضمير كما فى قولك زيد قام أبو عبد الله إذا كان ذلك كنيته والند المثل المساوى من ند ندودا إذا نفر وناددته خالفته خص بالمخالف المماثل بالذات كما خص المساوى بالمماثل فى المقدار وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله أندادا والحال أنهم ما زعموا أنها تماثله تعالى فى صفاته ولا أنها تخالفه فى أفعاله لما أنهم لما تركوا عبادته تعالى إلى عبادتها وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله عز وجل وتمنحهم مالم يرد الله تعالى بهم من خير فتهكم بهم وشنع عليهم أن جعلوا أندادا لمن يستحيل أن يكون له ند واحد وفى ذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل :

أربا واحدا أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا   كذلك يفعل الرجل البصير

وقوله تعالى (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) حال من ضمير لا تجعلوا بصرف التقييد إلى ما أفاده النهى من قبح المنهى عنه ووجوب الاجتناب عنه ومفعول تعلمون مطروح بالكلية كأنه قيل لا تجعلوا ذلك فانه قبيح واجب الاجتناب عنه والحال أنكم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وإصابة الرأى أو مقدر حسبما يقتضيه المقام نحو وأنتم تعلمون بطلان ذلك أو تعلمون أنه لا يماثله شىء أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت أو تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله كما فى قوله تعالى هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء أو غير ذلك وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا عنه هذا هو الذى يستدعيه عموم الخطاب فى النهى بجعل المنهى عنه القدر المشترك المنتظم لانشاء الانتهاء كما هو المطلوب من الكفرة وللثبات عليه كما هو شأن المؤمنين حسبما مر مثله فى الامر وأما صرف التقييد إلى نفس النهى فيستدعى تخصيص الخطاب بالكفرة لا محالة إذ لا يتسنى ذلك بطريق قصر النهى على حالة العلم ضرورة شمول التكليف للعالم والجاهل المتمكن من العلم بل إنما يتأتى بطريق المبالغة فى التوبيخ والتقريع بناء على أن تعاطى القبائح من العالمين بقبحها أقبح وذلك إنما يتصور فى حق الكفرة فمن صرف التقييد إلى نفس النهى مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضا فقد نأى عن التحقيق ان قلت أليس فى تخصيصه بالكفرة فى الامر والنهى خلاص من أمثال ما مر من التكلفات وحسن انتظام بين السياق والسياق إذ لا محيد فى آية التحدى من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة لا محالة مع ما فيه من رياء محل المؤمنين ورفع شأنهم عن جبر الانتظام فى سلك الكفرة والايذان بأنهم مستمرون على الطاعة والعبادة حسبما مر فى صدر السورة الكريمة مستغنون فى ذلك عن الامر والنهى قلت بلى انه وجه سرى ونهج سوى لا يضل من ذهب اليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه فتأمل (وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) شروع فى تحقيق ان الكتاب

الكريم الذي من جملته ما تلى من الآيتين الكريمتين الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيد منزل من عند الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم كما أن ما ذكر فيهما من الآيات التكوينية الدالة على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح اتصافه بما ذكر في مطلع السورة الشريفة من النعوت الجليلة التي من جملتها نزاهته عن أن يعتريه ريب ما والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يعرب عنه قوله تعالى إن كنتم صادقين إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع وإما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ونهاية قوتها وإنما لم يقل وإن ارتبتم فيما نزلنا الخ لما أشير اليه فيما سلف من المبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى لا ريب فيه والاشعار بأن ذلك ان وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته ومن في مما ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لريب وحملها على السببية ربما يوهم كونه محلا للريب في الجملة وحاشاه ذلك وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن الكتاب الكريم لا عن القدر المشترك بينه وبين أبعاضه وليس معنى كونهم في ريب منه ارتيابهم في استقامة معانيه وصحة أحكامه بل في نفس كونه وحيا منزلا من عند الله عز وجل وإيثار التنزيل المنبيء عن التدريج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ ارتيابهم وبناء التحدي عليه ارخاء للعنان وتوسيعا للميدان فإنهم كانوا اتخذوا نزوله منجما وسيلة إلى إنكاره فجعل ذلك من مبادي الاعتراف به كأنه قيل إن ارتبتم في شأن ما نزلناه على مهل وتدريج فهاتوا أنتم مثل نوبة فذة من نوبه ونجم فرد من نجومه فانه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ويتحدى بالكل وهذا كما ترى غاية ما يكون في التبكيت وإزاحة العلل وفي ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لأوامره تعالى ما لا يخفى وقرىء على عبادنا والمراد هو صلى الله عليه وسلم وأمته أو جميع الأنبياء عليهم السلام ففيه إيذان بأن الارتياب فيه ارتياب فيما أنزل من قبله لكونه مصدقا له ومهيمنا عليه والأمر في قوله تعالى (فَأْتُوا بِسُورَةٍ) من باب التعجيز والقام الحجر كما في قوله تعالى فأت بها من المغرب والفاء للجواب وسببية الارتياب للأمر أو الإتيان بالمأمور به لما أشير اليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور فانه سبب للأول مطلقا وللثاني على تقدير الصدق كأنه قيل إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله لأنكم تقدرون على ما يقدر عليه سائر بني نوعكم والسورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة وأقلها ثلاث آيات وواوها أصلية منقولة من سور البلد لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها أو محتوية على فنون رائقة من العلوم احتواء سور المدينة على ما فيها أو من السورة التي هي الرتبة قال :

ولرهط حرابٍ وقدٍ سورة ... في المجد ليس غرابها بمطار

فان سورة القرآن مع كونها في أنفسها رتبا من حيث الفضل والشرف أو من حيث الطول والقصر فهي من حيث انتظامها مع أخواتها في المصحف مراتب يرتقي اليها القارىء شيأ فشيأ وقيل واوها مبدلة من الهمزة فمعناها البقية من الشيء ولا يخفى ما فيه ومن في قوله تعالى (مِّن مِّثْلِهِ) بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة والضمير لما نزلنا أي بسورة كائنة من مثله في علو الرتبة وسمو الطبقة والنظم الرائق والبيان البديع وحيازة سائر نعوت الاعجاز وجعلها تبعيضية يوهم أن له مثلا محققا قد أريد تعجيزهم عن الإتيان ببعضه كأنه قيل فأتوا ببعض ما هو مثل له فلا يفهم منه كون المماثلة من تتمة المعجوز عنه فضلا عن كونها مدارا للعجز مع أنه المراد وبناء الأمر على المجاراة معهم بحسب حسبانهم حيث كانوا يقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا

أو على التهكم بهم بإباه ماسبق من تنزيله منزلة الريب فان مبنى التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويفه ولو بغير جد وقيل هى زائدة على ماهو رأى الأخفش بدليل قوله تعالى فأتوا بسورة مثله بعشر سور مثله وقيل هى ابتدائية فالضمير حينئذ للمنزل عليه حتما لما أن رجوعه إلى المنزل يوهم أن له مثلا محققا قدورد الأمر التعجيزى بالإتيان بشيء منه وقد عرفت مافيه بخلاف رجوعه إلى المنزل عليه فان تحقق مثله عليه السلام فى البشرية والعربية والأمية يهون الخطب فى الجملة خلا أن تخصيص التحدى بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للاتيان بالمأمور به لايدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم بل ربما يوهم قدرتهم على ذلك فى الجملة فرادى أو مجتمعين مع أنه يستدعى عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله فأين هذا من تحدى أمة جمة وأمرهم بأن يحتشدوا فى حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به قوله تعالى (وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ) ويتعاونوا على الاتيان بقدر يسير مماثل فى صفات الكمال لما أتى بجملته واحد من أبناء جنسهم والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر ومعنى دون أدنى مكان من شيء يقال هذا دون ذاك إذا كان أحط منه قليلا ثم استعير للتفاوت فى الأحوال والرتب فقيل زيد دون عمرو أى فى الفضل والرتبة ثم اتسع فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد وتخطى حكم إلى حكم من غير ملاحظة انحطاط أحدهما عن الآخر فجرى مجرى أداة الاستثناء وكلمة من اما متعلقة بادعوا فتكون لابتداء الغاية والظرف مستقر والمعنى ادعوا متجاوزين الله تعالى للاستظهار من حضركم كائنا من كان أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون اليهم فى الملمات وتعولون عليهم فى المهمات أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم من أمنائكم المتولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة أو القائمين بنصرتكم حقيقة أو زعما من الإنس والجن ليعينوكم وإخراجه سبحانه وتعالى من حكم الدعاء فى الأول مع اندراجه فى الحضور لتأكيد تناوله لجميع ماعداه لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فان ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم اليه وأما فى سائر الوجوه فللتصريح من أول الأمر ببراءتهم منه تعالى وكونهم فى عدوة المحادة والمشاقة له قاصرين استظهارهم على ماسواه والالتفات لادخال الروعة وتربية المهابة وقيل المعنى ادعوا من دون أولياء الله شهداءكم الذين هم وجوه الناس وفرسان المقاولة والمناقلة ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله إيذانا بأنهم يأبون أن يرضوا لأنفسهم الشهادة بصحة ماهو بين الفساد وجلى الاستحالة وفيه أنه يؤذن بعدم شمول التحدى لأولئك الرؤساء وقيل المعنى ادعوا شهداءكم فصححوا بهم دعواكم ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين الله يشهد أن ماندعيه حق فان ذلك ديدن المحجوج وفيه أنه ان أريد بما يدعون حقية ماهم عليه من الدين الباطل فلا مساس له بمقام التحدى وإن أريد مثلية ما أتوا به للمتحدى به فمع عدم ملاءمته لابتداء التحدى يوهم أنهم قد تصدوا للمعارضة وأتوا بشيء مشتبه الحال متردد بين المثلية وعدمها وأنهم ادعوها مستشهدين فى ذلك بالله سبحانه إذ عند ذلك تمس الحاجة إلى الأمر بالاستشهاد بالناس والنهى عن الاستشهاد به تعالى وأنى لهم ذلك وما نبض لهم عرق ولا نبسوا ببنت شفة واما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الأصنام ودون بمعنى التجاوز على أنها ظرف مستقر وقع حالا من ضمير المخاطبين والعامل مادل عليه شهداءكم أى ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى فى اتخاذها كذلك وكلمة من ابتدائية فان الاتخاذ ابتداء من التجاوز والتعبير عن الأصنام بالشهداء لتعيين مدار الاستظهار بها بتذكير مازعموا من أنها بمكان من الله تعالى وأنها تنفعهم بشهادتها لهم أنهم على الحق فان ماهذا شأنه يجب أن يكون ملاذا لهم فى كل أمر مهم وملجأ يأوون اليه فى كل خطب ملم كأنه قيل أولئك عدتكم فادعوهم لهذه الداهية التى دهمتكم فوجه الالتفات الإيذان بكمال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة مالا أحقر منه وقيل

لفظة دون مستعارة من معناها الوضعي الذي هو أدنى مكان من شيء لقدامه كما في قول الاعشى : تريك القذى من دونها وهي دونه أي تريك القذى قدامها وهي قدام القذى فتكون ظرفا لغوا معمولا لشهداءكم الكفاية رائحة الفعل فيه من غير حاجة الى الاعتماد ولا الى تقدير يشهدون أي ادعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى ليعينوكم في المعارضة وايرادها بهذا العنوان لما مر من الاشعار بمناط الاستعانة بها ووجه الالتفات تربية المهابة وترشيح ذلك المعنى فان ما يقوم بهذا الأمر في ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به في كل مرام وفي أمرهم على الوجهين بأن يستظهروا في معارضة القرآن الذي أخرس كل منطيق بالجماد من التهكم بهم ما لا يوصف وكلمة من ههنا تبعيضية لما أنهم يقولون جاس بين يديه وخلفه بمعنى في لانهما ظرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لان الفعل انما يقع في بعض تينك الجهتين كما تقول جئته من الليل تريد بعض الليل وقد يقال كلمة من الداخلة على دون في جميع المواقع بمعنى في كما في سائر الظروف التي لا تنصرف وتكون منصوبة على الظرفية أبدا ولا تنجر الا بمن خاصة وقيل المراد بالشهداء مداره القوم ووجوه المحافل والمحاضر ودون ظرف مستقر ومن ابتدائية أي ادعوا الذين يشهدون لكم أن ما أتيتم به مثله متجاوزين في ذلك أولياء الله ومحصله شهداء مغايرين لهم ايذانا بأنهم أيضا لا يشهدون بذلك وانما قدر المضاف الى الله تعالى رعاية للمقابلة فان أولياء الله تعالى يقابلون أولياء الأصنام كما ان ذكر الله تعالى يقابل ذكر الأصنام والمقصود بهذا الأمر ارخاء العنان والاستدراج إلى غاية التبكيت كانه قيل تركنا الزامكم بشهداء لا ميل لهم الى أحد الجانبين كما هو المعتاد واكتفينا بشهدائكم المعروفين بالذب عنكم فانهم أيضا لا يشهدون لكم حذرا من اللائمة وأنفة من الشهادة البينة البطلان كيف لا وأمر الاعجاز قد بلغ من الظهور الى حيث لم يبق الى انكاره سبيل قطعا وفيه ما مر من عدم الملاءمة لابتداء التحدي وعدم تناوله لأولئك الشهداء وايهام أنهم تعرضوا للمعارضة وأتوا بشيء احتاجوا في اثبات مثليته للمتحدى به إلى الشهادة وشتان بينهم وبين ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي في زعمكم انه من كلامه عليه السلام وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه أي إن كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله الخ واستلزام المقدم للتالي من حيث أن صدقهم في ذلك الزعم يستدعي قدرتهم على الاتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام في البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والاشعار وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام لا سيما عند المظاهرة والتعاون ولا ريب في أن القدرة على الشيء من موجبات الاتيان به ودواعي الأمر به ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي ما أمرتم به من الاتيان بالمثل بعد ما بذلتم في السعي غاية المجهود وجاوزتم في الجد كل حد معهود متشبثين بالذيول راكبين متن كل صعب وذلول وإنما لم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه بناء على كمال ظهوره لكم على ذلك وإنما أورد في حيز الشرط مطلق الفعل وجعل مصدر الفعل المأمور به مفعولا له للإيجاز البديع المغني عن التطويل والتكرير مع سر سري استقل به المقام وهو الإيذان بأن المقصود بالتكليف هو إيقاع نفس الفعل المأمور به لاظهار عجزهم عنه لا لتحصيل المفعول أي المأتي به ضرورة استحالته وأن مناط الجواب في الشرطية أعني الأمر بارتقاء النار هو عجزهم عن ايقاعه لا فوت حصول المفعول فان مدلول لفظ الفعل هو أنفس الأفعال الخاصة لازمة كانت أو متعدية من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة فاذا علق بفعل خاص متعد فانما يقصد به ايقاع نفس ذلك الفعل وإخراجه من القوة إلى الفعل وأما تعلقه بمفعوله المخصوص فهو خارج عن مدلول الفعل المطلق وإنما يستفاد ذلك من الفعل الخاص ولذلك تراهم يتوسلون بذلك الى تجريد الأفعال المتعدية عن مفعولاتها وتنزيلها منزلة الأفعال اللازمة فيقولون مثلا معنى فلان يعطي ويمنع يفعل الاعطاء والمنع يرشدك إلى هذا قوله تعالى فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون بعد قوله تعالى ائتوني بأخ لكم من أبيكم فانه لما كان

مقصود يوسف عليه السلام بالأمر ومرمى غرضه بالتكليف منه استحضار بنيامين لم يكتف فى الشرطية الداعية لهم إلى الجد فى الامتثال والسعى فى تحقيق المأمور به بالإشارة الاجمالية إلى الفعل الذى ورد به الأمر بأن يقول فان لم تفعلوا بل أعاده بعينه متعلقا بمفعوله تحقيقا لمطلبه واعرابا عن مقصده هذا وقد قيل أطلق الفعل وأريد به الاتيان مع ما يتعلق به اما على طريقة التعبير عن الأسماء الظاهرة بالضمائر الراجعة اليها حذرا من التكرار أو على طريقة ذكر اللازم وإرادة الملزوم لما بينهما من التلازم المصحح للانتقال بمعونة قرائن الحال فتدبر وإيثار كلمة أن المفيدة للشك على إذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم بمجاراة معهم بحسب حسبانهم قبل التجربة أو تهكم بهم ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ كلمة لن لنفى المستقبل كلا خلا أن فى لن زيادة تأكيد وتشديد وأصلها عند الخليل لا أن وعند الفراء لا أبدلت ألفها نونا وعند سيبويه حرف مقتضب للمعنى المذكور وهى إحدى الروايتين عن الخليل والجملة اعتراض بين جزأى الشرطية مقرر لمضمون مقدمها ومؤكد لايجاب العمل بتاليها وهذه معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك كيف لا ولو عارضوه بشىء يدانيه فى الجملة لتناقله الرواة خلفا عن سلف ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد إذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه كانه قيل فاذا عجزتم عن الاتيان بمثله كما هو المقرر فاحترزوا من انكار كونه منزلا من عند الله سبحانه فانه مستوجب للعقاب بالنار لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها للمبالغة فى تهويل شأنه وتفظيع أمره واظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه وتنفيرهم عنه وحثهم على الجد فى تحقيق المكنى عنه وفيه من الايجاز البديع مالا يخفى حيث كان الأصل فان لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم وإذا صح ذلك كان لزومكم العناد وترككم الإيمان به سببا لاستحقاقكم العقاب بالنار فاحترزوا منه واتقوا النار ﴿ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفظاعة أعاذنا الله من ذلك والوقود مايوقد به النار وترفع من الحطب وقرىء بضم الواو وهو مصدر سمى به المفعول مبالغة كما يقال فلان فخر قومه وزين بلده والمعنى أنها من الشدة بحيث لا تمس شيئا من رطب أو يابس الا أحرقته لا كنيران الدنيا تفتقر فى الالتهاب إلى وقود من حطب أو حشيش وإنما جعل هذا الوصف صلة للموصول مقتضية لكون انتسابها إلى ما نسبت هى اليه معلوما للمخاطب بناء على أنهم سمعوه من أهل الكتاب قبل ذلك أو من الرسول صلى الله عليه وسلم أو سمعوا قبل هذه الآية المدنية قوله تعالى نارا وقودها الناس والحجارة فأشير ههنا إلى ما سمعوه أولا وكون سورة التحريم مدنية لا يستلزم كون جميع آياتها كذلك كما هو المشهور وأما أن الصفة أيضا يجب أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب فالخطب فيه هين لما أن المخاطب هناك المؤمنون وظاهر أنهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بالحجارة الأصنام وبالناس أنفسهم وحسبما ورد فى قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى هيئت للذين كفروا بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم والمراد اما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم دخولا أوليا أو اياهم خاصة ووضع الكافرين موضع ضميرهم لذمهم وتعليل الحكم بكفرهم وقرىء اعتدت من العتاد بمعنى العدة وفيه دلالة على أن النار مخلوقة موجودة الآن والجملة استئناف لا محل لها من الاعراب مقررة لمضمون ما قبلها ومؤكدة لايجاب العمل به ومبينة لمن أريد بالناس دافعة لاحتمال العموم وقيل حال باضمار قد من النار لا من ضميرها فى وقودها لما فى ذلك من الفصل بينهما بالخبر وقيل صلة بعد صلة أو عطف على الصلة بترك العاطف ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بأنه منزل من عند الله عز وجل وهو معطوف على الجملة السابقة لكن لا على المقصود عطف نفس الأمر حتى يطلب له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة

المؤمنين بالقرآن ووصف ثوابهم على قصة الكافرين به وكيفية عقابهم جريا على السنة الإلهية من شفع الترغيب بالترهيب والوعد بالوعيد وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين حالى الفريقين وقرىء وبشر على صيغة الفعل مبنيا للمفعول عطفا على أعدت فيكون استئنافا وتعليق التبشير بالموصول للاشعار بأنه معلل بما فى حيز الصلة من الإيمان والعمل الصالح لكن لا لذاتهما فانهما لا يكافئان النعم السابقة فضلا من أن يقتضيا ثوابا فيما يستقبل بل بجعل الشارع ومقتضى وعده وجعل صلته فعلا مفيد للحدوث بعد إيراد الكفار بصيغة الفاعل لحث المخاطبين بالاتقاء على احداث الإيمان وتحذيرهم من الاستمرار على الكفر والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل لكل من يتأتى منه التبشير كما فى قوله عليه السلام بشر المشائين إلى المساجد فى ظلم الليالى بالنور التام يوم القيامة فانه عليه السلام لم يأمر بذلك واحدا بعينه بل كل أحد ممن يتأتى منه ذلك وفيه رمز إلى أن الأمر لعظمه وفخامة شأنه حقيق بأن يتولى التبشير به كل من يقدر عليه والبشارة الخبر السار الذى يظهر به أثر السرور فى البشرة وتباشير الصبح أول ضوئه (وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ) الصالحة كالحسنة فى الجريان مجرى الاسم وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل واللام للجنس والجمع لإفادة أن المراد بها جملة من الأعمال الصالحة التى أشير إلى أمهاتها فى مطلع السورة الكريمة وطائفة منها متفاوتة حسب تفاوت حال المكلفين فى مواجب التكليف وفى عطف العمل على الإيمان دلالة على تغايرهما وإشعار بأن مدار استحقاق البشارة مجموع الأمرين فان الإيمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأس لا بناء به (أَنَّ لَهُمْ جَنَّتٍ) منصوب بنزع الخافض وإفضاء الفعل اليه أو مجرور باضماره مثل الله لأفعلن والجنة هى المرة من مصدر جنه إذا ستره تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه قال زهير :

كأن عينى فى غربى مقتلة ... من النواضح تسقى جنة سحقا

أى نخلا طوالا كأنها لفرط تكاثفها والتفافها وتغطيتها لما تحتها بالمرة نفس الستره وعلى الأرض ذات الشجر قال الفراء الجنة ما فيه النخيل والفردوس ما فيه الكرم فحق المصدر حينئذ أن يكون مأخوذا من الفعل المبنى للمفعول وإنما سميت دار الثواب بها مع أن فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور لما أنها مناط نعيمها ومعظم ملاذها وجمعها مع التنكير لأنها سبع على ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما جنة الفردوس وجنة عدن وجنة النعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام وعليون وفى كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال وأصحابها (تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَرُ) فى حيز النصب على أنه صفة جنات فإن أريد بها الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وإن أريد بها مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل عن مسروق أن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود واللام فى الأنهار للجنس كما فى قولك لفلان بستان فيه الماء الجارى والتين والعنب أو عوض عن المضاف اليه كما فى قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا أو للعهد والإشارة إلى ما ذكر فى قوله عز وعلا أنهار من ماء غير آسن الآية والنهر بفتح الهاء وسكونها المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والتركيب للسعة والمراد بها ماؤها على الاضمار أو على المجاز اللغوى أو المجارى أنفسها وقد أسند اليها الجريان مجازا عقليا كما فى سال الميزاب (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ) صفة أخرى لجنات أخرت عن الأولى لأن جريان الأنهار من تحتها وصف لها باعتبار ذاتها وهذا وصف لها باعتبار أهلها المتنعمين بها أو خبر مبتدأ محذوف أو جملة مستأنفة كأنه حين وصفت الجنات بما ذكر من الصفة وقع فى ذهن السامع أثمارها كثمار جنات الدنيا أولا فبين حالها وكلما نصب على الظرفية ورزقا مفعول به ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال كأنه قيل كل وقت رزقوا

مرزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة على أن الرزق مقيد بكونه مبتدأ من الجنات وابتداؤه منها مقيد بكونه مبتدأ من ثمرة فصاحب الحال الأولى رزقا وصاحب الثانية ضميره المستكن فى الحال ويجوز كون من ثمرة بيانا قدم على المبين كما فى قولك رأيت منك أسدا وهذا إشارة إلى مارزقوا وإن وقعت على فرد معين منه كقولك مشيرا إلى نهر جار هذا الماء لا ينقطع فانك إن أشرت إلى ماتعاينه بحسب الظاهر لكنك إنما تعنى بذلك النوع المعلوم المستمر فالمعنى هذا مثل الذى رزقناه من قبل أى من قبل هذا فى الدنيا ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته وإنما جعل ثمر الجنة كثمار الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه فان الطباع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غير معروف ولتبين لها مزيته وكنه النعمة فيه إذ لو كان جنسا غير معهود لظن أنه لا يكون إلا كذلك أو مثل الذى رزقناه من قبل فى الجنة لأن طعامها متشابه الصور كما يحكى عن الحسن رضى الله عنه أن أحدهم يؤتى الصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول ذلك فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف أو كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده ان الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى واصلة إلى فيه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها والأول أنسب لمحافظة عموم كلما فانه يدل على ترديدهم هذه المقالة كل مرة رزقوا لا فيما عدا المرة الأولى يظهرون بذلك التبجح وفرط الاستغراب لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذة مع اتحادهما فى الشكل واللون كأنهم قالوا هذا عين مارزقناه فى الدنيا فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب ولا يقدح فيه ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه ليس فى الجنة من أطعمة الدنيا إلا الاسم فان ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذة والحسن والهيئة لا لبيان أن لا تشابه بينهما أصلا كيف لا واطلاق الأسماء منوط بالاتحاد النوعى قطعا هذا وقد فسرت الآية الكريمة بأن مستلذات أهل الجنة بمقابلة مارزقوه فى الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة الحال فيجوز أن يريدوا هذا ثواب الذى رزقناه فى الدنيا من الطاعات ولا يساعده تخصيص ذلك بالثمرات فان الجنة ومافيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَٰبِهًا) اعتراض مقرر لما قبله والضمير المجرور على الأول راجع إلى مادل عليه فحوى الكلام مما رزقوا فى الدارين كما فى قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما أى بجنسى الغنى والفقير وعلى الثانى إلى الرزق (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ) أى مما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق فان التطهر يستعمل فى الأجسام والأخلاق والأفعال وقرىء مطهرات وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن وهن فاعلة وفواعل قال :

وإذا العذارى بالدخان تقنعت   واستعجلت نصب القدور فملت

فالجمع على اللفظ والافراد على تأويل الجماعة وقرىء مطهرة بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى متطهرة ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة للاشعار بأن مطهرا طهرهن وما هو إلا الله سبحانه وتعالى وأما التطهر فيحتمل أن يكون من قبل أنفسهن كما عند اغتسالهن والزوج يطلق على الذكر والأنثى وهو فى الأصل اسم لماله قرين من جنسه وليس فى مفهومه اعتبار التوالد الذى هو مدار بقاء النوع حتى لا يصح إطلاقه على أزواج أهل الجنة لخلودهم فيها واستغنائهم عن الأولاد كما أن المدارية لبقاء الفرد ليست بمعتبرة فى مفهوم اسم الرزق حتى يخل ذلك باطلاقه على ثمار الجنة (وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) أى دائمون والخلود فى الأصل الثبات المديد دام أو لم يدم ولذلك قيل للأثافى والأحجار الخوالد وللجزء الذى يبقى من الإنسان على حاله خلد ولو كان وضعه للدوام لماقيد بالتأبيد فى قوله عز وعلا خالدين فيها أبدا ولما استعمل حيث لادوام فيه لكن المراد ههنا الدوام قطعا لما يقضى به من الآيات والسنن وماقيل من أن الأبدان مؤلفة من الأجزاء المتضادة فى الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانحلال والانفكاك مداره قياس ذلك العالم الكامل بما يشاهد فى عالم الكون والفساد

على أنه يجوز أن يعيدها الخالق تعالى بحيث لا يعتورها الاستحالة ولا يعتريها الانحلال قطعا بأن تجعل أجزاؤها متفاوتة في الكيفيات متعادلة في القوى بحيث لا يقوى شيء منها عند التفاعل على إحالة الآخر متعانقة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض وتبقى هذه النسبة منحفظة فيما بينها أبدا لا يعتريها التغير بالأكل والشرب والحركات وغير ذلك واعلم أن معظم اللذات الحسية لما كان مقصورا على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضى به الاستقراء وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات إذ كل نعمة وإن جلت حيث كانت في شرف الزوال ومعرض الاضمحلال فإنها منغصة غير صافية من شوائب الألم بشر المؤمنين بها وبدوامها تكميلا للبهجة والسرور اللهم وفقنا لمراضيك وثبتنا على ما يؤدى إليها من العقد والعمل (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً) شروع في تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال وبيان لحكمته وتحقيق للحق أثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدي وإلقام الحجر والخام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المنافقين طعنوا في ضرب الأمثال بالنار والظلمات والرعد والبرق وقالوا الله أجل وأعلى من ضرب الأمثال وروى عطاء رضى الله عنه أن هذا الطعن كان من المشركين وروى عنه أيضا أنه لما نزل قوله تعالى يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له الآية وقوله تعالى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء الآية قالت اليهود أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى بهما الأمثال وجعلوا ذلك ذريعة إلى إنكار كونه من عند الله تعالى مع أنه لا يخفى على أحد ممن له تمييز أنه ليس مما يتصور فيه التردد فضلا عن النكير بل هو من أوضح أدلة كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر كيف لا وإن التمثيل كما مر ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهود وتحلية المعقول بحلية المحسوس وتصوير أوابد المعانى بهيئة المأنوس لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية وفهم الدقائق الأبية كي يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه إلى ما يرتضيه ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية والكلمات النبوية وذاعت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء ومن قضية وجوب التماثل بين الممثل والممثل به في مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم والحقير بالحقير وقد مثل في الإنجيل غل الصدر بالنخالة ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير وجاء في عبارات البلغاء أجمع من ذرة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد وأضعف من بعوضة إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصر والحياء تغير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم عليه يقال حيي الرجل وهو حيي واشتقاقه من الحياة اشتقاق شظى وحشى ونسى من الشظى والنسى والحشى يقال شظى الفرس ونسى وحشى إذا اعتلت منه تلك الأعضاء كان من يعتريه الحيا تعتل قوته الحيوانية وتنتقص واستحيا بمعناه خلا أنه يتعدى بنفسه وبحرف الجر يقال استحييته واستحييت منه والأول لا يتعدى إلا بحرف الجر وقد يحذف منه إحدى الياءين ومنه قوله :

ألا يستحى منا الملوك ويتقى ... محارمنا لا يبوء الدم بالدم

وقوله : إذا ما استحين الماء يعرض نفسه ... كرعن بسبت في إناء من الورد

فكما أنه إذا أسند إليه سبحانه بطريق الإيجاب في مثل قوله صلى الله عليه وسلم إن الله يستحي من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه وقوله عليه السلام إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا يراد به الترك الخاص على طريقة التمثيل حيث مثل في الحديثين الكريمين تركه تعذيب ذى الشيبة وتخييب العبد من عطائه بترك من يتركهما حياء كذلك إذا نفى عنه تعالى في المواد الخاصة كما في هذه الآية الشريفة وفي قوله تعالى والله لا يستحيي من الحق يراد به سلب ذلك الترك الخاص المضاهي لترك المستحيي عنه لا سلب وصف الحياء عنه تعالى رأسا كما في قولك إن

الله لا يوصف بالحياء لأن تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الإيجاب من شأنه تعالى فى الجملة فالمراد ههنا عدم ترك ضرب المثل المماثل لترك من يستحيي من ضربه وفيه رمز إلى تعاضد الدواعى إلى ضربه وتآخذ البواعث اليه إذ الاستحياء إنما يتصور فى الأفعال المقبولة للنفس المرضية عندها ويجوز أن يكون وروده على طريقة المشاكلة فانهم كانوا يقولون أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالأشياء المحقرة كما فى قول من قال :

من مبلغ أفناء يعرب كلها إني بنيت الجار قبل المنزل

وضرب المثل استعماله فى مضربه وتطبيقه به لا صنعه وإنشاؤه فى نفسه وإلا لكان إنشاء الأمثال السائرة فى موارد هاضربا لها دون استعمالها بعد ذلك فى مضاربها لفقدان الإنشاء هناك والأمثال الواردة فى التنزيل وإن كان استعمالها فى مضاربها عين إنشائها فى أنفسها لكن التعبير عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار بل بالاعتبار الأول قطعاً وهو مأخوذ إما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق فكما أن ضربه تطبيقه بقالبه كذلك استعمال الأمثال فى مضاربها تطبيقها بها كأن المضارب قوالب تضرب الأمثال على شاكلتها لكن لا بمعنى أنها تنشأ بحسبها بعد أن لم تكن كذلك بل بمعنى أنها تورد منطبقة عليها سواء كان إنشاؤها حينئذ كعامة الأمثال التنزيلية فإن مضاربها قوالبها أو قبل ذلك كسائر الامثال السائرة فإنها وإن كانت مصنوعة من قبل إلا أن تطبيقها أى إيرادها منطبقة على مضاربها إنما يحصل عند الضرب وأما من ضرب الطين على الجدار ليلتزق به بجامع الإلصاق كان من يستعملها يلصقها بمضاربها ويجعلها ضربة لازب لا تنفك عنها لشدة تعلقها بها ومحل أن يضرب على تقدير تعدية يستحيي بنفسه النصب على المفعولية وأما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل الخفض بإضمار من وعند سيبويه النصب بإفضاء الفعل اليه بعد حذفها ومثلا مفعول ليضرب وما اسمية إبهامية تزيد ما تقارنه من الإسم المنكر إبهاما وشياعا كما فى قولك أعطنى كتابا ما كأنه قيل مثلا ما من الامثال أى مثل كان فهى صفة لما قبلها أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها كما فى قوله تعالى فبما رحمة من الله وبعوضة بدل من مثلا أو عطف بيان عند من يجوزه فى النكرات أو مفعول ليضرب ومثلا حال تقدمت عليها لكونها نكرة أو هما مفعولا لتضمنه معنى الجعل والتصيير وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو بعوضة والجملة على تقدير كون ما موصولة صلة لها محذوفة الصدر كما فى قوله تعالى تماما على الذى أحسن على قراءة الرفع وعلى تقدير كونها موصوفة صفة لها كذلك ومحل ما على الوجهين النصب على أنه بدل من مثلا أو على أنه مفعول ليضرب وعلى تقدير كونها ابهامية صفة لمثلا كذلك واما على تقدير كونها استفهامية فهى خبر لها كأنه لما رد استبعادهم ضرب المثل قيل ما بعوضة وأى مانع فيها حتى لا يضرب بها المثل بل له تعالى أن يمثل بما هو أصغر منها وأحقر كجناحها على ما وقع فى قوله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء والبعوض فعول من البعض وهو القطع كالبضع والعضب غلب على هذا النوع كالخموش فى لغة هذيل من الخمش وهو الخدش (فَمَا فَوْقَهَا) عطف على بعوضة على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة وما موصولة أو موصوفة صلتها أو صفتها الظرف واما على تقدير رفعها فهو عطف على ما الاولى على تقدير كونها موصولة أو موصوفة واما على تقدير كونها استفهامية فهو عطف على خبرها أعنى بعوضة لا على نفسها كما قيل والمعنى ما بعوضة فالذى فوقها أو فشىء فوقها حتى لا يضرب بها المثل وكذا على تقدير كونها صفة للنكرة أو زائدة وبعوضة خبر للمضمر وذكر البعوضة فما فوقها من بين أفراد المثل إنما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص فلا يخل بالشيوع بل يقرره ويؤكده بطريق الاولوية والمراد بالفوقية إما الزيادة فى المعنى الذى أريد بالتمثيل أعنى الصغر والحقارة واما الزيادة فى الحجم والجثة لكن لا بالغا ما بلغ بل فى الجملة كالذباب والعنكبوت وعلى التقدير الأول

يجوز أن يكون ما الثانية خاصة استفهامية انكارية والمعنى ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فأى شيء فوقها فى الصغر والحقارة فاذن له تعالى أن يمثل بكل ما يريد ونظيره فى احتمال الأمرين ما روى أن رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عائشة رضى الله عنها حين ذكرلها ذلك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة فانه يحتمل ما يجاوز الشوكة فى القلة كنخبة النملة بقوله عليه السلام ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة وما تجاوزها من الألم كامثال ما حكى من الحرور (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا) شروع فى تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم اثر تحقيق حقية صدوره عنه تعالى والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يدل عليه ما قبلها كأنه قيل فيضربه فاما الذين الخ وتقديم بيان حال المؤمنين على ما حكى من الكفرة مما لا يفتقر إلى بيان السبب وفى تصدير الجملتين باما من احماد أمر المؤمنين وذم الكفرة ما لا يخفى وهو حرف متضمن لمعنى اسم الشرط وفعله بمنزلة مهما يكن من شيء ولذلك يجاب بالفاء وفائدته توكيد ما صدر به وتفصيل ما فى نفس المتكلم من الاقسام فقد تذكر جميعا وقد يقتصر على واحد منها كما فى قوله عز من قائل فأما الذين فى قلوبهم زيغ الخ قال سيبويه أما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شيء فهو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة وكان الأصل دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء لكن كرهوا ايلاءها حرف الشرط فادخلوها الخبر وعوض المبتدأ عن الشرط لفظا والمراد بالموصول فريق المؤمنين المعهودين كما ان المراد بالموصول الآتى فريق الكفرة لا من يؤمن بضرب المثل ومن يكفر به لاختلال المعنى أى فأما المؤمنون (فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ) كسائر ما ورد منه تعالى والحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لا محالة بحيث لا سبيل للعقل إلى انكاره لا الثابت مطلقا واللام للدلالة على أنه مشهود له بالحقية وأن له حكما ومصالح ومن لابتداء الغاية المجازية وعاملها محذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى الحق أو من الضمير العائد إلى المثل أو إلى ضربه أى كائنا وصادرا من ربهم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم لتشريفهم وللايذان بان ضرب المثل تربية لهم وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم والجملة سادة مسد مفعولى يعلمون عند الجمهور ومسد مفعوله الاول والثانى محذوف عند الاخفش أى فيعلمون حقيته ثابتة ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما فى قوله تعالى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا للاشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهوره المغنى عن الذكر (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) ممن حكيت أقوالهم وأحوالهم (فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا) أوثر يقولون على لا يعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم فى الكفر وترامى أمرهم فى العتو فان مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة انكارها والاستهزاء به صريحا وتمهيدا لتعداد ما نعى عليهم فى تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور على ان عدم العلم بحقيته لا يعم جميعهم فان منهم من يعلم بها وإنما يقول ما يقول مكابرة وعنادا وحمله على عدم الاذعان والقبول الشامل للجهل والعناد تعسف ظاهر هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه ويقابل قسيمه لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحا على جهلهم عدل اليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه فتأمل وكن على الحق المبين وماذا اما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ خبره ذا بمعنى الذى وصلته ما بعده والعائد محذوف فالاحسن أن يجيء جوابه مرفوعا واما منزلة منزلة اسم واحد بمعنى أى شيء فالأحسن فى جوابه النصب والارادة نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها اليه أو القوة التى هى مبدؤه والاول مع الفعل والثانى قبله وكلاهما لا يتصور فى حقه تعالى ولذلك اختلفوا فى ارادته عز وجل فقيل إرادته تعالى لافعاله كونه غير ساه فيه ولا مكره ولافعال غيره أمره بها فلا تكون المعاصى بارادته تعالى وقيل هى علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل والوجه

الأصلح فانه يدعو القادر إلى تحصيله والحق انها عبارة عن ترجيح أحد طرفى المقدور على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجبه وهى أعم من الاختيار فانه ترجيح مع تفضيل وفى كلمة هذا تحقير للمشار اليه واسترذال له ومثلا نصب على التمييز أو على الحال كما فى قوله تعالى ناقة الله لكم آية وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام الحكمة فى ضرب المثل ولا القدح فى اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا بل غرضهم التذيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة تحت ارادته تعالى على استحالة أن يكون ضرب المثل به من عنده سبحانه فقوله عز من قائل (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) جواب عن تلك المقالة الباطلة وردلها ببيان أنه مشتمل على حكمة جليلة وغاية جميلة هى كونه ذريعة إلى هداية المستعدين للهداية واضلال المنهمكين فى الغواية فوضع الفعلان موضع الفعل الواقع فى الاستفهام مبالغة فى الدلالة على تحققهما فان ارادتهما دون وقوعهما بالفعل وتجافيا عن نظم الاضلال مع الهداية فى سلك الارادة لايهامه تساويهما فى تعلقهما وليس كذلك فان المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكر والاهتداء كما ينبىء عنه قوله تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ونظائره وأما الإضلال فهو أمر عارض مترتب على سوء اختيارهم وأوثر صيغة الاستقبال ايذانا بالتجدد والاستمرار وقيل وضع الفعلان موضع مصدريهما كانه قيل أراد اضلال كثير وهداية كثير وقدم الاضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول مايقرع أسماعهم من الجواب أمرا فظيعا يسوءهم ويفت فى أعضادهم وهو السر فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين باما وتسجيل بأن العلم بكونه حقا هدى وأن الجهل بوجه ايراده والانكار لحسن مورده ضلال وفسوق وكثرة كل فريق إنما هى بالنظر إلى أنفسهم لا بالقياس إلى مقابليهم فلا يقدح فى ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة إلى أهل الضلال حسبما نطق به قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور ونحو ذلك واعتبار كثرتهم الذاتية دون قلتهم الإضافية لتكميل فائدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز أن يراد فى الأولين الكثرة من حيث العدد وفى الآخرين من حيث الفضل والشرف كما فى قول من قال :

ان الكرام كثير فى البلاد وان قلوا كما غيرهم قل وان كثروا

واسناد الاضلال أى خلق الضلال اليه سبحانه مبنى على أن جميع الأشياء مخلوقة له تعالى وان كان أفعال العباد من حيث الكسب مستندة اليهم وجعله من قبيل اسناد الفعل الى سببه يأباه التصريح بالسبب وقرىء يضل به كثير ويهدى به كثير على البناء للمفعول وتكريره مع جواز الاكتفاء بالأول لزيادة تقرير السببية وتأكيدها (وَمَا يُضِلُّ بِهِ) أى بالمثل أو بضربه (إِلَّا الْفَاسِقِينَ) عطف على ماقبله وتكملة للجواب والرد وزيادة تعيين لمن أريد اضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له وإشارة إلى أن ذلك ليس اضلالا ابتدائيا بل هو تثبيت على ماكانوا عليه من فنون الضلال وزيادة فيه وقرىء ومايضل به إلا الفاسقون على البناء للمفعول والفسق فى اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفارة من جحرها أى خرجت قال رؤبة :

يذهبن فى نجد وغورا غائرا فواسقا عن قصدها جوائرا

وفى الشريعة الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التى من جملتها الاصرار على الصغيرة وله طبقات ثلاث الأولى التغابى وهو ارتكابها أحيانا مستقبحا لها والثانية الانهماك فى تعاطيها والثالثة المثابرة عليها مع جحود قبحها وهذه الطبقة من مراتب الكفر فما لم يبلغها الفاسق لا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذى عليه يدور الايمان ولقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا والمعتزلة لما ذهبوا إلى أن الايمان عبارة عن مجموع التصديق والاقرار

والعمل والكفر عن تكذيب الحق وجحوده ولم يتسن لهم ادخال الفاسق فى أحدهما لجعلوه قسما بين قسمى المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما فى بعض أحكامه والمراد بالفاسقين ههنا العاتون الماردون فى الكفر الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ماحكى من انكار كلام الله تعالى والاستهزاء به وتخصيص الاضلال بهم مترتبا على صفة الفسق وما أجرى عليهم من القبائح للإيذان بأن ذلك هو الذى أعدهم للاضلال وأدى بهم إلى الضلال فان كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرفت وجوه أنظارهم عن التدبر فى حكمة المثل إلى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا فيه ماقالوا (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ) صفة للفاسقين للذم وتقرير ماهم عليه من الفسق والنقض فسخ التركيب من المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما واستعماله فى ابطال العهد من حيث استعارة الحبل له لمافيه من ارتباط أحد كلامى المتعاهدين بالآخر فان شفع بالحبل وأريد به العهد كان ترشيحا للمجاز وإن قرن بالعهد كان رمزا الى ماهو من روادفه وتنبيها على مكانه وان المذكور قد استعير له كما يقال شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس تنبيها على أنه أسد فى شجاعته وبحر فى إضافته والعهد الموثق يقال عهد اليه كذا إذا وصاه به ووثقه عليه والمراد ههنا اما العهد المأخوذ بالعقل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على وجوده ووحدته وصدق رسوله عليه السلام وبه أول قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى أو المعنى الظاهر منه أو المأخوذ من جهة الرسل عليهم السلام على الأمم بأنهم اذا بعث اليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره وذكره فى الكتب المتقدمة ولم يخالفوا احكامه كما ينبىء عنه قوله عز وجل وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ونظائره وقيل عهود الله تعالى ثلاثة الأول ما أخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقروا على ربوبيته والثانى ما أخذه على الأنبياء عليهم السلام بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه والثالث ما أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه (مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ) الميثاق اما اسم لما يقع به الوثاقة والأحكام واما مصدر بمعنى التوثقة كالميعاد بمعنى الوعد فعلى الأول ان رجع الضمير إلى العهد كان المراد بالميثاق ما وثقوه به من القبول والالتزام وإن رجع إلى لفظ الجلالة يراد به آياته وكتبه وانذار رسله عليهم السلام والمضاف محذوف على الوجهين أى من بعد تحقق ميثاقه وعلى الثانى ان رجع الضمير إلى العهد والميثاق مصدر من المبنى للفاعل فالمعنى من بعد أن وثقوه بالقبول والالتزام أو من بعد أن وثقه الله عز وجل بانزال الكتب وانذار الرسل وإن كان مصدرا من المبنى للمفعول فالمعنى من بعد كونه موثقا اما بتوثيقهم اياه بالقبول واما بتوثيقه تعالى اياه بانزال الكتب وانذار الرسل (وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) يحتمل كل قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى كقطع الرحم وموالاة المؤمنين والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام والكتب فى التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائر مافيه رفض خير أو تعاطى شر فانه يقطع مابين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى المقصودة بالذات من كل وصل وفصل والأمر هو القول الطالب للفعل مع العلو وقيل بالاستعلاء وبه سمى الأمر الذى هو واحد الأمور تسمية للمفعول بالمصدر فانه مما يؤمر به كما يقال له شأن وهو القصد والطلب لما أنه أثر للشأن وكذا يقال له شىء وهو مصدر شاء لما أنه أثر للمشيئة ومحل أن يوصل اما النصب على أنه بدل من الموصول أو من ضميره والثانى أولى لفظا ومعنى (وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ) بالمنع عن الايمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى عليها يدور فلك نظام العالم وصلاحه (أُولَئِكَ) اشارة إلى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات القبيحة وفيه إيذان بأنهم متميزون بها أكمل تميز ومنتظمون بسبب ذلك فى سلك الأمور المحسوسة ومافيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الفساد (هُمُ الْخَاسِرُونَ) الذين خسروا باهمال العقل عن النظر واقتناص مايفيدهم الحياة الأبدية واستبدال الانكار

والطعن فى الآيات بالإيمان بها والتأمل فى حقائقها والاقتباس من أنوارها واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والقطيعة بالصلة والعقاب بالثواب (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ) التفات إلى خطاب المذكورين مبنى على إيراث ماعدد من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع والاستفهام انكارى لا بمعنى انكار الوقوع كما فى قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الخ بل بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ماليس فى توجيه الانكار إلى نفس الكفر بأن يقال أتكفرون لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى وقوله عز وجل (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا) إلى آخر الآية حال من ضمير الخطاب فى تكفرون مؤكدة للانكار والاستبعاد بما عدد فيها من الشؤن العظيمة الداعية إلى الإيمان الرادعة من الكفر من حيث كونها نعمة عامة ومن حيث دلالتها على قدرة تامة كقوله تعالى وقد خلقكم أطوارا وكيف منصوبة على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الاخفش أى فى أى حال أو على أى حال تكفرون به تعالى والحال أنكم كنتم أمواتا أى أجساما لاحياة لها عناصر وأغذية ونطفا ومضغا مخلقة وغير مخلقة والأموات جمع ميت كأقوال جمع قيل واطلاقها على تلك الأجسام باعتبار عدم الحياة مطلقا كما فى قوله تعالى بلدة ميتا وقوله تعالى وآية لهم الأرض الميتة (فَأَحْيَاكُمْ) بنفخ الأرواح فيكم والفاء للدلالة على التعقيب فان الاحياء حاصل اثر كونهم أمواتا وان توارد عليهم فى تلك الحالة أطوار مترتبة بعضها متراخ عن بعض كما أشير اليه آنفا (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) أى عند انقضاء آجالكم وكون الاماتة من دلائل القدرة ظاهر وأما كونها من النعم فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية التى هى الحيوان والنعمة العظمى والتراخى المستفاد من كلمة ثم بالنسبة إلى زمان الاحياء دون زمان الحياة فان زمان الاماتة غير متراخ عنه (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) بالنشور يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور وأياما كان فهو متراخ من زمان الاماتة وإن كان اثر زمان الموت المستمر (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) بعد الحشر لا إلى غيره فيجازيكم بأعمالكم ان خيرا فخير وإن شرا فشر أو اليه تنشرون من قبوركم للحساب وهذه الأفعال وإن كان بعضها ماضيا وبعضها مستقبلا لا يتسنى مقارنة شىء منها لما هو حال منه فى الزمان لكن الحال فى الحقيقة هو العلم المتعلق بها كأنه قيل كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بهذه الأحوال المانعة منه ومآله التعجيب من وقوعه مع تحقق ماينفيه وإنما نظم ماينكرونه من الاحياء الأخير والرجع فى سلك مايعترفون به من الاحياء الأول والاماتة تنزيلا لتمكنهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة منزلة العلم بذلك بالفعل فى ازاحة العلل والأعذار والحياة حقيقة فى القوة الحساسة أو مايقتضيها وبها سمى الحيوان حيوانا مجاز فى القوة النامية لكونها من طلائعها وكذا فيما يخص الإنسان من العقل والعلم والإيمان من حيث أنه كمالها وغايتها والموت بازائها يطلق على مايقابل كل مرتبة من تلك المراتب قال تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم وقال تعالى اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها وقال تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس وعند وصفه تعالى بها يراد صحة اتصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا أو معنى قائم بذاته تعالى مقتض لذلك وقرىء ترجعون بفتح التاء والأول هو الأليق بالمقام (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا) تقرير للانكار وتأكيد له من الحيثيتين المذكورتين غير سبكه عن سبك ماقبله مع اتحادهما فى المقصود ابانة لما بينهما من التفاوت فان مايتعلق بذواتهم من الاحياء والاماتة والحشر أدخل فى الحث على الإيمان والكف عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم ومايجرى مجراها وفى جعل الضمير مبتدأ والموصول خبرا من الدلالة على الجلالة مالا يخفى وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا للمخاطبين وللتشويق اليه كما سلف أى خلق لأجلكم جميع مافى الأرض من الموجودات لتنتفعوا

بها فى أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمور دينكم بالاستدلال بها على شؤن الصانع تعالى شأنه والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها وما يعم جميع مافى الأرض لا نفسها إلا أن يراد بها جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو نعم يعم كل جزء من أجزائها فانه من جملة مافيها ضرورة وجود الجزء فى الكل وجميعا حال من الموصول الثانى مؤكدة لما فيه من العموم فان كل فرد من أفراد مافى الأرض بل كل جزء من أجزاء العالم له مدخل فى استمراره على ما هو عليه من النظام اللائق الذى عليه يدور انتظام مصالح الناس أما من جهة المعاش فظاهر وأما من جهة الدين فلما أنه ليس فى العالم شىء مما يتعلق به النظر وما لا يتعلق به إلا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر فى تفسير قوله تعالى رب العالمين وإن لم يستدل به أحد بالفعل (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) أى قصد اليها بارادته ومشيئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من إرادة خلق شىء آخر فى تضاعيف خلقها أو غير ذلك مأخوذ من قولهم استوى اليه كالسهم المرسل وتخصيصه بالذكر ههنا إما لعدم تحققه فى خلق السفليات لما روى من تخلل خلق السموات بين خلق الأرض ودحوها عن الحسن رضى الله عنه خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان يلتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارضين وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وإما لإظهار كمال العناية بابداع العلويات وقيل استوى استولى وملك والاول هو الظاهر وكلمة ثم للايذان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للتراخى الزمانى فان تقدمه على خلق ما فى الارض المتأخر عن دحوها بما لا مرية فيه لقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها ولما روى عن الحسن والمراد بالسماء اما الاجرام العلوية فان القصد اليها بالإرادة لا يستدعى سابقة الوجود واما جهات العلو (فَسَوَّاهُنَّ) أى أتمهن وقومهن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج والفطور لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولا يخفى مافى مقارنة التسوية والاستواء من حسن الموقع وفيه إشارة إلى أن لا تغير فيهن بالنمو والذبول كما فى السفليات والضمير على الوجه الاول للسماء فإنها فى معنى الجنس وقيل هى جمع سماءة أو سماوة وعلى الوجه الثانى مبهم يفسره قوله تعالى (سَبْعَ سَمَوَاتٍ) كما فى قولهم ربه رجلا وهو على الوجه الاول بدل من الضمير وتأخير ذكر هذا الصنع البديع عن ذكر خلق مافى الارض مع كونه أقوى منه فى الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما أن المنافع المنوطة بما فى الارض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وإن كان فى إبداع العلويات أيضا من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصى هذا ما قالوا وسيأتى فى حم السجدة مزيد تحقيق وتفصيل باذن الله تعالى (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من خلق السموات والارض ومافيها على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة والمصالح اللائقة فإن علمه عز وجل بجميع الاشياء ظاهرها وباطنها بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعى أن يخلق كل ما يخلقه على الوجه الرائق وقرىء وهو بسكون الهاء تشبيها له بعضد (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ) بيان لأمر آخر من جنس الأمور المتقدمة المؤكدة للانكار والاستبعاد فان خلق آدم عليه السلام وما خصه به من الكرامات السنية المحكية من أجل النعم الداعية لذريته إلى الشكر والايمان الناهية عن الكفر والعصيان وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى خلق لكم مافى الأرض جميعا وتوضيح لكيفية التصرف والانتفاع بما فيها وتلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبى صلى الله عليه وسلم خاصة للايذان بأن فحوى الكلام ليس مما يهتدى اليه بأدلة العقل كالأمور المشاهدة التى نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب بل إنما طريقه الوحى الخاص به عليه السلام وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الاضافة إلى ضميره عليه السلام من الانباء عن تشريفه عليه السلام ما لا يخفى وإذ ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها كما أن إذا

موضوع لزمان نسبة مستقبلة يقع فيه أخرى مثلها ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل وانتصابه بمضمر صرح بمثله فى قوله عز وجل واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وقوله تعالى واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل عليها فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا وقيل ليس انتصابه على المفعولية بل على تأويل اذكر الحادث فيه بحذف المظروف وإقامة الظرف مقامه وأياما كان فهو معطوف على مضمر آخر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل له عليه السلام غب ما أوحى اليه ماخوطب به الكفرة من الوحى الناطق بتفاصيل الأمور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى ذكرهم بذلك واذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ماهم فيه وينتهوا عنه وأما ماقيل من أن المقدر هو اشكر النعمة فى خلق السموات والأرض أو تدبر ذلك فغير سديد ضرورة أن مقتضى المقام تذكير المخلين بمواجب الشكر وتنبيههم على مايقتضيه وأين ذاك من مقامه الجليل صلى الله عليه وسلم وقيل انتصابه بقوله تعالى قالوا ويأباه أنه يقتضى أن يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة وقيل بماسبق من قوله تعالى وبشر الذين آمنوا ولا يخفى بعده وقيل بمضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم إذ قال الخ ولا ريب فى أنه لا فائدة فى تقييد بدء الخلق بذلك الوقت وقيل بخلقكم أو بأحياكم مضمرا وفيه مافيه وقيل إذ زائدة ويعزى ذلك إلى ابى عبيدة ومعمر وقيل إنه بمعنى قد واللام فى قوله عز قائلا ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ للتبليغ وتقديم الجار والمجرور فى هذا الباب مطرد لما فى المقول من الطول غالبا مع مافيه من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر كما مر مرارا والملائكة جمع ملك باعتبار أصله الذى هو ملاك على أن الهمزة مزيدة كالشمائل فى جمع شمأل والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة واشتقاقه من ملك لما فيه من معنى الشدة والقوة وقيل على أنه مقلوب من مألك من الالوكة وهى الرسالة أى موضع الرسالة أو مرسل على أنه مصدر بمعنى المفعول فانهم وسائط بين الله تعالى وبين الناس فهم رسله عز وجل أو بمنزلة رسله عليهم السلام واختلفت العقلاء فى حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها فذهب أكثر المتكلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك عليهم السلام وذهب الحكماء إلى أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقة وأنها أكمل منها قوة وأكثر علما تجرى منها مجرى الشمس من الاضواء منقسمة إلى قسمين قسم شأنهم الاستغراق فى معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما نعتهم الله عز وجل بقوله يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم العليون المقربون وقسم يدبر الامر من السماء إلى الأرض حسبما جرى عليه قلم القضاء والقدر وهم المدبرات أمرا فمنهم سماوية ومنهم أرضية وقالت طائفة من النصارى هى النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للابدان ونقل فى شرح كثرتهم أنه عليه السلام قال أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع وروى أن بنى آدم عشر الجن وهما عشر حيوانات البر والكل عشر الطيور والكل عشر حيوانات البحار وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الارض الموكلين وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية وهكذا إلى السماء السابعة ثم كل أولئك فى مقابلة ملائكة الكرسى نزر قليل ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التى عددها ستمائة ألف طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات والارض ومافيهما ومابينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس ومامنه من مقدار شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم لهم زجل بالتسبيح والتقديس ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة فى البحر ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه

السلام لايحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفيات عباداتهم إلا بارئهم العليم الخبير على ماقال تعالى وما يعلم جنود ربك إلا هو وروى أنه عليه السلام حين عرج به إلى السماء رأى ملائكة فى موضع بمنزلة شرف يمشى بعضهم تجاه بعض فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام إلى أين يذهبون فقال جبريل لا أدرى إلا أنى أراهم منذ خلقت ولا أرى واحداً منهم قد رأيته قبل ذلك ثم سألا واحداً منهم منذ كم خلقت فقال لا أدرى غير أن الله عز وجل يخلق فى كل أربعمائة ألف سنة كوكباً وقد خلق منذ خلقنى أربعمائة ألف كوكب فسبحانه من إله ما أعظم قدره وما أوسع ملكوته واختلف فى الملائكة الذين قيل لهم ما قيل فقيل هم ملائكة الأرض وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم المختارون مع إبليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن حيث كانوا سكان الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فقتلوهم إلا قليلا قد أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحار وقلل الجبال وسكنوا الأرض وخفف الله تعالى عنهم العبادة وأعطى إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة فكان يعبد الله تعالى تارة فى الأرض وتارة فى السماء وأخرى فى الجنة فأخذه العجب فكان من أمره ما كان وقال أكثر الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم فى أنهم كل الملائكة لعموم اللفظ وعدم المخصص وقوله تعالى (إِنّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً) فى حيز النصب على أنه مقول قال وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ولذلك عملت عمله وفيها ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه فاعل ذلك لامحالة وهى من الجعل بمعنى التصيير المتعدى إلى مفعولين فقيل أولهما خليفة وثانيهما الظرف المتقدم على ما هو مقتضى الصناعة فان مفعولى التصيير فى الحقيقة اسم صار وخبره أولهما الأول وثانيهما الثانى وهما مبتدأ وخبر والأصل فى الأرض خليفة ثم قيل صار فى الأرض خليفة ثم مصير فى الأرض خليفة فمعناه بعد اللتيا والتى إنى جاعل خليفة من الخلائف أو خليفة بعينه كائناً فى الأرض فان خبر صار فى الحقيقة هو الكون المقدر العامل فى الظرف ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يقتضيه المقام أصلا وإنما الذى يقتضيه هو الإخبار بجعل آدم خليفة فيها كما يعرب عنه جواب الملائكة عليهم السلام فاذن قوله تعالى خليفة مفعول ثان والظرف متعلق بجاعل قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق إلى ما أخر أو بمحذوف وقع حالا مما بعده لكونه نكرة وأما المفعول الأول فمحذوف تعويلا على القرينة الدالة عليه كما فى قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما حذف فيه المفعول الأول وهو ضمير الاموال لدلالة الحال عليه وكذا فى قوله تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم حيث حذف فيه المفعول الاول لدلالة يبخلون عليه أى لايحسبن البخلاء بخلهم هو خيراً لهم ولا ريب فى تحقق القرينة ههنا أما إن حمل على الحذف عند وقوع المحكى فهى واضحة لوقوعه فى أثناء ذكره عليه السلام على ماسنفصله كانه قيل إنى خالق بشرا من طين وجاعل فى الارض خليفة وأما إن حمل على أنه لم يحذف هناك بل قيل مثلا وجاعل اياه خليفة فى الارض لكنه حذف عند الحكاية فالقرينة ماذكر من جواب الملائكة عليهم السلام قال العلامة الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين إن قلت كيف صح أن يقول لهم بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قلت وجهه أن يكون قد قال لهم إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم انتهى. فحيث جاز الاكتفاء عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرد الاسم من غير قرينة تدل عليه فماظنك بما نحن فيه ومعه قرينة ظاهرة ويجوز أن يكون من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو خليفة وحال الظرف فى التعلق والتقديم كما مر فحينئذ لا يكون ما سيأتى من كلام الملائكة مترتبا عليه بالذات بل بالواسطة فانه روى أنه تعالى لما قال لهم إنى جاعل فى الارض خليفة قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال تعالى يكون له ذرية يفسدون فى الارض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا فعند

ذلك قالوا ما قالوا والله تعالى أعلم والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه فعيل بمعنى الفاعل والتاء للمبالغة والمراد به أما آدم عليه السلام وبنوه وإنما اقتصر عليه استغناء بذكره عن ذكرهم كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كمضر وهاشم ومنه الخلافة فى قريش وأما من يخلف أو خلف يخلف فيعمه عليه السلام وغيره من خلفاء ذريته والمراد بالخلافة اما الخلافة من جهته سبحانه فى اجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق لكن لا لحاجة به تعالى إلى ذلك بل لقصور استعداد المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنيه وأما الخلافة ممن كان فى الارض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع (قالوا) استئناف وقع جوابا عما ينساق اليه الاذهان كانه قيل فماذا قالت الملائكة حينئذ فقيل قالوا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) وهو أيضا من الجعل المتعدى إلى اثنين فقيل فيهما ما قيل فى الاول والظاهر أن الاول كلمة من والثانى محذوف ثقة بما ذكر فى الكلام السابق كما حذف الاول ثمة تعويلا على ما ذكر هنا قال قائلهم: لا تخلنا على عزائك إنا طالما قدوشى بنا الاعداء

بحذف المفعول الثانى أى لا تخلنا جازعين على عزائك والمعنى أتجعل فيها من يفسد فيها خليفة والظرف الاول متعلق بتجعل وتقديمه لما مر مرارا والثانى بيفسد وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن فى استخلاف المفسد فى محل إفساده من البعد ما ليس فى استخلافه فى غيره هذا وقد جوز كونه من الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد هو كلمة من وأنت خبير بأن مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد فى الارض كيف لا وان ما يعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى أحقيتهم منه يقضى ببطلانه حتما إذ لا صحة لدعوى الاحقية منه بالخلق وهم مخلوقون بل مداره ان يستخلف لعمارة الارض وإصلاحها باجراء أحكام الله تعالى وأوامره أو يستخلف مكان المطبوعين على الطاعة من من شأن بنى نوعه الإفساد وسفك الدماء وهو عليه السلام وإن كان منزها عن ذلك إلا أن استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريته التى لا تخلو عنه غالبا وإنما أظهروا تعجبهم استكشافا عما خفى عليهم من الحكم التى بدت على تلك المفاسد وألغتها واستخبارا عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التى جعلته أهلا لذلك كسؤال المتعلم عما ينقدح فى ذهنه لا اعتراضا على فعل الله سبحانه ولا شكا فى اشتماله على الحكمة والمصلحة إجمالا ولا طعنا فيه عليه السلام ولا فى ذريته على وجه الغيبة فان منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك قال تعالى بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وإنما عرفوا ما قالوا إما بإخبار من الله تعالى حسبما نقل من قبل أو بتلق من اللوح أو باستنباط عما ارتكز فى عقولهم من اختصاص العصمة بهم أو بقياس لاحد الثقلين على الآخر (وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) السفك والسفح والسبك والسكب أنواع من الصب والاولان مختصان بالدم بل لا يستعمل أولهما إلا فى الدم المحرم أى يقتل النفوس المحرمة بغير حق والتعبير عنه بسفك الدماء لما أنه أقبح أنواع القتل وأفظعه وقرىء يسفك بضم الفاء ويسفك ويسفك من أسفك وسفك وقرىء يسفك على البناء للمفعول وحذف الراجع إلى من موصولة أو موصوفة أى يسفك الدماء فيهم (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على طريقة قول من يجد فى خدمة مولاه وهو يأمر بها غيره أتستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها كانه قيل أتستخلف من من شأن ذريته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلا والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع لا العجب والتفاخر فكانهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التى رذيلتها الافراطية الفساد فى الارض والقوة الغضبية التى رذيلتها الافراطية سفك الدماء فقالوا ما قالوا وذهلوا عما إذا سخرتهما القوة العقلية ومرنتهما على الخير يحصل بذلك من علو الدرجة ما يقصر عن بلوغ رتبة القوة العقلية عند انفرادها فى أعاليها كالإحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل وغير ذلك مما نيط به أمر الخلافة والتسبيح

تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح في الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أي واسع الجرى وكذلك تقديسه تعالى من قدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ويقال قدسه أي طهره فان مطهر الشيء مبعده عن الأقذار والباء في بحمدك متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير أي تنزهك عن كل ما لا يليق بشأنك ملتبسين بحمدك على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التي من جملتها توفيقنا لهذه العبادة فالتسبيح لإظهار صفات الجلال والحمد لتذكير صفات الانعام واللام في لك إما مزيدة والمعنى نقدسك وأما صلة للفعل كما في سجدت لله وإما للبيان كما في سقيا لك فتكون متعلقة بمحذوف أي نقدس تقديسا لك أي نصفك بما يليق بك من العلو والعزة وننزهك عما لا يليق بك وقيل المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك كأنهم قابلوا الفساد الذي أعظمه الاشراك بالتسبيح وسفك الدماء الذي هو تلويث النفس بأقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام لا تمدحا بذلك ولا إظهاراً للمنة بل بيانا للواقع (قَالَ) استئناف كما سبق (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ليس المراد به بيان أنه تعالى يعلم ما لا يعلمونه من الأشياء كائنا ما كان فان ذلك مما لا شبهة لهم فيه حتى يفتقروا إلى التنبيه عليه لا سيما بطريق التوكيد بل بيان أن فيه عليه الصلاة والسلام معاني مستدعية لاستخلافه إذ هو الذي خفي عليهم وبنوا عليه ما بنوا من التعجب والاستبعاد فما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن تلك المعاني والمعنى اني أعلم ما لا تعلمونه من دواعي الخلافة فيه وإنما لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام بأن قيل مثلا إن فيه ما يقتضيه من غير تعرض لاحاطته تعالى به وغفلتهم عنه تفخيما لشأنه وإيذانا بابتناء أمره تعالى على العلم الرصين والحكمة المتقنة وصدور رقولهم عن الغفلة وقيل معناه إني أعلم من المصالح في استخلافه ما هو خفي عليكم وأن هذا إرشاد للملائكة إلى العلم بأن أفعاله تعالى كلها حسنة وحكمة وإن خفي عليهم وجه الحسن والحكمة وأنت خبير بأنه مشعر بكونهم غير عالمين بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم في اشتمال هذا الفعل لحكمة ما وذلك مما لا يليق بشأنهم فانهم عالمون بأن ذلك متضمن لحكمة ما ولكنهم مترددون في أنها ماذا هل هو أمر راجع إلى محض حكم الله عز وجل أو إلى فضيلة من جهة المستخلف فبين سبحانه وتعالى لهم أولا على وجه الإجمال والإبهام أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها ثم أبرز لهم طرفا منها ليعاينوه جهرة ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته وينزاح شبهتهم بالكلية (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) شروع في تفصيل ما جرى بعد الجواب الاجمالي تحقيقا لمضمونه وتفسيراً لابهامه وهو عطف على قال والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن ما مر من المقاولة المحكية إنما جرت بعد خلقه عليه السلام بمحضر منه وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام بأن قيل إثر نفخ الروح فيه إني جاعل إياه خليفة فقيل ما قيل كما أشير إليه وإيراده عليه السلام باسمه العلمي لزيادة تعيين المراد بالخليفة ولأن ذكره بعنوان الخلافة لا يلائم مقام تمهيد مباديها وهو اسم أعجمي والأقرب أن وزنه فاعل كشالخ وعاذر وعابر وفالغ لا أفعل والتصدي لاشتقاقه من الأدمة أو الأدمة بالفتح بمعنى الأسوة أو من أديم الأرض بناء على ما روى عنه صلى الله عليه وسلم من أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم ولذلك اختلفت ألوان ذريته أو من الادم والادمة بمعنى الالفة تعسف كاشتقاق إدريس من الدرس ويعقوب من العقب وابليس من الابلاس والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلا يرفعه إلى الذهن من الالفاظ والصفات والافعال واستعماله عرفا في اللفظ الموضوع لمعنى مفرداً كان أو مركبا مخبراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما واصطلاحا في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بالزمان والمراد ههنا ما الاول أو الثاني وهو مستلزم للاول إذ العلم بالالفاظ من حيث الدلالة على المعاني مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة عن فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه ولا يحصل ذلك بمجرد إفاضة المعلم بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول

الفيض وتلقيه من جهته كما مر فى تفسير الهدى وهو السر فى إيثاره على الاعلام والانباء فانهما إنما يتوقفان على سماع الخبر الذى يشترك فيه البشر والملك وبه يظهر أحقيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما أن جبلتهم غير مستعدة للاحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبرا فعنى تعليمه تعالى إياه أن يخلق فيه إذذاك بموجب استعداده علما ضروريا تفصيليا باسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها أو يلقى فى روعه تفصيلا أن هذا فرس وشأنه كيت وكيت وذاك بعير وحاله ذيت وذيت إلى غير ذلك من أحوال الموجودات فيتلقاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على طبائع متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة قال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم علمه أسماء جميع الأشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحلب وأنحى منفعة كل شىء إلى جنسه وقيل أسماء ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة وقيل معنى قوله تعالى وعلم آدم الأسماء خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعدا لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها فيكون مامر من المقاولة قبل خلقه عليه السلام وقيل التعليم على ظاهره ولكن هناك جملا مطوية عطف عليها المذكور أى فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح وعلمه الخ (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰئِكَةِ) الضمير للمسميات المدلول عليها بالأسماء كما فى قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا والتذكير لتغليب العقلاء على غيرهم وقرىء عرضهن وعرضها أى عرض مسمياتهن أو مسمياتها فى الحديث أنه تعالى عرضهم أمثال الذر ولعله عز وجل عرض عليهم من أفراد كل نوع مايصلح أن يكون أنموذجا يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها (فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ) تبكيتا لهم وإظهارا لعجزهم عن إقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة فان التصرف والتدبير وإقامة المعدلة بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن والانباء اخبار فيه اعلام ولذلك يجرى مجرى كل منهما والمراد ههنا ماخلا عنه وإيثاره على الاخبار للايذان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرها فان النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته كما ينبىء عنه مقالكم والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه باعتبار ما يلزمه من الاخبار فان أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء ما فى الأرض وأما ما قيل من أن المعنى فى زعمكم إنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفاكين للدماء فليس مما يقتضيه المقام وان أول بأن يقال فى زعمكم إنى أستخلف من غالب أمره الافساد وسفك الدماء من غير أن يكون له مزية من جهة أخرى إذ لا تعلق له بأمرهم بالانباء وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه (قَالُوا) استئناف واقع موقع الجواب كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ هل خرجوا عن عهدة ما كلفوه أو لا فقيل قالوا (سُبْحَٰنَكَ) قيل هو علم التسبيح ولا يكاد يستعمل إلا مضافا وقد جاء غير مضاف على الشذوذ غير منصرف للتعريف والألف والنون المزيدتين كما فى قوله:

سبحان من علقمة الفاخر وأما ما فى قوله سبحانه ثم سبحانا نعوذ له فقيل صرفه للضرورة وقيل إنه مصدر منكر كغفران لا اسم مصدر ومعناه على الأول نسبحك عما لا يليق بشأنك الأقدس من الأمور التى من جملتها خلو أفعالك من الحكم والمصالح وعنوا بذلك تسبيحا ناشئا عن كمال طمأنينة النفس والايقان باشتمال استخلاف آدم عليه السلام على الحكم البالغة وعلى الثانى تنزهت عن ذلك تنزها ناشئا عن ذاتك وأرادوا به أنهم قالوه عن اذعان لما علموا اجمالا بأنه عليه السلام يكلف ما كلفوه وأنه يقدر على ما قد عجزوا عنه مما يتوقف عليه الخلافة وقوله عز وعلا (لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ) اعتراف منهم بالعجز عما كلفوه إذ معناه لا علم لنا إلا ما علمتناه بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قدرة بنا على ما هو خارج

عن دائرة استعدادنا حتى لو كنا مستعدين لذلك لأفضته علينا وما فى ماعلمتنا موصولة حذف من صلتها عائدها أو مصدرية ولقد نفوا عنهم العلم بالأسماء على وجه المبالغة حيث لم يقتصروا على بيان عدمه بأن قالوا مثلا لا علم لنا بها بل جعلوه من جملة مالا يعلمونه وأشعروا بأن كونه من تلك الجملة غنى عن البيان (إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ) الذى لا يخفى عليه خافية وهذا إشارة إلى تحقيقهم لقوله تعالى إنى أعلم مالا تعلمون (الْحَكِيمُ) أى المحكم لمصنوعاته الفاعل لها حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة وهو خبر بعد خبر أو صفة للأول وأنت ضمير الفصل لا محل له من الإعراب أوله محل منه مشارك لما قبله كما قاله الفراء أو لما بعده كما قاله الكسائى وقيل تأكيد للكاف كما فى قولك مررت بك أنت وقيل مبتدأ خبره مابعده والجملة خبر إن وتلك الجملة تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى ومايفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفى عليهم فكأنهم قالوا أنت العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما فى الأرض من أنواع المخلوقات التى عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ماهو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على ما فى الأرض وبناء أمر الخلافة عليها (قَالَ) استئناف كما سلف (يَا آدَمُ أَنبِئْهُم) أى أعلمهم أوثر على أنبئنى كما وقع فى أمر الملائكة مع حصول المراد معه أيضا وهو ظهور فضل آدم عليهم عليهم السلام إبانة لما بين الأمرين من التفاوت الجلى وإيذانا بأن علمه عليه السلام بها أمر واضح غير محتاج إلى مايجرى مجرى الامتحان وانه عليه السلام حقيق بأن يعلمها غيره وقرىء بقلب الهمزة ياء وبحذفها أيضا والهاء مكسورة فيهما (بِأَسْمَائِهِمْ) التى عجزوا عن علمها واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها (فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ) الفاء فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام للايذان بتقرره وغناه عن الذكر وللاشعار بتحققه فى أسرع ما يكون كما فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله سبحانه أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك وإظهار الأسماء فى موقع الاضمار لاظهار كمال العناية بشأنها والايذان بأنه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الاجمال والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصلة وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد فعلموا ذلك لما رأوا أنه عليه السلام لم يتلعثم فى شىء من التفاصيل التى ذكرها مع مساعدة ما بين الأسماء والمسميات من المناسبات والمشاكلات وغير ذلك من القرائن الموجبة لصدق مقالاته عليه السلام فلما أنبأهم بذلك (قَالَ) عز وجل تقريرا لما مر من الجوب الإجمالى واستحضارا له (أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لكن لا لتقرير نفسه كما فى قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ونظائره بل لتقرير ما يفيده من تحقق دواعى الخلافة فى آدم عليه السلام لظهور مصداقه وإيراد مالا يعلمون بعنوان الغيب مضافا إلى السموات والأرض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته مع الايذان بأن ماظهر من عجزهم وعلم آدم عليه السلام من الأمور المتعلقة بأهل السموات وأهل الأرض وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون فيما سبق ما أشير اليه هناك كانه قيل ألم أقل لكم إنى أعلم فيه من دواعى الخلافة مالا تعلمونه فيه هو هذا الذى عاينتموه وقوله تعالى (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) عطف على الجملة ألم أقل لكم لا على أعلم إذ هو غير داخل تحت القول وما فى الموضعين موصولة حذف عائدها أى أعلم ماتبدونه وماتكتمونه وتغيير الأسلوب للايذان باستمرار كتمهم قيل المراد بما يبدون قولهم أتجعل الخ وبما يكتمون استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقا أفضل منهم روى أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة وقالوا ليكن ماشاء فلن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أكرم عليه منه وقيل هو ماأسره ابليس فى نفسه من الكبر وترك السجود فاسناد الكتمان حينئذ إلى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا

والقاتل واحد من بينهم قالوا فى الآية الكريمة دلالة على شرف الانسان ومزية العلم وفضله على العبادة وأن ذلك هو المناط للخلافة وأن التعليم يصح إطلاقه على الله تعالى وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به وأن اللغات توقيفية إذ الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو بعموم وتعليمها ظاهر فى القائها على المتعلم مبينا له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع وما هو إلا من الله تعالى وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم والالزام التكرار وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة والحكماء منعوا من ذلك فى الطبقة العليا منهم وحملوا على ذلك قوله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه عليه السلام أعلم منهم وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ) عطف على الظرف الأول منصوب بما نصبه من المضمر أو بناصب مستقل معطوف على ناصبه عطف القصة على القصة أى واذكر وقت قولنا لهم وقيل بفعل دل عليه الكلام أى أطاعوا وقت قولنا الخ وقد عرفت ما فى أمثاله وتخصيص هذا القول بالذكر مع كون مقتضى الظاهر إيراده على منهاج ما قبله من الأقوال المحكية المتصلة به للايذان بأن ما فى حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقة بالذكر والتذكير على حيالها والالتفات إلى التكلم لإظهار الجلالة وتربية المهابة مع ما فيه من تأكيد الاستقلال وكذا إظهار الملائكة فى موضع الإضمار والكلام فى اللام وتقديمها مع مجرورها على المفعول كما مر وقرىء بضم تاء الملائكة اتباعا لضم الجيم فى قوله تعالى (اسْجُدُوا لِآدَمَ) كما قرىء بكسر الدال فى قوله تعالى الحمد لله اتباعا لكسر اللام وهى لغة ضعيفة والسجود فى اللغة الخضوع والتطامن وفى الشرع وضع الجبهة على الأرض على قصد العبادة فقيل أمروا بالسجود له عليه السلام على وجه التحية والتكرمة تعظيما له واعترافا بفضله وأداء لحق التعليم واعتذارا عما وقع منهم فى شأنه وقيل أمروا بالسجود له تعالى وإنما كان آدم قبلة لسجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه فكأنه تعالى لما برأه أنموذجا للمبدعات كلها ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحانى بالعالم الجسمانى وامتزاجهما على نمط بديع أمرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرته فاللام فيه كما فى قول حسان رضى الله عنه :

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أو فى قوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس والأول هو الأظهر وقوله عز وجل (فَسَجَدُوا) عطف على قلنا والفاء لإفادة مسارعتهم إلى الامتثال وعدم تلعثمهم فى ذلك روى عن وهب أن أول من سجد جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة عليهم السلام وقوله تعالى (إِلَّآ إِبْلِيسَ) استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسجدوا ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنساً يتوالدون يقال لهم الجن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو منهم أو لأن الجن أيضا كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم أو منقطع وهو اسم أعجمى ولذلك لم ينصرف ومن جعله مشتقا من الابلاس وهو الياس قال انه مشبه بالعجمة حيث لم يسم به أحد فكان كالاسم الأعجمى واعلم أن الذى تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الاعراف من قوله تعالى ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس الآية والتى فى سورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الآية أن سجود الملائكة إنما ترتب على الامر التنجيزى الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه البتة كما يلوح به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذى به ورد الامر التعليق ولكن ما فى سورة الحجر من قوله عز وعلا وإذ قال ربك للملائكه إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون وما فى سورة ص من قوله تعالى إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين إلى آخر

الآية يستدعيان بظاهرهما ترتبه على مافيهما من الأمر التعليقي من غير أن يتوسط بينهما شيء غير ما تفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام وقد روى عن وهب أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير وتأويل الآيات السابقة بحمل مافيهما من الأمر على حكاية الأمر التعليقي بعد تحقق المعلق به إجمالا فانه حينئذ يكون فى حكم التنجيز يأباه مافى سورة الأعراف من كلمة ثم المنادية بتأخر ورود الأمر عن التصوير المتأخر عن الخلق المتأخر عن الأمر التعليقي والاعتذار بحمل التراخى على الرتبى أو التراخى فى الاخبار أو بأن الأمر التعليقي قبل تحقق المعلق به لما كان فى عدم إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه إنما حدث بعد تحققه فحكى على صورة التنجيز يؤدى بعد اللتيا واللتى إلى أن ماجرى بينه وبينهم عليهم السلام فى شأن الخلافة وماقالوا فيه وما سمعوا إنما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالة منزلته عليه السلام وخروج إبليس من البين باللعن المؤبد لعناده وبعد مشاهدتهم لذلك كله عيانا وهل هو الاخرق لقضية العقل والنقل والالتجاء فى التفصى عنه إلى تأويل نفخ الروح بحمله على مايعم إفاضة مابه حياة النفوس التى من جملتها تعليم الأسماء تعسف ينبىء عن ضيق المجال فالذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الأنيق بعد التصفح فى مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عما فيه من السر المخزون أن سجودهم له عليه السلام إنما ترتب على الأمر التنجيزى المتفرع على ظهور فضله عليه السلام المبنى على المحاورة المسبوقة بالأخبار بخلافته المنتظم جميع ذلك فى سلك مانيط به الأمر التعليقي من التسوية ونفخ الروح إذ ليس من قضيته وجوب السجود عقيب نفخ الروح فيه فان الفاء الجزائية ليست بنص فى وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ للقطع بعدم وجوب السعى عقيب النداء لقوله تعالى إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الآية وبعدم وجوب إقامة الصلاة غب الاطمئنان لقوله تعالى فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة بل إنما الوجوب عند دخول الوقت كيف لا والحكمة الداعية إلى ورود مانحن فيه عن الأمر التعليقي أثرذى أثير إنما هى حمل الملائكة عليهم السلام على التأمل فى شأنه عليه السلام ليتدبروا فى أحواله طرا ويحيطوا بما لديه خبرا ويستفهموا ماعسى يستبهم عليهم فى أمره عليه السلام لابتنائه على حكم أبية وأسرار خفية طويت عن علومهم ويقفوا على جلية الحال قبل ورود الأمر التنجيزى وتحتم الامتثال وقد قالوا بحسب ذلك ماقالوا وعاينوا ماعاينوا وعدم نظم الأمر التنجيزى فى سلك الأمور المذكورة فى السورتين عند الحكاية لايستلزم عدم انتظامه فيه عند وقوع المحكى كما أن عدم ذكر الأمر التعليقي عند حكاية الأمر التنجيزى فى السورة الكريمة المذكورة لايوجب عدم مسبوقيته به فان حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة فى الكتاب العزيز وناهيك بما نقل فى توجيه قوله تعالى بشرا مع عدم سبق معرفة الملائكة عليهم السلام بذلك وحيث صير اليه مع أنه لم يرد به نقل فما ظنك بما قد وقع التصريح به فى مواضع عديدة فلعله قد ألقى اليهم ابتداء جميع مايتوقف عليه الأمر التنجيزى إجمالا بأن قيل مثلا إنى خالق بشرا من كذا وكذا وجاعل اياه خليفة فى الارض فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وتبين لكم شأنه فقعوا له ساجدين فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح فقالوا عند ذلك ماقالوا أو ألقى اليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المعدودة بأن قيل أثر نفخ الروح فيه إنى جاعل هذا خليفة فى الارض فهناك ذكروا فى حقه عليه السلام ماذكروا فأيده الله عز وجل بتعليم الاسماء فشاهدوا منه ماشاهدوا فعند ذلك ورد الامر التنجيزى اعتناء بشأن المأمور به وتعيينا لوقته وقد حكى بعض الأمور فى بعض المواطن وبعضها فى بعضها اكتفاء بماذكر فى كل موطن عماترك فى موطن آخر والذى يحسم مادة الاشتباه أن مافى سورة ص من قوله تعالى إذ قال ربك للملائكة الخ بدل من قوله تعالى إذ يختصمون فيما قبله من قوله تعالى

ما كان لى من علم بالملأ الاعلى إذ يختصمون أى بكلامهم عند اختصامهم والمراد بالملأ الاعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس حسبما أطبق عليه جمهور الامة وباختصامهم ماجرى بينهم فى شأن خلافة آدم عليه السلام من التقاول الذى من جملته ماصدر عنه عليه السلام من الانباء بالاسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور فى تضاعيف ماذكر فيه تفصيلا من الامر التعليق وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة عليهم السلام وعناد إبليس وما تبعه من لعنه وإخراجه من بين الملائكة وماجرى بعده من الافعال والاقوال وإذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليس المستتبعة لطرده من بينهم لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة استحالة الانباء بالاسماء حينئذ فهو إذن بعد نفخ الروح وقبل السجود حتما بأحد الطريقين والله سبحانه أعلم بحقيقة الامر (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء وأنه لم يكن للتردد أو للتأمل والإباء الامتناع بالاختيار والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالتشبع أى امتنع عما أمر به واستكبر من أن يعظمه أو يتخذه وصلة فى عبادة ربه وتقديم الإباء على الاستكبار مع كونه مسببا عنه لظهوره ووضوح أثره واقتصر فى سورة ص على الاستكبار اكتفاء به وفى سورة الحجر على ذكر الإباء حيث قيل أبى أن يكون مع الساجدين (وَكَانَ مِنَ الكَٰفِرِينَ) أى فى علم الله تعالى إذ كان أصله من كفرة الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه فالجملة اعتراضية مقررة لما سبق من الإباء والاستكبار أو صار منهم باستقباح أمره تعالى إياه بالسجود لآدم عليه السلام زعما منه أنه أفضل منه والافضل لا يحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله أنا خير منه حين قيل له مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين لا بترك الواجب وحده فالجملة معطوفة على ماقبلها وإيثار الواو على الفاء للدلالة على أن محض الإباء والاستكبار كفر لا أنهما سيبان له كما تفيده الفاء (وَقُلْنَا) شروع فى حكاية ماجرى بينه تعالى وبين آدم عليه السلام بعد تمام ماجرى بينه تعالى وبين الملائكة وإبليس من الأقوال والأفعال وقد تركت حكاية توبيخ إبليس وجوابه ولعنه واستظهاره وإنظاره اجتزاء بما فصل فى سائر السور الكريمة وهو عطف على قلنا للملائكة ولا يقدح فى ذلك اختلاف وقتيهما فان المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة إذ زمان ممتد واسع للقولين وقيل هو عطف على إذ قلنا باضمار إذ وهذا تذكير لنعمة أخرى موجبة للشكر مانعة من الكفر وتصدير الكلام بالنداء فى قوله تعالى (يَٰآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به وتخصيص أصل الخطاب به عليه السلام للإيذان بأصالته فى مباشرة المأمور به وأسكن من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار دون السكون الذى هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه واختلف فى وقت خلق زوجه فذكر السدى عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة وأسكنها آدم بقى فيها وحده وما كان معه من يستأنس به فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعا من جانبه الأيسر ووضع مكانه لحما وخلق حواء منه فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدة فسألها ما أنت قالت امرأة قال ولم خلقت قالت لتسكن إلى فقالت الملائكة تجربة لعلمه من هذه قال امرأة قالوا لم سميت امرأة قال لأنها من المرء أخذت فقالوا ما اسمها قال حواء قالوا لم سميت حواء قال لأنها خلقت من شيء حى وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال بعث الله تعالى جندا من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما يحمل الملوك ولباسهما النور حتى أدخلوهما الجنة وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دار الثواب لأنها المعهودة وقيل هى جنة بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقها الله تعالى امتحانا

لآدم عليه السلام وحمل الاهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما فى قوله تعالى اهبطوا مصرا لما أن خلقه عليه السلام كان فى الأرض بلا خلاف ولم يذكر فى هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير لما أنه من أعظم النعم ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس وقيل إنها كانت فى السماء السابعة بدليل اهبطوا ثم ان الاهباط الأول كان منها إلى السماء الدنيا والثانى منها إلى الأرض وقيل الكل ممكن والادلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع (وَكُلَا مِنْهَا) أى من ثمارها وإنما وجه الخطاب إليهما تعميما للتشريف والترفيه ومبالغة فى إزالة العلل والأعذار وايذانا بتساويهما فى مباشرة المأمور به فان حواء أسوة له عليه السلام فى الأكل بخلاف السكنى فانها تابعة له فيه (رَغَدًا) صفة للمصدر المؤكد أى أكلا واسعا رافها (حَيْثُ شِئْتُمَا) أى أى مكان أردتما منها وهذا كما ترى اطلاق كلى حيث أبيح لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لا يبقى لهما عذر فى تناول ما منعا منه بقوله تعالى (وَلَا تَقْرَبَا) بفتح الراء من قربت الشيء بالكسر أقربه بالفتح إذا التبست به وتعرضت له وقال الجوهرى قرب بالضم يقرب قربا إذا دنا وقربته بالكسر قربانا دنوت منه (هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ) نصب على أنه بدل من اسم الإشارة أو نعت له بتأويلها بمشتق أى هذه الحاضرة من الشجرة أى لا تأكلا منها وإنما علق النهى بالقربان منها مبالغة فى تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه والمراد بها الحنطة أو العنبة أو التينة وقيل هى شجرة من أكل منها أحدث والأولى عدم تعيينها من غير قاطع وقرىء هذى بالياء وبكسر شين الشجرة وتاء تقربا وقرىء الشيرة بكسر الشين وفتح الياء (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) مجزوم على أنه معطوف على تقربا أو منصوب على أنه جواب للنهى وأيا ما كان فالقرب أى الأكل منها سبب لكونهما من الظالمين أى الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية أو نقصوا حظوظهم بمباشرة ما يخل بالكرامة والنعيم أو تعدوا حدود الله تعالى (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا) أى أصدر زلتهما أى زلقهما وحملهما على الزلة بسببها ونظيرة عن هذه ما فى قوله تعالى وما فعلته عن أمرى أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما وأبعدهما عنها يقال زل عنى كذا اذا ذهب عنك ويعضده قراءة ازالهما وهما متقاربان فى المعنى فان الازلال أى الازلاق يقتضى زوال الزال عن موضعه البتة وازلاله قوله لهما هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقوله ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ومقاسمته لهما إنى لكما لمن الناصحين وهذه الآيات مشعرة بأنه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الأرض إلى حين البعث إليها واختلف فى كيفية توصله إليهما بعد ما قيل له اخرج منها فانك رجيم فقيل إنه إنما منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة عليهم السلام ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة وقيل دخل فى فم الحية فدخل معها وقيل أرسل بعض أتباعه فأزلهما والعلم عند الله سبحانه (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) أى من الجنة ان كان ضمير عنها للشجرة والتعبير عنها بذلك للايذان بفخامتها وجلالتها وملابستهما له أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه أو من الكرامة والنعيم ان كان الضمير للجنة (وَقُلْنَا اهْبِطُوا) الخطاب لآدم وحواء عليهما السلام بدليل قوله تعالى قال اهبطا منها جميعا وجمع الضمير لانهما أصل الجنس فكأنهما الجنس كلهم وقيل لهما وللحية وابليس على أنه أخرج منها ثانيا بعد ما كان يدخلها للوسوسة أو يدخلها مسارقة أو اهبط من السماء وقرىء بضم الباء (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) حال استغنى فيها عن الواو بالضمير أى متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله أو استئناف لا محل له من الاعراب وافراد العدو اما للنظر إلى لفظ البعض واما لان وزانه وزان المصدر كالقبول (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ) التى هى محل الاهباط والظرف متعلق

بما تعلق به الخبر أعنى لكم من الاستقرار (مُسْتَقَرٌّ) أى استقرار أو موضع استقرار (وَمَتَاعٌ) أى تمتع بالعيش وانتفاع به (إِلَىٰ حِينٍ) هو حين الموت على أن المغيا تمتع كل فرد من المخاطبين أو القيامة على أنه تمتع الجنس فى ضمن بعض الافراد والجملة كما قبلها فى كونها حالا أى مستحقين للاستقرار والتمتع أو استئنافا (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ) أى استقبلها بالاخذ والقبول والعمل بها حين علمها وفق لها وقرىء بنصب آدم ورفع كلمات دلالة على أنها استقبلته بلغته وهى قوله تعالى ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال يارب ألم تخلقنى بيدك قال بلى قال يارب ألم تنفخ فى من روحك قال بلى قال يارب ألم تسبق رحمتك غضبك قال بلى قال ألم تسكنى جنتك قال بلى قال يارب ان تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة قال نعم والفاء للدلالة على أن التوبة حصلت عقيب الامر بالهبوط قبل تحقق المأمور به والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليه عليه السلام للتشريف والايذان بعليته لالقاء الكلمات المدلول عليه بتلقيها (فَتَابَ عَلَيْهِ) أى رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة والفاء للدلالة على ترتبه على تلقى الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التى هى عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود اليه واكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر مواقع الكتاب والسنة (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ) أى الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثر اعانتهم على التوبة وأصل التوب الرجوع فاذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية وإذا وصف به البارى عز وعلا أريد به الرجوع عن العقاب إلى المغفرة (الرَّحِيمُ) المبالغ فى الرحمة وفى الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالاحسان مع العفو والغفران والجملة تعليل لقوله تعالى فتاب عليه (قُلْنَا) استئناف مبنى على سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا وقع بعد قبول توبته فقيل قلنا (اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا) كرر الأمر بالهبوط ايذانا بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة ودفعا لما عسى يقع فى أمنيته عليه السلام من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك واظهارا لنوع رأفة به عليه السلام لما بين الامرين من الفرق النير كيف لا والأول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها والثانى مقرون بوعد ايتاء الهدى المؤدى إلى النجاة والنجاح وأما ما فيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدا أوليا بل إنما هو دائر على سوء اختيار المكلفين قيل وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه فى الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الاهباط المقترن بأحد هذين الأمرين فكيف بالمقترن بهما فتأمل وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا والثانى منها إلى الأرض ويأباه التعرض لاستقرارهم فى الأرض فى الاول ورجوع الضمير إلى الجنة فى الثانى وجميعا حال فى اللفظ وتأكيد فى المعنى كأنه قيل اهبطوا أنتم أجمعون ولذلك لا يستدعى الاجتماع على الهبوط فى زمان واحد كما فى قولك جاؤا جميعا بخلاف قولك جاؤا معا (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى) الفاء لترتيب ما بعدها على الهبوط المفهوم من الأمر به وإما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة المؤكدة لمعناها والفعل فى محل الجزم بالشرط لأنه مبنى لاتصاله بنون التأكيد وقيل معرب مطلقا وقيل مبنى مطلقا والصحيح التفصيل ان باشرته النون بنى والا أعرب نحو هل يقومان وتقديم الظرف على الفاعل لما مر غير مرة والمعنى ان يأتينكم منى هدى برسول أبعثه اليكم وكتاب أنزله عليكم وجواب الشرط قوله تعالى (فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) كما فى قولك ان جئتنى فان قدرت أحسنت اليك وإيراد كلمة الشك مع تحقق الاتيان لا محالة للإيذان بأن الايمان بالله والتوحيد لا يشترط فيه بعثة الرسل وانزال الكتب بل يكفى فى وجوبه إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والانفسية والتمكين من النظر والاستدلال أو للجرى على سنن العظماء فى ايراد عسى ولعل فى مواقع القطع والجزم

والمعنى أن من تبع هداى منكم فلا خوف عليهم فى الدارين من لحوق مكروه ولا هم يحزنون من فوات مطلوب أى لا يعتريهم مايوجب ذلك لا انه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم نفس الخوف والحزن أصلا بل يستمرون على السرور والنشاط كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام وإظهار الهدى مضافا إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيد وجوب اتباعه أو لأن المراد بالثانى ماهو أعم من الهدايات التشريعية وماذكر من إفاضة العقل ونصب الأدلة الآفاقية والانفسية كما قيل وقرىء هدى على لغة هذيل ولا خوف بالفتح (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) عطف على من تبع الخ قسيم له كأنه قيل ومن لم يتبعه وإنما أوثر عليه ماذكر تفظيعا لحال الضلالة وإظهارا لكمال قبحها وإيراد الموصول بصيغة الجمع للاشعار بكثرة الكفرة والجمع بين الكفر والتكذيب للايذان بتنوع الهدى إلى ماذكر من النوعين وإيراد نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وإضافة الآيات اليها لإظهار كمال قبح التكذيب بها أى والذين كفروا بر سلنا المرسلة اليهم وكذبوا بآياتنا المنزلة عليهم وقيل المعنى كفروا بالله وكذبوا بآياته التى أنزلها على الأنبياء عليهم السلام أو أظهرها بأيديهم من المعجزات وقيل كفروا بالآيات جنانا وكذبوا بها لسانا فيكون كلا الفعلين متوجها إلى الجار والمجرور والآية فى الأصل العلامة الظاهرة قال النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

ويقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل لأنها علامة لانفصال ماقبلها عما بعدها وقيل لأنها تجمع كلمات منه فيكون من قولهم خرج بنو فلان بآيتهم أى بجماعتهم قال :

خرجنا من البيتين لاحى مثلنا بآيتنا نزجى النعاج المطافلا

واشتقاقها من أى لأنها تبين أيا من أى أو من أوى اليه أى رجع وأصلها أوية أو أية فأبدلت عينها ألفا على غير قياس أو أوية أو أيه كرمكة فأعلت أو آئية كقائلة فحذفت الهمزة تخفيفا (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى الموصوف باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وفيه إشعار بتميزهم بذلك الوصف تميزا مصححا للإشارة الحسية ومافيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فيه وهو مبتدأ وقوله عز وجل (أَصْحَابُ النَّارِ) أى ملازموها وملابسوها بحيث لا يفارقونها خبره والجملة خبر للموصول أو اسم الإشارة بدل من الموصول أو عطف بيان له وأصحاب النار خبر له وقوله تعالى (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فى حيز النصب على الحالية لورود التصريح به فى قوله تعالى أصحاب النار خالدين فيها وقد جوز كونه حالا من النار لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الإضافة أو اللام المقدرة أو فى محل الرفع على أنه خبر آخر لأولئك على رأى من جوز وقوع الجملة خبرا ثانيا وفيها متعلق بخالدون والخلود فى الاصل المكث الطويل وقد انعقد الاجماع على أن المراد به الدوام (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) تلوين للخطاب وتوجيه إلى طائفة خاصة من الكفرة المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بفنون النعم الفائضة عليهم بعد توجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره بتذكير كلهم بالنعمة العامة لبنى آدم قاطبة بقوله تعالى وإذ قال ربك الخ وإذ قلنا للملائكة الخ لان المعنى كما أشير اليه بلغهم كلامى واذكر لهم إذ جعلنا أباهم خليفة فى الارض ومسجودا للملائكة عليهم السلام وشرفناه بتعليم الاسماء وقبلنا توبته والابن من البناء لانه مبنى أبيه ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه فيقال أبو الحرب وبنت فكر وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية صفوة الله وقيل عبد الله وقرىء إسرائل بحذف الياء وإسرال بحذفهما وإسرايل بقلب الهمزة ياء وإسراءل

بهمزة مفتوحة وإسرئل بهمزة مكسورة بين الراء واللام وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفرا بها (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) بالتفكر فيها والقيام بشكرها وفيه إشعار بأنهم قد نسوها بالكلية ولم يخطروها بالبال لا أنهم أهملوا شكرها فقط وإضافة النعمة إلى ضمير الجلالة لتشريفها وإيجاب تخصيص شكرها به تعالى وتقييد النعمة بهم لما أن الإنسان مجبول على حب النعمة فاذا نظر إلى ما فاض عليه من النعم حمله ذلك إلى الرضى والشكر قيل أريد بها ما أنعم به على آبائهم من النعم التي سيجيء تفصيلها وعليهم من فنون النعم التي أجلها إدراك عصر النبي عليه السلام وقرىء اذكروا من الافتعال ونعمتي بإسكان الياء وإسقاطها في الدرج وهو مذهب من لا يحرك الياء المكسور ماقبلها (وأوفوا بعهدي) بالإيمان والطاعة (أوف بعهدكم) بحسن الإثابة والعهد يضاف إلى كل واحد ممن يتولى طرفيه ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول فانه تعالى عهد اليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ووعدهم بالثواب على حسناتهم وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتبه منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة ومن الله تعالى حقن الدماء والأموال وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا فضلا عن غيرنا ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم وأما ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أوفوا بعهدى في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم أوف بعهدكم في رفع الآصار والأغلال وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم فبالنظر إلى الوسائط وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول والمعنى أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة وتفصيل العهدين قوله تعالى ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل إلى قوله ولأدخلنكم جنات الخ وقرىء أوف بالتشديد للمبالغة والتأكيد (وإياي فارهبون) فيما تأتون وما تذرون خصوصا في نقض العهد وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد لما فيه من التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئا فارهبوني والرهبة خوف معه تحرز والآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف إلا الله تعالى (وآمنوا بما أنزلت) أفرد الإيمان بالقرآن بالأمر به لما أنه العمدة القصوى في شأن الوفاء بالعهود (مصدقا لما معكم) من التوراة والتعبير عنها بذلك للإيذان بعلمهم بتصديقه لها فان المعية مئنة لتكرر المراجعة اليها والوقوف على ما في تضاعيفها المؤدي إلى العلم بكونه مصدقا لها ومعنى تصديقه للتوراة أنه نازل حسبما نعت فيها أو من حيث أنه موافق لها في القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش وأما ما يتراءى من مخالفته لها في بعض جزئيات الأحكام المتفاوتة بسبب تفاوت الأعصار فليست بمخالفة في الحقيقة بل هي موافقة لها من حيث أن كلا منها حق بالإضافة إلى عصره وزمانه متضمن للحكم التي عليها يدور فلك التشريع وليس في التوراة دلالة على أبدية أحكامها المنسوخة حتى يخالفها ما ينسخها وإنما تدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها بل نقول هي ناطقة بنسخ تلك الاحكام فان نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها فاذن مناط المخالفة في الاحكام المنسوخة إنما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه السلام لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي وتقييد المنزل بكونه مصدقا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالامر فان إيمانهم بما معهم مما يقتضي الإيمان بما يصدقه قطعا (ولا تكونوا أول كافر به) أي لا تسارعوا إلى الكفر به فان وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفون شأنه وحقيته بطريق التلقي مما معكم من الكتب

الالهية كما تعرفون أبناءكم وقد كنتم تستفتحون به وتبشرون بزمانه كما سيجيء فلا تضعوا موضع مايتوقع منكم ويجب عليكم مالا يتوهم صدوره عنكم من كونكم أول كافر به ووقوع أول كافر به خبرا من ضمير الجمع بتأويل أول فريق أو فوج أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به كقولك كسانا حلة ونهيهم عن التقدم فى الكفر به مع أن مشركى العرب أقدم منهم لما أن المراد به التعريض لا الدلالة على مانطق به الظاهر كقولك أما أنا فلست بجاهل لأن المراد نهيهم عن كونهم أول كافر به من أهل الكتاب أو ممن كفر بما عنده فان من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى مكة وأول أفعل لا فعل له وقيل أصله أوأل من وأل إليه إذا نجا وخلص فأبدلت الهمزة واوا تخفيفا غير قياسى أو أأول من آل فقلبت همزته واوا وأدغمت (وَلَا تَشْتَرُوا بِأَيَٰتِى) أى لا تأخذوا لأنفسكم بدلا منها (ثَمَنًا قَلِيلًا) من الحظوظ الدنيوية فانها وإن جلت قليلة مسترذلة بالنسبة إلى مافات عنهم من حظوظ الآخرة بترك الايمان قيل كانت لهم رياسة فى قومهم ورسوم وهدايا فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختاروها على الايمان وإنما عبر عن المشترى الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصود فيها بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة فيها وقرنت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون بالباء التى تصحب الوسائل إيذانا بتعكيسهم حيث جعلوا ماهو المقصد الاصلى وسيلة والوسيلة مقصدا (وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ) بالايمان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ماهو كالمبادى لما فى الآية الثانية فصلت بالرهبة التى هى من مقدمات التقوى أو لأن الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذى هو المنتهى (وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ) عطف على ماقبله واللبس الخلط وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه أحدهما بالآخر أو لا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذى تكتبونه فى تضاعيفه أو تذكرونه فى تأويله (وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ) مجزوم داخل تحت حكم النهى كأنهم أمروا بالايمان وترك الضلال ونهوا عن الاضلال بالتلبيس على من سمع الحق والاخفاء عمن لم يسمعه أو منصوب باضمار أن على أن الواو للجمع أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانه ويعضده أنه فى مصحف ابن مسعود وتكتمون أى وأنتم تكتمون أى كاتمين وفيه اشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق وتكرير الحق إما لأن المراد بالاخير ليس عين الاول بل هو نعت النبى صلى الله عليه وسلم الذى كتموه وكتبوا مكانه غيره كما سيجيء فى قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم واما لزيادة تقبيح المنهى عنه إذ فى التصريح باسم الحق ماليس فى ضميره (وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) أى حال كونكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون أو وأنتم تعلمون أنه حق أو وأنتم من أهل العلم وليس إيراد الحال لتقييد النهى به كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى بل لزيادة تقبيح حالهم إذ الجاهل عسى يعذر (وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ) أى صلاة المسلمين وزكاتهم فان غيرهما بمعزل من كونه صلاة وزكاة أمرهم الله تعالى بفروع الاسلام بعد الامر بأصوله (وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ) أى فى جماعتهم فان صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الاضبط بن قريع السعدى :

لا تحقرن الضعيف علك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه

(أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ) تجريد للخطاب وتوجيه له إلى بعضهم بعد توجيهه إلى الكل والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب والبر التوسع فى الخير من البر الذى هو الفضاء الواسع يتناول جميع أصناف الخيرات ولذلك قيل البر ثلاثة

بر فى عبادة الله تعالى وبر فى مراعاة الأقارب وبر فى معاملة الأجانب (وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ) أى تتركونها من البر كالمنسيات عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أحبار المدينة كانوا يأمرون سرآ من نصحوه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه طمعاً فى الهدايا والصلات التى كانت تصل إليهم من أتباعهم وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون وقال السدى إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية وقال ابن جريج كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة وهم يتركونهما ومدار الانكار والتوبيخ هى الجملة المعطوفة دون ما عطفت هى عليه (وأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ) تبكيت لهم وتقريع كقوله تعالى وأنتم تعلمون أى والحال أنكم تتلون التوراة الناطقة بنعوته صلى الله عليه وسلم الآمرة بالايمان به أو بالوعد بفعل الخير والوعيد على الفساد والعناد وترك البر ومخالفة القول العمل (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أى أتتلونه فلا تعقلون ما فيه أو قبح ما تصنعون حتى ترتدعوا عنه فالانكار متوجه إلى عدم العقل بعد تحقق ما يوجبه فالمبالغة من حيث الكيف أو ألا تتأملون فلا تعقلون فالانكار متوجه إلى كلا الأمرين والمبالغة حينئذ من حيث الكم والعقل فى الأصل المنع والامساك ومنه العقال الذى يشد به وظيف البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحراك سمى به النور الروحانى الذى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية لأنه يحبسه عن تعاطى ما يقبح ويعقله على ما يحسن والآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالى عن العقل والمراد بها كما أشير إليه حثه على تزكية النفس والاقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتقيم غيرها لا منع الفاسق عن الوعظ يروى أنه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوى التصرف فى القلوب وكان كثيرا ما يموت من أهل مجلسه واحد أو اثنان من شدة تأثير وعظه وكان فى بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحترز عليه وتمنعه من حضور مجلس الواعظ فحضره يوما على حين غفلة منها فوقع من أمر الله تعالى ما وقع ثم أن العجوز لقيت الواعظ يوما فى الطريق فقالت :

لتهدى الانام ولا تهتدى ألا ان ذلك لا ينفع
فيا حجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

فلما سمعه الواعظ شهق شهقة فخر من فرسه مغشيا عليه فحملوه إلى بيته فتوفى إلى رحمة الله سبحانه (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ) متصل بما قبله كأنهم لما كلفوا ما فيه مشقة من ترك الرياسة والاعراض عن المال عولجوا بذلك والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلا على الله تعالى أو بالصوم الذى هو الصبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها فانها جامعة لانواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف على العبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادة وكف النفس عن الأطيبين حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب روى أنه عليه السلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ويجوز أن يراد بها الدعاء (وَإِنَّهَا) أى الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير اليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر كما فى قوله تعالى وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها (لَكَبِيرَةٌ) لثقيلة شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ما تدعوهم إليه (إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ) الخشوع الاخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة والخضوع اللين والانقياد ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب وإنما لا تثقل عليهم لانهم يتوقعون ما أعد لهم بمقابلتها فتهون عليهم ولانهم يستغرقون فى مناجاة ربهم فلا يدركون ما يجرى عليهم من المشاق والمتاعب ولذلك قال عليه السلام وقرة عينى

فى الصلاة والجلة حالية أو اعتراض تذييلى (الذين يظنون أنهم ملقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) أى يتوقعون لقاءه تعالى ونيل ما عنده من المثوبات والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للايذان بفيضان إحسانه اليهم أو يتيقنون أنهم يحشرون اليه للجزاء فيعملون على حسب ذلك رغبة ورهبة وأما الذين لا يوقنون بالجزاء ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين فالتعرض للعنوان المذكور للإشعار بعلية الربوبية والمالكية للحكم ويؤيده أن فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه يعلمون وكان الظن لما شابه العلم فى الرجحان أطلق عليه لتضمين معنى التوقع قال: فأرسلته مستيقن الظن أنه مخالط ما بين الشراسيف جائف وجعل خبران فى الموضعين اسما للدلالة على تحقق اللقاء والرجوع وتقررهما عندهم (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) كرر التذكير للتأكيد ولربط ما بعده من الوعيد الشديد به (وأنى فضلتكم) عطف على نعمتى عطف الخاص على العام لكماله أى فضلت آباءكم (على العالمين) أى عالمى زمانهم بما منحتهم من العلم والايمان والعمل الصالح وجعلتهم أنبياء وملوكا مقسطين وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام وبعده قبل أن يغيروا (واتقوا يوما) أى حساب يوم أو عذاب يوم (لا تجزى نفس عن نفس شيئا) أى لا تقضى عنها شيئا من الحقوق فانتصاب شيئا على المفعولية أو شيئا من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية وقرىء لا تجزىء أى لا تغنى عنها فيتعين النصب على المصدرية وإيراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم والإقناط الكلى والجلة صفة يوما والعائد منها محذوف أى لا تجزى فيه ومن لم يجوز الحذف قال اتسع فيه فحذف الجار وأجرى المجرور مجرى المفعول به ثم حذف كما حذف فى قول من قال: فما أدرى أغيرهم تناء وطول العهد أم مال أصابوا أى أصابوه (ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) أى من النفس الثانية العاصية أو من الأولى والشفاعة من الشفع كان المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والعدل الفدية وقيل البدل وأصله التسوية سمى به الفدية لأنها تساوى المفدى وتجزى بجزاه (ولا هم ينصرون) أى يمنعون من عذاب الله عز وجل والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة فى سياق النفى من النفوس الكثيرة والتذكير لكونها عبارة عن العباد والأناسى والنصرة ههنا أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكأنه أريد بالآية نفى أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل فانه اما أن يكون قهرا أو لا والأول النصرة والثانى إما أن يكون مجانا أو لا والأول الشفاعة والثانى إما أن يكون بأداء عين ما كان عليه وهو أن يجزى عنه أو بأداء غيره وهو أن يعطى عنه عدلا وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة لأهل الكبائر والجواب أنها خاصة بالكفار للآيات الواردة فى الشفاعة والاحاديث المروية فيها ويؤيده أن الخطاب معهم ولردهم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءهم الانبياء يشفعون لهم (وإذ نجيناكم من آل فرعون) تذكير لتفاصيل ما أجمل فى قوله تعالى نعمتى التى أنعمت عليكم من فنون النعماء وصنوف الآلاء أى واذكروا وقت تنجيتنا إياكم أى آباءكم فان تنجيتهم تنجية لأعقابهم وقرىء أنجيتكم وأصل آل أهل لان تصغيره أهيل وخص بالإضافة إلى أولى الأخطار كالأنبياء عليهم السلام والملوك وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس وقيصر لملك الروم وخاقان لملك الترك ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل إذا عتا وتمرد وكان فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل ابنه وليدا من بقايا عاد وقيل إنه كان عطارا أصفهانيا ركبته الديون فأفلس فاضطر إلى الخروج فلحق بالشام فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فرأى فى ظاهره حملا من البطيخ بدرهم وفى نفسه بطيخة بدرهم فقال فى نفسه إن تيسر لى أداء الدين فهذا طريقه فخرج إلى السواد فاشترى حملا بدرهم فتوجه به إلى السوق فكل من لقيه من المكاسين أخذوا منه بطيخا فدخل البلد وما معه

إلا بطيخة فذة فباعها بدرهم ومضى لوجهه ورأى أهل البلد متروكين سدى لا يتعاطى أحد سياستهم وكان قد وقع بهم وباء عظيم فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لأوليائه فقال أنا أمين المقابر فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطونى خمسة دراهم فدفعوها اليه ومضى لآخر وآخر حتى جمع فى مقدار ثلاثة أشهر مالا عظيما ولم يتعرض له أحد قط إلى أن تعرض يوما لأولياء ميت فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب فذهبوا به إلى فرعون فقال من أنت ومن أقامك بهذا المقام قال لم يقمنى أحد وإنما فعلت ما فعلت ليحضرنى أحد إلى مجلسك فأنبهك على اختلال حال قومك وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار من المال فأحضره ودفعه إلى فرعون فقال ولنى أمورك ترنى أمينا كافيا فولاه إياها فسار بهم سيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر واستقامت أحوال الرعية ولبث فيهم دهرا طويلا وترامى أمره فى العدل والصلاح فلما مات فرعون أقاموه مقامه فكان من أمره ما كان وكان فرعون يوسف ريان وكان بينهما أكثر من أربعمائة سنة (يَسُومُونَكُمْ) أى يبغونكم من سامه خسفا إذا أولاه ظلما وأصله الذهاب فى طلب الشيء (سُوءَ العَذَابِ) أى أفظعه وأقبحه بالنسبة إلى سائره والسوء مصدر من ساء يسوء ونصبه على المفعولية ليسومونكم والجملة حال من الضمير فى نجيناكم من آل فرعون أو منهما جميعا لاشتمالها على ضميريهما (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) بيان ليسومونكم ولذلك ترك العاطف بينهما وقرىء يذبحون بالتخفيف وإنما فعلوا بهم ما فعلوا لما أن فرعون رأى فى المنام أو أخبر الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فلم يرد اجتهادهم من قضاء الله عز وجل شيأ قيل قتلوا بتلك الطريقة تسعمائة ألف مولود وتسعين ألفا وقد أعطى الله عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياء ولذلك كانت معجزاته ظاهرة باهرة (وَفِى ذَٰلِكُم) إشارة إلى ما ذكر من التذبيح والاستحياء أو إلى الانجاء منه وجمع الضمير للمخاطبين فعلى الأول معنى قوله تعالى (بَلَاءٌ) محنة وبلية وكون استحياء نسائهم أى استبقائهن على الحياة محنة مع أنه عفو وترك للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال فى الأعمال الشاقة وعلى الثانى نعمة وأصل البلاء الاختبار ولكن لما كان ذلك فى حقه سبحانه محالا وكان ما يجرى مجرى الاختبار لعباده تارة بالمحنة وأخرى بالمنحة أطلق عليهما وقيل يجوز أن يشار بذلكم إلى الجملة ويراد بالبلاء القدر المشترك الشامل لهما (مِّن رَّبِّكُمْ) من جهته تعالى بتسليطهم عليكم أو ببعث موسى عليه السلام وبتوفيقه لتخليصكم منهم أو بهما معا (عَظِيمٌ) صفة لبلاء وتنكيرهما للتفخيم وفى الآية الكريمة تنبيه على أن ما يصيب العبد من السراء والضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر فى المسار والصبر على المضار (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ) بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفيتها اثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الانجاء من الغرق أى واذكروا إذ فلقناه بسلوككم أو ملتبسا بكم كقوله تعالى تنبت بالدهن أو بسبب انجائكم وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت مسالك وقرىء بالتشديد للتكثير لأن المسالك كانت اثنى عشر بعدد الأسباط (فَأَنجَيْنَاكُمْ) أى من الغرق بإخراجكم إلى الساحل كما يلوح به العدول إلى صيغة الافعال بعد إيراد التخليص من فرعون بصيغة التفعيل وكذا قوله تعالى (وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ) أريد فرعون وقومه وإنما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم وقيل شخصه كما روى أن الحسن رضى الله عنه كان يقول اللهم صل على آل محمد أى شخصه واستغنى بذكره عن ذكر قومه (وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) ذلك أو غرقهم وإطباق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة أو جثثهم التى قذفها البحر إلى الساحل أو ينظر بعضكم بعضا وروى أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسرى ببنى إسرائيل فخرج بهم فصبحهم فرعون وجنوده وصادفوهم على شاطىء البحر فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه بها فظهر فيه اثنا عشر طريقا يابسا

فسلكوها فقالوا نخاف أن يغرق بعض أصحابنا فلا نعلم ففتح الله تعالى فيها كوى فتراءوا وتسامعوا حتى عبروا البحر فلما وصل اليه فرعون فرآه منفلقا اقتحمه هو وجنوده فغشيهم ما غشيهم واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال ونعمة عظيمة لأوائل بنى اسرائيل موجبة عليهم شكرها كذلك اقتصاصها على ماهى عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالاذعان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها فيالها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها (وإذ وٰعدنا موسىٰ أربعين ليلةً) لما عادوا إلى مصر بعد مهلك فرعون وعد الله موسى عليه السلام أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وقيل وعد عليه السلام بنى اسرائيل وهو بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فامره بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة ثم زاد عشرا من ذى الحجة وعبر عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثى وقيل على أصلها تنزيلا لقبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وأربعين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف أى بمقام أربعين ليلة وقرىء وعدنا (ثمّ اتّخذتمُ العجلَ) بتسويل السامرى الها ومعبودا وثم للتراخى الرتبى (من بعده) أى من بعد مضيه إلى الميقات على حذف مضاف (وأنتم ظٰلمون) باشراككم ووضعكم للشىء فى غير موضعه وهو حال من ضمير اتخذتم أو اعتراض تذييلى أى وأنتم قوم عادتكم الظلم (ثمّ عفونا عنكم) حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجىء لازما قال :

عرفت المنزل الخالى عفا من بعد أحوال عفاه كل هتان كثير الوبل هطال

وقوله تعالى (من بعد ذٰلك) أى من بعد الاتخاذ الذى هو متناه فى القبح للايذان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم (لعلّكم تشكرون) لكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة (وإذ ءاتينا موسى الكتٰب والفرقان) أى التوراة الجامعة بين كونها كتابا وحجة تفرق بين الحق والباطل وقيل أريد بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل فى الدعوى أو بين الكفر والايمان وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى يوم الفرقان يريد به يوم بدر (لعلّكم تهتدون) لكى تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه (وإذ قال موسىٰ لقومه) بيان لكيفية وقوع العفو المذكور (يٰقوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل) أى معبودا (فتوبوا) أى فاعزموا على التوبة (إلى بارئكم) أى إلى من خلقكم بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت وميز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة وأصل التركيب الخلوص عن الغير اما بطريق التفصى كما فى برىء المريض أو بطريق الانشاء كما فى برأ الله آدم من الطين والتعرض لعنوان البارئية للاشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذى خلقهم بلطيف حكمته بريئا من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر الذى هو مثل فى الغباوة وأن من لم يعرف حقوق منعمه حقيق بأن تسترد هى منه ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب (فاقتلوا أنفسكم) تماما لتوبتكم بالبخع أو بقطع الشهوات وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضا وقيل أمر من لم يعبد العجل بقتل من عبده . يروى أن الرجل كان يرى قريبه فلم يقدر على المضى لأمر الله تعالى فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لايتباصرون بها فاخذوا يقتلون من الغداة إلى العشى حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام فكشفت السحابة ونزلت التوبة وكانت القتلى سبعين الفا والفاء الاولى للتسبيب والثانية للتعقيب (ذٰلكم) اشارة إلى ماذكر من التوب والقتل (خيرٌ لكم عند بارئكم) لما أنه طهرة عن الشرك ووصلة إلى الحياة الابدية والبهجة السرمدية

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ) عطف على محذوف على أنه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات من التكلم الذى يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه فان مبنى الجميع على التكلم إلى الغيبة ليكون ذريعة إلى اسناد الفعل إلى ضمير بارئكم المستتبع للإيذان بعلية عنوان البارئية والخلق والاحياء لقبول التوبة التى هى عبارة عن العفو عن القتل تقديره ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارئكم وإنما لم يقل فتاب عليهم على أن الضمير للقوم لما أن ذلك نعمة أريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم هذا وقد جوز أن يكون فتاب عليكم متعلقا بمحذوف على أنه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديره إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ولا يخفى أنه بمعزل من اللياقة بجلالة شأن التنزيل كيف لا وهو حينئذ حكاية لوعد موسى عليه السلام قومه بقبول التوبة منه تعالى لا لقبوله تعالى حتما وقد عرفت أن الآية الكريمة تفصيل لكيفية القبول المحكى فيما قبل وأن المراد تذكير المخاطبين بتلك النعمة (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) تعليل لما قبله أى الذى يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويبالغ فى قبولها منهم وفى الانعام عليهم (وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ) تذكير لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجناية العظيمة التى هى اتخاذ العجل أى لن نؤمن لأجل قولك ودعوتك أو لن نقر لك والمؤمن به اعطاء الله إياه التوراة أو تكليمه إياه أو أنه نبى أو أنه تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم (حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) أى عيانا وهى فى الأصل مصدر قولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف إلا أن الأول فى المسموعات والثانى فى المبصرات ونصبها على المصدرية لأنها نوع من الرؤية أو حال من الفاعل أو المفعول وقرىء بفتح الهاء على أنها مصدر كالغلبة أو جمع كالكتبة فيكون حالا من الفاعل لا غير والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل روى أنهم لما ندموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلا ويحضر معهم الطور يظهرون فيه تلك التوبة فلما خرجوا إلى الطور وقع عليه عمود من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه وكان كلما كلمه تعالى أوقع على جبهته نورا ساطعا لا يستطيع أحد من السبعين النظر اليه وسمعوا كلامه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمعوا فى الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتى فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وقيل عشرة آلاف من قومه (فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ) لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فانهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى مما يشبه الاجسام وتتعلق به الرؤية تعلقها بها على طريق المقابلة فى الجهات والاحياز ولا ريب فى استحالته انما الممكن فى شأنه تعالى الرؤية المنزهة عن الكيفيات بالكلية وذلك للمؤمنين فى الآخرة وللافراد من الأنبياء الذين بلغوا فى صفاء الجوهر إلى حيث تراهم كأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس فى بعض الاحوال فى الدنيا قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وقيل صيحة وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة وعن وهب أنهم لم يموتوا بل لما رأوا تلك الهيئة الهائلة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم وتنقض ظهورهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعا ربه فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت اليهم عقولهم ومشاعرهم ولم تكن صعقة موسى عليه السلام موتا بل غشية لقوله تعالى فلما أفاق (وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) أى ما أصابكم بنفسه أو بآثاره (ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ) بتلك الصاعقة قيد البعث به لما أنه قد يكون من الاغماء وقد يكون من النوم كما فى قوله تعالى ثم بعثناهم لنعلم الخ (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) أى نعمة البعث أو ما كفرتموه بما رأيتم من بأس الله تعالى (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ) أى جعلناها بحيث تلقى عليكم ظلها وذلك أنه تعالى سخر لهم السحاب يسير بسيرهم وهم فى التيه يظلهم من الشمس وينزل بالليل عمود من نار

يسيرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى (وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ) أى الترنجبين والسمانى وقيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه (كُلُوا) على إرادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا (مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) من مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى (وَمَا ظَلَمُونَا) كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للايذان باقتضاء جنايات المخاطبين للاعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة معطوف على مضمر قد حذف للايجاز والاشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا تلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك (وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بالكفران إذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول للدلالة على القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب تهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم فى الكفر (وَإِذْ قُلْنَا) تذكير لنعمة أخرى من جنابه تعالى وكفرة أخرى لاسلافهم أى واذكروا وقت قولنا لآبائكم أثر ما أنقذناهم من التيه (ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ) منصوبة على الظرفية عند سيبويه وعلى المفعولية عند الأخفش وهى بيت المقدس وقيل أريحاء (فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا) أى واسعا هنيئا ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الاقامة والسكنى فيؤول إلى ما فى سورة الاعراف من قوله تعالى اسكنوا هذه القرية (وَادْخُلُوا الْبَابَ) أى باب القرية على ما روى من أنهم دخلوا أريحاء فى زمن موسى عليه السلام كما سيجىء فى سورة المائدة أو باب القبة التى كانوا يصلون إليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام (سُجَّدًا) أى متطامنين مخبتين أو ساجدين لله شكرا على إخراجهم من التيه (وَقُولُوا حِطَّةٌ) أى مسئلتنا أو أمرك حطة وهى فعلة من الحط كالجلسة وقرىء بالنصب على الأصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة أو على أنها مفعول قولوا أى قولوا هذه الكلمة وقيل معناه أمرنا حطة أى أن نحط رحالنا فى هذه القرية ونقيم بها (نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ) لما تفعلون من السجود والدعاء وقرىء بالياء والتاء على البناء للمفعول وأصل خطايا خطايىء كخضايع فعند سيبويه أبدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الألف واجتمعت همزتان وأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفا وكانت الهمزة بين ألفين فأبدلت ياء وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر (وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) ثوابا جعل الامتثال توبة للمسىء وسببا لزيادة الثواب للمحسن وأخرج ذلك عن صورة الجواب إلى الوعد إيذانا بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله وأنه يفعله لا محالة (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) بما أمروا به من التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه (قَوْلًا) آخر مما لاخير فيه روى أنهم قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا سمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله عز وجل (غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) نعت لقولا وإنما صرح به مع استحالة تحقق التبديل بلا مغايرة تحقيقا لمخالفتهم وتنصيصا على المغايرة من كل وجه (فَأَنزَلْنَا) أى عقيب ذلك (عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) بما ذكر من التبديل وإنما وضع الموصول موضع الضمير العائد إلى الموصول الاول للتعليل والمبالغة فى الذم والتقريع وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى (رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ) أى عذابا مقدرا منها والتنوين للتهويل والتفخيم (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) بسبب فسقهم المستمر حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل وتعليل إنزال الرجز به بعد الاشعار بتعليله بظلمهم للايذان بأن ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو فى الظلم وأن تعذيبهم بجميع ما ارتكبوه من القبائح لا بعدم توبتهم فقط كما يشعر به ترتيبه على ذلك بالفاء والرجز فى الأصل ما يعاف عنه وكذلك الرجس وقرىء بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون روى أنه مات به فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا (وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ) تذكير لنعمة أخرى كفروها وكان ذلك فى التيه حين استولى عليهم

العطش الشديد وتغيير الترتيب لما أشير إليه مرارا من قصد ابراز كل من الأمور المعدودة فى معرض أمر مستقل واجب التذكير والتذكر ولو روعى الترتيب الوقوعى لفهم أن الكل أمر واحد أمر بذكره واللام متعلقة بالفعل أى استسقى لاجل قومه (فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ) روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه وكان ينبع من كل وجه منه ثلاث أعين يسيل كل عين فى جدول إلى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنى عشر ميلا أو كان حجرا أهبطه الله تعالى مع آدم عليه السلام من الجنة ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه موسى عليه السلام مع العصا أو كان هو الحجر الذى فر بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله تعالى به عما رموه به من الأدرة فأشار اليه جبريل عليه السلام أن يحمله أو كان حجرا من الحجارة وهو الأظهر فى الحجة قيل لم يؤمر عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها حمل حجرا فى مخلاته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجر ويضربه إذا ارتحل فييبس فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى إليه أن لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون وقيل كان الحجر من رخام حجمه ذراع فى ذراع والعصا عشرة أذرع على طوله عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان فى الظلمة (فَانفَجَرَتْ) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب أى فضرب فانفجرت (مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) وأما تعلق الفاء بمحذوف أى فان ضربت فقد انفجرت فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد وقرىء عشرة بكسر الشين وفتحها وهما أيضا لغتان (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ) كل سبط (مَّشْرَبَهُمْ) عينهم الخاصة بهم (كُلُوا وَاشْرَبُوا) على ارادة القول (مِن رِّزْقِ اللَّهِ) هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء وقيل هو الماء وحده لأنه يؤكل ما ينبت به من الزروع والثمار ويأباه أن المأمور به أكل النعمة العتيدة لا ما سيطلبونه وإضافته إليه تعالى مع استناد الكل إليه خلقا وملكا إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عادى وإنما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا الخ إيذانا بأن الأمر بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ) العثى أشد الفساد فقيل لهم لا تتمادوا فى الفساد حال كونكم (مُفْسِدِينَ) وقيل إنما قيد به لأن العثى فى الأصل مطلق التعدى وإن غلب فى الفساد وقد يكون فى غير الفساد كما فى مقابلة الظالم المعتدى بفعله وقد يكون فيه صلاح راجح كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه للسفينة ونظيره العيث خلا أنه غالب فيما يدرك حسا (وَإِذْ قُلْتُمْ) تذكير لجناية أخرى لاسلافهم وكفرانهم لنعمة الله عز وجل واخلادهم إلى ما كانوا فيه من الدناءة والخساسة وإسناد القول المحكى إلى اخلافهم وتوجيه التوبيخ إليهم لما بينهم من الاتحاد (يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ) لعلهم لم يريدوا بذلك جمع ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة ولا زوالها وحصول ما طلبوا مكانها إذ يأباه التعرض للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارة وذاك أخرى . روى أنهم كانوا فلاحة فنزعوا إلى عكرهم فأجمعوا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدتها النوعية واطرادها وتاقت أنفسهم إلى الشقاء (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ) أى سله لاجلنا بدعائك إياه والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادى الاجابة (يُخْرِجْ لَنَا) أى يظهر لنا ويوجد والجزم لجواب الأمر (مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ) اسناد مجازى باقامة القابل مقام الفاعل ومن تبعيضية والتى فى قوله تعالى (مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا) بيانية واقعة موقع الحال أى كائنا من بقلها الخ وقيل بدل باعادة الجار والبقل ما تنبت الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التى تؤكل كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها والفوم الحنطة وقيل الثوم وقرىء قثائها بضم القاف وهو لغة فيه (قَالَ) أى الله تعالى أو موسى عليه السلام انكارا عليهم وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال (أَتَسْتَبْدِلُونَ) أى أتأخذون

لأنفسكم وتختارون (الذي هو أدنى) أي أقرب منزلة وأدون قدراسهل المنال وهين الحصول لعدم كونه مرغوبا فيه وكونه تافها مرزولا قليل القيمة وأصل الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقيل بعيد المحل وبعيد الهمة وقرىء أدنأ من الدناءة وقد حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من الهمزة (بالذي هو خير) أي بمقابلة ماهو خير فان الباء تصحب الذاهب الزائل دون الآتي الحاصل كما في التبدل والتبديل في مثل قوله عز وجل ومن يتبدل الكفر بالإيمان وقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وليس فيه مايدل قطعا على أنهم أرادوا زوال المن والسلوى بالمرة وحصول ماطلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة (اهبطوا مصرا) أمروا به بيانا للدناءة مطلبهم أو اسعافا لمرامهم أو انحدروا اليه من التيه يقال هبط الوادي وقرىء بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين وقيل أريد به العلم وإنما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة ويؤيده أنه في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه غير منون وقيل أصله مصرايم فعرب (فإن لكم ما سألتم) تعليل للأمر بالهبوط أي فان لكم فيه ما سألتموه ولعل التعبير عن الأشياء المسئولة بما للاستهجان بذكرها كأنه قيل فإنه كثير فيه مبتذل يناله كل أحد بغير مشقة (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أي جعلتا محيطتين بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقتا بهم وجعلتا ضربة لازب لا تنفكان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية واليهود في غالب الأمر أذلاء مساكين اما على الحقيقة واما لخوف أن تضاعف جزيتهم (وباءوا) أي رجعوا (بغضب) عظيم وقوله تعالى (من الله) متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي بغضب كائن من الله تعالى أو صاروا أحقاء به من قولهم باء فلان بفلان أي صار حقيقا بأن يقتل بمقابلته ومنه قول من قال بؤ بشسع نعل كليب وأصل البوء المساواة (ذلك) إشارة إلى ماسلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم (بأنهم) بسبب أنهم (كانوا يكفرون) على الاستمرار (بآيات الله) الباهرة التي هي المعجزات الساطعة الظاهرة على يدي موسى عليه السلام مما عد ومالم يعد (ويقتلون النبيين بغير الحق) كشعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام وفائدة التقييد مع أن قتل الأنبياء يستحيل أن يكون بحق الايذان بأن ذلك عندهم أيضا بغير الحق إذ لم يكن أحد معتقدا بحقية قتل أحد منهم عليهم السلام وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى والغلو في العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أي جرهم العصيان والتمادي في العدوان إلى ماذكر من الكفر وقتل الأنبياء عليهم السلام فان صغار الذنوب اذا دووم عليها أدت إلى كبارها كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية إلى تحري كبارها وقيل كررت الإشارة للدلالة على أن مالحقهم كما أنه بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى وقيل الاشارة إلى الكفر والقتل والباء بمعنى مع ويجوز الإشارة إلى المتعدد بالمفرد بتأويل ماذكر أو تقدم كما في قول رؤبة بن العجاج :

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه في الجلد توليع البهق

أي كان ماذكر والذي حسن ذلك في المضمرات والمبهمات أن تثنيتها وجمعها ليسا على الحقيقة ولذلك جاء الذي بمعنى الذين (إن الذين آمنوا) أي بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عبر عنها بالايمان لاتجديهم نفعا أصلا ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعا (والذين هادوا) أي تهودوا من هاد إذا دخل في اليهودية ويهود إما عربي من هاد إذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم توبة هائلة وأما معرب يهوذا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب

عليه الصلاة والسلام (وَالنَّصَٰرَىٰ) جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وامرأة نصرانة والياء فى نصرانى للمبالغة كما فى أحمرى سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام أو لأنهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران فسموا باسمها أو نسبوا اليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصرى كمهرى ومهارى (وَالصَّٰبِـِٔينَ) هم قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام وقيل هم عبدة الملائكة وقيل عبدة الكواكب فهو ان كان عربيا فمن صبأ إذا خرج من دين إلى آخر وقرىء بالياء إما للتخفيف وإما لأنه من صبا إذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه أو من الحق إلى الباطل (مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) أى من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق (وَعَمِلَ) عملا (صَٰلِحًا) حسبما يقتضيه الايمان بما ذكر (فَلَهُمْ) بمقابلة ذلك (أَجْرُهُمْ) الموعود لهم (عِندَ رَبِّهِمْ) أى مالك أمرهم ومبلغهم إلى كمالهم اللائق فمن اما فى محل الرفع على الابتداء خبره جملة فلهم أجرهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما فى قوله تعالى إن الذين فتنوا المؤمنين الآية وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن افرادما فى الصلة باعتبار لفظه والجملة كما هى خبر ان والعائد إلى اسمها محذوف أى من آمن منهم الخ وأما فى محل النصب على البدلية من اسم ان وما عطف عليه وخبرها فلهم أجرهم وعند متعلق بما تعلق به لهم من معنى الثبوت وفى إضافته إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد لطف بهم وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت مأمون من الفوات (وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) عطف من جملة فلهم أجرهم أى لا خوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر من أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام هذا وقد قيل المراد بالذين آمنوا المتدينون بدين الاسلام المخلصون منهم والمنافقون فحينئذ لا بد من تفسير من آمن بمن اتصف منهم بالإيمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الإطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كايمان المخلصين أو بطريق إحداثه وإنشائه كايمان من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين مزيد ترغيب الباقين فى الإيمان ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين فى استحقاق الأجر وما يتبعه من الأمن الدائم وأما ما قيل فى تفسيره من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فما لا سبيل اليه أصلا لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه فلا ملابسة له بالمقام قطعا بل ربما يخل بمقتضاه من حيث دلالته على حقيته فى زمانه فى الجملة على أن المنافقين والصابئين لا يتسنى فى حقهم ماذكر أما المنافقون فان كانوا من أهل الشرك فالأمر بين وإن كانوا من أهل الكتاب فمن مضى منهم قبل النسخ ليسوا بمنافقين وأما الصابئون فليس لهم دين يجوز رعايته فى وقت من الأوقات ولو سلم أنه كان لهم دين سماوى ثم خرجوا عنه فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه فليسوا من الصابئين فكيف يمكن ارجاع الضمير الرابط بين اسم أن وخبرها اليهم أو إلى المنافقين وارتكاب ارجاعه إلى مجموع الطوائف من حيث هو مجموع لا إلى كل واحدة منها قصدا إلى درج الفريق المذكور فيه ضرورة أن من كان من أهل الكتاب عاملا بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع الطوائف بحكم اشتماله على اليهود والنصارى وإن لم يكن من المنافقين والصابئين مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله على أن المخلصين مع اندراجهم فى حيز اسم ان ليس لهم فى حيز خبرها عين ولا أثر فتأمل وكن على الحق المبين (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ) تذكير لجناية أخرى لأسلافهم أى واذكروا وقت أخذنا الميثاق منكم بالمحافظة على ما فى التوراة (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) عطف على قوله أخذنا

أوحال أى وقد رفعنافوقكم الطوركأنه ظلة. روى أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا مافيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم فأبوا قبولها فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله عليهم حتى قبلوا (خذوا) على إرادة القول (مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم) من الكتاب (بِقُوَّةٍ) بجد وعزيمة (وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ) أى احفظوه ولا تنسوه أو تفكروا فيه فانه ذكر بالقلب أو اعملوا به (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) لكى تتقوا المعاصى أو لتنجوا من هلاك الدارين أو رجاء منكم أن تنتظموا فى سلك المتقين أو طلبا لذلك وقد مر تحقيقه (ثُمَّ تَوَلَّيْتُم) أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ) من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد (فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ) بتوفيقكم للتوبة أو بمحمد صلى الله عليه وسلم حيث يدعوكم إلى الحق ويهديكم اليه (لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ) أى المغبونين بالانهماك فى المعاصى والخبط فى مهاوى الضلال عند الفترة وقيل لولا فضله تعالى عليكم بالامهال وتأخير العذاب لكنتم من الهالكين وهو الأنسب بما بعده وكلمة لولا إما بسيطة أو مركبة من لو الامتناعية وحرف النفى ومعناها امتناع الشىء لوجود غيره كما أن لو لامتناعه لامتناع غيره والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأ خبره محذوف وجوبا لدلالة الحال عليه وسد الجواب مسده والتقدير لولا فضل الله حاصل وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف أى لولا ثبت فضل الله تعالى عليكم (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ) أى عرفتم (ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ) روى أنهم أمروا بأن يتمحضوا يوم السبت للعبادة ويتجردوا لها ويتركوا الصيد فاعتدى فيه أناس منهم فى زمن داود عليه السلام فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكنون قرية بساحل البحر يقال لها أيلة فاذا كان يوم السبت لم يبق فى البحر حوت إلا برز وأخرج خرطومه فاذا مضى تفرقت فحفروا حياضا وشرعوا اليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد فالمعنى وبالله لقد علمتموهم حين فعلوا من قبيل جناياتكم مافعلوا فلم نمهلهم ولم نؤخر عقوبتهم بل عجلناها (فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ) أى جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار على أن خاسئين نعت لقردة وقيل حال من اسم كونوا عند من يجيز عمل كان فى الظروف والحال وقيل من الضمير المستكن فى قردة لأنه فى معنى ممسوخين وقال مجاهد مامسخت صورهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى كمثل الحمار يحمل أسفارا والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل وقرىء قردة بفتح القاف وكسر الراء وخاسين بغير همز (فَجَعَلْنَـٰهَا) أى المسخة والعقوبة (نَكَـٰلًا) عبرة تنكل المعتبر بها اى تمنعه وتردعه ومنه النكل للقيد (لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين واشتهرت قصصهم فى الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها أو لأهل تلك القرية وما حواليها أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها (وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) من قومهم أو لكل متق سمعها (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ) توبيخ آخر لأخلاف بنى إسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت عن أسلافهم أى واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لأجدادكم (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً) وسببه أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر فقتله بنو عمه طمعا فى ميراثه فطرحوه على باب المدينة ثم جاؤا يطالبون بديته فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيى فيخبرهم بقاتله (قَالُوٓا۟) استئناف وقع جوابا عما ينساق اليه الكلام كأنه قيل فما صنعوا هل سارعوا إلى الامتثال أولا فقيل قالوا (أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا) بضم الزاء وقلب الهمزة واوا وقرىء بالهمزة مع الضم والسكون أى أتجعلنا مكان هزؤ أو أهل هزؤ أو مهزوءا بنا أو الهزؤ نفسه استبعادا لما قاله واستخفافا به (قَالَ) استئناف كما سبق (أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ) لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه نفى عنه عليه السلام ما توهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده باخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه استفظاعا له واستعظاما لما أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه

عليه السلام بها (قالوا) استئناف كما مر كأنه قيل فماذا قالوا بعد ذلك فقيل توجهوا نحو الامتثال وقالوا (ادْعُ لَنَا) أى لأجلنا (رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ) ما مبتدأ وهى خبره والجملة فى حيز النصب بيبين أى يبين لنا جواب هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لما قرع أسماعهم مالم يعهدوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فان ما وان شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة كما فى ما الشارحة والحقيقة لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول ما زيد فيقال طبيب أو عالم وقيل كان حقه أن يستفهم بأى لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس أخرجوه عن الحقيقة فجعلوه جنسا على حياله (قالَ) أى موسى عليه السلام بعد ما دعا ربه عز وجل بالبيان وأتاه الوحى (إِنَّهُ) تعالى (يَقُولُ إِنَّهَا) أى البقرة المأمور بذبحها (بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ) أى لا مسنة ولا فتية يقال فرضت البقرة فروضا أى أسنت من الفرض بمعنى القطع كأنها قطعت سنها وبلغت آخرها وتركيب البكر للاولية ومنه البكرة والباكورة (عَوَانٌ) أى نصف لا قحم ولا ضرع قال : طوال مثل أعناق الهوادى نواعم بين أبكار وعون

(بَيْنَ ذَلِكَ) إشارة إلى ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف اليه بين لاختصاصه بالاضافة إلى المتعدد (فَافْعَلُوا) أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ماقبله من بيان صفة المأمور به (مَا تُؤْمَرُونَ) أى ما تؤمرونه بمعنى تؤمرون به كما فى قوله: أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فان حذف الجار قد شاع فى هذا الفعل حتى لحق بالأفعال المتعدية إلى مفعولين وهذا الأمر منه عليه السلام لحثهم على الامتثال وزجرهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به وقوله تعالى (قالوا) استئناف كما مر كأنه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافى والأمر المكرر فقيل قالوا (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا) حتى يتبين لنا البقرة المأمور بها (قَالَ) أى موسى عليه السلام بعد المناجاة إلى الله تعالى ومجىء البيان (إِنَّهُ) تعالى (يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا) إسناد البيان فى كل مرة إلى الله عز وجل لإظهار كمال المساعدة فى إجابة مسؤلهم بقولهم يبين لنا وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها ولذلك يؤكد به ويقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وأحمر قانىء وفى إسناده إلى اللون مع كونه من أحوال الملون لملابسته به ما لا يخفى من فضل تأكيد كأنه قيل صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما فى جد جده وعن الحسن رضى الله عنه سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى جمالة صفر قيل ولعل التعبير عن السواد بالصفرة لما أنها من مقدماته واما لأن سواد الابل يعلوه صفرة ويأباه وصفها بقوله تعالى (تَسُرُّ النَّاظِرِينَ) كما يأباه وصفها بفقوع اللون والسرور لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه من السر عن على رضى الله عنه من لبس نعلا صفراء قل همه (قالوا) استئناف كنظائره (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ) زيادة استكشاف عن حالها كأنهم سألوا بيان حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ماعداها مما تشاركها فى الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة فى أثناء البيان ولذلك عللوه بقولهم (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا) يعنون أن الأوصاف المعدودة يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدى بها إلى تشخيص ماهو المأمور بها ولذلك لم يقولوا إن البقرة تشابهت إيذاناً بأن النعوت المعدودة ليست بمشخصة للمأمور بها بل صادقة على سائر أفراد الجنس وقرىء إن الباقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر ويتشابه بالياء والتاء ويشابه بطرح التاء والادغام على التذكير والتأنيث وتشابهت مخففا ومشددا وتشبه بمعنى تتشبه وتشبه بالتذكير ومتشابه ومتشابهة ومتشبه ومتشبهة وفيه دلالة على أنهم ميزوها عن بعض ماعداها فى الجملة وإنما بقى اشتباه بشرف الزوال كما ينبىء عنه قولهم (وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ) مؤكدا بوجوه من التوكيد أى لمهتدون بما سألنا من البيان إلى المأمور بذبحها وفى الحديث لو لم

يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ) أى لم تذلل للكراب وسقى الحرث ولا ذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول ولا الثانية لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل لا ذلول مثيرة وساقية وقرىء لا ذلول بالفتح أى حيث هى كقولك مررت برجل لا بخيل ولا جبان أى حيث هو وقرىء تسقى من أسقى (مُسَلَّمَةٌ) أى سلمها الله تعالى من العيوب أو أهلها من العمل أو أخلص لها لونها من سلم له كذا إذا خاص له ويؤيده قوله تعالى (لَا شِيَةَ فِيهَا) أى لا لون فيها يخالف لون جلدها حتى قرنها وظلفها وهى فى الأصل مصدر وشاه وشيا وشية إذا خاط بلونه لونا آخر (قَالُوا) عندما سمعوا هذه النعوت (الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ) أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ما عداها ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا بخلاف المرتين الأولين فان ما جئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة ولعلهم كانوا قبل ذلك قدر أوها ووجدوها جامعة لجميع ما فصل من الأوصاف المشروحة فى المرات الثلاث من غير مشارك لها فيما عد فى المرة الأخيرة والافن أين عرفوا اختصاص النعوت الأخيرة بها دون غيرها وقرىء آلآن بالمد على الاستفهام والان بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام (فَذَبَحُوهَا) الفاء فصيحة كما فى فانفجرت أى فحصلوا البقرة فذبحوها (وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) كاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول والجملة حال من ضمير ذبحوا أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه أو اعتراض تذييلى ومآله استثقال استعصائهم واستبطائهم وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ما كاد ينتهى خيط اسهابهم فيها . قيل مضى من أول الأمر إلى الامتثال أربعون سنة وقيل وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها. روى أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ صالح له عجلة فاتى بها الغيضة وقال اللهم انى استودعتكها لابنى حتى يكبر وكان برا بوالديه فتوفى الشيخ وشبت العجلة فكانت من أحسن البقر وأسمنها فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا لما كانت وحيدة بالصفات المذكورة وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير واعلم انه لا خلاف فى أن مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة مطلقة مبهمة وأن الامتثال فى آخر الأمر إنما وقع بذبح بقرة معينة حتى لو ذبحوا غيرها ما خرجوا عن عهدة الأمر لكن اختلف فى أن المراد المأمور به أثر ذى أثير هل هى المعينة وقد أخر البيان عن وقت الخطاب أو المبهمة ثم لحقها التغيير إلى المعينة بسبب تثاقلهم فى الامتثال وتماديهم فى التعمق والاستكشاف فذهب بعضهم إلى الأول تمسكا بأن الضمائر فى الأجوبة أعنى أنها بقرة إلى آخره للمعينة قطعا ومن قضيته أن يكون فى السؤال أيضا كذلك ولا ريب فى أن السؤال إنما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكون هى المعينة وهو مدفوع بأنهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس من الصفات والخواص فسألوا عنها فرجعت الضمائر إلى المعينة فى زعمهم واعتقادهم فعينها الله تعالى تشديدا عليهم وإن لم يكن المراد من أول الأمر هى المعينة والحق أنها كانت فى أول الأمر مبهمة بحيث لو ذبحوا أية بقرة كانت لحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكرير الأمر قبل بيان اللون وما بعده من كونها مسلمة الخ وقد قال صلى الله عليه وسلم لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم وروى مثله عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ثم رجع الحكم الأول منسوخا بالثانى والثانى بالثالث تشديدا عليهم لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق بالكلية وانتقاله إلى المعين بل على طريقة تقييده وتخصيصه به شيئا فشيئا كيف لا ولو لم يكن كذلك لما عدت مراجعاتهم المحكية من قبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فان الامتثال بالأمر بدون الوقوف على المأمور به مما لا يكاد يتسنى فتكون سؤالاتهم من باب الاهتمام بالامتثال (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا) منصوب بمضمر كما مرت نظائره والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم واسناد القتل والتدارؤ إليهم لما مر من نسبة جنايات

الاسلاف إلى الاخلاف توبيخا وتقريعا وتخصيصهما بالاسناد دون ما مر من هناتهم لظهور قبح القتل وإسناده إلى الغير أى اذكروا وقت قتلكم نفسا محرمة (فادّٰرَءتُم فِيها) أى تخاصمتم فى شأنها إذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر أو تدافعتم بأن طرح كل واحد قتلها إلى آخر وأصله تدارأتم فأدغمت التاء فى الدال واجتلبت لها همزة الوصل (وَاللهُ مُخرِجٌ مَا كنتمْ تَكتُمونَ) أى مظهر لما تكتمونه لامحالة والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار وإنما أعمل مخرج لأنه حكاية حال ماضية (فقُلنا اضرِبُوهُ) عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراض والالتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار أنها عبارة عن الرجل أو بتأويل الشخص أو القتيل (ببعضِها) أى ببعض البقرة أى بعض كان وقيل بأصغريها وقيل بلسانها وقيل بفخذها اليمنى وقيل بأذنها وقيل بعجبها وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف وهذا أول القصة كما ينبىء عنه الضمير الراجع إلى البقرة كأنه قيل وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وإنما غير الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع فان كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ وإنما حكى الأمر بالذبح عن موسى عليه السلام مع أنه من الله عز وجل كالأمر بالضرب لما أن جناياتهم كانت بمراجعتهم إليه عليه السلام والافتيات على رأيه (كذَلكَ يُحيى اللهُ المَوتَى) على ارادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فضربوه فحيي وقلنا كذلك يحيى الخ فحذفت الفاء الفصيحة فى فحيي مع ماعطف بها وما عطف هو عليه لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب فى كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول بل تنتهى الحكاية عند قوله تعالى ببعضها مع ماقدر بعده فالجملة معترضة أى مثل ذلك الاحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة (وَيريكمْ ءَايتهِ) ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شىء قدير ويجوز أن يراد بالآيات هذا الاحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت وإخباره بقاتله ومايلابسه من الأمور الخارقة للعادة (لَعلّكمْ تعقِلونَ) أى لكى تكمل عقولكم وتعلموا أن من قدر على احياء نفس قدر على احياء الأنفس كلها أو تعملوا على قضية عقولكم ولعل الحكمة فى اشتراط ما اشترط فى الاحياء مع ظهور كمال قدرته على احيائه ابتداء بلا واسطة أصلا اشتماله على التقرب إلى الله تعالى وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل على الله تعالى والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ومن حق المتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالى بثمنه كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلثمائة دينار وأن المؤثر هو الله تعالى وإنما الأسباب أمارات لاتأثير لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعى فى اماتته الموت الحقيق فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التى هى قوته الشهوية حين زال عنها شره الصبى ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة فى طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لاشية بها من قبائحها بحيث يتصل أثره إلى نفسه فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع مابين العقل والوهم من التدارؤ والجدال (ثمَّ قسَتْ قُلوبُكم) الخطاب لمعاصرى النبى صلى الله عليه وسلم والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما فى الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التى تميع منها الجبال وتلين بها الصخور وايراد الفعل المفيد لحدوث القساوة مع أن قلوبهم لم تزل قاسية لما أن المراد بيان بلوغهم إلى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة واما لان الاستمرار على شىء بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه أمر جديد وصنع حادث وثم لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة مايزيلها كقوله تعالى

ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (مِن بَعْدِ ذَلِكَ) إشارة إلى ماذكر من احياء القتيل أو إلى جميع ماعدد من الآيات الموجبة للين القلوب و توجهها نحو الحق أى من بعد سماع ذلك ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته وعلو طبقته وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين اما بتأويل الفريق أو لان المراد مجرد الخطاب لا تعيين المخاطب كما هو المشهور (فهِيَ كالحجارَةِ) فى القساوة (أوْ أشدُّ) منها (قَسْوَةً) أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها أو أنها مثلها أو مثل ماهو أشد منها قسوة كالحديد فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ويعضده القراءة بالجر عطفا على الحجارة وايراد الجملة اسمية مع كون ماسبق فعلية للدلالة على استمرار قساوة قلوبهم والفاء اما لتفريع مشابهتها لها على ماذكر من القساوة تفريع التشبيه على بيان وجه الشبه فى قولك احمر خده فهو كالورد واما للتعليل كما فى قولك اعبد ربك فالعبادة حق له وانما لم يقل أو أقسى منها لما فى التصريح بالشدة من زيادة مبالغة ودلالة ظاهرة على اشتراك القسوتين فى الشدة واشتمال المفضل على زيادة وأو للتخيير أو للترديد بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هى أقسى من الحجارة وترك ضمير المفضل عليه للأمن من الالتباس (وَإنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنهُ الأنْهارُ) بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة فى القساوة وعدم التأثر واستحالة صدور الخير منها يعنى أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها مايتفجر منه المياه العظيمة (وَإنَّ مِنهَا لَمَا يَشَّقَّقُ) أى يتشقق (فَيَخْرُجُ مِنهُ الماءُ) أى العيون (وَإنَّ مِنهَا لَمَا يَهْبِطُ مِن خَشْيَةِ اللهِ) أى يتردى من الأعلى إلى الأسفل بقضية ماأودعه الله عز وجل فيها من الثقل الداعى إلى المركز وهو مجاز من الانقياد لأمره تعالى والمعنى أن الحجارة ليس منها فرد إلا وهو منقاد لأمره عز وعلا آت بما خلق له من غير استعصاء وقلوبهم ليست كذلك فتكون أشد منها قسوة لامحالة واللام فى لما لام الابتداء دخلت على اسم ان لتقدم الخبر وقرىء ان على أنها مخففة من الثقيلة واللام فارقة وقرىء يهبط بالضم (وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلونَ) عن متعلقة بغافل وما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية وهو وعيد شديد على ماهم عليه من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الأعمال السيئة وقرىء بالياء على الالتفات وقوله تعالى (أفتَطمَعُونَ) تلوين للخطاب وصرف له عن اليهود اثر ماعددت هناتهم ونعيت عليهم جناياتهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين والهمزة لانكار الواقع واستبعاده كما فى قولك أتضرب أباك لا لانكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام لكن لا على قصد توجيه الانكار إلى المعطوفين معا كما فى أفلا تبصرون على تقدير المعطوف عليه منفيا أى ألا تنظرون فلا تبصرون فالمنكر كلا الامرين بل إلى ترتب الثانى على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر الأول مثبتا أى أتنظرون فلا تبصرون فالمنكر ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه أى أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون ومآل المعنى أبعد أن علمتم تفاصيل شئونهم المؤيسة عنهم تطمعون (أن يُؤْمِنوا) فانهم متمادون فى شدة الشكيمة والاخلاق الذميمة لايتأتى من أخلافهم إلا مثل ماأتى من أسلافهم وأن مصدرية حذف عنها الجار والاصل فى أن يؤمنوا وهى مع مافى حيزها فى محل النصب أو الجر على الخلاف المعروف واللام فى لكم لتضمين معنى الاستجابة كما فى قوله عز وجل فآمن له لوط أى فى إيمانهم مستجيبين لكم أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الإيمان لاجل دعوتكم وصلة الإيمان محذوفة لظهور أن المراد به معناه الشرعى وستقف على مافيه من المزية باذن الله تعالى (وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنهُمْ) الفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم والجار والمجرور فى محل الرفع أى فريق كائن منهم وقوله تعالى (يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ) خبر كان وقرىء كلم الله والجملة حالية مؤكدة للانكار حاسمة لمادة الطمع مثل أحوالهم الشنيعة المحكية

فيما سلف على منهاج قوله تعالى وهم لكم عدو بعد قوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى أى والحال أن طائفة منهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم قوم من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامه تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور وما أمر به ونهى عنه (ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ) عن مواضعه لا لقصور فهمهم عن الإحاطة بتفاصيله على ماينبغى لاستيلاء الدهشة والمهابة حسبما يقتضيه مقام الكبرياء بل (مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ) أى فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم فى مضمونه ولا فى كونه كلام رب العزة ريبة أصلا فلما رجعوا إلى قومهم أداه الصادقون اليهم كما سمعوا وهؤلاء قالوا سمعنا الله تعالى يقول فى آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا فلا بأس فثم للتراخى زمانا أو رتبة وقال القفال سمعوا كلام الله وعقلوا مراده تعالى منه فأولوه تأويلا فاسدا وقيل هم رؤساء أسلافهم الذين تولوا تحريف التوراة بعد ما أحاطوا بما فيها علما وقيل هم الذين غيروا نعت النبى صلى الله عليه وسلم فى عصره وبدلوا آية الرجم ويأباه الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل الدال على وقوع السماع والتحريف فيما سلف الا أن يحمل ذلك على تقدمه على زمان نزول الآية الكريمة لا على تقدمه على عهده عليه الصلاة والسلام هذا والأول هو الانسب بالسماع والكلام إذ التوراة وإن كانت كلام الله عز وعلا لكنها باسم الكتاب أشهر وأثر التحريف فيه أظهر . ووصف اليهود بتلاوتها أكثر . لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فان وظيفتهم التلاوة دون السماع فكان الانسب حينئذ أن يقال يتلون كتاب الله تعالى فالمعنى أفتطمعون فى أن يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال أن أسلافهم الموافقين لهم فى خلال السوء كانوا يسمعون كلام الله بلا واسطة ثم يحرفونه من بعد ما علموه يقينا ولا يستجيبون له هيهات ومن هنا ظهر ما فى ايثار لكم على بالله من الفخامة والجزالة وقوله عز وجل (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) جملة حالية من فاعل يحرفونه مفيدة لكمال قباحة حالهم مؤذنة بأن تحريفهم ذلك لم يكن بناء على نسيان ما عقلوه أو على الخطأ فى بعض مقدماته بل كان ذلك حال كونهم عالمين مستحضرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومفترون (وَإِذَا لَقُوا) جملة مستأنفة سيقت اثر بيان ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن ايمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم أو معطوفة على ما سبق من الجملة الحالية والضمير لليهود لما ستقف على سره لا لمنافقيهم خاصة كما قيل تحريا لاتحاد الفاعل فى فعلى الشرط والجزاء حقيقة (الَّذِينَ ءَامَنُوا) من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (قَالُوا) أى اللاقون لكن لا بطريق تصدى الكل للقول حقيقة بل بمباشرة منافقيهم وسكوت الباقين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا أدخل فى تقبيح حال الساكتين أولا العاتبين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من اسناد القول إلى المباشرين خاصة بتقدير المضاف أى قال منافقوهم (ءَامَنَّا) لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعت النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة وعلموا أنه النبى المبشر به وإنما لم يصرح به تعويلا على شهادة التوبيخ الآتى (وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ) أى بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أى إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين (إِلَى بَعْضٍ) آخر منهم وهم منافقوهم بحيث لم يبق معهم غيرهم وهذا نص على اشتراك الساكتين فى لقاء المؤمنين كما أشير اليه آنفا إذ الخلو إنما يكون بعد الاشتغال ولأن عتابهم معلق بمحض الخلو ولولا أنهم حاضرون عند المقاولة لوجب أن يجعل سماعهم لها من تمام الشرط ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ما أتوا من السكوت ثم العتاب (قالوا) أى الساكتون موبخين لمنافقيهم على ما صنعوا (أَتُحَدِّثُونَهُمْ) يعنون المؤمنين (بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) ما موصولة والعائد محذوف أى بينه لكم خاصة فى التوراة من نعت النبى صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للايذان بأنه سر مكنون وباب مغلق لا يقف عليه أحد وتجويز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم اراءة للتصلب فى دينهم

كما ذهب اليه عصابة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل واللام فى قوله عز وجل (لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ) متعلقة بالتحديث دون الفتح والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ فان التحديث بذلك وإن كان منكرا فى نفسه لكن التحديث به لأجل هذا الغرض مما لا يكاد يصدر عن العاقل أى أتحدثونهم بذلك ليحتجوا عليكم به فيبكتوكم والمحدثون به وإن لم يحوموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعا له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهارا لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم (عِندَ رَبِّكُم) أى فى حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا أى فى كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيامة ورد عليه بأن الاخفاء لا يدفعه إذهم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدثوا به أو لم يحدثوا والاعتذار بأن الزام المؤمنين إياهم وتبكيتهم بأن يقولوا لهم ألم تحدثونا بما فى كتابكم فى الدنيا من حقية ديننا وصدق نبينا أفحش فيجوز أن يكون المحذور عندهم هذا الإلزام بارجاع الضمير فى به الى التحديث دون المحدث به ولا ريب فى أنه مدفوع بالاخفاء لا تساعده الآية الكريمة الآتية كما ستقف عليه باذن الله عز وجل (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) من تمام التوبيخ والعتاب والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئا من الأشياء التى من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل هذا وأما ما قيل من أنه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى أفتطمعون والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم فى ايمانهم فيأباه قوله تعالى (أَوَلَا يَعْلَمُونَ) فانه إلى آخره تجهيل لهم من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون ايراد خطاب المؤمنين فى أثنائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على أن فى تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفى تعميمه للنبى أيضا صلى الله عليه وسلم كما فى أفتطمعون من سوء الأدب ما لا يخفى والهمزة للانكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق اليه الذهن والضمير للموبخين أى أيلومونهم على التحديث المذكور مخافة المحاجة ولا يعلمون (أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ) أى يسرونه فيما بينهم من المؤمنين أو ما يضمرونه فى قلوبهم فيثبت الحكم فى ذلك بالطريق الأولى (وَمَا يُعْلِنُونَ) أى يظهرونه للمؤمنين أو لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى للمؤمنين ما أرادوا اخفاءه بواسطة الوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فتحصل المحاجة ويقع التبكيت كما وقع فى آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم فأى فائدة فى اللوم والعتاب ومن ههنا تبين أن المحذور عندهم هو المحاجة بما فتح الله عليهم وهى حاصلة فى الدارين حدثوا به أم لا لا بالتحديث به حتى يندفع بالاخفاء وقيل الضمير للمنافقين فقط أو لهم وللموبخين أو لآبائهم المحرفين أى أيفعلون ما يفعلون ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ومن جملته إسرارهم الكفر وإظهارهم الايمان وإخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره وكتم أمر الله وإظهار ما أظهروه افتراء وإنما قدم الاسرار على الاعلان للايذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة فى بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما فى الحقيقة على السوية فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة ونظيره قوله عز وعلا قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء لما ذكر من السر على عكس ما وقع فى قوله تعالى وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فان الأصل فى تعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية ويجوز أن يكون ذلك باعتبار ان مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شىء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب يتعلق به الاسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ) وقرىء بتخفيف

الياء جمع أمي وهو من لا يقدر على الكتابة والقراءة واختلف فى نسبته فقيل إلى الأم بمعنى أنه شبيه بها فى الجهل بالكتابة والقراءة فانهما ليستا من شؤون النساء بل من خلال الرجال أو بمعنى أنه على الحالة التى ولدته أمه فى الخلو عن العلم والكتابة وقيل إلى الأمة بمعنى أنه باق على سذاجتها خال عن معرفة الأشياء كقولهم عامى أى على عادة العامة روى عن عكرمة والضحاك أن المراد بهم نصارى العرب وقيل هم قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين وعن على رضى الله عنه هم المجوس والحق الذى لا محيد عنه أنهم جهلة اليهود والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائحهم اثر بيان شنائع الطوائف السالفة وقيل هى معطوفة على الجملة الحالية فان مضمونها مناف لرجاء الخير منهم وإن لم يكن فيه ما يحسم مادة الطمع عن إيمانهم كما فى مضمون الجملة الحالية وما بعدها فان الجهل بالكتاب فى منافاة الايمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع من الأولين أو النفاق والنهى عن إظهار ما فى التوراة كما وقع من الفرقتين الأخريين أى ومنهم طائفة جهلة غير قادرين على الكتابة والتلاوة (لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ) أى لا يعرفون التوراة ليطالعوها ويتحققوا ما فى تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا وحمل الكتاب على الكتابة يأباه سباق النظم الكريم وسياقه (إِلَّا أَمَانِىَّ) بالتشديد وقرىء بالتخفيف جمع أمنية أصلها أمنوية أفعولة من منى بمعنى قدر أو بمعنى تلا كتمنى فى قوله : تمنى كتاب الله فى أول ليله   فأعلت أعلال سيد وميت   ومعناها على الأول ما يقدره الإنسان فى نفسه ويتمناه وعلى الثانى ما يتلوه وعلى التقديرين فالاستثناء منقطع إذ ليس ما يتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب أى لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أمانى حسبما منتهم أحبارهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وغير ذلك من أمانيهم الفارغة المستندة إلى الكتاب على زعم رؤسائهم أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه وأما حمل الامانى على الاكاذيب المختلفة على الاطلاق من غير أن يكون لها ملابسة بالكتاب فلا يساعده النظم الكريم (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم فانى يرجى منهم الايمان المؤسس على قواعد اليقين ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الأمانى واتباع الظن عقب ببيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة وبكشف كيفية إضلالهم وتعيين مرجع الكل بالآخرة فقيل على وجه الدعاء عليهم (فَوَيْلٌ) هو وأمثاله من ويح وويس وويب وويه وويك وعول من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها لا يجوز إظهارها البتة فان أضيف نصب نحو ويلك وويحك وإذا فصل عن الإضافة رفع نحو ويل له ومعنى الويل شدة الشر قاله الخليل وقال الاصمعى الويل التفجع والويح الترحم وقال سيبويه ويل لمن وقع فى الهلكة وويح زجر لمن أشرف على الهلاك وقيل الويل الحزن وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق وقيل ويل فى الدعاء عليه وويح وما بعده فى الترحم عليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما الويل العذاب الاليم وعن سفيان الثورى أنه صديد أهل جهنم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره وقال سعيد بن المسيب انه واد فى جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حره وقال ابن بريدة جبل قيح ودم وقيل صهريج فى جهنم وحكى الزهراوى انه باب من أبواب جهنم وعلى كل حال فهو مبتدأ خبره قوله عز وعلا (لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ) أى المحرف أو ما كتبوه من التأويلات الزائغة (بِأَيْدِيهِمْ) تأكيد لدفع توهم المجاز كقولك كتبته بيمينى (ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا) أى جميعا على الاول وبخصوصه على الثانى (مِنْ عِندِ اللَّهِ) روى أن احبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا فى تعويق اسافل اليهود عن الإيمان فعمدوا إلى صفة النبى صلى الله عليه وسلم

فى التوراة وكانت هى فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر فاذا سألهم سلفتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالف لصفته عليه السلام فيكذبونه وثم للتراخى الرتبى فان نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتاويل (لِيَشْتَرُوا بِهِ) أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته (ثَمَنًا) هو ما أخذوه من الرشى بمقابلة ما فعلوا من التحريف والتأويل وإنما عبر عن المشترى الذى هو المقصود بالذات فى عقد المعاوضة بالثمن الذى هو وسيلة فيه إيذانا بتعكيسهم حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلة والوسيلة مقصودا بالذات (قَلِيلًا) لا يعبأ به فان ذلك وإن جل فى نفسه فهو أقل قليلا عند ما استوجبوا به من العذاب الخالد (فَوَيْلٌ لَهُمْ) تكريم لما سبق للتأكيد وتصريح بتعليله بما قدمت أيديهم بعد الاشعار به فيما سلف بايراد بعضه فى حيز الصلة وبعضه فى معرض الغرض والفاء للإيذان بترتبه عليه ومن فى قوله عز وجل (مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) تعليلية متعلقة بويل أو بالاستقرار فى الخبر وما موصولة اسمية والعائد محذوف أو كتبته أو مصدرية والأول أدخل فى الزجر عن تعاطى المحرف والثانى فى الزجر عن التحريف (وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) الكلام فيه كالذى فيما قبله والتكرير لما مر من التأكيد والتشديد والقصد إلى التعليل بكل من الجانبين وعدم التعرض لقولهم هذا من عند الله لما أنه من مبادى ترويج ما كتبت أيديهم فهو داخل فى التعليل به (وَقَالُوا) بيان لبعض آخر من جناياتهم وفصله عما قبله مشعر بكونه من الأكاذيب التى اختلقوها ولم يكتبوها فى الكتاب (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ) فى الآخرة (إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) قليلة محصورة عدد أيام عبادتهم العجل أربعين يوما مدة غيبة موسى عليه السلام عنهم وحكى الأصمعى عن بعض اليهود أن عدد أيام عبادتهم العجل سبعة وروى عن ابن عباس ومجاهد أن اليهود قالوا عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما واحدا وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود زعمت أنهم وجدوا فى التوراة أن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم وأنهم يقطعون فى كل يوم مسيرة سنة فيكملونها (قُلْ) تبكيتا لهم وتوبيخا (أَتَّخَذْتُمْ) بإسقاط الهمزة المجتلبة لوقوعها فى الدرج وبإظهار الذال وقرىء بإدغامها فى التاء (عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا) خبرا أو وعدا بما تزعمون فان ما تدعون لا يكون الا بناء على وعد قوى ولذلك عبر عنه بالعهد (فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ) الفاء فصيحة معربة شرط محذوف كما فى قول من قال :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أى إن كان الأمر كذلك فلن يخلفه والجملة اعتراضية وإظهار الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فان عدم الاخلاف من قضية الألوهية وإظهار العهد مضافا إلى ضميره عز وجل لما ذكر أو لأن المراد به جميع عهوده لعمومه بالاضافة فيدخل فيه العهد المعهود دخولا أوليا وفيه تجاف عن التصريح بتحقق مضمون كلامهم وإن كان معلقا بما لم يكد يشم رائحة الوجود قطعا أعنى اتخاذ العهد (أَمْ تَقُولُونَ) مفترين (عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وقوعه وإنما علق التوبيخ بإسنادهم اليه سبحانه ما لا يعلمون وقوعه مع أن ما أسندوه اليه تعالى من قبيل ما يعلمون عدم وقوعه للمبالغة فى التوبيخ والنكير فان التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الأعلى بالطريق الأولى وقولهم المحكى وإن لم يكن تصريحا بالافتراء عليه سبحانه لكنه مستلزم له لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه اليه تعالى وأم إما متصلة والاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبكيت لتحقق العلم بالشق الأخير كأنه قيل أم لم تتخذوه بل تتقولون عليه تعالى واما منقطعة والاستفهام لإنكار الاتخاذ ونفيه ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ بالانكار على اتخاذ العهد إلى ما تفيد همزتها من التوبيخ على التقول على الله سبحانه كما فى قوله عز وجل قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون (بَلَى) إلى آخره جواب

عن قولهم المحكى وإبطال له من جهته تعالى وبيان لحقيقة الحال تفصيلا فى ضمن تشريع كلى شامل لهم ولسائر الكفرة بعد إظهار كذبهم إجمالا وتفويض ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم لما أن المحاجة والالزام من وظائفه عليه السلام مع ما فيه من الاشعار بأنه أمر هين لا يتوقف على التوقيف وبلى حرف إيجاب مختص بجواب النفى خبرا واستفهاما (مَن كَسَبَ سَيِّئَةً) فاحشة من السيئات أى كبيرة من الكبائر كدأب هؤلاء الكفرة والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على طريقة فبشرهم بعذاب أليم (وَأَحَاطَتْ بِهِ) من جميع جوانبه بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه إلا وقد اشتملت واستولت عليه (خَطِيئَتُهُ) التى كسبها وصارت خاصة من خواصه كما ينبىء عنه الاضافة اليه وهذا إنما يتحقق فى الكافر ولذلك فسرها السلف بالكفر حسبما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم وابن جرير عن أبى وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع وقيل السيئة الكفر والخطيئة الكبيرة وقيل بالعكس وقيل الفرق بينهما أن الأولى قد تطلق على ما يقصد بالذات والثانية تغلب على ما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ وقرىء خطيته وخطياته على القلب والادغام فيهما وخطيئاته وخطاياه وفى ذلك إيذان بكثرة فنون كفرهم (فَأُولَٰئِكَ) مبتدأ (أَصْحَابُ النَّارِ) خبره والجملة خبر للمبتدأ والفاء لتضمنه معنى الشرط وإيراد اسم الاشارة المنبىء عن استحضار المشار اليه بماله من الأوصاف للاشعار بعليتها لصاحبية النار وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والخطايا وإنما أشير اليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى فى كلمة من بعد مراعاة جانب اللفظ فى الضمائر الثلاثة لما أن ذلك هو المناسب لما أسند اليهم فى تينك الحالتين فان كسب السيئة وأحاطت خطيئته به فى حالة الانفراد وصاحبية النار فى حالة الاجتماع أى أولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات واحاطة خطاياهم بهم أصحاب النار أى ملازموها فى الآخرة حسب ملازمتهم فى الدنيا لما يستوجبها من الأسباب التى من جملتها ما هم عليه من تكذيب آيات الله تعالى وتحريف كلامه والافتراء عليه وغير ذلك وإنما لم يخص الجواب بحالهم بأن يقال مثلا بلى انهم أصحاب النار الخ لما فى التعميم من التهويل وبيان حالهم بالبرهان والدليل مع ما مر من قصد الاشعار بالتعليل (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) دائما أبدا فأنى لهم التفصى عنها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا فلا حجة فى الآية الكريمة على خلود صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولا حاجة إلى حمل الخلود على اللبث الطويل على أن فيه تهوين الخطب فى مقام التهويل (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) جرت السنة الالهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة فى إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى والتبشير مرة والانذار أخرى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) شروع فى تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود مما ينادى بعدم إيمان أخلافهم وكلمة إذ نصب بإضمار فعل خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليؤديهم التأمل فى أحوالهم إلى قطع الطمع عن إيمانهم أو اليهود الموجودون فى عهد النبوة توبيخا لهم بسوء صنيع أسلافهم أى اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) على إرادة القول أى وقلنا أو قائلين لا تعبدون الخ وهو إخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد وكما تقول تذهب إلى فلان وتقول كيت وكيت وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهى حقه أن يسارع إلى الانتهاء عما نهى عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهى ويؤيده قراءة لا تعبدوا وعطف قولوا عليه وقيل تقديره أن لا تعبدوا الخ فحذف الناصب ورفع الفعل كما فى قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدى

ويعضده قراءة أن لا تعبدوا فيكون بدلا من الميثاق أو معمولا له بحذف الجار وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه

قيل وحلفناهم لاتعبدون إلا الله وقرىء بالياء لأنهم غيب (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) متعلق بمضمر أى وتحسنون أو احسنوا (وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ) عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم كندامى جمع نديم وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كأن الفقر أسكنه من الحراك وأثخنه عن التقلب (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) أى قولا حسنا سماه حسنا مبالغة وقرىء كذلك وحسنا بضمتين وهى لغة أهل الحجاز وحسنى كبشرى والمراد به مافيه تخلق وارشاد (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) هما مافرض عليهم فى شريعتهم (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) ان جعل ناصب الظرف خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفات إلى خطاب بنى اسرائيل جميعا بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة فان الخطابات السابقة لأسلافهم محكية داخلة فى حيز القول المقدر قبل لاتعبدون كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم فنعيت هى عليهم وان جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الاسلاف منزلة الاخلاف كما أنه تعميم للتولى بتنزيل الاخلاف منزلة الاسلاف للتشديد فى التوبيخ أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق ورفضتموه (إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ) وهم من الاسلاف من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن الاخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه (وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ) جملة تذييلية أى وأنتم قوم عادتكم الاعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق وأصل الاعراض الذهاب عن المواجهة والاقبال إلى جانب العرض (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) منصوب بفعل مضمر خوطب به اليهود قاطبة على ماذكر من التغليب ونعى عليهم اخلالهم بمواجب الميثاق المأخوذ منهم فى حقوق العباد على طريقة النهى اثر بيان مافعلوا بالميثاق المأخوذ منهم فى حقوق الله سبحانه ومايجرى مجراها على سبيل الأمر فان المقصود الأصلى من النهى عن عبادة غير الله تعالى هو الامر بتخصيص العبادة به تعالى أى واذكروا وقت أخذنا ميثاقكم فى التوراة وقوله تعالى (لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ) كما قبله اخبار فى معنى النهى غير السبك إليه لما ذكر من نكتة المبالغة والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى اسرائيل لبعض بالقتل والاجلاء والتعبير عن ذلك بسفك دماء أنفسهم واخراجها من ديارهم بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسبا ودينا للمبالغة فى الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهى عنه بصورة تكرهها كل نفس وتنفر عنها كل طبيعة فضمير أنفسكم للمخاطبين حتما إذ به يتحقق تنزيل المخرجين منزلتهم كما أن ضمير دياركم للمخرجين قطعا إذ المحذور إنما هو اخراجهم من ديارهم لامن ديار المخاطبين من حيث أنهم مخاطبون كما يفصح عنه ماسيأتى من قوله تعالى من ديارهم وإنما الخطاب ههنا باعتبار تنزيل ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناء على تنزيل أنفسهم منزلتهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع واماضمير دماءكم فيحتمل للوجهين مفاد الأول كون المسفوك دماء ادعائية للمخاطبين حقيقة ومفاد الثانى كونه دماء حقيقية للمخاطبين أدعاء وهما متقاربان فى إفادة المبالغة فتدبر وأما ماقيل من أن المعنى لاتباشروا مايؤدى إلى قتل أنفسكم قصاصا ومايبيح سفك دمائكم واخراجكم من دياركم أو لاتفعلوا مايرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فانه القتل فى الحقيقة ولاتقترفوا ماتحرمون به عن الجنة التى هى داركم فانه الجلاء الحقيقى فمما لايساعده سياق النظم الكريم بل هو نص فيما قلناه كما ستقف عليه (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ) أى بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه (وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) توكيد للاقرار كقولك أقر فلان شاهداً على نفسه وأنتم أيها الحاضرون تشهدون اليومَ على اقرار أسلافكم بهذا الميثاق (ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ) خطاب خاص بالحاضرين فيه توبيخ شديد واستبعاد قوى لما ارتكبوه بعد ماكان من الميثاق والاقرار به والشهادة عليه فانتم مبتدأ وهؤلاء خبره ومناط الافادة اختلاف الصفات المنزل منزلة اختلاف

الذات والمعنى أنتم بعدذلك هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون حسبما تعرب عنه الجمل الآتية فان قوله عز وجل (تَقتلونَ أنفُسَكُم) الخ بيان له وتفصيل لأحوالهم المنكرة المندرجة تحت الاشارة ضمنا كأنهم قالوا كيف نحن فقيل تقتلون أنفسكم أى الجارين مجرى أنفسكم كما أشير إليه وقرىء تقتلون بالتشديد للتكثير (وتُخرِجونَ فريقاً منكُم) الضمير اما للمخاطبين والمضاف محذوف أى من أنفسكم واما للمقتولين والخطاب باعتبار أنهم جعلوا أنفس المخاطبين وإلا فلا يتحقق التكافؤ بين المقتولين والمخرجين فى ذلك العنوان الذى عليه يدور فلك المبالغة فى تأكيد الميثاق حسبما نص عليه ولا يظهر كمال قباحة جنايتهم فى نقضه (مِن دِيٰرِهِم) الضمير للفريق وإيثار الغيبة مع جواز الخطاب أيضا بناء على اعتبار العنوان المذكور كما مر فى الميثاق للاحتراز عن توهم كون المراد اخراجهم من ديار المخاطبين من حيث هى ديارهم لا من حيث هى ديار المخرجين وقيل هؤلاء موصول والجملتان فى حيز الصلة والمجموع هو الخبر لانتم (تظٰهرُونَ عليهِم) بحذف إحدى التاءين وقرىء باثباتهما وبالادغام وتظهرون بطرح إحدى التاءين من تظهرون ومعنى الكل تتعاونون وهى حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو منهما جميعا مبينة لكيفية الاخراج دافعة لتوهم اختصاص الحرمة بالاخراج بطريق الاصالة والاستقلال دون المظاهرة والمعاونة (بالإثم) متعلق بتظاهرون حال من فاعله أى ملتبسين بالاثم وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم وقيل هو ماينفر عنه النفس ولا يطمئن إليه القلب (والعُدوٰنِ) وهو التجاوز فى الظلم (وَإن يأتُوكُم أُسٰرىٰ) جمع أسير وهو من يؤخذ قهرا فعيل بمعنى مفعول من الأسر أى الشد أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح وقد قرىء أسرى ومحله النصب على الحالية (تُفٰدوهُم) أى تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء وقرىء تفدوهم قال السدى ان الله تعالى أخذ على بنى اسرائيل فى التوراة الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى اسرائيل فاشتروه واعتقوه وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج حين كان بينهما ما كان من العداوة والشنآن فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فاذا غلبوا اخربوا ديارهم وأخرجوهم منها ثم إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا فيفدونه فعيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ولكن نستحيى أن نذل حلفاءنا فذمهم الله تعالى على المناقضة (وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُم إخرٰجُهُم) هو ضمير الشأن وقع مبتدأ ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبرا من اخراجهم والجملة خبر لضمير الشأن وقيل محرم خبر لضمير الشأن واخراجهم مرفوع على أنه مفعول مالم يسم فاعله وقيل الضمير مبهم يفسره اخراجهم أو راجع إلى مايدل عليه تخرجون من المصدر واخراجهم تأكيد أو بيان والجملة حال من الضمير فى تخرجون أو من فريقا أو منهما كما مر بعد اعتبار القيد بالحال السابقة وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالاخراج مع كونه قرينا للقتل عند أخذ الميثاق لكونه مظنة للمساهلة فى أمره بسبب قلة خطره بالنسبة إلى القتل ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معا وذلك مختص بصورة الاخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشىء من دية أو قصاص هو السر فى تخصيص التظاهر به فيما سبق وأما تأخيره من الشرطية المعترضة مع أن حقه التقديم كما ذكره الواحدى فلأن نظم أفاعيلهم المتناقضة فى سمط واحد من الذكر أدخل فى إظهار بطلانها (أفتُؤمِنونَ ببعضِ الكِتٰبِ) أى التوراة التى أخذ فيها الميثاق المذكور والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام أى أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب وهو المفاداة (وَتكفُرونَ ببعضٍ) وهو حرمة القتال والاخراج مع أن من قضية الايمان ببعضه الايمان بالباقى لكون الكل من عند الله تعالى داخلا فى الميثاق فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع ايمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيب النظم

الكريم فان التقديم يستدعى فى المقام الخطابى اصالة المقدم وتقدمه بوجه من الوجوه حتما وإذ ليس ذلك ههنا باعتبار الإنكار والتوبيخ عليه وهو باعتبار الوقوع قطعا لا إيمانهم بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهوم لو قيل أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ولا بمجرد كفرهم بالبعض وإيمانهم بالبعض كما يفيده أن يقال أفتجمعون بين الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض أو بالعكس (فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ) ما نافية ومن إن جعلت موصولة فلا محل ليفعل من الإعراب وإن جعلت موصوفة فمحله الجر على أنه صفتها وذلك إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب مع الايمان ببعض أو إلى ما فعلوا من القتل والإجلاء مع مفاداة الأسارى (مِنكُمْ) حال من فاعل يفعل (إِلَّا خِزْيٌ) استثناء مفرغ وقع خبرا للمبتدا والخزى الذل والهوان مع الفضيحة والتنكير للتفخيم وهو قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام وقيل الجزية (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فى حيز الرفع على أنه صفة خزى أى خزى كائن فى الحياة الدنيا أو فى حيز النصب على أنه ظرف لنفس الخزى ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات ايمانهم ببعض الكتاب وإظهار أنه لا أثر له أصلا مع الكفر ببعض (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ) وقرىء بالتاء أو بصيغة الجمع نظر إلى معنى من بعد ما أوثر الافراد نظر إلى لفظها لما أن الرد إنما يكون بالاجتماع (إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ) لما أن معصيتهم أشد المعاصى وقيل اشد العذاب بالنسبة إلى ما لهم فى الدنيا من الخزى والصغار وإنما غير سبك النظم الكريم حيث لم يقل مثلا وأشد العذاب يوم القيامة للايذان بكمال التنافى بين جزاءى النشأتين وتقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطب وتفظيع الحال من أول الأمر (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) من القبائح التى من جملتها هذا المنكر وقرىء بالياء على نهج يردون وهو تأكيد للوعيد (أُولَٰئِكَ) الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الَّذِينَ اشْتَرَوُا) أى آثروا (الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) واستبدلوها (بِالْآخِرَةِ) وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها فان ما ذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم لما يعود اليهم منهم من بعض المنافع الدنية الدنيوية (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ) دنيويا كان أو أخرويا (وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) بدفعه عنهم شفاعة أو جبرا والجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية أو ينصرون مفسر لمحذوف قبل الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به والمراد بالكتاب التوراة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن التوراة لما نزلت جملة واحدة أمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق بذلك فبعث الله بكل حرف منها ملكا فلم يطيقوا بحملها فخففها الله تعالى لموسى عليه السلام فحملها (وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) يقال قفاه به إذا أتبعه اياه أى أرسلناهم على أثره كقوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى وهم يوشع واشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام (وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ) المعجزات الواضحات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والاخبار بالمغيبات أو الانجيل وعيسى بالسريانية ايشوع ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة :

قلت لزير لم تصله مريمه   ضليل أهواء الصبا تندمه

ووزنه مفعل إذ لم يثبت فعيل (وَأَيَّدْنَاهُ) أى قويناه وقرىء وآيدناه (بِرُوحِ الْقُدُسِ) بضم الدال وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة وهى روح عيسى عليه السلام كقولك حاتم الجود ورجل صدق وإنما وصفت بالقدس لكرامته أو لأنه عليه السلام لم تضمه الأصلاب ولا أرحام الطوامث وقيل بجبريل عليه السلام وقيل بالانجيل كما قيل فى القرآن

روحا من أمرنا وقيل باسم الله الأعظم الذى كان يحيى الموتى بذكره وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثتهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها وأما عيسى عليه السلام فقد نسخ بشرعه كثير من أحكامها ولحسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ببيان حقيته وإظهار كمال قبح مافعلوا به عليه السلام (أفكلما جاءكم رسولٌ) من أولئك الرسل (بما لا تهوى أنفسكم) من الحق الذى لا محيد عنه أى لا تحبه من هوى كفرح إذا أحب والتعبير عنه بذلك للايذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لا شىء آخر وتوسيط الهمزة بين الفاء وما تعلقت به من الأفعال السابقة لتوبيخهم على تعقيبهم ذلك بهذا وللتعجيب من شأنهم ويجوز كون الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام أى ألم تطيعوهم فكلما جاءكم رسول منهم بما لا تهوى أنفسكم (استكبرتم) عن الاتباع له والايمان بما جاء به من عند الله تعالى (ففريقاً) منهم (كذبتم) من غير أن تتعرضوا لهم بشىء آخر من المضار والفاء للسببية أو للتعقيب (وفريقاً) آخر منهم (تقتلون) غير مكتفين بتكذيبهم كزكريا ويحيى وغيرهما عليهم السلام وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر وإيثار صيغة الاستقبال فى القتل لاستحضار صورته الهائلة أو للايماء إلى أنهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام وسحروه وسمموا له الشاة حتى قال صلى الله عليه وسلم مازالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت ابهرى (وقالوا) بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعارا بابعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للاعراض عنهم وحكاية نظائرها لكل من يفهم بطلانها وقباحتها من أهل الحق والقائلون هم الموجودون فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام (قلوبنا غلفٌ) جمع أغلف مستعار من الأغلف الذى لم يختن أى مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل اليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف ويؤيده ماروى عن أبى عمرو من القراءة بضمتين يعنون أن قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبى يعنون أن قلوبنا لا يصل اليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضا (بل لعنهم الله بكفرهم) رد لما قالوه وتكذيب لهم فى ذلك والمعنى على الأول بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذلهم وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض وإبطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة وكونهم بحيث لا ينفعهم الالطاف أصلا بعد أن خلقهم على الفطرة والتمكن من قبول الحق وعلى الثانى بل أبعدهم من رحمته فأنى لهم ادعاء العلم الذى هو أجل آثارها وعلى الثالث بل أبعدهم من رحمته فلذلك لا يقبلون الحق المؤدى إليها (فقليلاً ما يؤمنون) ما مزيدة للمبالغة أى فايمانا قليلا يؤمنون وهو إيمانهم ببعض الكتاب وقيل فزمانا قليلا يؤمنون وهو ماقالوا آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره وكلاهما ليس بايمان حقيقة وقيل أريد بالقلة العدم والفاء لسببية اللعن لعدم الايمان (ولما جاءهم كتابٌ) هو القرآن وتنكيره للتفخيم ووصفه بقوله عز وجل (من عند الله) أى كائن من عنده تعالى للتشريف (مصدقٌ لما معهم) من التوراة عبر عنها بذلك لما أن المعية من موجبات الوقوف على ما فى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكونه مصدقا لها وقرىء مصدقا على أنه حال من كتاب لتخصصه بالوصف (وكانوا من قبلُ) أى من قبل مجيئه (يستفتحون على الذين كفروا) أى وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم قال ابن عباس وقتادة والسدى نزلت فى بنى قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله

صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وقيل يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم بأن نبيا يبعث منهم قد قرب أوانه والسين للمبالغة كما فى استعجب أى يسألون من أنفسهم الفتح عليهم أو يسأل بعضهم بعضا أن يفتح عليهم وعلى التقديرين فالجملة حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم وقوله عز وعلا (فلما جاءهم) تكرير للاول لطول العهد بتوسط الجملة الحالية وقوله تعالى (ما عرفوا) عبارة عما سلف من الكتاب لأن معرفة من أنزل هو عليه معرفة له والاستفتاح به استفتاح به وإيراد الموصول دون الاكتفاء بالاضمار لبيان كمال مكابرتهم فان معرفة ما جاءهم من مبادى الإيمان به ودواعيه لا محالة والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له وقوله تعالى (كفروا به) جواب لما الأولى كما هو رأى المبرد أو جوابهما معا كما قاله أبو البقاء وقيل جواب الأولى محذوف لدلالة المذكور عليه فيكون قوله تعالى وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية عطف القصة على القصة والمراد بما عرفوا النبى صلى الله عليه وسلم كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به فالمعنى ولما جاءهم كتاب مصدق لكتابهم كذبوه وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم النبى الذى عرفوه كفروا به (فلعنة الله على الكفرين) اللام للعهد أى عليهم ووضع المظهر موضع المضمر للاشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم كما أن الفاء للايذان بترتبها عليه أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا إذ الكلام فيهم وأيا ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى بل لعنهم الله بكفرهم (بئسما اشتروا به أنفسهم) ما نكرة بمعنى شىء منصوبة مفسرة لفاعل بئس واشتروا صفته أى بئس شيئا باعوا به أنفسهم وقيل اشتروها به فى زعمهم حيث يعتقدون أنهم بما فعلوا خلصوها من العقاب ويأباه أنه لا بد أن يكون المذموم ما كان حاصلا لهم لا ما كان زائلا عنهم والمخصوص بالذم قوله تعالى (أن يكفروا بما أنزل الله) أى بالكتاب المصدق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته وتبديل الانزال بالمجىء للايذان بعلو شأنه الموجب للايمان به (بغيا) حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة لأن يكفروا حتما دون اشتروا لما قيل من الفصل بما هو أجنبى بالنسبة اليه وإن لم يكن أجنبيا بالنسبة إلى فعل الذم وفاعله ولأن البغى مما لا تعلق له بعنوان البيع قطعا لاسيما وهو معلل بما سيأتى من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وإنما الذى بينه وبينه علاقة هو كفرهم بما أنزل الله والمعنى بئس شيئا باعوا به أنفسهم كفرهم المعلل بالبغى الكائن لأجل (أن ينزل الله من فضله) الذى هو الوحى (على من يشاء) أى يشاؤه ويصطفيه (من عباده) المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة ومآله تعليل كفرهم بالمنزل بحسدهم للمنزل عليه وإيثار صيغة التفعيل ههنا للايذان بتجدد بغيهم حسب تجدد الانزال وتكثره حسب تكثره (فباءو بغضب على غضب) أى رجعوا ملتبسين بغضب كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا من كفر على كفر فانهم كفروا بنبى الحق وبغوا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى وقيل بعد قولهم عزير بن الله وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم (وللكفرين) أى لهم والاظهار فى موقع الاضمار للاشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم (عذاب مهين) يراد به إهانتهم وإذلالهم لما أن كفرهم بما أنزل الله تعالى كان مبنيا على الحسد المبنى على طمع المنزول عليهم وادعاء الفضل على الناس والاستهانة بمن أنزل عليه عليه السلام (وإذا قيل) من جانب المؤمنين (لهم) أى لليهود وتقديم الجار والمجرور قد مر وجهه لاسيما فى لام التبليغ (ءامنوا بما أنزل الله) من الكتب الالهية جميعا والمراد به الأمر بالايمان بالقرآن لكن سلك مسلك التعميم إيذانا بتحتم الامتثال من حيث مشاركته لما آمنوا به فيما فى حيز الصلة وموافقته له فى المضمون وتنبيها على أن الايمان بما عداه من غير إيمان به ليس بإيمان بما أنزل الله (قالوا نؤمن) أى نستمر على الايمان (بما أنزل علينا) يعنون به التوراة وما نزل على أنبياء بنى اسرائيل لتقرير حكمها ويدسون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم ومرادهم بضمير المتكلم اما أنفسهم فمعنى الانزال عليهم تكليفهم

بما فى المنزل من الأحكام وأما أنبياء بنى إسرائيل وهو الظاهر لاشتماله على مزية الايذان بأن عدم إيمانهم بالفرقان لما مر من بغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ولأن مرادهم بالموصول وإن كان هو التوراة وما فى حكمها خاصة لكن إيرادها بعنوان الانزال عليهم مبنى على ادعاء أن ما عداها ليس كذلك على وجه التعريض كما أشير اليه فلو أريد بالانزال عليهم ما ذكر من تكليفهم يلزم من مغايرة القرآن لما أنزل عليهم حسبما يعرب عنه قوله عز وجل (وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ) عدم كونهم مكلفين بما فيه كما يلزم عدم كونه نازلا على واحد من بنى إسرائيل على الوجه الأخير وتجريد الموصول عند الاضمار عما عرضوا به تعسف لا يخفى والوراء فى الأصل مصدر جعل ظرفا ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو أمامه والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير مبتدأ أى قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المراد بمجرد بيان أن انفراد إيمانهم بما أنزل عليهم بالذكر لنفى إيمانهم بما وراءه بل بيان أن ما يدعون من الايمان ليس بإيمان بما أنزل عليهم حقيقة فان قوله عز اسمه (وَهُوَ الْحَقُّ) أى المعروف بالحقية الحقيق بأن يخص به اسم الحق على الاطلاق حال من فاعل يكفرون وقوله تعالى (مُصَدِّقاً) حال مؤكدة لمضمون الجملة صاحبها اما ضمير الحق وعاملها ما فيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء واما ضمير دل عليه الكلام وعاملها فعل مضمر أى أحقه مصدقا (لِمَا مَعَهُمْ) من التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال أنه حق مصدق لما آمنوا به فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ومآله أنهم ادعوا الايمان بالتوراة والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر به الكفر بها (قُلْ) تبكيتا لهم من جهة الله عز من قائل ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بعد بيان التناقض فى أقوالهم (فَلِمَ) أصله لما حذفت عنه الألف فرقا بين الاستفهامية والخبرية (تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ) الخطاب للحاضرين من اليهود والماضين على طريق التغليب وحيث كانوا مشاركين فى العقد والعمل كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضا على أخلافهم وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وهو جواب شرط محذوف أى قل لهم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون فلأى شىء كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام وقرىء أنبياء الله مهموزا وقوله تعالى (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) تكرير للاعتراض لتأكيد الالزام وتشديد التهديد أى ان كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة من الشرطيتين ما حذف ثقة بما أثبت فى الأخرى وقيل فيه بل تقديم الجواب على الشرط وذلك لا يتأتى الا على رأى الكوفيين وأبى زيد وقيل ان نافية أى ما كنتم مؤمنين وإلا لما قتلتموهم (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ) من تمام التبكيت والتوبيخ داخل تحت الأمر لا تكرير لما قص فى تضاعيف تعداد النعم التى من جملتها العفو عن عبادة العجل واللام للقسم أى والله لقد جاءكم موسى ملتبسا بالمعجزات الظاهرة التى هى العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقد عد منها التوراة وليس بواضح فان المجىء بها بعد قصة العجل (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ) أى الها (مِنْ بَعْدِهِ) أى من بعد مجيئه بها وقيل من بعد ذهابه إلى الطور فتكون التوراة حينئذ من جملة البينات وثم للتراخى فى الرتبة والدلالة على نهاية قبح ما صنعوا (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) حال من ضمير اتخذتم بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته واضعين لها فى غير موضعها أو بالاخلال بحقوق آيات الله تعالى أو اعتراض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم فى ادعائهم الايمان بما أنزل عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم أى واذكروا حين أخذنا ميثاقكم (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) قائلين (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا) أى خذوا بما أمرتم به فى التوراة واسمعوا ما فيها سمع طاعة وقبول (قَالُوا) استئناف مبنى على سؤال سائل كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا (سَمِعْنَا) قولك (وَعَصَيْنَا) أمرك

فاذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء وكفروا بما فى تضاعيف التوبة فكيف يتصور من أخلافهم الايمان بما فيها (وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه للمبالغة أى تداخلهم حبه ورسخ فى قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن وفى قلوبهم بيان لمكان الاشراب كما فى قوله تعالى إنما يأكلون فى بطونهم نارا والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد (بِكُفْرِهِمْ) بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك قيل كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن فى قلوبهم ما سول لهم السامرى (قُلْ) توبيخا لحاضرى اليهود اثر ما تبين أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون فى كل ما يأتون وما يذرون (بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ) بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدعون والمخصوص بالذم محذوف أى ما ذكر من قولهم سمعنا وعصينا وعبادتهم العجل وفى اسناد الأمر إلى الايمان تهكم بهم وإضافة الإيمان اليهم للايذان بأنه ليس بايمان حقيقة كما ينبىء عنه قوله تعالى (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) فانه قدح فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وابطال لها وتقريره إن كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذكر من القول والعمل بما فيها فبئسما يأمركم به إيمانكم بها واذ لا يسوغ الإيمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعا وجواب الشرط كما ترى محذوف لدلالة ما سبق عليه (قُلْ) كرر الأمر مع قرب العهد بالأمر السابق لما أنه أمر بتبكيتهم وإظهار كذبهم فى فن آخر من أباطيلهم لكنه لم يحك عنهم قبل الأمر بابطاله بل اكتفى بالاشارة اليه فى تضاعيف الكلام حيث قيل (إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ) أى الجنة أو نعيم الدار الآخرة (عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً) أى سالمة لكم خاصة بكم كما تدعون أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ونصبها على الحالية من الدار وعند ظرف للاستقرار فى الخبر أعنى لكم وقوله تعالى (مِّن دُونِ النَّاسِ) فى محل النصب بخالصة يقال خلص كذا من كذا واللام للجنس أى الناس كافة أو للعهد أى المسلمين (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ) فان من أيقن بدخول الجنة اشتاق إلى التخلص اليها من دارة البوار وقرارة الأكدار لا سيما إذا كانت خالصة له كما قال على كرم الله وجهه لا أبالى أسقطت على الموت أو سقط الموت على وقال عمار بن ياسر بصفين: الآن ألاقى الأحبه محمدا وحزبه

وقال حذيفة بن اليمانى حين احتضر وقد كان يتمنى الموت قبل: جاء حبيب على فاقة فلا أفلح اليوم من قد ندم

أى على التمنى وقوله تعالى (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) تكرير للكلام لتشديد الالزام وللتنبيه على أن ترتب الجواب ليس على تحقق الشرط فى نفس الأمر فقط بل فى اعتقادهم أيضا وانهم قد ادعوا ذلك والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أى إن كنتم صادقين فتمنوه وقوله تعالى (وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا) كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الاحجام عما دعوا اليه الدال على كذبهم فى دعواهم (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) بسبب ما عملوا من المعاصى الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبى عليه السلام والقرآن وتحريف التوراة ولما كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة صنائعه ومدار أكثر منافعه عبر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) أى بهم وإيثار الاظهار على الاضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى جميع الأمور التى من جملتها ادعاء ما ليس لهم ونفيه عن غيرهم والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه أى عليم بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية إلى أفانين العذاب وبما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى إلى ذلك فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد إذ لو وقع ذلك لنقل واشتهر وعن النبى صلى الله عليه وسلم لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه وما بقى يهودى على وجه الأرض (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ) من الوجدان العقلى وهو جار مجرى العلم خلا أنه

مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها ومفعولاه الضمير وأحرص والتنكير فى قوله تعالى (عَلَى حَيَوٰةٍ) للايذان بأن مرادهم نوع خاص منها وهى الحياة المتطاولة وقرىء بالتعريف (وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) عطف على ماقبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين أشركوا وإفرادهم بالذكر مع دخولهم فى الناس للايذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص للمبالغة فى توبيخ اليهود فان حرصهم وهم معترفون بالجزاء لما كان أشد من حرص المشركين المنكرين له دل ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار ويجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقة بانباء المعطوف عليه عنه أى وأحرص من الذين أشركوا فقوله تعالى (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ) بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف ويجوز أن يكون فى حيز الرفع صفة لمبتدأ محذوف خبره الظرف المتقدم على أن يكون المراد بالمشركين اليهود لقولهم عزير ابن الله أى ومنهم طائفة يود أحدهم أيهم كان أى كل واحد منهم (لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) وهو حكاية لودادتهم كأنه قيل ليتنى أعمر وإنما أجرى على الغيبة لقوله تعالى يود كما تقول حلف بالله ليفعلن ومحله النصب على أنه مفعول يود اجراء له مجرى القول لأنه فعل قلبى (وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ) ما حجازية والضمير العائد على أحدهم اسمها وبمزحزحه خبرها والباء زائدة و(أَنْ يُعَمَّرَ) فاعل مزحزحه اى وما أحدهم بمن يزحزحه أى يبعده وينجيه من العذاب تعميره وقيل الضمير لما دل عليه يعمر من المصدر وأن يعمر بدل منه وقيل هو مبهم وأن يعمر مفسره والجملة حال من أحدهم والعامل يود لا يعمر على أنها حال من ضميره لفساد المعنى أو اعتراض وأصل سنة سنوة لقولهم سنوات وسنية وقيل سنهة كجبهة لقولهم سانهته وسنيهة وتسنهت النخلة إذا أتت عليها السنون (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) البصير فى كلام العرب العالم بكنه الشىء الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالفقه أى عليم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم بها لا محالة وقرىء بتاء الخطاب التفاتا وفيه تشديد للوعيد (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) نزل فى عبدالله بن صوريا من أحبار فدك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عمن نزل عليه بالوحى فقال عليه السلام جبريل عليه السلام فقال هو عدونا لو كان غيره لآمنا بك وفى بعض الروايات ورسولنا ميكائيل فلو كان هو الذى يأتيك لآمنا بك وقد عادانا مرارا وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بخت نصر فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا فدفع عنه جبريل عليه السلام وقال إن كان ربكم أمره بهلاككم فانه لا يسلطكم عليه وإلا فبأى حق تقتلونه وقيل أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا وروى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدارس اليهود فكان يجلس اليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وإنا لنطمع فيك فقال والله ما أجيئكم لحبكم ولا أسألكم لشك فى دينى وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن جبريل عليه السلام فقالوا ذاك هو عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل يجىء بالخصب والسلام فقال لهم وما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل أقرب منزلة هو عن يمينه وميكائيل عن يساره وهما متعاديان فقال عمر رضى الله عنه إن كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير ومن كان عدو أحدهما فهو عدو للآخر ومن كان عدوا لهما كان عدو الله سبحانه ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم لقد وافقك ربك يا عمر فقال عمر رضى الله عنه لقد رأيتنى فى دينى بعد ذلك أصلب من الحجر وقرىء جبرئيل كسلسبيل وجبرئل كجحمرش وجبريل وجبرئل وجبرائيل كجبراعيل وجبرائل كجبراعل ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة وقيل معناه عبدالله (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ) تعليل لجواب الشرط قائم مقامه والبارز الأول لجبريل عليه السلام والثانى للقرآن أضمر من غير ذكر إيذانا بفخامة شأنه واستغنائه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته لا سيما عند ذكر شىء من صفاته (عَلَى قَلْبِكَ)

زيادة تقرير للتنزيل ببيان محل الوحى فانه القابل الأول له ومدار الفهم والحفظ وإيثار الخطاب على التكلم المبنى على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لما فى النقل بالعبارة من زيادة تقرير لمضمون المقالة (بِإِذْنِ اللَّهِ) بأمره وتيسيره مستعار من تسهيل الحجاب وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله وصدق عزيمته عليه السلام وهو حال من فاعل نزله وقوله تعالى (مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أى من الكتب الالهية التى معظمها التوراة حال من مفعوله وكذا قوله تعالى (وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) والعامل فى الكل نزله والمعنى من عادى جبريل من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته بل يجب عليه محبته فانه نزل عليك كتابا مصدقا لكتبهم أو فالسبب فى عداوته تنزيله لكتاب مصدق لكتابهم موافق له وهم له كارهون ولذلك حرفوا كتابهم وجحدوا موافقته له لان الاعتراف بها يوجب الايمان به وذلك يستدعى انتكاس أحوالهم وزوال رياستهم وقيل ان الجواب فقد خلع ربقة الانصاف أو فقد كفر بما معه من الكتاب أو فليمت غيظاً أو فهو عدولى وأنا عدوله (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ) أريد بعداوته تعالى مخالفة أمره عنادا والخروج عن طاعته مكابرة أو عداوة خواصه ومقربيه لكن صدر الكلام بذكره الجليل تفخيما لشأنهم وايذانا بأن عداوتهم عداوته عز وعلا كما فى قوله عز وجل والله ورسوله أحق أن يرضوه ثم صرح بالمرام فقيل (وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) وإنما أفردا بالذكر مع أنهما أول من يشمله عنوان الملكية والرسالة لاظهار فضلهما كأنهما عليهما السلام من جنس آخر أشرف مما ذكر تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الجنس وللتنبيه على أن عداوة أحدهما عداوة للآخر حسما لمادة اعتقادهم الباطل فى حقهما حيث زعموا أنهما متعاديان وللاشارة إلى أن معاداة الواحد والكل سواء فى الكفر واستتباع العداوة من جهة الله سبحانه وأن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع وقوله تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) أى لهم جواب الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب وايثار الاسمية للدلالة على التحقق والثبات ووضع الكافرين موضع المضمر للايذان بأن عداوة المذكورين كفر وأن ذلك بين لايحتاج إلى الاخبار به وأن مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لأشد العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور وقرىء ميكائل كميكاعل وميكائيل كميكاعيل وميكئل كميكعل وميكئيل كميكعيل (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) واضحات الدلالة على معانيها وعلى كونها من عند الله عز وجل (وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن حدوده فان من ليس على تلك الصفة من الكفرة لايجترىء على الكفر بمثل هاتيك البينات قال الحسن إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماجئتنا بشىء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها فنزلت واللام للعهد أى الفاسقون المعهودون وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم الخارجون عن دينهم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا (أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا) الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكفروا بها وهى فى غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهدا ومن جملة ذلك ما أشير إليه فى قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا من قولهم للمشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وقرىء بسكون الواو على أن تقدير النظم الكريم وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهودهم مرارا كثيرة وقرىء عوهدوا وعهدوا وقوله تعالى عهدا إما مصدر مؤكد لعاهدوا من غير لفظه أو مفعول له على أنه بمعنى أعطوا العهد (نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) أى رموا بالزمام ورفضوه وقرىء نقضه واسناد النبذ إلى فريق منهم لأن منهم من لم ينبذه (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) أى بالتوراة وهذا دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون وأن

من لم ينبذ جهارا فهم يؤمنون بها سرا (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ) هو النبي صلى الله عليه وسلم والتنكير للتفخيم (مِنْ عِنْدِ اللهِ) متعلق بجاء أو بمحذوف وقع صفة لرسول لافادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية (مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) من التوراة من حيث أنه صلى الله عليه وسلم قرر صحتها وحقق حقية نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أنزل عليه أو من حيث أنه عليه السلام جاء على وفق ما نعت فيها (نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) أى التوراة وهم اليهود الذين كانوا فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا فى عهد سليمان عليه السلام كما قيل لأن النبذ عند مجىء النبي صلى الله عليه وسلم لا يتصور منهم وافراد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله عز وجل أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم لأنه معظم جناياتهم ولأنه تمهيد لذكر اتباعهم لما تتلو الشياطين وإيثارهم له عليه والمراد بإيتائها اما إيتاء علمها بالدراسة والحفظ والوقوف على ما فيها فالموصول عبارة عن علمائهم واما مجرد انزالها عليهم فهو عبارة عن الكل وعلى التقديرين فوضعه موضع الضمير للايذان بكمال التنافى بين ما أثبت لهم فى حيز الصلة وبين ما صدر عنهم من النبذ (كِتَابَ اللهِ) أى الذى أوتوه قال السدى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن فهذا قوله تعالى ولما جاءهم رسول من عند الله الخ وإنما عبر عنها بكتاب الله تشريفا لها وتعظيما لحقها عليهم وتهويلا لما اجترأوا عليه من الكفر بها وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول لا سيما بعد ما كانوا يستفتحون به من قبل فان ذلك قبول له وتمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه نبذا له كأنه قيل كتاب الله الذى جاء به فان مجىء الرسول معرب عن مجىء الكتاب (وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) مثل لتركهم واعراضهم عنه بالكلية مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات اليه (كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) جملة حالية أى نبذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لا يعلمه فان أريد بهم أحبارهم فالمعنى كأنهم لا يعلمونه على وجه الايقان ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ففيه إيذان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله أو لا يعلمونه أصلا كما اذا أريد بهم الكل وفى هذين الوجهين زيادة مبالغة فى اعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة هذا وان أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن فالمراد بالعلم المنفى فى قوله تعالى كأنهم لا يعلمون هو العلم بأنه كتاب الله ففيه ما فى الوجه الأول من الاشعار بأنهم متيقنون فى ذلك وإنما يكفرون به مكابرة وعنادا قيل ان جيل اليهود أربع فرق ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب وهم الأقلون المشار اليهم بقوله عز وجل بل أكثرهم لا يؤمنون وفرقة جاهروا بنبذ العهود وتعدى الحدود تمردا وفسوقا وهم المعنيون بقوله تعالى نبذه فريق منهم وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوها لجهلهم بها وهم الاكثرون وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ونبذوها خفية وهم المتجاهلون (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ) عطف على جواب لما أى نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التى كانت تقرأها الشياطين وهم المتمردون من الجن وتتلو حكاية حال ماضية والمراد بالاتباع التوغل والتمحض فيه والاقبال عليه بالكلية وإلا فأصل الاتباع كان حاصلا قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة وقيل على أشربوا (عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) أى فى عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك فى عهد سليمان عليه السلام حتى قيل إن الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وما تم له ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الانس والجن والطير والريح التى تجرى بأمره وقيل إن سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيرا من العلوم التى خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه فلما مضت على ذلك مدة توصل اليها قوم من المنافقين فكتبوا فى خلال ذلك أشياء من فنون السحر

تناسب تلك الأشياء المدفونة من بعض الوجوه ثم بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب أوهموهم أنه من عمل سليمان عليه السلام وأنه مابلغ هذا المبلغ الا بسبب هذه الأشياء (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ) تنزيه لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيب لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به والتعرض لكونه كفرا للمبالغة فى اظهار نزاهته عليه السلام وكذب باهتيه بذلك (وَلَٰكِنَّ الشَّيَٰطِينَ) وقرئ بتخفيف لكن ورفع الشياطين والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ماقبلها وكون المخففة عند الجمهور للعطف انما هو عند عدم الواو وكون مابعدها مفردا (كَفَرُوا) باستعمال السحر وتدوينه (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) اغواء واضلالا والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير كفروا أو من الشياطين فان مافى لكن من رائحة الفعل كاف فى العمل فى الحال أو فى محل الرفع على أنه خبر ثان للكن أو بدل من الخبر الأول وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار التعليم وتجدده أو جملة مستأنفة هذا على تقدير كون الضمير للشياطين وأما على تقدير رجوعه إلى فاعل اتبعوا فهى اما حال منه واما استئنافية فحسب واعلم أن السحر أنواع منها سحر الكلدانيين الذين كانوا فى قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى ابراهيم عليه الصلاة والسلام لابطال مقالتهم وهم ثلاث فرق ففرقة منهم يزعمون أن الافلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها وهم الصابئة وفرقة يقولون بالهية الافلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلا ويشتغلون بخدمتها وهم عبدة الاوثان وفرقة أثبتوا للافلاك والكواكب فاعلا مختارا لكنهم قالوا انه أعطاها قوة عالية نافذة فى هذا العالم وفوض تدبيره اليها ومنها سحر أصحاب الاوهام والنفوس القوية فانهم يزعمون أن الانسان تبلغ روحه بالتصفية فى القوة والتأثير إلى حيث يقدر على الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة وتغيير البنية والشكل ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن ومنها التخيلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة ولا خلاف بين الأمة فى أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد الثانى وهو سحر أصحاب الاوهام والنفوس القوية وأما من اعتقد أن الانسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرقى إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جريان العادة بعض الخوارق فالمعتزلة اتفقوا على أنه كافر لانه لايمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الأنبياء والرسل بخلاف غيرهم ولعل التحقيق أن ذلك الانسان ان كان خيرا متشرعا فى كل مايأتى ويذر وكان من يستعين به من الارواح الخيرة وكانت عزائمه ورقاه غير مخالفة لأحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيماظهر فى يده من الخوارق ضرر شرعى لأحد فليس ذلك من قبيل السحر وان كان شريرا غير متمسك بالشريعة الشريفة فظاهر أن من يستعين به من الارواح الخبيثة الشريرة لامحالة ضرورة امتناع تحقق التضام والتعاون بينهما من غير اشتراك فى الخبث والشرارة فيكون كافرا قطعا وأما الشعوذة ومايجرى مجراها من اظهار الامور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار فاطلاق السحر عليها بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لأنه فى الأصل عبارة عن كل مالطف مأخذه وخفى سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه فى أصل اللغة الصرف على ماحكاه الازهرى عن الفراء ويونس (وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ) عطف على السحر أى ويعلمونهم ما أنزل عليهما والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ماتتلو ومابينهما اعتراض أى واتبعوا ما أنزل الخ وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلى قوم طالوت بالنهر أو تمييزا بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس أو لأن السحرة كثرت فى ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله تعالى

هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين وإظهار أمرهم على الناس وأما ما يحكى من أن الملائكة عليهم السلام لما رأوا ما يصعد من ذنوب بنى آدم عيروهم وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين اخترتهم لخلافة الأرض يعصونك فيها فقال عز وجل لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم لعصيتمونى قالوا سبحانك ما ينبغى لنا أن نعصيك قال تعالى فاختاروا من خياركم ملكين فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم وأعبدهم فأهبطا إلى الأرض بعد ما ركب فيهما ما ركب فى البشر من الشهوة وغيرها من القوى ليقضيا بين الناس نهارا ويعرجا إلى السماء مساء وقد نهيا عن الاشراك والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهم نهارا فاذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم فصعدا إلى السماء فاختصمت اليهما ذات يوم امرأة من أجمل النساء تسمى زهرة وكانت من لخم وقيل كانت من أهل فارس ملكة فى بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتتنا بها فراوداها عن نفسها فأبت فألحا عليها فقالت لا الا أن تقضيا لى على خصمى ففعلا ثم سألاها ما سألا فقالت لا الا أن تقتلاه ففعلا ثم سألاها ما سألا فقالت لا الا أن تشربا الخمر وتسجدا للصنم ففعلا كلا من ذلك بعد اللتيا والتى ثم سألاها ما سألا فقالت لا الا أن تعلمانى ما تصعدان به إلى السماء فعلماها الاسم الأعظم فدعت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله سبحانه كوكبا فهما بالعروج حسب عادتهما فلم تطعهما أجنحتهما فعلما ما حل بهما وكان فى عهد ادريس عليه السلام فالتجآ إليه ليشفع لهما ففعل فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الأول لانقطاعه عما قليل فهما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة فمما لا تعويل عليه لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لادلة العقل والنقل ولعله من مقولة الامثال والرموز التى قصد بها ارشاد اللبيب الاريب بالترغيب والترهيب وقيل هما رجلان سميا ملكين لصلاحهما ويعضده قراءة الملكين بالكسر (بِبَابِلَ) الباء بمعنى فى وهى متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالا من الملكين أو من الضمير فى أنزل وهى بابل العراق وقال ابن مسعود رضى الله عنه بابل أرض الكوفة وقيل جبل دماوند ومنع الصرف العجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية (هَارُوتَ وَمَارُوتَ) عطف بيان للملكين علمان لهما ومنع صرفهما للعجمة والعلمية ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا وأما من قرأ الملكين بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين فقال هما اسمان لهما وقيل هما اسما قبيلتين من الجن هما المراد من الملكين بالكسر وقرىء بالرفع على هما هاروت وماروت (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ) من مزيدة فى المفعول به لافادة تأكيد الاستغراق الذى يفيده أحد لا لافادة نفس الاستغراق كما فى قولك ما جاءنى من رجل وقرىء يعلمان من الاعلام (حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ) الفتنة الاختبار والامتحان وافرادها مع تعددهما لكونها مصدرا وحملها عليهما مواطأة للمبالغة كأنهما نفس الفتنة والقصر لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواها لينصرف الناس عن تعلمه أى وما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر أحدا من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم ويقولا له انما نحن فتنة وابتلاء من الله عز وجل فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر ومن توقى عن العمل به أو اتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقى على الإيمان (فَلَا تَكْفُرْ) باعتقاد حقيته وجواز العمل به والظاهر أن غاية النفى ليست هذه المقالة فقط بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهى لكن لم يذكر لظهوره وكون الكلام فى بيان اعتناء الملكين بشأن النصح والارشاد والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير يعلمون لا معطوفة عليه كما قيل أى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ويحملونهم على العمل به اغواء واضلالا والحال أنهما ما يعلمان أحدا حتى ينهياه عن العمل به والكفر بسببه وأما ما قيل من أن ما فى قوله تعالى وما أنزل الخ نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى وما كفر سليمان جىء بها لتكذيب اليهود فى القصة أى لم ينزل على الملكين اباحة السحر وأن هاروت

وماروت بدل من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خصتا بالذكر لاصالتهما وكون باقى الشياطين أتباعا لهما وأن المعنى مايعلمان أحدا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا فيأباه أن مقام وصف الشياطين بالكفر واضلال الناس مما لايلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهى عن الكفر مع مافيه من الاخلال بنظام الكلام فان الابدال فى حكم تنحية المبدل منه (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا) عطف على الجملة المنفية فانها فى قوة المثبتة كانه قيل يعلمانهم بعد قولهما إنما نحن الخ والضمير لاحد حملا على المعنى كما فى قوله تعالى فما منكم من أحد عنه حاجزين (مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ) أى بسببه وباستعماله (بَيْنَ المَرْءِ) وقرى بضم الميم وكسرها مع الهمزة وتشديد الراء بلاهمزة (وَزَوْجِهِ) بان يحدث الله تعالى بينهما التباغض والفرك والنشوز عند مافعلوا مافعلوا من السحر على حسب جرى العادة الإلهية من خلق المسببات عقيب حصول الاسباب العادية ابتلاء لا أن السحر هو المؤثر فى ذلك وقيل فيتعلمون منهما مايعملون به فيراه الناس ويعتقدون أنه حق فيكفرون فتبين أزواجهم (وَمَاهُم بِضَارِّينَ بِهِ) أى بما تعلموه واستعملوه من السحر (مِن أَحَدٍ) أى أحدا ومن مزيدة لماذكر فى قوله تعالى ومايعلمان من أحد والمعهود وإن كان زيادتها فى معمول فعل منفى إلا أنه حملت الاسمية فى ذلك على الفعلية كانه قيل ومايضرون به من أحد (إلا بِإذْنِ اللهِ) لأنه وغيره من الاسباب بمعزل من التأثير بالذات وإنما هو بأمره تعالى فقد يحدث عند استعمالهم السحر فعلا من أفعاله ابتلاء وقد لايحدثه والاستثناء مفرغ والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ضارين أو من مفعوله وإن كان نكرة لاعتمادها على النفى أو الضمير المجرور فى به أى ومايضرون به أحدا إلا مقرونا باذن الله تعالى وقرى بضارى على الإضافة بجعل الجار جزءا من المجرور وفصل مابين المضافين بالظرف (وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ) لأنهم يقصدون به العمل أو لأن العلم يجر إلى العمل غالبا (وَلَا يَنفَعُهُمْ) صرح بذلك ايذانا بأنه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضر بل هو شر بحت وضر محض لأنهم لايقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب من يدعى النبوة مثلا من السحرة أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع فى الجملة وفيه أن الاجتناب عما لايؤمن غوائله خير كتعلم الفلسفة التى لايؤمن أن تجر إلى الغواية وإن قال من قال

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لايعرف الشر من الناس يقع فيه

(وَلَقَدْ عَلِمُوا) أى اليهود الذين حكيت جناياتهم (لَمَنِ اشْتَرَاهُ) أى استبدل ماتتلوا الشياطين بكتاب الله عز وجل واللام الأولى جواب قسم محذوف والثانية لام ابتداء علق به علموا عن العمل ومن موصولة فى حيز الرفع بالابتداء واشتراه صلتها وقوله تعالى (مَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) أى من نصيب جملة من مبتدأ وخبر ومن مزيدة فى المبتدأ وفى الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا منه ولو أخر عنه لكان صفة له والتقدير ماله خلاق فى الآخرة وهذه الجملة فى محل الرفع على أنها خبر للموصول والجملة فى حيز النصب سادة مسد مفعولى علموا إن جعل متعديا إلى اثنين أو مفعوله الواحد إن جعل متعديا إلى واحد فجملة ولقد علموا الخ مقسم عليها دون جملة لمن اشتراه الخ هذا ماعليه الجمهور وهو مذهب سيبويه وقال الفراء وتبعه أبو البقاء ان اللام الأخيرة موطئة للقسم ومن شرطية مرفوعة بالابتداء واشتراه خبرها وماله فى الآخرة من خلاق جواب القسم وجواب الشرط محذوف اكتفاء عنه بجواب القسم لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم يجاب سابقهما غالبا فحينئذ يكون الجملتان مقسما عليهما (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ) أى باعوها واللام جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبئسما باعوا به أنفسهم السحر أو الكفر وفيه ايذان بأنهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلكة وباعوها بما لايزيدهم إلا تبارا وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء مما لاسبيل اليه لأن المشترى متعين وهو ماتتلوا الشياطين ولأن متعلق الذم هو المأخوذ لا المنبوذ كما أشير اليه فى تفسير قوله سبحانه بئسما اشتروا به

أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) أى يعملون بعلمهم جعلوا غير عالمين لعدم عملهم بموجب علمهم أو لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلمو اقبحه على اليقين أو حقيقة ما يتبعه من العذاب عليه على أن المثبت لهم أولا على التوكيد القسمى العقلى الغريزى أو العلم الاجمالى بقبح الفعل أو ترتب العقاب من غير تحقيق وجواب لو محذوف أى لما فعلوا ما فعلوا (وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا) أى بالرسول المومى اليه فى قوله تعالى ولما جاءهم رسول من عند الله الخ أو بما أنزل اليه من الآيات المذكورة فى قوله تعالى ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو بالتوراة التى أريدت بقوله تعالى نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم فان الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفر بها (وَاتَّقَوْا) المعاصى المحكية عنهم (لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ) جواب لو وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم فحذف الفعل وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها وحذف المفضل عليه إجلالا للمفضل من أن ينسب اليه وتنكير المثوبة للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة تشريفية لمثوبة أى لشىء ما من المثوبة كائنة من عنده تعالى خير وقيل جواب لو محذوف أى لأثيبوا وما بعده جملة مستانفة فان وقوع الجملة الابتدائية جوابا للو غير معهود فى كلام العرب وقيل لو للتمنى ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارف إيمانهم واتقاءهم تلهفا عليهم وقرىء لمثوبة وإنما سمى الجزاء ثوابا ومثوبة لأن المحسن يثوب اليه (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) أن ثواب الله خير نسبوا إلى الجهل لعدم العمل بموجب العلم (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) خطاب للمؤمنين فيه إرشادهم إلى الخير وإشارة إلى بعض آخر من جنايات اليهود (لا تَقُولُوا راعِنا) المراعاة المبالغة فى الرعى وهو حفظ الغير وتدبير أموره وتدارك مصالحه وكان المسلمون إذا ألقى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من العلم يقولون راعنا يا رسول الله أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه وكانت لليهود كلمة عبرانية أو سريانية يتسابون بها فيما بينهم وهى راعينا قيل معناها اسمع لا سمعت فلما سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترضوه واتخذوه ذريعة إلى مقصدهم فجعلوا يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم يعنون به تلك المسبة أو نسبته صلى الله عليه وسلم إلى الرعن وهو الحمق والهوج روى أن سعد ابن عبادة رضى الله عنه سمعها منهم فقال يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه قالوا أولستم تقولونها فنزلت الآية ونهى فيها المؤمنون عن ذلك قطعا لألسنة اليهود عن التدليس وأمروا بما فى معناها ولا يقبل التلبيس فقيل (وَقُولُوا انْظُرْنا) أى انظر الينا بالحذف والإيصال أو انتظرنا على أنه من نظره إذا انتظره وقرىء أنظرنا من النظرة أى أمهلنا حتى نحفظ وقرىء راعونا على صيغة الجمع للتوقير وراعنا على صيغة الفاعل أى قولا ذارعن كدارع ولابن لأنه لما أشبه قولهم راعينا وكان سببا للسب بالرعن اتصف به (وَاسْمَعُوا) وأحسنوا اسماع ما يكلمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقى عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعاذة وطلب المراعاة أو واسمعوا ما كلفتموه من النهى والأمر بجد واعتناء حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه أو واسمعوا اسماع طاعة وقبول ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا (وَلِلْكافِرِينَ) أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم وجعلوه سببا للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له ما قالوا (عَذابٌ أَلِيمٌ) لما اجترؤا عليه من العظيمة وهو تذييل لما سبق فيه وعيد شديد لهم ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه (ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) الود حب الشىء مع تمنيه ولذلك يستعمل فى كل منهما ونفيه كناية عن الكراهة ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة لعدم ودهم ولعل تعلقه بما قبله من حيث أن القول المنهى عنه كثيرا ما كان يقع عند تنزيل الوحى المعبر عنه فى هذه الآية بالخير فكأنه أشير إلى أن سبب تحريفهم له إلى

ماحكى عنهم لوقوعه فى أثناء حصول مايكرهونه من تنزيل الخير وقيل كان فريق من اليهود يظهرون للمؤمنين محبة ويزعمون أنهم يودون لهم الخير فنزلت تكذيبا لهم فى ذلك ومن فى قوله تعالى (مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ) للتبيين كما فى قوله عز وعلا لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ولا مزيدة لما استعرفه (أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم) فى حيز النصب على أنه مفعول يود وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعين الفاعل والتصريح الآتى فى قوله تعالى (مِّنْ خَيْرٍ) هو القائم مقام فاعله ومن مزيدة للاستغراق والنفى وإن لم يباشره ظاهر الكنه منسحب عليه معنى والخير الوحى وحمله على مايعمه وغيره من العلم والنصرة كما قيل يأباه وصفه فيما سيأتى بالاختصاص وتقديم الظرف عليه مع أن حقه التأخر عنه لإظهار كمال العناية به لأنه المدار لعدم ودهم ومن فى قوله تعالى (مِّن رَّبِّكُم) ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للاشعار بعليته لتنزيل الخير والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتشريفهم وليست كراهتهم لتنزيله عن المخاطبين من حيث تعبدهم بما فيه وتعريضهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة من نزل عليهم الخير بل من حيث وقوع ذلك التنزيل على النبى صلى الله عليه وسلم وصيغة الجمع للايذان بأن مدار كراهتهم ليس معنى خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم بل وصف مشترك بين الكل هو الخلو عند الدراسة عن اليهود وعن الرياسة عند المشركين والمعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى اليهم ويكرهون فيحسدونكم أن ينزل عليكم شىء من الوحى أما اليهود فبناء على أنهم أهل الكتاب وأبناء الأنبياء الناشئون فى مهابط الوحى وأنتم أميون وأما المشركون فادلالا بما كان لهم من الجاه والمال زعما منهم أن رياسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيوية منوطة بالأسباب الظاهرة ولذلك قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ولما كانت اليهود بهذا الداء أشهر لا سيما فى أثناء ذكرا بتلائهم به لم يلزم من نفى ودادتهم لما ذكر نفى ودادة المشركين له فزيدت كلمة لا لتأكيد النفى (وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ) جملة ابتدائية سيقت لتقرير ما سبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وإرغام الكارهين له والمراد برحمته الوحى كما فى قوله سبحانه أهم يقسمون رحمة ربك عبر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بالخير وباعتبار إضافته اليه تعالى بالرحمة قال على رضى الله عنه بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم فالفعل متعد وصيغة الافتعال للانباء عن الاصطفاء وإيثاره على التنزيل المناسب للسياق الموافق لقوله تعالى أن ينزل الله من فضله على من يشاء لزيادة تشريفه صلى الله عليه وسلم وإقناطهم مما علقوا به أطماعهم الفارغة والباء داخلة على المقصور أى يؤتى رحمته (مَن يَشَاءُ) من عباده ويجعلها مقصورة عليه لا لاستحقاقه الذاتى الفائض عليه بحسب إرادته عز وعلا تفضلا لا تتعداه إلى غيره وقيل الفعل لازم ومن فاعله والضمير العائد إلى من محذوف على التقديرين وقوله تعالى (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) تذييل لما سبق مقرر لمضمونه وفيه إيذان بأن إيتاء النبوة من فضله العظيم كقوله تعالى إن فضله كان عليك كبيرا وأن حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لمشيئته الجارية على سنن الحكمة البالغة وتصدير الجملتين بالاسم الجليل للايذان بفخامة مضمونيهما وكون كل منهما مستقلة بشأنها فان الاضمار فى الثانية منبىء عن توقفها على الأولى (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا) كلام مستأنف مسوق لبيان سر النسخ الذى هو فرد من أفراد تنزيل الوحى وإبطال مقالة الطاعنين فيه أثر تحقيق حقيقة الوحى ورد كلام الكارهين له رأسا قيل نزلت حين قال المشركون أو اليهود ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه والنسخ فى اللغة الازالة والنقل يقال نسخت الريح الأثر أى أزالته ونسخت الكتاب أى نقلته ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعا وانساؤها إذهابها من القلوب وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية وقرىء ننسخ من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها أو نجدها منسوخة وننسأها من النسء أى نؤخرها وننسها بالتشديد وتنسها

وتنسها على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيا للفاعل وللمفعول وقرىء ما ننسخ من آية أو ننسكها وقرىء ما ننسك من آية أو ننسخها والمعنى أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً إلى بدل أو إلى غير بدل (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) أى نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال فى النفع والثواب من الذاهبة وقرىء بقلب الهمزة ألفا (أَوْ مِثْلِهَا) أى فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جار فى ما دونها أيضاً وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال على جواز النسخ كيف لا وتنزيل الآيات التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية إنما هو بحسب ما يقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الأحوال ويتبدل حسب تبدل الأشخاص والأعصار كأحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال تقتضى فى حال أخرى نقيضه فلو لم يجز النسخ لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام (أَلَمْ تَعْلَمْ) الهمزة للتقرير كما فى قوله سبحانه أليس الله بكاف عبده وقوله تعالى ألم نشرح لك صدرك والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ساد مسد مفعولى تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الاتيان بما هو خير من المنسوخ وبما هو مثله لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الاشياء علم قدرته على ذلك قطعاً والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة والاشعار بمناط الحكم فان شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية وكذا الحال فى قوله عز سلطانه (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) فان عنوان الالوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والارض مبتدأ والجملة خبر لأن وإشارة على أن يقال ان لله ملك السموات والارض للقصد إلى تقوى الحكم بتكرر الاسناد وهو إما تكرير للتقرير وإعادة للاستشهاد على ما ذكر وإنما لم يعطف أن مع ما فى حيزها على ما سبق من مثلها رومًا لزيادة التأكيد وإشعارا باستقلال العلم بكل منهما وكفايته فى الوقوف على ما هو المقصود واما تقرير مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الأشياء أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما إيجادا وإعداما وأمرا ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لأمره ولا معقب لحكمه فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شىء من الاشياء وقوله تعالى (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) معطوف على الجملة الواقعة خبر الان داخل معها تحت تعلق العلم المقرر وفيه إشارة إلى تناول الخطابين السابقين للأمة أيضاً وإنما إفراده عليه السلام بهما لما أن علومهم مستندة إلى علمه عليه السلام ووضع الاسم الجليل موضع الضمير الراجع إلى اسم أن لتربية المهابة والايذان بمقارنة الولاية والنصرة للقوة والعزة والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على تعلق إرادته تعالى بما ذكر من الاتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله فان مجرد قدرته تعالى على ذلك لا يستدعى حصوله البتة وإنما الذى يستدعيه كونه تعالى مع ذلك ولياً ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره على الاستقلال يعلم قطعاً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له فيفوض أمره إليه تعالى ولا يخطر بباله ريبة فى أمر النسخ وغيره أصلا والفرق بين الولى والنصير أن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا من المنصور وما اما تميمية لا عمل لها ولكم خبر مقدم ومن ولى مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة من للاستغراق واما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يجيز تقديمه واسمها من ولى ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله فى حيز النصب على الحالية من اسمها لانه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا ومعناه سوى الله والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الامور الثلاثة هو الجزم والايقان بأنه تعالى لا يفعل بهم فى أمر من أمور دينهم أو دنياهم الا ما هو خير

لهم والعمل بموجبه من الثقة به والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه من غير إصغاء إلى أقاويل الكفرة وتشكيكاتهم التى من جملتها ما قالوا فى أمر النسخ وقوله تعالى (أَمْ تُرِيدُونَ) تجريد للخطاب عن النبى صلى الله عليه وسلم وتخصيص له بالمؤمنين وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم فى ذلك وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة إلى التحذير من ذلك ومعنى الهمزة انكار وقوع الارادة منهم واستبعاده لما أن قضية الايمان وازعة عنها وتوجيه الانكار إلى الارادة دون متعلقها للمبالغة فى انكاره واستبعاده ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل ارادته فضلا عن صدور نفسه والمعنى بل أتريدون (أَنْ تَسْئَلُوا) وأنتم مؤمنون (رَسُولَكُمْ) وهو فى تلك الرتبة من علو الشأن وتقترحوا عليه ما تشتهون غير واثقين فى أموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجبه قضية علمكم بشئونه سبحانه قيل لعلهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحكم الداعية إلى النسخ وقيل سأله عليه السلام قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كانت للمشركين وهى شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب وقوله تعالى (كَمَا سُئِلَ مُوسَى) مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر مؤكد محذوف وما مصدرية أى سؤالا مشبها بسؤال موسى عليه السلام حيث قيل له اجعل لنا إلها وأرنا الله جهرة وغير ذلك ومقتضى الظاهر أن يقال كما سألوا موسى لأن المشبه هو المصدر من المبنى للفاعل أعنى سائلية المخاطبين لا من المبنى للمفعول أعنى مسئولية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشبه بمسئولية موسى عليه السلام فلعله أريد التشبيه فيهما معا ولكنه أوجز النظم فذكر فى جانب المشبه السائلية وفى جانب المشبه به المسئولية واكتفى بما ذكر فى كل موضع عما ترك فى الموضع الآخر كما ذكر فى قوله تعالى وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله وقد جوز أن تكون ما موصولة على أن العائد محذوف أى كالسؤال الذى سئله موسى عليه السلام وقوله تعالى (مِنْ قَبْلُ) متعلق بسئل جىء به للتأكيد وقرىء سيل بالياء وكسر السين وبتسهيل الهمزة بين بين (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ) أى يختره ويأخذه لنفسه (بِالْإِيمَانِ) بمقابلته بدلا منه وقرىء ومن يبدل من أبدل وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن يفعل ذلك أى السؤال المذكور أو ارادته وحاصله ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة بحسب المصالح التى من جملتها الآيات الناسخة التى هى خير محض وحق بحت واقترح غيرها (فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) أى عدل وجار من حيث لا يدرى عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحق والهدى وتاه فى تيه الهوى وتردى فى مهاوى الردى وإنما أوثر على ذلك ما عليه النظم الكريم للتصريح من أول الأمر بأنه كفر وارتداد وأن كونه كذلك أمر واضح غنى عن الاخبار به بأن يقال ومن يفعل ذلك يكفر حقيق بأن يعد من المسلمات ويجعل مقدما للشرطية روما للمبالغة فى الزجر والافراط فى الردع وسواء السبيل من باب اضافة الوصف إلى الموصوف لقصد المبالغة فى بيان قوة الاتصاف كأنه نفس السواء على منهاج حصول الصورة فى الصورة الحاصلة وقيل الخطاب لليهود حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتابا من السماء وقيل للمشركين حين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الخ فاضافة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم على القولين باعتبار أنهم من أمة الدعوة ومعنى تبدل الكفر بالايمان وهم بمعزل من الايمان ترك صرف قدرتهم إليه مع تمكنهم من ذلك وإيثارهم للكفر عليه (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) هم رهط من أحبار اليهود . روى أن فنحاص ابن عازوراء وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فانى عاهدت أن لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ما عشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبأ وقال

حذيفة أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال أصبتما خيرا وأفلحتما فنزلت (لَوْ يَرُدُّونَكُم) حكاية لودادتهم ولو في معنى التمني وصيغة الغيبة كما في قوله حلف ليفعلن وقيل هي بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها وبما بعدها مصدر يقع مفعولا لودوا التقدير ودوا ردكم وقيل هي على حقيقتها وجوابها محذوف تقديره لو يردونكم كفارا لسروا بذلك و(مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُم) متعلق بيردونكم وقوله تعالى (كُفَّارًا) مفعول ثان له على تضمين الرد معنى التصيير أي يصيرونكم كفارا كما في قوله:

رمى الحدثان نسوة آل سعد ... بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ... ورد وجوههن البيض سودا

وقيل هو حال من مفعوله والأول أدخل لما فيه من الدلالة صريحا على كون الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه ضرورة كون المخاطبين مؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الايمان مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ما أرادوه وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف للعاقل عن مباشرته وإما لمانعة الايمان له كأنه قيل من بعد إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى (حَسَدًا) علة لود أو حال أريد به نعت الجمع أي حاسدين لكم والحسد الأسف على من له خير بخيره (مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم) متعلق بود أي ودوا ذلك من أجل تشهيهم وحظوظ أنفسهم لا من قبل التدين والميل مع الحق ولو على زعمهم أو بحسدا أي حسدا منبعثا من أصل نفوسهم بالغا أقصى مراتبه (مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) بالمعجزات الساطعة وبما عاينوا في التوراة من الدلائل وعلموا أنكم متمسكون به وهم منهمكون في الباطل (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا) العفو ترك المؤاخذة والعقوبة والصفح ترك التثريب والتأنيب (حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) الذي هو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وإذلالهم بضرب الجزية عليهم أو الاذن في القتال وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف ولا يقدح في ذلك ضرب الغاية لأنها لا تعلم إلا شرعا ولا يخرج الوارد بذلك من أن يكون ناسخا كأنه قيل فاعفوا واصفحوا إلى ورود الناسخ (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فينتقم منهم إذا حان حينه وآن أوانه فهو تعليل لما دل عليه ما قبله (وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ) عطف على فاعفوا أمروا بالصبر والمداراة واللجأ إلى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ) كصلاة أو صدقة أو غير ذلك أي أي شيء من الخيرات تقدموه لمصلحة أنفسكم (تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ) أي تجدوا ثوابه وقرىء تقدموا من أقدم (إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فلا يضيع عنده عمل فهو وعد للمؤمنين وقرىء بالياء فهو وعيد للكافرين (وَقَالُوا) عطف على ودوا والضمير لأهل الكتابين جميعا (لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ) أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة أن السامع يرد كلا منهما إلى قائله ونحوه وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا وليس مرادهم بأولئك من أقام اليهودية والنصرانية قبل النسخ والتحريف على وجهها بل أنفسهم على ما هم عليه لأنهم إنما يقولونه لإضلال المؤمنين وردهم إلى الكفر والهود جمع هائد كعوذ جمع عائذ وبزل جمع بازل والإفراد في كان باعتبار لفظ من والجمع في خبره باعتبار معناه وقرىء إلا من كان يهوديا أو نصرانيا (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) الأماني جمع أمنية وهي ما يتمنى كالأعجوبة والأضحوكة والجملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا وتلك إشارة إليه والجمع باعتبار صدوره عن الجميع وقيل فيه حذف مضاف أي أمثال تلك الأمنية أمانيهم وقيل تلك إشارة إليه وإلى ما قبله من أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردهم كفارا ويرده قوله تعالى (قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) فإنهما ليسا مما يطلب له البرهان ولا مما يحتمل

الصدق والكذب قبل هاتوا أصله آتوا قلبت الهمزة هاء أى أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين فى دعواكم . هذا ما يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل والذى يستدعيه إعجاز التنزيل أن يحمل الأمر التبكيتى على طلب البرهان على أصل الدخول الذى يتضمنه دعوى الاختصاص به فان قوله تعالى (بَلَىٰ) الخ اثبات من جهته تعالى لما نفوه مستلزم لنفى ما أثبتوه وإذ ليس الثابت به مجرد دخول غيرهم الجنة ولو معهم ليكون المنفى مجرد اختصاصهم به مع بقاء أصل الدخول على حاله بل هو اختصاص غيرهم بالدخول كما ستعرفه باذن الله تعالى ظهر أن المنفى أصل دخولهم ومن ضرورته أن يكون هو الذى كلفوا إقامة البرهان عليه لا اختصاصهم به ليتحد مورد الاثبات والنفى وإنما عدل عن ابطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك إبانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطماعهم وإظهاراً لكمال عجزهم عن إثبات مدعاهم لأن حرمانهم من الاختصاص بالدخول وعجزهم عن إقامة البرهان عليه لا يقتضيان حرمانهم من أصل الدخول وعجزهم عن اثباته وأما نفس الدخول فحيث ثبت حرمانهم منه وعجزهم عن إثباته فهم من الاختصاص به أبعد وعن اثباته أعجز وإنما الفائز به من انتظمه قوله سبحانه (مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) أى أخلص نفسه تعالى لا يشرك به شيئا عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع الذى هو من أخص خصائص الاخلاص أو توجهه وقصده بحيث لا يلوى عزيمته إلى شىء غيره (وَهُوَ مُحْسِنٌ) حال من ضمير أسلم أى والحال أنه محسن فى جميع أعماله التى من جملتها الإسلام المذكور وحقيقة الاحسان الاتيان بالعمل على الوجه اللائق وهو حسنه الوصفى التابع لحسنه الذاتى وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (فَلَهُ أَجْرُهُ) الذى وعده على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة أو عما يدخل هو فيه دخولا أوليا وأياما كان فتصويره بصورة الأجر للايذان بقوة ارتباطه بالعمل واستحالة نيله بدونه وقوله تعالى (عِندَ رَبِّهِ) حال من أجره والعامل فيه معنى الاستقرار فى الظرف والعندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافا إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لاظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة أى فله أجره عند مالكه ومدبر أموره ومبلغه إلى كماله والجملة جواب من ان كانت شرطية وخبرها ان كانت موصولة والفاء لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله تعالى بلى وحده ويجوز أن يكون من فاعلا لفعل مقدر أى يدخلها من أسلم وقوله تعالى فله أجره معطوف على ذلك المقدر وأياما كان فتعليق ثبوت الأجر بما ذكر من الإسلام والإحسان المختصين بأهل الايمان قاض بأن أولئك المدعين من دخول الجنة بمعزل ومن الاختصاص به بألف منزل (وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) فى الدارين من لحوق مكروه (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضمائر الأول باعتبار اللفظ (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ) بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه اثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم . نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا فارتفعت أصواتهم فقالوا لهم لستم على شىء أى أمر يعتد به من الدين أو على شىء ما منه أصلا مبالغة فى ذلك كما قالوا أقل من لا شىء وكفروا بعيسى والانجيل (وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ) على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة لا أنهم قالوا ذلك بناء للأمر على منسوخية التوراة (وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) الواو للحال واللام للجنس أى قالوا ما قالوا والحال إن كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب أى كان حق كل منهم أن يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه فان كتب الله تعالى متصادقة (كَذَٰلِكَ) أى مثل ذلك الذى سمعت به والكاف فى محل النصب اما على أنها نعت لمصدر محذوف قدم على عامله لإفادة القصر أى قولا مثل ذلك القول

بعينه لا قولا مغايرا له (قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) من عبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلة أى قالوا لأهل كل دين ليسوا على شىء وأما على أنها حال من المصدر المضمر المعرف الدال عليه قال أى قال القول الذين لا يعلمون حال كونه مثل ذلك القول الذى سمعت به (مِثْلَ قَوْلِهِمْ) اما بدل من محل الكاف واما مفعول للفعل المنفى قبله أى مثل ذلك القول قال الجاهلون بمثل مقالة اليهود والنصارى وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم فى سلك من لا يعلم أصلا (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أى بين اليهود والنصارى فان مساق النظم لبيان حالهم وإنما التعرض لمقالة غيرهم لاظهار كمال بطلان مقالهم ولان المحاجة المحوجة الى الحكم إنما وقعت بينهم (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) متعلق بيحكم وكذا ماقبله ومابعده ولا ضير فيه لاختلاف المعنى (فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) بما يقسم لكل فريق مايليق به من العقاب وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار والظرف الأخير متعلق بيختلفون قدم عليه من المحافظة على رؤس الآى لابكانوا (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ) انكار واستبعاد لان يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سبك التركيب متعرضا لانكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشى والاستعمال المطرد فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا الحكم عام لكل من فعل ذلك فى أى مسجد كان وإن كان سبب النزول فعل طائفة معينة فى مسجد مخصوص . روى أن النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن طيطوس الرومى ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى اسرائيل وقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه وإنما أوقع المنع على المساجد وان كان الممنوع هو الناس لما أن فعلهم من طرح الأذى والتخريب ونحوهما متعلق بالمسجد لا بالناس مع كونه على حاله وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها مبطلة لدعوى النصارى اختصاصهم بدخول الجنة وقيل هو منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية فتعلقها بما تقدمها من جهة أن المشركين من جملة الجاهلين القائلين لكل من عداهم ليسوا على شىء (أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) ثانى مفعولى منع كقوله تعالى وما منع الناس أن يؤمنوا وقوله تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجار مع أن وأن يكون ذلك مفعولا له أى كراهة أن يذكر فيها إسمه (وَسَعَى فِي خَرَابِهَا) بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذكر (أُولَئِكَ) المانعون الظالمون الساعون فى خرابها (مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع فضلا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها أو ما كان الحق أن يدخلوها الا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم فى علم الله تعالى وقضائه بالآخرة إلا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصرة واستخلاص ما استولوا عليه منهم وقد أنجز الوعد ولله الحمد . روى أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكرا مسارقة وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد واختلف الأئمة فى ذلك فجوزه أبو حنيفة مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره (لَهُمْ) أى لأولئك المذكورين (فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ) أى خزى فظيع لا يوصف بالقتل والسبى والاذلال بضرب الجزية عليهم (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وهو عذاب النار لما أن سببه أيضا وهو ماحكى من ظلمهم كذلك فى العظم وتقديم الظرف فى الموضعين للتشويق إلى مايذكر بعده من الخزى والعذاب لما مر من أن تأخير ماحقه التقديم موجب لتوجه النفس اليه فيتمكن فيها عند وروده فضل تمكن كما فى

قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج إلى غير ذلك (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) أى له كل الأرض التى هى عبارة عن ناحيتى المشرق والمغرب لايختص به من حيث الملك والتصرف ومن حيث المحلية لعبادته مكان منها دون مكان فان منعتم من اقامة العبادة فى المسجد الأقصى أو المسجد الحرام (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا) أى ففى أى مكان فعلتم تولية وجوهكم شطر القبلة (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) ثم اسم إشارة للمكان البعيد خاصة مبنى على الفتح ولا يتصرف سوى الجر بمن وهو خبر مقدم ووجه الله مبتدأ والجملة فى محل الجزم على أنها جواب الشرط أى هناك جهته التى أمر بها فان امكان التولية غير مختص بمسجد دون مسجد أو مكان دون آخر أو فثم ذاته بمعنى الحضور العلمى أى فهو عالم بما يفعل فيه ومثيب لكم على ذلك وقرىء بفتح التاء واللام أى فأينما توجهوا القبلة (إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ) باحاطته بالأشياء أو برحمته يريد التوسعة على عباده (عَلِيمٌ) بمصالحهم وأعمالهم فى الاماكن كلها والجملة تعليل لمضمون الشرطية وعن ابن عمر رضى الله عنهما نزلت فى صلاة المسافرين على الراحلة أينما توجهوا وقيل فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك وقيل هى توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود عن أن يكون فى جهة (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) حكاية لطرف آخر من مقالاتهم الباطلة المحكية فيما سلف معطوفة على ماقبلها من قوله تعالى وقالت الخ لا على صلة من لما بينهما من الجمل الكثيرة الأجنبية والضمير لليهود والنصارى ومن شاركهم فيما قالوا من الذين لايعلمون وقرىء بغير واو على الاستئناف نزلت حين قالت اليهود عزير ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ومشركو العرب الملائكة بنات الله والاتخاذ اما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى إلا إلى واحد وإما بمعنى التصيير والمفعول الأول محذوف أى صير بعض مخلوقاته ولدا (سُبْحَانَهُ) تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا وسبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه تنزيها لائقا به وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الأرض ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول إلى المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل مالا يخفى وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ففيه مبالغة من حيث اسناد البراءة إلى الذات المقدسة وإن كان التنزيه اعتقاد نزاهته تعالى عما لايليق به إلا إثباتها له تعالى وقوله تعالى (بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) رد لما زعموا وتنبيه على بطلانه وكلمة بل للاضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشىء من المخلوقات ومن سرعة فنائه المحوجة إلى اتخاذ مايقوم مقامه فان مجرد الامكان والفناء لايوجب ذلك . ألا يرى أن الاجرام الفلكية مع إمكانها وفنائها بالآخرة مستغنية بدوامها وطول بقائها عما يجرى مجرى الولد من الحيوان أى ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة (كُلٌّ) التنوين عوض عن المضاف إليه أى كل مافيهما كائنا ماكان من أولى العلم وغيرهم (لَّهُ قَانِتُونَ) منقادون لايستعصى شىء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ومن كان هذا شأنهم لم يتصور مجانسته لشىء ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد وإنما جىء بما المختصة بغير أولى العلم تحقيرا لشأنهم وإيذانا بكمال بعدهم عما نسبوا إلى بعض منهم وصيغة جمع العقلاء فى قانتون للتغليب أو كل من جعلوه لله تعالى ولدا له قانتون أى مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته تعالى كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبتدع نص عليه أساطين أهل اللغة وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه كما ذكر فى القاموس وغيره

ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله أمن ريحانة الداعى السميع وقيل هو من اضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها للتخفيف بعد
نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته من بدع إذا كان على شكل فائق وحسن رائق وهو حجة
أخرى لابطال مقالتهم الشنعاء تقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الأشياء كلها
على الاطلاق منزه عن الانفعال فلا يكون والدا ورفعه على انه خبر لمبتدأ محذوف أى هو بديع الخ وقرىء بالنصب على
المدح وبالجر على أنه بدل من الضمير فى له على رأى من يجوز الابدال من الضمير المجرور كما فى قوله على جوده لضن بالماء
حاتم (وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا) أى أراد شيئاً كقوله تعالى إنما أمره إذا أراد شيئاً وأصل القضاء الأحكام أطلق على
الارادة الإلهية المتعلقة بوجود الشىء لايجابها إياه البتة وقيل الأمر ومنه قوله تعالى وقضى ربك الخ (فَإِنَّمَا يَقُولُ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) كلاهما من الكون التام أى أحدث فيحدث وليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال وإنما هو تمثيل
لسهولة تأتى المقدورات بحسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى الباب من طاعة المأمور
المطيع للآمر القوى المطاع وفيه تقرير لمعنى الابداع وتلويح لحجة أخرى لابطال ما زعموه بأن اتخاذ الولد شأن من
يفتقر فى تحصيل مراده إلى مباد يستدعى ترتيبها مرور زمان وتبدل أطوار وفعله تعالى متعال عن ذلك (وَقَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ) حكاية لنوع آخر من قبائحهم وهو قدحهم فى أمر النبوة بعد حكاية قدحهم فى شأن التوحيد بنسبة الولد
اليه سبحانه وتعالى واختلف فى هؤلاء القائلين فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود وقال مجاهد هم النصارى
ووصفهم بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغى أو لعدم علمهم بموجب علمهم أو لان ما يحكى عنهم لا يصدر
عمن له شائبة علم أصلا وقال قتادة وأكثر أهل التفسير هم مشركو العرب لقوله تعالى فليأتنا بآية كما أرسل الأولون وقالوا
لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا (لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ) أى هلا يكلمنا بلا واسطة أمرا ونهيا كما يكلم الملائكة أو
هلا يكلمنا تنصيصا على نبوتك (أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ) حجة تدل على صدقك بلغوا من العتو والاستكبار إلى حيث أملوا
نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك ومن العناد والمكابرة إلى حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات
الباهرة التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات قاتلهم الله أنى يؤفكون (كَذَٰلِكَ) مثل ذلك القول الشنيع الصادر
عن العناد والفساد (قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم) من الأمم الماضية (مِّثْلَ قَوْلِهِمْ) هذا الباطل الشنيع فقالوا أرنا الله
جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد الآية وقالوا هل يستطيع ربك الخ وقالوا اجعل لنا الها الخ (تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ)
أى قلوب هؤلاء وأولئك فى العمى والعناد والا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة (قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ) أى نزلناها بينة بأن
جعلناها كذلك فى أنفسها كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل لا أنا بيناها بعد أن لم تكن بينة (لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ) أى يطلبون اليقين ويوقنون بالحقائق لا يعتريهم شبهة ولا ريبة وهذا رد لطلبهم الآية وفى تعريف الآيات
وجمعها وايراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح مكان الاتيان الذى طلبوه مالا يخفى من الجزالة والمعنى أنهم اقترحوا آية
فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين وإنما لم يتعرض لرد قولهم لولا يكلمنا الله ايذانا بأنه من
ظهور البطلان بحيث لا حاجة له إلى الرد والجواب (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ) أى ملتبسا بالقرآن كما فى قوله تعالى بل كذبوا
بالحق لما جاءهم أو بالصدق كما فى قوله تعالى أحق هو وقوله تعالى (بَشِيرًا وَنَذِيرًا) حال من المفعول باعتبار تقييده
بالحال الاولى أى أرسلناك ملتبسا بالقرآن حال كونك بشيرا لمن آمن بما أنزل عليك وعمل به ونذيرا لمن كفر به أو
أرسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك بالثواب ونذيرا لمن كذبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحبوا الاقاسر
لهم على الايمان فلا عليك ان أصروا وكابروا (وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ) ما لهم لم يؤمنوا بعد ما بلغت ما أرسلت

به وقرىء لن تسأل وما تسأل وقرىء لا تسأل على صيغة النهى إيذانا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلا لها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدر المخبر على إجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها وحمله على نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن أبويه مما لا يساعده النظم الكريم والجحيم المتأجج من النار وفى التعبير عنهم بصاحبية الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وإيذان بأنهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الإيمان قطعا وقوله تعالى (وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) بيان لكمال شدة شكيمة هاتين الطائفتين خاصة اثر بيان ما يعمهما والمشركين من الاصرار على ما هم عليه إلى الموت وإيراد لا النافية بين المعطوفين لتأكيد النفى لما مر من أن تصلب اليهود فى أمثال هذه العظائم أشد من النصارى والاشعار بأن رضى كل منهما مباين لرضى الاخرى أن لن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم ولا النصارى ولو تركتهم ودينهم حتى تتبع ملتهم فأوجز النظم ثقة بظهور المراد وفيه من المبالغة فى إقناطه صلى الله عليه وسلم من إسلامهم ما لا غاية وراءه فانهم حيث لم يرضوا عنه عليه السلام ولو خلاهم يفعلون ما يفعلون بل أملوا منه صلى الله عليه وسلم ما لا يكاد يدخل تحت الامكان من اتباعه عليه السلام لملتهم فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام وهذه حالتهم فى أنفسهم ومقالتهم فيما بينهم وأما انهم أظهروا للنبى صلى الله عليه وسلم وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وإن بالغت فى طلب رضانا حتى تتبع ملتنا كما قيل فلا يساعده النظم الكريم بل فيه ما يدل على خلافه فان قوله عز وجل (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى) صريح فى أن ما وقع هذا جوابا عنه ليس عين تلك العبارة بل ما يستلزم مضمونها أو يلزمه من الدعوة إلى اليهودية والنصرانية وادعاء أن الاهتداء فيهما كقوله عز وجل حكاية عنهم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا أى قل ردا عليهم إن هدى الله الذى هو الإسلام هو الهدى بالحق والذى يحق ويصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما تدعون اليه ليس بهدى بل هو هوى كما يعرب عنه قوله تعالى (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم وهى التى عبر عنها فيما قبل بملتهم إذ هى التى ينتمون اليها وأما ما شرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو المعنى الحقيقى للملة فقد غيروها تغييرا (بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) أى الوحى أو الدين المعلوم صحته (مَا لَكَ مِنَ اللهِ) من جهته العزيزة (مِن وَلِيٍّ) يلى أمرك عموما (وَلاَ نَصِيرٍ) يدفع عنك عقابه وحيث لم يستلزم نفى الولى نفى النصير وسط لا بين المعطوفين لتأكيد النفى وهذا من باب التهييج والالهاب والا فانى يتوهم إمكان اتباعه عليه السلام لملتهم وهو جواب للقسم الذى وطأه اللام واكتفى به عن جواب الشرط (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه (يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ) بمراعاة لفظه عن التحريف وبالتدبر فى معانيه والعمل بما فيه وهو حال مقدرة والخبر ما بعده أو خبر وما بعده مقرر له (أُولَئِكَ) إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل (يُؤْمِنُونَ بِهِ) أى بكتابهم دون المحرفين فانهم بمعزل من الايمان به فانه لا يجامع الكفر ببعض منه (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ) بالتحريف والكفر بما يصدقه (فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) حيث اشتروا الكفر بالإيمان (يَابَنِى إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) ومن جملتها التوراة وذكر النعمة إنما يكون بشكرها وشكرها الإيمان بجميع ما فيها ومن جملته نعت النبى صلى الله عليه وسلم ومن ضرورة الإيمان بها الإيمان به عليه الصلاة والسلام (وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) أفردت هذه النعمة بالذكر مع كونها مندرجة تحت النعمة السالفة لانافتها فيما بين فنون النعم (وَاتَّقُوا) إن لم تؤمنوا (يَوْمًا لاَ تَجْزِى) فى ذلك اليوم (نَفْسٌ) من النفوس (عَن نَّفْسٍ) أخرى (شَيْئًا) من الأشياء أو شيأ من الجزاء (وَلاَ يُقْبَلُ

مِنهَا عَدلٌ) أى فدية (وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ) وتخصيصهم بتكرير التذكير وإعادة التحذير للمبالغة فى النصح وللايذان بأن ذلك فذلكة القضية والمقصود من القصة لما أن نعم الله عز وجل عليهم أعظم وكفرهم بها أشد وأقبح (وَإِذِ ابۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ) شروع فى تحقيق أن هدى الله هو ما عليه النبى صلى الله عليه وسلم من التوحيد والإسلام الذى هو ملة إبراهيم عليه السلام وأن ما عليه أهل الكتابين أهواء زائغة وأن ما يدعونه من أنهم على ملته عليه الصلاة والسلام فرية بلا مرية ببيان ما صدر عن إبراهيم وأبنائه الأنبياء عليهم السلام من الأقاويل والأفاعيل الناطقة بحقيقة التوحيد والإسلام وبطلان الشرك وبصحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وبكونه ذلك النبى الذى استدعاه إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام بقولهما ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية فاذ منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد الوازعة عن الشرك فيقبلوا الحق ويتركوا ما هم فيه من الباطل وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات قد مر وجهه فى أثناء تفسير قوله عز وجل وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة وقيل على الظرفية بمضمر مؤخر أى وإذا ابتلاه كان كيت وكيت وقيل بما سيجىء من قوله تعالى قال الخ والأول هو اللائق بجزالة التنزيل ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على اذكروا خوطب به بنو اسرائيل ليتأملوا فيما يحكى عمن ينتمون إلى ملته من إبراهيم وأبنائه عليهم السلام من الأفعال والأقوال فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم والابتلاء فى الأصل الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا فعله أو تركه وذلك إنما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الأمور وأما من العليم الخبير فلا يكون إلا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين قبل أن يرتب عليه شيأ هو من مباديه العادية كمن يختبر عبده ليتعرف حاله من الكياسة فيأمره بما يليق بحاله من مصالحه وإبراهيم اسم أعجمى قال السهيلى كثيرا ما يقع الاتفاق أو التقارب بين السريانى والعربى ألا يرى أن إبراهيم تفسيره أب راحم ولذلك جعل هو وزوجته سارة كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة على ما روى البخارى فى حديث الرؤيا أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس وهو مفعول مقدم لإضافة فاعله إلى ضميره والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه أوامر ونواهى يظهر بحسن قيامه بحقوقها قدرته على الخروج عن عهدة الامامة العظمى وتحمل أعباء الرسالة وهذه المعاملة وتذكيرها للناس لإرشادهم إلى طريق اتقان الأمور ببنائها على التجربة وللايذان بأن بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أيضا مبنية على تلك القاعدة الرصينة واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوة العامة كيف لا وهى التى أجيب بها دعوة إبراهيم عليه السلام كما سيأتى واختلف فى الكلمات فقال مجاهد هى المذكورة بعدها ورد بأنه يأباه الفاء فى فأتمهن ثم الاستئناف وقال طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما هى عشر خصال كانت فرضا فى شرعه وهن سنة فى شرعنا خمس فى الرأس المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس فى البدن الختان وحلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء وفى الخبر أن إبراهيم عليه السلام أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الأظفار وقال عكرمة عن ابن عباس لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الإسلام عشر منها فى سورة براءة التائبون الخ وعشر فى الأحزاب ان المسلمين والمسلمات الخ وعشر فى المؤمنون وسأل سائل إلى قوله عز وجل والذين هم على صلاتهم يحافظون وقيل ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياء بالشمس والقمر

والنجوم والاختتان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة فوفى بالكل وقيل هن محاجته قومه والصلاة والزكاة والصوم والضيافة والصبر عليها وقيل هى مناسك كالطواف والسعى والرمى والاحرام والتعريف وغيرهن وقيل هى قوله عليه السلام الذى خلقنى فهو يهدين الآيات ثم قيل إنما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لأنه يقتضى سابقة الوحى وأجيب بأن مطلق الوحى لا يستلزم البعثة إلى الخلق وقرىء برفع ابراهيم ونصب ربه أى دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أولا (فَأَتَمَّهُنَّ) أى قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان كما فى قوله تعالى وابراهيم الذى وفى وعلى القراءة الأخيرة فأعطاه الله تعالى ماسأله من غير نقص ويعضده ماروى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل ابراهيم به بقوله رب اجعل الآيات وقوله عز وجل (قَالَ) على تقدير انتصاب إذ بمضمر جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الكلام فان الابتلاء تمهيد لأمر معظم وظهور فضيلة المبتلى من دواعى الاحسان إليه فبعد حكايتها تترقب النفس إلى ماوقع بعدهما كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) أو بيان لقوله تعالى ابتلى على رأى من جعل الكلمات عبارة عما ذكر أثره من الامامة وتطهير البيت ورفع قواعده وغير ذلك وعلى تقدير انتصاب إذ بقال فالجملة معطوفة على ماقبلها عطف القصة على القصة والواو فى المعنى داخلة على قال أى وقال إذ ابتلى الخ والجعل بمعنى التصيير أحد مفعوليه الضمير والثانى اماماً واسم الفاعل بمعنى المضارع وأوكد منه لدلالته على أنه جاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه وللناس متعلق بجاعلك أى لأجل الناس أو بمحذوف وقع حالا من اماماً إذ لو تأخر عنه لكان صفة له والامام اسم لمن يؤتم به وكل نبى امام لأمته وامامته عليه السلام عامة مؤبدة إذ لم يبعث بعده نبى إلا كان من ذريته مأموراً باتباع ملته (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال ابراهيم عليه السلام عنده فقيل قال (وَمِن ذُرِّيَّتِي) عطف على الكاف ومن تبعيضية متعلقة بجاعل أى وجاعل بعض ذريتى كما تقول وزيداً لمن يقول سأكرمك أو بمحذوف أى واجعل فريقا من ذريتى اماما وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة امامة الكل وان كانوا على الحق وقيل التقدير وماذا يكون من ذريتى والذرية نسل الرجل فعولة من ذروت أو ذريت والأصل ذرووة أو ذروية فاجتمع فى الأولى واوان زائدة وأصلية فقلبت الأصلية ياء فصارت كالثانية فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت ذرية أو فعيلة منهما والأصل فى الأولى ذريوة فقلبت الواو ياء لما سبق من اجتماعهما وسبق إحداهما بالسكون فصارت ذريية كالثانية فأدغمت الياء فى مثلها فصارت ذرية أو فعيلة من الذرء بمعنى الخلق والأصل ذريئة نخففت الهمزة بابدالها ياء كهمزة خطيئة ثم أدغمت الياء الزائدة فى المبدلة أو فعيلة من الذر بمعنى التفريق والأصل ذريرة قلبت الراء الأخيرة ياء لتوالى الأمثال كما فى تسرى وتقضى وتظنى فأدغمت الياء فى الياء كما مر أو فعولة منه والأصل ذرورة فقلبت الراء الأخيرة ياء فجاء الادغام وقرىء بكسر الذال وهى لغة فيها وقرأ أبو جعفر المدنى بالفتح وهى أيضا لغة فيها (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال ينساق إليه الذهن كما سبق (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ليس هذا رداً لدعوته عليه السلام بل إجابة خفية لها وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنيل عهد الامامة حسبما وقع فى استدعائه عليه السلام من غير تعيين لهم بوصف مميز لهم عن جميع من عداهم فان التنصيص على حرمان الظالمين منه بمعزل من ذلك التمييز إذ ليس معناه أن ينال كل من ليس بظالم منهم ضرورة استحالة ذلك كما أشير إليه ولعل إيثار هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادىء الامامة من ذريته إجمالا أو تفصيلا وارسال الباقين لئلا ينتظم المقتدرون بالأئمة من الأمة فى سلك المحرومين وفى تفصيل كل فرقة من الاطناب مالا يخفى مع مافى هذه الطريقة من

تخييب الكفرة الذين كانوا يتمنون النبوة وقطع أطماعهم الفارغة من نيلها وإنما أوثر النيل على الجعل إيماء إلى أن امامة الأنبياء عليهم السلام من ذريته عليه السلام كاسمعيل واسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ليست بجعل مستقل بل هي حاصلة فى ضمن امامة ابراهيم عليه السلام تنال كلا منهم فى وقت قدره الله عز وجل وقرىء الظالمون على أن عهدى مفعول قدم على الفاعل اهتماما ورعاية للفواصل وفيه دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر على الاطلاق وعدم صلاحية الظالم للامامة وقوله تعالى (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ) أى الكعبة المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا معطوف على إذ ابتلى على أن العامل فيه هو العامل فيه أو مضمر مستقل معطوف على المضمر الأول والجعل إما بمعنى التصيير فقوله عز وجل (مَثَابَةً) أى مرجعا يثوب إليه الزوار بعد ما تفرقوا عنه أو أمثالهم أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره مفعوله الثانى واما بمعنى الابداع فهو حال من مفعوله واللام فى قوله تعالى (لِلنَّاسِ) متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة أى مثابة كائنة للناس أو بجعلنا أى جعلناه لأجل الناس وقرىء مثابات باعتبار تعدد الثائبين (وَأَمْنًا) أى آمنا كما فى قوله تعالى حرما آمنا على إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل للمبالغة أو على تقدير المضاف أى ذا أمن أو على الاسناد المجازى أى آمنا من حجه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجب ما قبله أو من دخله من التعرض له بالعقوبة وإن كان جانيا حتى يخرج على ما هو رأى أبى حنيفة ويجوز أن يعتبر الأمن بالقياس إلى كل شىء كائنا ما كان ويدخل فيه أمن الناس دخولا أوليا وقد اعتيد فيه أمن الصيد حتى أن الكلب كان يهم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو يتبعه فاذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب (وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) على إرادة قول هو عطف على جعلنا أو حال من فاعله أى وقلنا أو قائلين لهم اتخذوا الخ وقيل هو بنفسه معطوف على الأمر الذى يتضمنه قوله عز وجل مثابة للناس كأنه قيل ثوبوا إليه واتخذوا الخ وقيل على المضمر العامل فى إذ وقيل هى جملة مستأنفة والخطاب على الوجوه الأخيرة له عليه السلام ولأمته والأول هو الأليق بجزالة النظم الكريم والأمر صريحا كان أو مفهوما من الحكاية للاستحباب ومن تبعيضية والمقام اسم مكان وهو الحجر الذى عليه أثر قدمه عليه السلام والموضع الذى كان عليه حين قام ودعا الناس إلى الحج أو حين رفع قواعد البيت وهو موضعه اليوم والمراد بالمصلى اما موضع الصلاة أو موضع الدعاء روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال هذا مقام ابراهيم فقال عمر رضى الله عنه أفلا نتخذه مصلى فقال لم أومر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت وقيل المراد به الأمر بركعتى الطواف لما روى جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وللشافعى فى وجوبهما قولان وقيل مقام ابراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج عرفة والمزدلفة والجمار واتخاذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب إلى الله عز وجل وقرىء واتخذوا على صيغة الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مكان ابراهيم الذى وسم به لاهتمامه به واسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها (وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ) أى أمرناهما أمرا مؤكدا (أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ) بأن طهراه على أن أن مصدرية حذف عنها الجار حذفا مطردا لجواز كون صلتها أمرا ونهيا كما فى قوله عز وجل وأن أقم وجهك للدين حنيفا لأن مدار جواز كونها فعلا إنما هو دلالته على المصدر وهى متحققة فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهى لا يوصف بها إلا إذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك

عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال أو أى طهراه على أن أن مفسرة لتضمن العهد معنى القول وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف وتوجيه الأمر بالتطهير ههنا اليهما عليهما السلام لا ينافى مافى سورة الحج من تخصيصه بابراهيم عليه السلام فان ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت وكان اسمعيل عليه السلام حينئذ بمعزل من مثابة الخطاب وظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الأمر والنهى وتمام البناء بمباشرته كما ينبىء عنه إيراده اثر حكاية جعله مثابة للناس الخ والمراد تطهيره من الأوثان والأنجاس وطواف الجنب والحائض وغير ذلك مما لا يليق به (لِلطَّائِفِينَ) حوله (وَالْعَاكِفِينَ) المجاورين المقيمين عنده أو المعتكفين أو القائمين فى الصلاة كما فى قوله عز وعلا للطائفين والقائمين (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) جمع راكع وساجد أى للطائفين والمصلين لأن القيام والركوع والسجود من هيئات المصلى ولتقارب الأخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما أو أخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم وفيه إيماء إلى أن ملابسة غيرهم به وإن كانت مع مقارنة أمر مباح من قبيل تلويثه وتدنيسه (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ) عطف على ماقبله من قوله وإذ جعلنا الخ اما بالذات أو بعامله المضمر كما مر (رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا) ذا أمن كعيشة راضية أو آمنا أهله كليله نائم أى اجعل هذا الوادى من البلاد الآمنة وكان ذلك أول ماقدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها إلى الشام تبعته هاجر فجعلت تقول إلى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت الله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذن لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال ربنا إنى أسكنت الآية وتعريف البلد مع جعله صفة لهذا فى سورة ابراهيم ان حمل على تعدد السؤال لما أنه عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين البلدية والأمن فاستجيب له فى احدهما وتأخر الآخر إلى وقته المقدر له لما تقتضيه الحكمة الباهرة ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسؤل أولا البلدية ومجرد الامن المصحح للسكنى كما فى سائر البلاد وقد أجيب إلى ذلك وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسؤل أولا أيضا وقد أجيب اليه لكن السؤال الثانى لاستدامته والاقتصار على سؤاله مع جعل البلد صفة لهذا لأنه المقصد الأصلى أو لأن المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسؤل كلا الأمرين وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل أفئدة الناس تهوى اليه كما سيأتى تفصيله هناك باذن الله عز وجل (وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) من أنواعها بأن تجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى انه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام (مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) بدل من أهله بدل البعض خصهم بالدعاء إظهارا لشرف الايمان وإبانة لخطره واهتماما بشأن أهله ومراعاة لحسن الادب وفيه ترغيب لقومه فى الايمان وزجر عن الكفر كما أن فى حكايته ترغيبا وترهيبا لقريش وغيرهم من أهل الكتاب (قَالَ) استئناف مبنى على السؤال كما مر مرارا وقوله تعالى (وَمَنْ كَفَرَ) عطف على مفعول فعل محذوف تقديره ارزق من آمن ومن كفر وقوله تعالى (فَأُمَتِّعُهُ) معطوف على ذلك الفعل أو فى محل رفع بالابتداء وقوله تعالى فأمتعه خبره أى فأنا أمتعه وإنما دخلته الفاء تشبيها له بالشرط والكفر وإن لم يكن سببا للتمتيع المطلق لكنه يصلح سببا لتقليله وكونه

موصولا بعذاب النار وقيل هو عطف على من آمن عطف تلقين كأنه قيل قل وارزق من كفر فانه أيضا مجاب كأنه عليه السلام قاس الرزق على الامامة فنبهه تعالى على أنه رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الامامة الخاصة بالخواص وقرىء فامتعه من أمتع وقرىء فنمتعه (قَلِيلًا) تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا (ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ) أى ألزه اليه لز المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم وقرىء ثم نضطره على وفق قراءة فنمتعه وقرىء فامتعه قليلا ثم اضطره بلفظ الأمر فيهما على أنهما من دعاء ابراهيم عليه السلام وفى قال ضميره وإنما فصله عما قبله لكونه دعاء على الكفرة وتغيير سبكه للايذان بان الكفر سبب لاضطرارهم إلى عذاب النار وأما رزق من آمن فانما هو على طريقة التفضل والإحسان وقرىء بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف المضارعة واطره بادغام الضاد فى الطاء وهى لغة مرذولة فان حروف ضم شفر يدغم فيها ما يجاورها بلا عكس (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) المخصوص بالذم محذوف أى بئس المصير النار أو عذابها (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ) عطف على ما قبله من قوله عز وعلا وإذ قال إبراهيم على أحد الطريقين المذكورين فى وإذ جعلنا وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة والقواعد جمع قاعدة وهى الأساس صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من مقابل القيام ومنه قعدك الله ورفعها البناء عليها لأنه ينقلها من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع والمرتفع حقيقة وإن كان هو الذى بنى عليها لكنهما لما التأما صارا شيأ واحدا فكأنها نمت وارتفعت وقيل المراد بها سافات البناء فان كل ساف قاعدة لما يبنى عليها وبرفعها بناء بعضها على بعض وقيل المراد برفعها رفع مكانة البيت وإظهار شرفه ودعاء الناس إلى حجه وفى إبهامها أولا ثم تبيينها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وقيل المعنى وإذ يرفع ابراهيم ما قعد من البيت واستوطأ يعنى يجعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء روى أن الله عز وجل أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد شرقى وغربى وقال لآدم أهبطت لك ما يطاف به كما يطاف حول عرشى فتوجه آدم من أرض الهند اليه ماشيا وتلقته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام وحج آدم عليه السلام اربعين حجة من أرض الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أن رفعه الله أيام الطوفان إلى السماء الرابعة فهو البيب المعمور وكان موضعه خاليا إلى زمن إبراهيم عليه السلام فأمره سبحانه ببنائه وعرفه جبريل عليه السلام بمكانه وقيل بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها ابراهيم عليه السلام حتى أتيا مكة المعظمة وقيل بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت وسار ابراهيم فى ظلها إلى أن وافت مكة المعظمة فوقفت على موضع البيت فنودى أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل بناه من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودى وأسسه من حراء وجاء جبريل عليه السلام بالحجر الأسود من السماء وقيل تمخض أبو قبيس فانشق عنه وقد خبىء فيه فى أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة فلما لمسته الحيض فى الجاهلية اسود وقال الفاسى فى مثير الغرام فى تاريخ البلد الحرام والذى يتحصل من جملة ما قيل فى عدد بناء الكعبة أنها بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة عليهم السلام ذكره النووى فى تهذيب الأسماء واللغات والازرقى فى تاريخه وذكر أنه كان قبل خلق آدم عليه السلام ومنها بناء آدم عليه السلام ذكره البيهقى فى دلائل النبوة وروى فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعث الله عز وجل جبريل إلى آدم عليهما السلام فقال له ولحواء ابنيا لى بيتا فخط جبريل وجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى إذا أصاب الماء نودى من تحته حسبك آدم فلما بنياه أوحى اليه أن يطوف به فقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وهكذا ذكره الازرقى فى تاريخه وعبد الرزاق فى مصنفه ومنها بناء بنى آدم عندما رفعت الخيمة التى عزى الله تعالى بها آدم عليه السلام وكانت ضربت فى موضع البيت فبنى بنوه مكانها بيتا من الطين والحجارة فلم يزل معمورا

يعمرونه هم ومن بعدهم إلى أن مسه الغرق فى عهد نوح عليه السلام ذكره الازرقى بسنده إلى وهب بن منبه ومنها بناء الخليل عليه السلام وهو منصوص عليه فى القرآن مشهور فى مابين قاص ودان ومنها بناء العمالقة ومنها بناء جرهم ذكرهما الازرقى بسنده إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ومنها بناء قصى بن كلاب ذكره الزبير بن بكار فى كتاب النسب ومنها بناء قريش وهو مشهور ومنها بناء عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما ومنها بناء الحجاج بن يوسف وما كان ذلك بناء لكلها بل لجدار من جدرانها وقال الحافظ السهيلى ان بناءها لم يكن فى الدهر إلا خمس مرات الأولى حين بناها شيث عليه السلام انتهى والله سبحانه أعلم (وَإِسْمَٰعِيلُ) عطف على ابراهيم ولعل تأخيره عن المفعول للايذان بأن الأصل فى الرفع هو ابراهيم واسمعيل تبع له قيل إنه كان يناوله الحجارة وهو يبنيها وقيل كانا يبنيانه من طرفين (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) على إرادة القول أى يقولان وقد قرىء به على أنه حال منهما عليهما السلام وقيل على أنه هو العامل فى اذ والجملة معطوفة على ماقبلها والتقدير ويقولان ربنا تقبل منا إذ يرفعان أى وقت رفعهما وقيل واسمعيل مبتدأ خبره قول محذوف وهو العامل فى ربنا تقبل منا فيكون ابراهيم هو الرافع واسمعيل هو الداعى والجملة فى محل النصب على الحالية وإذ يرفع ابراهيم القواعد والحال أن اسمعيل يقول ربنا تقبل منا والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الإجابة وترك مفعول تقبل مع ذكره فى قوله تعالى ربنا وتقبل دعاء ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التى من جملتها ماهما بصدده من البناء كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حالية (إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ) لجميع المسموعات التى من جملتها دعاؤنا (الْعَلِيمُ) بكل المعلومات التى من زمرتها نياتنا فى جميع أعمالنا والجملة تعليل لاستدعاء التقبل لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائهما عليما بنياتهما مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نياتهما وإخلاصهما فى أعمالهما مستدع له بموجب الوعد تفضلا وتأكيد الجملة لغرض كمال قوة يقينهما بمضمونها وقصر نعتى السمع والعلم عليه تعالى لاظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية واعلم أن الظاهر أن أول ماجرى من الأمور المحكية هو الابتلاء ومايتبعه ثم دعاء البلدية والأمن ومايتعلق به رفع قواعد البيت ومايتلوه ثم جعله مثابة للناس والأمر بتطهيره ولعل تغيير الترتيب الوقوعى فى الحكاية لنظم الشؤن الصادرة عن جنابه تعالى فى سلك مستقل ونظم الأمور الواقعة من جهة ابراهيم واسمعيل عليهما السلام من الأفعال والأقوال فى سلك آخر وأما قوله تعالى ومن كفر الخ فانما وقع فى تضاعيف الأحوال المتعلقة بابراهيم لاقتضاء المقام واستيجاب ماسبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بد منه أصلا كما أن وقوع قوله عليه السلام ومن ذريتى فى خلال كلامه سبحانه لذلك (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) مخلصين لك أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد وأيا ما كان فالمطلوب الزيادة والثبات على ما كانا عليه من الاخلاص والاذعان وقرىء مسلمين على صيغة الجمع بادخال هاجر معهما فى الدعاء أو لان التثنية من مراتب الجمع (وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) أى واجعل بعض ذريتنا وإنما خصاهم بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولانهم إذا صلحوا صلح الاتباع وإنما خصابه بعضهم لما علما أن منهم ظلمة وأن الحكمة الإلهية لاتقتضى اتفاق الكل على الاخلاص والاقبال الكلى على الله عز وجل فان ذلك مما يخل بأمر المعاش ولذلك قيل لولا الحمق لخربت الدنيا وقيل أراد بالأمة المسلمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد جوز أن يكون من مبينة قدمت على المبين وفصل بها بين العاطف والمعطوف كما فى قوله تعالى ومن الأرض مثلهن والاصل وأمة مسلمة لك من ذريتنا (وَأَرِنَا) من الرؤية بمعنى الابصار أو بمعنى التعريف أى بصرنا أو عرفنا (مَنَاسِكَنَا) أى متعبداتنا فى الحج أو مذابحنا والنسك فى الأصل غاية العبادة وشاع فى الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة وقرىء أرنا قياسا على فخذ فى فخذ وفيه اجحاف لان

الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها وقرىء بالاختلاس (وَتُبْ عَلَيْنَا) استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة فى التوبة والإيمان أو توبة لهما عما فرط منهما سهوا ولعلهما قالاه هضما لأنفسهما وإرشادا لذريتهما (إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) وهو تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للإجابة قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ) أى فى الأمة المسلمة (رَسُولاً مِنْهُمْ) أى من أنفسهم فان البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبى صلى الله عليه وسلم فهو الذى أجيب به دعوتهما عليهما السلام روى أنه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان قال عليه السلام أنا دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى وتخصيص ابراهيم عليه السلام بالاستجابة له لما أنه الأصل فى الدعاء واسمعيل تبع له عليه السلام (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ) يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى اليه من البينات (وَيُعَلِّمُهُمْ) بحسب قوتهم النظرية (الْكِتَابَ) أى القرآن (وَالْحِكْمَةَ) وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة (وَيُزَكِّيهِمْ) بحسب قوتهم العملية أى يطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصى (إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ) الذى لا يقهر ولا يغلب على ما يريد (الْحَكِيمُ) الذى لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء وإجابة المسؤل فان وصف الحكمة مقتض لإفاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التى من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرة (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) انكار واستبعاد لان يكون فى العقلاء من يرغب عن ملته التى هى الحق الصريح والدين الصحيح أى لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء (إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ) أى أذلها واستمهنها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل أوبق أو أهلك أو جهل نفسه قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم ويشهد له ما ورد فى الخبر الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه ونحو قوله : ونأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

وقوله : وما قومى بثعلبة بن سعد ولا بفزارة الشعر الرقابا

ذلك لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ فى اذلال نفسه وإذلالها وإهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روى أن عبدالله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة إنى باعث من ولد اسمعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر فنزلت (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا) أى اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشىء كما أن أصل الاختيار اتخاذ خيره واللام لجواب قسم محذوف والواو اعتراضية والجملة مقررة لمضمون ما قبلها أى وبالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى (وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) أى من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل فى حيز القسم مؤكد لمضمونها مقرر لما تقرره ولا حاجة إلى جعله اعتراضا آخر أو حالا مقدرة فان من كان صفوة للعباد فى الدنيا مشهودا له بالصلاح فى الآخرة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن ملته إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل وإيثار الاسمية لما أن انتظامه فى زمرة صالحى أهل الآخرة أمر مستمر فى الدارين لا أنه يحدث فى الآخرة والتأكيد بان واللام لما أن الأمور الأخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها إلى التأكيد أشد من الامور التى تشاهد آثارها وكلمة فى متعلقة بالصالحين على أن اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديم بعض الصلة عليها على أنه قد يغتفر فى الظرف ما لا يغتفر فى غيره كما فى قوله :

ربيته حتى إذا تمعددا كان جزائى بالعصا أن أجلدا

أو بمحذوف من لفظه أى وانه لصالح فى الآخرة لمن الصالحين أو من غير لفظه أى أعنى فى الآخرة نحولك بعدرعيا وقيل هى متعلقة باصطفيناه على أن فى النظم الكريم تقديما وتأخيرا تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين (إذْ قَالَ لَهُ) ظرف لاصطفيناه لما أن المتوسط ليس بأجنبى بل هو مقرر له لأن اصطفاءه فى الدنيا إنما هو للنبوة ومايتعلق بصلاح الآخرة أو تعليل له أو منصوب باذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتقف على أنه المصطفى الصالح المستحق للامامة والتقدم وأنه مانال مانال إلا بالمبادرة إلى الاذعان والانقياد لما أمر به وإخلاص سره على أحسن ما يكون حين قال له (رَبُّهُ أَسْلِمْ) أى لربك (قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وليس الأمر على حقيقته بل هو تمثيل والمعنى أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الاسلام من الكوكب والقمر والشمس وقيل أسلم أى أذعن وأطع وقيل اثبت على ما أنت عليه من الاسلام والإخلاص أو استقم وفوض أمورك إلى الله تعالى فالامر على حقيقته والالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليه عليه السلام لاظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته وإضافة الرب فى جوابه عليه الصلاة والسلام إلى العالمين للايذان بكمال قوة إسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ) شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره اثر بيان كماله فى نفسه وفيه توكيد لوجوب الرغبة فى ملته عليه السلام والتوصية التقدم إلى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين من فعل أو قول وأصلها الوصلة يقال وصاه إذا وصله وفصاه إذا فصله كأن الموصى يصل فعله بفعل الوصى والضمير فى بها للملة أو قوله أسلمت لرب العالمين بتأويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى اننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فى قوله عز وجل وجعلها كلمة باقية فى عقبه وقرىء أوصى والاول أبلغ (وَيَعْقُوبُ) عطف على إبراهيم أى وصى بها هو أيضا وقرىء بالنصب عطفا على بنيه (يَا بَنِيَّ) على اضمار القول عند البصريين ومتعلق بوصى عند الكوفيين لانه فى معنى القول كما فى قوله : رجلان من ضبة أخبرانا انا رأينا رجلا عريانا

فهو عند الاولين بتقدير القول وعند الآخرين متعلق بالإخبار الذى هو فى معنى القول وقرىء أن يابنى وبنو ابراهيم عليه السلام كانوا أربعة اسمعيل وإسحق ومدين ومدان وقيل ثمانية وقيل أربعة وعشرين وكان بنو يعقوب اثنى عشر روبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويشسوخور وزبولون وزوانا وتفتونا وكوذا وأوشير وبنيامين ويوسف عليه السلام (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ) دين الإسلام الذى هو صفوة الاديان ولا دين غيره عنده تعالى (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ظاهره النهى عن الموت على خلاف حال الاسلام والمقصود الامر بالثبات على الاسلام إلى حين الموت أى فاثبتوا ولا تفارقوه أبدا كقولك لا تصل الا وأنت خاشع وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الاسلام موت لا خير فيه وأن حقه أن لايحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد روى أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب أوصى باليهودية يوم مات فنزلت (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ) أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة والخطاب لاهل الكتاب الراغبين عن ملة ابراهيم وشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر واذ ظرف لشهداء والمراد بحضور الموت حضور أسبابه وتقديم يعقوب عليه السلام للاهتمام به إذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعدما بين ذلك اجمالا ومعنى بل الاضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة ابراهيم عليه السلام إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية حسبما حكى عنهم وأما تعميم الافتراء ههنا لسائر الانبياء عليهم السلام كما قيل فيأباه تخصيص يعقوب بالذكر وما سيأتى من قوله عز وجل أم تقولون ان ابراهيم الخ ومعنى الهمزة انكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتهم وقوله تعالى (إِذْ قَالَ)

بدل من إذ حضر أى ما كنتم حاضرين عند احتضاره عليه السلام وقوله (لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى) أى أى شىء تعبدونه بعد موتى فمن أين لكم أن تدعوا عليه عليه السلام ماتدعون رجما بالغيب وعند هذا تم التوبيخ والانكار والتبكيت ثم بين أن الأمر قد جرى حينئذ على خلاف مازعموا وأنه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقرير بنيه على التوحيد والاسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما إذ به يتم وصيته بقوله فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون وما يسأل به عن كل شىء مالم يعرف فاذا عرف خص العقلاء بمن إذا سئل عن شىء بعينه وإن سئل عن وصفه قيل مازيد أفقيه أم طبيب فقوله تعالى (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقوب عليه السلام كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا (نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) حسبما كان مراد أبيهم بالسؤال أى نعبد الاله المتفق على وجوده والهيته ووجوب عبادته وعد اسمعيل من آبائه تغليبا للأب والجد لقوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه وقوله عليه السلام فى العباس هذا بقية آبائى وقرىء أبيك على أنه جمع بالواو والنون كما فى قوله :

فلما تبين أصواتنا   بكين وفديننا بالابينا

وقد سقطت النون بالاضافة أو مفرد وإبراهيم عطف بيان له واسمعيل واسحق معطوفان على أبيك (إِلَٰهًا وَاحِدًا) بدل من إله آبائك كقوله تعالى بالناصية ناصية كاذبة وفائدته التصريح بالتوحيد ودفع التوهم الناشىء من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور أو نصب على الاختصاص (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما معا ويحتمل أن يكون اعتراضا محققا لمضمون ماسبق (تِلْكَ أُمَّةٌ) مبتدأ وخبر والاشارة إلى ابراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين والأمة هى الجماعة التى تؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها (قَدْ خَلَتْ) صفة للخبر أى مضت بالموت وانفردت عمن عداها وأصله صارت إلى الخلاء وهى الأرض التى لا أنيس بها (لَهَا مَا كَسَبَتْ) جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب أو صفة أخرى لأمة أو حال من الضمير فى خلت وما موصولة أو موصوفة والعائد اليها محذوف أى لها ما كسبته من الأعمال الصالحة المحكية لا تتخطاها إلى غيرها فان تقديم المسند يوجب قصر المسند اليه عليه كما هو المشهور (وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ) عطف على نظيرتها على الوجه الاول وجملة مبتدأة على الوجهين الاخيرين إذ لا رابط فيها ولا بد منه فى الصفة ولا مقارنة فى الزمان ولا بد منها فى الحال أى لكم ما كسبتموه لا ما كسبه غيركم فان تقديم المسند قد يقصد به قصره على المسند اليه كما قيل فى قوله تعالى لكم دينكم ولى دين أى ولى دينى لا دينكم وحمل الجملة الاولى على هذا القصر على معنى أن أولئك لا ينفعهم الا ما اكتسبوا كما قيل مما لا يساعده المقام اذ لا يتوهم متوهم انتفاعهم بكسب هؤلاء حتى يحتاج الى بيان امتناعه وانما الذى يتوهم انتفاع هؤلاء بكسبهم فبين امتناعه بأن أعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لا تتخطاهم الى غيرهم وليس لهؤلاء الا ما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم اليهم وانما ينفعهم اتباعهم لهم فى الاعمال كما قال عليه السلام يابنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم (وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ان أجرى السؤال على ظاهره فالجملة مقررة لمضمون مامر من الجملتين تقريرا ظاهرا وان أريد به مسببه أعنى الجزاء فهو تتميم لما سبق جار مجرى النتيجة له وأياما كان فالمراد تخييب المخاطبين وقطع أطماعهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات الامة الخالية وانما أطلق العمل لاثبات الحكم بالطريق البرهانى فى ضمن قاعدة كلية هذا وقد جعل السؤال عبارة عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فقيل أى لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم ولا ريب فى أنه مما لا يليق بشأن التنزيل كيف لا وهم منزهون من كسب السيئات فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم حتى يتصدى لبيان انتفاعه (وَقَالُوا) شروع فى بيان فن آخر من فنون كفرهم وهو اضلالهم لغيرهم اثر بيان ضلالهم فى أنفسهم والضمير لاهل الكتابين على طريقة

الالتفات المؤذن باستيجاب حالهم لابعادهم من مقام المخاطبة والاعراض عنهم وتعديد جناياتهم عند غيرهم أى قالوا للمؤمنين (كُونوا هُودًا أَوْ نَصَارَى) ليس هذا القول مقولا لكلهم أولأى طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزع عليهما على وجه خاص يقتضيه حالها اقتضاء مغنيا عن التصريح به أى قالت اليهود كونوا هودا والنصارى كونوا نصارى ففعل بالنظم الكريم مافعل بقوله تعالى وقالوا لن يدخل الجنة الامن كان هودا أو نصارى اعتمادا على ظهور المرام (تَهْتَدُوا) جواب للأمر أى أن تكونوا كذلك تهتدوا (قُلْ) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل لهم على سبيل الرد عليهم وبيان ماهو الحق لديهم وارشادهم اليه (بَلْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ) أى لانكون كما تقولون بل نكون أهل ملته عليه السلام وقيل بل نتبع ملته عليه السلام وقد يجوز أن يكون المعنى بل اتبعوا أنتم ملته عليه السلام أو كونوا أهل ملته وقرىء بالرفع أى بل ملتنا أو أمرنا ملته أو نحن ملته أى أهل ملته (حَنِيفًا) اى مائلا عن الباطل إلى الحق وهو حال من المضاف اليه كما فى رأيت وجه هند قائمة أو المضاف كما فى قوله تعالى ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا الخ (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تعريض بهم وايذان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام مع اشراكهم بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله (قُولُوا) خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام برد مقالتهم الشنعاء على الاجمال وارشادهم إلى طريق التوحيد والايمان على ضرب من التفصيل أى قولوا لهم بمقابلة ماقالوا تحقيقا وارشادا ضمنيا لهم اليه (ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) يعنى القرآن قدم على سائر الكتب الالهية مع تأخره عنها نزولا لاختصاصه بنا وكونه سببا للايمان بها (وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) الصحف وإن كانت نازلة إلى إبراهيم عليه السلام لكن من بعده حيث كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها جعلت منزلة اليهم كما جعل القرآن منزلا الينا والاسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام أو أبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم واسحق (وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ) من التوراة والانجيل وسائر المعجزات الباهرة الظاهرة بأيديهما حسبما فصل فى التنزيل الجليل وايراد الايتاء لما أشير اليه من التعميم وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى (وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ) أى جملة المذكورين وغيرهم (مِنْ رَبِّهِمْ) من الآيات البينات والمعجزات الباهرات (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ) كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وانما اعتبر عدم التفريق بينهم مع أن الكلام فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ماأوتوه وهمزة أحد اما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس ومنه مافى قوله صلى الله عليه وسلم ماأحلت الغنائم لأحد سود الرؤس غيركم حيث وصف بالجمع واما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وبين غيره كما فى قول النابغة : فما كان بين الخير لوجاء سالما أبو حجر الا ليال قلائل أى بين الخير وبينى وفيه من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ماليس فى أن يقال لانفرق بينهم والجملة حال من الضمير فى آمنا وقوله عز وجل (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) أى مخلصون له ومذعنون حال أخرى منه أو عطف على آمنا (فَإِنْ ءَامَنُوا) الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها فان ماتقدم من ايمان المخاطبين على الوجه المحرر مظنة لايمان أهل الكتابين لما أنه مشتمل على ماهو مقبول عندهم (بِمِثْلِ مَاءَامَنْتُمْ بِهِ) أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصل على أن المثل مقحم كما فى قوله تعالى وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله أى عليه ويعضده قراءة ابن مسعود بما آمنتم به وقراءة أبى بالذى آمنتم به ويجوز أن تكون الباء للاستعانة على أن المؤمن به محذوف لظهوره بمروره آنفا أو على

أن الفعل مجرى مجرى اللازم أى فان آمنوا بما مر مفصلا أوفان فعلوا الإيمان بشهادة مثل شهادتكم وأن تكون الأولى زائدة والثانية صلة لآمنتم وما مصدرية أى فان آمنوا إيمانا مثل إيمانكم بما ذكر مفصلا وأن تكون للملابسة أى فان آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أوفان آمنوا إيمانا ملتبسا بمثل ما آمنتم إيمانا ملتبسا به من الاذعان والاخلاص وعدم التفريق بين الأنبياء عليهم السلام فان ما وجد فيهم وصدر عنهم من الشهادة والاذعان وغير ذلك مثل ما للمؤمنين لا عينه بخلاف المؤمن به فانه لا يتصور فيه التعدد (فَقَدِ اهْتَدَوْا) إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق وأما ما قيل من أن المعنى فان تحروا الايمان بطريق يهدى إلى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فان وحدة المقصد لا تأبى تعدد الطريق فيأباه أن مقام تعيين طريق الحق وارشادهم اليه بعينه لا يلائم تجويز أن يكون له طريق آخر وراءه (وإن تَوَلَّوْا) أى أعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور بأن أخلوا بشىء من ذلك كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو دينهم وديدنهم (فإنَّمَا هُم فِى شِقَاق) المشاقة والشقاق من الشق كالمخالفة والخلاف من الخلف والمعاداة والعداء من العدوة أى الجانب فان أحد المخالفين يعرض عن الآخر صورة أو معنى ويوليه خلفه ويأخذ فى شق غير شقه وعدوة غير عدوته والتنوين للتفخيم أى هم مستقرون فى خلاف عظيم بعيد من الحق وهذا لدفع ما يتوهم من احتمال الوفاق بسبب إيمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون والجملة اما جواب الشرط كما هى على أن المراد مشاقتهم الحادثة بعد توليهم عن الايمان كجواب الشرطية الأولى وإنما أوثرت الجملة الاسمية للدلالة على ثباتها واستقرارهم فى ذلك واما بتأويل فاعلموا إنما هم فى شقاق . هذا هو الذى يستدعيه فخامة شأن التنزيل الجليل وقد قيل قوله تعالى فان آمنوا الخ من باب التعجيز والتبكيت على منهاج قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله والمعنى فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم مماثلا له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا واذ لا امكان له فلا امكان لاهتدائهم ولا ريب فى أنه مما لا يليق بحمل النظم الكريم عليه ولما دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وأن ذلك مما يؤدى إلى الجدال والقتال لا محالة عقب ذلك بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفريح المؤمنين بوعد النصر والغلبة وضمان التأييد والاعزاز وعبر بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة فقيل (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ) أى سيكفيك شقاقهم فان الكفاية لا تتعلق بالاعيان بل بالافعال وقد أنجز عز وجل وعده الكريم بقتل بنى قريظة وسبيهم واجلاء بنى النضير وتلوين الخطاب بتجريده للنبى صلى الله عليه وسلم مع أن ذلك كفاية منه سبحانه للكل لما أنه الأصل والعمدة فى ذلك وللايذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن والمشاق ومقاساة الشدائد فى مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى فى الكفاية والنصر فى حقه عليه السلام أتم وأكمل (وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) تذييل لما سبق من الوعد وتأكيد له والمعنى أنه تعالى يسمع ما تدعو به ويعلم ما فى نيتك من إظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك أو وعيد للكفرة أى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه فى قلوبهم مما لا خير فيه وهو معاقبهم عليه ولا يخفى ما فيه من تأكيد الوعد السابق فان وعيد الكفرة وعد للمؤمنين (صِبْغَةَ اللهِ) الصبغة من الصبغ كالجلسة من الجلوس وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ عبر بها عن الايمان بما ذكر على الوجه الذى فصل لكونه تطهيرا للمؤمنين من أوضاع الكفر وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ومتداخلا فى قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة الى الثوب كذلك وقيل للمشاكلة التقديرية فان النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ويزعمون أنه تطهير لهم وبه يحق نصرانيتهم واضافتها إلى الله عز وجل مع استناده فيما سلف إلى ضمير المتكلمين للتشريف والايذان بأنها عطية منه سبحانه لا يستقل العبد بتحصيلها فهى اذن مصدر مؤكد لقوله تعالى آمنا داخل معه فى حيز قولوا منتصب عنه انتصاب وعد الله عما تقدمه لكونه بمثابة

فعله كأنه قيل صبغنا الله صبغة وقيل هى منصوبة بفعل الاغراء أى الزموا صبغة الله وإنما وسط بينهما الشرطيتان وما بعدهما اعتناء ببيان أنه الايمان الحق وبه الاهتداء ومسارعة إلى تسليته عليه الصلاة والسلام (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ) مبتدأ وخبر والاستفهام للانكار والنفى وقوله تعالى (صِبْغَةً) نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدأ والتقدير ومن صبغته أحسن من صبغته تعالى فالتفضيل جار بين الصبغتين لا بين فاعليهما أى لا صبغة أحسن من صبغته تعالى على معنى أنها أحسن من كل صبغة على ما أشير اليه فى قوله تعالى ومن أظلم ممن منع الخ وحيث كان مدار التفضيل على تعميم الحسن الحقيقى والفرضى المبنى على زعم الكفرة لم يلزم منه أن يكون فى صبغة غيره تعالى حسن فى الجملة والجملة اعتراضية مقررة لما فى صبغة الله من معنى التبجح والابتهاج (وَنَحْنُ لَهُ) أى لله الذى أولانا تلك النعمة الجليلة (عَابِدُونَ) شكرا لها ولسائر نعمه وتقديم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمنا داخل معه تحت الأمر وإيثار الاسمية للاشعار بدوام العبادة أو على فعل الاغراء بتقدير القول أى الزموا صبغة الله وقولوا نحن له عابدون فقوله تعالى ومن أحسن من الله صبغة حينئذ يجرى مجرى التعليل للاغراء (قل أَتُحَاجُّونَنَا) تجريد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم عقيب الكلام الداخل تحت الأمر الوارد بالخطاب العام لما أن المأمور به من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وقرىء بادغام النون والهمزة للانكار والتوبيخ أى أتجادلوننا (فِى اللهِ) أى فى دينه وتدعون أن دينه الحق هو اليهودية والنصرانية وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليهما وتقولون تارة لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى وتارة كونوا هودا أو نصارى تهتدوا (وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) جملة حالية وكذلك ما عطف عليها أى أتجادلوننا والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلا لأنه تعالى ربنا أى مالك أمرنا وأمركم (وَلَنَا أَعْمَالُنَا) الحسنة الموافقة لأمره (وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) السيئة المخالفة لحكمه (وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) فى تلك الأعمال لا نبتغى بها إلا وجهه فأنى لكم المحاجة وادعاء حقية ما أنتم عليه والطمع فى دخول الجنة بسببه ودعوة الناس إليه وكلمة أم فى قوله تعالى (أَمْ تَقُولُونَ) إما معادلة للهمزة فى قوله تعالى أتحاجوننا داخلة فى حيز الأمر على معنى أى الأمرين تأتون إقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ما أنتم عليه والحال ما ذكر أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء وتقولون (أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى) فنحن بهم مقتدون والمراد انكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما وإما منقطعة مقدرة ببل والهمزة دالة على الاضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء عليهم السلام وقرىء أم يقولون على صيغة الغيبة فهى منقطعة لا غير غير داخلة تحت الأمر واردة من جهته تعالى توبيخا لهم وانكارا عليهم لا من جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل. هذا وأما ما قيل من أن المعنى أتحاجوننا فى شأن الله واصطفائه نبيا من العرب دونكم لما روى أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا فنزلت ومعنى قوله تعالى وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم أنه لا اختصاص له تعالى بقوم دون قوم يصيب برحمته من يشاء من عباده فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا كما أكرمكم بأعمالكم كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحونه افحاما وتبكيتا فان كرامة النبوة إما تفضيل من الله تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء وإما افاضة حق على المستحقين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلى بالاخلاص فكما أن لكم أعمالا ربما يعتبرها الله تعالى فى اعطائها فلنا أيضا أعمال ونحن له مخلصون أى لا أنتم فمع عدم ملاءمته لسياق النظم الكريم وسياقه لا سيما على تقدير كون كلمة أم معادلة للهمزة غير صحيح فى نفسه لما أن المراد بالأعمال من الطرفين ما أشير اليه من الاعمال الصالحة والسيئة ولا ريب فى أن أمر الصلاح والسوء يدور على موافقة الدين المبنى على البعثة ومخالفته فكيف يتصور اعتبار تلك الاعمال

فى استحقاق النبوة واستعدادها المتقدم على البعثة بمراتب (قل ءأنتم أعلم أم الله) اعادة الامر ليست لمجرد تأكيد التوبيخ وتشديد الانكار عليهم بل للايذان بأن ما بعده ليس متصلا بما قبله بل بينهما كلام للمخاطبين مترتب على ما سبق مستتبع لما الحق قد ضرب عنه الذكر صفحا لظهوره وهو تصريحهم بما وبخوا عليه من الافتراء على الانبياء عليهم السلام كما فى قوله عز وجل قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون وقوله عز قائلا قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على فان تكرير قال فى الموضعين وتوسيطه بين قولى قائل واحد للايذان بأن بينهما كلاما للصاحبه متعلقا بالاول والثانى بالتبعية والاستتباع كما حرر فى محله أى كذبهم فى ذلك وبكتهم قائلا إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد نفى عن ابراهيم عليه السلام كلا الامرين حيث قال ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا واحتج عليه بقوله تعالى وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده وهؤلاء المعطوفون عليه عليه السلام أتباعه فى الدين وفاقا فكيف تقولون ما تقولون سبحان الله عما تصفون (ومن أظلم) انكار لان يكون أحد أظلم (ممن كتم شهادة) ثابتة (عنده) كائنة (من الله) وهى شهادته تعالى له عليه السلام بالحنيفية والبراءة من اليهودية والنصرانية حسبما تلى آنفا فعنده صفة لشهادة وكذا من الله جىء بهما للتعليل الانكار وتأكيده فان ثبوت الشهادة عنده وكونها من جناب الله عز وجل من أقوى الدواعى إلى إقامتها وأشد الزواجر عن كتمانها وتقديم الاول مع أنه متأخر فى الوجود لمراعاة طريقة الترقى من الادنى إلى الاعلى والمعنى أنه لا أحد أظلم من أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء وتعليق الاظلمية بمطلق الكتمان للايماء إلى أن مرتبة من يردها ويشهد بخلافها فى الظلم خارجة عن دائرة البيان أو لا أحد أظلم منا لو كتمناها فالمراد بكتمها عدم اقامتها فى مقام المحاجة وفيه تعريض بغاية أظلمية أهل الكتاب على نحو ما أشير اليه وفى اطلاق الشهادة مع أن المراد بها ما ذكر من الشهادة المعينة تعريض بكتمانهم شهادة الله عز وجل للنبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والانجيل (وما الله بغافل عما تعملون) من فنون السيئات فيدخل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وافتراؤهم على الانبياء عليهم الصلاة والسلام دخولا أوليا أى هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون فيعاقبكم بذلك أشد عقاب وقرىء عما يعملون على صيغة الغيبة فالضمير اما لمن كتم باعتبار المعنى واما لاهل الكتاب وقوله تعالى ومن أظلم إلى آخر الآية مسوق من جهته تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدهم بالوعيد (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) تكرير للمبالغة فى الزجر عما هم عليه من الافتخار بالآباء والاتكال على أعمالهم وقيل الخطاب السابق لهم وهذا لنا تحذيرا عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالامة الاولى الانبياء عليهم السلام وبالثانية أسلاف اليهود (سيقول السفهاء) أى الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والاعراض عن التدبر والنظر من قولهم ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج وقيل السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم وقيل الظلوم الجهول والمراد بالسفهاء هم اليهود على ما روى عن ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم قالوه انكارا للنسخ وكراهة للتحويل حيث كانوا يأنسون بموافقته عليه الصلاة والسلام لهم فى القبلة وقيل هم المنافقون وهو الانسب بقوله عز وعلا ألا انهم هم السفهاء وإنما قالوه لمجرد الاستهزاء والطعن لا لاعتقادهم حقية القبلة الاولى وبطلان الثانية إذ ليس كلهم من اليهود وقيل هم المشركون ولم يقولوه كراهة للتحويل إلى مكة بل طعنا فى الدين فانهم كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائه ثم رجع اليها وليرجعن إلى دينهم أيضا وقيل هم القادحون فى التحويل منهم جميعا فيكون قوله تعالى (من الناس) أى الكفرة لبيان أن ذلك القول المحكى لم يصدر عن كل فرد فرد من تلك الطوائف الثلاث بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض فى فنون الفساد وهو الاظهر إذ لو أريد بهم طائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة وتخصيص سفهائهم بالذكر لا يقتضى تسليم الباقين

للتحويل وارتضاهم إياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقا أو بالعبارة المحكية (مَا وَلَّـٰهُمْ) أى أى شىء صرفهم والاستفهام للانكار والنفى (عَنْ قِبْلَتِهِمُ) القبلة فعلة من المقابلة كالوجهة من المواجهة وهى الحالة التى يقابل الشىء غيره عليها كالجلسة للحالة التى يقع عليها الجلوس يقال لا قبلة له ولا دبرة إذا لم يهتد لجهة أمره غلبت على الجهة التى يستقبلها الانسان فى الصلاة والمراد بها ههنا بيت المقدس وإضافتها إلى ضمير المسلمين ووصفها بقوله تعالى (الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا) أى ثابتين مستمرين على التوجه اليها ومراعاتها واعتقاد حقيقتها لتأكيد الانكار فان الاختصاص بالشىء والاستمرار عليه باعتقاد حقيته مما ينافى الانصراف عنه فان أريد بالقائلين اليهود فمدار الانكار كراهتهم للتحويل عنها وزعمهم أنه خطأ وإن أريد بهم المشركون فمداره مجرد القصد إلى الطعن فى الدين والقدح فى أحكامه واظهار أن كلا من التوجه اليها والانصراف عنها واقع بغير داع اليه لا لكراهتهم الانصراف عنها أو التوجه الى مكة وتعليق الانكار بما يوليهم عنها لا بما يوجههم إلى غيرها مع تلازمهما فى الوجود لما أن ترك الدين القديم أبعد عند العقول وانكار سببه أدخل لا للايذان بأن المنكرين هم اليهود بناء على أن المنكر عندهم هو التحويل عن خصوصية بيت المقدس الذى هو القبلة الحقة عندهم لا التوجه الى خصوصية قبلة أخرى أو هم المشركون بناء على أن المنكر عندهم ترك القبلة القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجه الى الكعبة لأنه الحق عندهم فانه بمعزل عن ذلك كيف لا والمنافقون من أحد الفريقين لا محالة والإخبار بذلك قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أخبر لتوطين النفوس واعداد ما يبكتهم فان مفاجأة المكروه على النفس اشق وأشد والجواب العتيد لشغب الخصم الالد أرد وقوله عز وجل (قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا أقول عند ذلك فقيل قل الخ أى لله تعالى ناحيتا الأرض أى الجهات كلها ملكا وملكا وتصرفا فلا اختصاص لناحية منها لذاتها بكونها قبلة بدون ما عداها بل انما هو بأمر الله سبحانه وبمشيئته (يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ) أن يهديه مشيئة تابعة للحكم الخفية التى لا يعلمها الا هو (إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) موصل الى سعادة الدارين وقد هدانا الى ذلك حيث أمرنا بالتوجه الى بيت المقدس تارة والى الكعبة أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المقارنة لحكم أبية ومصالح خفية (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ) توجيه للخطاب الى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتأييد ما فى مضمون الكلام من التشريف وذلك اشارة الى مصدر جعلناكم لا الى جعل آخر مفهوم مما سبق كما قيل وتوحيد الكاف مع القصد الى المؤمنين لما أن المراد مجىء الفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير جعلناكم أمة وسطا جعلا كائنا مثل ذلك الجعل فقدم على الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتا له أى ذلك الجعل البديع جعلناكم (أُمَّةً وَسَطًا) لا جعلا آخر أدنى منه والوسط فى الأصل اسم لما يستوى نسبة الجوانب اليه كمركز الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكن لا لأن الأطراف يتسارع اليها الخلل والاعواز والأوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول ابن أوس الطائى :

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فان تلك العلاقة بمعزل من الاعتبار فى هذا المقام اذ لا ملابسة بينها وبين أهلية الشهادة التى جعلت غاية للجعل المذكور بل لكون تلك الخصال أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرق الافراط والتفريط كالعفة التى طرفاها الفجور والخمود وكالشجاعة التى طرفاها التهور والجبن وكالحكمة التى طرفاها الجربزة والبلادة وكالعدالة التى هى كيفية

متشابهة حاصلة من اجتماع تلك الأوساط المحفوفة بأطرافها ثم أطلق على المتصف بها مبالغة كأنه نفسها وسوى فيه بين المفرد والجمع والمذكر والمؤنث رعاية لجانب الأصل كدأب سائر الأسماء التى يوصف بها وقد روعيت ههنا نكتة رائقة هى أن الجعل المشار اليه عبارة عما تقدم ذكره من هدايته تعالى الى الحق الذى عبر عنه بالصراط المستقيم الذى هو الطريق السوى الواقع فى وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب فانا إذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة كون الأمة المهدية اليه أمة وسطا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة أى متصفة بالخصال الحميدة خيارا وعدولا مزكين بالعلم والعمل (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) بأن الله عز وجل قد أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا وذكروا فهل من مدكر وهى غاية للجعل المذكور مترتبة عليه فان العدالة كما أشير اليه حيث كانت هى الكيفية المتشابهة المتألفة من العفة التى هى فضيلة القوة الشهوية البهيمية والشجاعة التى هى فضيلة القوة الغضبية السبعية والحكمة التى هى فضيلة القوة العقلية الملكية المشار إلى رتبتها بقوله عز وعلا ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا كان المتصف بها واقفا على الحقائق المودعة فى الكتاب المبين المنطوى على أحكام الدين وأحوال الأمم أجمعين حاويا للشرائط الشهادة عليهم روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء عليهم السلام فيطالبهم الله تعالى بالبينة وهو أعلم إقامة للحجة على المنكرين وزيادة لخزيهم بأن كذبهم من بعدهم من الأمم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فيقول الأمم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك باخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله عز قائلا (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) وكلمة الاستعلاء لما فى الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن ولتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لا يقبل فيه الشهادة إلا من العدول الاخيار وتقديم الظرف للدلالة على اختصاص شهادته عليه السلام بهم (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا) جرد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم رمزا إلى أن مضمون الكلام من الأسرار الحقيقة بأن يخص معرفته به عليه السلام وليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثان للجعل وما قيل من أن الجعل تحويل الشىء من حالة إلى أخرى فالملتبس بالحالة الثانية هو المفعول الثانى كما فى قولك جعلت الطين خزفا فينبغى أن يكون المفعول الأول هو الموصول والثانى هو القبلة فكلام صناعى ينساق اليه الذهن بحسب النظر الجليل ولكن التأمل اللائق يهدى إلى العكس فان المقصود افادته ليس جعل الجهة قبلة لا غير كما يفيده ما ذكر بل هو جعل القبلة المحققة الوجود هذه الجهة دون غيرها والمراد بالموصول هى الكعبة فانه عليه الصلاة والسلام كان يصلى إليها أولا ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى الصخرة تألفا لليهود أو هى الصخرة لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن قبلته عليه السلام بمكة كانت بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه وعلى هذه الرواية لا يمكن أن يراد بالقبلة الأولى الكعبة وأما الصخرة فيتأتى إرادتها على الروايتين والمعنى على الأول وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها أثر ذى أثير وهى الكعبة وعلى الثانى وما جعلناها التى كنت عليها قبل هذا الوقت وهى الصخرة (إِلَّا لِنَعْلَمَ) استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعلنا ذلك لشىء من الأشياء إلا لنمتحن الناس أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم ونعلم حينئذ (مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ) فى التوجه إلى ما أمر به من الدين أو القبلة والالتفات إلى الغيبة مع إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للاشعار بعلة الاتباع (مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) يرتد عن دين الإسلام أو لا يتوجه إلى القبلة الجديدة أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله وعلى الأول ما رددناك الى ما كنت عليه الا لنعلم الثابت على الإسلام والناكص على عقبيه لقلقه وضعف ايمانه والمراد بالعلم

مايدور عليه فلك الجزاء من العلم الحالى أى ليتعلق علمنا به موجودا بالفعل وقيل المراد علم الرسول عليه السلام والمؤمنين واسناده اليه سبحانه لما أنهم خواصه وليتميز الثابت عن المتزلزل كقوله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب فوضع العلم موضع التمييز الذى هو مسبب عنه ويشهد له قراءة ليعلم على بناء المجهول من صيغة الغيبة والعلم امابمعنى المعرفة أو متعلق بما فى من من معنى الاستفهام أو مفعوله الثانى ممن ينقلب الخ أى لنعلم من يتبع الرسول متميزا ممن ينقلب على عقبيه (وَإِنْ كانتْ لَكَبِيرَةً) أى شاقة ثقيلة وإن هى المخففة من الثقيلة دخلت على ناسخ المبتدأ والخبر واللام هى الفارقة بينها وبين النافية كما فى قوله تعالى إن كان وعد ربنا لمفعولا وزعم الكوفيون أنها نافية واللام بمعنى إلا أى ما كانت إلا كبيرة والضمير الذى هو اسم كان راجع إلى مادل عليه قوله تعالى وماجعلنا القبلة التى كنت عليها من الجعلة أو التولية أو التحويلة أو الردة أو القبلة وقرىء لكبيرة بالرفع على أن كان مزيدة كما فى قوله : واخوان لنا كانوا كرام وأصله وإن هى لكبيرة كقولك ان زيد لمنطلق (إلا على الذينَ هَدَى اللهُ) أى إلى سر الاحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح اجمالا وتفصيلا وهم المهديون إلى الصراط المستقيم الثابتون على الإيمان واتباع الرسول عليه السلام (وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمَانَكُم) أى ماصح وما استقام له أن يضيع ثباتكم على الإيمان بل شكر صنيعكم وأعد لكم الثواب العظيم وقيل إيمانكم بالقبلة المنسوخة وصلاتكم اليها لما روى أنه عليه السلام لما توجه إلى الكعبة قالوا كيف حال اخواننا الذين مضوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فنزلت واللام فى ليضيع اما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريدا أو متصديا لأن يضيع الخ ففى توجيه النفى إلى ارادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس فى توجيهه إلى نفسه وامامزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله تعالى (إنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له فان اتصافه عز وجل بهما يقتضى لامحالة أن لايضيع أجورهم ولايدع مافيه صلاحهم والباء متعلقة برؤف وتقديمه على رحيم مع كونه أبلغ منه لما مر فى وجه تقديم الرحمن على الرحيم وقيل الرحمة أكثر من الرأفة فى الكمية والرأفة أقوى منها فى الكيفية لأنها عبارة عن إيصال النعم الصافية عن الآلام والرحمة إيصال النعمة مطلقا وقد يكون مع الألم كقطع العضو المتأكل وقرىء رؤف بغير مد كندس (قدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّماءِ) أى تردده وتصرف نظرك فى جهتها تطلعا للوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقع فى روعه ويتوقع من ربه عز وجل أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة ابراهيم وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل بالوحى بالتحويل (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً) الفاء للدلالة على سببية ماقبلها لما بعدها وهى فى الحقيقة داخلة على قسم محذوف يدل عليه اللام أى فوالله لنولينك أى لنعطينكها ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا أى صيرته واليا له أو لنجعلنك تلى جهتها أو لنحولنك على أن نصب قبلة بحذف الجار أى إلى قبلة وقيل هو متعد إلى مفعولين (تَرْضَاهَا) تحبها وتشتاق اليها لمقاصد دينية وافقت مشيئته تعالى وحكمته (فَوَلِّ وَجْهَكَ) الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم وتخصيص التولية بالوجه لما أنه مدار التوجه ومعياره وقيل المراد به كل البدن أى فاصرفه (شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ) أى نحوه وهو نصب على الظرفية من ول أو على نزع الخافض أو على أنه مفعول ثان له وقيل الشطر فى الاصل اسم لما انفصل من الشىء ودار شطور اذا كانت منفصلة عن الدور ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل كالقطر والحرام المحرم أى محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوا له وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ايذان بكفاية مراعاة الجهة لأن فى مراعاة العين من البعيد حرجا عظيما بخلاف القريب . روى عن البراء ابن عازب أن نبى الله صلى الله

عليه وسلم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه إلى الكعبة وقيل كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى المسجد مسجد القبلتين (وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب تعظيما لجنابه وايذانا باسعاف مرامه ثم عمم الخطاب للمؤمنين مع التعرض لاختلاف أماكنهم تأكيدا للحكم وتصريحا بعمومه لكافة العباد من كل حاضر وباد وحثا للامة على المتابعة وحيثما شرطية وكنتم فى محل الجزم بها وقوله تعالى فولوا جوابها وتكون هى منصوبة على الظرفية بكنتم نحو قوله تعالى أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى (وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) من فريقى اليهود والنصارى (لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ) أى التحويل أو التوجه المفهوم من التولية (الْحَقُّ) لاغير لعلمهم بأن عادته سبحانه وتعالى جارية على تخصيص كل شريعة بقبلة ومعاينتهم لما هو مسطور فى كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام يصلى إلى القبلتين كما يشعر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصول بايتاء الكتاب وان مع اسمها وخبرها سادة مسد مفعولى يعلمون أو مسد مفعوله الواحد على أن العلم بمعنى المعرفة وقوله تعالى (مِن رَّبِّهِمْ) متعلق بمحذوف وقع حالا من الحق أى كائنا من ربهم أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائن من ربهم (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) وعد ووعيد للفريقين والخطاب للكل تغليبا وقرىء على صيغة الغيبة فهو وعيد لأهل الكتاب (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) وضع الموصول موضع المضمر للايذان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقق ما يرغمهم منه من الكتاب الناطق بحقية ما كابروا فى قبوله (بِكُلِّ آيَةٍ) أى حجة قطعية دالة على حقية التحويل واللام موطئة للقسم وقوله تعالى (مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ) جواب للقسم المضمر سادمسد جواب الشرط والمعنى أنهم ماتركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة وانما خالفوك مكابرة وعنادا وتجريد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه للامة لما أن المحاجة والاتيان بالآية من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقوله تعالى (وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ) جملة معطوفة على الجملة الشرطية لا على جوابها مسوقة لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذى ننتظره تغريرا له عليه الصلاة والسلام وطمعا فى رجوعه وايثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره وافراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادها فى البطلان ومخالفة الحق ولئلا يتوهم أن مدار النفى هو التعدد وقرىء بتابع قبلتهم على الاضافة (وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ) فان اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلب كل فريق فيما هو فيه (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم) الزائغة المتخالفة (مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) ببطلانها وحقية ما أنت عليه وهذه الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والالهاب للثبات على الحق أى ولئن اتبعت أهواءهم فرضا (إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى فان من ليس من شأنه ذلك إذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه مارتب من الانتظام فى سلك الراسخين فى الظلم فما ظن من ليس كذلك واذن حرف جواب وجزاء توسطت بين اسم ان وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة إذ كان حقها أن تتقدم أو تتأخر فلم تتقدم لئلا يتوهم أنها لتقرير النسبة التى بين الشرط وجوابه المحذوف لأن المذكور جواب القسم ولم تتأخر لرعاية الفواصل ولقد بولغ فى التأكيد من وجوه تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتفائه وتحذيرا عن متابعة الهوى واستعظاما لصدور الذنب من الانبياء عليهم السلام (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) أى علماءهم إذ هم العمدة فى إيتائه ووضع الموصول موضع المضمر مع قرب العهد للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة للحكم والضمير المنصوب فى قوله تعالى (يَعْرِفُونَهُ) للرسول صلى الله عليه وسلم

والالتفات إلى الغيبة للايذان بأن المراد ليس معرفتهم له عليه السلام من حيث ذاته ونسبه الزاهر بل من حيث كونه مسطوراً في الكتاب منعوتاً فيه بالنعوت التي من جملتها أنه عليه السلام يصلي إلى القبلتين كأنه قيل الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا يظهر جزالة النظم الكريم وقيل هو إضمار قبل الذكر للاشعار بفخامة شأنه عليه الصلاة والسلام أنه علم معلوم بغير إعلام فتأمل وقيل الضمير للعلم أو سببه الذي هو الوحي أو القرآن أو التحويل ويؤيد الأول قوله عز وجل (كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) أي يعرفونه عليه الصلاة والسلام بأوصافه الشريفة المكتوبة في كتابهم ولا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكونهم أعرف عندهم منهن بسبب كونهم أحب إليهم عن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنا أعلم به مني بابني قال ولم قال لأني لست أشك فيه أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه رضي الله عنهما (وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) هم الذين كابروا وعاندوا الحق والباقون هم الذين آمنوا منهم فانهم يظهرون الحق ولا يكتمونه وأما الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب ولا بما في تضاعيفه فما هم بصدد الاظهار ولا بصدد الكتم وإنما كفرهم على وجه التقليد (الْحَقُّ) بالرفع على أنه مبتدأ وقوله تعالى (مِن رَّبِّكَ) خبره واللام للعهد والإشارة إلى ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الحق الذي يكتمونه أو للجنس والمعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا غيره كالذي عليه أهل الكتاب أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق وقوله تعالى من ربك إما حال أو خبر بعد خبر وقرىء بالنصب على أنه بدل من الأول أو مفعول ليعلمون وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) أي الشاكين في كتمانهم الحق عالمين به وقيل في أنه من ربك وليس المراد به نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك فيه لأنه غير متوقع منه عليه السلام وليس بقصد واختيار بل إما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ (وَلِكُلٍّ) أي ولكل أمة من الأمم على أن التنوين عوض من المضاف إليه (وِجْهَةٌ) أي قبلة وقد قرىء كذلك أو لكل قوم من المسلمين جانب من جوانب الكعبة (هُوَ مُوَلِّيهَا) أحد المفعولين محذوف أي موليها وجهه أو الله موليها إياه وقرىء ولكل وجهة بالإضافة والمعنى ولكل وجهة الله موليها أهلها واللام مزيدة للتأكيد وجبر ضعف العامل وقرىء مولاها أي مولى تلك الجهة قد وليها (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) أي تسابقوا إليها بنزع الجار كما في قوله :

ثنائي عليكم آل حرب ومن يمل   سواكم فاني مهتد غير مائل

وهو أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق والمراد بالخيرات جميع أنواعها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين أو الفاضلات من الجهات وهي المسامتة للكعبة (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً) أي في أي موضع تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو متفرقها يحشركم الله تعالى إلى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من الجهات المختلفة المتقابلة يجعل صلواتكم كأنها صلاة إلى جهة واحدة (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فيقدر على الاماتة والاحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ) تأكيد لحكم التحويل وتصريح بعدم تفاوت الأمر في حالتي السفر والحضر ومن متعلقة بقوله تعالى (فَوَلِّ) أو بمحذوف عطف هو عليه أي من أي مكان خرجت إليه للسفر فول (وَجْهَكَ) عند صلاتك (شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أو افعل ما أمرت به من أي مكان خرجت إليه فول الخ (وَإِنَّهُ) أي هذا

الأمر (لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) أى الثابت الموافق للحكمة (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو وعد للمؤمنين وقرىء يعملون على صيغة الغيبة فهو وعيد للكافرين (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ) اليه فى أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) الكلام فيه كما مر آنفا (وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ) من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين حسبما يعرب عنه إيثار كنتم على خرجتم فان الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين فى الآفاق من الحاضرين والمسافرين فلو قيل وحيثما خرجتم لما تناول الخطاب المقيمين فى الأماكن المختلفة من حيث إقامتهم فيها (فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ) من محالكم (شَطْرَهُ) والتكرير لما أن القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحرى أن يؤكد أمرها مرة غب أخرى مع أنه قد ذكر فى كل مرة حكمة مستقلة (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ) متعلق بقوله تعالى فولوا وقيل بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل فعلنا ذلك لئلا الخ والمعنى أن التولية عن الصخرة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة من أوصافه أنه يحول إلى الكعبة واحتجاج المشركين بأنه يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) وهم أهل مكة لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم الذين يقولون ماتحول إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحبا لبلده أو بداله فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم وتسمية هذه الكلمة الشنعاء حجة مع أنها أخس الأباطيل من قبيل مافى قوله تعالى حجتهم داحضة حيث كانوا يسوقونها مساق الحجة وقيل الحجة بمعنى مطلق الاحتجاج وقيل الاستثناء للمبالغة فى نفى الحجة رأسا كالذى فى قوله : ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ضرورة أن لا حجة للظالم وقرىء ألا الذين بحرف التنبيه على أنه استئناف (فَلَا تَخْشَوْهُمْ) فان مطاعنهم لا تضركم شيئاً (وَاخْشَوْنِي) فلا تخالفوا أمرى (وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) علة لمحذوف يدل عليه النظم الكريم أى وأمرتكم بما مر لاتمام النعمة عليكم لما أنه نعمة جليلة ولارادتى اهتدائكم لما أنه صراط مستقيم مؤد إلى سعادة الدارين كما أشير اليه فى قوله عز وجل يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وفى التعبير عن الارادة بكلمة لعل الموضوعة للترجى على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية مالا يخفى أو عطف على علة مقدرة أى واخشونى لأحفظكم عنهم وأتم الخ أو على قوله تعالى لئلا يكون الخ وتوسيط قوله تعالى فلا تخشوهم الخ بينهما للمسارعة إلى التسلية والتثبيت وفى الخبر تمام النعمة دخول الجنة وعن على رضى الله عنه تمام النعمة الموت على الاسلام (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ) متصل بما قبله والظرف الأول متعلق بالفعل قدم على مفعوله الصريح لما فى صفاته من الطول والظرف الثانى متعلق بمضمر وقع صفة لرسولا مبينة لتمام النعمة أى ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى الآخرة اتماما كائنا كاتمامى لها بإرسال رسول كائن منكم فان إرسال الرسول لاسيما المجانس لهم نعمة لا يكافئها نعمة قط وقيل متصل بما بعده أى كما ذكرتم بالارسال فاذكرونى الخ وإيثار صيغة المتكلم مع الغير بعد التوحيد فيما قبله افتنان وجريان على سنن الكبرياء (يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا) صفة ثانية لرسولا كاشفة لكمال النعمة (وَيُزَكِّيكُمْ) عطف على يتلو أى يحملكم على ما تصيرون به أزكياء (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) صفة أخرى مترتبة فى الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم لتبادر إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر نظيره فى قصة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب

والحكمة رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الأحاديث الشريفة
من الشرائع وقوله عزوجل (وَيُعَلِّمُكُم مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) صريح فى ذلك فان الموصول مع كونه عبارة عن
الكتاب والحكمة قطعا قد عطف تعليمه على تعليمهما وما ذلك إلا لتفصيل فنون النعم فى مقام يقتضيه كما فى قوله تعالى
ونجيناهم من عذاب غليظ عقيب قوله تعالى نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا والمراد بعدم علمهم أنه ليس من شأنهم
أن يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم لانحصار الطريق فى الوحى (فاذْكُرُونِى) الفاء للدلالة على ترتب الأمر
على ماقبله من موجباته أى فاذكرونى بالطاعة (أَذْكُرْكُمْ) بالثواب وهو تحريض على الذكر مع الاشعار بما يوجبه
(وَاشْكُرُوا لِى) ما أنعمت به عليكم من النعم (وَلَا تَكْفُرُونِ) بجحدها وعصيان ما أمرتكم به (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا)
وصفهم بالايمان اثر تعداد مايوجبه ويقتضيه تنشيطا لهم وحثا على مراعاة مايعقبه من الأمر (اسْتَعِينُوا) فى كل
ماتأتون وماتذرون (بِالصَّبْرِ) على الأمور الشاقة على النفس التى من جملتها معاداة الكفرة ومقابلتهم المؤدية إلى
مقاتلتهم (وَالصَّلَوٰةِ) التى هى أم العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين (إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ) تعليل
للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاج إلى التعليل وأما الصلاة فحيث كانت عند المؤمنين أجل المطالب كما ينبىء
عنه قوله عليه السلام وجعلت قرة عينى فى الصلاة لم يفتقر الأمر بالاستعانة بها إلى التعليل ومعنى المعية الولاية الدائمة
المستتبعة للنصرة وإجابة الدعوة ودخول مع على الصابرين لما أنهم المباشرون للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك
الحيثية (وَلَا تَقُولُوا) عطف على استعينوا الخ مسوق لبيان أن لاغائلة للمأمور به وأن الشهادة التى ربما يؤدى إليها
الصبر حياة أبدية (لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَٰتٌ) أى هم أموات (بَلْ أَحْيَاءٌ) أى بل هم أحياء (وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ) بحياتهم وفيه رمز إلى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وإنما هى أمر روحانى
لايدرك بالعقل بل بالوحى وعن الحسن رحمه الله أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم
الروح والفرح كما تعرض النار على آل فرعون غدوا وعشيا فيصل إليهم الألم والوجع قلت رأيت فى المنام سنة تسع
وثلاثين وتسعمائة أنى أزور قبور شهداء أحد رضى الله تعالى عنهم أجمعين وأنا أتلو هذه الآية ومافى سورة آل عمران
وأرددهما متفكراً فى أمرهم وفى نفسى أن حياتهم روحانية لاجسمانية فبينما أنا على ذلك إذ رأيت شابا منهم قاعدا فى قبره
تام الجسد كامل الخلقة فى أحسن مايكون من الهيئة والمنظر ليس عليه شىء من اللباس قد بدا منه مافوق السرة والباقى فى
القبر خلا أنى أعلم يقينا أن ذلك أيضا كما ظهر وإنما لايظهر لكونه عورة فنظرت إلى وجهه فرأيته ينظر إلى متبسما كأنه
ينبهنى على أن الأمر بخلاف رأيى فسبحان من علت كلمته وجلت حكمته وقيل الآية نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر
وفيها دلالة على أن الارواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور
الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبه نطقت الآيات والسنن وعلى هذا فتخصيص الشهداء بذلك لما
يستدعيه مقام التحريض على مباشرة مبادى الشهادة ولاختصاصهم بمزيد القرب من الله عزوعلا (وَلَنَبْلُوَنَّكُم)
لنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء (بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ) أى بقليل
من ذلك فان ماوقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة وكذا مايصيب به معانديهم وإنما أخبر به قبل الوقوع
ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شىء يسير له عاقبة حميدة (وَنَقْصٍ
مِّنَ الْأَمْوَٰلِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ) عطف على شىء وقيل على الخوف وعن الشافعى رحمه الله الخوف خوف الله
والجوع صوم رمضان ونقص من الاموال الزكاة والصدقات ومن الانفس الامراض ومن الثمرات موت الاولاد

وعن النبي صلى الله عليه وسلم إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم روح ولد عبدي فيقولون نعم فيقول عز وجل أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله عز وعلا ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه البشارة والمصيبة ما يصيب الانسان من مكروه لقوله عليه السلام كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب بأن يتصور ما خلق له وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله تعالى عليه ويرى أن ما أبقى عليه أضعاف ما استرده منه فيهون ذلك على نفسه ويستسلم والمبشر به محذوف دل عليه ما بعده (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت ومعنى البعد فيه للايذان بعلو رتبتهم (عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) الصلاة من الله سبحانه المغفرة والرأفة وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة كما في قوله تعالى رأفة ورحمة رؤف رحيم والتنوين فيهما للتفخيم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم لاظهار مزيد العناية بهم أي أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة عليهم فنون الرأفة الفائضة من مالك أمورهم ومبلغهم إلى كمالاتهم اللائقة بهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه (وَأُولَٰئِكَ) إشارة إليهم اما بالاعتبار السابق والتكرير لاظهار كمال العناية بهم واما باعتبار حيازتهم لما ذكر من الصلوات والرحمة المترتب على الاعتبار الأول فعلى الأول المراد بالاهتداء في قوله عز وجل (هُمُ الْمُهْتَدُونَ) هو الاهتداء للحق والصواب مطلقا لا الاهتداء لما ذكر من الاسترجاع والاستسلام خاصة لما أنه متقدم عليهما فلا بد لتأخيره عما هو نتيجة لهما من داع يوجبه وليس بظاهر والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله كأنه قيل وأولئك هم المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى وعلى الثاني هو الاهتداء والفوز بالمطالب والمعنى أولئك هم الفائزون بمباغيهم الدينية والدنيوية فان من نال رأفة الله تعالى ورحمته لم يفته مطلب (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ) علمان لجبلين بمكة المعظمة كالصمان والمقطم (مِن شَعَائِرِ اللَّهِ) من أعلام مناسكه جمع شعيرة وهي العلامة (فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ) الحج في اللغة القصد والاعتمار الزيارة غلبا في الشريعة على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم في الاعيان وحيث أظهر البيت وجب تجريده عن التعلق به (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا) أي في أن يطوف بهما أصله يتطوف قلبت التاء طاء فادغمت الطاء في الطاء وفي ايراد صيغة التفعل إيذان بأن من حق الطائف أن يتكلف في الطواف ويبذل فيه جهده وهذا الطواف واجب عندنا والشافعي وعن مالك رحمهما الله أنه ركن وايراده بعدم الجناح المشعر بالتخيير لما أنه كان في عهد الجاهلية على الصفا صنم يقال له اساف وعلى المروة آخر اسمه نائلة وكانوا إذا سعوا بينهما مسحوا بهما فلما جاء الاسلام وكسر الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت وقيل هو تطوع ويعضده قراءة ابن مسعود فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما (وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا) أي فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف وخيرا حينئذ نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أي تطوعا خيرا أو على حذف الجار وإيصال الفعل إليه أو على تضمين معنى فعل وقرىء يطوع وأصله يتطوع مثل يطوف وقرىء ومن يتطوع بخير (فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ) أي مجاز على الطاعة عبر عن ذلك بالشكر مبالغة في الاحسان إلى العباد (عَلِيمٌ) مبالغ في العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئاً وهو علة لجواب الشرط قائم مقامه كأنه قيل ومن تطوع خيرا جازاه الله وأثابه فان الله شاكر عليم (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ) قيل نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا ما في التوراة من نعوت النبي

صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الأحكام وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدى والربيع والأصم أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وقيل نزلت فى كل من كتم شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل والأقرب هو الأول فان عموم الحكم لا يأبى خصوص السبب والكتم والكتمان ترك إظهار الشىء قصداً مع مساس الحاجة اليه وتحقق الداعى إلى اظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه وقد يكون بإزالته ووضع شىء آخر فى موضعه وهو الذى فعله هؤلاء (مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ) من الآيات الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم (وَالْهُدَى) أى والآيات الهادية إلى كنه أمره ووجوب اتباعه والإيمان به عبر عنها بالمصدر مبالغة ولم يجمع مراعاة للاصل وهى المرادة بالبينات أيضاً والعطف لتغاير العنوان كما فى قوله عز وجل هدى للناس وبينات الخ وقيل المراد بالهدى الأدلة العقلية ويأباه الانزال والكتم (مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ) متعلق بيكتمون والمراد بالناس الكل لا الكاتمون فقط واللام متعلقة ببيناه وكذا الظرف فى قوله تعالى (فِي الْكِتَابِ) فان تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى مما لاريب فى جوازه أو الأخير متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى كائنا فى الكتاب وتبيينه لهم تلخيصه وايضاحه بحيث يتلقاه كل أحد منهم من غير أن يكون له فيه شبهة وهذا عنوان مغاير لكونه بينا فى نفسه وهدى مؤكد لقبح الكتم أو تفهيمه لهم بواسطة موسى عليه السلام والأول أنسب بقوله تعالى فى الكتاب والمراد بكتمه إزالته ووضع غيره فى موضعه فانهم محوا نعته عليه الصلاة والسلام وكتبوا مكانه ما يخالفه كما ذكرناه فى تفسير قوله عز وعلا فويل للذين يكتبون الكتاب الخ (أُولَئِكَ) اشارة إليهم باعتبار ما وصفوا به للاشعار بعليته لما حاق بهم وما فيه من معنى البعد للايذان بترامى أمرهم وبعد منزلتهم فى الفساد (يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ) أى يطردهم ويبعدهم من رحمته والالتفات إلى الغيبة باظهار اسم الذات الجامع للصفات لتربية المهابة وادخال الروعة والاشعار بأن مبدأ صدور اللعن عنه سبحانه صفة الجلال المغايرة لما هو مبدأ الانزال والتبيين من وصف الجمال والرحمة (وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) أى الذين يتأتى منهم اللعن أى الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمنى الثقلين والمراد بيان دوام اللعن واستمراره وعليه يدور الاستثناء المتصل فى قوله تعالى (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) أى عن الكتمان (وَأَصْلَحُوا) أى ما أفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرف وكتبوا مكانه ما كانوا أزالوه عند التحريف (وَبَيَّنُوا) للناس معانيه فانه غير الاصلاح المذكور أو بينوا لهم ما وقع منهم أولا وآخراً فانه أدخل فى ارشاد الناس إلى الحق وصرفهم عن طريق الضلال الذى كانوا أوقعوهم فيه أو بينوا توبتهم ليمحوا به سمة ما كانوا فيه ويقتدى بهم أضرابهم وحيث كانت هذه التوبة المقرونة بالإصلاح والتبيين مستلزمة للتوبة عن الكفر مبنية عليها لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى (فَأُولَئِكَ) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة للاشعار بعليته للحكم والفاء لتأكيد ذلك (أَتُوبُ عَلَيْهِمْ) أى بالقبول وافاضة المغفرة والرحمة وقوله تعالى (وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) أى المبالغ فى قبول التوب ونشر الرحمة اعتراض تذييلى محقق لمضمون ما قبله والالتفات إلى التكلم للافتنان فى النظم الكريم مع ما فيه من التلويح والرمز إلى ما مر من اختلاف المبدأ فى فعليه تعالى السابق واللاحق (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) جملة مستأنفة سيقت لتحقيق بقاء اللعن فيما وراء الاستثناء وتأكيد دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يفيده الكلام والاقتصار على ذكر الكفر فى الصلة من غير تعرض لعدم التوبة والاصلاح والتبيين مبنى على ما أشير اليه فكما أن وجود تلك الامور الثلاثة مستلزم للايمان الموجب لعدم الكفر كذلك وجود الكفر مستلزم لعدمها جميعا أى أن الذين استمروا على الكفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة (وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ) لا يرعوون عن حالتهم الأولى (أُولَئِكَ) الكلام فيه كما فيما قبله (عَلَيْهِمْ) أى مستقر عليهم (لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ممن يعتد بلعنتهم وهذا بيان لدوامها الثبوتى بعد بيان دوامها التجددى وقيل

الأول لعنتهم أحياء وهذا لعنتهم أمواتا وقرىء والملائكة والناس أجمعون عطفا على محل اسم الله لانه فاعل فى المعنى كقولك أعجبنى ضرب زيد وعمرو تريد من أن ضرب زيد وعمرو وكانه قيل أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة الخ وقيل هو فاعل لفعل مقدر أى ويلعنهم الملائكة (خَـٰلِدِينَ فِيهَا) أى فى اللعنة أو فى النار على أنها أضمرت من غير ذكر تفخيما لشأنها وتهويلا لأمرها (لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ) اما مستأنف لبيان كثرة عذابهم من حيث الكيف اثر بيان كثرته من حيث الكم أو حال من الضمير فى خالدين على وجه التداخل أو من الضمير فى عليهم على طريقة الترادف (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) عطف على ماقبله جار فيه ماجرى فيه وايثار الجملة الاسمية لافادة دوام النفى واستمراره أى لايمهلون ولا يؤجلون أولا ينتظرون ليعتذروا أو لاينظر اليهم نظر رحمة (وَإِلَـٰهُكُمْ) خطاب عام لكافة الناس أى المستحق منكم للعبادة (إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ) أى فرد فى الالهية لاصحة لتسمية غيره الها أصلا (لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ) خبر ثان للمبتدا أو صفة أخرى للخبر أو اعتراض وأياً ما كان فهو مقرر للواحدانية ومزيح لما عسى يتوهم أن فى الوجود الها لكن لايستحق العبادة (ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ) خبران آخران للمبتدا أو لمبتدا محذوف وهو تقرير للتوحيد فانه تعالى حيث كان موليا لجميع النعم أصولها وفروعها جليلها ودقيقها وكان ماسواه كائناً ماكان مفتقرا اليه فى وجوده وما يتفرع عليه من كمالاته تحققت وحدانيته بلاريب وانحصر استحقاق العبادة فيه تعالى قطعا . قيل كان للمشركين حول الكعبة المكرمة ثلثمائة وستون صنما فلما سمعوا هذه الآية تعجبوا وقالوا إن كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت (إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أى فى ابداعهما على ماهما عليه مع مافيهما من تعاجيب العبر وبدائع صنائع يعجز عن فهمها عقول البشر وجمع السموات لماهو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الأرض (وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ) أى اعتقابهما وكون كل منهما خلفا للآخر كقوله تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة أو اختلاف كل منهما فى أنفسهما ازديادا وانتقاصا على ماقدره الله تعالى (وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ) عطف على ماقبله وتأنيثه اما بتأويل السفينة أو بأنه جمع فان ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد فى التقدير إذ الأولى كما فى حمر والثانية كما فى قفل وقرىء بضم اللام (بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ) أى ملتبسة بالذى ينفعهم مما يحمل فيها من أنواع المنافع أو بنفعهم (وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ) عطف على الفلك وتأخيره عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعا لما فيه من مزيد تفصيل وقيل المقصود الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لانه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لان منشأهما البحر فى غالب الأمر ومن الأولى ابتدائية والثانية بيانية أو تبعيضية وأياً ماكان فتأخيرها لما مر مرارا من التشويق والمراد بالسماء الفلك أو السحاب أو جهة العلو (فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ) بأنواع النبات والأزهار وماعليها من الأشجار (بَعْدَ مَوْتِهَا) باستيلاء اليبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها كما يوزن به إيراد الموت فى مقابلة الأحياء (وَبَثَّ فِيهَا) أى فرق ونشر (مِن كُلِّ دَآبَّةٍ) من العقلاء وغيرهم والجملة معطوفة على أنزل داخلة تحت حكم الصلة وقوله تعالى فأحيى الخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا فى حكم شىء واحد كانه قيل وما أنزل فى الأرض من ماء وبث فيها الخ أو على أحيى بحذف الجار والمجرور العائد إلى الموصول وان لم تتحقق الشرائط المعهودة كما فى قوله :

وان لسانى شهدة يشتفى بها ولكن على من صبه الله علقم أى علقم عليه

وقوله : لعل الذى أصعدتنى أن يردنى إلى الأرض ان لم يقدر الخير قادره

على معنى فأحيى بالماء الأرض وبث فيها من كل دابة فانهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا (وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ) عطف على ما أنزل أى تقليبها من مهب إلى آخر أو من حال إلى أخرى وقرىء على الافراد (وَٱلسَّحَابِ) عطف على

تصريف أو الرياح وهو اسم جنس واحده سحابة سمي بذلك لانسحابه في الجو (الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) صفة للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما في قوله تعالى سحابا ثقالا وتسخيره تقليبه في الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئة الله تعالى ولعل تأخير تصريف الرياح وتسخير السحاب في الذكر عن جريان الفلك وإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجي لما مر في قصة البقرة من الإشعار باستقلال كل من الامور المعدودة في كونها آية ولو روعى الترتيب الخارجي لربما توهم كون المجموع المترتب بعضه على بعض آية واحدة (لَآيَاتٍ) اسم إن دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا أي آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به سبحانه (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون العقول وفيه تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم آية تصدقه في قوله تعالى وإلهكم إله واحد وتسجيل عليهم بسخافة العقول وإلا فمن تأمل في تلك الآيات وجد كلا منها ناطقة بوجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى واستغنى بها عن سائرها فان كل واحد من الأمور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضي ذاته وجوده فضلا عن وجوده على نمط معين مستتبع لحكم مستقل فاذن لابد له حتما من موجد قادر حكيم يوجده حسبما تقتضيه حكمته وتستدعيه مشيئته متعال عن معارضة الغير إذ لو كان معه آخر يقدر على ما يقدر عليه لزم اما اجتماع المؤثرين على أثر واحد أو التمانع المؤدي إلى فساد العالم (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) بيان لكمال ركاكة آراء المشركين اثر تقرير وحدانيته سبحانه وتحرير الآيات الباهرة الملجئة للعقلاء إلى الاعتراف بها الفائضة باستحالة أن يشاركه شيء من الموجودات في صفة من صفات الكمال فضلا عن المشاركة في صفة الألوهية والكلام في إعرابه كما فصل في قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر الخ ومن دون الله متعلق بيتخذ أي من الناس من يتخذ من دون ذلك الإله الواحد الذي ذكرت شؤنه الجليلة وإيثار الاسم الجليل لتعيينه تعالى بالذات غب تعيينه بالصفات (أَنْدَادًا) أي أمثالا وهم رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون لا سيما في الأوامر والنواهي كما يفصح عنه ما سيأتي من وصفهم بالتبري من المتبعين وقيل هي الأصنام وارجاع ضمير العقلاء اليها في قوله عز وعلا (يُحِبُّونَهُمْ) مبني على آرائهم الباطلة في شأنها من وصفهم بما لا يوصف به إلا العقلاء والمحبة ميل القلب من الحب استعير لحبة القلب ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها والفعل منها حب على حد مد لكن الاستعمال المستفيض على أحب حبا ومحبة فهو محب وذاك محبوب ومحب قليل وحاب أقل منه ومحبة العبد لله سبحانه إرادة طاعته في أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه فمعنى يحبونهم يطيعونهم ويعظمونهم والجملة في حيز النصب اما صفة لأندادا أو حالا من فاعل يتخذ وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن افراده باعتبار لفظها (كَحُبِّ اللَّهِ) مصدر تشبيهي أي نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق ومن قضية كونه مبنيا للفاعل كونه أيضا كذلك والظاهر اتحاد فاعلهما فانهم كانوا يقرون به تعالى أيضا ويتقربون اليه فالمعنى يحبونهم حبا كائنا كحبهم لله تعالى أي يسوون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم وقيل فاعل الحب المذكور هم المؤمنون فالمعنى حبا كحب المؤمنين له تعالى فلا بد من اعتبار المشابهة بينهما في أصل الحب لا في وصفه كما أو كيفا لما سيأتي من التفاوت البين وقيل هو مصدر من المبني للمفعول أي كما يحب الله تعالى ويعظم وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس وأنت خبير بأنه لا مشابهة بين محبيتهم لأندادهم وبين محبوبيته تعالى فالمصير حينئذ ما أسلفناه في تفسير قوله عز قائلا كما سئل موسى من قبل واظهار الاسم الجليل في مقام

الإضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وإبانة كمال قبح ما ارتكبوه (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) جملة مبتدأة جيء
بها توطئة لما يعقبها من بيان رخاوة حبهم وكونه حسرة عليهم والمفضل عليه محذوف أى المؤمنون أشد حبا له تعالى منهم
لأندادهم ومآله أن حب أولئك له تعالى أشد من حب هؤلاء لأندادهم فيه من الدلالة على كون الحب مصدرا من المبنى
للفاعل ما لا يخفى وإنما لم يجعل المفضل عليه حبهم لله تعالى لما أن المقصود بيان انقطاعه وانقلابه بغضا وذلك إنما يتصور
فى حبهم لأندادهم لكونه منوطا بمبان فاسدة ومباد موهومة يزول بزوالها . قيل ولذلك كانوا يعدلون عنها عند
الشدائد إلى الله سبحانه وكانوا يعبدون صنما أياما فإذا وجدوا آخر رفضوه إليه وقد أكلت باهلة إلهها عام المجاعة وكان
من حيس وأنت خبير بأن مدار ذلك اعتبار اختلال حبهم لها فى الدنيا وليس الكلام فيه بل فى انقطاعه فى الآخرة عند
ظهور حقيقة الحال ومعاينة الأهوال كما سيأتى بل اعتباره مخل بما يقتضيه مقام المبالغة فى بيان كمال قبح ما ارتكبوه وغاية
عظم ما اقترفوه وإيثار الإظهار فى موضع الإضمار لتفخيم الحب والإشعار بعلته (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى باتخاذ
الأنداد ووضعها موضع المعبود (إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ) المعد لهم يوم القيامة أى لو علموا إذا عاينوه وإنما أوثر صيغة
المستقبل لجريانها مجرى الماضى فى الدلالة على التحقق فى أخبار علام الغيوب (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) ساد مسد مفعولى
يرى (وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) عطف عليه وفائدته المبالغة فى تهويل الخطب وتفظيع الأمر فإن اختصاص القوة
به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه عن دائرة البيان
إما لعدم الإحاطة بكنهه وإما لضيق العبارة عنه وإما لإيجاب ذكره ما لا يستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع
عليه أى لو علموا إذ رأوا العذاب قد حل بهم ولم ينقذهم منه أحد من أندادهم أن القوة لله جميعا ولا دخل لأحد فى شىء
أصلا لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد يوصف وقرىء ولو ترى بالتاء الفوقانية على أن الخطاب للرسول صلى الله
عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب فالجواب حينئذ لرأيت أمرا لا يوصف من الهول والفظاعة وقرىء إذ يرون
على البناء للمفعول وأن الله شديد العذاب على الاستئناف وإضمار القول (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا) بدل من إذ يرون
أى إذ تبرأ الرؤساء (مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) من الأتباع بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه فى الدنيا ويدعونهم إليه من
فنون الكفر والضلال واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول إبليس إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل وقرىء
بالعكس أى تبرأ الأتباع من الرؤساء والواو فى قوله عز وجل (وَرَأَوُا الْعَذَابَ) حالية وقد مضمرة وقيل عاطفة على
تبرأ والضمير فى رأوا للموصوفين جميعا (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) والوصل التى كانت بينهم من التبعية والمتبوعية
والاتفاق على الملة الزائغة والأغراض الداعية إلى ذلك وأصل السبب الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه والجملة معطوفة
على تبرأ وتوسيط الحال بينهما للتنبيه على علة التبرى وقد جوز عطفها على الجملة الحالية (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) حين عاينوا
تبرؤ الرؤساء منهم وندموا على ما فعلوا من اتباعهم لهم فى الدنيا (لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً) أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا (فَنَتَبَرَّأَ
مِنْهُمْ) هناك (كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا) اليوم (كَذَٰلِكَ) إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده لا إلى شىء آخر مفهوم
مما سبق وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته مع كمال تميزه عما عداه وانتظامه فى سلك الأمور
المشاهدة والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة ومحله النصب على المصدرية أى ذلك الإراء الفظيع
(يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ) أى ندامات شديدة فإن الحسرة شدة الندم والكمد وهى تألم القلب وانحساره
عما يؤلمه واشتقاقها من قولهم بعير حسير أى منقطع القوة وهى ثالث مفاعيل يرى إن كان من رؤية القلب وإلا فهى
حال والمعنى أن أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم (وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ

النَّارِ) كلام مستأنف لبيان حالهم بعد دخولهم النار والأصل ومايخرجون والعدول إلى الاسمية لإفادة دوام نفى الخروج والضمير للدلالة على قوة أمرهم فيما أسند اليهم كما فى قوله :

هم يفرشون اللبد كل طمرة   وأجرد سباق يبذ المغاليا

(يٰأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ) أى بعض مافيها من أصناف المأكولات التى من جملتها ماحرمتموه افتراء على الله من الحرث والأنعام قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى قوم من ثقيف وبنى عامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حرموا على أنفسهم ماحرموا من الحرث والبحائر والسوائب والوصائل والحام وقوله تعالى (حَلَالاً) حال من الموصول أى كلوه حال كونه حلالا أو مفعول لكلوا على أن من ابتدائية وقد جوز كونه صفة لمصدر مؤكد أى أكلا حلالا ويؤيد الأولين قوله تعالى (طَيِّباً) فانه صفة له ووصف الأكل به غير معتاد وقيل نزلت فى قوم من المؤمنين حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ويرده قوله عز وجل (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) أى لاتقتدوا بها فى اتباع الهوى فانه صريح فى أن الخطاب للكفرة كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهدا ليس من باب اتباع خطوات الشيطان فضلا عن كونه تقولا وافتراء على الله تعالى وإنما الذى نزل فيهم مافى سورة المائدة من قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم الآية وقرىء خطوات بسكون الطاء وهما لغتان فى جمع خطوة وهى مابين قدمى الخاطىء وقرىء بضمتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو وبفتحتين على أنها جمع خطوة وهى المرة من الخطو (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) تعليل للنهى أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة وإن كان يظهر الولاية لمن يغويه ولذلك سمى وليا فى قوله تعالى أولياؤهم الطاغوت (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ) استئناف لبيان كيفية عداوته وتفصيل لفنون شره وإفساده وانحصار معاملته معهم فى ذلك والسوء فى الأصل مصدر ساءه يسوؤه سوءا ومساءة إذا حزنه يطلق على جميع المعاصى سواء كانت من أعمال الجوارح أو أفعال القلوب لاشتراك كلها فى أنها تسوء صاحبها والفحشاء أقبح أنواعها وأعظمها مساءة (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) عطف على الفحشاء أى وبأن تفتروا على الله بأنه حرم هذا وذاك ومعنى مالا تعلمون مالا تعلمون أن الله تعالى أمر به وتعلق أمره بتقولهم على الله تعالى مالا يعلمون وقوعه منه تعالى لا بتقولهم عليه ما يعلمون عدم وقوعه منه تعالى مع أن حالهم ذلك للمبالغة فى الزجر فان التحذير من الأول مع كونه فى القبح والشناعة دون الثانى تحذير عن الثانى على أبلغ وجه وآكده وللايذان بأن العاقل يجب عليه أن لا يقول على الله تعالى مالا يعلم وقوعه منه تعالى مع الاحتمال فضلا عن أن يقول عليه مايعلم عدم وقوعه منه تعالى قالوا وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأسا وأما اتباع المجتهد لما أدى اليه ظنه فستند إلى مدرك شرعى فوجوبه قطعى والظن فى طريقه (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) التفات إلى الغيبة تسجيلا بكمال ضلالهم وإيذانا بايجاب تعداد ماذكر من جناياتهم لصرف الخطاب عنهم وتوجيهه إلى العقلاء وتفصيل مساوى أحوالهم لهم على نهج المباثة أى إذا قيل لهم على وجه النصيحة والارشاد اتبعوا كتاب الله الذى أنزله (قالوا) لانتبعه (بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) أى وجدناهم عليه اما على أن الظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من آباءنا وألفينا متعد إلى واحد واما على أنه مفعول ثان له مقدم على الأول نزلت فى المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله تعالى من الحجج الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد والموصول إما عبارة عما سبق من اتخاذ الانداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك واما باق على عمومه وماذكر داخل فيه دخولا أوليا وقيل نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاسلام فقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لانهم كانوا خيرا منا وأعلم فعلى هذا يعم ما أنزل الله تعالى التوراة لانها أيضا تدعو إلى الاسلام وقوله عز وجل (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)

استئناف مسوق من جهته تعالى رد المقالتهم الحمقاء وإظهار البطلان آرائهم والهمزة لانكار الواقع واستقباحه والتعجب منه لا لانكار الوقوع كالتى فى قوله تعالى أولو كنا كارهين وكلمة لو فى أمثال هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشىء فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ماقبلها عليه بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الاولية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لايذكر معه شىء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الاحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على سبيل الاجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والامر والنهى كما فى قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا وبخيل لايعطى ولو كان غنيا وقولك أحسن اليه ولو أساء اليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء ناشىء من ورود الانكار عليه لكن الاصل فى الكل واحد إلا أن كلمة لو فى الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما فى حيز لو باق على ماهو عليه من الاستبعاد غالبا بخلاف مانحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال مدلوله لامدلول المذكور من حيث هو مدلوله وأن الجملة حال مما يتعلق به لامما يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلق به وأن المقصود الاصلى إنكار مدلوله باعتبار مقارنته للحالة المذكورة وأما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما فى حيز لو لايقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الاشعار بأنه أمر محقق الا أنه أخرج مخرج الاستبعاد معاملة مع المخاطبين على معتقدهم لئلا يلبسوا من التصريح بنسبة آبائهم إلى كمال الجهالة والضلالة جلد النمر فيركبوا متن العناد ومبالغة فى الانكار من جهة اتباعهم لآبائهم حيث كان منكرا مستقبحا عند احتمال كون آبائهم كما ذكر احتمالا بعيدا فلأن يكون منكرا عند تحقق ذلك أولى والتقدير أيتبعون ذلك لو لم يكن آباؤهم لايعقلون شيأ من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا كذلك فالجملة فى حيز النصب على الحالية من آبائهم على طريقة قوله تعالى أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا كأنه قيل أيتبعون دين آبائهم حال كونهم غافلين وجاهلين ضالين إنكارا لما أفاده كلامهم من الاتباع على أى حالة كانت من الحالتين غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الامر وتعويلا على اقتضائها للحالة الاولى اقتضاء بينا فان اتباعهم الذى تعلق به الانكار حيث تحقق مع كون آبائهم جاهلين ضالين فلأن يتحقق مع كونهم عاقلين ومهتدين أولى إن قلت الانكار المستفاد من الاستفهام الإنكارى بمنزلة النفى ولا ريب فى أن الاولوية فى صورة النفى معتبرة بالنسبة إلى النفى ألا يرى أن الاول بالتحقيق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الاعطاء لانفسه فكان ينبغى أن يكون الاولى بالتحقيق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها وهى حالة كون آبائهم عاقلين ومهتدين إنكار الاتباع لانفسه إذ هو الذى يدل عليه أيتبعون الخ فلم اختلفت الحال بينهما قلت لما أن مناط الاولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الاعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس الاتباع المستفاد من الفعل المقدر إذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم بل نتبع الخ وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لانكار ما يفيده واستقباح ما يقتضيه لا أنه من تمامه كما فى صورة النفى وكذا الحال فيما اذا كانت الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه مع كونه بمنزلة صريح النفى كما سيأتى تحقيقه فى قوله تعالى أولو كنا كارهين وقيل الواو حالية ولكن التحقيق أن المعنى يدور على معنى العطف

فى سائر اللغات أيضا (وَمَثَلُ الذين كفروا) جملة ابتدائية واردة لتقرير ماقبلها بطريق التصوير وفيها مضاف قد
حذف لدلالة مثل عليه ووضع الموصول موضع الضمير الراجع إلى مايرجع اليه الضمائر السابقة لذمهم بما فى حيز الصلة
وللاشعار بعلة ما أثبت لهم من الحكم والتقدير مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها بأن تسمى مثلا وتسير فى الآفاق
فيماذكر من دعوته إياهم إلى اتباع الحق وعدم رفعهم اليه رأسا لانهما كهم فى التقليد واخلادهم إلى ماهم عليه من الضلالة
وعدم فهمهم من جهة الداعى إلى الدعاء من غير أن يلقوا أذهانهم إلى مايلقى عليهم (كَمَثَلِ الذى يَنعِقُ بما لايَسمعُ
إلادُعاءً وَنِداءً) من البهائم فانها لاتسمع إلاصوت الراعى وهتفه بها من غير فهم لكلامه أصلا وقيل إنما حذف
المضاف من الموصول الثانى لدلالة كلمة ماعليه فانها عبارة عنه مشعرة معما فى حيز الصلة بماهو مدار التمثيل أى مثل
الذين كفروا فيماذكر من انهماكهم فيماهم فيه وعدم التدبر فيما ألقى اليهم من الآيات كمثل بهائم الذى ينعق بها وهى لاتسمع
منه الاجرس النغمة ودوى الصوت وقيل المراد تمثيلهم فى اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم
التى تسمع الصوت ولاتفهم ماتحته وقيل تمثيلهم فى دعائهم الأصنام بالناعق فى نعقه وهو تصويته على البهائم وهذا
غنى عن الاضمار لكن لايساعده قوله إلادعاء ونداء فان الأصنام بمعزل من ذلك وقد عرفت أن حسن التمثيل فيما
تشابه أفراد الطرفين (صُمٌّ بُكمٌ عُمىٌ) بالرفع على الذم أى هم صم الخ (فهُمْ لايَعقِلونَ) شيأ لأن طريق التعقل
هو التدبر فى مبادى الأمور المعقولة والتأمل فى ترتيبها وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة
والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم فاذا كانوا صما بكما عميا فقد انسد عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية
(يأيها الذينَ ءامَنوا كلُوا مِن طَيِّبٰتِ مارَزَقنٰكم) أى مستلذاته (وَاشكرُوا لِلهِ) الذى رزقكموها
والالتفات لتربية المهابة (إن كُنتمْ إياهُ تعبُدُونَ) فان عبادته تعالى لاتتم إلا بالشكر له وعن النبى صلى الله عليه وسلم
يقول الله عزوجل انى والإنس والجن فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى (إنما حَرّمَ عَليكمُ
الميْتةَ) أى أكلها والانتفاع بها وهى التى ماتت على غير ذكاة والسمك والجراد خارجان عنها بالعرف أو استثناء الشرع
خروج الطحال من الدم (وَالدّمَ وَلحمَ الخِنزيرِ) إنما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضا فى حكمه لأنه معظم
مايؤكل من الحيوان وسائر أجزائه بمنزلة التابع له (وَمَاأهِلّ بهِ لِغَيرِ اللهِ) أى رفع به الصوت عند ذبحه للصنم
والاهلال وأصله رؤية الهلال لكن لماجرت العادة برفع الصوت بالتكبير عندها سمى ذلك اهلالا ثم قيل لرفع الصوت
وان كان لغيره (فمَنِ اضطرّ غيرَباغٍ) بالاستئثار على مضطر آخر (وَلا عادٍ) سد الرمق والجوعة وقيل غير
باغ على الوالى ولاعاد بقطع الطريق وعلى هذا لايباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله
(فلاَ إثمَ عَليهِ) فى تناوله (إنّ اللهَ غفورٌ) لمافعل (رّحيمٌ) بالرخصة إن قيل كلمة إنما تفيد قصر الحكم على
ماذكر وكم من حرام لم يذكر قلنا المراد قصر الحرمة على ماذكر مما استحلوه لامطلقا أو قصر حرمته على حالة الاختيار
كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء مالم تضطروا اليها (إنّ الذين يكتُمونَ مَاأنزَلَ اللهُ مِنَ الكِتٰبِ) المشتمل
على فنون الأحكام التى من جملتها أحكام المحللات والمحرمات حسبما ذكر آنفا وقال ابن عباس رضى الله عنهما
نزلت فى رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم (وَيَشترُونَ بهِ) أى يأخذون بدله (ثمَناً قَليلاً)
عوضا حقيرا وقد مر سر التعبير عن ذلك بالثمن الذى هو وسيلة فى عقود المعاوضة وقوله تعالى (أولٰئكَ) إشارة الى
الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الوصفين الشنيعين المميزين لهم عمن عداهم أكمل تمييز الجاعلين اياهم
بحيث كأنهم حضار مشاهدون على ماهم عليه ومافيه من معنى البعد للايذان بغاية بعد منزلتهم فى الشر والفساد

وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (مَا يَأكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ) والجملة خبر لأن أو اسم الإشارة مبتدأ ثان أو بدل من الأول والخبر ما يأكلون الخ ومعنى أكلهم النار أنهم يأكلون فى الحال ما يستتبع النار ويستلزمها فكأنه عين النار وأكله أكلها كقوله : أكلت دما ان لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

أو يأكلون فى المآل يوم القيامة عين النار عقوبة على أكلهم الرشا فى الدنيا وفى بطونهم متعلق بيأكلون وفائدته تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقر المأكول وقيل معناه ملء بطونهم كما فى قولهم أكل فى بطنه وأكل فى بعض بطنه ومنه كلوا فى بعض بطنكم تعفوا فلا بد من الالتجاء إلى تعليقه بمحذوف وقع حالا مقدرة من النار مع تقديمه على حرف الاستثناء وإلا فتعليقه بيأكلون يؤدى إلى قصر ما يأكلونه إلى الشبع على النار والمقصود قصر ما يأكلونه مطلقا عليها (وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) عبارة عن غضبه العظيم عليهم وتعريض بحرمانهم ما أتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى (وَلاَ يُزَكِّيهِمْ) لا يثنى عليهم (وَلَهُمْ) مع ما ذكر (عَذَابٌ أَلِيمٌ) مؤلم (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى ما أشير اليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلوه من أحوالهم الفظيعة اذ لا دخل لها فى الحكم الذى يراد إثباته ههنا فان المقصود تصوير ما باشروه من المعاملة بصورة قبيحة تنفر منها الطباع ولا يتعاطاها عاقل أصلا ببيان حقيقة ما نبذوه واظهار كنه ما أخذوه وابداء فظاعة تبعاته وهو مبتدأ خبره الموصول أى أولئك المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنا قليلا ليسوا بمشترين للثمن وان قل بل هم (الَّذِينَ اشْتَرَوُا) بالنسبة إلى الدنيا (الضَّلاَلَةَ) التى ليست مما يمكن أن يشترى قطعا (بِالْهُدَىٰ) الذى ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شىء وان جل (وَالْعَذَابَ) أى اشتروا بالنظر إلى الآخرة العذاب الذى لا يتوهم كونه مما يشترى (بِالْمَغْفِرَةِ) التى يتنافس فيها المتنافسون (فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) تعجيب من حالهم الهائلة التى هى ملابستهم بما يوجب النار إيجابا قطعيا كأنه عينها وما عند سيبويه نكرة تامة مفيدة لمعنى التعجب مرفوعة بالابتداء وتخصصها كتخصص شر فى : شر أهر ذا ناب : خبرها ما بعدها أى شىء ما عظيم جعلهم صابرين على النار وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها أى أى شىء أصبرهم على النار وقيل هى موصولة وقيل موصوفة بما بعدها والخبر محذوف أى الذى أصبرهم على النار أو شىء أصبرهم على النار أمر عجيب فظيع (ذَٰلِكَ) العذاب (بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ) أى جنس الكتاب (بِالْحَقِّ) أى متلبسا به فلا جرم يكون من يرفضه بالتكذيب والكتمان ويركب متن الجهل والغواية مبتلى بمثل هذا من أفانين العذاب (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ) أى فى جنس الكتاب الإلهى بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى وكفروا ببعضها أو فى التوراة بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كالآيات المغيرة المشتملة على أمر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ونعوته الكريمة فمعنى الاختلاف التخلف عن الطريق الحق أو الاختلاف فى تأويلها أو فى القرآن بأن قال بعضهم إنه سحر وبعضهم إنه شعر وبعضهم أساطير الأولين كما حكى عن المفسرين (لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ) عن الحق والصواب مستوجب لأشد العذاب (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) البر اسم جامع لمراضى الخصال والخطاب لأهل الكتابين فانهم كانوا أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت إلى الكعبة وكان كل فريق يدعى خيرية التوجه إلى قبلته من القطرين المذكورين وتقديم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية اما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب واما لأن توجه اليهود إلى المغرب ليس لكونه مغربا بل لكون بيت المقدس من المدينة المنورة واقعا فى جانب الغرب فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجه إلى تينك الجهتين على أن البر خبر ليس مقدما على اسمها كما فى قوله :

سلى ان جهلت الناس عنى وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وقوله : أليس عظيما أن تلم ملمة وليس علينا فى الخطوب مقول

وإنما أخر ذلك لما أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية ولأن فى الاسم طولا فلو روعى الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم وقرىء برفع البر على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لأن كل فريق يدعى أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وماذلك إلا بكون البر اسما كما يفصح عنه جعله مخبرا عنه فى الاستدراك بقوله عز وجل (وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ) وهو تحقيق للحق بعد بيان بطلان الباطل وتفصيل لخصال البر بما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها أى ولكن البر المعهود الذى يحق أن يهتم بشأنه ويجد فى تحصيله بر من آمن بالله وحده إيمانا بريئا من شائبة الاشراك لا كإيمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله (وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ) أى على ما هو عليه لا كما يزعمون أن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ففيه تعريض بأن إيمان أهل الكتابين حيث لم يكن كما ذكر من الوجه الصحيح لم يكن إيمانا وفى تعليق البر بهما من أول الأمر عقيب نفيه عن التوجه إلى المشرق والمغرب من الجزالة ما لا يخفى كأنه قيل ولكن البر هو التوجه إلى المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب فى الحقيقة (وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ) أى وآمن بهم وبأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى وبين أنبيائه بالقاء الوحى وانزال الكتب (وَٱلْكِتَـٰبِ) أى بجنس الكتاب الذى من أفراده الفرقان الذى نبذوه وراء ظهورهم وفيه تعريض بكتمانهم نعوت النبى صلى الله عليه وسلم واشترائهم بما أنزل الله تعالى ثمنا قليلا (وَٱلنَّبِيِّـۧنَ) جميعا من غير تفرقة بين أحد منهم كما فعل أهل الكتابين ووجه توسيط الكتاب بين حملة الوحى وبين النبيين واضح وسيأتى فى قوله تعالى كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله (وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ) حال من الضمير فى آتى والضمير المجرور للمال أى آتاه كائنا على حب المال كما فى قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل أى الصدقة أفضل أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح وقول ابن مسعود رضى الله عنه أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقيل الضمير لله تعالى أى آتاه كائنا على محبته تعالى لا على قصد الشر والفساد ففيه نوع تعريض لباذلى الرشى وآخذيها لتغيير التوراة وقيل للمصدر أى كائنا على حب الايتاء (ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ) مفعول أول لآتى قدم عليه مفعوله الثانى أعنى المال للاهتمام به أو لأن فى الثانى مع ما عطف عليه طولا لو روعى الترتيب لفات تجاوب الأطراف فى الكلام وهو الذى اقتضى تقديم الحال أيضا وقيل هو المفعول الثانى (وَٱلْيَتَـٰمَىٰ) أى المحاويج منهم على ما يدل عليه الحال وتقديم ذوى القربى عليهم لما أن ايتاءهم صدقة وصلة (وَٱلْمَسَـٰكِينَ) جمع مسكين وهو الدائم السكون لما أن الخلة أسكنته بحيث لا حراك به أو دائم السكون إلى الناس (وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ) أى المسافر سمى به لملازمته إياه كما سمى القاطع ابن الطريق وقيل الضيف (وَٱلسَّآئِلِينَ) الذين ألجأتهم الحاجة والضرورة إلى السؤال قال عليه الصلاة والسلام أعطوا السائل ولو جاء على فرس (وَفِى ٱلرِّقَابِ) أى وضعه فى فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم وقيل فى فك الاسارى وقيل فى ابتياع الرقاب واعتاقها وأياما كان فالعدول عن ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية كالذين من قبلهم اما للايذان بعدم قرار ملكهم فيما أوتوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأسا كما فى الوجه الأخير واما للاشعار برسوخهم فى الاستحقاق والحاجة لما أن فى للظرفية المنبئة عن محليتهم لما يؤتى (وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ) أى المفروضة منها (وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ) أى المفروضة على أن المراد بما مر من ايتاء المال التنفل بالصدقات قدم على الفريضة مبالغة فى الحث عليه أو المراد بهما المفروضة والأول لبيان المصارف والثانى لبيان وجوب الأداء (وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ)

عطف على من آمن فانه فى قوة أن يقال ومن أوفوا بعهدهم وإيثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء والمراد بالعهد مالايحرم حلالا ولايحلل حراما من العهود الجارية فيما بين الناس وقوله تعالى (إذا عٰهدُوا) للايذان بعدم كونه من ضروريات الدين (وَالصّٰبِرِينَ) نصب على الاختصاص غير سبكه عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته وهو فى الحقيقة معطوف على ماقبله. قال أبو على اذا ذكرت صفات للمدح أو الذم نخولف فى بعضها الاعراب فقد خولف للافتنان ويسمى ذلك قطعا لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب فى استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه كما مر فى صدر السورة وقد قرىء والصابرون كما قرىء والموفين (فى البَأسَاءِ) أى فى الفقر والشدة (وَالضَّرّاءِ) أى المرض والزمانة (وَحِينَ البَأسِ) أى وقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب وزيادة الحين للاشعار بوقوعه أحيانا وسرعة انقضائه (أولٰئِكَ) اشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالنعوت الجميلة المعدودة ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا من التنبيه على علو طبقتهم وسمو رتبتهم (الذينَ صَدَقُوا) أى فى الدين واتباع الحق وتحرى البر حيث لم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال (وَأولٰئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ) عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الاشارة لزيادة تنويه شأنهم وتوسيط الضمير للاشارة إلى انحصار التقوى فيهم والآية الكريمة كما ترى حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها تصريحا أو تلويحا لما أنها مع تكثر فنونها وتشعب شجونها منحصرة فى خلال ثلاث صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العباد وتهذيب النفس وقد أشير إلى الأولى بالايمان بما فصل وإلى الثانية بايتاء المال وإلى الثالثة باقامة الصلاة الخ ولذلك وصف الحائزون لها بالصدق نظرا إلى ايمانهم واعتقادهم وبالتقوى اعتبارا بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان (يٰأيُّها الذينَ ءَامَنُوا) شروع فى بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافى لما فرط من المخلين بما ذكر من أصول الدين وقواعده التى عليها بنى أساس المعاش والمعاد (كُتِبَ عَليكُمُ) أى فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يقدح فيه قدرة الولى على العفو فان الوجوب إنما اعتبر بالنسبة إلى الحكام أو القاتلين (القِصَاصُ فى القَتلَى) أى بسبب قتلهم كما فى قوله صلى الله عليه وسلم ان امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها أى بسبب ربطها إياها (الحُرُّ بالحُرِّ وَالعَبدُ بالعَبدِ وَالأنثىٰ بالأنثىٰ) كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لاحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى فلما جاء الاسلام تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فأمرهم أن يتباوؤا وليس فيه دلالة على عدم قتل الحر بالعبد عند الشافعى أيضا لان اعتبار المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجه سوى اختصاص الحكم بالمنطوق وقد رأيت الوجه ههنا وإنما يتمسك فى ذلك هو ومالك رحمهما الله بما روى على رضى الله عنه أن رجلا قتل عبده فجلده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفاه سنة ولم يقده وبما روى عنه رضى الله عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد ولا حر بعبد وبأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكير وبالقياس على الاطراف وعندنا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى أن النفس بالنفس فان شريعة من قبلنا إذا قصت علينا من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب على أنها شريعة لنا ولان القصاص يعتمد المساواة فى العصمة وهى بالدين أو بالدار وهما سيان فيهما وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القصاص (فَمَن عُفِيَ لَهُ مِن أخِيهِ شَيءٌ) أى شىء من العفو لان عفا لازم وفائدته الاشعار بأن بعض العفو بمنزلة كله فى اسقاط القصاص وهو الواقع أيضا فى العادة إذ كثيرا ما يقع العفو من بعض الأولياء فهو شىء من العفو وقيل معنى عفى ترك وشىء مفعول به وهو ضعيف إذ لم يثبت عفاه بمعنى تركه بل أعفاه وحمل العفو على المحو كما فى قول من قال: ديار عفاها جور كل معاند وقوله: عفاها كل حنان كثير الوبل هطال

فيكون المعنى فمن محى له من أخيه شيء صرف للعبارة المتداولة فى الكتاب والسنة عن معناها المشهور المعهود إلى ما ليس بمعهود فيهما وفى استعمال الناس فانهم لا يستعملون العفو فى باب الجنايات إلا فيما ذكر من قبل وعفا يعدى بعن إلى الجانى والذنب قال تعالى عفا الله عنك وقال عفا الله عنها فاذا تعدى إلى الذنب قيل عفوت لفلان عما جنى كأنه قيل فمن عفى له عن جنايته من جهة أخيه يعنى ولى الدم وإيراده بعنوان الاخوة الثابتة بينهما بحكم كونهما من بنى آدم عليه السلام لتحريك سلسلة الرقة والعطف عليه (فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) فالأمر اتباع أو فليكن اتباع والمراد وصية العافى بالمسامحة ومطالبة الدية بالمعروف من غير تعسف وقوله عز وجل (وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) حث للمعفو عنه على أن يؤديها بإحسان من غير مماطلة وبخس (ذَٰلِكَ) أى ما ذكر من الحكم (تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ) لما فيه من التسهيل والنفع وقيل كتب على اليهود القصاص وحده وحرم عليهم العفو والدية وعلى النصارى العفو على الاطلاق وحرم عليهم القصاص والدية وخيرت هذه الأمة بين الثلاث تيسيرا عليهم وتنزيلا للحكم على حسب المنازل (فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ) بأن قتل غير القاتل بعد ورود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية (فَلَهُ) باعتدائه (عَذَابٌ أَلِيمٌ) أما فى الدنيا فبالاقتصاص بما قتله بغير حق وأما فى الآخرة فبالنار (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تناله غايته حيث جعل الشيء محلا لضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن فى هذا الجنس نوعا من الحياة عظيما لا يبلغه الوصف وذلك لان العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب لحياة نفسين ولانهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم فاذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم وعلى الاول فيه إضمار وعلى الثانى تخصيص وقيل المراد بالحياة هى الأخروية فان القاتل إذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤاخذ به فى الآخرة والظرفان إما خبران لحياة أو أحدهما خبر والآخر صلة له أو حال من المستكن فيه وقرىء فى القصص أى فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو فى القرآن حياة للقلوب (يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) أى ذوى العقول الخالصة عن شوب الأوهام خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطا لهم إلى التأمل فى حكمة القصاص (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أى تتقون أنفسكم من المساهلة فى أمره والاهمال فى المحافظة عليه والحكم به والاذعان له أو فى القصاص فتكفوا عن القتل المؤدى اليه (كُتِبَ عَلَيْكُمْ) بيان لحكم آخر من الأحكام المذكورة (إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) أى حضر أسبابه وظهر أماراته أو دنا نفسه من الحضور وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) أى مالا وقيل مالا كثيرا لما روى عن على رضى الله عنه أن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى إن ترك خيرا وإن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد الوصية وله عيال وأربعمائة دينار فقالت ما أرى فيه فضلا وأراد آخر أن يوصى فسألته كم مالك فقال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت إنما قال الله تعالى إن ترك خيرا وان هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك (الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) مرفوع بكتب أخر عما بينهما لما مر مرارا وإيثار تذكير الفعل مع جواز تأنيثه أيضا للفصل أو على تأويل أن يوصى أو الايصاء ولذلك ذكر الضمير فى قوله تعالى فمن بدله بعد ما سمعه وإذا ظرف محض والعامل فيه كتب لكن لا من حيث صدور الكتب عنه تعالى بل من حيث تعلقه بهم تعلقا فعليا مستتبعا لوجوب الأداء كما ينبىء عنه البناء للمفعول وكلمة الايجاب ولا مساغ لجعل العامل هو الوصية لتقدمه عليها وقيل هو مبتدأ خبره للوالدين والجملة جواب الشرط باضمار الفاء كما فى قوله: من يفعل الحسنات الله يشكرها ورد بأنه ان صح فمن ضرورة الشعر ومعنى كتب فرض وكان هذا الحكم فى بدء الاسلام ثم نسخ عند نزول آية المواريث بقوله عليه

السلام ان الله قد أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث فانه وإن كان من أخبار الآحاد لكن حيث تلقته الأمة بالقبول انتظم فى سلك المتواتر فى صلاحيته للنسخ عند أئمتنا على أن التحقيق أن الناسخ حقيقة هى آية المواريث وإنما الحديث مبين لجهة نسخها ببيان أنه تعالى كان قد كتب عليكم أن تؤدوا إلى الوالدين والأقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم من غير تبيين لمراتب استحقاقهم ولا تعيين لمقادير أنصبائهم بل فوض ذلك إلى آرائكم حيث قال (بِالْمَعْرُوفِ) أى بالعدل فالآن قد رفع ذلك الحكم عنكم لتبيين طبقات استحقاق كل واحد منهم وتعيين مقادير حقوقهم بالذات وأعطى كل ذى حق منهم حقه الذى يستحقه بحكم القرابة من غير نقص ولا زيادة ولم يدع ثمة شيأ فيه مدخل لرأيكم أصلا حسبما يعرب عنه الجملة المنفية بلا النافية للجنس وتصديرها بكلمة التنبيه إذا تحققت هذا ظهر لك أن ماقيل من أن آية المواريث لاتعارضه بل تحققه وتؤكده من حيث أنها تدل على تقديم الوصية مطلقا والحديث من الآحاد وتلقى الأمة إياه بالقبول لايلحقه بالمتواتر ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله عز وجل من توريث الوالدين والأقربين بقوله تعالى يوصيكم الله أو بايصاء المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله تعالى عليهم بمعزل من التحقيق وكذا ما قيل من أن الوصية للوارث كانت واجبة بهذه الآية من غير تعيين لأنصبائهم فلما نزلت آية المواريث بيانا للأنصباء بلفظ الإيصاء فهم منها بتنبية النبى صلى الله عليه وسلم أن المراد منه هذه الوصية التى كانت واجبة كأنه قيل ان الله تعالى أوصى بنفسه تلك الوصية ولم يفوضها اليكم فقام الميراث مقام الوصية فكان هذا معنى النسخ لا أن فيها دلالة على رفع ذلك الحكم فان مدلول آية الوصية حيث كان تفويضا للامر إلى آراء المكلفين على الاطلاق وتسنى الخروج عن عهدة التكليف بأداء ماأدى اليه آراؤهم بالمعروف فتكون آية المواريث الناطقة بمراتب الاستحقاق وتفاصيل مقادير الحقوق القاطعة بامتناع الزيادة والنقص بقوله تعالى فريضة من الله ناسخة لها رافعة لحكمها مما لايشتبه على أحد وقوله تعالى (حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا (فَمَنْ بَدَّلَهُ) أى غيره من الأوصياء والشهود (بَعْدَ مَا سَمِعَهُ) أى بعد ما وصل اليه وتحقق لديه (فَإِنَّمَا إِثْمُهُ) أى اثم الايصاء المغير أو اثم التبديل (عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ) لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ووضع الموصول فى موضع الضمير الراجع إلى من لتأكيد الايذان بعلية ما فى حيز الصلة الأولى وإيثار الجمع للاشعار بتعدد المبدلين أنواعا أو كثرتهم أفرادا والايذان بشمول الاثم لجميع الأفراد (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وعيد شديد للمبدلين (فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ) أى توقع وعلم من قولهم أخاف أن يرسل السماء وقرىء من موص (جَنَفًا) أى ميلا بالخطأ فى الوصية (أَوْ إِثْمًا) أى تعمدا للجنف (فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ) أى بين الموصى لهم باجرائهم على منهاج الشريعة الشريفة (فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) أى فى هذا التبديل لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الاثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية وتكرير النداء لإظهار مزيد الاعتناء والصيام والصوم فى اللغة الإمساك عما تنازع اليه النفس ومنه قوله تعالى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم الآية وقيل هو الإمساك عن الشىء مطلقا ومنه صامت الريح إذا أمسكت عن الهبوب والفرس إذا أمسكت عن العدو قال:

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وفى الشريعة هو الامساك نهارا مع النية عن المفطرات المعهودة التى هى معظم ماتشتهيه الأنفس (كَمَا كُتِبَ) فى حيز النصب على أنه نعت للمصدر المؤكد أى كتبا كائنا كما كتب أو على أنه حال من المصدر المعرفة أى كتب عليكم الصيام الكتب مشبها بما كتب فما على الوجهين مصدرية أو على أنه نعت لمصدر من لفظ الصيام أى صوما مماثلا

للصوم المكتوب على من قبلكم فما موصولة أو على أنه حال من الصيام أى حال كونه مماثلا لما كتب ﴿ على الذين من قبلكم ﴾ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأمم من لدن آدم عليه السلام وفيه تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطييب لأنفس المخاطبين به فان الشاق إذا عم سهل عمله والمراد بالمماثلة اما المماثلة فى أصل الوجوب واما فى الوقت والمقدار كما يروى أن صوم رمضان كان مكتوبا على اليهود والنصارى أما اليهود فقد تركته وصامت يوما من السنة زعموا أنه يوم غرق فرعون وكذبوا فى ذلك فانه كان يوم عاشوراء وأما النصارى فانهم صاموا رمضان حتى صادفوا حرا شديدا فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه فى الربيع وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم مرض ملكهم أو وقع فيهم موتان فزادوا عشرة أيام فصار خمسين ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أى المعاصى فان الصوم يكسر الشهوة الداعية اليها كما قال عليه الصلاة والسلام فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء أو تتقون الاخلال بأدائه لأصالته أو تصلون بذلك إلى رتبة التقوى ﴿ أياما معدودات ﴾ مؤقتات بعدد معلوم أو قلائل فان القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلا والمراد بها إما رمضان أو ما وجب فى بدء الإسلام ثم نسخ به من صوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر وانتصابه ليس بالصيام كما قيل لوقوع الفصل بينهما بأجنبى بل بمضمر دل هو عليه أعنى صوموا إما على الظرفية أو المفعولية اتساعا وقيل بقوله تعالى كتب على أحد الوجهين وفيه أن الأيام ليست محلا له بل المكتوب فلا تتحقق الظرفية ولا المفعولية المتفرعة عليها اتساعا ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ أى مرضا يضره الصوم أو يعسر معه ﴿ أو على سفر ﴾ مستمرين عليه وفيه تلويح ورمز إلى أن من سافر فى أثناء اليوم لم يفطر ﴿ فعدة ﴾ أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر ﴿ من أيام أخر ﴾ ان أفطر فحذف الشرط والمضاف ثقة بالظهور وقرىء بالنصب أى فليصم عدة وهذا على سبيل الرخصة وقيل على الوجوب واليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضى الله عنه ﴿ وعلى الذين يطيقونه ﴾ أى وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿ فدية ﴾ أى إعطاء فدية وهى ﴿ طعام مسكين ﴾ وهو نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق ومد عند أهل الحجاز وكان ذلك فى بدء الاسلام لما أنه قد فرض عليهم الصوم وما كانوا متعودين له فاشتد عليهم فرخص لهم فى الافطار والفدية وقرىء يطوقونه أى يكلفونه أو يقلدونه ويتطوقونه ويطوقونه بادغام التاء فى الطاء ويطيقونه ويطيقونه بمعنى يتطيقونه وأصلهما يطيوقونه ويتطيوقونه من فيعل وتفيعل من الطوق فأدغمت الياء فى الواو بعد قلبها ياء كقولهم تدير المكان وما بها ديار وفيه وجهان أحدهما نحو معنى يطيقونه والثانى يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الافطار والفدية وهو حينئذ غير منسوخ ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه أى يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم ﴿ فمن تطوع خيرا ﴾ فزاد فى الفدية ﴿ فهو ﴾ أى التطوع أو الخير الذى تطوعه ﴿ خير له وأن تصوموا ﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وتحملوا على أنفسكم وتجهدوا طاقتكم أو المرخصون فى الافطار من المرضى والمسافرين ﴿ خير لكم ﴾ من الفدية أو من تطوع الخير أو منهما أو من التأخير إلى أيام أخر والالتفات إلى الخطاب للهز والتنشيط ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى ما فى صومكم مع تحقق المبيح للافطار من الفضيلة والجواب محذوف ثقة بظهوره أى اخترتموه أو سارعتم اليه وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبير علمتم أن الصوم خير من ذلك ﴿ شهر رمضان ﴾ مبتدأ سيأتى خبره أو خبر لمبتدأ محذوف أى ذلك شهر رمضان أو بدل من الصيام على حذف المضاف أى صيام شهر رمضان وقرىء بالنصب على إضمار صوموا أو على أنه مفعول تصوموا أو بدل من أياما معدودات ورمضان مصدر رمض أى احترق من الرمضاء فأضيف اليه الشهر وجعل علما ومنع الصرف للتعريف والألف والنون كما قيل ابن دأية للغراب فقوله عليه السلام من صام رمضان الحديث وارد على حذف

المضاف للأمن من الالتباس وإنما سمي بذلك اما لارتماضهم فيه من الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب بالصيام فيه أو لوقوعه فى أيام رمض الحر عند نقل أسماء الشهور عن اللغة القديمة (الذى أنزل فيه القرآن) خبر للمبتدا على الوجه الأول وصفة لشهر رمضان على الوجوه الباقية ومعنى انزاله فيه أنه ابتدىء إنزاله فيه وكان ذلك ليلة القدر أو أنزل فيه جملة إلى السماء الدنيا ثم نزل منجما إلى الأرض حسبما تقتضيه المشيئة الربانية أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله عز وجل كتب عليكم وعن النبي صلى الله عليه وسلم نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين منه والإنجيل لثلاث عشرة منه والقرآن لأربع وعشرين (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) حالان من القرآن أى أنزل حال كونه هداية للناس بما فيه من اعجاز وغيره وآيات واضحة مرشدة إلى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام (فمن شهد منكم الشهر) أى حضر فيه ولم يكن مسافراً ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان والفاء للتفريع والترتيب أو لتضمن المبتدا معنى الشرط أو زائدة على تقدير كون شهر رمضان مبتدأ والموصول صفة له وهذه الجملة خبر له وقيل هى جزائية كأنه قيل لما كتب عليكم الصيام فى ذلك الشهر فمن حضر فيه (فليصمه) أى فليصم فيه بحذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور اتساعا وقيل من شهد منكم هلال الشهر فليصمه على أنه مفعول به كقولك شهدت الجمعة أى صلاتها فيكون ما بعده مخصصا له كأنه قيل (ومن كان مريضاً) وإن كان مقيما حاضرا فيه (أو على سفر) وإن كان صحيحا (فعدة من أيام أخر) أى فعليه صيام أيام أخر لأن المريض والمسافر ممن شهد الشهر ولعل التكرير لذلك أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه (يريد الله) بهذا الترخيص (بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) لغاية رأفته وسعة رحمته (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) علل لفعل محذوف يدل عليه ما سبق أى ولهذه الأمور شرع ما مر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص لهم بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى إباحة الفطر فقوله تعالى لتكملوا علة الأمر بمراعاة العدة ولتكبروا علة ما علمه من كيفية القضاء ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير وتعدية فعل التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم ويجوز أن تكون معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم أو لتعلموا ما تعملون ولتكملوا الخ ويجوز عطفها على اليسر أى يريد بكم لتكملوا الخ كقوله تعالى يريدون ليطفئوا الخ والمعنى بالتكبير تعظيمه تعالى بالحمد والثناء عليه وقيل تكبير يوم العيد وقيل التكبير عند الاهلال وما تحتمل المصدرية والموصولة أى على هدايته إياكم أو على الذى هداكم إليه وقرىء ولتكملوا بالتشديد (وإذا سألك عبادى عنى) فى تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى من تشريفه ورفع محله (فإنى قريب) أى فقل لهم إنى قريب وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه . روى أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت (أجيب دعوة الداع إذا دعان) تقرير للقرب وتحقيق له ووعد للداعى بالاجابة (فليستجيبوا لى) إذا دعوتهم للايمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم (وليؤمنوا بى) أمر بالثبات على ما هم عليه (لعلهم يرشدون) راجين إصابة الرشد أى الحق وقرىء بفتح الشين وكسرها ولما أمرهم الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الكريمة الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيدا له وحثا عليه ثم شرع فى بيان أحكام الصيام فقال (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) روى أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع الى أن يصلوا العشاء الأخيرة أو يرقدوا ثم ان عمر رضى الله عنه باشر بعد العشاء فندم واتى النبي صلى الله عليه وسلم

واعتذر اليه فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت . وليلة الصيام الليلة التى يصبح منها صائما والرفث كناية عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه وعدى بإلى لتضمنه معنى الافضاء والانهاء وإيثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبوه ولذلك سمى خيانة وقرىء الرفوث وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من التشويق فان ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن عندها وقت وروده فضل تمكن (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) استئناف مبين لسبب الاحلال وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملابسة بهن وجعل كل من الرجل والمرأة لباسا للآخر لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل قال :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباسا

أو لأن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ) استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) عطف على علم أى تاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه (وَعَفَا عَنْكُمْ) أى محا أثره عنكم (فَالْآنَ) لما نسخ التحريم (بَاشِرُوهُنَّ) المباشرة الزاق البشرة بالبشرة كنى بها عن الجماع الذى يستلزمها وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة (وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) أى واطلبوا ما قدره الله لكم وقرره فى اللوح من الولد وفيه أن المباشر ينبغى أن يكون غرضه الولد فانه الحكمة فى خلق الشهوة وشرع النكاح لا قضاء الشهوة وقيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأتى والتقدير وابتغوا المحل الذى كتب الله لكم (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غلس الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله تعالى من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل ويجوز أن يكون من للتبعيض فان ما يبدو بعض الفجر وما روى من أنها نزلت ولم ينزل من الفجر فعمد رجال إلى خيطين أبيض وأسود وطفقوا يأكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت فلعل ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز أو اكتفى أولا باشتهارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفى تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل اليه وصحة صوم من أصبح جنبا (ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ) بيان لآخر وقته (وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ) أى معتكفون فيها والمراد بالمباشرة الجماع وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون فى المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام ومفسد له لأن النهى فى العبادات يوجب الفساد (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ) أى الأحكام المذكورة حدود وضعها الله تعالى لعباده (فَلَا تَقْرَبُوهَا) فضلا عن تجاوزها نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل مبالغة فى النهى عن تخطيها كما قال صلى الله عليه وسلم إن لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ويجوز أن يراد بحدود الله تعالى محارمه ومناهيه (كَذَلِكَ) أى مثل ذلك التبيين البليغ (يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ) الدالة على الأحكام التى شرعها (لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) مخالفة أوامره ونواهيه (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) نهى عن أكل بعضهم أموال بعض على خلاف حكم الله تعالى بعد النهى عن أكل أموال أنفسهم فى نهار رمضان أى لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذى لم يبحه الله تعالى وبين نصب على الظرفية أو الحالية من أموالكم (وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ) عطف على المنهى عنه أو نصب باضمار أن والادلاء الالقاء أى ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام (لِتَأْكُلُوا) بالتحاكم اليهم (فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ

بالإثم) بما يوجب إثما كشهادة الزور واليمين الفاجرة أو ملتبسين بالإثم (وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) أنكم مبطلون فإن ارتكاب المعاصى مع العلم بها أقبح . روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ عليه الصلاة والسلام إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية فارتدع عن اليمين فسلم الأرض إلى عبدان فنزلت وروى أنه اختصم إليه خصمان فقال عليه السلام إنما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فإنما أقضى له قطعة من نار فبكيا فقال كل واحد منهما حقى لصاحبى فقال اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ) سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا (قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة فى اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة فى ذلك أن تكون معالم للناس فى عباداتهم لا سيما الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء وكذا فى معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه والمواقيت جمع ميقات من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها والزمان مدة مقسومة إلى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لأمر (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا) كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وإنما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراءها ويعدون ذلك برا فبين لهم أنه ليس ببر فقيل (وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) أى بر من اتقى المحارم والشهوات ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين أو أنه لما ذكر أنها مواقيت للحج ذكر عقيبه ما هو من أفعالهم فى الحج استطرادا أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان حقائق الأشياء وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيه على تعكيسهم فى السؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بأن تعكسوا فى مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترىء على مثله (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) إذ ليس فى العدول بر أو باشروا الأمور من وجوهها (وَاتَّقُوا اللَّهَ) فى تغيير أحكامه أو فى جميع أموركم أمر بذلك صريحا بعد بيان أن البر بر من اتقى إظهار الزيادة الاعتناء بشأن التقوى وتمهيدا لقوله تعالى (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أى لكى تظفروا بالبر والهدى (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أى جاهدوا لإعزاز دينه وإعلاء كلمته وتقديم الظرف على المفعول الصريح لإبراز كمال العناية بشأن المقدم (الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ) قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهابنة والنساء أو الكفرة جميعا فإن الكل بصدد قتال المسلمين ويؤيد الأول ما روى أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة شرفها الله تعالى ثلاثة أيام فرجع لعمرة القضاء فخاف المسلمون أن لا يفوا لهم ويقاتلوهم فى الحرم والشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ويعضده إيراده فى أثناء بيان أحكام الحج (وَلَا تَعْتَدُوا) بابتداء القتال أو بقتال المعاهد والمفاجأة به من غير دعوة أو بالمثلة وقتل من نهيتم عن قتله من النساء والصبيان ومن يجرى مجراهم (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) أى لا يريد بهم الخير وهو تعليل للنهى (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) أى حيث وجدتموهم من حل أو حرم وأصل الثقف الحذق فى إدراك الشىء علما أو عملا وفيه معنى الغلبة

ولذلك استعمل فيها قال : فاما تثقفونى فاقتلونى فمن أثقف فليس إلى خلود
(وَأخرجُوهُم مِن حَيثُ أخرَجُوكم) أى من مكة وقد فعل بهم ذلك يوم الفتح بمن لم يسلم من كفارها (وَالفِتنَةُ أشَدُّ مِنَ القَتلِ) أى المحنة التى يفتتن بها الانسان كالاخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء تألم النفس بها وقيل شركهم فى الحرم وصدهم لكم عنه أشد من قتلكم إياهم فيه (وَلا تُقَاتِلوهُم عِندَ المَسجِدِ الحَرامِ) أى لاتفاتحوهم بالقتل هناك ولا تهتكوا حرمة المسجد الحرام (حَتى يُقَاتِلوكم فِيهِ فإن قَاتَلوكم) ثمة (فَاقتُلوهُم) فيه ولا تبالوا بقتالهم ثمة لأنهم الذين هتكوا حرمته فاستحقوا أشد العذاب وفى العدول عن صيغة المفاعلة التى بها ورد النهى والشرط عدة بالنصر والغلبة وقرىء ولاتقتلوهم حتى يقتلوكم فان قاتلوكم فاقتلوهم والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقولهم قتلتنا بنو أسد (كَذٰلِكَ جَزاءُ الكٰفِرينَ) يفعل بهم مثل مافعلوا بغيرهم (فإنِ انتَهَوا) عن القتال والكفر بعد ما رأوا قتالكم (فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ) يغفر لهم ماقد سلف (وَقٰتِلوهُم حَتى لاتَكُونَ فِتنَةٌ) أى شرك (وَيَكُونَ الدِّينُ لله) خالصا ليس للشيطان فيه نصيب (فإنِ انتَهَوا) بعد مقاتلتكم عن الشرك (فَلاَ عُدوانَ إلا عَلى الظّٰلِمينَ) أى فلا تعتدوا عليهم إذ لايحسن الظلم الا لمن ظلم فوضع العلة موضع الحكم وتسمية الجزاء بالعدوان للمشاكلة كما فى قوله عز وجل فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه أو انكم ان تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وتنعكس الحال عليكم والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء (الشَّهرُ الحَرامُ بالشَّهرِ الحَرامِ) قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء فى ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام وهتكه بهتكه فلا تبالوا به (وَالحُرُمٰتُ قِصاصٌ) أى كل حرمة وهى مايجب المحافظة عليه يجرى فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فاقتلوهم ان قاتلوكم كما قال تعالى (فَمَنِ اعتَدىٰ عَليكم فاعتَدُوا عَليهِ بِمِثلِ مَا اعتَدىٰ عَليكُم) وهو فذلكة مقررة لماقبلها (وَاتَّقُوا اللهَ) فى شأن الانتصار واحذروا أن تعتدوا إلى مالم يرخص لكم (وَاعلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ) فيحرسهم ويصلح شؤنهم بالنصر والتمكين (وَأنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالأنفس أى ولا تمسكوا كل الامساك (وَلا تُلقُوا بِأيديكم إلى التَّهلُكَةِ) بالاسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والانفاق فيه فان ذلك مما يقوى العدو ويسلطهم عليكم ويؤيده ماروى عن أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت أو بالامساك وحب المال فانه يؤدى إلى الهلاك المؤبد ولذلك سمى البخل هلاكا وهو فى الاصل انتهاء الشىء فى الفساد والالقاء طرح الشىء وتعديته بالى لتضمنه معنى الانتهاء والباء مزيدة والمراد بالايدى الأنفس والتهلكة مصدر كالتنصرة والتسترة وهى الهلك والهلاك واحد أى لاتوقعوا أنفسكم فى الهلاك وقيل معناه لاتجعلوها آخذة بأيديكم أو لاتلقوا بأيديكم أنفسكم اليها فحذف المفعول (وَأحسِنُوا) أى أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على الفقراء (إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحسِنينَ) أى يريد بهم الخير وقوله تعالى (وَأتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمرَةَ لِلهِ) بيان لوجوب اتمام أفعالهما عند التصدى لاداءهما وارشاد للناس إلى تدارك ماعسى يعتريهم من العوارض المخلة بذلك من الاحصار ونحوه من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما من الوجوب وعدمه كما فى قوله تعالى ثم أتموا الصيام إلى الليل فانه بيان لوجوب مد الصيام الى الليل من غير تعرض لوجوب أصله وإنما هو بقوله تعالى كتب عليكم الصيام الآية كما أن وجوب الحج بقوله تعالى ولله على الناس حج البيت الآية فان الأمر باتمام فعل من الأفعال ليس أمرا بأصله ولا مستلزما له أصلا فليس فيه دليل على وجوب العمرة قطعا وادعاء أن الأمر باتمامهما أمر بانشائهما تامين كاملين حسبما تقتضيه

قراءة وأقيموا الحج والعمرة وأن الأمر للوجوب مالم يدل على خلافه دليل مما لا سداد له ضرورة أن ليس البيان مقصورا على أفعال الحج المفروض حتى يتصور ذلك بل الحق أن تلك القراءة أيضاً محمولة على المشهورة ناطقة بوجوب اقامة أفعالهما كما ينبغى من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما فالمعنى أكملوا أركانهما وشرائطهما وسائر أفعالهما المعروفة شرعا لوجه الله تعالى من غير اخلال منكم بشىء منها . هذا وقد قيل اتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك روى ذلك عن على وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم وقيل ان تفرد لكل واحد منهما سفرا كما قال محمد حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل وقيل هو جعل نفقتهما حلالا وقيل أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشىء من الأغراض الدنيوية وأياما كان فلا تعرض فى الآية الكريمة لوجوب العمرة أصلا وأما ماروى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال ان العمرة لقرينة الحج وقول عمر رضى الله عنه هديت لسنة نبيك حين قال له رجل وجدت الحج والعمرة مكتوبين على أهللت بهما وفى رواية فأهللت بهما جميعا فبمعزل من افادة الوجوب مع كونه معارضا بما روى عن جابر أنه قال يارسول الله العمرة واجبة مثل الحج قال لا ولكن أن تعتمر خير لك وبقوله عليه السلام الحج جهاد والعمرة تطوع فتدبر (فإنْ أُحْصِرْتُمْ) أى منعتم من الحج يقال حصره العدو وأحصره إذا حبسه ومنعه من المضى لوجهه مثل صده وأصده والمراد منع العدو عند مالك والشافعى رضى الله عنهما لقوله تعالى فاذا أمنتم ولنزوله فى الحديبية ولقول ابن عباس لاحصر الا حصر العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبى حنيفة رضى الله عنه لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل (فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْىِ) أى فعليكم أو فالواجب ما استيسر أو فاهدوا ما استيسر والمعنى أن المحرم إذا أحصر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدى تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر وعندنا يبعث به إلى الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم أمار فاذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى (وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ) أى لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدى المبعوث إلى الحرم بلغ مكانه الذى يجب أن ينحر فيه وحمل الأولون بلوغ الهدى محله على ذبحه حيث يحل ذبحه فيه حلا كان أو حرما ومرجعهم فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل قلنا كان محصره عليه الصلاة والسلام طرف الحديبية الذى إلى أسفل مكة وهو من الحرم وعن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه فى الحرم وقال الواقدى الحديبية هى طرف الحرم على تسعة أميال من مكة والمحل بالكسر يطلق على المكان والزمان والهدى جمع هدية كجدى وجدية وقرىء من الهدى جمع هدية كمطى ومطية (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً) مرضا محوجا إلى الحلق (أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ) كجراحة أو قمل (فَفِدْيَةٌ) أى فعليه فدية ان حلق (مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) بيان لجنس الفدية وأما قدرها فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة لعلك آذاك هوامك قال نعم يارسول الله قال احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة والفرق ثلاثة آصع (فَإِذَا أَمِنْتُمْ) أى الاحصار أو كنتم فى حال أمن أو سعة (فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ) أى فمن انتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج فى أشهره وقيل من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الاحرام إلى أن يحرم بالحج (فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْىِ) أى فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع وهو دم جبر ان يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه عند الشافعى وعندنا هو كالأضحية (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ) أى الهدى (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ) أى فى أشهره بين الاحرامين وقال الشافعى فى أيام الاشتغال بأعماله بعد الاحرام وقبل التحلل والأحب أن يصوم سابع ذى الحجة وثامنه وتاسعه فلا يصح يوم النحر وأيام التشريق (وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ) أى نفرتم وفرغتم من أعماله وفى أحد قولى الشافعى إذا رجعتم إلى أهليكم وقرىء وسبعة بالنصب عطفا على

محل ثلاثة أيام (تِلْكَ عَشَرَةٌ) فذلكة الحساب وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو كما فى قولك جالس الحسن وابن سيرين وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا فان أكثر العرب لا يعرف الحساب وأن المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة كما يراد بها ذلك أيضا (كَامِلَةٌ) صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة فى المحافظة على العدد أو مبينة لكمال العشرة فانها أول عدد كامل إذ به ينتهى الآحاد ويتم مراتبها أو مقيدة تفيد كمال بدليتها من الهدى (ذَلِكَ) إشارة إلى التمتع عندنا وإلى الحكم المذكور عند الشافعى (لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عند الشافعى ومن كان مسكنه وراء الميقات عندنا وأهل الحل عند طاوس وغير أهل مكة عند مالك (وَاتَّقُوا اللهَ) فى المحافظة على أوامره ونواهيه لاسيما فى الحج (واعلَمُوا أن اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ) لمن لم يتقه كى يصدكم العلم به عن العصيان وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة (الْحَجُّ) أى وقته (أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ) معروفات بين الناس هى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة عندنا وتسعة بليلة النحر عند الشافعى وكله عند مالك ومدار الخلاف أن المراد بوقته وقت احرامه أو وقت أعماله ومناسكه أو ما لا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا فان مالكا كره العمرة فى بقية ذى الحجة وأبو حنيفة وان صحح الاحرام به قبل شوال فقد استكرهه وإنما سمى شهرين وبعض شهر أشهر إقامة للبعض مقام الكل أو اطلاقا للجمع على ما فوق الواحد وصيغة جمع المذكر فى غير العقلاء تجىء بالألف والتاء (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ) أى أوجبه على نفسه بالاحرام فيهن أو بالتلبية أو بسوق الهدى (فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ) أى لا جماع أو فلا فحش من الكلام ولا خروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات وقيل بالسباب والتنابذ بالألقاب (وَلاَ جِدَالَ) أى لا مراء مع الخدم والرفقة (فى الْحَجِّ) أى فى أيامه والاظهار فى مقام الاضمار لاظهار كمال الاعتناء بشأنه والاشعار بعلة الحكم فان زيارة البيت المعظم والتقرب بها إلى الله عز وجل من موجبات ترك الأمور المذكورة وإيثار النفى للمبالغة فى النهى والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يكون فان ما كان منكرا مستقبحا فى نفسه ففى تضاعيف الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة والتطريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض العبادة وقرىء الأولان بالرفع على معنى لا يكونن رفث ولا فسوق والثالث بالفتح على معنى الاخبار بانتفاء الخلاف فى الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فارتفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا أيضا بعرفات (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ) فيجزى به خير جزاء وهو حث على فعل الخير اثر النهى عن الشر (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) أى تزودوا لمعادكم التقوى فانه خير زاد وقيل نزلت فى أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فامروا أن يتزودوا ويتقوا الابرام فى السؤال والتثقيل على الناس (واتقُونِ يَاأُولِى الأَلْبَابِ) فان قضية اللب استشعار خشية الله عز وجل وتقواه حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بذلك هو الله تعالى فيتبرؤا من كل شىء سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص بهذا الخطاب أولو الألباب (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا) أى فى أن تبتغوا أى تطلبوا (فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ) عطاء ورزقا منه أى الربح بالتجارة وقيل كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يقيمونها أيام مواسم الحج وكانت معايشهم منها فلما جاء الاسلام تأثموا منه فنزلت (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ) أى دفعتم منها بكثرة من أفضت الماء إذا صببته بكثرة وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول حذفه من دفعت من البصرة وعرفات جمع سمى به كأذرعات وإنما نون وكسر وفيه علمية وتأنيث لما أن تنوين الجمع تنوين المقابلة لا تنوين التمكن ولذلك يجمع مع اللام وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف وهنا

ليس كذلك أو لأن التأنيث اما بالتاء المذكورة وهى ليست بتاء التأنيث وإنما هى مع الألف التى قبلها علامة جمع المؤنث أو بتاء مقدرة كما فى سعاد ولا سبيل إليه لأن المذكورة تأبى تقديرها لما أنها كالبدل منها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت وإنما سمى الموقف عرفة لأنه نعت لابراهيم عليه السلام فلما أبصره عرفه أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به فى المشاعر فلما رآه قال عرفت أو لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا أو لأن الناس يتعارفون فيه وهى من الأسماء المرتجلة إلا من يجعلها جمع عارف قيل وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الافاضة لا تكون إلا بعده وهى مأمور بها بقوله تعالى ثم أفيضوا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج أو مقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب والأمر به غير مطلق (فاذكروا الله) بالتلبية والتهليل والدعاء وقيل بصلاة العشاءين (عند المشعر الحرام) هو جبل يقف عليه الامام ويسمى قزح وقيل مابين مأزمى عرفة ووادى محسر ويؤيد الأول ماروى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغلس ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا فيه وكبر وهلل ولم يزل واقفاً حتى أسفر وإنما سمى مشعراً لأنه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمته ومعنى عند المشعر الحرام مايليه ويقرب منه فانه أفضل وإلا فالمزدلفة كلها موقف الاوادى محسر (واذكروه كما هداكم) أى كما علمكم أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها وما مصدرية أو كافة (وإن كنتم من قبله) من قبل ماذكر من هدايته اياكم (لمن الضالين) غير العاملين بالايمان والطاعة وإن هى المخففة واللام هى الفارقة وقيل هى نافية واللام بمعنى الا كما فى قوله عز وعلا وان نظنك لمن الكاذبين (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) أى من عرفة لامن المزدلفة والخطاب لقريش لما كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعا عليهم فأمروا بأن يساووهم وثم لتفاوت مابين الافاضتين كما فى قولك أحسن إلى الناس ثم لاتحسن إلا إلى كريم وقيل من مزدلفة إلى منى بعد الافاضة من عرفة إليها والخطاب عام وقرىء الناس بكسر السين أى الناسى على أن يراد به آدم عليه السلام من قوله تعالى فنسى والمعنى أن الافاضة من عرفة شرع قديم فلا تغيروه (واستغفروا الله) من جاهليتكم فى تغيير المناسك (إن الله غفور رحيم) يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه فهو تعليل للاستغفار أو للامر به (فإذا قضيتم مناسككم) عبادتكم المتعلقة بالحج وفرغتم منها (فاذكروا الله كذكركم آباءكم) أى فأكثروا ذكره تعالى وبالغوا فى ذلك كما تفعلون بذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم (أو أشد ذكرا) اما مجرور معطوف على الذكر بجعله ذاكراً على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكراً كائناً مثل ذكركم آباءكم أو كذكر أشد منه وأبلغ أو على ماأضيف إليه بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكراً أو منصوب بالعطف على آباءكم وذكراً من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكور من آبائكم أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم (فمن الناس) تفصيل للذاكرين إلى من لا يطلب بذكر الله إلا الدنيا وإلى من يطلب به خير الدارين والمراد به الحث على الاكثار والانتظام فى سلك الآخرين (من يقول) أى فى ذكره (ربنا آتنا فى الدنيا) اى اجعل ايتاءنا ومنحتنا فى الدنيا خاصة (وماله فى الآخرة من خلاق) أى من حظ ونصيب لاقتصار همه على الدنيا فهو بيان لحاله فى الآخرة أو من طلب خلاق فهو بيان لحاله فى الدنيا وتأكيد لقصر دعائه على المطالب الدنيوية (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة) هى الصحة والكفاف والتوفيق للخير (وفى الآخرة حسنة) هى الثواب والرحمة (وقنا عذاب النار) بالعفو والمغفرة وروى عن على رضى الله عنه أن الحسنة فى الدنيا المرأة الصالحة وفى الآخرة الحوراء وعذاب النار امرأة السوء وعن الحسن أن الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقنا عذاب النار

معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار (أُولَـٰئِكَ) إشارة إلى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا من الإشارة إلى علو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وقيل اليهما معا فالتنوين فى قوله تعالى (لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا) على الأول للتفخيم وعلى الثانى للتنويع أى لكل منهم نوع نصيب من جنس ما كسبوا أو من أجله كقوله تعالى مما خطيئاتهم أغرقوا أو مما دعوا به نعطيهم منه ماقدرناه وتسمية الدعاء كسبا لما أنه من الأعمال (وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى مقدار لمحة فاحذروا من الاخلال بطاعة من هذا شأن قدرته أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا إلى الطاعات واكتساب الحسنات (وَاذْكُرُوا اللَّهَ) أى كبروه فى أعقاب الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها (فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ) هى أيام التشريق (فَمَنْ تَعَجَّلَ) أى استعجل فى النفر أو النفر فان التفعل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعديين يقال تعجل فى الأمر واستعجل فيه وتعجله واستعجله والأول أوفق للتأخر كما فى قوله :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ... وقد يكون من المستعجل الزلل

(فِي يَوْمَيْنِ) أى فى تمام يومين بعد يوم النحر وهو يوم القر ويوم الرؤس واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار (فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) بتعجله (وَمَنْ تَأَخَّرَ) فى النفر حتى رمى فى اليوم الثالث قبل الزوال أو بعده وعند الشافعى بعده فقط (فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) بما صنع من التأخر والمراد التخيير بين التعجل والتأخر ولا يقدح فيه أفضلية الثانى وإنما ورد بنفى الاسم تصريحا بالرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ومؤثم للمتأخر (لِمَنِ اتَّقَىٰ) خبر لمبتدأ محذوف أى الذى ذكر من التخيير ونفى الاسم عن المتعجل والمتأخر أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به أو لأجله حتى لا يتضرر بترك مايهمه منهما (وَاتَّقُوا اللَّهَ) فى مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأ بكم وتنظموا فى سلك المغتنمين بالأحكام المذكورة والرخص أو احذروا الاخلال بما ذكر من الأحكام وهو الانسب بقوله عز وجل (وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أى للجزاء على أعمالكم بعد الاحياء والبعث وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق وهو تأكيد للأمر بالتقوى وموجب للامتثال به فان من علم بالحشر والمحاسبة والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعى إلى ملازمة التقوى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ) تجريد للخطاب وتوجيه له اليه عليه الصلاة والسلام وهو كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس فى شأن التقوى إلى حزبين وتعيين مآل كل منهما ومن موصولة أو موصوفة واعرابه كما بين فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر أى ومنهم من يروقك كلامه ويعظم موقعه فى نفسك لما تشاهد فيه من ملاءمة الفحوى ولطف الاداء والتعجب حيرة تعرض للانسان بسبب عدم الشعور بسبب مايتعجب منه (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) متعلق بقوله أى مايقوله فى حق الحياة الدنيا ومعناها فانها الذى يريده بمايدعيه من الإيمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه إشارة إلى أن له قولا آخر ليس بهذه الصفة أو بيعجبك أى يعجبك قوله فى الدنيا بحلاوته وفصاحته لا فى الآخرة لما أنه يظهر هناك كذبه وقبحه وقيل لما رهقه من الحبسة واللكنة وأنت خبير بأنه لامبالغة حينئذ فى سوء حاله فان مآله بيان حسن كلامه فى الدنيا وقبحه فى الآخرة وقيل معنى فى الحياة الدنيا مدة الحياة الدنيا أى لايصدر منه فيها إلا القول الحسن (وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ) أى بحسب ادعائه حيث يقول الله يعلم أن ما فى قلبى موافق لما فى لسانى وهو عطف على يعجبك وقرىء ويشهد الله فالمراد بما فى قلبه مافيه حقيقة ويؤيده قراءة ابن عباس رضى الله عنهما والله يشهد على مافى قلبه على أن كلمة على لكون المشهود به مضرا له فالجملة اعتراضية وقرىء ويستشهد الله (وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) أى شديد العداوة والخصومة للمسلمين على أن الخصام

مصدر وإضافة ألد اليه بمعنى فى كقولهم ثبت العذر أو أشد الخصوم لهم خصومة على أنه جمع خصم كصعب وصعاب قيل نزلت فى الاخنس بن شريق الثقفى وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الاسلام والمحبة وقيل فى المنافقين والجملة حال من الضمير المجرور فى قوله أو من المستكن فى يشهد وعطف على ماقبلها على القراءتين المتوسطتين (وَإِذَا تَوَلَّىٰ) أى من مجلسك وقيل إذا صار واليا (سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) كما فعله الأخنس بثقيف حيث بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والاتلاف أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل وقرىء ويهلك الحرث والنسل على إسناد الهلاك اليهما عطفا على سعى وقرىء بفتح اللام وهى لغة وقرىء على البناء للمفعول من الاهلاك (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) أى لا يرتضيه ويبغضه ويغضب على من يتعاطاه وهو اعتراض تذييلى (وَإِذَا قِيلَ لَهُ) على نهج العظة والنصيحة (اتَّقِ اللَّهَ) واترك ماتباشره من الفساد أو النفاق واحذر سوء مغبته (أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ) أى حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذى نهى عنه لجاجا وعنادا من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه أو ألزمته إياه (فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ) مبتدأ وخبر أى كافيه جهنم وقيل جهنم فاعل لحسبه ساد مسد خبره وهو مصدر بمعنى الفاعل وقوى لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها وقيل حسب اسم فعل ماض أى كفته جهنم (وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه والمهاد الفراش وقيل مايوطأ للجنب والجملة اعتراض (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ) مبتدأ وخبر كما مر أى يبيعها ببذلها فى الجهاد ومشاق الطاعات وتعريضها للمهالك فى الحروب أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وان ترتب عليه القتل (ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) أى طلبا لرضاه وهذا كمال التقوى وإيراده قسيما للاول من حيث أن ذلك يأنف من الأمر بالتقوى وهذا يأمر بذلك وإن أدى إلى الهلاك وقيل نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال إنى شيخ كبير لا أنفعكم إن كنت معكم ولا أضركم إن كنت عليكم فخلونى ما أنا عليه وخذوا مالى فقبلوا منه ماله فأتى المدينة فيشرى حينئذ بمعنى يشترى لجريان الحال على صورة الشرى (وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) ولذلك يكلفهم التقوى ويعرضهم للثواب والجملة اعتراض تذييلى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ) أى الاستسلام والطاعة وقيل الإسلام وقرىء بفتح السين وهى لغة فيه وبفتح اللام أيضا وقوله تعالى (كَافَّةً) حال من الضمير فى ادخلوا أو من السلم أو منهما معا كما فى قوله : خرجت بها تمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرجل

وهى فى الأصل اسم لجماعة تكف مخالفها ثم استعملت فى معنى جميعا وتاؤها ليست للتأنيث حتى يحتاج إلى جعل السلم مؤنثا مثل الحرب كما فى قوله عز وجل وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وفى قوله :

السلم تأخذ منها مارضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وإنما هى للنقل كما فى عامة وخاصة وقاطبة والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملة ظاهرا وباطنا والخطاب للمنافقين أو ادخلوا فى الإسلام بكليته ولا تخلطوا به غيره والخطاب لمؤمنى أهل الكتاب فانهم كانوا يراعون بعض أحكام دينهم القديم بعد إسلامهم أو فى شرائع الله تعالى كلها بالإيمان بالأنبياء عليهم السلام والكتب جميعا والخطاب لأهل الكتاب كلهم ووصفهم بالإيمان اما على طريقة التغليب واما بالنظر إلى إيمانهم القديم أو فى شعب الإسلام وأحكامه كلها فلا يخلوا بشىء منها والخطاب للمسلمين وإنما خوطب أهل الكتاب بعنوان الإيمان مع أنه لا يصح الإيمان إلا بما كلفوه الآن إيذانا بأن ما يدعونه لا يتم بدونه (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) بالتفرق والتفريق أو بمخالفة ما أمرتم به (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) ظاهر العداوة أو مظهر لها وهو تعليل للنهى أو الانتهاء (فَإِنْ زَلَلْتُمْ) أى عن الدخول فى

السلم وقرىء بكسر اللام وهي لغة فيه (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ) الآيات (الْبَيِّنَاتُ) والحجج القطعية الدالة على حقيته الموجبة للدخول فيه (فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ) غالب على أمره لا يعجزه الانتقام منكم (حَكِيمٌ) لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أوامره (هَلْ يَنْظُرُونَ) استفهام إنكارى في معنى النفي أي ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة في الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه (إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ) أي أمره وبأسه أو يأتيهم الله بأمره وبأسه فحذف المأتى به لدلالة الحال عليه والالتفات إلى الغيبة للايذان بأن سوء صنيعهم موجب للاعراض عنهم وحكاية جنايتهم لمن عداهم من أهل الانصاف على طريق المباثة وإيراد الانتظار للاشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها (فِي ظُلَلٍ) جمع ظلة كقلل في جمع قلة وهي ما أظلك وقرىء في ظلال كقلال في جمع قلة (مِنَ الْغَمَامِ) أي السحاب الأبيض وإنما أتاهم العذاب فيه لما أنه مظنة الرحمة فاذا أتى منه العذاب كان أفظع وأقطع للمطامع فان إتيان الشر من حيث لا يحتسب صعب فكيف باتيانه من حيث يرجى منه الخير (وَالْمَلَائِكَةُ) عطف على الاسم الجليل أي ويأتيهم الملائكة فانهم وسائط في اتيان أمره تعالى بل هم الآتون ببأسه على الحقيقة وتوسيط الظرف بينهما للايذان بأن الآتي أولا من جنس ما يلابس الغمام ويترتب عليه عادة وأما الملائكة وإن كان إتيانهم مقارنا لما ذكر من الغمام لكن ذلك ليس بطريق الاعتياد وقرىء بالجر عطفا على ظلل أو الغمام (وَقُضِيَ الْأَمْرُ) أي اتم أمر إهلاكهم وفرغ منه وهو عطف على يأتيهم داخل في حيز الانتظار وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان أو جملة مستأنفة جيء بها انباء عن وقوع مضمونها وقرىء وقضاء الأمر عطفا على الملائكة (وَإِلَى اللَّهِ) لا إلى غيره (تُرْجَعُ الْأُمُورُ) بالتأنيث على البناء للمفعول من الرجع وقرىء بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتأنيث من الرجوع (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل الخطاب والمراد بالسؤال تبكيتهم وتقريعهم بذلك وتقرير لمجيء البينات (كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ) معجزة ظاهرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام وآية ناطقة بحقية الاسلام المأمور بالدخول فيه وكم خبرية أو استفهامية مقررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وآية مميزها (وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ) التي هي آياته الباهرة فانها سبب للهدى الذي هو أجل النعم وتبديلها جعلها سببا للضلالة وازدياد الرجس أو تحريفها وتأويلها الزائغ (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ) ووصلت اليه وتمكن من معرفتها والتصريح بذلك مع أن التبديل لا يتصور قبل المجيء للاشعار بأنهم قد بدلوها بعدما وقفوا على تفاصيلها كما في قوله عز وجل ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل وإنما حذف للايذان بعدم الحاجة إلى التصريح به لظهوره (فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) تعليل للجواب كأنه قيل ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة فانه شديد العقاب وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أي حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها والتزيين من حيث الخلق والايجاد مستند إلى الله سبحانه كما يعرب عنه القراءة على البناء للفاعل إذ ما من شيء إلا وهو خالقه وكل من الشيطان والقوى الحيوانية وما في الدنيا من الأمور البهية والأشياء الشهية مزين بالعرض (وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) عطف على زين وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على استمرار السخرية منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب رضي الله عنهم كانوا يسترذلونهم ويستهزؤن بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى ومن ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم (وَالَّذِينَ اتَّقَوْا) هم الذين آمنوا بعينهم وإنما ذكروا بعنوان التقوى للايذان بأن اعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مخلة بتبتلهم إلى جناب القدس

شاغلة عنه (فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ) لأنهم فى أعلى عليين وهم فى أسفل سافلين أو لأنهم فى أوج الكرامة وهم فى حضيض الذل والمهانة أو لأنهم يتطاولون عليهم فى الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم فى الدنيا والجملة معطوفة على ماقبلها وإيثار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها (وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ) أى فى الدارين (بِغَيْرِ حِسَابٍ) بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجا تارة وابتلاء أخرى (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) متفقين على كلمة الحق ودين الإسلام وكان ذلك بين آدم وإدريس أو نوح عليهم السلام أو بعد الطوفان (فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ) أى فاختلفوا فبعث الخ وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وقد حذف تعويلا على مايذكر عقيبه (مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) عن كعب الذى علمته من عدد الأنبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون ألفا والمرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكور فى القرآن ثمانية وعشرون وقيل كان الناس أمة واحدة متفقة على الكفر والضلال فى فترة إدريس أو نوح فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم والأول هو الأنسب بالنظم الكريم (وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ) أى جنس الكتاب أو مع كل منهم ممن له كتاب كتابه الخاص به لا مع كل واحد منهم على الاطلاق إذ لم يكن لبعضهم كتاب وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وعموم النبيين لاينافى خصوص الضمير العائد إليه بمعونة المقام (بِالْحَقِّ) حال من الكتاب أى ملتبسا بالحق أو متعلق بأنزل كقوله عز وعلا وبالحق أنزلناه وبالحق نزل (لِيَحْكُمَ) أى الكتاب أو الله سبحانه وتعالى أو كل واحد من النبيين (بَيْنَ النَّاسِ) أى المذكورين والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التعيين (فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) أى فى الحق الذى اختلفوا فيه أو فيما التبس عليهم (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ) أى فى الحق أو فى الكتاب المنزل ملتبسا به والواو حالية (إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ) أى الكتاب المنزل لازالة الاختلاف وإزاحة الشقاق والتعبير عن الانزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على مافى تضاعيفه من الحق فان الانزال لايفيد تلك الفائدة أى عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سببا لاستحكامه ورسوخه (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ) أى رسخت فى عقولهم ومن متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام اى فاختلفوا وما اختلف فيه الخ وقيل بالملفوظ بناء على عدم منع الا عنه كما فى قولك ما قام إلا زيد يوم الجمعة (بَغْيًا بَيْنَهُمْ) متعلق بما تعلقت به من أى اختلفوا بغيا وتهالكا على الدنيا (فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا) بالكتاب (لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) أى للحق الذى اختلف فيه من اختلف (مِنَ الْحَقِّ) بيان لما وفى إبهامه أولا وتفسيره ثانيا مالايخفى من التفخيم (بِإِذْنِهِ) بأمره أو بتيسيره ولطفه (وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) موصل إلى الحق وهو اعتراض مقرر لمضمون ماسبق (أَمْ حَسِبْتُمْ) خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حثالهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل المشاق من جهتهم اثر بيان اختلاف الأمم على الأنبياء عليهم السلام وقد بين فيه مآل اختلافهم ومالقى الأنبياء ومن معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرهم النصر وأم منقطعة والهمزة فيها للانكار والاستبعاد أى بل أحسبتم (أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أى والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشدة وهو متوقع ومنتظر (مَسَّتْهُمُ) استئناف وقع جوابا عما ينساق إليه الذهن كأنه قيل كيف كان مثلهم فقيل مستهم (الْبَأْسَاءُ) أى الشدة من الخوف والفاقة (وَالضَّرَّاءُ) أى الآلام والأمراض (وَزُلْزِلُوا) أى أزعجوا ازعاجا شديدا بما دهمهم من الأهوال والافزاع (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) أى انتهى أمرهم من الشدة إلى حيث اضطرهم الضجر إلى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشؤن الله تعالى وأوثقهم بنصره والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره (مَتَى) أى متى يأتى (نَصْرُ اللهِ) طلبا وتمنيا له

واستطالة لمدة الشدة والعناء وقرىء حتى يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية كيف لا والرسل مع علو كعبهم فى الثبات والاصطبار حيث عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضجيج علم أن الأمر بلغ إلى غاية لا مطمح وراءها (أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) على تقدير القول أى فقيل لهم حينئذ ذلك إسعافا لمرامهم والمراد بالقرب القرب الزمانى وفى إيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقرره مالا يخفى واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنها فى حكم انشاء الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتصار على حكايتها دون حكاية نفس النصر مع تحققه للايذان بعدم الحاجة إلى ذلك لاستحالة الخلف ويجوز أن يكون هذا واردا من جهته تعالى عند الحكاية على نهج الاعتراض لا واردا عند وقوع المحكى وفيه رمز إلى أن الوصول إلى جناب القدس لا يتسنى الا برفض اللذات ومكابدة المشاق كما ينبى عنه قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ) أى من أصناف أموالهم (قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ) ما اما شرطية واما موصولة حذف العائد اليها أى ما أنفقتموه من خير أى خير كان ففيه تجويز الانفاق من جميع أنواع الأموال وبيان لما فى السؤال الا أنه جعل من جملة ما فى حيز الشرط أو الصلة وأبرز فى معرض بيان المصرف حيث قيل (فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) للايذان بأن الأهم بيان المصارف المعدودة لأن الاعتداد بالانفاق بحسب وقوعه فى موقعه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء عمرو بن الجموح وهو شيخ هم له مال عظيم فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت (وَالْيَتَامَىٰ) أى المحتاجين منهم (وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) ولم يتعرض للسائلين والرقاب اما اكتفاء بما ذكر فى المواقع الأخر واما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ) فانه شامل لكل خير واقع فى أى مصرف كان (فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) فيوفى ثوابه وليس فى الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به كما نقل عن السدى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ) ببناء الفعل للمفعول ورفع القتال أى قتال الكفرة وقرىء ببنائه للفاعل وهو الله عز وجل ونصب القتال وقرىء كتب عليكم القتل أى قتل الكفرة والواو فى قوله تعالى (وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ) حالية أى والحال أنه مكروه لكم طبعا على أن الكره مصدر وصف به المفعول مبالغة أو بمعنى المفعول كالخبز بمعنى المخبوز وقرىء بالفتح على أنه بمعنى المضموم كالضعف والضعف أو على أنه بمعنى الاكراه مجازا كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم (وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التى من جملتها القتال فان النفوس تكرهه وتنفر عنه والجملة اعتراضية دالة على أن فى القتال خيرا لهم (وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ) وهو جميع مانهوا عنه من الأمور المستلذة وهو معطوف على ما قبله لا محل لهما من الاعراب (وَاللهُ يَعْلَمُ) ما هو خير لكم فلذلك يأمركم به (وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أى لا تعلمونه ولذلك تكرهونه أو والله يعلم ما هو خير وشر لكم وأنتم لا تعلمونهما فلا تتبعوا فى ذلك رأيكم وامتثلوا بأمره تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ) روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبدالله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليترصدوا عيرا لقريش فيهم عمرو بن عبدالله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة الطائف وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ويبذعر فيه الناس إلى معايشهم فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسارى وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة . والمعنى يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام على أن قوله عز وجل

(قتالٌ فيه) بدل اشتمال من الشهر وتنكيره لما أن سؤالهم كان عن مطلق القتال الواقع فى الشهر الحرام لا عن القتال المعهود ولذلك لم يقل يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام وقرىء عن قتال فيه بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم وقرىء قتل فيه (قلْ) فى جوابهم (قتالٌ فيهِ كبيرٌ) جملة من مبتدا وخبر محلها النصب بقل وإنما جاز وقوع قتال مبتدا مع كونه نكرة لتخصصه اما بالوصف ان تعلق الظرف بمحذوف وقع صفة له أى قتال كائن فيه واما بالعمل ان تعلق به وإنما أوثر التنكير احترازا عن توهم التعيين وإيذانا بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أى قتال كان . عن عطاء أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام فحلف بالله مايحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام الا أن يقاتلوا فيه ومانسخت وأكثر الاقاويل أنها منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم (وصدٌّ عن سبيلِ الله) مبتدأ قد تخصص بالعمل فيما بعده أى ومنع عن الإسلام الموصل للعبد الى الله تعالى (وكفرٌ به) عطف على صد عامل فيما بعده مثله أى وكفر بالله تعالى وحيث كان الصد عن سبيل الله فردا من أفراد الكفر به تعالى لم يقدح العطف المذكور فى حسن عطف قوله تعالى (والمسجدِ الحرامِ) على سبيل الله لأنه ليس بأجنبى محض وقيل هو أيضا معطوف على صد بتقدير المضاف أى وصد المسجد الحرام (وإخراجُ أهلهِ) وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (منه) أى من المسجد الحرام وهو عطف على وكفر به (أكبرُ عندَ اللهِ) خبر للاشياء المعدودة أى كبائر السائلين أكبر عند الله مما عنوا بالسؤال وهو مافعلته السرية خطأ وبناء على الظن وأفعل يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (والفتنةُ) أى ماارتكبوه من الاخراج والشرك وصد الناس عن الإسلام ابتداء وبقاء (أكبرُ من القتلِ) أى أفظع من قتل الحضرمى (ولا يزالونَ يقاتلونكمْ) بيان لاستحكام عداوتهم واصرارهم على الفتنة فى الدين (حتى يردُّوكمْ عنْ دينِكم) الحق إلى دينهم الباطل واضافة الدين اليهم لتذكير تأكد ما بينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق (إن استطاعُوا) اشارة إلى تصلبهم فى الدين وثبات قدمهم فيه كأنه قيل وأنى لهم ذلك (ومن يرتددْ منكمْ عنْ دينهِ) تحذير من الارتداد أى ومن يفعل ذلك باضلالهم واغوائهم (فيمتْ وهوَ كافرٌ) بأن لم يرجع إلى الاسلام وفيه ترغيب فى الرجوع إلى الإسلام بعد الارتداد (فأولئكَ) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الارتداد والموت عليه ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد والجمع للنظر إلى المعنى أى أولئك المصرون على الارتداد إلى حين الموت (حبطتْ أعمالُهمْ) الحسنة التى كانوا عملوها فى حالة الاسلام حبوطا لا تلافى له قطعا (فى الدُّنيا والآخرةِ) بحيث لم يبق لها حكم من الأحكام الدنيوية والأخروية (وأولئكَ) الموصوفون بما ذكر سابقا ولاحقا من القبائح (أصحابُ النارِ) أى ملابسوها وملازموها (همْ فيها خالدونَ) كدأب سائر الكفرة (إنَّ الذينَ آمنُوا) نزلت فى أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم ان سلموا من الاثم فلا أجر لهم (والذينَ هاجَروا وجاهدوا فى سبيلِ الله) كرر الموصول مع أن المراد بهما واحد لتفخيم شأن الهجرة والجهاد فكأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء (أولئكَ) المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (يرجُونَ) بما لهم من مبادى الفوز (رحمتَ اللهِ) أى ثوابه أثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للايذان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر وإنما هو على طريق التفضل منه سبحانه لا لأن فى فوزهم اشتباها (واللهُ غفورٌ) مبالغ فى مغفرة ما فرط من عباده خطأ (رحيمٌ) بجزل لهم الأجر والثواب والجملة اعتراض محقق لمضمون ماقبلها (يسئلونكَ عنِ الخمرِ والميسرِ) تواردت فى شأن الخمر أربع آيات نزلت بمكة ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا فطفق المسلمون يشربونها ثم ان عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة

رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قالوا أفتنا يارسول الله فى الخمر فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبدالرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا فسكروا فأم أحدهم فقرأ قل ياأيها الكافرون أعبد ماتعبدون فنزلت لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبي وقاص فى نفر فلما سكروا تفاخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء الأنصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه موضحة فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت إنما الخمر والميسر إلى قوله تعالى فهل أنتم منتهون فقال عمر رضى الله عنه انتهينا يارب وعن على رضى الله عنه لو وقعت قطرة منها فى بئر فبنيت فى مكانها منارة لم أؤذن عليها ولو وقعت فى بحر ثم جف فنبت فيه الكلأ لم أرعه وعن ابن عمر رضى الله عنهما لو أدخلت أصبعى فيها لم تتبعنى وهذا هو الايمان والتقى حقا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والخمر مصدر خمره أى ستره سمى به من عصير العنب ماغلى واشتد وقذف بالزبد لتغطيتها العقل والتمييز كأنها نفس الستر كما سميت سكرا لأنها تسكرهما أى تحجزهما والميسر مصدر ميمى من يسر كالموعد والمرجع يقال يسرته إذا قمرته واشتقاقه إما من اليسر لأنه أخذ المال بيسر من غير كد وتعب وإما من اليسار لأنه سلب له وصفته أنه كانت لهم عشرة أقداح هى الأزلام والأقلام الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء وقيل ثمانية وعشرين إلا الثلاثة هى المنيح والسفيح والوغد للفذ سهم وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة ويضعونها على يدى عدل ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء أخذ النصيب المعين لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه وكانوا يدفعون تلك الانصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لايدخل فيه ويسمونه البرم وفى حكمه جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إياكم وهاتين اللعبتين المشؤمتين فانهما مياسر العجم وعن على كرم الله وجهه إن النرد والشطرنج من الميسر وعن ابن سيرين كل شىء فيه خطر فهو من الميسر . والمعنى يسألونك عن حكمهما وعما فى تعاطيهما (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ) أى فى تعاطيهما ذلك لما أن الأول مسلبة للعقول التى هى قطب الدين والدنيا مع كون كل منهما متلفة للأموال (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) من كسب الطرب واللذة ومصاحبة الفتيان وتشجيع الجبان وتقوية الطبيعة وقرىء اسم كثير بالمثلثة وفى تقديم بيان اثمه ووصفه بالكبر وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول مالايخفى على مانطق به قوله تعالى (وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) أى المفاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه وقرىء أقرب من نفعهما (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ) عطف على يسألونك عن الخمر الخ عطف القصة على القصة أى أى شىء ينفقونه قيل هو عمرو بن الجموح أيضا سأل أولا من أى جنس ينفق من أجناس الأموال فلما بين جواز الانفاق من جميع الأجناس سأل ثانيا من أى أصنافهما تنفق أمن خيارها أم من غيرها أو سأل عن مقدار ماينفقه منه فقيل (قُلِ الْعَفْوَ) بالنصب أى ينفقون العفو أو أنفقوا العفو وقرىء بالرفع على أن ما استفهامية وذا موصولة صلتها ينفقون أى الذى ينفقونه العفو قال الواحدى أصل العفو فى اللغة الزيادة وقال القفال العفو ماسهل وتيسر مما فضل من الكفاية وهو قول قتادة وعطاء والسدى وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل وروى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغانم فقال خذها منى صدقة فاعرض عنه فكرر ذلك مرارا حتى

قال عليه السلام مغضبا هاتها فأخذها فخذفها عليه خذفا لو أصابته لشجته ثم قال يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس إنما الصدقة عن ظهر غنى (كَذَلِكَ) إشارة إلى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه فى الفضل مع كمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة وإفراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق أو لعدم القصد إلى تعيين المخاطب كما مر ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى مثل ذلك البيان الواضح الذى هو عبارة عما مضى فى أجوبة الأسئلة المارة (يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ) الدالة على الأحكام الشرعية المذكورة لا بيانا أدنى منه وقد مر تمام تحقيقه فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وتبيين الآيات تنزيلها مبينة الفحوى واضحة المدلول لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مشتبهة ملتبسة وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة (لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) لكى تتفكروا فيها وتقفوا على مقاصدها وتعملوا بما فى تضاعيفها وقوله تعالى (فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) متعلق اما بيبين أى يبين لكم فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات واما بمحذوف وقع حالا من الآيات أى يبينها لكم كائنة فيهما أى مبينة لأحوالكم المتعلقة بهما وإنما قدم عليه التعليل بمزيد الاعتناء بشأن التفكر واما بقوله تعالى تتفكرون أى تتفكرون فى الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة فى الأحكام الواردة فى أجوبة الأسئلة المارة فتختارون منها ما يصلح لكم فيهما وتجتنبون عن غيره وهذا التخصيص هو المناسب لمقام تعداد الأحكام الجزئية ويجوز التعميم لجميع الامور المتعلقة بالدنيا والآخرة فذلك حينئذ إشارة إلى ما مر من البيانات كلا أو بعضا لا إلى مصدر ما بعده فانه حينئذ فعل مستقل ليس بعبارة عن تلك البيانات والمراد بالآيات غير ما ذكر والمعنى مثل ذلك البيان الوارد فى الاجوبة المذكورة يبين الله لكم الآيات والدلائل لعلكم تتفكرون فى أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيهما وتذرون ما يضركم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبينة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى) عطف على ما قبله من نظيره روى أنه لما نزلت إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت (قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ) أى التعرض لاحوالهم وأموالهم على طريق الإصلاح خير من مجانبتهم اتقاء (وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ) وتعاشروهم على وجه ينفعهم (فَإِخْوَانُكُمْ) أى فهم إخوانكم أى فى الدين الذى هو أقوى من العلاقة النسبية ومن حقوق الاخوة ومواجبها المخالطة بالإصلاح والنفع وقد حمل المخالطة على المصاهرة (وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) العلم بمعنى المعرفة المتعدية إلى واحد ومن لتضمينه معنى التميز أى يعلم من يفسد فى أمورهم عند المخالطة أو من يقصد بمخالطته الخيانة والإفساد مميزا له ممن يصلح فيها أو يقصد الإصلاح فيجازى كلا منهما بعمله ففيه وعد ووعيد خلا أن فى تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ) أى لو شاء أن يعنتكم أى يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم يجوز لكم مداخلتهم (إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ) غالب على أمره لا يعز عليه امر من الامور التى من جملتها اعناتكم فهو تعليل لمضمون الشرطية وقوله عز وجل (حَكِيمٌ) اى فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية إلى بناء التكليف على اساس الطاقة دليل على ما تفيده كلمة لو من انتفاء مقدمها (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ) اى لا تتزوجوهن وقرىء بضم التاء من الانكاح اى لا تزوجوهن من المسلمين (حَتَّى يُؤْمِنَّ) والمراد بهن اما ما يعم الكتابيات ايضا حسبما يقتضيه عموم التعليلين الآتيين لقوله تعالى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله إلى قوله سبحانه عما يشركون فالآية منسوخة بقوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وأما غير الكتابيات فهى ثابتة روى أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوى إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين وكان يهوى امرأة فى الجاهلية اسمها عناق فأتته فقالت ألا تخلو فقال ويحك ان الاسلام حال بيننا فقالت هل لك أن تتزوج بي قال نعم ولكن أرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأستأمره فاستأمره فنزلت (وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ) تعليل للنهى عن مواصلتهن وترغيب فى مواصلة المؤمنات صدر بلام الابتداء الشبهية بلام القسم فى إفادة التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار وأصل أمة أمو حذفت لامها على غير قياس وعوض منه تاء التأنيث ودليل كون لامها واوا رجوعها فى الجمع قال الكلابي :

أما الاماء فلا يدعوننى ولدا   إذا تداعى بنو الأموات بالعار

وظهورها فى المصدر يقال هى أمة بينة الاموة وأقرت له بالاموة وقد وقعت مبتدأ لما فيها من لام الابتداء والوصف أى ولأمة مؤمنة مع ما بها من خساسة الرق وقلة الخطر (خَيْرٌ) بحسب الدين والدنيا (مِنْ مُشْرِكَةٍ) أى امرأة مشركة مع مالها من شرف الحرية ورفعة الشأن (وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ) قد مر أن كلمة لو فى أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشىء فى الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه مع انصباب المعنى على تقديره بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته معه ثبوته مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الأحوال على وجه الاجمال كأنه قيل لو لم تعجبكم ولو أعجبتكم والجملة فى حيز النصب على الحالية من مشركة إذ المآل ولأمة مؤمنة خير من امرأة مشركة حال عدم اعجابها إياكم بجمالها ومالها ونسبها وبغير ذلك من مبادى الاعجاب وموجبات الرغبة فيها أى على كل حال وقد اقتصر على ذكر ما هو أشد منافاة للخيرية تنبيها على أنها حيث تحققت معه فلأن تتحقق مع غيره أولى وقيل الواو حالية وليس بواضح وقيل اعتراضية وليس بسديد والحق أنها عاطفة مستتبعة لما ذكر من الاعتبار اللطيف نعم يجوز أن تكون الجملة الأولى مع ما عطف عليها مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها فتدبر (وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ) من الانكاح والمراد بهم الكفار على الاطلاق لما مر أى لا تزوجوا منهم المؤمنات سواء كن حرائر أو إماء (حَتَّى يُؤْمِنُوا) ويتركوا ما هم فيه من الكفر (وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ) مع ما به من ذل المملوكية (خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ) مع ماله من عز المالكية (وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ) بما فيه من دواعى الرغبة فيه الراجعة إلى ذاته وصفاته (أُولَئِكَ) استئناف مقرر لمضمون التعليلين المارين أى أولئك المذكورون من المشركات والمشركين (يَدْعُونَ) من يقارنهم ويعاشرهم (إِلَى النَّارِ) أى إلى ما يؤدى إليها من الكفر والفسوق فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم (وَاللَّهُ يَدْعُوا) بواسطة عباده المؤمنين من يقارنهم (إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ) أى الى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما وتقديم الجنة على المغفرة مع أن حق التخلية أن تقدم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداء (بِإِذْنِهِ) متعلق بيدعو أى يدعو ملتبسا بتوفيقه الذى من جملته ارشاد المؤمنين لمقارنيهم إلى الخير ونصيحتهم إياهم فهم أحقاء بالمواصلة (وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ) المشتملة على الأحكام الفائقة والحكم الرائقة (لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) أى لكى يتذكروا ويعملوا بما فيها فيفوزوا بما دعوا إليه من الجنة والغفران . هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه تشريفا لهم وأنت خبير بأن الضمير فى المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى ويبين لله تعالى فيلزم التفكيك وقيل معناه والله يدعو بأحكامه المذكورة إلى الجنة والمغفرة فانها موصلة

لمن عمل بها إليهما وهذا وإن كان مستدعيا لاتحاد مرجع الضمير بن الكائنين فى الجلتين المتعاطفتين الواقعتين خبرا للمبتدأ لكن يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى أولئك يدعون إلى النار ولعل الطريق الأسلم ما أوضحناه أولا وإيراد التذكر ههنا للاشعار بأنه واضح لايحتاج إلى التفكر كما فى الأحكام السابقة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) عطف على ماتقدم من مثله ولعل حكاية هذه الأسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل عند السؤال عن الخمر وحكاية ماعداها بغير عطف لوقوع كل من ذلك فى وقت على حدة والمحيض مصدر من حاضت المرأة كالمجىء والمبيت. روى أن أهل الجاهلية كانوا لايساكنون الحيض ولا يؤاكلونهن كدأب اليهود والمجوس واستمر الناس على ذلك إلى أن سأل عن ذلك أبو الدحداح فى نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فنزلت (قُلْ هُوَ أَذًى) أى شىء يستقذر منه ويؤذى من يقربه نفرة منه وكراهة له (فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) أى فاجتنبوا مجامعتهن فى حالة المحيض. قيل أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال فأخرجوهن من بيوتهم فقال ناس من الاعراب يارسول الله البرد شديد والثياب قليلة فان آثرناهن هلك سائر أهل البيت وإن استأثرنا بها هلكت الحيض فقال صلى الله عليه وسلم إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ولم يأمركم باخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم وقيل ان النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض واليهود كانوا يفرطون فى الاعتزال فأمر المسلمون بالاقتصاد بين الأمرين (وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) تأكيد لحكم الاعتزال وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن لاعدم القرب منهن وبيان لغايته وهو انقطاع الدم عند أبى حنيفة رحمه الله فان كان ذلك فى أكثر المدة حل القربان كما انقطع وإلا فلا بد من الاغتسال أو من مضى وقت صلاة وعند الشافعى رحمه الله أن يغتسلن بعد الانقطاع كما تفصح عنه القراءة بالتشديد وينبىء عنه قوله عز وجل (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ) فان التطهر هو الاغتسال (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) من المأتى الذى حلله لكم وهو القبل (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) مما عسى يندر منهم من ارتكاب بعض مانهوا عنه ومن سائر الذنوب (وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) المتنزهين عن الفواحش والاقذار وفى ذكر التوبة إشعار بمساس الحاجة اليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) أى مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين مايلقى فى أرحامهن وبين البذور من المشابهة من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ) لما عبر عنهن بالحرث عبر عن مجامعتهن بالاتيان وهو بيان لقوله تعالى فأتوهن من حيث أمركم الله (أَنَّى شِئْتُمْ) من أى جهة شئتم. روى أن اليهود كانوا يزعمون أن من أتى امرأته فى قبلها من دبرها يأتى ولده أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ) أى مايدخر لكم من الثواب وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند المباشرة (وَاتَّقُوا اللَّهَ) بالاجتناب عن معاصيه التى من جملتها ماعد من الأمور (وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ) فتعرضوا التحصيل ماتنتفعون به حينئذ واجتنبوا اقتراف ماتفتضحون به (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) الذين تلقوا ماخوطبوا به من الأوامر والنواهى بحسن القبول والامتثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم أو بكل مايبشر به من الأمور التى تسر بها القلوب وتقر بها العيون وفيه مع مافى تلوين الخطاب وجعل المبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم من المبالغة فى تشريف المؤمنين مالايخفى (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) قيل نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لايكلم ختنه بشر بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته وقيل فى الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لاينفق على مسطح لخوضه فى حديث الافك والعرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة تطلق على مايعرض دون الشىء فيصير حاجزا عنه كما يقال فلان عرضة للخير وعلى المعرض للامر كما فى قوله:

فلا تجعلونى عرضة للوائم فالمعنى على الوجه الأول لاتجعلوا الله مانعا للامور الحسنة التى تحلفون على تركها وعبر عنها

بالايمان للملابستها بها كما فى قوله عليه السلام لعبد الله بن سمرة اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك وقوله تعالى (أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ) عطف بيان لأيمانكم أو بدل منها لما عرفت أنها عبارة عن الأمور المحلوف عليها واللام فى لأيمانكم متعلقة بالفعل أو بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض أى لا تجعلوا الله لبركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس عرضة أى برزخا حاجزا بأن تحلفوا به تعالى على تركها أو لا تجعلوه تعالى عرضة أى شيئا يعترض الأمور المذكورة ويحجزها بما ذكر من الحلف به تعالى على تركها وقد جوز أن تكون اللام للتعليل ويتعلق أن تبروا الخ بالفعل أو بعرضة فيكون الايمان بمعناها وأنت خبير بأنه يؤدى إلى الفصل بين العامل ومعموله بأجنبى وعلى الوجه الثانى لا تجعلوا الله معرضا لايمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف به ولذلك ذم من نزلت فيه ولا تطع كل حلاف مهين بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها وأن تبروا حينئذ علة للنهى أى إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا لأن الحلاف مجترىء على الله سبحانه غير معظم له فلا يكون برا متقيا ثقة بين الناس فيكون بمعزل من التوسط فى اصلاح ذات البين (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) يسمع أيمانكم (عَلِيمٌ) يعلم نياتكم فحافظوا على ما كلفتموه (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ) اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار والمراد به فى الايمان ما لا عقد معه ولا قصد كما ينبىء عنه قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان وهو المعنى بقوله عز وجل (وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) وقد اختلف فيه فعندنا هو أن يحلف على شىء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه فانه لا قصد فيه إلى الكذب وعند الشافعى رحمه الله هو قول العرب لا والله وبلى والله مما يؤكدون به كلامهم من غير اخطار الحلف بالبال فالمعنى على الأول لا يؤاخذكم الله أى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم ظانا أنه صادق فيه ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من اثم القصد إلى الكذب فى اليمين وذلك فى الغموس وعلى الثانى لا يلزمكم الكفارة بما لا قصد معه إلى اليمين ولكن يلزمكموها بما نوت قلوبكم وقصدت به اليمين ولم يكن كسب اللسان فقط (وَاللَّهُ غَفُورٌ) حيث لم يؤاخذكم باللغو مع كونه ناشئا من عدم التثبت وقلة المبالاة (حَلِيمٌ) حيث لم يعجل بالمؤاخذة والجملة اعتراض مقرر لمضمون قوله تعالى لا يؤاخذكم الخ وفيه ايذان بأن المراد بالمؤاخذة المعاقبة لا إيجاب الكفارة إذ هى التى يتعلق بها المغفرة والحلم دونه (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ) الإيلاء الحلف وحقه أن يستعمل بعلى واستعماله بمن لتضمينه معنى البعد أى للذين يحلفون متباعدين من نسائهم ويحتمل أن يراد لهم من نسائهم (تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ) كقولك لى منك كذا وقرىء آلوا من نسائهم وقرىء يقسمون من نسائهم والإيلاء من المرأة أن يقول والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعدا على التقييد بالأشهر أو لا أقربك على الاطلاق ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه أنه ان فاء اليها فى المدة بالوطء إن أمكن أو بالقول إن عجز عنه صح الفىء وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين ولا كفارة على العاجز وان مضت الأربعة بانت بتطليقة والتربص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف اتساعا أى لهم أن ينتظروا فى هذه المدة من غير مطالبة بفىء أو طلاق (فَإِنْ فَاءُوا) أى رجعوا عن اليمين بالحنث والفاء للتفصيل كما إذا قلت أنا نزيلكم هذا الشهر فان أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره وإلا لم ألبث إلا ريثما أتحول (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يغفر للمولى بفيئته التى هى كتوبته اثم حنثه عند تكفيره أو ما قصد بالإيلاء من ضرار المرأة (وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ) وأجمعوا عليه (فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) بما جرى منهم من الطلاق وما يتعلق به من الدمدمة والمقاولة التى لا تخلو عنها الحال عادة (عَلِيمٌ) بنياتهم وفيه من الوعيد على الاصرار وترك الفيئة ما لا يخفى (وَالْمُطَلَّقَاتُ) أى ذوات الأقراء من الحرائر المدخول بهن لما قد بين أن لا عدة على غير المدخول بها وأن عدة من لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل بالاشهر ووضع الحمل وأن عدة الأمة قرءان أو شهران (يَتَرَبَّصْنَ) خبر فى معنى الامر

مفيد للتأكيد بإشعاره بأن المأمور به مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى الإتيان به فكأنهن امتثلن بالأمر بالتربص فتخبر به موجودا متحققا وبناؤه على المبتدأ مفيد لزيادة تأكيد (بِأَنفُسِهِنَّ) الباء للتعدية أى يقمعنها ويحملنها على ما لا تشتهيه بل يشق عليها من التربص وفيه مزيد حث لهن على ذلك لما فيه من الانباء عن الاتصاف بما يستنكفن منه من كون نفوسهن طوامح إلى الرجال فيحملهن ذلك على الإقدام على الاتيان بما أمرن به (ثَلٰثَةَ قُرُوءٍ) نصب على الظرفية أو المفعولية بتقدير مضاف أى يتربصن مدة ثلاثة قروء أو يتربصن مضى ثلاثة قروء وهو جمع قرء والمراد به الحيض بدليل قوله صلى الله عليه وسلم دعى الصلاة أيام أقرائك وقوله عليه السلام طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان وقوله تعالى واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ولأن المقصود الأصلى من العدة استبراء الرحم ومداره الحيض دون الطهر ويقال أقرأت المرأة إذا حاضت وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن معناه مستقبلات لعدتهن وهى الحيض الثلاث وإيراد جمع الكثرة فى مقام جمع القلة بطريق الاتساع فان إيراد كل من الجمعين مكان الآخر شائع ذائع وقرىء ثلاثة قرو بغير همز (وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ) من الحيض والولد استعجالا فى العدة وابطالا لحق الرجعة وفيه دليل على قبول قولهن فى ذلك نفيا واثباتا (إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله دلالة واضحة أى فلا يجترئن على ذلك فان قضية الايمان بالله تعالى واليوم الآخر الذى يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعا (وَبُعُولَتُهُنَّ) البعولة جمع بعل وهو فى الأصل السيد المالك والتاء لتأنيث الجمع كما فى الحزونة والسهولة أو مصدر بتقدير مضاف أى أهل بعولتهن أى أزواجهن الذين طلقوهن طلاقا رجعيا كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة والضمير لبعض أفراد المطلقات (أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ) إلى ملكهم بالرجعة اليهن (فِى ذٰلِكَ) أى فى زمان التربص وصيغة التفضيل لافادة أن الرجل إذا أراد الرجعة والمرأة تأباها وجب إيثار قوله على قولها لا أن لها أيضا حقا فى الرجعة (إِنْ أَرَادُوا) أى الأزواج بالرجعة (إِصْلٰحًا) لما بينهم وبينهن وإحسانا اليهن ولم يريدوا مضارتهن وليس المراد به شرطية قصد الاصلاح بصحة الرجعة بل هو الحث عليه والزجر عن قصد الضرار (وَلَهُنَّ) عليهم من الحقوق (مِثْلُ الَّذِى) لهم (عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) من الحقوق التى يجب مراعاتها ويتحتم المحافظة عليها (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) أى زيادة فى الحق لأن حقوقهم فى أنفسهن وحقوقهن فى المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها أو مزية فى الفضل لما أنهم قوامون عليهن حراس لهن ولما فى أيديهن يشاركونهن فيما هو الغرض من الزواج ويستبدون بفضيلة الرعاية والانفاق (وَاللَّهُ عَزِيزٌ) يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه (حَكِيمٌ) تنطوى شرائعه على الحكم والمصالح (الطَّلٰقُ) هو بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعى لما أن السابق الأقرب حكمه ولما روى أنه عليه السلام سئل عن الثالثة فقال عليه السلام أو تسريح باحسان وهو مبتدأ بتقدير مضاف خبره ما بعده أى عدد الطلاق الذى يستحق الزوج فيه الرد والرجعة حسبما بين آنفا (مَرَّتَانِ) أى اثنان وإيثار ما ورد به النظم الكريم عليه للايذان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة لا دفعة واحدة وإن كان حكم الرد ثابتا حينئذ أيضا (فَإِمْسَاكٌ) أى فالحكم بعدهما إمساك لهن بالرجعة (بِمَعْرُوفٍ) أى بحسن عشرة ولطف معاملة (أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسٰنٍ) بالطلقة الثالثة كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أو بعدم الرجعة إلى أن تنقضى العدة فتبين وقيل المراد به الطلاق الشرعى وبالمرتين مطلق التكرير لا التثنية بعينها كما فى قوله تعالى ثم ارجع البصر كرتين أى كرة بعد كرة والمعنى أن التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو الثلاث فان ذلك بدعة عندنا فقوله تعالى فامساك الخ حكم مبتدأ وتخيير مستأنف والفاء فيه للترتيب على التعليم كأنه قيل إذا علمتم كيفية التطليق فأمركم أحد الأمرين

(وَلا يَحِلُّ لكمْ أنْ تأخذُوا) منهن بمقابلة الطلاق (مِمَّا آتيتُموهنَّ) أي من الصدقات وتخصيصها بالذكر وإن شاركها في الحكم سائر أموالهن اما لرعاية العادة أو للتنبيه على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما آتوهن بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى (شَيْئاً) أي نزرا يسيرا فضلا عن الكثير وتقديم الظرف عليه لما مر مرارا والخطاب مع الحكام واسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الآمرون بهما عند المرافعة وقيل مع الأزواج وما بعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظم الكريم على القراءة المشهورة (إلاَّ أنْ يَخافا) أي الزوجان وقرىء يظنا وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن (ألاَّ يُقيما حُدودَ اللهِ) أي أن لا يراعيا مواجب أحكام الزوجية وقرىء يخافا على البناء للمفعول وابدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال وقرىء تخافا وتقيما بتاء الخطاب (فإنْ خِفتمْ) أيها الحكام (ألاَّ يُقيما) أي الزوجان (حُدودَ اللهِ) بمشاهدة بعض الأمارات والمخايل (فلا جُناحَ عليهِما) أي على الزوجين (فيما افْتدَتْ بهِ) لا على الزوج في أخذ ما افتدت به ولا عليها في إعطائه إياه. روي أن جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسي ورأسه شيء والله ما أعيب عليه في دين ولا خلق ولكن أكره الكفر بعد الإسلام ما أطيقه بغضا إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة فاذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان أصدقها إياها (تلكَ) أي الأحكام المذكورة (حُدودُ اللهِ فلا تَعتدوها) بالمخالفة والرفض (ومَنْ يَتعدَّ حُدودَ اللهِ فأولئكَ) المتعدون والجمع باعتبار معنى الموصول (هُمُ الظّالمونَ) أي لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه ووضع الاسم الجليل في المواقع الثلاثة الأخيرة موقع الضمير لتربية المهابة وادخال الروعة وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد (فإنْ طلّقها) أي بعد الطلقتين السابقتين (فلا تَحِلُّ) هي (له مِنْ بَعْدُ) أي من بعد هذا الطلاق (حتّى تَنكِحَ زَوجاً غَيرَهُ) أي حتى تتزوج غيره فان النكاح أيضا يسند إلى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد والجمهور على اشتراط الإصابة لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رفاعة طلقني فبت طلاقي وإن عبد الرحمن ابن الزبير تزوجني وان ما معه مثل هدبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة قالت نعم قال صلى الله عليه وسلم لا الا أن تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك وبمثله تجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطء والعقد مستفاد من لفظ الزوج والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه عندنا ويروى عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصرحا به وفاسد عند الأكثرين لقوله صلى الله عليه وسلم لعن الله المحلل والمحلل له (فإنْ طلّقَها) أي الزوج الثاني (فلا جُناحَ عليهِما) أي على الزوج الأول والمرأة (أنْ يَتراجَعا) أن يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد (إنْ ظَنّا أنْ يُقيما حُدودَ اللهِ) التي أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق ولا وجه لتفسير الظن بالعلم لما أن العواقب غير معلومة ولأن أن الناصبة للتوقع المنافي للعلم ولذلك لا يكاد يقال علمت أن يقوم زيد (وتِلكَ) إشارة إلى الأحكام المذكورة إلى هنا (حُدودُ اللهِ) أي أحكامه المعينة المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة (يُبيّنُها) بهذا البيان اللائق أو سيبينها فيما سيأتي بناء على أن بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما في قوله تعالى فاذا هي حية تسعى أو حال من حدود الله والعامل معنى الإشارة (لِقَومٍ يعلمُونَ) أي يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لأن ما سيلحق بعض النصوص من البيان لا يقف عليه إلا الراسخون في العلم (وإذا طلّقتمُ النّساءَ فبلَغنَ

أجلهن) أى آخر عدتهن فان الأجل كما ينطلق على المدة ينطلق على منتهاها والبلوغ هو الوصول إلى الشيء وقد يقال للدنو منه اتساعا وهو المراد ههنا لقوله عز وجل (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) اذ لا امكان للامساك بعد تحقق بلوغ الأجل أى فراجعوهن بغير ضرار أو خلوهن حتى ينقضى أجلهن باحسان من غير تطويل وهذا كما ترى اعادة للحكم فى بعض صوره اعتناء بشأنه ومبالغة فى إيجاب المحافظة عليه (ولا تمسكوهن ضرارا) تأكيد للأمر بالامساك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه أى لا تراجعوهن إرادة الاضرار بهن . كان المطلق يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء الأجل يراجعها لا لرغبة فيها بل ليطول عليها العدة فنهى عنه بعد ما أمر بضده لما ذكر وضرارا نصب على العلية أو الحالية أى لا تمسكوهن للمضارة أو مضارين واللام فى قوله (لتعتدوا) متعلقة بضرارا أى لتظلموهن بالالجاء إلى الافتداء (ومن يفعل ذلك) أى ما ذكر من الامساك المؤدى إلى الظلم وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلته فى الشر والفساد (فقد ظلم نفسه) فى ضمن ظلمه لهن بتعريضها للعقاب (ولا تتخذوا آيات الله) المنطوية على الأحكام المذكورة أو جميع آياته وهى داخلة فيها دخولا أوليا (هزوا) أى مهزوا بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة على ما فى تضاعيفها من الأحكام والحدود من قولهم لمن لم يجد فى الأمر أنت هازىء كأنه نهى عن الهزؤ بها وأريد ما يستلزمه من الأمر بضده أى جدوا فى الأخذ بها والعمل بما فيها وارعوها حق رعايتها وإلا فقد أخذتموها هزؤا ولعبا ويجوز أن يراد به النهى عن الامساك ضرارا فان الرجعة بلا رغبة فيها عمل بموجب آيات الله تعالى بحسب الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهزؤ وقيل كان الرجل ينكح ويطلق ويعتق ثم يقول إنما كنت ألعب فنزلت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والعتاق (واذكروا نعمت الله عليكم) حيث هداكم إلى ما فيه سعادتكم الدينية والدنيوية أى قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من نعمة الله أى كائنة عليكم أو صفة لها على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائنة عليكم ويجوز أن يتعلق بنفسها ان أريد بها الانعام لانها اسم مصدر كنبات من أنبت ولا يقدح فى عمله تاء التأنيث لأنه مبنى عليها كما فى قوله : فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا كالموارد

(وما أنزل عليكم) عطف على نعمة الله وما موصولة حذف عائدها من الصلة ومن فى قوله عز وجل (من الكتاب والحكمة) بيانية أى من القرآن والسنة أو القرآن الجامع للعنوانين على أن العطف لتغاير الوصفين كما فى قوله : إلى الملك القرم وابن الهمام وفى إبهامه أولا ثم بيانه من التفخيم ما لا يخفى وفى إفراده بالذكر مع كونه أول ما دخل فى النعمة المأمور بذكرها إبانة بخطره ومبالغة فى البعث على مراعاة ما ذكر قبله من الأحكام (يعظكم به) أى بما أنزل حال من فاعل أنزل ومن مفعوله أو منهما معا (واتقوا الله) فى شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة (واعلموا أن الله بكل شىء عليم) فلا يخفى عليه شىء مما تأتون وما تذرون فيؤاخذكم بأفانين العقاب (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن) بيان لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغ الأجل حقيقة بعد بيان حكم ما كانوا يفعلونه عند المشارفة اليه والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها ولم يخرج والمراد المنع والخطاب اما للأولياء لما روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته جملا أن ترجع إلى زوجها الأول بالنكاح وقيل نزلت فى جابر بن عبد الله حين عضل ابنة عم له واسناد التطليق اليهم لتسببهم فيه كما ينبىء عنه تصديهم للعضل ولعل التعرض لبلوغ الأجل مع جواز التزوج بالزوج الأول قبله أيضا لوقوع العضل المذكور حينئذ وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها وإلا لما احتيج إلى نهى الأولياء عن العضل لما أن النهى لدفع الضرر عنهن فانهن وإن قدرن على تزويج أنفسهن

لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة واما للأزواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ولا يدعونهن يتزوجن ظلما وقسر الحمية الجاهلية واما للناس كافة فان إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائع مستفيض والمعنى إذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج أو من غيرهم وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل فى استتباع اللائمة وسراية الغائلة (أَنْ يَنكِحنَ) أى من أن ينكحن فمحله النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل على الخلاف المشهور وقيل هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب فى تعضلوهن وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن (أَزْوَاجَهُنَّ) ان أريد بهم المطلقون فالزوجية إما باعتبار ما كان وإما باعتبار ما يكون وإلا فباعتبار الأخير (إِذَا تَرَاضَوْا) ظرف للاتعضلوا وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخطاب على النساء والتقييد به لأنه المعتاد لا لتجويز المنع قبل تمام التراضى وقيل ظرف لأن ينكحن وقوله تعالى (بَيْنَهُمْ) ظرف للتراضى مفيد لرسوخه واستحكامه (بِالْمَعْرُوفِ) الجميل عند الشرع المستحسن عند الناس والباء إما متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل تراضوا أو نعتاً لمصدر محذوف أى تراضيا كائنا بالمعروف واما بتراضوا أى يتراضوا بما يحسن فى الدين والمروءة وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ أو بما دون مهر المثل ليس من باب العضل (ذَٰلِكَ) إشارة إلى ما فصل من الأحكام وما فيه من معنى البعد لتعظيم المشار اليه والخطاب لجميع المكلفين كما فيما بعده والتوحيد إما باعتبار كل واحد منهم وإما بتأويل القبيل والفريق واما لأن الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين أو للرسول صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى يا أيها النبى إذا طلقتم النساء للدلالة على أن حقيقة المشار اليه أمر لا يكاد يعرفه كل واحد (يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه اجلالا له وخوفا من عقابه وقوله تعالى منكم إما متعلق بكان عند من يجوز عملها فى الظروف وشبهها واما بمحذوف وقع حالا من فاعل يؤمن أى كائنا منكم (ذَٰلِكُمْ) أى الاتعاظ به والعمل بمقتضاه (أَزْكَىٰ لَكُمْ) أى أنمى وأنفع (وَأَطْهَرُ) من أدناس الآثام وأوضار الذنوب (وَاللَّهُ يَعْلَمُ) ما فيه من الزكاء والطهر (وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ذلك أو والله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الاحكام والشرائع التى من جملتها ما بينه ههنا وأنتم لا تعلمونها فدعوا رأيكم وامتثلوا أمره تعالى ونهيه فى كل ما تأتون وما تذرون (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ) شروع فى بيان الاحكام المتعلقة بأولادهن خصوصا واشتراكا وهو أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة فى الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه الندب أو الوجوب ان خص بمادة عدم قبول الصبى ثدى الغير أو فقدان الظئر أو عجز الوالد عن الاستئجار والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهز عطفهن نحو أولادهن والحكم عام للمطلقات وغيرهن وقيل خاص بهن إذ الكلام فيهن (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) التأكيد بصفة الكمال لبيان أن التقدير تحقيق لا تقريبى مبنى على المسامحة المعتادة (لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) بيان لمن يتوجه اليه الحكم أى ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة وفيه دلالة على جواز النقص وقيل اللام متعلقة بيرضعن فان الاب يجب عليه الإرضاع كالنفقة والأم ترضع له كما يقال أرضعت فلانة لفلان ولده (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ) أى الوالد فان الولد يولد له وينسب اليه وتغيير العبارة للاشارة إلى المعنى المقتضى لوجوب الإرضاع ومؤنة المرضعة عليه (رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ) أجرة لهن واختلف فى استئجار الام وهو غير جائز عندنا ما دامت فى النكاح أو العدة جائز عند الشافعى رحمه الله (بِالْمَعْرُوفِ) حسبما يراه الحاكم ويفى به وسعه (لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا) تعليل لايجاب المؤن بالمعروف أو تفسير للمعروف وهو نص على أنه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه وذلك لا ينافى إمكانه (لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ)

بِوَلَدِهِ) تفصيل لما قبله وتقرير له أى لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما لا يطيقه ولا يضاره بسبب ولده وقرىء لا تضار بالرفع بدلا من لا تكلف وأصله على القراءتين لا تضارر بالكسر على البناء للفاعل وبالفتح على البناء للمفعول وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضر والباء من صلته أى لا يضر الوالدان بالولد فيفرط فى تعهده ويقصر فيما ينبغى له وقرىء لا تضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يضيره وإضافة الولد إلى كل منهما لاستعطافهما اليه وللتنبيه على أنه جدير بأن يتفقا على استصلاحه ولا ينبغى أن يضرا به أو يتضارا بسببه (وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ) عطف على قوله تعالى وعلى المولود له رزقهن الخ وما بينهما تعليل أو تفسير معترض والمراد به وارث الصبى ممن كان ذا رحم محرم منه وقيل عصباته وقال الشافعى رحمه الله هو وارث الأب وهو الصبى أى تمان المرضعة من ماله عند موت الأب ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيما إذا لم يكن للصبى مال وقيل الباقى من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام واجعله الوارث منا وذلك إشارة إلى ما وجب على الأب من الرزق والكسوة (فَإِنْ أَرَادَا) أى الوالدان (فِصَالًا) أى فطاما عن الرضاع قبل تمام الحولين والتنكير للايذان بأنه فصال غير معتاد (عَنْ تَرَاضٍ) متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن أى صادرا عن تراض (مِنْهُمَا) أى من الوالدين لا من أحدهما فقط لاحتمال إقدامه على ما يضر بالولد بان تمل المرأة الإرضاع ويبخل الأب بإعطاء الأجرة (وَتَشَاوُرٍ) فى شأن الولد وتفحص عن أحواله وإجماع منهما على استحقاقه للفطام والتشاور من المشورة وهى استخراج الرأى من شرت العسل إذا استخرجته وتنكيرهما للتفخيم (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) فى ذلك لما أن تراضيهما إنما يكون بعد استقرار رأيهما واجتهادهما على أن صلاح الولد فى الفطام وقلما يتفقان على الخطأ (وَإِنْ أَرَدْتُمْ) بيان لحكم عدم اتفاقهما على الفطام والالتفات إلى خطاب الآباء لهزهم إلى الامتثال بما أمروا به (أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ) بحذف المفعول الأول استغناء عنه أى أن تسترضعوا المراضع لأولادكم يقال أرضعت المرأة الصبى واسترضعتها إياه وقيل إنما يتعدى إلى الثانى بحرف الجر يقال استرضعت المرأة للصبى أى أن تسترضعوا المراضع لأولادكم فحذف حرف الجر أيضا كما فى قوله تعالى وإذا كالوهم أى كالوا لهم (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) أى فى الاسترضاع وفيه دلالة على أن للاب أن يسترضع للولد ويمنع الأم من الإرضاع (إِذَا سَلَّمْتُمْ) أى إلى المراضع (مَا آتَيْتُمْ) أى ما أردتم إيتاءه كما فى قوله تعالى فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله وقرىء ما أتيتم من أتى اليه إحسانا إذا فعله وقرىء ما أوتيتم أن من جهة الله عز وجل كما فى قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه وفيه مزيد بعث لهم إلى التسليم (بِالْمَعْرُوفِ) متعلق بسلمتم أى بالوجه المتعارف والمستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه وليس التسليم بشرط للصحة والجواز بل هو ندب إلى ما هو الأليق والأولى فان المراضع إذا أعطين ما قدر لهن ناجزا يدا بيد كان ذلك أدخل فى استصلاح شؤن الأطفال (وَاتَّقُوا اللَّهَ) فى شأن مراعاة الأحكام المذكورة (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فيجازيكم بذلك وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى (وَالَّذِينَ) على حذف المضاف أى وأزواج الذين (يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ) أى تقبض أرواحهم بالموت فان التوفى هو القبض يقال توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى أخذته وقبضته والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين (وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) أو على حذف العائد إلى المبتدا فى الخبر أن يتربصن بعدهم كما فى قولهم السمن منوان بدرهم أى منوان منه وقرىء يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم وتأنيث العشر باعتبار الليالى لأنها غرر الشهور والأيام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير فى مثله أصلا حتى انهم يقولون صمت عشرا ومن البين فى ذلك قوله تعالى إن لبثتم إلا عشرا ثم ان لبثتم إلا يوما ولعل الحكمة فى هذا التقدير أن

الجنين إذا كان ذكرا يتحرك غالبا لثلاثة أشهر وإن كان أنثى يتحرك لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيد عليه العشر استظهارا إذ ربما تضعف الحركة فلا يحس بها وعموم اللفظ يقتضى تساوى المسلمة والكتابية والحرة والأمة فى هذا الحكم ولكن القياس اقتضى التنصيف فى الأمة وقوله عز وجل وأولات الأحمال خص الحامل منه وعن على وابن عباس رضى الله عنهم أنها تعتد بأبعد الأجلين احتياطا (فإذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) أيها الحكام والمسلمون جميعا (فيما فعلن فى أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب وسائر ما حرم على المعتدة (بالمعروف) بالوجه الذى لا ينكره الشرع وفيه إشارة الى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع فعليهم أن يكفوهن عن ذلك وإلا فعليهم الجناح (والله بما تعملون خبير) فلا تعملوا اخلاف ما أمرتم به (ولا جناح عليكم) خطاب للكل (فيما عرضتم به) التعريض والتلويح ابهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لأسلم عليك وأصله امالة الكلام عن نهجه إلى عرض منه أى جانب والكناية هى الدلالة على الشىء بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف (من خطبة النساء) الخطبة بالكسر كالقعدة والجلسة ما يفعله الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل فقيل هى مأخوذة من الخطب أى الشأن الذى له خطر لما أنها شأن من الشئون ونوع من الخطوب وقيل من الخطاب لأنها نوع مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة والمراد بالنساء المعتدات للوفاة والتعريض لخطبتهن أن يقول لها انك لجميلة أو صالحة أو نافعة ومن غرضى أن أتزوج ونحو ذلك مما يوهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه ان رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح (أو أكننتم فى أنفسكم) أى أضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا (علم الله أنكم ستذكرونهن) ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن اظهار الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ لهم على قلة التثبت (ولكن لا تواعدوهن سرا) استدراك عن محذوف دل عليه ستذكرونهن أى فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحا بل اكتفوا بما رخص لكم من التعريض والتعبير عن النكاح بالسر لأن مسببه الذى هو الوطء مما يسر به وإيثاره على اسمه للايذان بأنه مما ينبغى أن يسر به ويكتم وحمله على الوطء ربما يوهم الرخصة فى المحظور الذى هو التصريح بالنكاح وقيل انتصاب سرا على الظرفية أى لا تواعدوهن فى السر على أن المراد بذلك المواعدة بما يستهجن وفيه ما فيه (إلا أن تقولوا قولا معروفا) استثناء مفرغ مما يدل عليه النهى أى لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعا وهى ما يكون بطريق التعريض والتلويح أو إلا مواعدة بقول معروف أو لا تواعدوهن بشىء من الأشياء إلا بأن تقولوا قولا معروفا وقيل هو استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لأدائه إلى جعل التعريض موعودا وليس كذلك (ولا تعزموا عقدة النكاح) من عزم الأمر إذا قصده قصدا جازما وحقيقته القطع بدليل قوله عليه السلام لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل وروى لمن لم يبيت الصيام والنهى عنه للمبالغة فى النهى عن مباشرة عقد النكاح أى لا تعزموا عقد عقدة النكاح (حتى يبلغ الكتاب أجله) أى العدة المكتوبة المفروضة آخرها وقيل معناه لا تقطعوا عقدة النكاح أى لا تبرموها ولا تلزموها ولا تقدموا عليها فيكون نهيا عن نفس الفعل لا عن قصده (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم) من ذوات الصدور التى من جملتها العزم على ما نهيتم عنه (فاحذروه) بالاجتناب عن العزم ابتداء أو اقلاعا عنه بعد تحققه (واعلموا أن الله غفور) يغفر لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى (حليم) لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتأخيرها على أن ما نهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخذة واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لادخال الروعة (لا جناح عليكم) أى لا تبعة من مهر وهو الأظهر وقيل من وزر إذ لا بدعة فى الطلاق قبل المسيس وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر النهى عن الطلاق فظن أنه فيه جناحا فنفى ذلك (إن طلقتم النساء ما لم

تمسوهن) أى مالم تجامعوهن وقرىء تماسوهن بضم التاء فى جميع المواقع أى مدة عدم مساسكم إياهن على أن ماصدرية ظرفية بتقدير المضاف ونقل أبو البقاء أنها شرطية بمعنى أن فيكون من باب اعتراض الشرط على الشرط فيكون الثانى قيدا للأول كما فى قولك ان تأتنى أن تحسن إلى أكرمك أى ان تأتنى محسنا إلى والمعنى ان طلقتموهن غير ماسين لهن وهذا المعنى أقعد من الأول لما أن ما الظرفية إنما يحسن موقعها فيما إذا كان المظروف أمراً ممتدا منطبقا على ما أضيف إليها من المدة أو الزمان كما فى قوله تعالى خالدين فيها مادامت السموات والأرض وقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ولا يخفى أن التطليق ليس كذلك وتعليق الظرف بنفى الجناح ربما يوهم امكان المسيس بعد الطلاق فالوجه أن يقدر الحال مكان الزمان والمدة (أو تفرضوا لهن فريضة) أى إلا أن تفرضوا لهن أو حتى تفرضوا لهن عند العقد مهرا على أن فريضة فعيلة بمعنى مفعول والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية وانتصابه على المفعولية ويجوز أن يكون مصدرا صيغة واعرابا والمعنى أنه لا تبعة على المطلق بمطالبة المهر أصلا إذا كان الطلاق قبل المسيس على كل حال إلا فى حال تسمية المهر فان عليه حينئذ نصف المسمى وفى حال عدم تسميته عليه المتعة لا نصف مهر المثل وأما إذا كان بعد المساس فعليه فى صورة التسمية تمام المسمى وفى صورة عدمها تمام مهر المثل وقيل كلمة أو عاطفة لمدخولها على ما قبلها من الفعل المجزوم على معنى مالم يكن منكم مسيس ولا فرض مهر (ومتعوهن) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فطلقوهن ومتعوهن والحكمة فى إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق وهى درع وملحفة وخمار على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالى (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) أى ما يليق بحال كل منهما وقرىء بسكون الدال وهى جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبينة لمقدار المتعة بالنظر إلى حال المطلق ايسارا واقتارا أو حال من فاعل متعوهن بحذف الرابط أى على الموسع منكم الخ أو على جعل الألف واللام عوضا من المضاف إليه عند من يجوزه أى على موسعكم الخ وهذا إذا لم يكن مهر مثلها أقل من ذلك فان كان أقل فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص عن خمسة دراهم (متاعا) أى تمتيعا (بالمعروف) أى بالوجه الذى تستحسنه الشريعة والمروءة (حقا) صفة لمتاعا أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا (على المحسنين) أى الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال أو إلى المطلقات بالتمتيع بالمعروف وإنما سموا محسنين اعتبارا للمشارفة وترغيبا وتحريضا (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن) قبل ذلك (فريضة) أى وان طلقتموهن من قبل المسيس حال كونكم مسمين لهن فيما سبق أى عند النكاح مهرا على أن الجملة حال من فاعل طلقتموهن ويجوز أن تكون حالا من مفعوله لتحقق الرابط بالنسبة اليهما ونفس الفرض من المبنى للفاعل أو للمفعول وإن لم يقارن حالة التطليق لكن اتصاف المطلق بالفارضية فيما سبق مما لا ريب فى مقارنته لها وكذا الحال فى اتصاف المطلقة بكونها مفروضا لها فيما سبق (فنصف ما فرضتم) أى فلهن نصف ما سميتم لهن من المهر أو فالواجب عليكم ذلك وهذا صريح فى أن المنفى فى الصورة السابقة إنما هو تبعة المهر وقرىء بالنصب أى فأدوا نصف ما فرضتم ولعل تأخير حكم التسمية مع أنها الأصل فى العقد والأكثر فى الوقوع لما أن الآية الكريمة نزلت فى أنصارى تزوج امرأة من بنى حنيفة وكانت مفوضة فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام عند إظهار أن لا شىء له متعها بقلنسوتك (إلا أن يعفون) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى فلهن نصف المفروض معينا فى كل حال إلا حال عفوهن فانه يسقط ذلك حينئذ بعد وجوبه وظاهر الصيغة فى نفسها يحتمل التذكير والتأنيث وإنما الفرق فى الاعتبار والتحقيق فان الواو فى الأولى ضمير والنون علامة الرفع وفى الثانية لام الفعل والنون ضمير والفعل مبنى ولذلك لم يؤثر فيه أن تأثيره فيما عطف على محله من

قوله تعالى (أو يعفوا) بالنصب وقرىء بسكون الواو (الذى بيده عقدة النكاح) أى يترك الزوج المالك لعقده وحله مايعود اليه من نصف المهر الذى ساقه اليها كاملا على ماهو المعتاد تكرما فان ترك حقه عليها عفو بلا شبهة أو سمى ذلك عفوا فى صورة عدم السوق مشاكلة أو تغليبا لحال السوق على حال عدمه فرجع الاستثناء حينئذ إلى منع الزيادة فى المستثنى منه كما أنه فى الصورة الأولى إلى منح النقصان فيه أى فلهن هذا القدر بلا زيادة ولا نقصان فى جميع الأحوال الا فى حال عفوهن فانه حينئذ لا يكون لهن القدر المذكور بل ينتفى ذلك أو ينحط أو فى حال عفو الزوج فانه حينئذ يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هذا على التفسير الأول وأما على التفسير الثانى فلا بد من المصير إلى جعل الاستثناء منقطعا لأن فى صورة عفو الزوج لا يتصور الوجوب عليه هذا عندنا وفى القول القديم للشافعى رحمه الله أن المراد عفو الولى الذى بيده عقدة نكاح الصغيرة وهو ظاهر المأخذ خلا أن الأول أنسب بقوله تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) إلى آخره فان اسقاط حق الصغيرة ليس فى شىء من التقوى وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول وأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو وقرىء بالياء (ولا تنسوا الفضل بينكم) أى لا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض كالشىء المنسى وقرىء بكسر الواو والخطاب فى الفعلين للرجال والنساء جميعا بطريق التغليب (إن الله بما تعملون بصير) فلا يكاد يضيع ما عملتم من التفضل والاحسان (حفظوا على الصلوات) أى داوموا على أدائها لأوقاتها من غير اخلال بشىء منها كما تنبىء عنه صيغة المفاعلة المفيدة للمبالغة ولعل الأمر بها فى تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد قبل الاتمام للايذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأنهم بل بشأن أنفسهم أيضا كما يفصح عنه الأمر بها فى حالة الخوف ولذلك أمر بها فى خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحجزة بعض (والصلوة الوسطى) أى المتوسطة بينهما أو الفضلى منها وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله تعالى بيوتهم نارا وقال عليه السلام انها الصلاة التى شغل عنها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وفضلها لكثرة اشتغال الناس فى وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار حينئذ وقيل هى صلاة الظهر لأنها فى وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصليها بالهاجرة فكانت أفضلها لقوله عليه السلام أفضل العبادات أحمزها وقيل هى صلاة الفجر لأنها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة كصلاة العصر وقيل هى صلاة المغرب لأنها متوسطة من حيث العدد ومن حيث الوقوع بين صلاتى النهار والليل ووتر النهار ولا تنقص فى السفر وقيل هى صلاة العشاء لأنها بين الجهريتين الواقعتين فى طرفى الليل وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه السلام كان يقرأ والصلاة الوسطى وصلاة العصر فتكون حينئذ إحدى الأربع قد خصت بالذكر مع العصر لانفرادها بالفضل وقرىء وعلى الصلاة الوسطى وقرىء بالنصب على المدح وقرىء الوسطى (وقوموا لله) أى فى الصلاة (قنتين) ذاكرين له تعالى فى القيام لأن القنوت هو الذكر فيه وقيل هو اكمال الطاعة واتمامها بغير اخلال بشىء من أركانها وقيل خاشعين وقال ابن المسيب المراد به القنوت فى الصبح (فإن خفتم) أى من عدو أو غيره (فرجالا) جمع راجل كقيام وقائم أو رجل بمعنى راجل وقرىء بضم الراء مع التخفيف وبضمها مع التشديد أيضا وقرىء فرجلا أى راجلا (أو ركبانا) جمع راكب أى فصلوا راجلين أو راكبين حسبما يقتضيه الحال ولا تخلوا بها ما أمكن الوقوف فى الجملة وقد جوز الشافعى رحمه الله أداءها حال المسايفة أيضا (فإذا أمنتم) بزوال الخوف (فاذكروا الله) أى فصلوا صلاة الأمن عبر عنها بالذكر لأنه معظم أركانها (كما علمكم) متعلق بمحذوف وقع وصفا لمصدر محذوف أى ذكرا

كائنا كما علمكم أى كتعليمه اياكم (مَّالم تَكونُوا تعلمُونَ) من كيفية الصلاة والمراد بالتشبيه أن تكون الصلاة المؤداة موافقة لما علمه الله تعالى وايرادها بذلك العنوان لتذكير النعمة أو اشكروا الله تعالى شكرا يوازى تعليمه اياكم مالم تكونوا تعلمونه من الشرائع والأحكام التى من جملتها كيفية اقامة الصلاة حالتى الخوف والأمن . هذا وفى ايراد الشرطية الأولى بكلمة أن المفيدة لمشكوكية وقوع الخوف وندرته وتصدير الشرطية الثانية بكلمة إذا المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الايجاز فى جواب الأولى والاطناب فى جواب الثانية المبنيين على تنزيل مقام وقوع المأمور به فيهما منزلة مقام وقوع الأمر تنزيلا مستدعيا لإجراء مقتضى المقام الأول فى كل منهما مجرى مقتضى المقام الثانى من الجزالة ولطف الاعتبار مافيه عبرة لأولى الأبصار (وَالذينَ يتوفَّوْنَ منكمْ وَيذرُونَ أزوٰجًا) عود إلى بيان بقية الأحكام المفصلة فيما سلف اثر بيان أحكام وسطت بينهما لما أشير اليه من الحكمة الداعية إلى ذلك (وَصِيةً لِأزوٰجِهِمْ) أى يوصون أوليوصوا أو كتب الله عليهم وصية ويؤيد هذا قراءة من قرأ كتب عليكم الوصية لأزواجكم وقرىء بالرفع على تقدير مضاف فى المبتدأ أو الخبر أى حكم الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم أوكتب عليهم وصية أو عليهم وصية وقرىء متاع لأزواجهم بدل وصية (مَّتٰعاً إلى الحوْلِ) منصوب بيوصون ان أضمرته والافبالوصية أو بمتاع على القراءة الأخيرة (غَيرَ إخرَاجٍ) بدل منه أو مصدر مؤكد كما فى قولك هذا القول غير ماتقول أو حال من أزواجهم أى غير مخرجات والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا بالنفقة والسكنى وكان ذلك أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله تعالى أربعة أشهر وعشرا فانه وان كان متقدما فى التلاوة متأخر فى النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن وكذلك السكنى عندنا وعند الشافعى هى باقية (فإنْ خَرَجنَ) عن منزل الأزواج باختيارهن (فلا جُناحَ عَليكم) أيها الأئمة (فِى مَا فعَلنَ فِى أنفسِهِنَّ مِن مَعرُوفٍ) لاينكره الشرع كالتزين والتطيب وترك الحداد والتعرض للخطاب وفيه دلالة على أن المحظور اخراجها عند ارادة القرار وملازمة مسكن الزوج والحداد من غير أن يجب عليها ذلك وانها كانت مخيرة بين الملازمة مع أخذ النفقة وبين الخروج مع تركها (وَاللهُ عَزِيزٌ) غالب على أمره يعاقب من خالفه (حَكِيمٌ) يراعى فى أحكامه مصالح عباده (وَلِلمُطلقٰتِ) سواء كن مدخولا بهن أولا (مَتٰعٌ) أى مطلق المتعة الشاملة للواجبة والمستحبة وأوجبها سعيد بن جبير وأبو العالية والزهرى للكل وقيل المراد بالمتاع نفقة العدة وقيل اللام للعهد والمراد غير المدخول بهن والتكرير للتأكيد (بالمَعروفِ) شرعا وعادة (حَقاً عَلى المُتقِينَ) أى بما ينبغى (كَذٰلكَ) أى مثل ذلك البيان الواضح (يُبينُ اللهُ لكمْ ءَايٰتِهِ) الدالة على أحكامه التى شرعها لعباده (لعَلكمْ تَعقِلونَ) لكى تفهموا مافيها وتعملوا بموجبها (ألمْ تَرَ) تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار وتعجيب من شأنهم البديع فان سماعهم لها بمنزلة الرؤية النظرية أو العلمية أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب ايذانا بأن قصتهم من الشهرة والشيوع بحيث يحق لكل أحد أن يحمل على الاقرار برؤيتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وان لم يكن ممن رآهم أو سمع بقصتهم فان هذا الكلام قد جرى مجرى المثل فى مقام التعجيب لما أنه شبه حال غير الرائى لشىء عجيب بحال الرائى له بناء على ادعاء ظهور أمره وجلائه بحيث استوى فى ادراكه الشاهد والغائب ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع الرائى قصداً إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب وتعدية الرؤية بالى فى قوله تعالى (إلى الذِينَ خَرَجوا مِن دِيٰرِهم) على تقدير كونها بمعنى الانصار باعتبار معنى النظر وعلى تقدير كونها ادراكا قلبيا لتضمين معنى الوصول والانتهاء على معنى ألم ينته علمك اليهم (وَهمْ ألوفٌ) أى ألوف كثيرة قيل

عشرة آلاف وقيل ثلاثون وقيل سبعون ألفا والجملة حال من ضمير خرجوا وقوله عز وجل (حَذَرَ المَوتِ) مفعول له. روى أن أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا منها هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أن لا مفر من حكم الله عز سلطانه وقضاؤه وقيل مر عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقيه وأصابعه تعجبا مما رأى من أمرهم فأوحى اليه نادفيهم أن قوموا باذن الله فنادى فاذاهم قيام يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت وقيل هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذر الموت فأماتهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم وقوله عز وجل (فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا) اما عبارة عن تعلق ارادته تعالى بموتهم دفعة وإما تمثيل لاماتته تعالى إياهم ميتة نفس واحدة فى أقرب وقت وأدناه وأسرع زمان وأوحاه بأمر آمر مطاع لمأمور مطيع كما فى قوله تعالى إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) عطف إما على مقدر يستدعيه المقام أى فماتوا ثم أحياهم وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته واما على قال لما أنه عبارة عن الاماتة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لأسباب الشهادة وأن الموت حيث لم يكن منه بد ولم ينفع منه المفر فأولى أن يكون فى سبيل الله تعالى (إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ) عظيم (عَلَى النَّاسِ) قاطبة أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة العظمى وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) أى لا يشكرون فضله كما ينبغى ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار وإظهار الناس فى مقام الاضمار لمزيد التشنيع (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) عطف على مقدر يعينه ما قبله كأنه قيل فاشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا فى سبيله لما علمتم أن الفرار لا ينجى من الحمام وأن المقدر لا مرد له فان كان قد حان الأجل فموت فى سبيل الله عز وجل وإلا فنصر عزيز وثواب (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ) يسمع مقالة السابقين والمتخلفين (عَلِيمٌ) بما يضمرونه فى أنفسهم وهو من وراء الجزاء خيرا وشرا فسارعوا إلى الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة (مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ) من استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبره والموصول صفة له أو بدل منه واقراض الله تعالى مثل لتقديم العمل العاجل طلبا للثواب الآجل والمراد ههنا اما الجهاد الذى هو عبارة عن بذل النفس والمال فى سبيل الله عز وجل ابتغاء لمرضاته واما مطلق العمل الصالح المنتظم له انتظاما أوليا (قَرْضاً حَسَناً) أى اقراضا مقرونا بالاخلاص وطيب النفس أو مقرضا حلالا طيبا (فَيُضَٰعِفَهُ لَهُ) بالنصب على جواب الاستفهام حملا على المعنى فانه فى معنى أيقرضه وقرىء بالرفع أى يضاعف أجره وجزاءه جعل ذلك مضاعفة له بناء على ما بينهما من المناسبة بالسببية والمسببية ظاهرا وصيغة المفاعلة للمبالغة وقرىء فيضعفه بالرفع وبالنصب (أَضْعَافاً) جمع ضعف ونصبه على أنه حال من الضمير المنصوب أو مفعول بأن يضمن المضاعفة معنى التصيير أو مصدر مؤكد على أن الضعف اسم للمصدر والجمع للتنوين (كَثِيرَةً) لا يعلم قدرها إلا الله تعالى وقيل الواحد بسبعمائة (وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ) أى يقتر على بعض ويوسع على بعض أو يقتر تارة ويوسع أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كى لا يبدل أحوالكم ولعل تأخير البسط عن القبض فى الذكر للايماء إلى أنه يعقبه فى الوجود تسلية للفقراء وقرىء يبصط بالصاد لمجاورة الطاء (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فيجازيكم على ما قدمتم من الأعمال خيرا وشرا (أَلَمْ تَرَ) تقرير وتعجيب كما سبق قطع عنه للايذان باستقلاله فى التعجب مع أن له مزيد ارتباط بما وسط بينهما من الأمر بالقتال (إِلَى المَلَإِ مِن بَنِى إِسْرَٰءِيلَ) الملأ من القوم وجوههم وأشرافهم وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم سموا بذلك لما أنهم يملؤن العيون مهابة والمجالس بهاء أو لأنهم

مليئون بما يبتغى منهم ومن تبعيضية ومن فى قوله تعالى (مِن بَعْدِ مُوسَىٰ) ابتدائية وعاملها مقدر وقع حالا من الملأ أى كائنين بعض بنى اسرائيل من بعد وفاة موسى ولا ضير فى اتحاد الحرفين لفظا عند اختلافهما معنى (إِذْ قَالُوا) منصوب بمضمر يستدعيه المقام أى ألم تر إلى قصة الملأ أو حديثهم حين قالوا (لِنَبِيٍّ لَهُمُ) هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهما السلام وقيل شمعون بن صعبة بن علقمة من ولد لاوى بن يعقوب عليهما السلام وقيل اشمويل ابن بال بن علقمة وهو بالعبرانية اسمعيل . قال مقاتل هو من نسل هرون عليه السلام وقال مجاهد اشمويل بن هلقايا (ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ) أى انهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير أمر الحرب عن رأيه وقرىء نقاتل بالرفع على أنه حال مقدرة أى ابعثه لنا مقدرين القتال أو استئناف مبنى على السؤال وقرىء يقاتل بالياء مجزوما ومرفوعا على الجواب للامر والوصف لملكا (قَالَ) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال لهم النبى حينئذ فقيل قال (هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا) فصل بين عسى وخبره بالشرط للاعتناء به أى هل قاربتم أن لا تقاتلوا كما أتوقعه منكم والمراد تقرير أن المتوقع كائن وإنما لم يذكر فى معرض الشرط ما التمسوه بأن قيل هل عسيتم أن بعثت لكم ملكا الخ مع أنه أظهر تعلقا بكلامهم بل ذكر كتابة القتال عليهم للمبالغة فى بيان تخلفهم عنه فانهم إذا لم يقاتلوا عند فرضية القتال عليهم بايجاب الله تعالى فلأن لا يقاتلوا عند عدم فرضيته أولى ولأن ايراد ما ذكروه ربما يوهم أن سبب تخلفهم عن القتال هو المبعوث لا نفس القتال وقرىء عسيتم بكسر السين وهى ضعيفة (قَالُوا) استئناف كما سبق (وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ) أى أى سبب لنا فى أن لا نقاتل (فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا) أى والحال أنه قد عرض لنا ما يوجب القتال ايجابا قويا من الاخراج عن الديار والأوطان والاغتراب من الأهل والأولاد وافراد الأبناء بالذكر لمزيد تقوية أسباب القتال وذلك أن جالوت رأس العمالقة وملكهم وهو جبار من أولاد عمليق بن عاد كان هو ومن معه من العمالقة يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وظهروا على بنى اسرائيل وأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين نفسا وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم (فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ) بعد سؤال النبى عليه السلام ذلك وبعث الملك (تَوَلَّوْا) أى أعرضوا وتخلفوا لكن لا فى ابتداء الأمر بل بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته كما سيجىء تفصيله وإنما ذكر ههنا مآل أمرهم اجمالا واظهارا لما بين قولهم وفعلهم من التنافى والتباين (إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ) وهم الذين اكتفوا بالغرفة من النهر وجاوزوه وهم ثلثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) وعيد لهم على ظلمهم بالتولى عن القتال وترك الجهاد وتنافى أقوالهم وأفعالهم والجملة اعتراض تذييلى (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ) شروع فى تفصيل ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأقوال والأفعال اثر الاشارة الاجمالية إلى مصير حالهم أى قال لهم بعد ما أوحى اليه ما أوحى (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) طالوت علم عبرى كداود وجعله فعلوتا من الطول يأباه منع صرفه وملكا حال منه روى أنه عليه السلام لما دعا ربه أن يجعل لهم ملكا أتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت (قَالُوا) استئناف كما مر (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا) أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك (وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ) الواو الأولى حالية والثانية عاطفة جامعة للجملتين فى الحكم أى كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق منه ولعدم ما يتوقف عليه الملك من المال وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى اسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام وسبط المملكة بسبط يهوذا ومنه داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعيا وقيل دباغا وقيل سقاء

(قال إن الله اصطفه عليكم) لما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه وبفقره رد عليهم ذلك أولا بأن ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم وثانيا بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر وذلك قوله عز وجل (وزاده بسطة في العلم) أي العلم المتعلق بالملك أو به وبالديانات أيضا وقيل قد أوحي اليه ونبيء (والجسم) قيل بطول القامة فانه كان أطول من غيره برأسه ومنكبيه حتى أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه وقيل بالجمال وقيل بالقوة (والله يؤتي ملكه من يشاء) لما أنه مالك الملك والملكوت فعال لما يريد فله أن يؤتيه من يشاء من عباده (والله واسع) يوسع على الفقير ويغنيه (عليم) بمن يليق بالملك ممن لا يليق به وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة (وقال لهم نبيهم) توسيطه فيما بين قوليه المحكيين عنه عليه السلام للاشعار بعدم اتصال أحدهما بالآخر وتخلل كلام من جهة المخاطبين متفرع على السابق مستتبع للاحق كأنهم طلبوا منه عليه السلام آية تدل على أنه تعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم . روى أنهم قالوا ما آية ملكه فقال (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت) أي الصندوق وهو فعلوت من التوب الذي هو الرجوع لما أنه لا يزال يرجع اليه ما يخرج منه وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كملكوت ورهبوت والمشهور أن يوقف على تائه من غير أن تقلب هاء ومنهم من يقلبها إياها والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاة موسى عليه السلام سخطا على بني إسرائيل لما عصوا واعتدوا فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت قال لهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف والقوم ينظرون اليه حتى نزل عند طالوت وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال أرباب الأخبار إن الله تعالى أنزل على آدم تابوتا فيه تماثيل الأنبياء عليهم السلام من أولاده وكان من عود الشمشاد نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين فكان عند آدم عليه السلام إلى أن توفي فتوارثه أولاده واحدا بعد واحد إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام ثم بقي في أيدي بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان عليه الصلاة والسلام يضع فيه التوراة وكان إذا قاتل قدمه فكانت تسكن اليه نفوس بني إسرائيل وكان عنده إلى أن توفي ثم تداولته أيدي بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تحاكموا اليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا إذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون العدو فاذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا النصر فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه وجعلوه في موضع البول والغائط فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء حتى أن كل من بال عنده ابتلي بالبواسير وهلكت من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه وجعلوه على ثورين فأقبل الثوران يسيران وقد وكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت فلما سألوا نبيهم البينة عن ملك طالوت قال لهم النبي إن آية ملكه أنكم تجدون التابوت في داره فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه (فيه سكينة من ربكم) أي في اتيانه سكون لكم وطمأنينة كائنة من ربكم أو في التابوت ما تسكنون اليه وهو التوراة المودعة فيه بناء على ما مر من أن موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فتسكن اليه نفوس بني إسرائيل وقيل السكينة صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهر وذنبه وجناحان فتئن فيزف التابوت نحو العدو وهم يمضون معه فاذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر وعن علي رضي الله عنه كان لها وجه كوجه الإنسان وفيها ريح هفافة (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) هي رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهما أو أنبياء بني إسرائيل

(تحمله الملائكة) حال من التابوت أي أن آية ملكه إتيانه حال كونه محمولا للملائكة وقدمر كيفية ذلك ولعل حمل الملائكة على الرواية الأخيرة عبارة عن سوقهم للثورين الحاملين له (إن في ذلك) إشارة إلى ماذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبي عليه السلام لقومه أو إلى نقل القصة وحكايتها فهو ابتداء كلام من جهة الله تعالى جيء به قبل تمام القصة إظهاراً لكمال العناية به وافراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين على التقديرين بتأويل الفريق أوغيره كما سلف (لآية) عظيمة (لكم) دالة على ملك طالوت أو على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بهذه التفاصيل على ماهي عليه من غير سماع من البشر (إن كنتم مؤمنين) أي مصدقين بتمليكه عليكم أو بشيء من الآيات وإن شرطية والجواب محذوف ثقة بما قبله وقيل هي بمعنى إذ (فلما فصل طالوت بالجنود) أي انفصل بهم عن بيت المقدس والأصل فصل نفسه ولما اتحد فاعله ومفعوله شاع استعماله محذوف المفعول حتى نزل منزلة القاصر كانفصل وقيل فصل فصولا وقد جوز كونه أصلا برأسه ممتازاً من المتعدي بمصدره كوقف وقوفا ووقفه وقفاً وكصد صدوداً وصده صداً ورجع رجوعا ورجعه رجعاً والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من طالوت أي ملتبسا بهم ومصاحبا لهم روى أنه قال لقومه لايخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها ولا أبتغي إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع اليه ممن اختاره ثمانون ألفا وكان الوقت قيظا وسلكوا مفازة فسألوا أن يجرى الله تعالى لهم نهراً فبعد ماظهر له ماتعلقت به مشيئته تعالى من جهة النبي عليه السلام أو بطريق الوحي عند من يقول بنبوته (قال إن الله مبتليكم بنهر) بفتح الهاء وقرىء بسكونها (فمن شرب منه) أي ابتدأ شربه من النهر بأن كرع لأنه الشرب منه حقيقة (فليس مني) أي من جملتي وأشياعي المؤمنين وقيل ليس بمتصل بي ومتحد معي من قولهم فلان مني كأنه بعضه لكمال اختلاطهما (ومن لم يطعمه) أي لم يذقه من طعم الشيء إذا ذاقه مأكولا كان أو مشروبا أو غيرهما قال :

وإن شئت حرمت النساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

أي نوما (فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده) استثناء من قوله تعالى فمن شرب منه فليس مني وإنما أخر عن الجملة الثانية لابراز كمال العناية بها ومعناه الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع والغرفة مايغرف وقرىء بفتح الغين على أنها مصدر والباء متعلقة باغترف أو بمحذوف وقع صفة لغرفة أي غرفة كائنة بيده يروى أن الغرفة كانت تكفي الرجل لشربه وأدواته ودوابه وأما الذين شربوا منه فقد اسودت شفاههم وغلبهم العطش (فشربوا منه) عطف على مقدر يقتضيه المقام أي فابتلوا به فشربوا منه (إلا قليلا منهم) وهم المشار اليهم فيما سلف بالاستثناء من التولي وقرىء إلا قليل منهم ميلا الى جانب المعنى وضربا عن عدوة اللفظ جانبا فان قوله تعالى فشربوا منه في قوة أن يقال فلم يطيعوه فحق أن يرد المستثنى مرفوعا كما في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحت أو مجلف

فان قوله لم يدع في حكم لم يبق (فلما جاوزه) أي النهر (هو) أي طالوت (والذين آمنوا معه) عطف على الضمير المتصل المؤكد بالمنفصل والظرف متعلق بجاوز لا بآمنوا وقيل الواو حالية والظرف متعلق بمحذوف وقع خبرا من الموصول كأنه قيل فلما جاوزه والحال أن الذين آمنوا كائنون معه وهم أولئك القليل وفيه اشارة الى أن من عداهم بمعزل من الإيمان (قالوا) أي بعض من معه من المؤمنين لبعض (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أي بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا منهم من الكثرة والشدة قيل كانوا مائة ألف مقاتل شاكي السلاح (قال) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال مخاطبهم فقيل قال (الذين يظنون)

أنهم مُلَاقُو اللهِ) قيل أى الخلص منهم الذين يتيقنون لقاء الله تعالى بالبعث ويتوقعون ثوابه وافرادهم بذلك الوصف لاينافى إيمان الباقين فان درجات المؤمنين فى التيقن والتوقع متفاوتة أو الذين يعلمون أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى وقيل الموصول عبارة عن المؤمنين كافة والضمير فى قالوا للمنخذلين عنهم كأنهم قالوه اعتذارا عن التخلف والنهر بينهما (كَمْ مِنْ فِئَةٍ) أى فرقة وجماعة من الناس من فأوت رأسه إذا شققته أو من فاء إليه إذا رجع فوزنها على الأول فعة وعلى الثانى فلة (قليلةٍ غلَبَتْ فِئَةً كثيرَةً) وكم خبرية كانت أو استفهامية مفيدة للتكثير وهى فى حيز الرفع بالابتداء خبرها غلبت أى كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة (بإذنِ اللهِ) أى بحكمه وتيسيره فان دوران كافة الأمور على مشيئته تعالى فلا يذل من نصره وان قل عدده ولا يعز من خذله وان كثر أسبابه وعدده وقد روعى فى الجواب نكتة بديعة حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة حسبما وقع فى كلام أصحابهم مبالغة فى رد مقالتهم وتسكين قلوبهم وهذا كما ترى جواب ناشىء من كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولا دخل فى ذلك لظن لقاء الله تعالى بالبعث لاسيما بالاستشهاد فان العلم به ربما يورث اليأس من الغلبة ولا لتوقع ثوابه تعالى ولا ريب فى أن ما ذكر فى حيز الصلة ينبغى أن يكون مدار للحكم الوارد على الموصول فلا أقل من أن يكون وصفا ملائماً له فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأييده عبر عنه بذلك مبالغة كما عبر عن مقارنة نصره تعالى بمقارنته سبحانه حيث قيل (واللهُ معَ الصّٰبِرينَ) فان المراد به معية نصره وتوفيقه حتما وحملها على المعية بالاثابة كما فعل يأباه أنهم إنما قالوه تتميما لجوابهم وتأييداً له بطريق الاعتراض التذييلى تشجيعا لأصحابهم وتثبيتا لهم على الصبر المؤدى إلى الغلبة ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالاثابة قطعا وكذا الحال إذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به تقرير الكلامهم والمعنى قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبى أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقو نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله تعالى فنحن أيضا نغلب جالوت وجنوده وايراد خبر أن اسما مع أن اللقاء مستقبل للدلالة على تقرره وتحققه (ولمّا برَزوا) أى ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا إلى براز من الأرض فى موطن الحرب (لجالوتَ وجنودِهِ) وشاهدوا ماهم عليه من العدد والعدد وأيقنوا أنهم غير مطيقين بهم عادة (قالوا) أى جميعا عند تقوى قلوب الفريق الاول منهم بقول الفريق الثانى متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به (ربّنا أفرِغْ علَيْنا صَبراً) على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده الصعبة الضيقة وفى التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال وايثار الافراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة مالا يخفى (وثَبِّتْ أقدامَنا) فى مداحض القتال ومزال النزال وثبات القدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لا مجرد التقرر فى حيز واحد (وانصُرنا علَى القَومِ الكٰفرينَ) بقهرهم وهزمهم ووضع الكافرين فى موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده للاشعار بعلة النصر عليهم ولقد راعوا فى الدعاء ترتيبا بديعا حيث قدموا سؤال افراغ الصبر الذى هو ملاك الأمر ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه ثم سؤال النصر الذى هو الغاية القصوى (فهزَموهُمْ) أى كسروهم بلا مكث (بإذنِ اللهِ) بنصره وتأييده اجابة لدعائهم وايثار هذه الطريقة على طريقة قوله عز وجل فآتاهم الله ثواب الدنيا الخ للمحافظة على مضمون قولهم غلبت فئة كثيرة باذن الله (وقتَلَ داوُدُ جالوتَ) كان ايشى أبو داود فى عسكر طالوت معه ستة من بنيه وكان داود عليه السلام سابعهم وكان صغيرا يرعى الغنم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أنه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد مر فى طريقه بثلاثة أحجار قال له كل منها احملنا فانك بنا تقتل جالوت فحملها فى مخلاته قيل لما أبطأ على أبيه خبر اخوته فى المصاف أرسل داود اليهم ليأتيه بخبرهم فأتاهم وهم فى القراع وقد برز جالوت بنفسه إلى البراز ولا يكاد يبارزه أحد وكان ظله ميلا فقال داود لاخوته أما فيكم من يخرج

إلى هذا الاقلف فزجروه فنحاناحية أخرى ليس فيها اخوته وقدمر به طالوت وهو يحرض الناس على القتال فقال له داود ماتصنعون بمن يقتل هذا الاقلف قال طالوت أنكحه بنتى وأعطيه شطر مملكتى فبرز له داود فرماه بما معه من الأحجار بالمقلاع فأصابه فى صدره فنفذ الأحجار منه وقتلت بعده ناسا كثيرا وقيل كلمته الأحجار عند بروزه لجالوت فى المعركة فأنجز له طالوت ماوعده وقيل انه حسده وأخرجه من مملكته ثم ندم على ماصنعه فذهب يطلبه إلى أن قتل وملك داود عليه السلام وأعطى النبوة وذلك قوله تعالى (وءاتـه الله الملك) أى ملك بنى إسرائيل فى مشارق الأرض المقدسة ومغاربها (والحكمة) أى النبوة ولم يجتمع فى بنى إسرائيل الملك والنبوة قبله الاله بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط آخر وما اجتمعوا قبله على ملك قط (وعلمه مما يشاء) أى بما يشاء الله تعالى تعليمه إياه لا بما يشاء داود عليه السلام كما قيل لأن معظم ماعلمه تعالى اياه بما لا يكاد يخطر ببال أحد ولا يقع فى أمنية بشر ليتمكن من طلبه ومشيئته كالسرد بالانة الحديد ومنطق الطير والدواب ونحو ذلك من الأمور الخفية (ولولا دفع الله الناس بعضهم) الذين يباشرون الشر والفساد (ببعض) آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله تعالى من القتل كما فى القصة المحكية أوغيره وقرىء دفاع الله على أن صيغة المغالبة للمبالغة (لفسدت الأرض) وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر مايعمر الأرض ويصلحها وقيل لولا أن الله ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بعيثهم وقتلهم المسلمين أو لولم يدفعهم بالمسلمين لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض قاطبة (ولكن الله ذوفضل) عظيم لايقادر قدره (على العلمين) كافة وهذا اشارة إلى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض المقدم منتج لنقيض التالى خلا أنه قد وضع موضعه مايستتبعه ويستوجبه أعنى كونه تعالى ذا فضل على العالمين ايذانا بأنه تعالى متفضل فى ذلك الدفع من غير أن يجب عليه ذلك وأن فضله تعالى غير منحصر فيه بل هو فرد من أفراد فضله العظيم كأنه قيل ولكنه تعالى يدفع فساد بعضهم ببعض فلا تفسد الأرض وتنتظم به مصالح العالم وتنصلح أحوال الأمم (تلك) اشارة إلى ماسلف من حديث الألوف وخبر طالوت على التفصيل المرقوم ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه (ءايت الله) المنزلة من عنده تعالى والجملة مستأنفة وقوله تعالى (نتلوها عليك) أى بواسطة جبريل عليه السلام اما حال من الآيات والعامل معنى الإشارة واما جملة مستقلة لامحل لها من الاعراب (بالحق) فى حيز النصب على أنه حال من مفعول نتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لايرتاب فيه أحد من أهل الكتاب وأرباب التواريخ لما يجدونها موافقة لما فى كتبهم أو من فاعله أى نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب أو من الضمير المجرور أى ملتبسا بالحق والصدق (وإنك لمن المرسلين) أى من جملة الذين أرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالاتنا واجراء أوامرنا وأحكامنا عليهم فان هذه المعاملة لاتجرى بيننا وبين غيرهم فهى شهادة منه سبحانه برسالته عليه الصلاة والسلام اثر بيان مايستوجبها والتأكيد من مقتضيات مقام الجاحدين بها (تلك الرسل) استئناف فيه رمز إلى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضل الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام اثر بيان كونه من جملتهم والاشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبى صلى الله عليه وسلم فاللام فى المآل للاستغراق وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم وقيل إلى الذين ذكرت قصصهم فى الصورة وقيل الى الذين ثبت علمه صلى الله عليه وسلم بهم (فضلنا بعضهم على بعض) فى مراتب الكمال بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة خلا عنها غيره (منهم من كلم الله) تفصيل للتفضيل المذكور اجمالا أى فضله بأن كلمه تعالى بغير سفير وهو موسى عليه الصلاة والسلام حيث كلمه تعالى ليلة الحيرة وفى الطور وقرىء كلم الله بالنصب وقرىء كالم الله من المكالمة فانه كلم الله تعالى كما أنه تعالى كلمه ويؤيده كليم الله بمعنى مكالمه وايراد

الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة والرمز إلى مابين التكليم والرفع وبين ماسبق من مطلق التفضيل وما لحق من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس من التفاوت (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ) أى ومنهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين فى معارج الفضل بدرجات قاصية ومراتب نائية وتغيير الاسلوب لتربية مابينهم من اختلاف الحال فى درجات الشرف والظاهر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبىء عنه الاخبار بكونه عليه الصلاة والسلام منهم فان ذلك فى قوة بعضهم فانه قد خص بالدعوة العامة والحجج الجمة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر والابهام لتفخيم شأنه وللاشعار بأنه العلم الفرد الغنى عن التعيين وقيل إنه ابراهيم عليه الصلاة والسلام حيث خصه تعالى بكرامة الخلة وقيل إدريس عليه السلام حيث رفعه مكانا عليا وقيل أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام (وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ) الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص والاخبار بالمغيبات أو الانجيل (وَأَيَّدْنَٰهُ) أى قويناه (بِرُوحِ الْقُدُسِ) بضم الدال وقرىء بسكونها أى بالروح المقدسة كقولك رجل صدق وهى روح عيسى وإنما وصفت بالقدس للكرامة أو لأنه عليه السلام لم تضمه الاصلاب والارحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالانجيل كما مر وافراده عليه السلام بما ذكر لرد مابين أهل الكتابين فى شأنه عليه السلام من التفريط والافراط والآية ناطقة بأن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الاقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بقاطع (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) أى جاؤا من بعد الرسل من الأمم المختلفة أى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على كلمة الحق فمفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء على القاعدة المعروفة وقيل تقديره ولو شاء هدى الناس جميعا ما اقتتل الخ وليس بذاك (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ) من جهة أولئك الرسل (الْبَيِّنَٰتُ) المعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على حقية الحق الموجبة لاتباعهم الزاجرة عن الاعراض عن سننهم المؤدى إلى الاقتتال فمن متعلقة باقتتل (وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا) استدراك من الشرطية أشير به إلى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض مقدمها منتج لنقيض تاليها إلا أنه قد وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للايذان بأن الاقتتال ناشىء من قبلهم لا من جهته تعالى ابتداء كأنه قيل ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافا فاحشا (فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ) بما جاءت به أولئك الرسل من البينات وعملوا به (وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ) بذلك كفر الا ارعواء له عنه فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ) عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضا من الاختلاف والشقاق المستتبعين للاقتتال بحسب العادة (مَا اقْتَتَلُوا) وما نبض منهم عرق التطاول والتعادى لما أن الكل تحت ملكوته تعالى فالتكرير ليس للتأكيد كما ظن بل للتنبيه على اختلافهم ذلك ليس موجب لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم كما يفهم ذلك من وضعه فى الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار فى ذلك حتى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) أى من الأمور الوجودية والعدمية التى من جملتها عدم مشيئته عدم اقتتالهم فان الترك أيضا من جملة الأفعال أى يفعل ما يريد حسبما يريد من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع وفيه دليل بين على أن الحوادث تابعة لمشيئته سبحانه خيرا كان أو شرا إيمانا كان أو كفرا (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا) فى سبيل الله (مِمَّا رَزَقْنَٰكُم) أى شيأ مما رزقناكموه على أن ما موصولة حذف عائدها والتعرض لوصوله منه تعالى للحث على الانفاق كما فى قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه والمراد به الانفاق الواجب بدلالة ما بعده من الوعيد (مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ) كلمة من متعلقة بما تعلقت به أختها ولا ضير فيه لاختلاف معنييهما فان الأولى تبعيضية وهذه لابتداء

الغاية أى أنفقوا بعض مارزقناكم من قبل أن يأتى يوم لاتقدرون على تلافى مافرطتم فيه اذلاتبايع فيه حتى تتبايعوا ماتنفقونه أوتفتدون به من العذاب ولاخلة حتى يسامحكم به أخلاؤكم أويعينوكم عليه ولاشفاعة إلالمن أذن له الرحمن ورضى له قولا حتى تتوسلوا بشفعاء يشفعون لكم فى حط مافى ذمتكم وإنما رفعت الثلاثة مع قصد التعميم لأنها فى التقدير جواب هل فيه بيع أوخلة أوشفاعة وقرىء بفتح الكل (وَالْكَـٰفِرُونَ) أى والتاركون للزكاة وايثاره عليه للتغليظ والتهديد كما فى قوله تعالى ومن كفر مكان ومن لم يحج وللإيذان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار قال تعالى وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة (هُمُ الظَّـٰلِمُونَ) أى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المال فى غير موضعه وصرفوه إلى غير وجهه (اللهُ لا إلَهَ إلا هُوَ) مبتدأ وخبر أى هو المستحق للعبودية لاغير وفى إضمار خبر لا مثل فى الوجود أويصح أن يوجد خلاف للنحاة معروف (الْحَىُّ) الباقى الذى لاسبيل عليه للموت والفناء وهو إما خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من لا إله إلا هو أو بدل من الله أوصفة له ويعضده القراءة بالنصب على المدح لاختصاصه بالنعت (الْقَيُّومُ) فيعول من قام بالأمر إذا حفظه أى دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه وقيل هو القائم بذاته المقيم لغيره (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) السنة مايتقدم النوم من الفتور قال عدى بن الرقاع العاملى :

وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم

والنوم حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الاحساس رأسا والمراد بيان انتفاء اعتراء شىء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى لالأنهما قاصران بالنسبة إلى القوة الإلهية فانه بمعزل من مقام التنزيه فلا سبيل إلى حمل النظم الكريم على طريقة المبالغة والترقى بناء على أن القادر على دفع السنة قد لايقدر على دفع النوم القوى كما فى قولك فلان يقظ لاتغلبه سنة ولا نوم وإنما تأخير النوم للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجى وتوسيط كلمة لا للتنصيص على شمول النفى لكل منهما كما فى قوله عز وجل ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة الآية وأما التعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم الأخذ فلمراعاة الواقع إذ عروض السنة والنوم لمعروضهما إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء وقيل هو من باب التكميل والجملة تأكيد لما قبلها من كونه تعالى حيا قيوما فان من يعتريه أحدهما يكون مؤوف الحياة قاصرا فى الحفظ والتدبير وقيل استئناف مؤكد لما سبق وقيل حال مؤكدة من الضمير المستكن فى القيوم (لَهُ مافى السَّمٰوٰتِ وَمَا فى الأَرْضِ) تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفرده فى الألوهية والمراد بما فيهما ماهو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم (مَن ذا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إلا بإذنِهِ) بيان لكبرياء شأنه وأنه لايدانيه أحد ليقدر على تغيير مايريده شفاعة وضراعة فضلا عن أن يدافعه عنادا أو مناصبة (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أيدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أى ماقبلهم وما بعدهم أو بالعكس لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضى أو أمور الدنيا وأمور الآخرة أو بالعكس أو مايحسونه ومايعقلونه أومايدركونه ومالايدركونه والضمير لما فى السموات والأرض بتغليب مافيهما من العقلاء على غيرهم أو لما دل عليه من ذا الذى من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام (وَلا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) أى من معلوماته (إلا بِمَا شَاءَ) أن يعلموه وعطفه على ماقبله لما أنهما جميعا دليل على تفرده تعالى بالعلم الذاتى التام الدال على وحدانيته (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ) الكرسى مايجلس عليه ولايفضل عن مقعد القاعد وكأنه منسوب إلى الكرسى الذى هو الملبد وليس ثمة كرسى ولاقاعد ولاقعود وإنما هو تمثيل لعظمة شأنه عز وجل وسعة سلطانه وإحاطة علمه بالأشياء قاطبة على طريقة قوله عز قائلا وماقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة

والسموات مطويات بيمينه وقيل كرسيه مجاز عن علمه أخذا من كرسي العالم وقيل عن ملكه أخذا من كرسي الملك فان الكرسي كلما كان أعظم تكون عظمة القاعد أكثر وأوفر فعبر عن شمول علمه أو عن بسطة ملكه وسلطانه بسعة كرسيه واحاطته بالاقطار العلوية والسفلية وقيل هو جسم بين يدى العرش محيط بالسموات السبع لقوله صلى الله عليه وسلم ماالسموات السبع والارضون السبع مع الكرسي إلا كحلقة فى فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة ولعله الفلك الثامن وعن الحسن البصرى أنه العرش (وَلَا يَؤُدُهُ) أى لايثقله ولايشق عليه (حِفْظُهُمَا) أى حفظ السموات والأرض وإنما لم يتعرض لذكر مافيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه (وَهُوَ الْعَلِيُّ) المتعالى بذاته عن الأشباه والأنداد (الْعَظِيمُ) الذى يستحقر بالنسبة إليه كل ماسواه ولماترى من انطواء هذه الآية الكريمة على أمهات المسائل الالهية المتعلقة بالذات العلية والصفات الجلية فانها ناطقة بأنه تعالى موجود متفرد بالالهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجد لغيره لما أن القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لامناسبة بينه وبين الاشباح ولايعتريه مايعترى النفوس والأرواح مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع ذو البطش الشديد لايشفع عنده إلا من أذن له فيه العالم وحده بجميع الأشياء جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل مامن شأنه أن يملك ويقدر عليه لايشق عليه شاق ولايشغله شأن عن شأن متعال عماتناله الأوهام عظيم لاتحدق به الأفهام تفردت بفضائل رائقة وخواص فائقة خلت عنها أخواتها قال صلى الله عليه وسلم إن أعظم آية فى القرآن آية الكرسي من قرأها بعث الله تعالى ملكا يكتب من حسناته ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة وقال عليه الصلاة والسلام ماقرئت هذه الآية فى دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولايدخلها ساحر ولاساحرة أربعين ليلة ياعلى علمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها وقال عليه السلام من قرأ آية الكرسي فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولايواظب عليها إلا صديق أوعابد ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله تعالى على نفسه وجاره وجار جاره والابيات حوله وقال عليه الصلاة والسلام سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولافخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن سورة البقرة وسيد البقرة آية الكرسي وتخصيص سيادته صلى الله عليه وسلم للعرب بالذكر فى أثناء تعداد السيادات الخاصة لايدل على نفى مادلت عليه الاخبار المستفيضة وانعقد عليه الاجماع من سيادته عليه السلام لجميع أفراد البشر (لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) جملة مستأنفة جىء بها اثر بيان تفرده سبحانه وتعالى بالشئون الجليلة الموجبة للايمان به وحده إيذانا بأن من حق العاقل أن لايحتاج إلى التكليف والالزام بل يختار الدين الحق من غير تردد وتلعثم وقيل هو خبر فى معنى النهى أى لاتكرهوا فى الدين فقيل منسوخ بقوله تعالى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وقيل خاص بأهل الكتاب حيث حصنوا أنفسهم بأداء الجزية وروى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان قد تنصرا قبل مبعثه عليه السلام ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لاأدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فخلاهما (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) استئناف تعليلى صدر بكلمة التحقيق لزيادة تقرير مضمونه كمافى قوله عز وجل قد بلغت من لدنى عذرا أى إذ قد تبين بماذكر من نعوته تعالى التى يمتنع توهم اشتراك غيره فى شىء منها الايمان الذى هو الرشد الموصل إلى السعادة الأبدية من الكفر الذى هو الغى المؤدى إلى الشقاوة السرمدية (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ) هو بناء مبالغة من الطغيان كالملكوت والجبروت قلب مكان عينه ولامه فقيل هو فى الأصل مصدر واليه ذهب الفارسي وقيل اسم جنس مفرد مذكر وإنما الجمع والتأنيث لارادة الآلهة وهو رأى سيبويه وقيل هو جمع وهو

مذهب المبرد وقيل يستوى فيه المفرد والجمع والتذكير والتأنيث أى فمن يعمل اثر ماتميز الحق من الباطل بموجب الحجج الواضحة والآيات البينة ويكفر بالشيطان أو بالأصنام أو بكل ماعبد من دون الله تعالى أوصد عن عبادته تعالى لماتبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة (ويؤمن بالله) وحده لماشاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهية به عزوجل الموجبة للايمان والتوحيد وتقديم الكفر بالطاغوت على الايمان به تعالى لتوقفه عليه فان التخلية متقدمة على التحلية (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى بالغ فى التمسك بها كأنه وهو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه (لا انفصام لها) الفصم الكسر بغير ابانة كما أن القصم هو الكسر بابانة ونفى الأول يدل على انتفاء الثانى بالاولوية والجملة اما استئناف مقرر لماقبلها من وثاقة العروة واما حال من العروة والعامل استمسك أو من الضمير المستتر فى الوثقى ولها فى حيز الخبر أى كائن لها والكلام تمثيل مبنى على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذى لايحتمل النقيض أصلا لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة فى المفردات ويجوز أن تكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذى هو الايمان والتوحيد لا للنظر الصحيح المؤدى اليه كما قيل فانه غير مذكور فى حيز الشرط والاستمساك بها مستعارا لما ذكر من الملازمة أو ترشيحا للاستعارة الأولى (والله سميع) بالأقوال (عليم) بالعزائم والعقائد والجملة اعتراض تذييلى حامل على الايمان رادع عن الكفر والنفاق بمافيه من الوعد والوعيد (الله ولى الذين آمنوا) أى معينهم أو متولى أمورهم والمراد بهم الذين ثبت فى علمه تعالى إيمانهم فى الجملة مآلا أو حالا (يخرجهم) تفسير للولاية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة أو حال من الضمير فى ولى (من الظلمات) التى هى أعم من ظلمات الكفر والمعاصى وظلمات الشبه بل مما فى بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس إلى مراتبها القوية الجلية بل مما فى جميع مراتبها بالنظر إلى مرتبة العيان كما ستعرفه (إلى النور) الذى يعم نور الايمان ونور الايقان بمراتبه ونور العيان أى يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التى وقع فيها إلى مايقابلها من النور وأفراد النور لوحدة الحق كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال (والذين كفروا) أى الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم (أولياؤهم الطاغوت) أى الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق فالموصول مبتدأ وأولياؤهم مبتدأ ثان والطاغوت خبره والجملة خبر للاول والجملة الحاصلة معطوفة على ماقبلها ولعل تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطاغوت فى مقابلة الاسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الاسناد مع الايماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضا (يخرجونهم) بالوساوس وغيرها من طرق الاضلال والاغواء (من النور) الفطرى الذى جبل عليه الناس كافة أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم بتنزيل تمكنهم من الاستضاءة بها منزلة نفسها (إلى الظلمات) ظلمات الكفر والانهماك فى الغى وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الاسلام والجملة تفسير لولاية الطاغوت أو خبر ثان كما مر وإسناد الاخراج من حيث السببية إلى الطاغوت لايقدح فى استناده من حيث الخلق إلى قدرته سبحانه (أولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومايتبعه من القبائح (أصحاب النار) أى ملابسوها وملازموها بسبب مالهم من الجرائم (هم فيها خالدون) ماكثون أبدا (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) استشهاد على ماذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون كما أن مابعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها وإنما بدىء بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتراؤه على المحاجة فى الله عزوجل وما أتى بها فى أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته ولان فيما بعده تعددا وتفصيلا يورث تقديمه انتشار

النظم على أنه قد أشير فى تضاعيفه إلى هداية الله تعالى أيضا بواسطة إبراهيم عليه السلام فان مايحكى عنه من الدعوة إلى الحق وإدحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى وهمزة الاستفهام لإنكار النفى وتقرير المنفى أى ألم تنظر أو ألم ينته علمك إلى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لاضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات أى قد تحققت الرؤية وتقررت بناء على أن أمره من الظهور بحيث لايكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب فظهر أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وإيذان بتأييده فى المحاجة (أنْ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ) أى لأن آتاه إياه حيث أبطره ذلك وحمله على المحاجة أو حاجه لأجله وضعا للمحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع مايجب عليه من الشكر كما يقال عادينى لأن أحسنت اليك أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إيتاء الله الملك للكافر (إذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ) ظرف لحاج أو بدل من آتاه على الوجه الأخير (رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ) بفتح ياء ربى وقرىء بحذفها. روى أنه عليه الصلاة والسلام لما كسر الأصنام سجنه ثم أخرجه فقال من ربك الذى تدعو اليه قال ربى الذى يحيى ويميت أى يخلق الحياة والموت فى الأجساد (قَالَ) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل كيف حاجه فى هذه المقالة القوية الحقة فقيل قال (أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ) روى أنه دعا برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال ذلك (قَالَ إِبْرَٰهِيمُ) استئناف كما سلف كأنه قيل فماذا قال إبراهيم لمن فى هذه المرتبة من الحماقة وبماذا أفحمه فقيل قال (فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ) حسبما تقتضيه مشيئته (فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ) إن كنت قادرا على مثل مقدوراته تعالى لم يلتفت عليه السلام إلى إبطال مقالة اللعين إيذانا بأن بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لايكاد يخفى على أحد وأن التصدى لإبطالها من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل وأتى بمثال لايجد اللعين فيه مجالا للتمويه والتلبيس (فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ) أى صار مبهوتا وقرىء على بناء الفاعل على أن الموصول مفعوله أى فغلب إبراهيم الكافر وأسكته وإيراد الكفر فى حيز الصلة للاشعار بعلة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفرا (وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى لايهدى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلد بسبب اعراضهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلال أو إلى سبيل النجاة أو إلى طريق الجنة يوم القيامة (أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ) استشهاد على ماذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير له معطوف على الموصول السابق وايثار أو الفارقة على الواو الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الامر والكاف إما اسمية كما اختاره قوم جىء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر كما فى قولك الفعل الماضى مثل نصر وإما زائدة كما ارتضاه آخرون والمعنى أولم تر إلى مثل الذى أو الى الذى مر على قرية كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه إلى نور العيان والشهود أى قد رأيت ذلك وشاهدته فاذن لاريب فى أن الله ولى الذين آمنوا الخ. هذا وأما جعل الهمزة لمجرد التعجيب على أن يكون المعنى فى الاول ألم تنظر الى الذى حاج الخ أى انظر اليه وتعجب من أمره وفى الثانى أو أرأيت مثل الذى مر الخ ايذانا بأن حاله وما جرى عليه فى الغرابة بحيث لايرى له مثل كما استقر عليه رأى الجمهور فغير خليق بجزالة التنزيل وفخامة شأنه الجليل فتدبر والمار هو عزير بن شرخيا قاله قتادة والربيع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان بن يزيد والضحاك والسدى رضى الله عنهم وقيل هو أرميا بن حلقيا من سبط هرون عليه السلام قاله وهب وعبيد الله بن عمير وقيل أرميا هو الخضر بعينه. قال مجاهد كان المار رجلا كافرا بالبعث وهو بعيد والقرية بيت المقدس قاله وهب وعكرمة والربيع وقيل هى دير هرقل على شط دجلة وقال الكلبى هى دير سابر آباد وقال السدى هى دير سلما باد والاول هو الاظهر والاشهر. روى أن بنى اسرائيل لما بالغوا فى تعاطى الشر والفساد وجاوزوا فى العتو والطغيان كل حد معتاد سلط الله تعالى عليهم

بخت نصر البابلى فسار اليهم فى ستمائة ألف راية حتى وطىء الشام وخرب بيت المقدس وجعل بنى إسرائيل أثلاثا ثلث منهم قتلهم وثلث منهم أقرهم بالشام وثلث منهم سباهم وكانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل ملك منهم أربعة غلمة وكان عزير من جملتهم فلما نجاه الله تعالى منهم بعد حين مر بحماره على بيت المقدس فرآه على أفظع مرآى وأوحش منظر وذلك قوله عز وجل (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أى ساقطة على سقوفها بأن سقطت العروش ثم الحيطان من خوى البيت إذا سقط أو من خوت الأرض أى تهدمت والجملة حال من ضمير مر أو من قرية عند من يجوز الحال من النكرة مطلقا (قَالَ) أى تلهفا عليها وتشوقا إلى عمارتها مع استشعار اليأس عنها (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ) وهى على ما يرى من الحالة العجيبة المباينة للحياة وتقديمها على الفاعل للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشىء من جهتها لا من جهة الفاعل وأنى نصب على الظرفية إن كانت بمعنى متى وعلى الحالية من هذه إن كانت بمعنى كيف والعامل يحيى وأيا ما كان فالمراد استبعاد عمارتها بالبناء والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيدى سبا ومن غيرهم وإنما عبر عنها بالإحياء الذى هو علم فى البعد عن الوقوع عادة تهويلا للخطب وتأكيدا للاستبعاد كما أنه لأجله عبر عن خرابها بالموت حيث قيل (بَعْدَ مَوْتِهَا) وحيث كان هذا التعبير معربا عن استبعاد الإحياء بعد الموت على أبلغ وجه وآكده أراه الله عز وجل آثر ذى أثير أبعد الأمرين فى نفسه ثم فى غيره ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة فى إزاحة ما عسى يختلج فى خلده وأما حمل إحيائها على إحياء أهلها فيأباه التعرض لحال القرية دون حالهم والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم ترابا وعظاما مع كونه أدخل فى الاستبعاد لشدة مباينته للحياة وغاية بعده عن قبولها على أنه لم تتعلق إرادته تعالى بإحيائهم كما تعلقت بعمارتها ومعاينة المار لها كما سنحيط به خبرا (فَأَمَاتَهُ اللَّهُ) وألبثه على الموت (مِائَةَ عَامٍ) روى أنه لما دخل القرية ربط حماره فطاف بها ولم ير بها أحدا فقال ما قال وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فأماته الله تعالى فى منامه وهو شاب وأمات حماره وبقية تينه وعنبه وعصيره عنده ثم أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد فلما مضى من موته سبعون سنة وجه الله عز وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك إلى بيت المقدس ليعمره ومعه ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل فجعلوا يعمرونه وأهلك الله تعالى بخت نصر ببعوضة دخلت دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى إسرائيل وردهم إلى بيت المقدس وتراجع إليه من تفرق منهم فى الأكناف فعمروه ثلاثين سنة وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه فلما تمت المائة من موت عزير أحياه الله تعالى وذلك قوله تعالى (ثُمَّ بَعَثَهُ) وإيثاره على أحياه للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارىء تعالى كأنه بعثه من النوم وللإيذان بأن أعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال (قَالَ) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال له بعد بعثه فقيل قال (كَمْ لَبِثْتَ) ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى وأن إحياءه ليس بعد مدة يسيرة ربما يتوهم أنه هين فى الجملة بل بعد مدة طويلة وينحسم به مادة استبعاده بالمرة ويطلع فى تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرا طويلا من غير تغير ما وكم نصب على الظرفية مميزها محذوف أى كم وقتا لبثت والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك من قبله تعالى قيل نودى من السماء يا عزير كم لبثت بعد الموت (قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) قاله بناء على التقريب والتخمين أو استقصارا المدة لبثه وأما ما يقال من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوما فالتفت إليها فرأى منها بقية فقال أو بعض يوم على وجه الإضراب فبمعزل من التحقيق إذ لا وجه للجزم بتمام اليوم ولو بناء على حسبان الغروب لتحقق النقصان من أوله (قَالَ) استئناف كما سلف (بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ)

عطف على مقدر أى مالبثت ذلك القدر بل هذا المقدار (فانظرْ) لتعاين أمراً آخر من دلائل قدرتنا (إلى طعامِكَ وشرابكَ لمْ يتسنَّهْ) أى لم يتغير فى هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد روى أنه وجد تينه وعنبه كما جنى وعصيره كما عصر والجملة المنفية حال بغير واو كقوله تعالى لم يمسسهم سوء اما من الطعام والشراب وافراد الضمير لجريانهما مجرى الواحد كالغذاء واما من الأخير اكتفاء بدلالة حاله على حال الأول ويؤيده قراءة من قرأ وهذا شرابك لم يتسن والهاء أصلية أوهاء سكت واشتقاقه من السنة لما أن لامها هاء أو واو وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فقلبت نونه حرف علة كما فى تقضى البازى وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنه لم يمر عليه السنون التى مرت لاحقيقة بل تشبيها أى هو على حاله كأنه لم يلبث مائة عام وقرىء لم يسنه بادغام التاء فى السين (وانظُرْ إلى حِمارِكَ) كيف نخرت عظامه وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت ليتبين لك ماذكر من اللبث المديد وتطمئن به نفسك وقوله عز وجل (ولِنجعلكَ ءايةً للنّاس) عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق أى فعلنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعاين ما استبعدته من الأحياء بعد دهر طويل ولنجعلك آية للناس الموجودين فى هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ويأخذوا منك ماطوى عنهم منذ أحقاب من علم التوراة كما سيأتى أو متعلق بفعل مقدر بعده أى ولنجعلك آية لهم على الوجه المذكور فعلنا ما فعلنا فهو على التقديرين دليل على ماذكر من اللبث المديد ولذلك فرق بينه وبين الامر بالنظر إلى حماره وتكرير الامر فى قوله تعالى (وانظُرْ إلى العظام) مع أن المراد عظام الحمار أيضا لما أن المأمور به أولا هو النظر اليها من حيث دلالتها على ماذكر من اللبث المديد وثانيا هو النظر اليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها أى وانظر الى عظام الحمار لتشاهد كيفية الاحياء فى غيرك بعدما شاهدت نفسه فى نفسك (كيفَ نُنشِزُها) بالزاى المعجمة أى نرفع بعضها إلى بعض ونردها إلى أماكنها من الجسد فنركبها تركيبا لائقا بها وقال الكسائى نلينها ونعظمها ولعل من فسره بنحييها أراد بالاحياء هذا المعنى وكذا من قرأ ننشرها بالراء من أنشر الله تعالى الموتى أى أحياها لا معناه الحقيقى لقوله تعالى (ثمّ نَكسُوها لحمًا) أى نسترها به كما يستر الجسد باللباس وأما من قرأ ننشرها بفتح النون وضم الشين فلعله أراد به ضد الطى كما قال الفراء فالمعنى كيف نبسطها والجملة اما حال من العظام أى وانظر اليها مركبة مكسوة لحما أو بدل اشتمال أى وانظر إلى العظام كيفية انشازها وبسط اللحم عليها ولعل عدم التعرض لكيفية نفخ الروح لما أنهما لا تقتضى الحكمة بيانه . روى أنه نودى أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع كل جزء من أجزائها التى ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح من كل سهل وجبل فانضم بعضها إلى بعض والتصق كل عضو بما يليق به الضلع بالضلع والذراع بمحلها والرأس بموضعها ثم الاعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فاذا هو قائم ينهق (فلمّا تبَيّنَ لهُ) أى مادل عليه الامر بالنظر اليه من كيفية الاحياء بمباديه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الامر المذكور وإنما حذف للايذان بظهور تحققه واستغنائه عن الذكر وللاشعار بسرعة وقوعه كما فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك كأنه قيل فأنشزها الله تعالى وكساها لحما فنظر اليها فتبين له كيفيته فلما تبين له ذلك أى اتضح اتضاحا تاما (قالَ أعلمُ أنّ اللهَ على كلّ شىء) من الاشياء التى من جملتها ما شاهده فى نفسه وفى غيره من تعاجيب الآثار (قديرٌ) لا يستعصى عليه أمر من الامور وإيثار صيغة المضارع للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظرا إلى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل بل انما تبدل بالعيان وصفه وفيه اشعار بأنه انما قال ما قال بناء على الاستبعاد العادى واستعظاما للامر وقد قيل فاعل تبين مضمر يفسره مفعول أعلم أى فلما تبين له أن الله على كل شىء قدير قال أعلم أن الله على كل

شىء قدير فقد برو قرىء تبين له على صيغة المجهول وقرىء قال اعلم على صيغة الأمر. روى أنه ركب حماره وأتى محلته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فاذاهو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير قالت نعم وأين ذكرى عزير قد فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاء شديدا قال فانى عزير قالت سبحان الله أنى يكون ذلك قال قد أماتنى الله مائة عام ثم بعثنى قالت إن عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة فادع الله لى يرد على بصرى حتى أراك فدعا ربه ومسح بيده عينيها فصحتا فأخذ بيدها فقال لها قومى باذن الله فقامت صحيحة كأنما انشطت من عقال فنظرت اليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت إلى محلة بنى اسرائيل وهم فى أنديتهم وكان فى المجلس ابن لعزير قد بلغ مائة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فانى بدعائه رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناس فأقبلوا اليه فقال ابنه كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فاذا هو كذلك وقد كان قتل بخت نصر ببيت المقدس من قراء التوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفا فقال رجل من أولاد المسبيين ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر حدثنى أبى عن جدى أنه دفن التوراة يوم سبينا فى خابية فى كرم فان أريتمونى كرم جدى أخرجتها لكم فذهبوا إلى كرم جده ففتشوا فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا فى حرف واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ) دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين واخراجه لهم من الظلمات إلى النور وإنما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بأن يقال أو كالذى قال رب الخ جريان ذكره عليه السلام فى أثناء المحاجة ولأنه لادخل لنفسه عليه السلام فى أصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فان ما جرى عليه من احيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته والظرف منتصب بمضمر صرح بمثله فى نحو قوله تعالى واذكروا إذ جعلكم خلفاء أى واذكر وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من تعاجيب صنع الله تعالى لتقف على ما مر من ولايته تعالى وهدايته وتوجيه الأمر بالذكر فى أمثال هذه المواقع إلى الوقت دون ما وقع فيه من الواقعات مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل عليها مفصلة فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها بحيث لايشذ عنها شىء مما ذكر عند الحكاية أولم يذكر كأنها مشاهدة عيانا (ربِّ) كلمة استعطاف قدمت بين يدى الدعاء مبالغة فى استدعاء الإجابة (أرنى) من الرؤية البصرية المتعدية إلى واحد وبدخول همزة النقل طلبت مفعولا آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة لها فانها تعلق كما يعلق النظر البصرى أى اجعلنى مبصرا (كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ) بأن تحييها وأنا أنظر اليها وكيف فى محل نصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الأخفش والعامل فيها تحيى أى فى أى حال أو على أى حال تحيى قال القرطبى الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حال شىء متقرر الوجود عند السائل والمسئول فالاستفهام ههنا عن هيئة الاحياء المتقرر عند السائل أى بصرنى كيفية إحيائك للموتى وإنما سأله عليه السلام ليتأيد إيقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئنانا على اطمئنان وأما ما قيل من أن نمرود لما قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم عليه السلام إن احياء الله تعالى برد الأرواح إلى الأجساد فقال نمرود هل عاينته فلم يقدر على أن يقول نعم فانتقل إلى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ذلك فيأباه تعليل السؤال بالاطمئنان (قَالَ) استئناف كما مر غير مرة (أَوَلَمْ تُؤْمِن) عطف على مقدر أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الاحياء كيف أشاء حتى تسألنى اراءته قاله عز وعلا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت الناس ايمانا وأقواهم يقينا ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفا للسامعين (قَالَ بَلَىٰ) علمت وآمنت

بأنك قادر على الاحياء على أى كيفية شئت (وَلَـٰكِن) سألت ماسألت (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) بمضامة العيان إلى الإيمان والايقان وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة (قَالَ فَخُذْ) الفاء لجواب الشرط محذوف أى ان أردت ذلك فخذ (أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ) قيل هو اسم لجمع طائر كركب وسفر وقيل جمع له كتاجر وتجر وقيل هو مصدر سمى به الجنس وقيل هو تخفيف طير بمعنى طائر كهين فى هين ومن متعلقة بخذ أو بمحذوف وقع صفة لأربعة أى أربعة كائنة من الطير قيل هى طاوس وديك وغراب وحمامة وقيل نسر بدل الأخير وتخصيص الطير بذلك لأنه أقرب إلى الانسان وأجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتى مايفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك (فَصُرْهُنَّ) من صاره يصوره أى أماله وقرىء بكسر الصاد من صاره يصيره أى أملهن واضممهن وقرىء فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صره يصره ويصره إذا جمعه وقرىء فصرهن من التصرية بمعنى الجمع أى اجمعهن (إِلَيْكَ) لتتأملها وتعرف شياتها مفصلة حتى تعلم بعد الاحياء أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلا . روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزائها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رؤسها ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى (ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا) أى جزئهن وفرق أجزاءهن على مابحضرتك من الجبال قيل كانت أربعة أجبل وقيل سبعة فجعل على كل جبل ربعاً أو سبعاً من كل طائر وقرىء جزؤا بضمتين وجزا بالتشديد بطرح همزته تخفيفا ثم تشديده عند الوقف ثم اجراء الوصل مجرى الوقف (ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ) فى حيز الجزم على أنه جواب الأمر ولكنه بنى لاتصاله بنون جمع مؤنث (سَعْيًا) أى ساعيات مسرعات أوذوات سعى طيرانا أو مشيا وإنما اقتصر على حكاية أوامره عز وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لماترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روى أنه عليه السلام نادى فقال تعالين باذن الله فجعل كل جزء منهن يطير إلى صاحبه حتى صارت جثثا ثم أقبلن الى رؤسهن فانضمت كل جثة إلى رأسها فعادت كل واحدة منهن إلى ماكانت عليه من الهيئة للايذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لاحاجة له إلى الذكر أصلا وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل ويمن الضراعة فى الدعاء وحسن الأدب فى السؤال حيث أراه الله تعالى ماسأله فى الحال على أيسر ما يكون من الوجوه وأرى عزيرا ماأراه بعد ماأماته مائة عام (وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ) غالب على أمره لايعجزه شىء عما يريده (حَكِيمٌ) ذو حكمة بالغة فى أفاعيله فليس بناء أفعاله على الأسباب العادية لعجزه عن ايجادها بطريق آخر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أى فى وجوه الخيرات من الواجب والنفل (كَمَثَلِ حَبَّةٍ) لابد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة (أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ) أى أخرجت ساقا تشعب منها سبع شعب لكل واحدة منها سنبلة (فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ) كما يشاهد ذلك فى الذرة والدخن فى الأراضى المغلة بل أكثر من ذلك واسناد الانبات إلى الحبة مجازى كاسناده إلى الأرض والربيع وهذا التمثيل تصوير للاضعاف كأنها حاضرة بين يدى الناظر (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ) تلك المضاعفة أو فوقها إلى ماشاء الله تعالى (لِمَن يَشَاءُ) أن يضاعف له بفضله على حسب حال المنفق من اخلاصه وتعبه ولذلك تفاوتت مراتب الأعمال فى مقادير الثواب (وَاللَّهُ وَاسِعٌ) لايضيق عليه مايتفضل به من الزيادة (عَلِيمٌ) بنية المنفق ومقدار انفاقه وكيفية تحصيل ماأنفقه (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) جملة مبتدأة جىء بها لبيان كيفية الانفاق الذى بين فضله بالتمثيل المذكور (ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا) أى ماأنفقوه أو انفاقهم (مَنًّا وَلَا أَذًى) المن أن يعتد على من أحسن اليه باحسانه ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقا والأذى أن يتطاول عليه بسبب انعامه عليه وإنما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفى لاتباع كل واحد منهما وثم لاظهار علو رتبة المعطوف قيل نزلت

فى عثمان رضى الله عنه حين جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حين أتى النبى صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة ولم يكد يخطر ببالهما شىء من المن والأذى (لهم أجرهم) أى حسبما وعدلهم فى ضمن التمثيل وهو جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا عن الموصول وفى تكرير الإسناد وتقييد الأجر بقوله (عند ربهم) من التأكيد والتشريف مالا يخفى وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ماقبلها لمابعدها للايذان بأن ترتب الأجل على ماذكر من الانفاق وترك اتباع المن والأذى أمر بين لايحتاج إلى التصريح بالسببية وأما ايهام أنهم أهل لذلك وان لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب فى الفعل والحث عليه (ولا خوف عليهم) فى الدارين من لحوق مكروه من المكاره (ولاهم يحزنون) لفوات مطلوب من المطالب قل أو جل أى لايعتريهم مايوجبه لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لايخافون ولايحزنون ولا أنه لايعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور. كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خواص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجلة الثانية مضارعا لما أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام (قول معروف) أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يرد به السائل من غير اعطاء شىء (ومغفرة) أى ستر لما وقع من السائل من الالحاف فى المسئلة وغيره مما يثقل على المسئول وصفح عنه وإنما صح الابتداء بالنكرة فى الأول لاختصاصها بالوصف وفى الثانى بالعطف أو بالصفة المقدرة أى ومغفرة كائنة من المسئول (خير) أى للسائل (من صدقة يتبعها أذى) لكونها مشوبة بضرر مايتبعها وخلوص الأولين من الضرر والجملة مستأنفة مقررة لاعتبار ترك اتباع المن والأذى وتفسير المغفرة بنيل مغفرة من الله تعالى بسبب الرد الجميل أو بعفو السائل بناء على اعتبار الخيرية بالنسبة إلى المسئول يؤدى إلى أن يكون فى الصدقة الموصوفة بالنسبة إليه خير فى الجملة مع بطلانها بالمرة (والله غنى) لايحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن والأذى ويرزقهم من جهة أخرى (حليم) لايعاجل أصحاب المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لايستحقونها بسببهما والجملة تذييل لماقبلها مشتمل على الوعد والوعيد مقرر لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعا (يأيها الذين ءامنوا) أقبل عليهم بالخطاب اثر بيان مابين بطريق الغيبة مبالغة فى ايجاب العمل بموجب النهى (لا تبطلوا صدقتكم بالمن والأذى) أى لاتحبطوا أجرها بواحد منهما (كالذى) فى محل النصب اما على أنه نعت لمصدر محذوف أى لاتبطلوها ابطالا كابطال الذى (ينفق ماله رئاء الناس) واما على أنه حال من فاعل لا تبطلوا أى لاتبطلوها مشابهين الذى ينفق أى الذى يبطل انفاقه بالرياء وقيل من ضمير المصدر المقدر على ماهو رأى سيبويه وانتصاب رئاء اما على أنه علة لينفق أى لأجل رئائهم أو على أنه حال من فاعله أى ينفق ماله مرائيا والمراد به المنافق لقوله تعالى (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا (فمثله) الفاء لربط مابعدها بماقبلها أى فمثل المرائى فى الانفاق وحالته العجيبة (كمثل صفوان) أى حجر أملس (عليه تراب) أى شىء يسير منه (فأصابه وابل) أى مطر عظيم القطر (فتركه صلدا) أملس ليس عليه شىء من الغبار أصلا (لا يقدرون على شىء مما كسبوا) لاينتفعون بمافعلوا رئاء ولا يجدون له ثوابا قطعا كقوله تعالى فجعلناه هباء منثورا والجملة استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل لايقدرون الخ ومن ضرورة كون مثلهم كماذكر كون مثل من يشبههم وهم أصحاب المن والأذى كذلك والضميران الاخيران للموصول باعتبار المعنى كما فى قوله عز وجل وخضتم كالذى خاضوا لما أن المراد به الجنس أو الجمع أو الفريق كما أن الضمائر الأربعة السابقة له باعتبار اللفظ (والله لا يهدى القوم الكفرين) إلى الخير والرشاد والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله وفيه تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى

من خصائص الكفار ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) أى لطلب رضاه (وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) أى ولتثبيت بعض أنفسهم على الإيمان فمن تبعيضية كما فى قولهم هز من عطفه وحرك من نشاطه فان المال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فقد ثبتها كلها أو وتصديقا للاسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم فمن ابتدائية كما فى قوله تعالى حسدا من عند أنفسهم ويحتمل أن يكون المعنى وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه ويعضده قراءة من قرأ وتبيينا من أنفسهم وفيه تنبيه على أن حكمة الانفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال الذى هو رأس كل خطيئة (كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ) الربوة بالحركات الثلاث وقد قرئ بها المكان المرتفع أى مثل نفقتهم فى الزكاء كمثل بستان كائن بمكان مرتفع مأمون من أن يصطلمه البرد للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فان أشجار الربا تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا وأما الأراضى المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركود الرياح وقرىء بمثل حبة (أَصَابَهَا وَابِلٌ) مطر عظيم القطر (فَآتَتْ أُكُلَهَا) ثمرتها وقرىء بسكون الكاف تخفيفا (ضِعْفَيْنِ) أى مثلى ماكانت تثمر فى سائر الأوقات بسبب ما أصابها من الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل أربعة أمثال ونصبه على الحال من أكلها أى مضاعفا (فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها وقيل فيصيبها طل وهو المطر الصغير القطر وقيل فالذى يصيبها طل والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله تعالى لاتضيع بحال وان كانت تتفاوت باعتبار مايقارنها من الأحوال ويجوز أن يعتبر التمثيل بين حالهم باعتبار ماصدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير واليسير فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عند الله (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) لايخفى عليه شىء منه وهو ترغيب فى الاخلاص مع تحذير من الرياء ونحوه (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ) الود حب الشىء مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالهما والهمزة لانكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى لا لانكار الواقع كما فى قولك أتضرب أباك على أن مناط الإنكار ليس جميع ماتعلق به الود بل إنما هو اصابة الاعصار ومايتبعها من الاحتراق (أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ) وقرىء جنات (مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) أى كائنة منهما على أن يكون الأصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقى من المستتبعات لا على أن لا يكون فيها غيرهما كما ستعرفه والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة قال زهير:

كأن عينى فى غربى مقتلة ... من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الأرض المشتملة عليها والأول هو الانسب بقوله عز وجل (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) إذ على الثانى لابد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وكذا لابد من جعل اسناد الاحتراق اليها فيما سيأتى مجازيا والجملة فى محل الرفع على أنها صفة جنة كما أن قوله تعالى من نخيل وأعناب كذلك أو فى محل النصب على أنها حال منها لأنها موصوفة (لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) الظرف الأول خبر والثانى حال والثالث مبتدأ أى صفة للمبتدا قائمة مقامه أى له رزق من كل الثمرات كما فى قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم أى ومامنا أحد الا له الخ وليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو التكثير كما فى قوله تعالى وأوتيت من كل شىء (وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ) أى كبر السن الذى هو مظنة شدة الحاجة إلى منافعها ومئنة كمال العجز عن تدارك أسباب المعاش والواو حالية أى وقد أصابه الكبر (وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ) حال من الضمير فى أصابه أى أصابه الكبر والحال أن له ذرية صغارا لا يقدرون على الكسب وترتيب مبادى المعاش وقرىء

ضعاف (فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ) أى ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود (فِيهِ نَارٌ) شديدة (فَاحْتَرَقَتْ) عطف على فأصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل أعمال البر والحسنات ويضم اليها ما يحبطها من القوادح ثم يجدها يوم القيامة عند كمال حاجته إلى ثوابها هباء منثورا فى التحسر والتأسف عليها (كَذَٰلِكَ) توحيد الكاف مع كون المخاطب جمعا قد مر وجهه مرارا أى مثل ذلك البيان الواضح الجارى فى الظهور مجرى الأمور المحسوسة (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) كى تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العبر وتعملوا بموجبها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ) بيان لحال ما ينفق منه اثر بيان أصل الانفاق وكيفيته أى أنفقوا من حلال ما كسبتم وجياده لقوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ) أى من طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن فحذف لدلالة ما قبله عليه (وَلَا تَيَمَّمُوا) بفتح التاء أصله ولا تتيمموا وقرىء بضمها وقرىء ولا تأمموا والكل بمعنى القصد أى لا تقصدوا (الْخَبِيثَ) أى الردىء الخسيس وهو كالطيب من الصفات الغالبة التى لا تذكر موصوفاتها (مِنْهُ تُنْفِقُونَ) الجار متعلق بتنفقون والضمير للخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل تيمموا أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الانفاق عليه أو من الخبيث أى مختصا به الانفاق وأيا ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من انفاق الخبيث خاصة لا لتسويغ انفاقه مع الطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الخبيث والضمير للمال المدلول عليه بحسب المقام أو للموصولين على طريقة قوله كأنه فى الجلد توليع البهق أو للثانى وتخصيصه بذلك لما أن التفاوت فيه أكثر وتنفقون حال من الفاعل المذكور أى ولا تقصدوا الخبيث كائنا من المال أو مما كسبتم وما أخرجنا لكم أو مما أخرجنا لكم منفقين اياه وقوله تعالى (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ) حال على كل حال من واو تنفقون أى والحال أنكم لا تأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه (إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) أى الا وقت اغماضكم فيه أو الا باغماضكم فيه وهو عبارة عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمض بصره إذا غضه وقرىء على البناء للمفعول على معنى الا أن تحملوا على الاغماض وتدخلوا فيه أو توجدوا مغمضين وقرىء تغمضوا أو تغمضوا بضم الميم وكسرها وقيل تم الكلام عند قوله تعالى ولا تيمموا الخبيث ثم استؤنف فقيل على طريقة التوبيخ والتقريع منه تنفقون والحال أنكم لا تأخذونه الا إذا أغمضتم فيه ومآله الاستفهام الانكارى فكأنه قيل أمنه تنفقون الخ (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ) عن انفاقكم وانما يأمركم به لمنفعتكم وفى الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم على ما يصنعون من اعطاء الخبيث وايذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى فان اعطاء مثله انما يكون عادة عند اعتقاد المعطى أن الآخذ محتاج إلى ما يعطيه بل مضطر إليه (حَمِيدٌ) مستحق للحمد على نعمه العظام وقيل حامد بقبول الجيد والاثابة عليه (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) الوعد هو الاخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتبا على شىء من زمان أو غيره يستعمل فى الشر استعماله فى الخير قال تعالى النار وعدها الله الذين كفروا أى يعدكم فى الانفاق الفقر ويقول ان عاقبة انفاقكم أن تفتقروا وانما عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يضف مجىء الفقر إلى جهته للايذان بمبالغته فى الاخبار بتحقق مجيئه كأنه نزله فى تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب ارادته أو لوقوعه فى مقابلة وعده تعالى على طريقة المشاكلة وقرىء بضم الفاء والسكون وبضمتين وبفتحتين (وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) أى بالخصلة الفحشاء أى ويغريكم على البخل ومنع الصدقات اغراء الآمر للمأمور على فعل المأمور به والعرب تسمى البخل فاحشا قال طرفة بن العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقيل بالمعاصي والسيئات (وَٱللَّهُ يَعِدُكُم) أى فى الانفاق (مَّغْفِرَةً) لذنوبكم والجار فى قوله تعالى (مِنْهُ) متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لفخامتها التى أفادها تنكيرها أى مغفرة أى مغفرة كائنة منه عز وجل (وَفَضْلًا) صفته محذوفة لدلالة المذكور عليها كما فى قوله تعالى فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ونظائره أى وفضلا كائنا منه تعالى أى خلفا مما أنفقتم زائدا عليه فى الدنيا وفيه تكذيب للشيطان وقيل ثوابا فى الآخرة (وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ) قدرة وفضلا فيحقق ما وعدكم به من المغفرة واخلاف ما تنفقونه (عَلِيمٌ) مبالغ فى العلم فيعلم انفاقكم فلا يكاد يضيع أجركم أو يعلم ما سيكون من المغفرة والفضل فلا احتمال للخلف فى الوعد والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله (يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ) قال مجاهد الحكمة هى القرآن والعلم والفقه روى عن ابن نجيح أنها الاصابة فى القول والعمل وعن ابراهيم النخعى أنها معرفة معانى الأشياء وفهمها وقيل هى معرفة حقائق الأشياء وقيل هى الاقدام على الأفعال الحسنة الصائبة وعن مقاتل أنها تفسر فى القرآن بأربعة أوجه فتارة بمواعظ القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الاسرار ومرة بالعلم والفهم وأخرى بالنبوة ولعل الأنسب بالمقام ما ينتظم الأحكام المبينة فى تضاعيف الآيات الكريمة من أحد الوجهين الأولين ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها أى يبينها ويوفق للعلم والعمل بها (مَن يَشَآءُ) من عباده أن يؤتيها إياه بموجب سعة فضله وإحاطة علمه كما آتاكم ما بينه فى ضمن الآى من الحكم البالغة التى يدور عليها فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا إلى العمل بها والموصول مفعول أول ليؤتى قدم عليه الثانى للعناية به والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها (وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ) على بناء المفعول وقرىء على البناء للفاعل أى ومن يؤته الله الحكمة والاظهار فى مقام الاضمار لاظهار الاعتناء بشأنها وللاشعار بعلة الحكم (فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) أى أى خير كثير فانه قد خير له خير الدارين (وَمَا يَذَّكَّرُ) أى وما يتعظ بما أوتى من الحكمة أو وما يتفكر فيها (إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ) أى العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى مشايعة الهوى وفيه من الترغيب فى المحافظة على الأحكام الواردة فى شأن الانفاق ما لا يخفى والجملة إما حال أو اعتراض تذييلى (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ) بيان لحكم كلى شامل لجميع أفراد النفقات وما فى حكمها اثر بيان حكم ما كان منها فى سبيل الله وما اما شرطية أو موصولة حذف عائدها من الصلة أى وما أنفقتموه من نفقة أى أى نفقة كانت فى حق أو باطل فى سر أو علانية قليلة أو كثيرة (أَوْ نَذَرْتُم) النذر عقد الضمير على شيء والتزامه وفعله كضرب ونصر (مِّن نَّذْرٍ) أى نذر كان فى طاعة أو معصية بشرط أو بغير شرط متعلق بالمال أو بالأفعال كالصيام والصلاة ونحوهما (فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ) الفاء على الأول داخلة على الجواب وعلى الثانى مزيدة فى الخبر وتوحيد الضمير مع تعدد متعلق العلم لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بكلمة أو كما فى قولك زيد أو عمرو أكرمته ولا يقال أكرمتهما ولهذا صير إلى التأويل فى قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما بل يعاد الضمير تارة إلى المقدم رعاية للأولية كما فى قوله عز وعلا وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وأخرى إلى المؤخر رعاية للقرب كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا وحمل النظم على تأويلهما بالمذكور ونظائره أو على حذف الأول ثقة بدلالة الثانى عليه كما فى قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله وقوله:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

ونحوهما مما عطف فيه بالواو الجامعة تعسف مستغنى عنه نعم يجوز ارجاع الضمير إلى ما على تقدير كونها موصولة وتصدير الجملة بأن لتأكيد مضمونها إفادة لتحقيق الجزاء أى فانه تعالى يجازيكم عليه البتة ان خيرا فخير وان شرا فشر فهو ترغيب

وترهيب ووعد ووعيد (وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ) بالانفاق والنذر فى المعاصى أو بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذر أو بانفاق الخبيث أو بالرياء والمن والأذى وغير ذلك مما ينتظمه معنى الظلم الذى هو عبارة عن وضع الشىء فى غير موضعه الذى يحق أن يوضع فيه (مِنْ أَنصَارٍ) أى أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه لا شفاعة ولا مدافعة وايراد صيغة الجمع لمقابلة الظالمين أى وما لظالم من الظالمين من نصير من الأنصار والجملة استئناف مقرر لما قبله من الوعيد مفيد لفظاعة حال من يفعل ما يفعل من الظالمين لتحصيل الأعوان ورعاية الخلان (إِن تُبْدُوا الصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ) نوع تفصيل لبعض ما أجمل فى الشرطية وبيان له ولذلك ترك العطف بينهما أى ان تظهروا الصدقات فنعم شيأ ابداؤها بعد أن لم يكن رياء وسمعة وقرىء بفتح النون وكسر العين على الأصل وقرىء بكسر النون وسكون العين وقرىء بكسر النون واخفاء حركة العين وهذا فى الصدقات المفروضة وأما فى صدقة التطوع فالاخفاء أفضل وهى التى أريدت بقوله تعالى (وَإِن تُخْفُوهَا) أى تعطوها خفية (وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ) ولعل التصريح بايتائها الفقراء مع أنه واجب فى الابداء أيضا لما أن الاخفاء مظنة الالتباس والاشتباه فان الغنى ربما يدعى الفقر ويقدم على قبول الصدقة سرا ولا يفعل ذلك عند الناس (فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) أى فالاخفاء خير لكم من الابداء وهذا فى التطوع ومن لم يعرف بالمال وأما فى الواجب فالأمر بالعكس لدفع التهمة . عن ابن عباس رضى الله عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا (وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ) أى والله يكفر أو الاخفاء ومن تبعيضية أى شيئاً من سيئاتكم كما ستر تموها وقيل مزيدة على رأى الاخفش وقرىء بالتاء مرفوعا ومجزوما على أن الفعل للصدقات وقرىء بالنون مرفوعا عطفا على محل ما بعده الفاء أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ونحن نكفر أو على أنها جملة مبتدأة من فعل وفاعل وقرىء مجزوما عطفا على محل الفاء وما بعده لأنه جواب الشرط (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ) من الاسرار والاعلان (خَبِيرٌ) فهو ترغيب فى الاسرار (لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) أى لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الاتيان بما أمروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من القبائح المعدودة وإنما الواجب عليك الارشاد إلى الخير والحث عليه والنهى عن الشر والردع عنه بما أوحى اليك من الآيات والذكر الحكيم (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي) هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتما (مَن يَشَاءُ) هدايته إلى ذلك ممن يتذكر بما ذكر ويتبع الحق ويختار الخير والجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال فان الاخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبى صلى الله عليه وسلم مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به ما بعده من الشرطية وقيل لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الإسلام فنزلت أى ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم فى الإسلام فلا التفات حينئذ فى الكلام وضمير الغيبة للمعهودين من فقراء المشركين بل فيه تلوين فقط وقوله تعالى (وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ) على الأول التفات من الغيبة إلى خطاب المكلفين لزيادة هزهم نحو الامتثال وعلى الثانى تلوين للخطاب بتوجيهه اليهم وصرفه عن النبى صلى الله عليه وسلم وما شرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط مبينة ومخصصة له أى أى شىء تنفقوا كائن من مال (فَلِأَنفُسِكُمْ) أى فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ولا تنفقوا من الخبيث أو فنفعه الدينى لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيثا لدين من فقراء المشركين (وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) استثناء من أعم العلل أو أعم الاحوال أى ليست نفقتكم لشىء من الاشياء إلا لابتغاء وجه الله أو

ليست فى حال من الأحوال إلا حال ابتغاء وجه الله فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذى لا يوجه مثله إلى الله تعالى وقيل هو نفى فى معنى النهى (وَمَا تُنفِقُوا مِن خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ) أى أجره وثوابه أضعافا مضاعفة حسبما فصل فيما قبل فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن انفاقه على أحسن الوجوه وأجملها فهو تأكيد وبيان للشرطية السابقة أو يوف اليكم ما يخلفه وهو من نتائج دعائه عليه السلام بقوله اللهم اجعل للمنفق خلفا وللممسك تلفا وقيل حجت أسماء بنت أبى بكر فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا يتقون أن يرضخوا القراباتهم من المشركين وروى أن ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود ورضاع كانوا ينفقون عليهم قبل الإسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم فنزلت وهذا فى غير الواجب وأما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكافر وإن كان ذميا (وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) لا تنقصون شيئا مما وعدتم من الثواب المضاعف أو من الخلف (لِلْفُقَرَاءِ) متعلق بمحذوف ينساق اليه الكلام كما فى قوله عز وجل فى تسع آيات إلى فرعون أى اعمدوا للفقراء أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء أو صدقاتكم للفقراء (الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بالغزو والجهاد (لَا يَسْتَطِيعُونَ) لاشتغالهم به (ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ) أى ذهابا فيها للكسب والتجارة وقيل هم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحوا من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ) بحالهم (أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) أى من أجل تعففهم عن المسئلة (تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ) أى تعرف فقرهم واضطرارهم بما تعاين منهم من الضعف ورثاثة الحال والخطاب للرسول عليه السلام أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب مبالغة فى بيان وضوح فقرهم (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) أى الحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه من قولهم لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده والمعنى لا يسألونهم شيئا وإن سألوا لحاجة اضطرتهم اليه لم يلحوا وقيل هو نفى لكلا الأمرين جميعا على طريقة قوله : على لاحب لا يهتدى لمناره أى لا منار ولا اهتداء (وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو ترغيب فى التصدق لا سيما على هؤلاء (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) أى يعمون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة وقيل نزلت فى شأن الصديق رضى الله عنه حيث تصدق بأربعين ألف دينار عشرة آلاف منه بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرا وعشرة علانية وقيل فى على رضى الله عنه حين لم يكن عنده إلا أربعة دراهم فتصدق بكل واحد منها على وجه من الوجوه المذكورة ولعل تقديم الليل على النهار والسر على العلانية للايذان بمزية الاخفاء على الإظهار وقيل فى رباط الخيل والانفاق عليها (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ) خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وقيل للعطف والخبر محذوف أى ومنهم الذين الخ ولذلك جوز الوقف على علانية (وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) تقدم تفسيره (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا) أى يأخذونه والتعبير عنه بالأكل لما أن معظم ما قصد به ولشيوعه فى المطعومات مع ما فيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة فى المقدار أو فى الأجل حسبما فصل فى كتب الفقه وإنما كتب بالواو كالصلوة على لغة من يفخم فى أمثالها وزيدت الألف تشبيها بواو الجمع (لَا يَقُومُونَ) أى من قبورهم إذا بعثوا (إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ) أى إلا قياما كقيام المصروع وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط الضرب بغير استواء كخبط العشواء (مِنَ الْمَسِّ) أى الجنون وهذا أيضا من زعماتهم أن الجنى يمسه فيختلط عقله فلذلك يقال جن الرجل وهو متعلق بما قبله من الفعل المنفى أى لا يقومون من المس الذى بهم بسبب أكلهم الربا أو بيقوم أو بيتخبطه فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلاف عقولهم بل لأن الله

تعالى أربى فى بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف (ذٰلك) إشارة إلى ماذكر من حالهم وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بفظاعة المشار اليه (بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربٰوا) أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لافضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ماقيمته درهم بدرهمين بل جعلوا الربا أصلا فى الحل وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما فان أحد الدرهمين فى الأول ضائع حتما وفى الثانى منجبر بمساس الحاجة إلى السلعة أو بتوقع رواجها (وأحل الله البيع وحرم الربٰوا) إنكار من جهة الله تعالى لتسويتهم وإبطال للقياس لوقوعه فى مقابلة النص مع ما أشير اليه من عدم الاشتراك فى المناط والجلة ابتدائية لامحل لها من الإعراب (فمن جاءه موعظة) أى فمن بلغه وعظ وزجر كالنهى عن الربا وقرىء جاءته (من ربه) متعلق بجاءه أو بمحذوف وقع صفة لموعظة والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة للاشعار بكون مجىء الموعظة للتربية (فانتهى) عطف على جاءه أى فاتعظ بلاتراخ وتبع النهى (فله ما سلف) أى ماتقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه وما مرتفع بالظرف ان جعلت من موصولة وبالابتداء ان جعلت شرطية على رأى سيبويه لعدم اعتماد الظرف على ماقبله (وأمره إلى الله) يجازيه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق النية وقيل يحكم فى شأنه ولا اعتراض لكم عليه (ومن عاد) أى إلى تحليل الربا (فأولٰئك) إشارة إلى من عاد والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى عاد باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد (أصحٰب النار) أى ملازموها (هم فيها خٰلدون) ماكثون فيها أبدا والجلة مقررة لما قبلها (يمحق الله الربٰوا) أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه (ويربى الصدقٰت) يضاعف ثوابها ويبارك فيها ويزيد المال الذى أخرجت منه الصدقة . روى عنه صلى الله عليه وسلم أن الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربى أحدكم مهره وعنه عليه الصلاة والسلام مانقصت زكاة من مال قط (والله لا يحب) أى لا يرضى لأن الحب مختص بالتوابين (كل كفار) مصر على تحليل المحرمات (أثيم) منهمك فى ارتكابه (إن الذين ءامنوا) بالله ورسوله وبما جاءهم به (وعملوا الصٰلحٰت وأقاموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة) تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما فى الصالحات لانافتهما على سائر الأعمال الصالحة على طريقة ذكر جبريل وميكال عقيب الملائكة عليهم السلام (لهم أجرهم) جملة من مبتدأ وخبر واقعة خبرا لأن أى لهم أجرهم الموعود لهم وقوله تعالى (عند ربهم) حال من أجرهم وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد لطف وتشريف لهم (ولا خوف عليهم) من مكروه آت (ولاهم يحزنون) من محبوب فات (يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله) أى قوا أنفسكم عقابه (وذروا ما بقى من الربٰوا) أى واتركوا بقايا ماشرطتم منه على الناس تركا كليا (إن كنتم مؤمنين) على الحقيقة فان ذلك مستلزم لامتثال ما أمرتم به البتة وهو شرط حذف جوابه ثقة بما قبله أى إن كنتم مؤمنين فاتقوا وذروه الخ . روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش فطالبوهم عند المحل بالمال والربا فنزلت (فإن لم تفعلوا) أى ما أمرتم به من الاتقاء وترك البقايا إما مع إنكار حرمته وإما مع الاعتراف بها (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فاعلموا بها من أذن بالشىء إذا علم به إما على الأول فكحرب المرتدين واما على الثانى فكحرب البغاة . وقرىء فآذنوا أى فأعلموا غيركم قيل هو من الاذان وهو الاستماع فانه من طرق العلم وقرىء فأيقنوا وهو مؤيد لقراءة العامة وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لفخامتها أى بنوع من الحرب عظيم لايقادر قدره كائن من عند الله ورسوله روى أنه لما نزلت قالت ثقيف لايدلنا بحرب الله ورسوله (وإن تبتم) من الارتباء مع الايمان بحرمتها بعدما سمعتموه من الوعيد (فلكم رءوس

أموالكم) تأخذونها كملا (لا تَظْلِمُونَ) غرماءكم بأخذ الزيادة والجملة إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب أو حال من الضمير فى لكم والعامل ما تضمنه الجار من الاستقرار (وَلَا تُظْلَمُونَ) عطف على ماقبله أى لا تظلمون أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ومن ضرورة تعليق هذا الحكم بتوبتهم عدم ثبوته عند عدمها لأن عدمها إن كان مع انكار الحرمة فهم المرتدون وما لهم المكسوب فى حال الردة فىء للمسلمين عند أبى حنيفة رضى الله عنه وكذا سائر أموالهم عند الشافعى وعندنا هو لورثتهم ولا شىء لهم على كل حال وإن كان مع الاعتراف بها فان كان لهم شوكة فهم على شرف القتل لم تسلم لهم رؤسهم فكيف برؤس أموالهم وإلا فكذلك عند ابن عباس رضى الله عنهما فانه يقول من عامل الربا يستتاب وإلا ضرب عنقه وأما عند غيره فهم محبوسون إلى أن تظهر توبتهم لا يمكنون من التصرفات أصلا فالم يتوبوا لم يسلم لهم شىء من أموالهم بل إنما يسلم بموتهم لورثتهم (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ) أى إن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة على أن كان تامة وقرىء ذا عسرة على أنها ناقصة (فَنَظِرَةٌ) أى فالحكم نظرة أو فعليكم نظرة أو فلتكن نظرة وهى الانظار والامهال وقرىء فناظره أى فالمستحق ناظره أى منتظره أو فصاحب نظرته على طريق النسب وقرىء فناظره أمرا من المفاعلة أى فسامحه بالنظرة (إِلَى مَيْسَرَةٍ) أى إلى يسار وقرىء بضم السين وهما لغتان كمشرقة ومشرقة وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كما فى قوله وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا (وَأَنْ تَصَدَّقُوا) بحذف إحدى التاءين وقرىء بتشديد الصاد أى وأن تتصدقوا على معسرى غرمائكم بالابراء (خَيْرٌ لَكُمْ) أى أكثر ثوابا من الانظار أو خير مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ودوامه فهو ندب إلى أن يتصدقوا برؤس أموالهم كلا أو بعضا على غرمائهم المعسرين كقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى وقيل المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه السلام لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) جوابه محذوف أى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتموه (وَاتَّقُوا يَوْمًا) هو يوم القيامة وتنكيره للتفخيم والتهويل وتعليق الاتقاء به للمبالغة فى التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال (تُرْجَعُونَ فِيهِ) على البناء للمفعول من الرجع وقرىء على البناء للفاعل من الرجوع والأول أدخل فى التهويل وقرىء بالياء على طريق الالتفات وقرىء تردون وكذا تصيرون (إِلَى اللَّهِ) لمحاسبة أعمالكم (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ) من النفوس والتعميم للمبالغة فى تهويل اليوم أى تعطى كملا (مَا كَسَبَتْ) أى جزاء ما عملت من خير أو شر (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) حال من كل نفس تفيد أن المعاقبين وإن كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين فى ذلك لما أنه من قبل أنفسهم وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الافراد أوفق بحال الكسب . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما وقيل أحدا وثمانين وقيل سبعة أيام وقيل ثلاث ساعات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ) شروع فى بيان حال المداينة الواقعة فى تضاعيف المعاوضات الجارية فيما بينهم ببيع السلع بالنقود بعد بيان حال الربا أى إذا داين بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطيا أو آخذا وفائدة ذكر الدين دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة أو التنبيه على تنوعه إلى الحال والمؤجل وأنه الباعث على الكتبة وتعيين المرجع للضمير المنصوب المتصل بالأمر (إِلَى أَجَلٍ) متعلق بتداينتم أو بمحذوف وقع صفة لدين (مُسَمًّى) بالأيام أو الأشهر ونظائرهما مما يفيد العلم ويرفع الجهالة لا بالحصاد والدياس ونحوهما مما لا يرفعها (فَاكْتُبُوهُ) أى الدين بأجله لأنه أوثق وأرفع للنزاع والجمهور على استحبابه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح فى السلف (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ) بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين لمن يتولاها اثر الأمر بها اجمالا وحذف المفعول

اما التعينه أو للقصد على إيقاع نفس الفعل أى ليفعل الكتابة وقوله تعالى بينكم للايذان بأن الكاتب ينبغى أن يتوسط بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفى بكلام أحدهما وقوله تعالى (بِالْعَدْلِ) متعلق بمحذوف هو صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين لا يزيد ولا ينقص وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجىء كتابه موثوقا معدلا بالشرع ويجوز أن يكون حالا منه أى ملتبسا بالعدل وقيل متعلق بالفعل أى وليكتب بالحق (وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ) أى ولا يمتنع أحد من الكتاب (أَنْ يَكْتُبَ) كتاب الدين (كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ) على طريقة ما علمه من كتبه الوثائق أو كما بينه بقوله تعالى بالعدل أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى وأحسن كما احسن الله إليك (فَلْيَكْتُبْ) تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن ابائها تأكيدا لها ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر على أن يكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة (وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ) الإملال هو الإملاء أى وليكن المملى من عليه الحق لأنه المشهود عليه فلابد أن يكون هو المقر (وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ) جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة فى التحذير أى وليتق المملى دون الكاتب كما قيل لقوله تعالى (وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ) أى من الحق الذى يمليه على الكاتب (شَيْئًا) فانه الذى يتوقع منه البخس خاصة وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما وقد فعل ذلك حيث أمر بالعدل وإنما شدد فى تكليف المملى حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهى عن البخس لما فيه من الدواعى إلى المنهى عنه فان الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف ما فى ذمته بما أمكن (فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ) صرح بذلك فى موضع الاضمار لزيادة الكشف والبيان لا لأن الأمر والنهى لغيره (سَفِيهًا) ناقص العقل مبذرا مجازفا (أَوْ ضَعِيفًا) صبيا أو شيخا مختلا (أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ) أى غير مستطيع للاملاء بنفسه لخرس أو عى أو جهل أو غير ذلك من العوارض (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ) أى الذى يلى أمره ويقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم (بِالْعَدْلِ) أى من غير نقص ولا زيادة لم يكلف بعين ما كلف به من عليه الحق لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البخس (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ) أى اطلبوهما ليتحملا الشهادة على ما جرى بينكم من المداينة وتسميتهما شهيدين لتنزيل المشارف منزلة الكائن (مِنْ رِجَالِكُمْ) متعلق باستشهدوا ومن ابتدائية أو بمحذوف وقع صفة لشهيدين ومن تبعيضية أى شهيدين كائنين من رجال المسلمين الأحرار إذ الكلام فى معاملاتهم فان خطابات الشرع لا تنتظم العبيد بطريق العبارة كما بين فى موضعه وأما إذا كانت المداينة بين الكفرة أو كان من عليه الحق كافرا فيجوز استشهاد الكافر عندنا (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا) أى الشهيدان جميعا على طريقة نفى الشمول لا شمول النفى (رَجُلَيْنِ) اما لاعوازهما أو لسبب آخر من الأسباب (فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) أى فليشهد رجل وامرأتان أو فرجل وامرأتان يكفون وهذا فيما عدا الحدود والقصاص عندنا وفى الأموال خاصة عند الشافعى (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ) متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل وامرأتان أى كائنون مرضيين عندكم وتخصيصهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره فى كل شهيد لقلة اتصاف النساء به وقيل نعت لشهيدين أى كائنين ممن ترضون ورد بأنه يلزم الفصل بينهما بالأجنبى وقيل بدل من رجالكم بتكرير العامل ورد بما ذكر من الفصل وقيل متعلق بقوله تعالى فاستشهدوا فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين وبين تعليله وقوله عز وجل (مِنَ الشُّهَدَاءِ) متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول أى ممن ترضونهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم وثقتكم بهم وإدراج النساء فى الشهداء بطريق التغليب (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) تعليل لاعتبار العدد فى النساء والعلة فى الحقيقة هى التذكير ولكن الضلال لما

كان سببا له نزل منزلته كما فى قولك أعددت السلاح أن يجىء عدو فأدفعه كأنه قيل لاجل أن تذكر احداهما الأخرى ان ضلت الشهادة بأن نسيتها ولعل إيثار ماعليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الابهام والمبالغة فى الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال باحداهما بعينها والتذكير بالأخرى وقرىء فتذكر من الاذكار وقرىء فتذاكر وقرىء أن تضل على الشرط فتذكر بالرفع كقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) لأداء الشهادة أو لتحملها وتسميتهم شهداء قبل التحمل لما مر من تنزيل المشارف منزلة الواقع وما مزيدة . عن قتادة أنه كان الرجل يطوف فى الحواء العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد فنزلت (ولا تسأموا) أى لاتملوا من كثرة مداينا تكم (أن تكتبوه) أى الدين أو الحق أو الكتاب وقيل كنى به عن الكسل الذى هو صفة المنافق كما ورد فى قوله تعالى وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لايقول المؤمن كسلت (صغيرا أو كبيرا) حال من الضمير أى حال كونه صغيرا أو كبيرا أى قليلا أو كثيرا أو مجملا أو مفصلا (إلى أجله) متعلق بمحذوف وقع حالا من الهاء فى تكتبوه أى مستقرا فى الذمة إلى وقت حلوله الذى أقر به المديون (ذلكم) إشارة إلى ما أمر به من الكتب والخطاب للمؤمنين (أقسط) أى أعدل (عند الله) أى فى حكمه تعالى (وأقوم للشهادة) أى أثبت لها وأعون على إقامتها وهما مبنيان من أقسط وأقام فانه قياسى عند سيبويه أو من قاسط بمعنى ذى قسط وقويم وإنما صحت الواو فى أقوم كما صحت فى التعجب لجموده (وأدنى ألا ترتابوا) وأقرب إلى انتفاء ريبكم فى جنس الدين وقدره وأجله وشهوده ونحو ذلك (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم) استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أى لكن وقت كون تداينكم أو تجارتكم تجارة حاضرة بحضور البدلين تديرونها بينكم بتعاطيهما يدا بيد (فليس عليكم جناح ألا تكتبوها) أى فلا بأس بأن لاتكتبوها لبعده عن التنازع والنسيان وقرىء برفع تجارة على أنها اسم كان وحاضرة صفتها وتديرونها خبرها أو على أنها تامة (وأشهدوا إذا تبايعتم) أى هذا التبايع أو مطلقا لأنه أحوط والأوامر الواردة فى الآية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل للوجوب ثم اختلف فى أحكامها ونسخها (ولا يضار كاتب ولا شهيد) نهى عن المضارة محتمل للبناءين كما ينبىء عنه قراءة من قرأ ولا يضارر بالكسر والفتح وهو نهيهما عن ترك الاجابة والتغيير والتحريف فى الكتبة والشهادة أو نهى الطالب عن الضرار بهما بأن يعجلهما عن مهمهما أو يكلفهما الخروج عما حد لهما أو لا يعطى الكاتب جعله وقرىء بالرفع على أنه نفى فى معنى النهى (وإن تفعلوا) ما نهيتم عنه من الضرار (فإنه) أى فعلكم ذلك (فسوق بكم) أى خروج عن الطاعة ملتبس بكم (واتقوا الله) فى مخالفة أوامره ونواهيه التى من جملتها نهيه عن المضارة (ويعلمكم الله) أحكامه المتضمنة لمصالحكم (والله بكل شىء عليم) فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لادخال الروعة وتربية المهابة وللتنبيه على استقلال كل منها بمعنى على حياله فان الأولى حث على التقوى والثانية وعد بالانعام والثالثة تعظيم لشأنه تعالى (وإن كنتم على سفر) أى مسافرين أو متوجهين إليه (ولم تجدوا كاتبا) فى المداينة وقرىء كتابا وكتبا وكتابا (فرهن مقبوضة) أى فالذى يستوثق به أو فعليكم أو فليؤخذ أو فالمشروع رهان مقبوضة وليس هذا التعليق لاشتراط السفر فى شرعية الارتهان كما حسبه مجاهد والضحاك لأنه صلى الله عليه وسلم رهن درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعا من شعير أخذه لأهله بل لإقامة التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتبة فى السفر الذى هو مظنة إعوازها وإنما لم يتعرض لحال الشاهد لما أنه فى حكم الكاتب توثقا وإعوازا والجمهور على وجوب القبض فى تمام الرهن غير مالك وقرىء فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون وقرىء بسكون الهاء تخفيفا (فإن أمن بعضكم بعضا)

أى بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان وقرىء فان أومن بعضكم أى آمنه الناس ووصفوه بالأمانة قيل فيكون انتصاب بعضاً حينئذ على نزع الخافض أى على متاع بعض (فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ) وهو المديون وإنما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقا للاعلام ولحمله على الأداء (أَمَٰنَتَهُۥ) أى دينه وإنما سمى أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرىء ايتمن بقلب الهمزة ياء وقرىء بادغام الياء فى التاء وهو خطأ لأن المنقلبة من الهمزة لاتدغم لأنها فى حكمها (وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ) فى رعاية حقوق الأمانة وفى الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالا يخفى (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ) أيها الشهود أو المديونون أى شهادتهم على أنفسهم عند المعاملة (وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ) آثم خبر ان وقلبه مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل يأثم قلبه أو مرتفع بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبر ان واسناد الاثم إلى القلب لأن الكتمان مما اقترفه ونظيره نسبة الزنا إلى العين والأذن أو للمبالغة لأنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الافعال كأنه قيل تمكن الاثم فى نفسه وملك أشرف مكان فيه وفاق سائر ذنوبه. عن ابن عباس رضى الله عنهما ان أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله تعالى فقد حرم الله عليه الجنة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وقرىء قلبه بالنصب كما فى سفه نفسه وقرىء أثم قلبه أى جعله آثما (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) فيجازيكم به ان خيرا فخير وان شرا فشر (لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) من الامور الداخلة فى حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من أولى العلم وغيرهم أى كلها له تعالى خلقا وملكا وتصرفا لاشركة لغيره فى شىء منها بوجه من الوجوه (وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ) من السوء والعزم عليه بأن تظهروه للناس بالقول أو بالفعل (أَوْ تُخْفُوهُ) بأن تكتموه منهم ولا تظهروه بأحد الوجهين ولا يندرج فيه مالا يخلو عنه البشر من الوساوس وأحاديث النفس التى لاعقد ولا عزيمة فيها إذ التكليف بحسب الوسع (يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ) يوم القيامة وهو حجة على منكرى الحساب من المعتزلة والروافض وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للاعتناء به وأما تقديم الإبداء على الإخفاء على عكس مافى قوله عز وجل قل ان تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله فلما أن المعلق بما فى أنفسهم ههنا هو المحاسبة والاصل فيها الاعمال البادية وأما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالاعمال الخافية كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته متعال عن أن يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شىء فى نفسه فى أى طور كان علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا لايختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة خلا أن مرتبة الإخفاء متقدمة على مرتبة الإبداء إذ ما من شىء يبدى إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقد مر فى تفسير قوله تعالى أو لا يعلمون أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون (فَيَغْفِرُ) بالرفع على الاستئناف أى فهو يغفر بفضله (لِمَن يَشَآءُ) أى يغفر له (وَيُعَذِّبُ) بعدله (مَن يَشَآءُ) أن يعذبه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه وقرىء بجزم الفعلين عطفا على جواب الشرط وقرىء بالجزم من غير فاء على أنهما بدل من الجواب بدل البعض أو الاشتمال ونظيره الجزم على البدلية من الشرط فى قوله:

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وادغام الراء فى اللام لحن (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) تذييل مقرر لمضمون ماقبله فان كمال قدرته تعالى على جميع الأشياء موجب لقدرته سبحانه على ماذكر من المحاسبة وما فرع عليه من المغفرة والتعذيب (ءَامَنَ الرَّسُولُ) لما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الشأن هدى للمتصفين بما فصل هناك من الصفات الفاضلة التى من جملتها الايمان به وبما أنزل قبله من الكتب الإلهية وأنهم حائزون لأثرتى

الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخوصهم ولا تصريح بتحقق اتصافهم بها إذ ليس فيما يذكر فى حيز الصلة حكم بالفعل وعقب ذلك ببيان حال من كفر به من المجاهرين والمنافقين ثم شرح فى تضاعيفها من فنون الشرائع والأحكام والمواعظ والحكم وأخبار سوالف الأمم وغير ذلك ما تقتضى الحكمة شرحه عين فى خاتمتها المتصفون بها وحكم باتصافهم بها على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الإيمان وحسن الطاعة وذكر صلى الله عليه وسلم بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما أن حق الشهادة الباقية على مر الدهور أن لا يخاطب بها المشهود له ولم يتعرض ههنا لبيان فوزهم بمطالبهم التى من جملتها ما حكى عنهم من الدعوات الآتية ايذانا بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به لاسيما بعد ما نص عليه فيما سلف وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه عليه السلام صاحب كتاب مجيد وشرع جديد تمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾ ومزيد توضيح لاندراجه فى الرسل المؤمن بهم عليهم السلام والمراد بما أنزل اليه مايعم كله وكل جزء من أجزائه ففيه تحقيق لكيفية إيمانه صلى الله عليه وسلم وتعيين لعنوانه أى آمن عليه السلام بكل ماأنزل اليه ﴿ مِن رَّبِّهِ ﴾ إيمانا تفصيليا متعلقا بجميع مافيه من الشرائع والأحكام والقصص والمواعظ وأحوال الرسل والكتب وغير ذلك من حيث أنه منزل منه تعالى وأما الإيمان بحقية أحكامه وصدق أخباره ونحو ذلك فمن فروع الإيمان به من الحيثية المذكورة وفى هذا الاجمال اجلال لمحله عليه الصلاة والسلام واشعار بأن تعلق إيمانه بتفاصيل ماأنزل اليه واحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور بحيث لاحاجة إلى ذكره أصلا وكذا فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبيه على أن انزاله اليه تربية وتكميل له عليه السلام ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى الفريق المعروفون بهذا الاسم فاللام عهدية لاموصولة لافضائها إلى خلو الكلام عن الجدوى وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ كُلٌّ ﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿ ءَامَنَ ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدا الأول والرابط بينهما الضمير الذى ناب منابه التنوين وتوحيد الضمير فى آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المراد بيان إيمان كل فرد فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى وكل أتوه داخرين وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله لتأكيد الاشعار بما بين إيمانه عليه السلام المبنى على المشاهدة والعيان وبين إيمانهم الناشىء عن الحجة والبرهان من التفاوت البين والاختلاف الجلى كأنهما متخالفان من كل وجه حتى فى هيئة التركيب الدال عليهما ومافيه من تكرير الاسناد لما فى الحكم بإيمان كل واحد منهم على الوجه الآتى من نوع خفاء محوج إلى التقوية والتأكيد أى كل واحد منهم آمن ﴿ بِاللَّهِ ﴾ وحده من غير شريك له فى الألوهية والمعبودية ﴿ وَمَلَائِكَتِهِ ﴾ أى من حيث أنهم عباد مكرمون له تعالى من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بانزال الكتب والقاء الوحى فان مدار الإيمان بهم ليس من خصوصيات ذواتهم فى أنفسهم بل هو من اضافتهم اليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلوح به الترتيب فى النظم ﴿ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أى من حيث مجيئهما من عنده تعالى لارشاد الخلق إلى ماشرع لهم من الدين بالأوامر والنواهى لكن لا على الاطلاق بل على أن كل واحد من تلك الكتب منزل منه تعالى إلى رسول معين من أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام حسبما فصل فى قوله تعالى قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم الآية ولا على أن مناط الإيمان خصوصية ذلك الكتاب أو ذلك الرسول بل على أن الإيمان بالكل مندرج فى الإيمان بالكتاب المنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومستند اليه لما تلى من الآية الكريمة ولا على أن أحكام الكتب السالفة وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقى منها معتبر بالاضافة اليها بل على أن أحكام كل واحد منها كانت حقة ثابتة إلى ورود كتاب آخر ناسخ له وأن مالم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام

ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب المصون عن النسخ إلى يوم القيامة وإنما لم يذكر ههنا الإيمان باليوم الآخر كما ذكر فى قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين لاندراجه فى الايمان بكتبه وقرىء وكتابه على أن المراد به القرآن أو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع فى أفراد الجنس والجمع فى جموعه ولذلك قيل الكتاب أكثر من الكتب وهذا نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى بما أنزل اليه من ربه اقتصر عليه ايذانا بكفايته فى الإيمان الإجمالى المتحقق فى كل فرد من أفراد المؤمنين من غير نفى لزيادة ضرورة اختلاف طبقاتهم وتفاوت إيمانهم بالأمور المذكورة فى مراتب التفصيل تفاوتا فاحشا فان الإجمال فى الحكاية لايوجب الاجمال فى المحكى كيف لا وقد أجمل فى حكاية إيمانه عليه السلام بما أنزل اليه من ربه مع بداهة كونه متعلقا بتفاصيل مافيه من الجلائل والدقائق ثم أن الأمور المذكورة حيث كانت من الأمور الغيبية التى لايوقف عليها إلا من جهة العليم الخبير كان الإيمان بها مصداقا لما ذكر فى صدر السورة الكريمة من الايمان بالغيب وأما الايمان بكتبه تعالى فاشارة إلى مافى قوله تعالى يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك هذا هو اللائق بشأن التنزيل والحقيق بمقداره الجليل وقد جوز أن يكون قوله تعالى والمؤمنون معطوفا على الرسول فيوقف عليه والضمير الذى عوض عنه التنوين راجع إلى المعطوفين معا كأنه قيل آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل اليه من ربه ثم فصل ذلك وقيل كل واحد من الرسول والمؤمنين آمن بالله الخ خلا أنه قدم المؤمن به على المعطوف اعتناء بشأنه وايذانا بأصالته عليه السلام فى الايمان به ولا يخفى أنه مع خلوه عما فى الوجه الأول من كمال اجلال شأنه عليه السلام وتفخيم إيمانه مخل بجزالة النظم الكريم لانه ان حمل كل من الإيمانين على مايليق بشأنه عليه السلام من حيث الذات ومن حيث التعلق بالتفاصيل استحال اسنادهما إلى غيره عليه السلام وضاع التكرير وان حملا على مايليق بشأن آحاد الامة كان ذلك حطا لرتبته العلية عليه السلام وأما حملهما على مايليق بكل واحد ممن نسبا اليه من الآحاد ذاتا وتعلقا بأن يحملا بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على الايمان العيانى المتعلق بجميع التفاصيل وبالنسبة إلى آحاد الأمة على الايمان المكتسب من جهته عليه السلام اللائق بحالهم فى الاجمال والتفصيل فاعتساف بين ينبغى تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله وقوله تعالى (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) فى حيز النصب بقول مقدر على صيغة الجمع رعاية لجانب المعنى منصوب على أنه حال من ضمير آمن أو مرفوع على أنه خبر آخر لكل أى يقولون لانفرق بينهم بأن نؤمن ببعض منهم ونكفر بآخرين بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم قيدوا به إيمانهم تحقيقا للحق وتخطئة لأهل الكتابين حيث أجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام أيضا على أن مقصودهم الاصلى ابراز إيمانهم بما كفروا به من رسالته عليه السلام لا اظهار موافقتهم لهم فيما آمنوا به وهذا كما ترى صريح فى أن القائلين آحاد المؤمنين خاصة اذ لا يمكن أن يسند اليه عليه السلام أن يقول لا أفرق بين أحد من رسله وهو يريد به اظهار إيمانه برسالة نفسه وتصديقه فى دعواها وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وإنما لم يعكس مع تحقق التلازم من الطرفين لما أن الأصل فى تفريق المفرقين هو الرسل وكفرهم بالكتب متفرع على كفرهم بهم وقرىء بالياء على اسناد الفعل إلى كل وقرىء لايفرقون حملا على المعنى كما فى قوله تعالى وكل أتوه داخرين فالجملة نفسها حال من الضمير المذكور وقيل خبر ثان لكل كما قيل فى القول المقدر فلا بد من اعتبار الكلية بعد النفى دون العكس إذ المراد شمول النفى لانفى الشمول والكلام فى همزة أحد وفى دخول بين عليه قدمر تفصيله عند قوله تعالى لانفرق بين أحد منهم وفيه من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ماليس

فى أن يقال لا نفرق بين رسله وإيثار إظهار الرسل على الإضمار الواقع مثله فى قوله تعالى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم إما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة فى الحكم أو للاشعار بعلة عدم التفريق أو للايماء إلى عنوانه لأن المعتبر عدم التفريق من حيث الرسالة دون سائر الحيثيات الخاصة (وَقالوا) عطف على آمن وصيغة الجمع باعتبار جانب المعنى وهو حكاية لامتثالهم بالأوامر إثر حكاية إيمانهم (سَمِعْنا) أى فهمنا ما جاءنا من الحق وتيقنا بصحته (وَأَطَعْنا) ما فيه من الأوامر والنواهى وقيل سمعنا أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك (غُفرانكَ رَبَّنا) أى اغفر لنا غفرانك أو نسألك غفرانك ذنوبنا المتقدمة أو ما لا يخلو عنه البشر من التقصير فى مراعاة حقوقك وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى إلى الاجابة والقبول والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة اليهم للمبالغة فى التضرع والجؤار (وَإِلَيْكَ المَصِيرُ) أى الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة لما أن الرجوع للحساب والجزاء وقوله تعالى (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها) جملة مستقلة جىء بها اثر حكاية تلقيهم لتكاليفه تعالى بحسن الطاعة إظهاراً لما له تعالى عليهم فى ضمن التكليف من محاسن آثار الفضل والرحمة ابتداء لا بعد السؤال كما سيجىء. هذا وقد روى أنه لما نزل قوله تعالى وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوه عليه السلام ثم بركوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصوم والحج والجهاد وقد أنزل اليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فقرأها القوم فأنزل الله عز وجل آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه إلى قوله تعالى غفرانك ربنا واليك المصير فسؤلهم الغفران المعلق بمشيئته عز وجل فى قوله فيغفر لمن يشاء ثم أنزل الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها تهويناً للخطب عليهم ببيان أن المراد بما فى أنفسهم ما عزموا عليه من السوء خاصة لا ما يعم الخواطر التى لا يستطاع الاحتراز عنها والتكليف الزام ما فيه كلفة ومشقة والوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه أى سنته تعالى أنه لا يكلف نفسا من النفوس إلا ما يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود فضلا منه تعالى ورحمة لهذه الأمة كقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقرىء وسعها بالفتح وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال لا على امتناعه وقوله تعالى (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) للترغيب فى المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الاخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة وأنها تعود اليها لا إلى غيرها ويستتبع الاخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها فان اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعى إلى تحصيله واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته أى لها ثواب ما كسبت من الخير الذى كلفت فعله لا لغيرها استقلالا أو اشتراكا ضرورة شمول كلمة ما لكل جزء من أجزاء مكسوبها وعليها لا على غيرها بأحد الطريقين المذكورين عقاب ما اكتسبت من الشر الذى كلفت تركه وإيراد الاكتساب فى جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشىء من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها فى طلبه (رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا) شروع فى حكاية بقية دعواتهم اثر بيان سر التكليف أى لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة ونحوهما مما يدخل تحت التكليف أو بأنفسهما من حيث ترتبهما على ما ذكر أو مطلقا إذ لا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا فان المعاصى كالسموم فكما أن تناولها ولو سهواً أو خطأ مؤد إلى الهلاك فتعاطى المعاصى أيضا لا يبعد أن يفضى إلى العقاب وإن لم يكن عن عزيمة ووعده تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فان ذلك من آثار فضله ورحمته

كما ينبىء عنه الرفع فى قوله عليه السلام رفع عن أمتى الخطأ والنسيان . وقد روى أن اليهود كانوا إذا نسوا شيأ عجلت لهم العقوبة فدعاؤهم بعد العلم بتحقق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة فى ذلك كما فى قوله تعالى ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك (رَبَّنا وَلا تحمل عَلَينا إصراً) عطف على ماقبله وتوسيط النداء بينهما لابراز مزيد الضراعة والاصر العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه مكانه والمراد به التكاليف الشاقة وقيل الاصر الذنب الذى لاتوبة له فالمعنى اعصمنا من اقترافه وقرىء آصارا وقرىء ولاتحمل بالتشديد للمبالغة (كما حَمَلتهُ عَلى الذينَ مِن قبلِنا) فى حيز النصب على أنه صفة لمصدر محذوف أى حملا مثل حملك إياه على من قبلنا أو على أنه صفة لاصرا أى إصرا مثل الاصر الذى حملته على من قبلنا وهو ما كلفه بنو اسرائيل من بخع النفس فى التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة فى يوم وليلة وصرف ربع المال للزكاة وغير ذلك من التشديدات فانهم كانوا إذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالا لهم قال الله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الأمة عن أمثال ذلك وأنزل فى شأنهم ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم وقال عليه السلام بعثت بالحنيفية السهلة السمحة وعن العقوبات التى عوقب بها الأولون من المسخ والخسف وغير ذلك قال عليه السلام رفع عن أمتى الخسف والمسخ والغرق (رَبَّنا وَلا تُحمِّلنا مَالا طَاقةَ لَنا بِهِ) عطف على ماقبله واستعفاء عن العقوبات التى لاتطاق بعد الاستعفاء عما يؤدى اليها التفريط فيه من التكاليف الشاقة التى لايكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل لاتكلفنا تلك التكاليف ولاتعاقبنا بتفريطنا فى المحافظة عليها فيكون التعبير عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار مايؤدى اليها وقيل هو تكرير للأول وتصوير للاصر بصورة مايستطاع مبالغة وقيل هو استعفاء عن التكليف بما لاتفى به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلا على جوازه عقلا وإلا لماسئل التخلص عنه والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى مفعول ثان (وَاعفُ عَنَّا) أى آثار ذنوبنا (وَاغفِر لَنا) واسترعيوبنا ولاتفضحنا على رؤس الأشهاد (وَارحَمنا) وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما أن التخلية سابقة على التحلية (أنتَ مَولانا) سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولى أمورنا (فانصُرنا عَلى القَومِ الكَـفِرينَ) فان من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء والمراد به عامة الكفرة وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله حسبما أمر فى تضاعيف السورة الكريمة غاية مطالبهم . روى أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة قد فعلت . وعنه عليه السلام أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى عام من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل . وعنه عليه السلام من قرأ آيتين من سورة البقرة كفتاه وهو حجة على من استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغى أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام السورة التى يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فان تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال عليه السلام السحرة .

سورة آل عمران مدنية مائتا آية

﴿ بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ ﴾

(الم اللهُ لا إلهَ إلا هوَ) قد سلف أن ما لاتكون من هذه الفواتح مفردة كصاد وقاف ونون ولا موازنة لمفرد كحاميم وطاسين وياسين الموازنة لقابيل وهابيل وكطاسين ميم الموازنة لدارابجرد حسبما ذكره سيبويه فى الكتاب فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الإعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وإن لزمها التقاء

الساكنين لما أنه مغتفر فى باب الوقف قطعاً لحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله أبو بكر رضى الله عنه رواية عن عاصم وأما مافيها من الفتح على القراءة المشهورة فانما هى حركة همزة الجلالة ألقيت على الميم لتدل على ثبوتها إذ ليس اسقاطها للدرج بل للتخفيف فهى بيقاء حركتها فى حكم الثابت المبتدا به والميم بكون الحركة لغيرها فى حكم الوقف على السكون دون الحركة كما توهم واعترض بأنه غير معهود فى الكلام وقيل هى حركة لالتقاء السواكن التى هى الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها وأنت خبير بأن سقوطها مبنى على وقوعها فى الدرج وقد عرفت أن سكون الميم وقفى موجب لانقطاعها عما بعدها مستدع لثبات الهمزة على حالها لا كما فى الحروف والأسماء المبنية على السكون فان حقها الاتصال بما بعدها وضعا واستعمالا فتسقط بها همزة الوصل وتحرك أعجازها لالتقاء الساكنين ثم ان جعلت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها من الإعراب كسائر الفواتح وان جعلت اسما للسورة فحلها اما الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف وأما النصب على اضمار فعل يليق بالمقام كاذكر أواقرأ أو نحوهما وأما الرفع بالابتداء أو النصب بتقدير فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه فلا مساغ لشىء منها لما أن مابعدها غير صالح للخبرية ولا للاقسام عليه فان الاسم الجليل مبتدأ ومابعده خبره والجملة مستأنفة أى هو المستحق للعبودية لاغير وقوله عز وجل (الحَيُّ القَيُّومُ) خبر آخر له أو لمبتدأ محذوف أى هو الحى القيوم لاغيره وقيل هو صفة للمبتدا أو بدل منه أو من الخبر الأول أو هو الخبر وماقبله اعتراض بين المبتدأ والخبر مقرر لمايفيده الاسم الجليل أو حال منه وأياما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى لمامر من أن معنى الحى الباقى الذى لاسبيل عليه للموت والفناء ومعنى القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ومن ضرورة اختصاص ذينك الوصفين به تعالى اختصاص استحقاق المعبودية به تعالى لاستحالة تحققه بدونهما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم فى ثلاث سور فى سورة البقرة الله لا إله إلا هو الحى القيوم وفى آل عمران الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم وفى طه وعنت الوجوه للحى القيوم وروى أن بنى اسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الأعظم قال الحى القيوم ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا أراد احياء الموتى يدعو ياحى ياقيوم ويقال إن آصف بن برخيا حين أتى بعرش بلقيس دعا بذلك وقرىء الحى القيام وهذا رد على من زعم أن عيسى عليه السلام كان ربا فانه روى أن وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم اليهم يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الايهم وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرفوه وموّلوه وأكرموه لما شاهدوا من علمه واجتهاده فى دينهم وبنوا له كنائس فلما خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينا بغلة أبى حارثة تسير إذ عثرت فقال كرز تعسا للابعد يريد به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبو حارثة بل تعست أمك فقال كرز ولم ياأخى قال إنه والله النبى الذى كنا ننتظره فقال له كرز فما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا قال لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمنا به لأخذوا منا كلها فوقع ذلك فى قلب كرز وأضمره إلى أن أسلم فكان يحدث بذلك فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فاخرة يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مارأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا فى المسجد فقال عليه السلام دعوهم فصلوا إلى المشرق ثم تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيى الموتى ويبرىء الاسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه

فيطير وتارة أخرى هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم وتارة أخرى أنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان واحدا لقال فعلت وقلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا قالوا أسلمنا قبلك قال عليه السلام كذبتم يمنعكم من الاسلام دعاؤكم لله تعالى ولدا قالوا إن لم يكن ولدا لله فمن أبوه فقال عليه السلام ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه فقالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن ربنا قيوم على كل شيء يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال عليه السلام فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً قالوا لا فقال عليه السلام ألستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء قالوا بلى قال عليه السلام فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء وأن ربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى قال عليه السلام فكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا وأبوا إلا جحودا فأنزل الله عز وجل من أول السورة إلى نيف وثمانين آية تقريراً لما احتج به عليه السلام عليهم وأجاب به عن شبههم وتحقيقا للحق الذى فيه يمترون (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ) أى القرآن عبر عنه باسم الجنس إيذانا بكمال تفوقه على بقية الأفراد فى حيازة كمالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والانجيل وصيغة التفعيل للدلالة على التنجيم وتقديم الظرف على المفعول لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والجملة إما مستأنفة أو خبر آخر عن الاسم الجليل أو هى الخبر وقوله تعالى لا إله إلا هو اعتراض أو حال وقوله عز وجل الحى القيوم صفة أو بدل كما مر وقرىء نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع الكتاب فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنفة وقيل يجوز كونها خبرا بحذف العائد أى نزل الكتاب من عنده (بِالْحَقِّ) حال من الفاعل أو المفعول أى نزله محقا فى تنزيله على ما هو عليه أو ملتبسا بالعدل فى أحكامه أو بالصدق فى أخباره التى من جملتها خبر التوحيد وما يليه وفى وعده ووعيده أو بما يحقق أنه من عند الله تعالى من الحجج البينة (مُصَدِّقًا) حال من الكتاب بالاتفاق على تقدير كون قوله تعالى بالحق حالا من فاعل نزل وأما على تقدير حاليته من الكتاب فهو عند من يجوز تعدد الحال بلا عطف ولا بدلية حال منه بعد حال وأما عند من يمنعه فقد قيل إنه حال من محل الحال الأولى على البدلية وقيل من المستكن فى الجار والمجرور لأنه حينئذ يتحمل ضمير القيامة مقام عامله المتحمل له فيكون حالا متداخلة وعلى كل حال فهى حال مؤكدة وفائدة تقييد التنزيل بها حث أهل الكتابين على الإيمان بالمنزل وتنبيههم على وجوبه فان الإيمان بالمصدق موجب للايمان بما يصدقه حتما (لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل نحو فعال لما يريد أى مصدقا لما قبله من الكتب السالفة وفيه إيماء إلى حضورها وكمال ظهور أمرها بين الناس وتصديقه إياها فى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتنزيه الله عز وجل عما لا يليق بشأنه الجليل والأمر بالعدل والإحسان وكذا فى أنباء الأنبياء والأمم الخالية وكذا فى نزوله على النعت المذكور فيها وكذا فى الشرائع التى تختلف باختلاف الأمم والأعصار ظاهر لا ريب فيه وأما فى الشرائع المختلفة باختلافهما فمن حيث أن أحكام كل واحد منها واردة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة إلى خصوصيات الأمم المكلفة بها مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم (وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ) تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله تأكيداً لما قبله وتمهيدا لما بعده إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعة ونباهة ويزداد فى القلوب قبولا ومهابة ويتفاحش حال من كفر بهما فى الشناعة واستتباع ما سيذكر من العذاب الشديد والانتقام أى أنزلهما جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وإنما

لم يذكر الآن الكلام فى الكتابين لا فيمن أنزلا عليه وهما إسمان أعجميان الأول عبرى والثانى سريانى ويعضده القراءة بفتح همزة الانجيل فان أفعيل ليس من أبنية العرب والتصدى لاشتقاقهما من الورى والنجل تعسف (مِن قَبْلُ) متعلق بأنزل أى أنزلهما من قبل تنزيل الكتاب والتصريح به مع ظهور الأمر للمبالغة فى البيان (هُدًى لِلنَّاسِ) فى حيز النصب على أنه علة للانزال أى أنزلهما لهداية الناس أو على أنه حال منهما أى أنزلهما حال كونهما هدى لهم والافراد لما أنه مصدر جعلا نفس الهدى مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذوى هدى ثم ان أريد هدايتهما بجميع مافيهما من حيث هو جميع فالمراد بالناس الأمم الماضية من حين نزولهما إلى زمان نسخهما وإن أريد هدايتهما على الاطلاق وهو الانسب بالمقام فالناس على عمومه لما أن هدايتهما بماعدا الشرائع المنسوخة من الأمور التى يصدقهما القرآن فيها ومن جملتها البشارة بنزوله وبمبعث النبى صلى الله عليه وسلم تعم الناس قاطبة (وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ) الفرقان فى الأصل مصدر كالغفران أطلق على الفاعل مبالغة والمراد به ههنا اما جنس الكتب الإلهية عبر عنها بوصف شامل لما ذكر منها ومالم يذكر على طريق التتميم بالتعميم اثر تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر كما فى قوله عز وجل فأنبتنا فيها حبا وعنبا إلى قوله تعالى وفاكهة واما نفس الكتب المذكورة أعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريقة العطف بتكرير لفظ الانزال تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله سبحانه ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وأما الزبور فانه مشتمل على المواعظ الفارقة بين الحق والباطل الداعية إلى الخير والرشاد الزاجرة عن الشر والفساد وتقديم الانجيل عليه مع تأخره عنه نزولا لقوة مناسبته للتوراة فى الاشتمال على الأحكام والشرائع وشيوع اقترانهما فى الذكر وأما القرآن نفسه ذكر بنعت مادح له بعدما ذكر باسم الجنس تعظيما لشأنه ورفعا لمكانه وقد بين أولا تنزيله التدريجى إلى الأرض وثانيا إنزاله الدفعى إلى السماء الدنيا أو أريد بالانزال القدر المشترك العارى عن قيد التدريج وعدمه وأما المعجزات المقرونة بانزال الكتب المذكورة الفارقة بين المحق والمبطل (إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللهِ) وضع موضع الضمير العائد إلى مافصل من الكتب المنزلة أو منها ومن المعجزات الآيات مضافة إلى الاسم الجليل تعيينا لحيثية كفرهم وتهويلا لأمرهم وتأكيدا لاستحقاقهم العذاب الشديد وايذانا بأن ذلك الاستحقاق لا يشترط فيه الكفر بالكل بل يكفى فيه الكفر ببعض منها والمراد بالموصول اما أهل الكتابين وهو الانسب بمقام المحاجة معهم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أوليا أى إن الذين كفروا بما ذكر من آيات الله الناطقة بالحق لاسيما بتوحيده تعالى وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل كلا أو بعضا مع مابها من النعوت الموجبة للايمان بها بأن كذبوا بالقرآن أصالة وبسائر الكتب الإلهية تبعا لما أن تكذيب المصدق موجب لتكذيب مايصدقه حتما أو أصالة أيضا بأن كذبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد والتنزيه وآياتها المبشرة بنزول القرآن ومبعث النبى صلى الله عليه وسلم وغيروها (لَهُمْ) بسبب كفرهم بها (عَذَابٌ) مرتفع اما على الفاعلية من الجار والمجرور أو على الابتداء والجملة خبر ان والتنوين للتفخيم أى أى عذاب (شَدِيدٌ) لا يقادر قدره وهو وعيد جىء به اثر تقرير أمر التوحيد الذاتى والوصفى والإشارة إلى ما ينطق بذلك من الكتب الإلهية حملا على القبول والاذعان وزجرا عن الكفر والعصيان (وَاللهُ عَزِيزٌ) لا يغالب يفعل مايشاء ويحكم مايريد (ذُو انتِقَامٍ) عظيم خارج عن أفراد جنسه وهو افتعال من النقمة وهى السطوة والتسلط يقال انتقم منه إذا عاقبه بجنايته والجملة اعتراض تذييلى مقرر للوعيد ومؤكد له (إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ) استئناف كلام سيق لبيان سعة علمه تعالى وإحاطته بجميع ما فى العالم من الأشياء التى من جملتها ما صدر عنهم من الكفر والفسوق سرا أو جهرا اثر بيان كمال قدرته وعزته تربية لما قبله من الوعيد

وتنبيها على أن الوقوف على بعض المغيبات كما كان فى عيسى عليه السلام بمعزل من بلوغ رتبة الصفات الالهية وإنما عبر عن علمه عز وجل بما ذكر بعدم خفائه عليه كما فى قوله سبحانه وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ايذانا بأن علمه تعالى بمعلوماته وإن كانت فى أقصى الغايات الخفية ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارنه شائبة خفاء بوجه من الوجوه كما فى علوم المخلوقين بل هو فى غاية الوضوح والجلاء والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الاسناد لتقوية الحكم وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشىء مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه فى سياق النفى أى لا يخفى عليه شىء ما كائن فى الأرض ولا فى السماء أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئية منهما وقيل متعلقة بيخفى وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطراه وتقديم الأرض على السماء لاظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفى بينهما للدلالة على الترقى من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا وقوله عز وجل (هوَ الذِى يُصَوِّرُكُمْ فى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) جملة مستأنفة ناطقة ببعض أحكام قيوميته تعالى وجريان أحوال الخلق فى أطوار الوجود حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة مقررة لكمال علمه مع زيادة بيان لتعلقه بالأشياء قبل دخولها تحت الوجود ضرورة وجوب علمه تعالى بالصور المختلفة المترتبة على التصور المترتب على المشيئة قبل تحققها بمراتب وكلمة فى متعلقة بيصوركم أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المفعول أى يصوركم وأنتم فى الأرحام مضغ وكيف معمول ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية اما من فاعل يصوركم أى يصوركم كائنا على مشيئته تعالى أى مريدا أو من مفعوله أى يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها فى قبول الأحوال المتغايرة من كونكم نطفا ثم علقا ثم مضغا غير مخلقة ثم مخلقة وفى الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والانوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات وفيه من الدلالة على بطلان زعم من زعم ربوبية عيسى عليه السلام وهو من جملة أبناء النواسيت المتقلبين فى هذه الاطوار على مشيئة البارى عز وجل وكمال ركاكة عقولهم مالا يخفى وقرىء تصوركم على صيغة الماضى من التفعل أى صوركم لنفسه وعبادته (لا إلٰهَ إلا هوَ) إذ لا يتصف بشىء مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالالوهية أحد ليتوهم ألوهيته (العَزِيزُ الحَكِيمُ) المتناهى فى القدرة والحكمة ولذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع (هوَ الذِى أنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَٰبَ) شروع فى ابطال شبههم الناشئة عما نطق به القرآن فى نعت عيسى عليه السلام بطريق الاستئناف اثر بيان اختصاص الربوبية ومناطها به سبحانه وتعالى تارة بعد أخرى وكون كل من عداه مقهورا تحت ملكوته تابعا لمشيئته . قيل أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تزعم يا محمد أن عيسى كلمة الله وروح منه قال عليه السلام بلى قالوا فحسبنا ذلك فنعى عليهم زيغهم وفتنتهم وبين أن الكتاب مؤسس على أصول رصينة وفروع مبنية عليها ناطقة بالحق قاضية ببطلان ما هم عليه من الضلال والمراد بالانزال القدر المشترك المجرد عن الدلالة على قيد التدريج وعدمه ولام الكتاب للعهد وتقديم الظرف عليه لما أشير اليه فيما قبل من الاعتناء بشأن بشارته عليه السلام بتشريف الانزال عليه ومن التشويق إلى ما أنزل فان النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما بعد الاشعار برفعة شأنه أو بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن وليتصل به تقسيمه إلى قسميه (مِنْهُ ءَايَٰتٌ) الظرف خبر وآيات مبتدأ أو بالعكس بتأويل مر تحقيقه فى قوله تعالى ومن الناس من يقول الآية والاول أوفق بقواعد الصناعة والثانى أدخل فى جزالة المعنى إذ المقصود الاصلى انقسام الكتاب إلى القسمين المعهودين لا كونهما من الكتاب فتذكر والجملة مستأنفة أو فى حيز النصب على الحالية من الكتاب أى هو الذى أنزل الكتاب كائنا على هذه الحال أى منقسما إلى محكم ومتشابه أو الظرف هو الحال وحده وآيات مرتفع به على الفاعلية (مُحْكَمَٰتٌ) صفة آيات أى قطعية

الدلالة على المعنى المراد محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال والاشتباه (هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ) أى أصل فيه وعمدة يرد إليها غيرها فالمراد بالكتاب كله والاضافة بمعنى فى كما فى واحد العشرة لا بمعنى اللام فان ذلك يؤدى إلى كون الكتاب عبارة عما عدا المحكمات والجملة اما صفة لما قبلها أو مستأنفة وانما أفرد الام مع تعدد الآيات لما أن المراد بيان أصلية كل واحدة منها أو بيان أن الكل بمنزلة آية واحدة كما فى قوله تعالى وجعلناها وابنها آية للعالمين وقيل اكتفى بالمفرد عن الجمع فى قول الشاعر : بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

أى وأما جلودها (وَأُخَرُ) نعت لمحذوف معطوف على آيات أى وآيات أخر وهى جمع أخرى وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الأخر أو عن آخر من (مُتَشَٰبِهَٰتٌ) صفة لأخر وفى الحقيقة صفة للمحذوف أى محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها من بعض فى استحقاق الارادة بها ولا يتضح الأمر الا بالنظر الدقيق والتأمل الانيق فالتشابه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى وصف به الآيات على طريقة وصف الدال بوصف المدلول وقيل لما كان من شأن الأمور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها سمى كل ما لا يهتدى إليه العقل متشابها وان لم يكن ذلك بسبب التشابه كما أن المشكل فى الأصل ما دخل فى أشكاله وأمثاله ولم يعلم بعينه ثم أطلق على كل غامض وان لم يكن غموضه من تلك الجهة وإنما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم التى نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة فينالوا بها وباتعاب القرائح فى استخراج مقاصدها الرائقة ومعانيها اللائقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان إلى المعارج القاصية وأما قوله عز وجل الر كتاب أحكمت آياته فمعناه أنها حفظت من اعتراء الخلل أو من النسخ أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على حقيتها أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها وقوله تعالى كتابا متشابها مثانى معناه متشابه الأجزاء أى يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة النظم وحقيقة المدلول (فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) أى ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة قال الراغب الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين وفى جعل قلوبهم مقراً للزيغ مبالغة فى عدولهم عن سنن الرشاد واصرارهم على الشر والفساد (فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ) معرضين عن المحكمات أى يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحريا للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى بل (ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ) أى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه كما نقل عن الوفد (وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) أى وطلب أن يأولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة والحال أنهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عز وجل (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ) فانه حال من ضمير فيتبعون باعتبار العلة الأخيرة أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال أنه مخصوص به تعالى وبمن وفقه له من عباده الراسخين فى العلم أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الأقدام وفى تعليل الاتباع بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقية ايذان بأنهم ليسوا من التأويل فى شىء وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لأنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ومن وقف على الا الله فسر المتشابه بما استأثر الله عز وعلا بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية أو بما دل القاطع على عدم ارادة ظاهره ولم يدل على ما هو المراد به (يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ) أى بالمتشابه وعدم التعرض لايمانهم بالمحكم لظهوره أو بالكتاب والجملة على الأول استئناف موضح لحال الراسخين أو حال منه وعلى الثانى خبر لقوله تعالى والراسخون وقوله تعالى (كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) من تمام المقول مقرر لما قبله ومؤكد له أى كل واحد منه ومن المحكم أو كل واحد من متشابهه ومحكمه منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما أو آمنا به وبحقيته على مراده تعالى (وَمَا يَذَّكَّرُ) حق التذكر (إِلَّا أُولُوا

الألباب) أى العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء الزائغة وهو تذييل سيق من جهته تعالى مدحا للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى مابه استعدوا للاهتداء إلى تأويله من تجرد العقل عن غواشى الحس وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها جواب عما تشبث به النصارى من نحو قوله تعالى وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه على وجه الاجمال وسيجىء الجواب المفصل بقوله تعالى ان مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (ربنا لاتزغ قلوبنا) من تمام مقالة الراسخين أى لاتزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لاترضيه قال صلى الله عليه وسلم قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه على الحق وان شاء أزاغه عنه وقيل معناه لاتبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا (بعد إذ هديتنا) أى إلى الحق والتأويل الصحيح أو إلى الإيمان بالقسمين وبعد نصب بلا تزغ على الظرف وإذا فى محل الجر باضافته اليه خارج من الظرفية أى بعد وقت هدايتك ايانا وقيل أنه بمعنى أن (وهب لنا من لدنك) كلا الجارين متعلق بهب وتقديم الأول لما مر مرارا ويجوز تعلق الثانى بمحذوف هو حال من المفعول أى كائنة من لدنك ومن لابتداء الغاية المجازية ولدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليست مرادفة لعند إذ قد تكون فضلة وكذا لدى وبعضهم يخصها بظرف المكان وتضاف إلى صريح الزمان كما فى قوله : تنتفض الرعدة فى ظهيرى من لدن الظهر إلى العصير ولا تقطع عن الاضافة بحال وأكثر ماتضاف إلى المفردات وقد تضاف إلى أن وصلتها كما فى قوله :

ولم تقطع أصلا من لدن أن وليتنا قرابة ذى رحم ولا حق مسلم

أى من لدن ولايتك ايانا وقد تضاف إلى الجملة الاسمية كما فى قوله : تذكر نعماه لدن أنت يافع وإلى الجملة الفعلية أيضاً كما فى قوله : لزمنا لدن سالمتمونا وفاقكم فلايك منكم للخلاف جنوح

وقلما تخلو عن من كما فى البيتين الأخيرين (رحمة) واسعة تزلفنا اليك ونفوز بها عندك أو توفيقا للثبات على الحق وتأخيرا لمفعول الصريح عن الجارين لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فان ماحقه التقديم إذا أخر تبق النفس مترقبة لوروده لاسيما عند الاشعار بكونه من المنافع باللام فاذا أورده يتمكن عندها فضل تمكن (إنك أنت الوهاب) تعليل للسؤال أو لاعطاء المسئول وأنت امامبتدأ أو فصل أو تأكيد لاسم ان واطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شىء (ربنا إنك جامع الناس ليوم) أى لحساب يوم أو لجزاء يوم حذف المضاف وأقيم مقامه المضاف اليه تهويلا له وتفظيعا لما يقع فيه (لاريب فيه) أى فى وقوعه ووقوع مافيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة وأنها المقصد الأسنى عندهم والتأكيد لاظهار ماهم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة (إن الله لايخلف الميعاد) تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر واظهار الاسم الجليل مع الالتفات لابراز كمال التعظيم والاجلال الناشىء من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف مافى آخر السورة الكريمة فانه مقام طلب الانعام كما سيأتى وللاشعار بعلة الحكم فان الألوهية منافية للاخلاف وقد جوز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين والميعاد مصدر كالميقات واستدل به الوعيدية وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو بدلائل مفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقا (إن الذين كفروا) اثر مابين الدين الحق والتوحيد وذكر أحوال الكتب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم وكيفية إيمان العلماء الراسخين به شرع فى بيان حال من كفر به والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الأصناف وقيل وفد نجران أو اليهود من قريظة والنضير أو

مشركو العرب (لَن تُغْنِىَ عَنهُم) أى لن تنفعهم وقرىء بالتذكير وبسكون الياء جدا فى استثقال الحركة على حروف اللين (أمْوَالُهُم) التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار (وَلا أوْلادُهُم) الذين بهم يتناصرون فى الأمور المهمة وعليهم يعولون فى الخطوب الملمة وتأخير الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفى بينهما إما لعراقة الأولاد فى كشف الكروب أو لأن الأموال أول عدة يفزع اليها عند نزول الخطوب (مِنَ اللهِ) من عذابه تعالى (شَيْئاً) أى شيأ من الاغناء وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله أو بدل طاعته كما فى قوله تعالى إن الظن لا يغنى من الحق شيأ أى بدل الحق ومنه قوله ولا ينفع ذا الجد منك الجد أى لا ينفعه جده بدلك أى بدل رحمتك كما فى قوله تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى وأنت خبير بأن احتمال سد أموالهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى أو طاعته مما لا يخطر ببال أحد حتى يتصدى لنفيه والأول هو الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم والأنسب بما بعده من قوله تعالى (وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) ومن قوله تعالى فأخذهم الله أى أولئك المتصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذى تسعر به فان أريد بيان حالهم عند التسعير فايثار الجملة الاسمية للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وإلا فهو للايذان بأن حقيقة حالهم ذلك وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم فى الدنيا وقود النار بأعيانهم وفيه من الدلالة على كمال ملابستهم بالنار ما لا يخفى وهم يحتمل الابتداء وأن يكون ضمير الفصل والجملة إما مستأنفة مقررة لعدم الاغناء أو معطوفة على خبر ان وأياما كان ففيها تعيين للعذاب الذى بين أن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم منه شيأ وقرىء وقود النار بضم الواو وهو مصدر أى أهل وقودها (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) الدأب مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه وتعب غلب استعماله فى معنى الشأن والحال والعادة ومحل الكاف الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقد جوز النصب بلن تغنى أو بالوقود أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم وأنت خبير بأن المذكور فى تفسير الدأب إنما هو التكذيب والأخذ من غير تعرض لعدم الاغناء لا سيما على تقدير كون من بمعنى البدل كما هو رأى المجوز ولا لإيقاد النار فيحمل على التعليل وهو خلاف الظاهر على أنه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بالأجنبى على تقدير النصب بلن تغنى وهو قوله تعالى وأولئك هم وقود النار إلا أن يجعل استئنافا معطوفا على خبر ان فالوجه هو الرفع على الخبرية أى دأب هؤلاء فى الكفر وعدم النجاة من أخذ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون (وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة فالموصول فى محل الجر عطفا على ما قبله وقوله تعالى (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريق الاستئناف المبنى على السؤال كأنه قيل كيف كان دأبهم فقيل كذبوا بآياتنا وقوله تعالى (فَأَخَذَهُمُ اللهُ) تفسير لدأبهم الذى فعل بهم أى فأخذهم الله وعاقبهم ولم يجدوا من بأس الله تعالى محيصا فدأب هؤلاء الكفرة أيضا كدأبهم وقيل كذبوا الخ حال من آل فرعون والذين من قبلهم على إضمار قد أى دأب هؤلاء كدأب أولئك وقد كذبوا الخ وأما كونه خبرا عن الموصول كما قيل فمما يذهب برونق النظم الكريم والالتفات إلى التكلم أولا للجرى على سنن الكبرياء وإلى الغيبة ثانيا بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة (بِذُنُوبِهِمْ) ان أريد بها تكذيبهم بالآيات فالباء للسببية جىء بها تأكيدا لما تفيده الفاء من سببية ما قبلها لما بعدها وإن أريد بها سائر ذنوبهم فالباء للملابسة جىء بها للدلالة على أن لهم ذنوبا أخر أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها كما فى قوله تعالى وتزهق أنفسهم وهم كافرون والذنب فى الأصل التلو والتابع وسمى الجريمة ذنبا لأنها تتلو أى تتبع عقابها فاعلها (وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الاخذ وتكملة له (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) المراد بهم اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين

يوم بدر قالوا والله إنه النبي الأمي الذي بشرنا به موسى وفي التوراة نعته وهموا باتباعه فقال بعضهم لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة له أخرى فلما كان يوم أحد شكوا وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الاشرف في ستين راكبا إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش فقالوا لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس فنزلت أي قل لهم (سَتُغْلَبُونَ) البتة عن قريب في الدنيا وقد صدق الله عز وجل وعده بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة وأما ما روى عن مقاتل من أنها نزلت قبل بدر وأن الموصول عبارة عن مشركي مكة ولذلك قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وبئس المهاد فيؤدي إلى انقطاع الآية الكريمة عما بعدها لنزوله بعد وقعة بدر (وَتُحْشَرُونَ) أي في الآخرة (إِلَىٰ جَهَنَّمَ) وقرىء الفعلان بالياء على أنه عليه السلام أمر بأن يحكي لهم ما أخبر الله تعالى به من وعيدهم بعبارته كأنه قيل أدّ إليهم هذا القول (وَبِئْسَ الْمِهَادُ) اما من تمام ما يقال لهم أو استئناف لتهويل جهنم وتفظيع حال أهلها والمخصوص بالذم محذوف أي وبئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لانفسهم (قَدْ كَانَ لَكُمْ) جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المأمور بمجيء به لتقرير مضمون ما قبله وتحقيقه والخطاب لليهود أيضا والظرف خبر كان على أنها ناقصة ولتوسطه بينها وبين اسمها ترك التأنيث كما في قوله :

إن امرأ غره منكن واحدة   بعدي وبعدك في الدنيا لمغرور

على أن التأنيث ههنا غير حقيقي أو هو متعلق بكان على أنها تامة وإنما قدم على فاعلها لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أي والله قد كان لكم أيها المغترون بعددهم وعددهم (ءَايَةٌ) عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم إنكم ستغلبون (فِي فِئَتَيْنِ) أي فرقتين أو جماعتين فان المغلوبة منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها وقد لقيها ما لقيها فسيصيبكم ما يصيبكم ومحل الظرف الرفع على أنه صفة لآية وقيل النصب على خبرية كان والظرف الاول متعلق بمحذوف وقع حالا من آية (الْتَقَتَا) في حيز الجر على أنه صفة فئتين أي تلاقتا بالقتال يوم بدر (فِئَةٌ) بالرفع خبر مبتدا محذوف أي احداهما فئة كما في قوله :   إذا مت كان الناس حزبين شامت   وآخر مثن بالذي كنت أصنع

أي أحدهما شامت والآخر مثن وقوله :   حتى إذا ما استقل النجم في غلس   وغودر البقل ملوي ومحصود

والجملة مع ما عطف عليها مستأنفة لتقرير ما في الفئتين من الآية وقوله تعالى (تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) في محل الرفع على أنه صفة فئة كأنه قيل فئة مؤمنة ولكن ذكر مكانه من أحكام الايمان ما يليق بالمقام مدحا لهم واعتدادا بقتالهم وإيذانا بأنه المدار في تحقق الآية وهي رؤية القليل كثيرا وقرىء يقاتل على تأويل الفئة بالقوم أو الفريق (وَأُخْرَىٰ) نعت لمبتدا محذوف معطوف على ما حذف من الجملة الاولى أي وفئة أخرى وإنما نكرت والقياس تعريفها كقرينتها لوضوح أن التفريق لنفس المثنى المقدم ذكره وعدم الحاجة إلى التعريف وقوله تعالى (كَافِرَةٌ) خبر المبتدا المحذوف وإنما لم توصف هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الاولى إسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار وإيذانا بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة وقيل كل من المتعاطفين بدل من الضمير في التقتا وما بعدهما صفة فلا بد من ضمير محذوف عائد إلى المبدل منه مسوغ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضميره أي فئة منهما تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة ويجوز أن يكون كل منهما مبتدأ وما بعدهما خبرا أي فئة منهما تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة وقيل كل منهما مبتدأ محذوف

الخبر أى منهما فئة تقاتل الخ وقرىء فئة بالجر على البدلية من فئتين بدل بعض من كل وقد مر أنه لابد من ضمير عائد إلى المبدل منه ويسمى بدلا تفصيليا كما فى قول كثير عزة :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وقرىء فئة الخ بالنصب على المدح أو الذم أو على الحالية من ضمير التقتا كأنه قيل التقتا مؤمنة وكافرة فيكون فئة وأخرى توطئة لما هو الحال حقيقة إذ المقصود بالذكر وصفاهما كما فى قولك جاءنى زيد رجلا صالحا (يَرَوْنَهُمْ) أى يرى الفئة الأخيرة الفئة الأولى وإيثار صيغة الجمع للدلالة على شمول الرؤية لكل واحد واحد من آحاد الفئة والجملة فى محل الرفع على أنها صفة للفئة الأخيرة أو مستأنفة مبينة لكيفية الآية (مِّثْلَيْهِمْ) أى مثل عدد الرائين قريبا من ألفين إذ كانوا قريبا من ألف . كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وفيهم أبو سفيان وأبو جهل وكان فيهم من الخيل والإبل مائة فرس وسبعمائة بعير ومن أصناف الاسلحة عدد لا يحصى . عن محمد بن أبى الفرات عن سعد بن أوس أنه قال أسر المشركون رجلا من المسلمين فسألوه كم كنتم قال ثلثمائة وبضعة عشر قالوا ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا أو مثلى عدد المرئيين أى ستمائة ونيفا وعشرين حيث كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين على بن أبى طالب رضى الله عنه وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة الخزرجى وكان فى العسكر تسعون بعيرا وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبى مرثد وست أدرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أراهم الله عز وجل كذلك مع قلتهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم مددا لهم منه سبحانه كما أمدهم بالملائكة عليهم السلام وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قللهم فى أعينهم عند ترائيهما ليجترئوا عليهم ولا يهربوا من أول الأمر حين ينجيهم الهرب وقيل يرى الفئة الأولى الفئة الأخيرة مثلى أنفسهم مع كونهم ثلاثة أمثالهم ليثبتوا ويطمئنوا بالنصر الموعود فى قوله تعالى فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين والأول هو الأولى لأن رؤية المثلين غير متعينة من جانب المؤمنين بل قد وقعت رؤية المثل بل أقل منه أيضا فانه روى أن ابن مسعود رضى الله عنه قال قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا اليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ثم قللهم الله تعالى أيضا فى أعينهم حتى رأتهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم . قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى تراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا فلو أريد رؤية المؤمنين المشركين أقل من عددهم فى نفس الامر كما فى سورة الأنفال لكانت رؤيتهم اياهم أقل من أنفسهم أحق بالذكر فى كونها آية من رؤيتهم مثليهم على أن ابانة آثار قدرة الله تعالى وحكمته للكفرة باراءتهم القليل كثيرا والضعيف قويا والقاء الرعب فى قلوبهم بسبب ذلك أدخل فى كونها آية لهم وحجة عليهم وأقرب إلى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتهم الكفرة المشاهدين للحال وكذا تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمفعول فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا سواء جعل الجملة صفة أو مستأنفة أولى من العكس هذا ما تقتضيه جزالة التنزيل على قراءة الجمهور ولا ينبغى جعل الخطاب لمشركى مكة كما قيل أما إن جعل الوعيد عبارة عن هزيمة بدر كما صرحوا به فظاهر لا سترة به وأما إن جعل عبارة عن هزيمة أخرى فلأن الفئة التى شاهدت تلك الآية الهائلة هم المخاطبون حينئذ فالتعبير عنهم بفئة مبهمة تارة وموصوفة أخرى ثم اسناد المشاهدة اليها مع كون اسنادها إلى المخاطبين أوقع فى إلزام الحجة وأدخل فى التبكيت مما لا داعى اليه وبهذا يتبين حال جعل الخطاب

الثانى للمؤمنين وأما قراءة ترونهم بتاء الخطاب فظاهرها وان اقتضى توجيه الخطاب الثانى إلى المشركين لكنه ليس بنص فى ذلك لانه وإن اندفع به المحذور الأخير فالأول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الاتحاد فى الكفر والاتفاق فى الكلمة لاسيما بعد ماوقع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف من العهد والميثاق فأسندت الرؤية اليهم مبالغة فى البيان وتحقيقا لعروض مثل تلك الحالة لهم فتدبر وقيل المراد جميع الكفرة ولاريب فى صحته وسداده وقرىء يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الاراءة أى يريهم أو يريكم الله تعالى كذلك (رَأْيَ الْعَيْنِ) مصدر مؤكد ليرونهم إن كانت الرؤية بصرية أو مصدر تشبيهى إن كانت قلبية أى رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين (وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ) أى يقوى (بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ) أن يؤيده من غير توسيط الأسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة فى سبيله بما ذكر من النصر وهو من تمام القول المأمور به (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) إشارة إلى ماذكر من رؤية القليل كثيرا المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكى السلاح ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه فى الفضل (لَعِبْرَةً) العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فانه نوع من العبور أى لعبرة عظيمة كائنة (لِأُولِي الْأَبْصَارِ) لذوى العقول والبصائر وقيل لمن أبصرهم وهو امامن تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل وإما وارد من جهته تعالى تصديقا لمقالته عليه الصلاة والسلام (زُيِّنَ لِلنَّاسِ) كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه رغباتهم إلى ماعنده تعالى اثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس (حُبُّ الشَّهَوَاتِ) الشهوة نزوع النفس إلى ماتريده والمراد هنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة فى كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات أو إيذانا بانهماكهم فى حبها بحيث أحبوا شهواتها كما فى قوله تعالى إنى أحببت حب الخير أو استرذالا لها فان الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو البارى سبحانه وتعالى إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعى والحكمة فى ذلك ابتلاؤهم قال تعالى إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم الآية فانها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة وسيلة إلى بقاء النوع وإيثار صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرىء على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائى بين المباحات فأسند تزيينها اليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها إلى الشيطان (مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ) فى محل النصب على أنه حال من الشهوات وهى مفسرة لها فى المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن فى معنى الشهوة فانهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد فى حبهن (وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ) جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل سبعون ألفا وقيل أربعون ألف مثقال وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة رطل وقيل ألف ومائتا مثقال وقيل ألف دينار وقيل مائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم وقيل دية النفس واختلف فى أن وزنه فعلال أو فنعال ولفظ المقنطرة مأخوذ منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة وقيل المقنطرة المحكمة المحصنة وقيل الكثيرة المنضدة بعضها على بعض أو المدفونة وقيل المضروبة المنقوشة (مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) بيان للقناطير أو حال (وَالْخَيْلِ) عطف على القناطير قيل هى جمع لاواحد له من لفظه كالقوم والرهط والواحد فرس وقيل واحده خائل وهو مشتق من الخيلاء (الْمُسَوَّمَةِ) أى المعلمة من السومة وهى العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها إذا أرسلها وسيبها للرعى أو المطهمة التامة الخلق (وَالْأَنْعَامِ) أى الإبل والبقر والغنم (وَالْحَرْثِ) أى الزرع مصدر بمعنى المفعول (ذَٰلِكَ) أى ما ذكر من الأشياء المعهودة (مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى ما يتمتع به فى الحياة الدنيا أياما قلائل

فتفنى سريعا (وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) حسن المرجع وفيه دلالة على أن ليس فيما عدد عاقبة حميدة وفى تكرير الاسناد بجعل الجلالة مبتدأ وإسناد الجملة الظرفية إليه زيادة تأكيد وتفخيم ومزيد اعتناء بالترغيب فيما عند الله عز وجل من النعيم المقيم والتزهيد فى ملاذ الدنيا وطيباتها الفانية (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ) اثر ما بين شأن مزخرفات الدنيا وذكر ما عنده تعالى من حسن المآب إجمالا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والخطاب للجميع والهمزة للتقرير أى أأخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم وابهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق إليه وقوله تعالى (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ) استئناف مبين لذلك المبهم على أن جنات مبتدا والجار والمجرور خبر أو على أن جنات مرتفع به على الفاعلية عند من لا يشترط فى ذلك اعتماد الجار على ما فصل فى محله والمراد بالتقوى هو التبتل إلى الله تعالى والإعراض عما سواه على ما تنبىء عنه النعوت الآتية وتعليق حصول الجنات وما بعدها من فنون الخيرات به للترغيب فى تحصيله والثبات عليه وعند نصب على الحالية من جنات أو متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار مفيد لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم وقيل اللام متعلقة بخير وكذا الظرف وجنات خبر لمبتدا محذوف والجملة مبنية لخير ويؤيده قراءة جنات بالجر على البدلية من خير ولا يخفى أن تعليق الاخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربما يوهم أن هناك خيرا آخر لآخرين (تَجْرِي) فى محل الرفع والجر صفة لجنات على حسب القراءتين (مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) متعلق بتجرى فان أريد بالجنات نفس الأشجار كما هو الظاهر فجريانها من تحتها ظاهر وان أريد بها مجموع الأرض والأشجار فهو باعتبار جزئها الظاهر كما مر تفصيله مرارا (خَالِدِينَ فِيهَا) حال مقدرة من المستكن فى للذين والعامل ما فيه من معنى الاستقرار (وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) عطف على جنات أى مبرأة مما يستقذر من النساء من الأحوال البدنية والطبيعية (وَرِضْوَانٌ) التنوين للتفخيم وقوله تعالى (مِّنَ اللَّهِ) متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاد التنوين من الفخامة أى رضوان وأى رضوان لا يقادر قدره كائن من الله عز وجل وقرىء بضم الراء (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) وبأعمالهم فيثيب ويعاقب حسبما يليق بها أو بصير بأحوال الذين اتقوا ولذلك أعد لهم ما ذكر وفيه إشعار بأنهم المستحقون للتسمية باسم العبد (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا) فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف كأنه قيل من أولئك المتقون الفائزون بهذه الكرامات السنية فقيل هم الذين الخ أو النصب على المدح أو الجر على أنه تابع للمتقين نعتا أو بدلا أو للعباد كذلك والأول أظهر وقوله تعالى والله بصير بالعباد حينئذ معترضة وتأكيد الجملة لإظهار أن إيمانهم ناشىء من وفور الرغبة وكمال النشاط وفى ترتيب الدعاء بقولهم (فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) على مجرد الإيمان دلالة على كفايته فى استحقاق المغفرة والوقاية من النار (الصَّابِرِينَ) هو على تقدير كون الموصول فى محل الرفع منصوب على المدح باضمار أعنى وأما على تقدير كونه فى محل النصب أو الجر فهو نعت له والمراد بالصبر هو الصبر على مشاق الطاعات وعلى البأساء والضراء وحين البأس (وَالصَّادِقِينَ) فى أقوالهم ونياتهم وعزائمهم (وَالْقَانِتِينَ) المداومين على الطاعات المواظبين على العبادات (وَالْمُنفِقِينَ) أموالهم فى سبيل الله تعالى (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) قال مجاهد وقتادة والكلبي أى المصلين بالاسحار وعن زيد بن أسلم هم الذين يصلون الصبح فى جماعة وقال الحسن مدوا الصلاة إلى السحر ثم استغفروا وقال نافع كان ابن عمر رضى الله عنه يحيي الليلة ثم يقول يا نافع أسحرنا فأقول لا فيعاود الصلاة فاذا قلت نعم قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح وعن الحسن كانوا يصلون فى أول الليل حتى إذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار وتخصيص الاسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذ أشق والنفس

أصفى والروح أجمع لاسيما للمتهجدين وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها (شَهِدَ اللهُ أنهُ) بفتح الهمزة أى بأنه أو على أنه (لا إلٰهَ إلا هوَ) أى بين وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية فى الآفاق والأنفس وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة إيذانا بقوته فى إثبات المطلوب وإشعارا بانكار المنكر وقرىء إنه بكسر الهمزة إما باجراء شهد مجرى قال وإما بجعل الجملة اعتراضا وإيقاع الفعل على قوله تعالى أن الدين الخ على قراءة أن بفتح الهمزة كما سيأتى وقرىء شهداء الله بالنصب على أنه حال من المذكورين أو على المدح وبالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف ومآله الرفع على المدح أى هم شهداء الله وهو إما جمع شهيد كظرفاء فى جمع ظريف أو جمع شاهد كشعراء فى جمع شاعر (وَالمَلٰئِكَةُ) عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازى شامل للاقرار والإيمان بطريق عموم المجاز أى أقروا بذلك (وَأولوا العِلمِ) أى آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الأدلة التكوينية والتشريعية قيل المراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل المهاجرون والأنصار وقيل علماء مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة وارتفاعهما على القراءتين الأخيرتين قيل بالعطف على الضمير فى شهداء لوقوع الفصل بينهما وأنت خبير بأن ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدى إلى تقييد حال المذكورين بشهادة الملائكة وأولى العلم وليس فيه كثير فائدة فالوجه حينئذ كون ارتفاعهما بالابتداء والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه أى والملائكة وأولوا العلم شهداء بذلك ولك أن تحمل القراءتين على المدح نصبا ورفعا فحينئذ يحسن العطف على المستتر على كل حال وقوله تعالى (قائِمًا بالقِسطِ) أى مقيما للعدل فى جميع أموره بيان لكماله تعالى فى أفعاله اثر بيان كماله فى ذاته وانتصابه على الحالية من الله كما فى قوله تعالى وهو الحق مصدقا وإنما جاز افراده مع عدم جواز جاء زيد وعمرو راكبا لعدم اللبس كقوله تعالى ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة ولعل تأخيره عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقرب منزلتهما والمسارعة إلى إقامة شهود التوحيد اعتناء بشأنه ورفعا لمحله وهو السر فى تقديمه على المعطوفين مع ما فيه من الإيذان بأصالته تعالى فى الشهادة به كما مر فى قوله تعالى آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه أو من هو وهو الأوجه والعامل فيها معنى الجملة أى تفردا أو أحقه لأنها حال مؤكدة أو على المدح وقيل على أنه صفة للمنفى أى لا إله قائما الخ والفصل بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج فى المشهود به إذا جعل صفة أو حالا من الضمير أو نصبا على المدح منه وقرىء القائم بالقسط على البدلية من هو فيلزم الفصل بينهما كما فى الصفة أو على أنه خبر لمبتدا محذوف وقرىء قيما بالقسط (لا إلٰهَ إلا هوَ) تكرير للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليجرى عليه قوله تعالى (العَزيزُ الحَكيم) فيعلم أنه المنعوت بهما ووجه الترتيب تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته تعالى ورفعهما على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد أو الخبرية لمبتدا مضمر وقد روى فى فضلها أنه عليه السلام قال يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل إن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وروى عن سعيد بن جبير أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية الكريمة خررن سجدا وقيل نزلت فى نصارى نجران وقال الكلبى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم حبران من أحبار الشأم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا عليه عليه السلام عرفاه بالصفة فقالا له عليه السلام أنت محمد قال صلى الله عليه وسلم نعم قالا وأنت أحمد قال عليه السلام أنا محمد وأحمد قالا فانا نسألك عن شىء فان أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال عليه السلام سلا فقال أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة فأسلم

الرجلان (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَٰمُ) جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أى لا دين مرضيا لله تعالى سوى الإسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة وعن قتادة أنه شهادة أن لا إله إلا الله والاقرار بما جاء من عند الله تعالى وقرىء ان الدين عند الله الإسلام وقرىء أن الدين الخ على أنه بدل الكل ان فسر الاسلام بالإيمان أو بما يتضمنه وبدل الاشتمال ان فسر بالشريعة أو على أن شهد واقع عليه على تقدير قراءة انه بالكسر كما أشير اليه (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ) نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته والتعبير عنهم بالموصول وجعل إيتاء الكتاب صلة له لزيادة تقبيح حالهم فان الاختلاف ممن أوتى مايزيله ويقطع شأفته فى غاية القبح والسماجة وقوله تعالى (إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أى وما اختلفوا فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات الا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالحجج النيرة والآيات الباهرة وفيه من الدلالة على ترامى حالهم فى الضلالة مالا مزيد عليه فان الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة مما لا يصدر عن العاقل وقوله تعالى (بَغْيًا بَيْنَهُمْ) أى حسدا كائنا بينهم وطلبا للرياسة لا لشبهة وخفاء فى الأمر تشنيع اثر تشنيع (وَمَن يَكْفُرْ بِآيَٰتِ اللَّهِ) أى بآياته الناطقة بما ذكر من أن الدين عند الله تعالى هو الإسلام ولم يعمل بمقتضاها أو بأية آية كانت من آياته تعالى على أن يدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا (فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) قائم مقام جواب الشرط علة له أى ومن يكفر بآياته تعالى فانه تعالى يجازيه ويعاقبه عن قريب فانه سريع الحساب أى يأتى حسابه عن قريب أو يتم ذلك بسرعة واظهار الجلالة لتربية المهابة وادخال الروعة وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد ايتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم (فَإِنْ حَاجُّوكَ) أى فى كون الدين عند الله الاسلام أو جادلوك فيه بعد ما أقمت عليهم الحجج (فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ) أى أخلصت نفسى وقلبى وجملتى وانما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه الى كل شىء (لِلَّهِ) لا أشرك به فيها غيره وهو الدين القويم الذى قامت عليه الحجج ودعت اليه الآيات والرسل عليهم السلام (وَمَنِ اتَّبَعَنِ) عطف على المتصل فى أسلمت وحسن ذلك لمكان الفصل الجارى مجرى التأكيد بالمنفصل أى وأسلم من اتبعنى أو مفعول معه (وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ) أى من اليهود والنصارى وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفى المتعاطفين (وَالْأُمِّيِّينَ) أى الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب (ءَأَسْلَمْتُمْ) متبعين لى كما فعل المؤمنون فانه قد أتاكم من البينات ما يوجبه ويقتضيه لا محالة فهل أسلمتم وعملتم بقضيتها أو أنتم على كفركم بعد كما يقول من لخص لصاحبه المسئلة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكا الا سلكه فهل فهمتها على منهاج قوله تعالى فهل أنتم منتهون اثر تفصيل الصوارف عن تعاطى الخمر والميسر وفيه من استقصارهم وتعييرهم بالمعاندة وقلة الانصاف وتوبيخهم بالبلادة وكلة القريحة ما لا يخفى (فَإِنْ أَسْلَمُوا) أى كما أسلمتم وانما لم يصرح به كما فى قوله تعالى فان آمنوا بمثل ما آمنتم به حسما لباب اطلاق اسم الاسلام على شىء آخر بالكلية (فَقَدِ اهْتَدَوا) أى فازوا بالحظ الأوفر ونجوا عن مهاوى الضلال (وَّإِن تَوَلَّوْا) أى أعرضوا عن الاتباع وقبول الإسلام (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ) قائم مقام الجواب أى لم يضروك شيأ اذ ما عليك الا البلاغ وقد فعلت على أبلغ وجه. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا أسلمنا فقال عليه السلام لليهود أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال عليه الصلاة والسلام للنصارى أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله

أن يكون عيسى عبدا وذلك قوله عز وجل وان تولوا (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) عالم بجميع أحوالهم وهو تذييل فيه وعد ووعيد (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) أى آية كانت فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقية الاسلام على الوجه الذى مر تفصيله دخولا أوليا (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ) هم أهل الكتاب قتل أولوهم الأنبياء عليهم السلام وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا وكانوا قاتلهم الله تعالى حائمين حول قتل النبى صلى الله عليه وسلم لولا أن عصم الله تعالى ساحته المنيعة وقد أشير اليه بصيغة الاستقبال وقرىء بالتشديد للتكثير والتقييد بغير حق للايذان بأنه كان عندهم أيضا بغير حق (وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ) أى بالعدل ولعل تكرير الفعل للاشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما فى الوقت. عن أبى عبيدة بن الجراح قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر ثم قرأها ثم قال ياأبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى اسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار وقرىء ويقاتلون الذين (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) خبر ان والفاء لتضمن اسمها معنى الشرط فانها بالنسخ لا تغير معنى الابتداء بل تزيده تأكيدا وكذا الحال فى النسخ بأن المفتوحة كما فى قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وكذا النسخ بلكن كما فى قوله:

فوالله مافارقتكم عن ملالة ولكن مايقضى فسوف يكون

وانما يتغير معنى الابتداء فى النسخ بليت ولعل وقد ذهب سيبويه والاخفش إلى منع دخول الفاء عند النسخ مطلقا فالخبر عندهما قوله تعالى (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) كما فى قولك الشيطان فاحذر عدو مبين وعلى الأول هو استئناف واسم الاشارة مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى الضلال وبعد منزلتهم فى فظاعة الحال والموصول بما فى حيز صلته خبره أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون بأسوأ الحال الذين بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر فى الدارين بل بقى لهم اللعنة والخزى فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخرة (وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) ينصرونهم من بأس الله وعذابه فى إحدى الدارين وصيغة الجمع لرعاية ماوقع فى مقابلته لا لنفى تعدد الأنصار من كل واحد منهم كما فى قوله تعالى وما للظالمين من أنصار (أَلَمْ تَرَ) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه الرؤية من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم وتقرير لما سبق من أن اختلافهم فى الإسلام إنما كان بعد ما جاءهم العلم بحقيقته أى ألم تنظر (إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ) أى التوراة على أن اللام للعهد وحمله على جنس الكتب الإلهية تطويل للمسافة اذ تمام التقريب حينئذ بكون التوراة من جملتها الآن مدار التشنيع والتعجيب إنما هو إعراضهم عن المحاكمة إلى مادعوا اليه وهم لم يدعوا إلا إلى التوراة والمراد بما أوتوه منها مابين لهم فيها من العلوم والأحكام التى من جملتها ماعلموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب للاشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والعمل بموجبها وما فيه من التنكير للتفخيم وحمله على التحقير لا يساعده مقام المبالغة فى تقبيح حالهم (يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ) الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة والاظهار فى مقام الاضمار لايجاب الإجابة وإضافته إلى الاسم الجليل لتشريفه وتأكيد وجوب المراجعة اليه والجملة استئناف مبين لمحل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر اليهم فقيل يدعون إلى كتاب الله تعالى وقيل حال من الموصول (لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم إلى الايمان فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أى دين أنت قال

عليه الصلاة والسلام على ملة ابراهيم قالا إن إبراهيم كان يهوديا فقال صلى الله عليه وسلم لهما إن بيننا وبينكم التوراة فهلموا اليها فأبيا وقيل نزلت فى الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل كتاب الله القرآن فانهم قد علموا أنه كتاب الله ولم يشكوا فيه وقرىء ليحكم على بناء المجهول فيكون الاختلاف بينهم بأن أسلم بعضهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخرون (ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ) استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع اليه (وَهُمْ مُعْرِضُونَ) اما حال من فريق لتخصصه بالصفة أى يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم أو اعتراض أى وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل (ذَلِكَ) إشارة إلى مامر من التولى والإعراض وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بِأَنَّهُمْ) أى حاصل بسبب أنهم (قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ) باقتراف الذنوب وركوب المعاصى (إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) وهى مقدار عبادتهم العجل ورسخ اعتقادهم على ذلك وهونوا عليهم الخطوب (وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم ان آباءنا الأنبياء يشفعون لنا أو أن الله تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح (فَكَيْفَ) رد لقولهم المذكور وإبطال لما غرهم باستعظام ماسيدهمهم وتهويل ماسيحيق بهم من الأهوال أى فكيف يكون حالهم (إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ) أى لجزاء يوم (لَا رَيْبَ فِيهِ) أى فى وقوعه ووقوع مافيه روى أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفر راية اليهود فيفضحهم الله عز وجل على رؤس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ) أى جزاء ما كسبت من غير نقص أصلا كما يزعمون وإنما وضع المكسوب موضع جزائه للايذان بكمال الاتصال والتلازم بينهما كأنهما شىء واحد وفيه دلالة على أن العبادة لاتحبط وأن المؤمن لا يخلد فى النار لأن توفية جزاء ايمانه وعمله لاتكون فى النار ولا قبل دخولها فاذن هى بعد الخلاص منها (وَهُمْ) أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس (لَا يُظْلَمُونَ) بزيادة عذاب أو بنقص ثواب بل يصيب كلا منهم مقدار ما كسبه (قُلِ اللَّهُمَّ) الميم عوض عن حرف النداء ولذلك لايجتمعان وهذا من خصائص الاسم الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف وقطع همزته ودخول تاء القسم عليه وقيل أصله يا الله أمنا بخير أى اقصدنا به فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته (مَالِكَ الْمُلْكِ) أى مالك جنس الملك على الاطلاق ملكا حقيقيا بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء إيجادا وإعداما واحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير مشارك ولا ممانع وهو نداء ثان عند سيبويه فان الميم عنده تمنع الوصفية (تُؤْتِي الْمُلْكَ) بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقة وكون مالكية غيره بطريق المجاز كما ينبىء عنه إيثار الايتاء الذى هو مجرد الاعطاء على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة (مَنْ تَشَاءُ) أى ايتاءه اياه (وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) أى نزعه منه فالملك الأول حقيقى عام ومملوكيته حقيقية والآخران مجازيان خاصان ونسبتهما إلى صاحبهما مجازية وقيل الملك الأول عام والآخران بعضان منه فتأمل وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى آخرين (وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) أن تعزه فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق (وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) أن تذله فى احداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة (بِيَدِكَ الْخَيْرُ) تعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أى بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك تتصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك وتخصيص الخير بالذكر لما أنه مقضى بالذات وأما الشر فمقضى بالعرض اذ مامن شر جزئى إلا وهو متضمن لخير كلى أو لأن فى حصول الشر دخلا لصاحبه فى الجملة لأنه من أجزية أعماله وأما الخير ففضل محض أو لرعاية الأدب أو لأن الكلام فيه فانه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج

من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلت (إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تعليل لماسبق وتحقيق له (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ) أى تدخله فيه بتعقيبه إياه أو بنقص الأول زيادة الثانى (وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) على أحد الوجهين (وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) أى تنشىء الحيوانات من موادها أو من النطفة وقيل تخرج المؤمن من الكافر (وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) أى تخرج النطفة من الحيوان وقيل تخرج الكافر من المؤمن (وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال أبو العباس المقرى ورد لفظ الحساب فى القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى وترزق من تشاء بغير حساب وبمعنى العدد قال تعالى إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وبمعنى المطالبة قال تعالى فامنن أو أمسك بغير حساب والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل ترزق أو من مفعوله وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الأفاعيل العظام المحيرة للعقول والأفهام فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم أهون من كل هين . عن على رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فاتحة الكتاب وآية الكرسى وآيتين من آل عمران شهد الله أنه لا إله إلا هو إلى قوله تعالى إن الدين عند الله الإسلام وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب معلقات مابينهن وبين الله تعالى حجاب قلن يارب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك قال الله تعالى انى حلفت أنه لا يقرؤكن أحد دبر كل صلاة الا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه وأسكنته فى حظيرة القدس ونظرت اليه بعينى كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعذته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم وفى بعض الكتب أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد أطاعونى جعلتهم لهم رحمة وان العباد عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الى أعطفهم عليكم وهو معنى قوله عليه السلام كما تكونوا يول عليكم (لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ) نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة جاهلية ونحوهما من أسباب المصادقة والمعاشرة كما فى قوله سبحانه يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء وقوله تعالى لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء حتى لا يكون حبهم ولا بغضهم الا لله تعالى أو عن الاستعانة بهم فى الغزو وسائر الأمور الدينية (مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) فى موضع الحال أى متجاوزين المؤمنين اليهم استقلالا أو اشتراكا وفيه اشارة الى أنهم الاحقاء بالموالاة وان فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة (وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ) اى اتخاذهم أولياء والتعبير عنه بالفعل للاختصار أو لايهام الاستهجان بذكره (فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ) أى من ولايته تعالى (فِي شَيْءٍ) يصح أن يطلق عليه اسم الولاية فان موالاة المتعاديين مما لا يكاد يدخل تحت الوقوع قال :

تود عدوى ثم تزعم أننى صديقك ليس النوك عنك بعازب

والجملة اعتراضية وقوله تعالى (إِلَّا أَن تَتَّقُوا) على صيغة الخطاب بطريق الالتفات استثناء مفرغ من أعم الأحوال والعامل فعل النهى معتبرا فيه الخطاب كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء ظاهرا أو باطنا فى حال من الأحوال الا حال اتقائكم (مِنْهُمْ) أى من جهتهم (تُقَاةً) أى اتقاء أو شيأ يجب اتقاؤه على أن المصدر واقع موقع المفعول فانه يجوز اظهار الموالاة حينئذ مع اطمئنان

النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار ما فى الضمير كما قال عيسى عليه السلام كن وسطا وامش جانبا وأصل تقاة وقية ثم أبدلت الواو تاء كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفا وقرىء تقية (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ) أى ذاته المقدسة فان جواز اطلاق لفظ النفس مرادا به الذات عليه سبحانه بلا مشاكلة مما لا كلام فيه عند المتقدمين وقد صرح بعض محقق المتأخرين بعدم الجواز وإن أريد به الذات الا مشاكلة وفيه من التهديد مالا يخفى عظمه وذكر النفس للايذان بأن له عقابا هائلا لا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة (وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه حتما (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ) من الضمائر التى من جملتها ولاية الكفرة (أَوْ تُبْدُوهُ) فيما بينكم (يَعْلَمْهُ اللهُ) فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم اليه وتقديم الاخفاء على الابداء قد مر سره فى تفسير قوله تعالى وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه وقوله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون (وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط وهو من باب إيراد العام بعد الخاص تأكيدا له وتقريرا (وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) فيقدر على عقوبتكم بما لا مزيد عليه إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله مبين لقوله تعالى ويحذركم الله نفسه بأن ذاته المقدسة المتميزة عن سائر الذوات المتصفة بما لا يتصف به شىء منها من العلم الذاتى المتعلق بجميع المعلومات متصفة بالقدرة الذاتية الشاملة لجميع المقدورات بحيث لا يخرج من ملكوته شىء قط (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ) أى من النفوس المكلفة (مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا) عندها بأمر الله تعالى وفيه من التهويل ما ليس فى حاضرا (وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ) عطف على ما عملت والإحضار معتبر فيه أيضا الا أنه خص بالذكر فى الخير للاشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية (تَوَدُّ) عامل فى الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أو أجزيتها محضرة (لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ) أى بين ذلك اليوم (أَمَدًا بَعِيدًا) لغاية هوله وفى اسناد الودادة إلى كل نفس سواء كان لها عمل سىء أولا بل كانت متمحضة فى الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه مالا يخفى اللهم إنا نعوذ بك من ذلك ويجوز أن يكون انتصاب يوم على المفعولية باضمار اذكروا وتود إما حال من كل نفس أو استئناف مبنى على السؤال أى اذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير وشر محضرا وادة أن بينها وبينه أمدا بعيدا أو كان سائلا قال حين أمروا بذكر ذلك اليوم فماذا يكون إذ ذاك فقيل تود لو أن بينها الخ أو تجد مقصور على ما عملت من خير وتود خبر ما عملت من سوء ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود وقرىء ودت فحينئذ يجوز كونها شرطية لكن الحمل على الخبر أوقع معنى لأنها حكاية حال ماضية وأوفق للقراءة المشهورة (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ) تكرير لما سبق وإعادة له لكن لا للتأكيد فقط بل لافادة ما يفيده قوله عز وجل (وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ورحمته الواسعة أو أن رأفته بهم لا تمنع تحقيق ما حذرهموه من عقابه وأن تحذيره ليس مبنيا على تناسى صفة الرأفة بل هو متحقق مع تحققها أيضا كما فى قوله تعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم فالجملة على الأول اعتراض وعلى الثانى حال وتكرير اسم الجليل لتربية المهابة (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى) المحبة ميل النفس إلى الشىء لكمال أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها اليه والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقى ليس إلا لله عز وجل وأن كل ما يراه كمالا من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفى الله وذلك مقتضى إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه اليه فلذلك فسرت المحبة بارادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى عبادته والحرص على مطاوعته (يُحْبِبْكُمُ اللهُ) أى يرض عنكم (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) أى يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم فى جوار قدسه عبر عنه بالمحبة

بطريق الاستعارة أو المشاكلة (وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى لمن يتحبب اليه بطاعته ويتقرب اليه باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام فهو تذييل مقرر لما قبله مع زيادة وعد الرحمة ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للاشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة. روى أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل نزلت فى وفد نجران لما قالوا إنا نعبد المسيح حبا لله تعالى وقيل فى أقوام زعموا على عهده عليه الصلاة والسلام أنهم يحبون الله تعالى فأمروا أن يجعلوا لقولهم مصداقا من العمل وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم فى المسجد الحرام يسجدون للاصنام وقد علقوا عليها بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش لقد خالفتم ملة إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام فقالت قريش إنما نعبدها حبا لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى فقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام قل إن كنتم تحبون الله تعالى وتعبدون الأصنام لتقربكم اليه فاتبعونى أى اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله فأنا رسوله اليكم وحجته عليكم (قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ) أى فى جميع الأوامر والنواهى فيدخل فى ذلك الطاعة فى اتباعه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا وإيثار الاظهار على الاضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الاطاعة والإشعار بعلتها فان الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث أنه رسول الله لا من حيث ذاته ولا ريب فى أن عنوان الرسالة من موجبات الاطاعة ودواعيها (فَإِن تَوَلَّوْا) اما من تمام مقول القول فهى صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التاءين أى تتولوا واما كلام متفرع عليه مسوق من جهته تعالى فهى صيغة الماضى الغائب وفى ترك ذكر احتمال الاطاعة كما فى قوله تعالى فان أسلموا تلويح إلى أنه غير محتمل منهم (فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ) نفى المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم أن لا يرضى عنهم ولا يثنى عليهم وإيثار الإظهار على الإضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة والاشعار بعلته فان سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم والإيذان بأن التولى عن الطاعة كفر وبأن محبته عز وجل مخصوصة بالمؤمنين (إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ) لما بين الله تعالى أن الدين المرضى عنده هو الإسلام والتوحيد وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو للبغى والحسد وأن الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته شرع فى تحقيق رسالته وكونه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة وأتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه وكيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام تحقيقا للحق وإبطالا لما عليه أهل الكتابين فى شأنهما من الإفراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم فى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وادعائهم الانتماء إلى ملته ونزه ساحته العلية عما هم عليه من اليهودية والنصرانية ثم نص على أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دعاة إلى عبادة الله عز وجل وحده وطاعته منزهون عن احتمال الدعوة إلى عبادة أنفسهم أو غيرهم من الملائكة والنبيين وأن أممهم قاطبة مأمورون بالإيمان بمن جاءهم من رسول مصدق لما معهم تحقيقا لوجوب الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه المصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل وتحتم الطاعة له حسبما سيأتى تفصيله وتخصيص آدم عليه الصلاة والسلام بالذكر لأنه أبو البشر ومنشأ النبوة وكذا حال نوح عليه السلام فانه آدم الثانى وأما ذكر آل إبراهيم فلترغيب المعترفين باصطفائهم فى الايمان بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرتهم مع ما مر من التنبيه على كونه عليه الصلاة والسلام عريقا فى النبوة من زمرة المصطفين الأخيار وأما ذكر آل عمران مع اندراجهم فى آل ابراهيم فلاظهار مزيد الاعتناء بتحقيق أمر عيسى عليه الصلاة والسلام لكمال رسوخ الخلاف فى شأنه فان نسبة الاصطفاء إلى الأب الأقرب أدل على تحققه فى الآل وهو الداعى إلى إضافة الآل إلى إبراهيم

دون نوح وآدم عليهم الصلاة والسلام والاصطفاء أخذ ماصفا من الشيء كالاستصفاء مثل به اختياره تعالى إياهم النفوس القدسية ومايليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة فى نفس المصطفى كما فى كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام أو فيمن يلابسه وينشأ منه كما فى مريم وقيل اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام بأن خلقه بيده فى أحسن تقويم وبتعليم الأسماء واسجاد الملائكة إياه واسكان الجنة واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما وباطالة عمره وجعل ذريته هم الباقين واستجابة دعوته فى حق الكفرة والمؤمنين وحمله على متن الماء والمراد بآل ابراهيم اسمعيل واسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبى صلى الله عليه وسلم وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفائهم بطريق الاولوية وعدم التصريح به للايذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلة وكونه إمام الأنبياء وقدوة الرسل عليهم الصلاة والسلام وكون اصطفاء آله بدعوته بقوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية ولذلك قال عليه الصلاة والسلام أنا دعوة أبى ابراهيم وبآل عمران عيسى وأمه مريم ابنة عمران بن ماثان بن عازار بن أبى يور بن زربابل بن ساليان بن يوحنا بن يوشيا بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحزبن يوثم بن عزيا هو بن يهورام بن يهوشافاط بن اسا بن رحبعم بن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ابن يشا بن عوفيذ ابن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون بن بارص بن يهوذا بن يعقوب عليه الصلاة والسلام وقيل موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه الصلاة والسلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى عليه الصلاة والسلام حينئذ بالاندراج فى آل ابراهيم عليه السلام والأول هو الاظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام بالانتظام فى سلك آل ابراهيم عليه السلام انتظاما ظاهرا والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أى اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه (ذُرِّيَّةً) نصب على البدلية من الآلين أو على الحالية منهما وقد مر بيان اشتقاقها فى قوله تعالى ومن ذريتى وقوله تعالى (بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ) فى محل النصب على أنه صفة لذرية أى اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض فى النسب كما ينبىء عنه التعرض لكونه ذرية وقيل بعضها من بعض فى الدين فالاستمالة على الوجه الأول تقريبية وعلى الثانى برهانية (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لاقوال العباد (عَلِيمٌ) بأعمالهم البادية والخافية فيصطفى من بينهم لخدمته من تظهر استقامته قولا وفعلا على نهج قوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته والجملة تذييلى مقرر لمضمون ماقبلها (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ) فى حيز النصب على المفعولية بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران وبيان كيفيته أى اذكر لهم وقت قولها الخ وقد مر مرارا وجه توجيه التذكير إلى الأوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيها من الحوادث وقيل هو منصوب على الظرفية لماقبله أى سميع لقولها المحكى عليم بضميرها المنوى وقيل هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كأنه قيل واصطفى آل عمران إذ قالت الخ فكان من عطف الجمل على الجمل دون عطف المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل فى ذلك الوقت وامرأة عمران هى حنة بنت فاقوذا جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام فظن أن المراد زوجته وليس بذاك فان قضية كفالة زكريا عليه الصلاة والسلام قاضية بأنها زوجة عمران بن ماثان لأنه عليه الصلاة والسلام كان معاصرا له وقد تزوج ايشاع أخت حنة أم يحيى عليه الصلاة والسلام وأما قوله عليه الصلاة والسلام فى شأن يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام هما ابنا خالة فقيل تأويله أن الاخت كثيرا ماتطلق على بنت الاخت وبهذا الاعتبار جعلهما عليهما الصلاة والسلام ابنى خالة وقيل كانت ايشاع أخت حنة من الأم وأخت

مريم من الأب على أن عمران نكح أولا أم حنة فولدت له ايشاع ثم نكح حنة بناء على حل نكاح الربائب فى شريعتهم فولدت مريم فكانت ايشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها أخت حنة من الأم روى أنها كانت عجوزا عاقرا فبينما هى ذات يوم فى ظل شجرة إذ رأت طائرا يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته وقالت اللهم ان لك على نذرا ان رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وكان هذا النذر مشروعا عندهم فى الغلمان ثم هلك عمران وهى حامل وحينئذ فقولها (رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى) لابد من حمله على التكرير لتأكيد نذرها وإخراجه عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الاجابة ولذلك قيل إذا اراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته وتأكيد الجملة لابراز وفور الرغبة فى مضمونها وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به وإنما عبر عن الولد بما لابهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء (مُحَرَّرًا) أى معتقا لخدمة بيت المقدس لايشغله شأن آخر أو مخلصا للعبادة ونصبه على الحالية من الموصول والعامل فيه نذرت وقيل من ضميره فى الصلة والعامل معنى الاستقرار فانها فى قوة ما استقر فى بطنى ولايخفى أن المراد تقييد فعلها بالتحرير ليحصل به التقرب اليه تعالى لاتقييد مالا دخل لها فيه من الاستقرار فى بطنها (فَتَقَبَّلْ مِنِّى) أى ما نذرته والتقبل أخذ الشىء على وجه الرضا وهذا فى الحقيقة استدعاء للولد إذ لايتصور القبول بدون تحقق المقبول بل للولد الذكر لعدم قبول الانثى (إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ) لجميع المسموعات التى من جملتها تضرعى ودعائى (الْعَلِيمُ) بكل المعلومات التى من زمرتها ما فى ضميرى لاغير وهو تعليل لاستدعاء القبول لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائها عليما بما فى ضميرها مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نيتها واخلاصها مستدع لذلك تفضلا واحسانا وتأكيد الجملة لعرض قوة يقينها بمضمونها وقصر صفتى السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية مبالغة فى الضراعة والابتهال (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا) أى ما فى بطنها وتأنيث الضمير العائد اليه لما أن المقام يستدعى ظهور أنوثته واعتباره فى حيز الشرط اذ عليه يترتب جواب لما أعنى قوله تعالى (قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ) لا على وضع ولد ما كأنه قيل فلما وضعت بنتا قالت الخ وقيل تأنيثه لأن ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله تعالى أو لانه مؤول بالحبلة أو النفس أو النسمة وأنت خبير بأن اعتبار شىء مما ذكر فى حيز الشرط لايكون مدار الترتب الجواب عليه وقوله تعالى أنثى حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه وتأنيثه للمسارعة إلى عرض ما دهمها من خيبة الرجاء أو لما مر من التأويل بالحبلة أو النسمة فالحال حينئذ مبينة وإنما قالته تحزنا وتحسرا على خيبة رجائها وعكس تقديرها لما كانت ترجو أن تلد ذكرا ولذلك نذرته محررا للسدانة والتأكيد للرد على اعتقادها الباطل (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) تعظيم من جهته تعالى لموضوعها وتفخيم لشأنه وتجهيل لها بقدره أى والله أعلم بالشىء الذى وضعته وما علق به من عظائم الأمور وجعله وابنه آية للعالمين وهى غافلة عن ذلك والجملة اعتراضية وقرىء وضعت على خطاب الله تعالى لها أى إنك لاتعلمين قدر هذا الموهوب وما أودع الله فيه من علو الشأن وسمو المقدار وقرىء وضعت على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة اظهاراً لغاية الاجلال فيكون ذلك منها اعتذارا إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته من السدانة أو تسلية لنفسها على معنى لعل لله تعالى فيه سرا وحكمة ولعل هذه الأنثى خير من الذكر فوجه الالتفات حينئذ ظاهر وقوله تعالى (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ) اعتراض آخر مبين لما فى الأول من تعظيم الموضوع ورفع منزلته واللام فى الذكر والأنثى للعهد أى ليس الذكر الذى كانت تطلبه وتتخيل فيه كمالا قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالانثى التى وهبت لها فان دائرة علمها وأمنيتها لاتكاد تحيط

بما فيها من جلائل الامور . هذا على القراءتين الأولين وأما على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فمعناه وليس الذكر كهذه الانثى فى الفضيلة بل أدنى منها وأما على التفسير الاول لها فمعناه تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالانثى فى الفضيلة والمزية وصلاحية خدمة المتعبدات فانهن بمعزل من ذلك فاللام للجنس وقوله تعالى (وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ) عطف على انى وضعتها أنثى وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب اليه تعالى واستدعاء العصمة لها فان مريم فى لغتهم بمعنى العابدة قال القرطبي معناه خادم الرب واظهار أنها غير راجعة عن نيتها وان كان ماوضعته أنثى وأنها وان لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ) عطف على انى سميتها وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أى أجيرها بحفظك وقرىء بفتح ياء المتكلم فى المواضع التى بعدها همزة مضمومة الافى موضعين بعهدى أوف وآتونى أفرغ (وَذُرِّيَّتَهَا) عطف على الضمير وتقديم الجار والمجرور عليه لابراز كمال العناية به (مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) أى المطرود وأصل الرجم الرمى بالحجارة . عن النبى صلى الله عليه وسلم مامن مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسه الامريم وابنها ومعناه أن الشيطان يطمع فى اغواء كل مولود بحيث يتأثر منه الامريم وابنها فان الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة (فَتَقَبَّلَهَا) أى أخذ مريم ورضى بها فى النذر مكان الذكر (رَبُّهَا) مالكها ومبلغها إلى كمالها اللائق وفيه من تشريفها مالا يخفى (بِقَبُولٍ حَسَنٍ) قيل الباء زائدة والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أى تقبلها قبولا حسنا وانما عدل عن الظاهر للايذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فان صيغة التفعل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكلف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وان كان المراد بها فى حقه تعالى مايترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته وقيل القبول مايقبل به الشىء كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلد وهو اختصاصه تعالى إياها باقامتها مقام الذكر فى النذر ولم تقبل قبلها انثى أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة . روى أن حنة حين ولدتها لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الاحبار أبناء هرون وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم فان بنى ماثان كانت رؤس بنى إسرائيل وملوكهم وقيل لأنهم وجدوا أمرها وأمر عيسى عليه الصلاة والسلام فى الكتب الالهية فقال زكريا عليه الصلاة والسلام أنا أحق بها عندى خالتها فأبوا الا القرعة وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها وقيل هو مصدر وفيه مضاف مقدر أى فتقبلها بذى قبول أى بأمر ذى قبول حسن وقيل تقبل بمعنى استقبل كتقصى بمعنى استقصى وتعجل بمعنى استعجل أى استقبلها فى أول أمرها حين ولدت بقبول حسن (وَأَنْبَتَهَا) مجاز عن تربيتها بما يصلحها فى جميع أحوالها (نَبَاتًا حَسَنًا) مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد وقيل بل لفعل مضمر موافق له تقديره فنبتت نباتا حسنا (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) أى جعله عليه الصلاة والسلام كافلا لها وضامنا لمصالحها قائما بتدبير أمورها لاعلى طريقة الوحى بل على ماذكر من التفصيل فان رغبته عليه الصلاة والسلام فى كفالتها وطفو قلمه ورسوب أقلامهم وغير ذلك من الأمور الجارية بينهم كلها من آثار قدرته تعالى وقرىء أكفلها وقرىء زكرياء بالنصب والمد وقرىء بتخفيف الفاء وكسرها ورفع زكرياء ممدودا وقرىء وتقبلها ربها وأنبتها وكفلها على صيغة الأمر فى الكل ونصب ربها على الدعاء أى فاقبلها ياربها وربها تربية حسنة واجعل زكريا كافلا لها فهو تعيين لجهة التربية . قيل بنى عليه الصلاة والسلام لها محرابا فى المسجد أى غرفة يصعد اليها بسلم وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس وقيل كانت مساجدهم تسمى المحاريب . روى أنه كان لا يدخل عليها الا هو

وحده وإذا خرج غلق عليها سبعة أبواب (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ) تقديم الظرف على الفاعل لاظهار كمال العناية بأمرها ونصب المحراب على التوسع وكلمة كلما ظرف على أن ما مصدرية والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف والعامل فيها جوابها أى كل زمان دخوله عليها أو كل وقت دخل عليها فيه (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) أى نوعا منه غير معتاد إذ كان ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها فى الصيف فاكهة الشتاء وفى الشتاء فاكهة الصيف ولم ترضع ثديا قط (قَالَ) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام عند مشاهدة هذه الآية فقيل قال (يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا) أى من أين يجىء لك هذا الذى لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب مغلقة دونك وهو دليل على جواز الكرامة للأولياء ومن أنكرها جعل هذا ارهاصا وتأسيسا لرسالة عيسى عليه الصلاة والسلام وأما جعله معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام فيأباه اشتباه الأمر عليه عليه السلام وإنما خاطبها عليه الصلاة والسلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما علم بما شاهده أنها مؤيدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة (قَالَتْ) استئناف كما قبله كأنه قيل فماذا صنعت مريم وهى صغيرة لا قدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب فقيل قالت (هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) فلا تعجب ولا تستبعد (إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ) أن يرزقه (بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى وهو تعليل لكونه من عند الله اما من تمام كلامها فيكون فى محل النصب واما من كلامه عز وجل فهو مستأنف روى أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها أهدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها فقال هلمى يا بنية فكشفت عن الطبق فاذا هو مملوء خبزا ولحما فقال لها أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة بنى إسرائيل ثم جمع عليا والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فأكلوا وشبعوا وبقى الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها (هُنَالِكَ) كلام مستأنف وقصة مستقلة سيقت فى تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك مع ما فى ايرادها من تقرير ما سيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فان فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين وهنا ظرف مكان واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت إذ يستعار هنا وثمة وحيث للزمان (دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ) لما رأى كرامة مريم على الله ومنزلتها منه تعالى رغب فى أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولدحنة فى النجابة والكرامة على الله تعالى وإن كانت عاقرا عجوزا فقد كانت حنة كذلك وقيل لما رأى الفواكه فى غير أوانها تنبه لجواز ولادة العجوز العاقر من الشيخ الفانى فأقبل على الدعاء من غير تأخير كما ينبىء عنه تقديم الظرف على الفعل لا على معنى أن ذلك كان هو الموجب للاقبال على الدعاء فقط بل كان جزءا أخيرا من العلة التامة التى من جملتها كبر سنه عليه الصلاة والسلام وضعف قواه وخوف مواليه حسبما فصل فى سورة مريم (قَالَ) تفسير للدعاء وبيان لكيفيته لا محل له من الاعراب (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ) كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا أى أعطنى من محض قدرتك من غير وسط معتاد (ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) كما وهبتها لحنة ويجوز أن يتعلق من بمحذوف وقع حالا من ذرية أى كائنة من لدنك والذرية النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد ههنا ولد واحد فالتأنيث فى الصفة لتأنيث لفظ الموصوف كما فى قول من قال:

أبوك خليفة ولدته أخرى ... وأنت خليفة ذاك الكمال

وهذا إذا لم يقصد به واحد معين أما إذا قصد به المعين امتنع اعتبار اللفظ نحو طلحة وحمزة فلا يجوز أن يقال جاءت طلحة وذهبت حمزة (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) أى مجيبه وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الاجابة (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ) كان

المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كما تفصح عنه قراءة من قرأ فناداه جبريل والجمع كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله غير فرس وثوب قال الزجاج أى أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبرائيل عليه الصلاة والسلام رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيما له وقيل الرئيس لابد له من أتباع فأسند النداء إلى الكل مع كونه صادرا عنه خاصة وقرىء فناداه بالامالة (وَهُوَ قَائِمٌ) جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما أفاده الفاء من حصول البشارة عقيب الدعاء وقوله تعالى (يُصَلِّى) إما صفة لقائم أو خبر ثان عند من يرى تعدده عند كون الثانى جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى أو حال أخرى منه على القول بتعددها بلا عطف ولا بدلية أو حال من المستكن فى قائم وقوله تعالى (فِى الْمِحْرَابِ) أى فى المسجد أو فى غرفة مريم متعلق بيصلى أو بقائم على تقدير كون يصلى حالا من ضمير قائم لأن العامل فيه وفى الحال حينئذ شىء واحد فلا يلزم الفصل بالأجنبى كما يلزم على التقادير الباقية (أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) أى بأن الله وقرىء بكسر الهمزة على تقدير القول أو إجراء النداء مجراه لكونه نوعا منه وقرىء يبشرك من الابشار ويبشرك من الثلاثى وأيا ما كان ينبغى أن يكون هذا الكلام إلى آخره محكيا بعبارته عن الله عز وجل على منهاج قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية كما يلوح به مراجعته عليه الصلاة والسلام فى الجواب اليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك والعدول عن إسناد التبشير إلى نون العظمة حسبما وقع فى سورة مريم للجرى على سنن الكبرياء كما فى قول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك بكذا وللايذان بأن ما حكى هناك من النداء والتبشير وما يترتب عليه من المحاورة كان كل ذلك بتوسط الملك بطريق الحكاية عنه سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد المعنى فى السورتين الكريمتين فتأمل ويحيى اسم أعجمى وإن جعل عربيا فامتنع صرفه للتعريف ووزن الفعل. روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انما سمى يحيى لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه وقال قتادة لأنه تعالى أحيا قلبه بالايمان قال القرطبى كان اسمه فى الكتاب الأول حيا ولا بد من تقدير مضاف يعود اليه الحال أى بولادة يحيى فان التبشير لا يتعلق بالأعيان (مُصَدِّقًا) حال مقدرة من يحيى (بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ) أى بعيسى عليه الصلاة والسلام وإنما سمى كلمة لأنه وجد بكلمة كن من غير أب فشابه البديعيات التى هى عالم الأمر ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أى بكلمة كائنة منه تعالى قيل هو أول من آمن به وصدق بأنه كلمة الله وروح منه وقال السدى لقيت أم يحيى أم عيسى فقالت يامريم أشعرت بحبلى فقالت مريم وأنا أيضا حبلى قالت فانى وجدت ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى مصدقا بكلمة الخ وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر وقيل بثلاث سنين وقتل قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بمدة يسيرة وعلى كل تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد لما أن مريم ولدت وهى بنت ثلاث عشرة سنة أو بنت عشر سنين وقيل بكلمة من الله أى بكتاب الله سمى كلمة كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته (وَسَيِّدًا) عطف على مصدقا أى رئيسا يسود قومه ويفوقهم فى الشرف وكان فائقا للناس قاطبة فانه لم يلم بخطيئة ولم يهم بمعصية فيالها من سيادة ما أسناها (وَحَصُورًا) عطف على ما قبله أى مبالغا فى حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة. روى أنه مر فى صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقت (وَنَبِيًّا) عطف على ما قبله مترتب على ما عدد من الخصال الحميدة (مِنَ الصَّالِحِينَ) أى ناشئا منهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو كائنا من جملة المشهورين بالصلاح كما فى قوله تعالى وإنه فى الآخرة لمن الصالحين والمراد بالصلاح ما فوق الصلاح الذى لابد منه فى منصب النبوة البتة من أقاصى مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين (قَالَ) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام

حينئذ فقيل قال (ربِّ) لم يخاطب الملك المنادى له بملابسة أنه المباشر للخطاب وإن كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى بل جرى على نهج دعائه السابق مبالغة فى التضرع والمناجاة وجدا فى التبتل اليه تعالى واحترازا عما عسى يوهم خطاب الملك من توهم أن علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسطه كما يتوقف وقوف البشر على مايصدر عنه سبحانه على توسطه فى عامة الأحوال وإن لم يتوقف عليه فى بعضها (أنّى يكونُ لى غلامٌ) فيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاماً عند التبشير كما فى قوله تعالى انا نبشرك بغلام اسمه يحيى وأنى بمعنى كيف أو من أين وكان تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام إذ لو تأخر لكان صفة له أو ناقصة واسمها ظاهر وخبرها اما أنى واللام متعلقة بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى منصوب على الظرفية (وَقدْ بَلغَنى الكِبرُ) حال من ياء المتكلم أى أدركنى كبر السن وأثر فى كقولهم أدركته السن وأخذته السن وفيه دلالة على أن كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للانسان لا يكاد يتركه قيل كان له تسع وتسعون سنة وقيل اثنتان وتسعون وقيل مائة وعشرون وقيل ستون وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس وثمانون ولامرأته ثمان وتسعون (وامرَأتى عاقِرٌ) أى ذات عقر وهو أيضا حال من ياء لى عند من يجوز تعدد الحال أو من ياء بلغنى أى كيف يكون لى ذلك والحال أنى وامرأتى على حالة منافية له كل المنافاة وإنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله تعالى عليه لاسيما بعد مشاهدته عليه الصلاة والسلام للشواهد السالفة استعظاما لقدرة الله سبحانه وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته عز وجل عليه فى ذلك لا استبعادا له وقيل بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد وقيل كان ذلك استفهاما عن كيفية حدوثه (قالَ) استئناف كما سلف (كذلكَ) اشارة إلى مصدر يفعل فى قوله عز وجل (اللهُ يَفعلُ مَا يشاءُ) أى مايشاء أن يفعله من تعاجيب الأفاعيل الخارقة للعادات فالله مبتدأ ويفعل خبره والكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف أى الله يفعل مايشاء أن يفعله فعلا مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر فقدم على العامل لإفادة القصر بالنسبة إلى ما هو أدنى من المشار اليه واعتبرت الكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أو على أنها حال من ضمير المصدر المقدر معرفة أى يفعل الفعل كائنا مثل ذلك أو فى محل الرفع على أنها خبر والجلالة مبتدأ أى على نحو هذا الشأن البديع شأن الله تعالى ويفعل مايشاء بيان لذلك الشأن المبهم أو كذلك خبر لمبتدا محذوف أى الأمر كذلك وقوله تعالى الله يفعل مايشاء بيان له (قالَ ربِّ اجْعل لى ءَايةً) أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحبل وانما سألها لأن العلوق أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة من حين حصولها بالشكر ولا يؤخره إلى أن يظهر ظهورا معتادا ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد إذ به يظهر ما ذكر من كون التفاوت بين سنى يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين لأن ظهور العلامة كان عقيب تعيينها لقوله تعالى فى سورة مريم فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم الآية اللهم إلا أن تكون المجاوبة بين زكريا ومريم فى حالة كبرها وقد عدت من جملة من تكلم فى الصغر بموجب قولها المحكى والجعل ابداعى واللام متعلقة به والتقديم لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أو بمحذوف وقع حالا من آية وقيل هو بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولها آية وثانيهما لى والتقديم لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدا وخبر سوى تقديم الجار فلا

يتغير حالها بعد دخول الناسخ (قالَ ءايتُكَ ألاّ تكلّمَ النّاسَ) أى أن لا تقدر على تكليمهم (ثلثةَ أيامٍ) أى متوالية لقوله تعالى فى سورة مريم ثلاث ليال سويا مع القدرة على الذكر والتسبيح وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة كأنه قيل آية حصول المطلوب ووصول النعمة أن تحبس لسانك إلا عن شكرها وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال (إلاّ رمزًا) أى إشارة بيد أو رأس أو نحوهما وأصله التحرك يقال ارتمز أى تحرك ومنه قيل للبحر الراموز وهو استثناء منقطع لأن الإشارة ليست من قبيل الكلام أو متصل على أن المراد بالكلام ما فهم منه المرام ولا ريب فى كون الرمز من ذلك القبيل وقرىء رمزا بفتحتين على أنه جمع رامز كخدم وبضمتين على أنه جمع رموز كرسل على أنه حال منه ومن الناس معا بمعنى مترامزين كقوله :

متى ما تلقنى فردين ترجف روانف أليتيك وتستطارا

(واذكر ربّكَ) أى فى أيام الحبسة شكراً لحصول التفضل والانعام كما يؤذن به التعرض لعنوان الربوبية (كثيرًا) أى ذكراً كثيراً أو زماناً كثيراً (وسبّحْ) أى سبحه تعالى أو افعل التسبيح (بالعشىّ) أى من الزوال إلى الغروب وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل (والإبكٰرِ) من طلوع الفجر إلى الضحى . قيل المراد بالتسبيح الصلاة بدليل تقييده بالوقت كما فى قوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقيل الذكر اللسانى كما أن المراد بالذكر الذكر القلبى وقرىء الأبكار بفتح الهمزة على أنه جمع بكر كسحر وأسحار (وإذ قالت الملٰئكةُ) شروع فى شرح بقية أحكام اصطفاء آل عمران إثر الإشارة إلى نبذ من فضائل بعض أقاربهم أعنى زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام لاستدعاء المقام إياهما حسبما أشير إليه وقرىء بتذكير الفعل والمراد بالملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام وقد مر ما فيه من الكلام وإذ منصوب بمضمر معطوف على المضمر السابق عطف القصة على القصة وقيل معطوف على الظرف السابق أعنى قوله إذ قالت امرأة عمران منصوب بناصبه فتدبر أى واذكر أيضا من شواهد اصطفائهم وقت قول الملائكة عليهم الصلاة والسلام (يٰمريمُ) وتكرير التذكير للاشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها على الأحكام السابقة فإنها من أحكام التربية الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها قيل كلموها شفاها كرامة لها أو ارهاصا النبوة عيسى عليه الصلاة والسلام لمكان الإجماع على أنه تعالى لم يستنبىء امرأة وقيل ألهموها (إنّ اللهَ اصطفٰكِ) أولا حيث تقبلك من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنثى ورباك فى حجر زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية (وطهّرَكِ) أى مما يستقذر من الأحوال والأفعال ومما قذفك به اليهود بانطاق الطفل (واصطفٰكِ) آخراً (علىٰ نساءِ العٰلمينَ) بأن وهب لك عيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء وجعلكما آية للعالمين فعلى هذا ينبغى أن يكون تقديم حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مراراً من التنبيه على أن كلا منهما مستحق للاستقلال بالتذكير ولو روعى الترتيب الخارجى لتبادر كون الكل شيئاً واحداً وقيل المراد بالاصطفاءين واحد والتكرير للتأكيد وتبيين من اصطفاها عليهن فحينئذ لا اشكال فى ترتيب النظم الكريم إذ يحمل حينئذ الاصطفاء على ما ذكر أولا وتجعل هذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام إيذانا بكونها قبل ذلك متوفرة على الطاعات والعبادات حسبما أمرت بها مجتهدة فيها مقبلة على الله تعالى متبتلة إليه تعالى منسلخة عن أحكام البشرية مستعدة لفيضان الروح عليها (يٰمريمُ) تكرير النداء للايذان بأن المقصود بالخطاب ما يرد بعده وأن ما قبله من تذكير النعم كان تمهيداً لذكره وترغيباً فى العمل بموجبه (اقنتى لربّكِ) أى قومى فى الصلاة أو

أطيلى القيام فيها له تعالى والتعرض لعنوان ربوبيته تعالى لها للإشعار بعلة وجوب الامتثال بالأمر (وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ) أمرت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغة فى إيجاب رعايتها وإيذانا بفضيلة كل منها وإصالته وتقديم السجود على الركوع اما لكون الترتيب فى شريعتهم كذلك وإما لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ولا يقتضى ذلك كون الترتيب الخارجى كذلك بل اللائق به الترقى من الأدنى إلى الأعلى وإما ليقترن اركعى بالراكعين للإشعار بأن من لا ركوع فى صلاتهم ليسوا مصلين وأما ما قيل من أن الواو لا توجب الترتيب فغايته التصحيح لا الترجيح وتجريد الأمر بالركنين الأخيرين عما قيد به الأول لما أن المراد تقييد الأمر بالصلاة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الأول منها وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعات كما فى قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً وبالسجود الصلاة لما مر من أنه أفضل أركانها وبالركوع الخشوع والاخبات . قيل لما أمرت بذلك قامت فى الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا (ذَٰلِكَ) إشارة إلى ما سلف من الأمور البديعة وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأن المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ) أى من الأنباء المتعلقة بالغيب والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب وقوله تعالى (نُوحِيهِ إِلَيْكَ) جملة مستأنفة مبينة للأولى وقيل الخبر هو الجملة الثانية ومن أنباء الغيب إما متعلق بنوحيه أو حال من ضميره أى نوحى من أنباء الغيب أو نوحيه حال كونه من جملة أنباء الغيب وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحى لم ينقطع بعد (وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ) أى عند الذين اختلفوا وتنازعوا فى تربية مريم وهو تقرير وتحقيق لكونه وحياً على طريقة التهكم بمنكريه كما فى قوله تعالى وما كنت بجانب الغربى الآية وما كنت ثاويا فى أهل مدين الآية فان طريق معرفة أمثال هاتيك الحوادث والواقعات إما المشاهدة وإما السماع وعدمه محقق عندهم فبقى احتمال المعاينة المستحيلة ضرورة فنفيت تهكما بهم (إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ) ظرف للاستقرار العامل فى لديهم وأقلامهم أقداحهم التى اقترعوا بها وقيل اقترعوا بأقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة تبركا (أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أى يلقونها ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها (وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) أى فى شأنها تنافسا فى كفالتها حسبما ذكر فيما سبق وتكرير ما كنت لديهم مع تحقق المقصود بعطف إذ يختصمون على إذ يقولون كما فى قوله عز وجل نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه الصلاة والسلام عند إلقاء الأقلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه الصلاة والسلام لا سيما إذا أريد باختصامهم تنازعهم قبل الاقتراع فان تغيير الترتيب فى الذكر مؤكد له (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ) شروع فى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو بدل من وإذ قالت الملائكة منصوب بناصبه وما بينهما اعتراض جىء به تقرير لما سبق وتنبيها على استقلاله وكونه حقيقا بأن يعد على حياله من شواهد النبوة وترك العطف بينهما بناء على اتحاد المخاطب والمخاطب وإيذانا بتقارن الخطابين أو تقاربهما فى الزمان وقيل منصوب بمضمر معطوف على ناصبه وقيل بدل من إذ يختصمون كأنه قيل وما كنت حاضرا فى ذلك الزمان المديد الذى وقع فى طرف منه الاختصام وفى طرف آخر هذا الخطاب إشعارا بإحاطته عليه الصلاة والسلام بتفاصيل أحوال مريم من أولها إلى آخرها والقائل جبريل عليه الصلاة والسلام وإيراد صيغة الجمع لما مر (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ) من لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أى بكلمة كائنة منه عز وجل (اسْمُهُ) ذكر الضمير الراجع إلى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر وهو مبتدأ خبره (الْمَسِيحُ) وقوله تعالى (عِيسَى) بدل منه أو عطف بيان وقيل خبر آخر وقيل خبر مبتدأ محذوف وقيل منصوب بإضمار أعنى مدحا وقوله تعالى (ابْنُ مَرْيَمَ) صفة لعيسى

وقيل المراد بالاسم ما به يتميز المسمى عمن سواه فالخبر حينئذ مجموع الثلاثة إذ هو المميز له عليه الصلاة والسلام تمييزا عن جميع من عداه والمسيح لقبه عليه الصلاة والسلام وهو من الألقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه المبارك وعيسى معرب من ايشوع والتصدى لاشتقاقهما من المسح والعيس وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام مسح بالبركة أو بما يطهره من الذنوب أو مسحه جبريل عليهما الصلاة والسلام أو مسح الأرض ولم يقم فى موضع أو كان عليه الصلاة والسلام يمسح ذا العاهة فيبرأ أو بأنه كان فى لونه عيس أى بياض يعلوه حمرة من قبيل الرقم على الماء وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها تنبيها على أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه وبذلك فضلت على نساء العالمين (وَجِيهاً فِى الدُّنيا والآخرةِ) الوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف وهو حال مقدرة من كلمة فانها وإن كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينتصب بها الحال وتذكيرها باعتبار المعنى والوجاهة فى الدنيا النبوة والتقدم على الناس وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة فى الجنة (ومِنَ المقرَّبينَ) أى من الله عز وجل وقيل هو إشارة إلى رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة وهو عطف على الحال الأولى وقد عطف عليه قوله تعالى (ويُكلِّمُ النّاسَ فى المَهدِ وكَهلاً) أى يكلمهم حال كونه طفلا وكهلا كلام الأنبياء من غير تفاوت والمهد مصدر سمى به ما يمهد للصبى أى يسوى من مضجعه وقيل انه رفع شابا والمراد وكهلا بعد نزوله وفى ذكر أحواله المختلفة المتنافية إشارة إلى أنه بمعزل من الألوهية (ومِنَ الصّٰلحينَ) حال أخرى من كلمة معطوفة على الأحوال السالفة أو من الضمير فى يكلم (قالتْ) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ما قالت فقيل قالت متضرعة إلى ربها (رَبِّ أنّى يكونُ) أى كيف يكون أو من أين يكون (لى وَلَدٌ) على وجه الاستبعاد العادى والتعجب واستعظام قدرة الله عز وجل وقيل على وجه الاستفهام والاستفسار بأنه بالتزوج أو بغيره ويكون إما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتأخير الفاعل عن الجار والمجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من ولد إذ لو تأخر لكان صفة له وإما ناقصة واسمها ولد وخبرها إما أنى واللام متعلقة بمضمر وقع حالا كما مر أو خبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى (ولمْ يَمسَسنى بشرٌ) جملة حالية محققة للاستبعاد أى والحال أنى على حالة منافية للولادة (قالَ) استئناف كما سلف والقائل هو الله تعالى أو جبريل عليه الصلاة والسلام (كذلكِ اللهُ يَخلقُ ما يَشاءُ) الكلام فى اعرابه كما مر فى قصة زكريا بعينه خلا أن إيراد يخلق ههنا مكان يفعل هناك لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فان فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل ولذلك عقب ببيان كيفيته فقيل (إذا قَضى أمراً) من الأمور أى أراد شيئا كما فى قوله تعالى إنما أمره إذا أراد شيئا وأصل القضاء الأحكام أطلق على الإرادة الالهية القطعية المتعلقة بوجود الشىء لايجابها إياه البتة وقيل الأمر ومنه قوله تعالى وقضى ربك (فإنما يقولُ لهُ كُنْ) لاغير (فيَكونُ) من غير ريث وهو كما ترى تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولة تأتى المقدورات حسبما تقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للآمر القوى المطاع وبيان لأنه تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مدرجا بأسباب ومواد معتادة يقدر على خلقها دفعة من غير حاجة إلى شىء من الأسباب والمواد (ويعلِّمهُ الكِتٰبَ) أى الكتابة أو جنس الكتب الالهية (والحِكمةَ) أى العلوم وتهذيب الأخلاق (والتَّورٰىةَ والإنجِيلَ) افرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة لزيادة فضلهما وإنافتهما على غيرهما والجملة عطف على يبشرك أو على وجيها أو على يخلق أو هو كلام مبتدأ سيق تطييبا لقلبها وإزاحة لما أهمها من خوف اللائمة لما علمت أنها تلد من غير زوج وقرىء ونعلمه بالنون

(وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ) منصوب بمضمر يعود اليه المعنى معطوف على يعلمه أى ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل أى كلهم وقال بعض اليهود إنه كان مبعوثا إلى قوم مخصوصين ثم قيل كان رسولا حال الصبا وقيل بعد البلوغ وكان أول أنبياء بنى إسرائيل يوسف عليه الصلاة والسلام وآخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل أولهم موسى وآخرهم عيسى عليهم الصلاة والسلام وقوله تعالى (أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ) معمول لرسولا لما فيه من معنى النطق أى رسولا ناطقا بأنى الخ وقيل منصوب بمضمر معمول لقول مضمر معطوف على يعلمه أى ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ وقيل معطوف على الأحوال السابقة ولا يقدح فيه كونها فى حكم الغيبة مع كون هذا فى حكم التكلم لما عرفت من أن فيه معنى النطق كأنه قيل حال كونه وجيها ورسولا ناطقا بأنى الخ وقرىء ورسول بالجر عطفا على كلمة والباء فى قوله تعالى (بِآيَةٍ) متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل الفعل على أنها للملابسة والتنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها وكثرتها وقرىء بآيات أو بجئتكم على أنها للتعدية ومن فى قوله تعالى (مِن رَّبِّكُمْ) لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية أى قد جئتكم متلبسا بآية عظيمة كائنة من ربكم أو أتيتكم بآية عظيمة كائنة منه تعالى والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال بما سيأتى من الأوامر وقوله تعالى (أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) بدل من قوله تعالى أنى قد جئتكم ومحله النصب على نزع الجار عند سيبويه والفراء والجر على رأى الخليل والكسائى أو بدل من آية وقيل منصوب بفعل مقدر أى أعنى أنى الخ وقيل مرفوع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هى أنى أخلق لكم وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف أى أقدر لكم أى لأجل تحصيل إيمانكم ودفع تكذيبهم إياى من الطين شيئا مثل صورة الطير (فَأَنفُخُ فِيهِ) الضمير للكاف أى فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير وقرىء فأنفخ فيها على أن الضمير للهيئة المقدرة أى أخلق لكم من الطين هيئة كهيئة الطير فأنفخ فيها (فَيَكُونُ طَيْراً) حيا طيارا كسائر الطيور (بِإِذْنِ اللَّهِ) بأمره تعالى أشار عليه الصلاة والسلام بذلك إلى أن احياءه من الله تعالى لامنه. قيل لم يخلق غير الخفاش. روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق الخفاش فأخذ طينا وصوره ونفخ فيه فاذا هو يطير بين السماء والأرض. قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون اليه فاذا غاب من أعينهم سقط ميتا ليتميز من خلق الله تعالى قيل إنما طلبوا خلق الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا وأبلغ دلالة على القدرة لأن له ثديا وأسنانا وهى تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوان وتضحك كما يضحك الإنسان وتطير بغير ريش ولا تبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما ترى فى ساعتين ساعة بعد الغروب وساعة بعد طلوع الفجر وقيل خلق أنواعا من الطير (وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ) أى الذى ولد أعمى أو الممسوح العين (وَالأَبْرَصَ) المبتلى بالبرص لم تكن العرب تنفر من شىء نفرتها منه ويقال له الوضح أيضا وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيا الأطباء وكانوا فى غاية الحذاقة فى زمنه عليه الصلاة والسلام فأراهم الله تعالى المعجزة من ذلك الجنس. روى أنه عليه الصلاة والسلام ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداويه إلا بالدعاء (وَأُحْيِى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) كرره مبالغة فى دفع وهم من توهم فيه اللاهوتية. قال الكلبى كان عليه الصلاة والسلام يحيى الموتى بياحى ياقيوم. أحيا عازر وكان صديقا له فعاش وولد له ومر على ابن عجوز ميت فدعا الله تعالى فنزل عن سريره حيا ورجع إلى أهله وبقى وولد له وبنت العاشر أحياها وولدت بعد ذلك فقالوا إنك تحيى من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحى لنا سام بن نوح فقال دلونى على قبره ففعلوا فقام على قبره فدعا الله عز وجل فقام من قبره وقد شاب رأسه فقال عليه السلام كيف شبت ولم يكن فى زمانكم شيب قال ياروح الله لما دعوتنى

سمعت صوتا يقول أجب روح الله فظننت أن الساعة قد قامت فمن هول ذلك شبت فسأله عن النزع قال يا روح الله ان مرارته لم تذهب من حنجرتي وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة وقال للقوم صدقوه فانه نبي الله فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فأرنا آية فقال يا فلان أكلت كذا ويا فلان خبيء لك كذا وذلك قوله تعالى (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) أي بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها وقرىء تذخرون بالذال والتخفيف (إن في ذلك) اشارة إلى ما ذكر من الامور العظام (لآية) عظيمة وقرىء لآيات (لكم) دالة على صحة رسالتي دلالة واضحة (ان كنتم مؤمنين) جواب الشرط محذوف لانصباب المعنى اليه أو دلالة المذكور عليه أي انتفعتم بها أو ان كنتم ممن يتأتى منهم الإيمان دلتكم على صحة رسالتي والإيمان بها (ومصدقا لما بين يدي من التوراة) عطف على المضمر الذي تعلق به قوله تعالى بآية أي قد جئتكم ملتبسا بآية الخ ومصدقا لما بين يدي الخ أو على رسولا على الاوجه الثلاثة فان مصدقا فيه معنى النطق كما في رسولا أي ويجعله مصدقا ناطقا بأني أصدق الخ أو ويقول أرسلت رسولا بأني قد جئتكم الخ ومصدقا الخ أو حال كونه مصدقا ناطقا بأني أصدق الخ أو منصوب باضمار فعل دل عليه قد جئتكم أي وجئتكم مصدقا الخ وقوله من التوراة اما حال من الموصول والعامل مصدقا واما من ضميره المستتر في الظرف الواقع صلة والعامل الاستقرار المضمر في الظرف أو نفس الظرف لقيامه مقام الفعل (ولأحل لكم) معمول لمضمر دل عليه ماقبله أي وجئتكم لأحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم جئته معتذرا ولاجتلب رضاه كأنه قيل قد جئتكم لاصدق ولاحل الخ وقيل عطف على بآية أي قد جئتكم بآية من ربكم ولأحل لكم (بعض الذي حرم عليكم) أي في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام من الشحوم والثروب والسمك ولحوم الإبل والعمل في السبت. قيل أحل لهم من السمك والطير مالا صيصة له واختلف في احلال السبت وقرىء حرم على تسمية الفاعل وهو ما بين يدي أو الله عز وجل وقرىء حرم بوزن كرم وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخا لبعض أحكام التوراة ولا يخل ذلك بكونه مصدقا لها لما أن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الازمان وتأخير المفعول عن الجار والمجرور لما مر مرارا من المبادرة إلى ذكر مايسر المخاطبين والتشويق إلى ما أخر (وجئتكم بآية من ربكم) شاهدة على صحة رسالتي وقرىء بآيات (فاتقوا الله) في عدم قبولها ومخالفة مدلولها (وأطيعون) فيما آمركم به وانهاكم عنه بأمر الله تعالى وتلك الآية هي قولي (إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) فانه الحق الصريح الذي أجمع عليه الرسل قاطبة فيكون آية بينة على أنه عليه الصلاة والسلام من جملتهم وقرىء أن الله بالفتح بدلا من آية أو قد جئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أي قد جئتكم بآية بعد آية مما ذكرت لكم من خلق الطير وابراء الاكمه والابرص والاحياء والانباء بالخفيات ومن غيره من ولادتي بغير أب ومن كلامي في المهد ومن غير ذلك والأول لتمهيد الحجة والثاني لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله فاتقوا الله أي لما جئتكم بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم اليه ومعنى قراءة من فتح ولأن الله ربي وربكم فاعبدوه كقوله تعالى لايلاف قريش الخ ثم شرع في الدعوة وأشار اليها بالقول المجمل فقال ان الله ربي وربكم اشارة إلى أن استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد وقال فاعبدوه اشارة إلى استكمال القوة العملية فانه يلازم الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام قل آمنت بالله ثم استقم (فلما أحس عيسى منهم الكفر) شروع في بيان ما آل أحواله عليه

السلام اثر ما أشير إلى طرف منها بطريق النقل عن الملائكة والفاء فصيحة تفصح عن تحقق جميع ماقالته الملائكة وخروجه من القوة إلى الفعل حسبما شرح كما فى قوله تعالى فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله تعالى أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك كأنه قيل فحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت وإنما لم يذكر اكتفاء بحكاية الملائكة وإيذانا بعدم الخلف وثقة بما فصل فى المواضع الأخر وأما عدم نظم بقية أحواله عليه الصلاة والسلام فى سلك النقل فاما للاعتناء بأمرها أو لعدم مناسبتها لمقام البشارة لما فيها من ذكر مقاساته عليه الصلاة والسلام للشدائد ومعاناته للمكايد والمراد بالاحساس الادراك القوى الجارى مجرى المشاهدة وبالكفر اصرارهم عليه وعتوهم ومكابرتهم فيه مع العزيمة على قتله عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه الاحساس فانه إنما يستعمل فى أمثال هذه المواقع عند كون متعلقه أمرا محذورا مكروها كما فى قوله عزوجل فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون وكلمة من متعلقة بأحس والضمير المجرور لبنى اسرائيل أى ابتدأ الاحساس من جهتهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل متعلقة بمحذوف وقع حالا من الكفر (قالَ) أى لخلص أصحابه لا لجميع بنى اسرائيل لقوله تعالى كما قال عيسى ابن مريم للحواريين الآية وقوله تعالى فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة ليس بنص فى توجيه الخطاب إلى الكل بل يكفى فيه بلوغ الدعوة اليهم (مَنْ أنصَارِى) الانصار جمع نصير كأشراف جمع شريف (إلى اللهِ) متعلق بمحذوف وقع حالا من الياء أى من أنصارى متوجها إلى الله ملتجئا اليه أو بأنصارى متضمنا معنى الاضافة كأنه قيل من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله عزوجل ينصروننى كما ينصرنى وقيل إلى بمعنى فى أى فى سبيل الله وقيل بمعنى اللام وقيل بمعنى مع (قالَ) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابه عليه الصلاة والسلام فقيل قال (الحَوارِيُّونَ) جمع حوارى يقال فلان حوارى فلان أى صفوته وخالصته من الحور وهو البياض الخالص ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن ونقائهن سمى به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم وقيل لما عليهم من آثار العبادة وأنوارها وقيل كانوا ملوكا يلبسون البيض وذلك أن واحدا من الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام على قصعة لا يزال يأكل منها ولا تنقص فذكروا ذلك للملك فاستدعاه عليه الصلاة والسلام فقال له من أنت قال عيسى ابن مريم فترك ملكه وتبعه مع أقاربه فأولئك هم الحواريون وقيل كانوا صيادين يصطادون السمك يلبسون الثياب البيض فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام فقال لهم أنتم تصيدون السمك فان اتبعتمونى صرتم بحيث تصيدون الناس بالحياة الأبدية قالوا من أنت قال عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئا فأمره عيسى عليه الصلاة والسلام بالقائها فى الماء مرة أخرى ففعل فاجتمع فى الشبكة من السمك ما كادت تتمزق واستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام وقيل كانوا اثنى عشر رجلا آمنوا به عليه الصلاة والسلام واتبعوه وكانوا إذا جاعوا قالوا اجعنا ياروح الله فيضرب بيده الأرض فيخرج منها لكل واحد رغيفان واذا عطشوا قالوا اعطشنا فيضرب بيده الأرض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من أفضل منا قال عليه الصلاة والسلام أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالأجرة فسموا حواريين وقيل ان أمه سلمته إلى صباغ فأراد الصباغ يوما أن يشتغل ببعض مهماته فقال له عليه الصلاة والسلام ههنا ثياب مختلفة قد جعلت لكل واحد منها علامة معينة فاصبغها بتلك الألوان فغاب فجعل عليه الصلاة والسلام كلها فى جب واحد وقال كونى باذن الله كما أريد فرجع الصباغ فسأله فأخبره

بما صنع فقال أفسدت على الثياب قال قم فانظر فجعل يخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر إلى أن أخرج الجميع على أحسن ما يكون حسبما كان يريد فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه الصلاة والسلام وهم الحواريون قال القفال ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثنى عشر من الملوك وبعضهم من صيادى السمك وبعضهم من القصارين وبعضهم من الصباغين والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه الصلاة والسلام وأعوانه والمخلصين فى طاعته ومحبته (نحن أنصار الله) أى أنصار دينه ورسوله (آمنا بالله) استئناف جار مجرى العلة لما قبله فان الإيمان به تعالى موجب لنصرة دينه والذب عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه (واشهد بأنا مسلمون) مخلصون فى الإيمان منقادون لما تريدمنا من نصرتك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الشهادة بذلك يوم القيامة يوم يشهد الرسل عليهم الصلاة والسلام لأممهم وعليهم إيذانا بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية (ربنا آمنا بما أنزلت) تضرع إلى الله عز وجل وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة فى إظهار أمرهم (واتبعنا الرسول) أى فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين فيدخل فيه الاتباع فى النصرة دخولا أوليا (فاكتبنا مع الشاهدين) أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك أو مع الأنبياء الذين يشهدون لاتباعهم أو مع أمة محمد عليه الصلاة والسلام فانهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا (ومكروا) أى الذين علم عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة (ومكر الله) بأن رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث أنه فى الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يمكن إسناده إليه سبحانه إلا بطريق المشاكلة. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ملك بنى إسرائيل لما قصد قتله عليه الصلاة والسلام أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم أدخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وقيل إنه عليه الصلاة والسلام جمع الحواريين ليلة وأوصاهم ثم قال ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فنافق أحدهم فقال لهم ماتجعلون لى ان دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فألقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام ورفعه إلى السماء فأخذوا المنافق وهو يقول أنا دليلكم فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فان كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم قتال عظيم وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله تعالى من الجنون بدعاء عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءهما فقال علام تبكيان فقالتا عليك فقال إن الله تعالى رفعنى ولم يصبنى الاخير وان هذا شىء شبه لهم قال محمد بن إسحق ان اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له إن رجلا من بنى اسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم احياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وفعل وفعل فقال لو علمت ذلك ماخليت بينهم وبينه ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه الصلاة والسلام فأخبروه فبايعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها ثم غزا بنى إسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية فى الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له ططيوس وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو من أربعين سنة فقتل وسبى ولم يترك فى مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز قال أهل التواريخ حملت مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من

أرض أورى شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل وأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ) أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على ايصال الضرر من حيث لا يحتسب وإظهار الجلالة فى موقع الاضمار لتربية المهابة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله (إِذْ قَالَ اللَّهُ) ظرف لمكر الله أو لمضمر نحو وقع ذلك (يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ) أى مستوفى أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصما لك من قتلهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أو متوفيك نائما إذ روى أنه رفع وهو نائم وقيل مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن أو مميتك من الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت وقيل أماته الله تعالى سبع ساعات ثم رفعه الى السماء وإليه ذهبت النصارى . قال القرطبى والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما وأصل القصة أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون وهم اثنا عشر رجلا فى غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبرهم ابليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة فقال واحد منهم أنا يا نبى الله فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فكساه الله الريش والنور وألبسه النور وقطع عنه شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى إنى متوفيك فطار مع الملائكة ثم إن أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان الله فينا ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية وقالت فرقة أخرى كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهم النسطورية وقالت فرقة أخرى منهم كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء هم المسلمون فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم فلم يزل الإسلام منطمسا إلى أن بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم (وَرَافِعُكَ إِلَىَّ) أى إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس معاشرتهم (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ) قال قتادة والربيع والشعبى ومقاتل والكلبى هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من النصارى (فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا) وهم الذين مكروا به عليه الصلاة والسلام ومن يسير بسيرتهم من اليهود فان أهل الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة وقيل هم الحواريون فينبغى أن تحمل فوقيتهم على فوقية المسلمين بحكم الاتحاد فى الإسلام والتوحيد وقيل هم الروم وقيل هم النصارى فالمراد بالاتباع مجرد الادعاء والمحبة وإلا فأولئك الكفرة بمعزل من اتباعه عليه الصلاة والسلام (إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ) غاية للجعل أو للاستقرار المقدر فى الظرف لا على معنى أن الجعل أو الفوقية تنتهى حينئذ ويتخلص الكفرة من الذلة بل على معنى أن المسلمين يعلونهم إلى تلك الغاية فأما بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد (ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ) أى رجوعكم بالبعث وثم للتراخى وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب فى ضمن الالتفات فانه أبلغ فى التبشير والانذار (فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) يومئذ اثر رجوعكم إلى (فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) من أمور الدين وفيه متعلق بتختلفون وتقديمه عليه لرعاية الفواصل (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) تفسير للحكم الواقع بين الفريقين وتفصيل لكيفيته والبداية ببيان حال الكفرة لما أن مساق الكلام لتهديدهم وزجرهم عما هم عليه من الكفر والعناد وقوله تعالى (فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) متعلق بأعذبهم لا بمعنى ايقاع كل واحد من التعذيب

فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة واحداثهما يوم القيامة بل بمعنى اتمام مجموعهما يومئذ وقيل إن المرجع أعم من الدنيوى والأخروى وقوله تعالى إلى يوم القيامة غاية للفوقية لا للجعل والرجوع متراخ عن الجعل وهو غير محدود لا عن الفوقية المحدودة على نهج قولك سأعيرك سكنى هذا البيت شهرا ثم أخلع عليك خلعة فيلزم تأخر الخلع عن الاعارة لا عن الشهر (وَمالَهُمْ من نَّـٰصِرِينَ) يخلصونهم من عذاب الله تعالى فى الدارين وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أى ليس لواحد منهم ناصر واحد (وَأما الذين ءامَنوا) بما أرسلت به (وعملوا الصَّـٰلحَـٰت) كما هو ديدن المؤمنين (فيُوفِّيهِمْ أجُورَهُمْ) أى يعطيهم اياها كاملة ولعل الالتفات إلى الغيبة للايذان بما بين مصدرى التعذيب والاثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال وقرىء فنوفيهم جريا على سنن العظمة والكبرياء (والله لا يُحبُّ الظَّـٰلمين) أى يبغضهم فان هذه الكناية فاشية فى جميع اللغات جارية مجرى الحقيقة وإيراد الظلم للاشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزون عن الحدود واضعون للكفر مكان الشكر والايمان والجملة تذييل لما قبله مقرر لمضمونه (ذلكَ) اشارة الى ماسلف من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأن المشار اليه وبعد منزلته فى الشرف وعلى كونه فى ظهور الأمر ونباهة الشأن بمنزلة المشاهد المعاين وهو مبتدأ وقوله عز وجل (نتلوهُ) خبره وقوله تعالى (عليكَ) متعلق بنتلوه وقوله تعالى (مِنَ الآيٰت) حال من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وما بينهما حال من اسم الاشارة أو ذلك خبر لمبتدا مضمر أى الأمر ذلك ونتلوه حال كما مر وصيغة الاستقبال اما لاستحضار الصورة أو على معناها إذ التلاوة لم تتم بعد (والذِّكرِ الحَكيمِ) أى المشتمل على الحكم أو المحكم الممنوع من تطرق الخلل اليه والمراد به القرآن فمن تبعيضية أو بعض مخصوص منه فمن بيانية وقيل هو اللوح المحفوظ فمن ابتدائية (إن مَثَلَ عِيسىٰ) أى شأنه البديع المنتظم لغرابته فى سلك الامثال (عِندَ الله) أى فى تقديره وحكمه (كَمَثَلِ ءادمَ) أى كحاله العجيبة التى لا يرتاب فيها مرتاب ولا ينازع فيها منازع (خَلَقَهُ مِن تُرابٍ) تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما وحسم لمادة شبه الخصوم فان انكار خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه الصلاة والسلام بغير أب وأم مما لا يكاد يصح والمعنى خلق قالبه من تراب (ثم قالَ لهُ كُنْ) أى أنشأه بشرا كما فى قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخى الاخبار لا لتراخى المخبر به (فيكونُ) حكاية حال ماضية. روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مالك تشتم صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول أنه عبد قال أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا من غير أب فحيث سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله فقال عليه الصلاة والسلام ان آدم عليه الصلاة والسلام ما كان له أب ولا أم ولم يلزم من ذلك كونه ابنا لله سبحانه وتعالى فكذا حال عيسى عليه الصلاة والسلام (الحَقُّ مِن ربِّكَ) خبر مبتدا محذوف أى هو الحق أى ماقصصنا عليك من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه والظرف اما حال أى كائنا من ربك أو خبر ثان أى كائن منه تعالى وقيل هما مبتدأ وخبر أى الحق المذكور من الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتشريفه عليه الصلاة والسلام والايذان بأن تنزيل هذه الآيات الحقة الناطقة بكنه الأمر تربية له عليه الصلاة والسلام ولطف به (فلاَ تكنْ مِّنَ المُمترينَ) فى ذلك والخطاب اما للنبى صلى الله عليه وسلم على طريقة الالهاب والتهييج لزيادة التثبيت والاشعار بأن الامتراء فى المحذور به بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يكاد يمكن صدوره عنه فكيف بمن هو بصدد الامتراء واما لكل من له صلاحية الخطاب (فمَنْ حاجّكَ) أى من النصارى اذ هم المتصدون للمحاجة (فيه) أى فى شأن عيسى

عليه السلام وأمه زعمامنهم أنه ليس على الشأن المحكى (مِن بَعدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلمِ) أى ما يوجبه إيجابا قطعيا من الآيات البينات وسمعوا ذلك منك فلم يرعووا عماهم عليه من الغى والضلال (فقُل) لهم (تعالَوا) أى هلموا بالرأى والعزيمة (ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم) اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعز منهن وأما النساء فتعلقهن من جهة أخرى (ونساءَنا ونساءَكم وأنفسَنا وأنفسَكم) أى ليدع كل مناومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحملهم عليها وتقديمهم على النفس فى أثناء المباهلة التى هى من باب المهالك ومظان التلف مع أن الرجل يخاطر لهم بنفسه ويحارب دونهم للايذان بكمال أمنه عليه الصلاة والسلام وتمام ثقته بأمره وقوة يقينه بأنه لن يصيبهم فى ذلك شائبة مكروه أصلا وهو السر فى تقديم جانبه عليه السلام على جانب المخاطبين فى كل من المقدم والمؤخر مع رعاية الأصل فى الصيغة فان غير المتكلم تبع له فى الإسناد (ثمّ نبتهِل) أى نتباهل بأن نلعن الكاذب مناوالبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصلها الترك من قولهم بهلت الناقة أى تركتها بلا صرار (فنجعَل لعنَتَ اللهِ على الكاذِبينَ) عطف على نبتهل مبين لمعناه . روى أنهم لما دعوا الى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم ياعبد المسيح ماترى فقال والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ماباهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فان أبيتم الا الف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها رضى الله عنهم أجمعين وهو يقول اذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى انى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة فقالوا ياأبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا قال صلى الله عليه وسلم فاذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعلى المسلمين فأبوا قال عليه الصلاة والسلام فانى أناجزكم فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى اليك كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر وألفا فى رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال والذى نفسى بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا (إن هذا) أى ماقص من نبأ عيسى وأمه عليهما السلام (لهُوَ القصَصُ الحقُّ) دون ما عداه من أكاذيب النصارى فهو ضمير الفصل دخلته اللام لكونه أقرب الى المبتدا من الخبر وأصلها أن تدخل المبتدأ وقرىء لهو بسكون الهاء والقصص خبر ان والحق صفته أو هو مبتدأ والقصص خبره والجلة خبر لان (وما مِنْ إلهٍ إلا اللهُ) صرح فيه بمن الاستغراقية تأكيدا للرد على النصارى فى تثليثهم (وإن اللهَ لهُوَ العزيزُ) القادر على جميع المقدورات (الحكيمُ) المحيط بالمعلومات لا أحد يشاركه فى القدرة والحكمة ليشاركه فى الألوهية (فإن توَلَّوا) عن التوحيد وقبول الحق الذى قص عليك بعدما عاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة (فإن اللهَ عليمٌ بالمفسدِينَ) أى بهم وانما وضع موضعه ماوضع للإيذان بأن الاعراض عن التوحيد والحق الذى لا محيد عنه بعدما قامت به الحجج افساد للعالم وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى (قُل ياأهلَ الكتابِ) أمر بخطاب أهل الكتابين وقيل بخطاب وفد نجران وقيل بخطاب يهود المدينة (تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بينَنا وبينَكم) لا يختلف فيها الرسل والكتب وهى (ألا نعبُدَ إلا اللهَ) أى نوحده بالعبادة ونخلص فيها (ولا نُشرِكَ به شيئاً) ولا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لأن يعبد (ولا يتخِذَ بعضُنا

بَعضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ) بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا . روى أنه لما نزلت اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال عليه السلام أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال عليه السلام هو ذاك (فَإِن تَوَلَّوْا) عما دعوتهم اليه من التوحيد وترك الاشراك (فَقُولُوا) أى قل لهم أنت والمؤمنون (اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) أى لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم السلام — تنبيه — انظر إلى ما روعى فى هذه القصة من المبالغة فى الارشاد وحسن التدرج فى المحاجة حيث بين أولا أحوال عيسى عليه السلام وما تواردعليه من الاطوار المنافية للالهية ثم ذكر كيفية دعوته للناس إلى التوحيد والإسلام فلما ظهر عنادهم دعوا إلى المباهلة بنوع من الاعجاز ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام والإنجيل وسائر الأنبياء عليهم السلام والكتب ثم لما ظهر عدم اجدائه أيضا أمر بأن يقال لهم اشهدوا بأنا مسلمون (يٰأَهْلَ الْكِتٰبِ) من اليهود والنصارى (لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرٰهِيمَ) أى فى ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصارى فى ابراهيم عليه السلام وزعم كل منهم أنه عليه السلام منهم وترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم (وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرٰىةُ) على موسى عليه الصلاة والسلام (وَالْإِنجِيلُ) على عيسى عليه الصلاة والسلام (إِلَّا مِن بَعْدِهِ) حيث كان من بينه وبين موسى عليهما السلام ألف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة فكيف يمكن أن يتفوه به عاقل (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه (هٰأَنتُمْ هٰؤُلَاءِ) جملة من مبتدا وخبر صدرت بحرف التنبيه ثم بينت بجملة مستأنفة اشعارا بكمال غفلتهم أى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمق حيث (حٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ) فى الجملة حيث وجدتموه فى التوراة والإنجيل (فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ) أصلا اذلا ذكر لدين ابراهيم فى أحد الكتابين قطعا وقيل هؤلاء بمعنى الذى وحاججتم صلته وقيل ها أنتم أصله أأنتم على الاستفهام للتعجب قلبت الهمزة هاء (وَاللهُ يَعْلَمُ) ما حاججتم فيه أو كل شىء فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا (وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أى محل النزاع أو شيأ من الأشياء التى من جملتها ذلك (مَا كَانَ إِبْرٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا) تصريح بما نطق به البرهان المقرر (وَلٰكِن كَانَ حَنِيفًا) أى مائلا عن العقائد الزائغة كلها (مُّسْلِمًا) أى منقاداً لله تعالى وليس المراد انه كان على ملة الإسلام والا لاشترك الالزام (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تعريض بأنهم مشركون بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرٰهِيمَ) أى أقربهم اليه وأخصهم به (لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) أى فى زمانه (وَهٰذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا) لموافقتهم له فى أكثر ما شرع لهم على الاصالة وقرىء والنبى بالنصب عطفا على الضمير فى اتبعوه وبالجر عطفا على ابراهيم (وَاللهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ) ينصرهم ويجازيهم الحسنى بايمانهم وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبت الحكم فى النبى صلى الله عليه وسلم بدلالة النص (وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ) نزلت فى اليهود حين دعوا حذيفة وعمارا ومعاذا إلى اليهودية ولو بمعنى أن (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ) جملة حالية جىء بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم أى وما يتخطاهم الاضلال ولا يعود وباله الا اليهم لما أنه يضاعف به عذابهم وقيل وما يضلون الا أمثالهم ويأباه قوله تعالى (وَمَا يَشْعُرُونَ) أى باختصاص وباله وضرره بهم (يٰأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايٰتِ اللهِ) أى بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) أى والحال أنكم تشهدون انها آيات

الله أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعته فى الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حق (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) بتحريفكم وإبراز الباطل فى صورته أو بالتقصير فى التمييز بينهما وقرىء تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل كما فى قوله عليه السلام كلابس ثوبى زور (وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ) أى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أى حقيته (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) وهم رؤساؤهم ومفسدوهم لأعقابهم (آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) أى أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل عليهم (وَجْهَ النَّهَارِ) أى أوله (وَاكْفُرُوا) أى أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به (آخِرَهُ) مرائين لهم أنكم آمنتم به بادىء الرأى من غير تأمل ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأول فرجعتم عنه (لَعَلَّهُمْ) أى المؤمنين (يَرْجِعُونَ) عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتم والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وقيل هم اثنا عشر رجلا من أحبار خيبر تقاولوا بأن يدخلوا فى الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعت الذى ورد فى التوراة لعل أصحابه يشكون فيه (وَلَا تُؤْمِنُوا) أى لا تقروا بتصديق قلبى (إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) أى لأهل دينكم أو لا تظهروا إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم من قبل فإن رجوعهم أرجى وأهم (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) يهدى به من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه (أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) متعلق بمحذوف أى دبرتم ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم بلا تؤمنوا أى ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياعكم ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام وقوله تعالى قل إن الهدى هدى الله اعتراض مفيد لكون كيدهم غير مجد لطائل أو خبر إن على أن هدى الله بدل من الهدى وقرىء أأن يؤتى على الاستفهام التقريعى وهو مؤيد للوجه الأول أى ألأن يؤتى أحد الخ دبرتم وقرىء إن على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم (أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ) عطف على يؤتى على الوجهين الأولين وعلى الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم والواو ضمير أحد لأنه فى معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) رد لهم وإبطال لما زعموه بالحجة الباهرة (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ) أى يجعل رحمته مقصورة على (مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) شروع فى بيان خيانتهم فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين والجار والمجرور فى محل الرفع على الابتداء حسبما مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ خبره قوله تعالى (مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) على أن المقصود بيان اتصافهم بمضمون الجملة الشرطية لا كونهم ذوات المذكورين كأنه قيل بعض أهل الكتاب بحيث إن تأمنه بقنطار أى بمال كثير يؤده إليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية ذهبا فأداه إليه (وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر دينارا فجحده وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة والخائنون فى القليل اليهود إذ الغالب فيهم الخيانة (إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال دوام قيامك أو فى وقت دوام قيامك على رأسه مبالغا فى مطالبته بالتقاضى وإقامة البينة (ذَلِكَ) إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله تعالى لا يؤده وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال غلوهم فى الشر والفساد (بِأَنَّهُمْ) أى بسبب أنهم (قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ) أى فى شأن من ليس من أهل الكتاب

(سبيل) أى عتاب ومؤاخذة (ويقولون على الله الكذب) بادعائهم ذلك (وهم يعلمون) أنهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل فى التوراة فى حقهم حرمة وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك فى كتابهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها كذب أعداء الله ما من شىء فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى إلا الأمانة فانها مؤداة إلى البر والفاجر (بلى) اثبات لما نفوه أى بلى عليهم فيهم سبيل وقوله تعالى (من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) استئناف مقرر للجملة التى سد بلى مسدها والضمير المجرور لمن أو لله تعالى وعموم المتقين نائب مناب الراجع من الجزاء إلى من ومشعر بأن التقوى ملاك الأمر عام للوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهى (إن الذين يشترون) أى يستبدلون ويأخذون (بعهد الله) أى بدل ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم والوفاء بالأمانات (وأيمانهم) وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه (ثمنا قليلا) هو حطام الدنيا (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات القبيحة (لا خلاق) لا نصيب (لهم فى الآخرة) من نعيمها (ولا يكلمهم الله) أى بما يسرهم أو بشىء أصلا وانما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ والتقريع فى أثناء الحساب من الملائكة عليهم السلام أو لا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته والظاهر أنه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك لقوله تعالى (ولا ينظر إليهم يوم القيمة) فانه مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم متفرع على الكناية فى حق من يجوز عليه النظر لأن من اعتد بالإنسان التفت اليه وأعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والاحسان وإن لم يكن ثمة نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرد المعنى الاحسان مجازا عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ويوم القيامة متعلق بالفعلين وفيه تهويل للوعيد (ولا يزكيهم) أى لا يثنى عليهم أو لا يطهرهم من أوضار الأوزار (ولهم عذاب أليم) على ما فعلوه من المعاصى قيل انها نزلت فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا الرشوة على ذلك وقيل نزلت فى الأشعث بن قيس حيث كان بينه وبين رجل نزاع فى بئر فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له شاهداك أو يمينه فقال الأشعث اذن يحلف ولا يبالى فقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان وقيل فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به (وإن منهم) أى من اليهود المحرفين (لفريقا) ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضرابهما (يلوون ألسنتهم بالكتب) أى يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف أو يعطفونها بشبه الكتاب وقرىء يلوون بالتشديد ويلؤن بقلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها والقاء حركتها على ما قبلها من الساكن (لتحسبوه) أى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى يلوون الخ وقرىء بالياء والضمير للمسلمين (من الكتب) أى من جملته وقوله تعالى (وما هو من الكتب) حال من الضمير المنصوب أى والحال أنه ليس منه فى نفس الأمر وفى اعتقادهم أيضا (ويقولون) مع ما ذكر من اللى والتحريف على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض (هو) أى المحرف (من عند الله) أى منزل من عند الله (وما هو من عند الله) حال من ضمير المبتدا فى الخبر أى والحال أنه ليس من عنده تعالى فى اعتقادهم أيضا وفيه من المبالغة فى تشنيعهم وتقبيح أمرهم وكمال جراءتهم ما لا يخفى وإظهار الاسم الجليل والكتاب فى محل الاضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أنهم كاذبون ومفترون على الله تعالى وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الأشرف وغيروا

التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذى عندهم (مَاكَانَ لِبَشَرٍ) بيان لافترائهم على الأنبياء عليهم السلام حيث قال نصارى نجران ان عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه ربا حاشاه عليه السلام وابطال له اثر بيان افترائهم على الله سبحانه وابطاله أى ماصح وما استقام لاحد وانما قيل لبشر اشعارا بعلة الحكم فان البشرية منافية للأمر الذى أسنده الكفر اليهم (أَنْ يُؤْتِيَهُ الْكِتَابَ) الناطق بالحق الآمر بالتوحيد الناهى عن الاشراك (وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) الفهم والعلم أو الحكمة وهى السنة والنبوة (ثُمَّ يَقُولَ) ذلك البشر ماشرفه الله عز وجل بماذكر من التشريفات وعرفه الحق وأطلعه على شئونه العالية (لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي) الجار متعلق بمحذوف هو صفة عبادا أى عبادا كائنين (مِنْ دُونِ اللهِ) متعلق بلفظ عبادا لما فيه من معنى الفعل أو صفة ثانية له ويحتمل الحالية لتخصص النكرة بالوصف اى متجاوزين الله تعالى سواء كان ذلك استقلالا أو اشتراكا فان التجاوز متحقق فيهما حتما قيل ان أبارافع القرظى والسيد النجرانى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال عليه السلام معاذ الله أن يعبد غير الله تعالى وأن نأمر بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى فنزلت وقيل قال رجل من المسلمين يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال عليه السلام لاينبغى أن يسجد لأحد من دون الله تعالى ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله (وَلَكِنْ كُونُوا) أى ولكن يقول كونوا (رَبَّانِيِّينَ) الربانى منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحيانى والرقبانى وهو الكامل فى العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه (بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) أى بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته أى قراءته فان جعل خبر كان مضارعا لافادة الاستمرار التجددى وتكرير بما كنتم للايذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثانى لمن دونهم وقرىء تعلمون بمعنى عالمين وتدرسون من التدريس وتدرسون من الادراس بمعنى التدريس كأكرم بمعنى كرم ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضا بهذا المعنى على تقدير بما تدرسونه على الناس (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا) بالنصب عطفا ثم يقول ولا مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله تعالى ما كان لبشر أى ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا وتوسيط الاستدراك بين المعطوفين المسارعة إلى تحقيق الحق ببيان مايليق بشأنه ويحق صدوره عنه اثر تنزيهه عما لايليق بشأنه ويمتنع صدوره عنه وأما ماقيل من أنها غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أربابا بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة فيقضى بفساده ماذكر من توسيط الاستدراك بين الجملتين المتعاطفتين ضرورة أنهما حينئذ فى حكم جملة واحدة وكذا قوله تعالى (أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ) فانه صريح فى أن المراد بيان انتفاء كلا الأمرين قصد الايان انتفاء الأول لانتفاء الثانى ويعضده قراءة الرفع على الاستئناف وتجويز الحالية بتقدير المبتدأ أى وهو لا يأمركم إلى آخره بين الفساد لما عرفته آنفا وقوله تعالى (بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) يدل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون للسجود له عليه السلام (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ) منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى اذكر وقت أخذه تعالى ميثاقهم (لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) قيل هو ظاهره واذا كان هذا حكم الانبياء عليهم السلام كان الأمم بذلك أولى وأحرى وقيل معناه أخذ الميثاق من النبيين وأممهم واستغنى بذكرهم عن ذكرهم وقيل اضافة الميثاق إلى النبيين إضافة إلى الفاعل والمعنى واذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه الانبياء على أممهم وقيل المراد أولاد النبيين على حذف

المضاف وهم بنو إسرائيل أو سماهم نبيين تهكما بهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لأنا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا واللام فى لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية وقرىء لما بالكسر على أن ما مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب ثم لمجىء رسول مصدق أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه أو موصولة والمعنى أخذه للذى آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له وقرىء لما بمعنى حين آتيتكم أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقالا (قالَ) أى الله تعالى بعد ما أخذ الميثاق (ءَأَقْرَرْتُمْ) بما ذكر (وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِى) أى عهدى سمى به لأنه يؤصر أى يشد وقرىء بضم الهمزة إمالغة كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به (قَالُوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا (أَقْرَرْنَا) وإنما لم يذكر أخذهم الاصر اكتفاء بذلك (قالَ) تعالى (فَاشْهَدُوا) أى فليشهد بعضكم على بعض بالاقرار وقيل الخطاب فيه للملائكة (وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّٰهِدِينَ) أى وأنا أيضا على إقراركم ذلك وتشاهدكم شاهد وإدخال مع على المخاطبين لما أنهم المباشرون للشهادة حقيقة وفيه من التأكيد والتحذير ما لا يخفى (فَمَنْ تَوَلّٰى) أى أعرض عما ذكر (بَعْدَ ذٰلِكَ) الميثاق والتوكيد بالاقرار والشهادة فمعنى البعد فى اسم الإشارة لتفخيم الميثاق (فَأُولٰئِكَ) إشارة إلى من والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى تولى باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى السوء وبعد منزلتهم فى الشر والفساد أى فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة (هُمُ الْفٰسِقُونَ) المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فان الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزا عن الحد (أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ) عطف على مقدر أى أيتولون فيبغون غير دين الله وتقديم المفعول لأنه المقصود انكاره أو على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للانكار وقرىء بتاء الخطاب على تقدير وقل لهم (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) جملة حالية مفيدة لوكادة الانكار (طَوْعًا وَكَرْهًا) أى طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجىء إلى الاسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فانهم لا يقدرون على الامتناع عما قضى عليهم (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) أى من فيهما والجمع باعتبار المعنى وقرىء بتاء الخطاب والجملة إما معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحالية وإما مستأنفة سيقت للتهديد والوعيد (قُلْ ءَامَنَّا بِاللهِ) أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه ومن معه من المؤمنين بالإيمان بما ذكر وجمع الضمير فى قوله تعالى (وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا) وهو القرآن لما أنه منزل عليهم أيضا بتوسط تبليغه اليهم أو لأن المنسوب إلى واحد من الجماعة قد ينسب إلى الكل أو عن نفسه فقط وهو الأنسب بما بعده والجمع لإظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك ويجوز أن يكون الأمر عاما والافراد لتشريفه عليه السلام والإيذان بأنه عليه السلام أصل فى ذلك كما فى قوله تعالى يا أيها النبى إذا طلقتم النساء (وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) من الصحف والنزول كما يعدى بالى لانتهائه إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق ومن رام الفرق بأن على لكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والى لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسف ألا يرى إلى قوله تعالى بما أنزل اليك الخ وقوله آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا الخ وإنما قدم المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أنزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدمه عليه نزولا لأنه المعروف له والعيار عليه والاسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم عليه السلام (وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ) من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما كما

ينبيء عنه ايثار الايتاء على الانزال الخاص بالكتاب وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى (وَالنَّبِيُّونَ) عطف على موسى وعيسى عليهما السلام أي وما أوتي النبيون من المذكورين وغيرهم (مِن رَّبِّهِمْ) من الكتب والمعجزات (لا نفرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنهُمْ) كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بصحة نبوة كل منهم وبحقية ما أنزل اليهم فى زمانهم وعدم التعرض لنفي التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور إياه وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وهمزة أحد اما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس واما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفي وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أي بين أحد منهم وغيرهم كما فى قول النابغة :

فما كان بين الخير إذ جاء سالما أبو حجر الا ليال قلائل

أى بين الخير وبيني (وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) أى منقادون أو مخلصون له تعالى أنفسنا لا نجعل له شريكا فيها وفيه تعريض بايمان أهل الكتاب فانه بمعزل من ذلك (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ) أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحا والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين (دِيناً) ينتحل اليه وهو نصب على أنه مفعول ليبتغ وغير الإسلام حال منه لما أنه كان صفة له فلما قدمت عليه انتصبت حالا أو هو المفعول ودينا تمييز لما فيه من الإبهام أو بدل من غير الاسلام (فَلَن يُقْبَلَ) ذلك (مِنْهُ) أبدا بل يرد أشد رد وأقبحه وقوله تعالى (وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) إما حال من الضمير المجرور أو استئناف لا محل له من الاعراب أى من الواقعين فى الخسران والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع فى الخسران بإبطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الاسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل والجواب أنه ينفي قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره (كَيْفَ يَهْدِي اللهُ) إلى الحق (قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ) قيل هم عشرة رهط ارتدوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكة وقيل هم يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعثه (وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) استبعاد لأن يهديهم الله تعالى فان الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك فى الضلال بعيد عن الرشاد وقيل نفي وإنكار له وذلك يقتضى أن لا تقبل توبة المرتد وقوله تعالى وشهدوا عطف على إيمانهم باعتبار انحلاله إلى جملة فعلية كما فى قوله تعالى إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله الخ فانه فى قوة أن يقال بعد أن آمنوا أو حال من ضمير كفروا باضمار قد وهو دليل على أن الاقرار باللسان خارج عن حقيقة الايمان (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى الذين ظلموا أنفسهم بالاخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الايمان فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه والجملة اعتراضية أو حالية (أُولَئِكَ) إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا وهو مبتدأ وقوله تعالى (جَزَاؤُهُمْ) مبتدأ ثان وقوله تعالى (أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) خبره والجملة خبر لأولئك وهذا يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه ينفي جواز لعن غيرهم ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم أنهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون عن الهدى آيسون من الرحمة رأسا بخلاف غيرهم والمراد بالناس المؤمنون أو الكل فان الكافر أيضا يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه (خَالِدِينَ فِيهَا) فى اللعنة أو العقوبة أو النار وإن لم تذكر لدلالة الكلام عليها (لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) أى يمهلون (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ) أى من بعد الارتداد (وَأَصْلَحُوا) أى

ماأفسدوا أودخلوا فى الصلاح (فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ) فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وهو تعليل لمادل عليه الاستثناء وقيل نزلت فى الحرث بن سويد حين ندم على ردته فأرسل إلى قومه أن يسألوا هل لى من توبة فأرسل إليه أخوه الحلاس الآية فرجع إلى المدينة فتاب (إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثمّ ازدادوا كفراً) كاليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد الإيمان بموسى عليه السلام والتوراة ثم ازدادوا كفرا حيث كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن أو كفروا به عليه السلام بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالاصرار عليه والطعن فيه والصدعن الإيمان ونقض الميثاق أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفرا بقولهم نتربص به ريب المنون أونرجع إليه فننافقه باظهار الإيمان (لن تقبل توبتهم) لأنهم لايتوبون إلاعند إشرافهم على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظا فى شأنهم وإبرازا لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة أولأن توبتهم لاتكون إلانفاقا لارتدادهم وازديادهم كفرا ولذلك لم تدخل فيه الفاء (وأولئك هم الضّالون) الثابتون على الضلال (إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ فلن يقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به) لما كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول الفدية زيدت الفاء ههنا للاشعار به وملء الشيء مايملأ به وذهبا تمييز وقرىء بالرفع على أنه بدل من ملء أوخبر لمحذوف ولو افتدى محمول على المعنى كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو تصدق به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعاً ومثله معه والمثل يحذف ويراد كثيرا لأن المثلين فى حكم شيء واحد (أولئك) إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة (لهم عذابٌ أليمٌ) مؤلم اسم الإشارة مبتدأ والظرف خبره ولاعتماده على المبتدا ارتفع به عذاب أليم على الفاعلية (وما لهم من ناصرين) فى دفع العذاب عنهم أوفى تخفيفه ومن مزيدة للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أى ليس لواحد منهم ناصر واحد (لن تنالوا البرّ) من ناله نيلا إذا أصابه والخطاب للمؤمنين وهو كلام مستأنف سيق لبيان ماينفع المؤمنين ويقبل منهم اثر بيان مالاينفع الكفرة ولايقبل منهن أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى يتنافس فيه المتنافسون ولن تدركوا شأوه ولن تلحقوا بزمرة الأبرار أو لن تنالوا بر الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته (حتى تنفقوا) أى فى سبيل الله عز وجل رغبة فيما عنده ومن فى قوله تعالى (ممّا تحبّون) تبعيضية ويؤيده قراءة من قرأ بعض ماتحبون وقيل بيانية وما موصولة أو موصوفة أى مماتهوون ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبها إليكم كما فى قوله تعالى أنفقوا من طيبات ماكسبتم أو بما يعمها وغيرها من الأعمال والمهجة على أن المراد بالانفاق مطلق البذل وفيه من الإيذان بعزة منال البر مالايخفى وكان السلف رضى الله عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله عز وجل . وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يارسول الله إن أحب أموالى إلى بيرحاء فضعها يارسول الله حيث أراك الله فقال عليه السلام بخ بخ ذاك مال رائح أورابح وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقسمها فى أقاربه وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فكأن زيداً وجد فى نفسه وقال إنما أردت أن أتصدق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ان الله تعالى قد قبلها منك . قيل وفيه دلالة على أن انفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن يشترى له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت إليه أعجبته فقال إن الله تعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فأعتقها . وروى أن عمر بن عبد العزيز كانت لزوجته جارية بارعة الجمال وكان عمر راغباً فيها وكان قد طلبها منها مراراً فلم تعطها إياه ثم لما ولى الخلافة زينتها

وأرسلتها إليه فقالت قد وهبتكها يا أمير المؤمنين فلتخدمك قال من أين ملكتها قالت جئت بها من بيت أبي عبدالملك ففتش عن كيفية تملكه إياها فقيل إنه كان على فلان العامل ديون فلما توفى أخذت من تركته ففتش عن حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعاً باعطاء المال ثم توجه إلى الجارية وكان يهواها هوى شديداً فقال أنت حرة لوجه الله تعالى فقالت لم يا أمير المؤمنين وقد أزحت عن أمرها كل شبهة قال لست اذن ممن نهى النفس عن الهوى (وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ) ماشرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرط أى أى شىء تنفقوا كائنا من الأشياء فان المفرد فى مثل هذا الموضع واقع موقع الجمع وقيل محل الجار والمجرور النصب على التمييز أى أى شىء تنفقوا طيبا تحبونه أو خبيثا تكرهونه (فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) تعليل لجواب الشرط واقع موقعه أى فيجازيكم بحسبه جيدا كان أورديئا فانه تعالى عليم بكل شىء تنفقونه علما كاملا بحيث لايخفى عليه شىء من ذاته وصفاته وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل وفيه من الترغيب فى انفاق الجيد والتحذير عن انفاق الردىء مالايخفى (كُلُّ الطَّعَامِ) أى كل أفراد المطعوم أو كل أنواعه (كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) أى حلالا لهم فان الحل مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى لاهن حل لهم (إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) استثناء متصل من اسم كان أى كان كل المطعومات حلالا لبنى اسرائيل إلا ماحرم اسرائيل أى يعقوب عليه السلام على نفسه وهو لحوم الإبل وألبانها قيل كان به وجع النسا فنذر لئن شفى لايأكل أحب الطعام اليه وكان ذلك أحبه اليه وقيل فعل ذلك للتداوى باشارة الأطباء واحتج به من جوز للنبي الاجتهاد وللمانع أن يقول كان ذلك باذن من الله تعالى فيه فهو كتحريمه ابتداء (مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ) متعلق بقوله تعالى كان حلا ولا ضير فى توسيط الاستثناء بينهما وقيل متعلق بحرم وفيه أن تقييد تحريمه عليه السلام بقبلية تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة أى كان ماعدا المستثنى حلالا لهم قبل أن تنزل التوراة مشتملة على تحريم ماحرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة لهم وتشديداً وهو رد على اليهود فى دعواهم البراءة عمانعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآيتين بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر الينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا وتبكيت لهم فى منع النسخ والطعن فى دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لابراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا) أمر عليه السلام بأن يحاجهم بكتابهم الناطق بأن تحريم ماحرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم ويكلفهم إخراجه وتلاوته ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم وإظهار اسم التوراة لكون الجملة كلاما مع اليهود منقطعا عما قبله وقوله تعالى (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) أى فى دعواكم أنه تحريم قديم وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها فان صدقكم بما يدعوكم إلى ذلك البتة . روى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفى ذلك من الحجة النيرة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وجواز النسخ الذى يجحدونه مالايخفى والجملة مستأنفة مقررة لماقبلها (فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) أى اختلقه عليه سبحانه بزعمه أنه حرم ماذكر قبل نزول التوراة على بنى اسرائيل ومن تقدمهم من الأمم (مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ) من بعد ماذكر من أمرهم باحضار التوراة وتلاوتها وماترتب عليه من التبكيت والالزام والتقييد به للدلالة على كمال القبح (فَأُولَٰئِكَ) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بمافى حيز الصلة والجمع باعتبار معناه كما أن الأفراد فى الصلة باعتبار لفظه ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الضلال والطغيان أى فأولئك المصرون على الافتراء بعد ماظهرت حقيقة الحال

وضاقت عليهم حلبة المحاجة والجدال (هُمُ الظّٰلِمُونَ) المفرطون فى الظلم والعدوان المبعدون فيهما والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مسوقة من جهته تعالى لبيان كمال عتوهم وقيل هى فى محل النصب داخلة تحت القول عطفا على قوله تعالى فأتوا بالتوراة (قُلْ صَدَقَ اللّٰهُ) أى ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل فى شأن التحريم وقيل فى قوله تعالى ما كان ابراهيم يهوديا الخ أو صدق فى كل شأن من الشئون وهو داخل فى ذلك دخولا أوليا وفيه تعريض بكذبهم الصريح (فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ) أى ملة الإسلام التى هى فى الاصل ملة ابراهيم عليه السلام فانكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون أو فاتبعوا مثل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة وتلفيق الاكاذيب لتسوية الأغراض الدنيئة الدنيوية وألزمتكم تحريم طيبات محللة لإبراهيم عليه السلام ومن تبعه والفاء للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه (حَنِيفاً) أى مائلا عن الأديان الزائغة كلها (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى فى أمر من أمور دينه أصلا وفرعا وفيه تعريض باشراك اليهود وتصريح بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعا والغرض بيان أن النبى صلى الله عليه وسلم على دين ابراهيم عليه السلام فى الأصول لأنه لا يدعو الا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى والجملة تذييل لما قبلها (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ) شروع فى بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام اثر بيان كفرهم بكون كل المطعومات حلالا له عليه السلام روى أنهم قالوا بيت المقدس أعظم من الكعبة لانه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت أى ان أول بيت وضع للعبادة وجعل متعبدا لهم والواضع هو الله تعالى ويؤيده القراءة على البناء للفاعل وقوله تعالى (لَلَّذِى بِبَكَّةَ) خبر لان وإنما أخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين الاضافة والوصف بالجملة بعدها أى للبيت الذى ببكة أى فيها وفى ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى وبكة لغة فى مكة فان العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم ضربة لازب ولازم والنميط والنبيط فى اسم موضع بالدهناء وقولهم أمر راتب وراتم وسبد رأسه وسمدها وأغبطت الحمى وأغمطت وهى علم للبلد الحرام من بكه إذا زحمه لازدحام الناس فيه وعن قتادة يبك الناس بعضهم بعضا أو لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها لم يقصدها جبار الا قصمه الله عز وجل وقيل بكة اسم لبطن مكة وقيل لموضع البيت وقيل للمسجد نفسه ومكة اسم للبلد كله وأيد هذا بأن التباك وهو الازدحام إنما يقع عند الطواف وقيل مكة اسم للمسجد والمطاف وبكة اسم للبلد لقوله تعالى للذى ببكة مباركا. روى أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة وقيل أول من بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقيل آدم عليه السلام وقد استوفينا ما فيه من الأقاويل فى سورة البقرة وقيل أول بيت وضع بالشرف لا بالزمان (مُبَارَكاً) كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب وهو حال من المستكن فى الظرف لأن التقدير للذى ببكة هو والعامل فيه ما قدر فى الظرف من فعل الاستقرار (وَهُدًى لِلْعٰلَمِينَ) لأنه قبلتهم ومتعبدهم ولأن فيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته تعالى وبالغ حكمته كما قال (فِيهِ آيٰتٌ بَيِّنٰتٌ) واضحات كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الاعصار ومخالطة ضوارى السباع الصيود فى الحرم من غير تعرض لها وقهر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كأصحاب الفيل والجملة مفسرة للهدى أو حال أخرى (مَقَامُ إِبْرٰهِيمَ) أى أثر قدميه عليه السلام فى الصخرة التى كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روى أنه عليه السلام جاء زائرا من الشام إلى مكة فقالت له امرأة اسمعيل عليه السلام انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الايمن فوضع قدمه

عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته إلى شقه الايسر حتى غسلت الشق الآخر فبقى أثر قدميه عليه وهو اما مبتدأ حذف خبره أى منها مقام ابراهيم أو بدل من آيات بدل البعض من الكل أو عطف بيان اما وحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة فان كل واحد من أثر قدميه فى صخرة صماء وغوصه فيها إلى الكعبين والانة بعض الصخور دون بعض وابقائه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام وحفظه مع كثرة الأعداء ألف سنة آية مستقلة ويؤيده القراءة على التوحيد واما بما يفهم من قوله عز وجل (وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا) فانه وان كان جملة مستأنفة ابتدائية أو شرطية لكنها فى قوة أن يقال وأمن من دخله فتكون بحسب المعنى والمآل معطوفة على مقام ابراهيم ولا يخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك أو يحمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما فى قوله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم وذلك بدعوة ابراهيم عليه السلام رب اجعل هذا البلد آمنا وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب وعن عمر رضى الله عنه لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب مامسسته حتى يخرج منه ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى من لزمه القتل فى الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له الا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتى يضطر إلى الخروج وقيل أمنه من النار وعن النبى صلى الله عليه وسلم من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا وعنه عليه الصلاة والسلام الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران فى الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود رضى الله عنه وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر وعن النبى صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتى عام (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) جملة من مبتدا هو حج البيت وخبر هو الله وقوله تعالى على الناس متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار أو بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى الجار والعامل فيه ذلك الاستقرار ويجوز أن يكون على الناس هو الخبر ولله متعلق بما تعلق به الخبر ولا سبيل إلى أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى على الناس لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنوى وذلك مما لا مساغ له عند الجمهور وقد جوزه ابن مالك إذا كانت هى ظرفا أو حرف جر وعاملها كذلك بخلاف الظرف وحرف الجر فانهما يتقدمان على عاملهما المعنوى واللام فى البيت للعهد وحجه قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود وكسر الحاء لغة نجد وقيل هو اسم للمصدر وقرىء بفتحها (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) فى محل الجر على انه بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص لعمومه فالضمير العائد إلى المبدل منه محذوف أى من استطاع منهم وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع فلا حاجة إلى الضمير وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا مضمر أى وهم من استطاع الخ وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى وقيل كلمة من شرطية والجزاء محذوف لدلالة المذكور عليه وكذا العائد إلى الناس أى من استطاع منهم اليه سبيلا فلله عليه حج البيت وقد رجح هذا بكون ما بعده شرطية والضمير المجرور فى اليه راجع إلى البيت أو إلى حج والجار متعلق بالسبيل قدم عليه اهتماما بشأنه كما فى قوله عز وجل فهل إلى خروج من سبيل وهل إلى مرد من سبيل لما فيه من معنى الافضاء والايصال كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة من مال أو غيره فانه قد روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السبيل الزاد والراحلة وروى ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا قال يارسول الله ما السبيل قال الزاد

والراحلة وهو المراد بما روى أنه عليه السلام فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة وهكذا روى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وعليه أكثر العلماء خلا أن الشافعى أخذ بظاهره فأوجب الاستنابة على الزمن القادر على أجرة من ينوب عنه والظاهر أن عدم تعرضه عليه السلام لصحة البدن لظهور الأمر كيف لا والمفسر فى الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع إلى البيت وذا لا يتصور بدون الصحة وعن ابن الزبير أنه على قدر القوة ومذهب مالك أن الرجل اذا وثق بقوته لزمه وعنه ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر وقد يقدر عليه من لا راحلة له ولا زاد وعن الضحاك أنه إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيدا لوجوبه وتشديدا على تاركه ولذلك قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه عليه السلام قال فى خطبته أيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴾ وعن عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلا فيها دخولا أوليا اكتفى بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه مالا مزيد عليه حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق وأبرزت فى صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه فى ذمم الناس لا انفكاك لهم عن أدائه والخروج عن عهدته وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص والابهام ثم التبيين والاجمال ثم التفصيل لما فى ذلك من مزيد تحقيق وتقرير وعبر عن تركه بالكفر الذى لا قبيح وراءه وجعل جزاؤه فى استغنائه تعالى المؤذن بشدة المقت وعظم السخط لا عز تاركه فقط فانه قد ضرب عنه صفحا اسقاطا له عن درجة الاعتبار واستهجانا بذكره بل عن جميع العالمين ممن فعل وترك ليدل على نهاية شدة الغضب . هذا وقال ابن عباس والحسن وعطاء رضى الله تعالى عنهم ومن كفر أى جحد فرض الحج وزعم أنه ليس بواجب وعن سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود فانهم قالوا الحج إلى مكة غير واجب وروى أنه لما نزل قوله تعالى ولله على الناس حج البيت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال إن الله كتب عليكم الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لا نؤمن به ولا نصلى اليه ولا نحجه فنزل ومن كفر وعن النبى صلى الله عليه وسلم حجوا قبل أن لا تحجوا فانه قد هدم البيت مرتين ويرفع إلى السماء فى الثالثة وروى حجوا قبل أن يمنع البر جانبه وعن ابن مسعود حجوا هذا البيت قبل أن ينبت فى البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا انفقت وعن عمر رضى الله عنه لو ترك الناس الحج عاما واحدا ما نوظروا ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ ﴾ هم اليهود والنصارى وإنما خوطبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للايمان به وبما يصدقه من القرآن العظيم مبالغة فى تقبيح حالهم فى كفرهم بها وقوله عز وجل ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سبب من الأسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية والمراد بآياته تعالى ما يعم الآيات القرآنية التى من جملتها ما تلى فى شأن الحج وغيره وما فى التوراة والانجيل من شواهد نبوته عليه السلام وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ حال من فاعل تكفرون مفيدة لتشديد التوبيخ وتأكيد الانكار وإظهار الجلالة فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وصيغة المبالغة فى شهيد للتشديد فى الوعيد وكلمة ما اما عبارة عن كفرهم أو هى على عمومها وهو داخل فيها دخولا أوليا والمعنى لأى سبب تكفرون بآياته عز وجل والحال أنه تعالى مبالغ فى الاطلاع على جميع أعمالكم وفى مجازاتكم عليها ولا ريب فى أن ذلك يسد جميع أنحاء ما تأتونه ويقطع أسبابه بالكلية ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ ﴾ أمر بتوبيخهم بالاضلال أثر توبيخهم بالضلال والتكرير للمبالغة فى حمله عليه السلام

على تقريعهم وتوبيخهم وترك عطفه على الأمر السابق للايذان باستقلالهم كما أن قطع قوله تعالى (لِمَ تصدُّونَ) عن قوله تعالى لم تكفرون للاشعار بأن كل واحد من كفرهم وصدهم شناعة على حيالها مستقلة فى استتباع اللائمة والتقريع وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب لتأكيد الاستقلال وتشديد التشنيع فان ذلك العنوان كما يستدعى الايمان بما هو مصدق لما معهم يستدعى ترغيب الناس فيه فصدهم عنه فى أقصى مراتب القباحة ولكون صدهم فى بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه السلام وقرىء تصدون من أصده (عن سبيلِ اللهِ) اى دينه الحق الموصل إلى السعادة الأبدية وهو التوحيد وملة الاسلام (مَن ءَامَنَ) مفعول لتصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به . كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم ويقولون ان صفته عليه السلام ليست فى كتابهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقيل أتت اليهود الأوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا إلى ما كانوا فيه (تبغونها) على اسقاط الجار وايصال الفعل الى الضمير كما فى قوله :

فتولى غلامهم ثم نادى أظليما أصيدكم أم حمارا

بمعنى أصيد لكم أى تطلبون لسبيل الله التى هى أقوم السبل (عِوَجاً) اعوجاجا بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه ميلا عن الحق بنفى النسخ وتغيير صفة الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل تصدون وقيل من سبيل الله (وأنتُم شُهداءُ) حال من فاعل تصدون باعتبار تقييده بالحال الأولى أو من فاعل تبغونها أى والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها سبيل الله لا يحوم حولها شائبة اعوجاج وأن الصد عنها اضلال قال ابن عباس رضى الله عنهما أى شهداء أن فى التوراة أن دين الله الذى لا يقبل غيره هو الاسلام أو وأنتم عدول فيما بينكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم فى القضايا وعظائم الأمور (ومَا اللهُ بغٰفلٍ عمّا تعملونَ) اعتراض تذييلى فيه تهديد ووعيد شديد قيل لما كان صدهم للمؤمنين بطريق الخفية ختمت الآيةَ الكريمة بما يحسم مادة حيلتهم من احاطة علمه تعالى بأعمالهم كما أن كفرهم بآيات الله تعالى لما كان بطريق العلانية ختمت الآية السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون (يٰأيها الذينَ ءَامَنوا إن تُطيعوا فريقاً مّنَ الذينَ أوتُوا الكتٰبَ يَردُّوكُم بعدَ إيمٰنكمْ كٰفرِينَ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيرا لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم اثر توبيخهم بالاغواء والاضلال ردعا لهم عن ذلك وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة فى التحذير عن طاعتهم وايجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية فانه فى قوة أن يقال لا تطيعوا فريقا الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة فى الزجر أو للمحافظة على سبب النزول فانه روى أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمر بهم شاس بن قيس اليهودى وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين فغاظه ما رأى منهم من تألف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأى بعد ما كان بينهم ما كان من العداوة والشنآن فأمر شابا يهوديا كان معه بأن يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للاوس وينشدهم ما قيل فيه من الاشعار ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواثبوا وقالوا السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الامام الواحدى اصطفوا للقتال فنزلت الآية إلى قوله تعالى لعلكم تهتدون فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون

وقوله تعالى كافرين إما مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما فى قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

أو حال من مفعوله والأول أدخل فى تنزيه المؤمنين على نسبتهم إلى الكفر لما فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القسر وإيراد الظرف مع عدم الحاجة اليه ضرورة سبق الخطاب بعنوان المؤمنين واستحالة تحقق الرد إلى الكفر بدون سبق الإيمان مع توسيطه بين المفعولين لاظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع إما لزيادة قبحه الصارف العاقل عن مباشرته أو لممانعة الإيمان له كأنه قيل بعد إيمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين مالا يخفى (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ) استفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع كما فى قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد الخ لا بمعنى إنكار الواقع كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا الخ وفى توجيه الانكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر من المبالغة ماليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال أتكفرون لأن كل موجود لابد أن يكون وجوده على حال من الأحوال فاذا أنكر ونفى جميع أحوال الوجود فقد انتفى وجوده بالكلية على طريق البرهان وقوله تعالى (وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ) جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين فى تكفرون مؤكدة للانكار والاستبعاد بما فيها من الشئون الداعية إلى الثبات على الايمان الوازعة عن الكفر وقوله تعالى (وَفِيكُمْ رَسُولُهُ) معطوف عليها داخل فى حكمها فان تلاوة آيات الله تعالى عليهم وكون رسوله عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وإزاحة الشبه من أقوى الزواجر عن الكفر وعدم إسناد التلاوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للايذان باستقلال كل منهما فى الباب (وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ) أى ومن يتمسك بدينه الحق الذى بينه بآياته على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام وهو الإسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله (فَقَدْ هُدِىَ) جواب للشرط وقد لإفادة معنى التحقيق كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى التوقع فيه ظاهر فان المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للندى (إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) موصل إلى المطلوب والتنوين للتفخيم والوصف بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغون له عوجا وهذا وإن كان هو دينه الحق فى الحقيقة والاهتداء اليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتباران . وكان العنوان الأخير مما يتنافس فيه المتنافسون أبرز فى معرض الجواب للبحث والترغيب على طريقة قوله تعالى فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) تكرير الخطاب بعنوان الايمان تشريف اثر تشريف (ٱتَّقُوا ٱللَّهَ) الاتقاء افتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة (حَقَّ تُقَاتِهِ) أى حق تقواه ومايجب منها وهو استفراغ الوسع فى القيام بالمواجب والاجتناب عن المحارم كما فى قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وعن ابن مسعود رضى الله عنه هو أن يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر وقد روى مرفوعا اليه عليه السلام وقيل هو أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه وقيل هو أن ينزه الطاعة عن الالتفات اليها وعن توقع المجازاة وقد مر تحقيق الحق فى ذلك عند قوله عز وجل هدى للمتقين والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد أصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما فى تهمة وتخمة وياؤها المفتوحة ألفا (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) أى مخلصون نفوسكم لله تعالى لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا كما فى قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تموتن على حال من الأحوال إلا حال تحقق اسلامكم وثباتكم عليه كما ينبىء عنه الجملة الاسمية ولو قيل إلا مسلمين لم يفد فائدتها والعامل فى الحال ما قبل إلا بعد النقض وظاهر النظم الكريم وان

كان نهيا عن الموت المقيد بقيد هو الكون على أى حال غير حال الإسلام لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للامر بضده الذى هو الكون على حال الإسلام حينئذ وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت وتوجيه النهى إلى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور فان النهى عن المقيد فى أمثاله نهى عن القيد ورفع له من أصله بالكلية مفيد لما لا يفيده النهى عن نفس القيد فان قولك لا تصل إلا وأنت خاشع يفيد من المبالغة فى إيجاب الخشوع فى الصلاة ما لا يفيده قولك لا تترك الخشوع فى الصلاة لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط وذاك نهى عنه وعما يقارنه ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة وأن الصلاة بدونه حقها أن لا تفعل وفيه نوع تحذير عما وراء الموت وقوله عز وجل (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ) أى بدين الإسلام أو بكتابه لقوله عليه الصلاة والسلام القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم إما تمثيل للحالة الحاصلة من استظهارهم به وتوثقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز فى المفردات وإما استعارة للحبل لما ذكر من الدين أو الكتاب والاعتصام ترشيح لها أو مستعار للوثوق به والاعتماد عليه (جَمِيعاً) حال من فاعل اعتصموا أى مجتمعين فى الاعتصام (وَلَا تَفَرَّقُوا) أى لا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضا أو لا تحدثوا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة التى أنتم عليها (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ) مصدر مضاف إلى الفاعل وقوله تعالى (عَلَيْكُمْ) متعلق به أو بمحذوف وقع حالا منه وقوله تعالى (إِذْ كُنْتُمْ) ظرف له أو للاستقرار فى عليكم أى اذكروا انعامه عليكم أو اذكروا انعامه مستقرا عليكم وقت كونكم (أَعْدَاءً) فى الجاهلية بينكم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة وقيل هم الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم فوقعت بين أولادهما العداوة والبغضاء وتطاولت الحروب فيما بينهم مائة وعشرين سنة (فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) بتوفيقكم للاسلام (فَأَصْبَحْتُمْ) أى فصرتم (بِنِعْمَتِهِ) التى هى ذلك التأليف (إِخْوَاناً) خبر أصبحتم أى إخوانا متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله متراحمين متناصحين متفقين على كلمة الحق وقيل معنى فأصبحتم فدخلتم فى الصباح فالباء حينئذ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل وكذا إخوانا أى فأصبحتم ملتبسين حال كونكم اخوانا (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) شفا الحفرة وشفتها حرفها أى كنتم مشرفين على الوقوع فى نار جهنم لكفركم إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها (فَأَنْقَذَكُمْ) بأن هداكم للاسلام (مِنْهَا) الضمير للحفرة أو للنار أو للشفا والتأنيث للمضاف اليه كما فى قوله : كما شرقت صدر القناة من الدم أو لأنه بمعنى الشفة فان شفا البئر وشفتها جانبها كالجانب والجانبة وأصله شفو قلبت الواو ألفا فى المذكر وحذفت فى المؤنث (كَذَلِكَ) إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به عما عداه وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها النصب على أنها صفة لمصدر محذوف أى مثل ذلك التبيين الواضح (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ) أى دلائله (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) طلبا لثباتكم على الهدى وازديادكم فيه (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشاده اثر أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الأوامر والنواهى تثبيتا للكل على مراعاة ما فيها من الأحكام بأن يقوم بعضهم بمواجبها ويحافظ على حقوقها وحدودها ويذكرها الناس كافة ويردعهم عن الاخلال بها والجمهور على اسكان لام الأمر وقرىء بكسرها على الأصل وهو من كان التامة ومن تبعيضية متعلقة بالأمر أو بمحذوف وقع حالا من الفاعل

وهو أمة ويدعون صفتها أى لتوجد منكم أمة داعية إلى الخير والامة هى الجماعة التى يؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها أو من الناقصة وأمة اسمها ويدعون خبرها أى لتكن منكم أمة داعين إلى الخير وأياما كان فتوجيه الخطاب إلى الكل مع اسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين ولو أخل بها الكل أثموا جميعا لا بحيث يتحتم على الكل إقامتها على ما ينبىء عنه قوله عز وجل وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية ولأنها من عظائم الامور وعزائمها التى لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها فان من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر وينهى عن معروف ويغلظ فى مقام اللين ويلين فى مقام الغلظة وينكر على من لا يزيده الانكار الا التمادى والاصرار وقيل من بيانية كما فى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم الآية والأمر من كان الناقصة والمعنى كونوا أمة يدعون الآية كقوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس الآية ولا يقتضى ذلك كون الدعوة فرض عين فان الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطابات العامة والدعاء إلى الخير عبارة عن الدعاء إلى ما فيه صلاح دينى أو دنيوى فعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه بقوله تعالى (وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لاظهار فضلهما وانافتهما على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام وحذف المفعول الصريح من الافعال الثلاثة اما للايذان بظهوره أى يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم واما للقصد الى ايجاد نفس الفعل كما فى قولك فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الدعاء إلى الخير والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (وَأُولَٰئِكَ) اشارة إلى الامة المذكورة باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكمال تميزهم بذلك عمن عداهم وانتظامهم بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والافراد فى كاف الخطاب اما لأن المخاطب كل من يصلح للخطاب واما لأن التعيين غير مقصود أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة (هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى هم الاخصاء بكمال الفلاح وهم ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحون اما للعهد أو للاشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن خير الناس فقال آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم وعنه عليه السلام من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه وعنه عليه السلام والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم وعن على رضى الله عنه أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن شنأ الفاسقين وغضب لله غضب الله له والأمر بالمعروف فى الوجوب والندب تابع للمأمور به وأما النهى عن المنكر فواجب كله فان جميع ما أنكره الشرع حرام والعاصى يجب عليه النهى عما ارتكبه اذ يجب عليه تركه وانكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شىء منهما والتوبيخ فى قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم إنما هو على نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر وعن السلف مروا بالخير وان لم تفعلوا (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا) هم أهل الكتابين حيث تفرقت اليهود فرقا والنصارى فرقا (وَاخْتَلَفُوا) باستخراج التأويلات الزائغة وكتم الآيات الناطقة وتحريفها بما أخلدوا اليه من حطام الدنيا الدنيئة (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) أى الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه واتحاد الكلمة فالنهى متوجه إلى المتصدين للدعوة اصالة والى أعقابهم تبعا ويجوز تعميم الموصول للمختلفين من الأمم السالفة المشار اليه بقوله عز وجل وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات وقيل هم

المبتدعة من هذه الأمة وقيل هم الحرورية وعلى كل تقدير فالمنهى عنه إنما هو الاختلاف فى الأصول دون الفروع الا أن يكون مخالفا للنصوص البينة أو الاجماع لقوله عليه الصلاة والسلام اختلاف أمتى رحمة وقوله عليه السلام من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد (وَأُولَٰئِكَ) اشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما فى حيز الصلة وهو مبتدأ وقوله تعالى (لَهُمْ) خبره وقوله تعالى (عَذَابٌ عَظِيمٌ) مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للمبتدا الاول وفيه من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين والتشديد فى تهديد المشبهين بهم مالا يخفى (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ) أى وجوه كثيرة وقرىء تبياض (وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) كثيرة وقرىء تسواد وعن عطاء تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بنى قريظة والنضير ويوم منصوب على أنه ظرف للاستقرار فى لهم أى لثبوت العذاب العظيم لهم أو على أنه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيرا لهم عن عاقبة التفرق بعد مجىء البينات وترغيبا فى الاتفاق على التمسك بالدين أى اذكروا يوم تبيض الخ وبياض الوجوه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة واشراق البشرة وسعى النور بين يديه وبيمينه وأهل الباطل بأضداد ذلك (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ) تفصيل لاحوال الفريقين بعد الاشارة اليها اجمالا وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع مافيه من الجمع بين الاجمال والتفصيل والافضاء إلى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كابدىء بذلك عند الاجمال (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) على ارادة القول أى فيقال لهم ذلك والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم والظاهر أنهم أهل الكتابين وكفرهم بعد إيمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ايمان أسلافهم أو ايمان أنفسهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام أو جميع الكفرة حيث كفروا بعدما أقروا بالتوحيد يوم الميثاق أو بعدما تمكنوا من الايمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة وقيل المرتدون وقيل أهل البدع والاهواء والفاء فى قوله عز وعلا (فَذُوقُوا الْعَذَابَ) أى العذاب المعهود الموصوف بالعظم للدلالة على أن الامر بذوق العذاب على طريق الاهانة مترتب على كفرهم المذكور كما أن قوله تعالى (بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) صريح فى أن نفس الذوق معلل بذلك والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه فى الدنيا (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ) أعنى الجنة والنعيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وان استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فانه لايدخل الجنة إلا برحمته تعالى وقرىء ابياضت كما قرىء اسوادت (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من السياق كأنه قيل كيف يكونون فيها فقيل هم فيها خالدون لايظعنون عنها ولايموتون وتقديم الظرف للمحافظة على رؤس الآى (تِلْكَ) إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الابرار وتعذيب الكفار ومعنى البعد للايذان بعلو شأنها وسمو مكانها فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى (آيَاتُ اللَّهِ) خبره وقوله تعالى (نَتْلُوهَا) جملة حالية من الآيات والعامل فيها معنى الاشارة أو هى الخبر وآيات الله بدل من اسم الاشارة والالتفات إلى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل عليه السلام لابراز كمال العناية بالتلاوة وقرىء يتلوها على اسناد الفعل إلى ضميره تعالى وقوله تعالى (عَلَيْكَ) متعلق بنتلوها وقوله تعالى (بِالْحَقِّ) حال مؤكدة من فاعل نتلوها أو من مفعوله أى ملتبسين أو ملتبسة بالحق والعدل ليس فى حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو بزيادة عقاب المسىء أو بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم بأعمالهم بموجب الوعد والوعيد وقوله تعالى (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ) تذييل مقرر لمضمون ماقبله على أبلغ وجه وآكده فان تنكير الظلم وتوجيه النفى الى ارادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بآحاد الجمع

المعرف والالتفات إلى الاسم الجليل إشعار بعلة الحكم بيان لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لامزيد عليه أى مايريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين فى وقت من الأوقات فضلا عن أن يظلمهم فان المضارع كما يفيد الاستمرار فى الاثبات يفيده فى النفى بحسب المقام كما أن الجملة الإسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت وعند دخول حرف النفى تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وفى سبك الجملة نوع إيماء إلى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما فى قوله تعالى إن الله لايظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ) أى له تعالى وحده من غير شركة أصلا مافيهما من المخلوقات الفائتة للحصر ملكا وخلقا إحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا وإيراد كلمة ما إما لتغليب غير العقلاء على العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهارا لحقارتهم فى مقام بيان عظمته تعالى (وَإِلَى اللَّهِ) أى إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شركة أو استقلالا (تُرْجَعُ الأُمُورُ) أى أمورهم فيجازى كلا منهم بما وعدله وأوعده من غير دخل فى ذلك لأحد قط فالجملة مقررة لمضمون ماورد فى جزاء الفريقين وقيل هى معطوفة على ماقبلها مقررة لمضمونه فان كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعى إرادة الخير بهم (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ماهم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير وكنتم من كان الناقصة التى تدل على تحقق شىء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أولاحق كما فى قوله تعالى وكان الله غفورا رحيما وقيل كنتم كذلك فى علم الله تعالى أو فى اللوح أو فيما بين الأمم السالفة وقيل معناه أنتم خير أمة (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) صفة لأمة واللام متعلقة بأخرجت أى أظهرت لهم وقيل بخير أمة أى كنتم خير الناس للناس فهو صريح فى أن الخيرية بمعنى النفع للناس وإن فهم ذلك من الاخراج لهم أيضا أى أخرجت لأجلهم ومصلحتهم قال أبو هريرة رضى الله عنه معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فتدخلونهم فى الإسلام وقال قتادة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبى قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم فى الاسلام فهم خير أمة للناس (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) استئناف مبين لكونهم خير أمة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار وخطاب المشافهة وإن كان خاصا بمن شاهد الوحى من المؤمنين لكن حكمه عام للكل قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج أصل هذا الخطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعم سائر أمته وروى الترمذى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم لا أوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلة فى الحكم وكذا الحال فيما روى أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين مرا بنفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة رضوان الله عليهم فقالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما كنتم خير أمة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وروى عن الضحاك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم (وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) أى إيمانا متعلقا بكل مايجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وإنما لم يصرح به تفصيلا لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون وللايذان بأنه هو الايمان بالله تعالى حقيقة وأن ماخلا عن شىء من ذلك كايمان أهل الكتاب ليس من الايمان به تعالى فى شىء قال تعالى ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وإنما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لأن

دلالتهما على خيريتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به قوله تعالى (ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) أى لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية مع الفوز بما وعدوه على الايمان من إيتاء الأجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية إنما هى باعتبار زعمهم وفيه ضرب تهكم بهم وإنما لم يتعرض للمؤمن به أصلا للاشعار بظهور أنه الذى يطلق عليه اسم الايمان لا يذهب الوهم إلى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا أو فيما قبل لربما فهم أن لأهل الكتاب أيضا إيمانا فى الجملة لكن إيمان المؤمنين خير منه وهيهات ذلك (منهم المؤمنون) جملة مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من الشرطية الدالة على انتفاء الخيرية لانتفاء الايمان عنهم كأنه قيل هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر فقيل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارين كعبد الله بن سلام وأصحابه (وأكثرهم الفسقون) المتمردون فى الكفر الخارجون عن الحدود (لن يضروكم إلا أذى) استثناء مفرغ من المصدر العام أى لن يضروكم أبدا ضررا ما إلا ضرر أذى لا يبالى به من طعن وتهديد لا أثر له (وإن يقتلوكم يولوكم الأدبار) أى ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيأ من قتل أو أسر (ثم لا ينصرون) عطف على الشرطية وثم للتراخى فى الرتبة أى لا ينصرون من جهة أحد ولا يمنعون منكم قتلا وأخذا وفيه تثبيت لمن آمن منهم فانهم كانوا يؤذونهم بالتلهى بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بأنهم لا يقدرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يعبأ به مع أن وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل وإنما لم يعطف نفى منصوريتهم على الجزاء لأن المقصود هو الوعد بنفى النصر مطلقا ولو عطف عليه لكان مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وكم بين الوعدين كأنه قيل ثم شأنهم الذى أخبركم عنه وأبشركم به أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعد ذلك بجناح ولا يقومون على ساق ولا يستقيم لهم أمر وكان كذلك حيث لقى بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع ويهود خيبر ما لقوا (ضربت عليهم الذلة) أى هدر النفس والمال والأهل أو ذل التمسك بالباطل (أين ما ثقفوا) أى وجدوا (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) استثناء من أعم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من هى عليه فى جميع الأحوال إلا حال كونهم معتصمين بذمة الله أو كتابه الذى آتاهم وذمة المسلمين أو بذمة الإسلام واتباع سبيل المؤمنين (وباءو بغضب من الله) أى رجعوا مستوجبين له والتنكير للتفخيم والتهويل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة والهول أى كائن من الله عز وجل (وضربت عليهم المسكنة) فهى محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود كذلك فى غالب الحال مساكين تحت أيدى المسلمين والنصارى (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم (بأنهم كانوا يكفرون بئايت الله) أى ذلك الذى ذكر كائن بسبب كفرهم المستمر بآيات الله الناطقة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وتحريفهم لها وبسائر الآيات القرآنية (ويقتلون الأنبياء بغير حق) أى فى اعتقادهم أيضا وإسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من سير بسيرتهم (ذلك) إشارة إلى ما ذكر من الكفر والقتل (بما عصوا وكانوا يعتدون) أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فان الاصرار على الصغائر يفضى إلى مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدى إلى الكفر وقيل معناه أن ضرب الذلة والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث أنهم مخاطبون بالفروع من حيث المؤاخذة (ليسوا سواء) جملة مستأنفة سيقت تمهيدا لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب وتذكيرا لقوله تعالى منهم المؤمنون والضمير فى ليسوا لأهل الكتاب جميعا لا للفاسقين منهم خاصة

وهو اسم ليس وخبره سواء وإنما أفرد لأنه فى الأصل مصدر والمراد بنفى المساواة نفى المشاركة فى أصل الاتصاف بالقبائح المذكورة لا نفى المساواة فى مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة فى أصل الاتصاف بها أى ليس جميع أهل الكتاب متشاركين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح والابتلاء بما يترتب عليها من العقوبات وقوله تعالى ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الابهام كما أن ما سبق من قوله تعالى تأمرون بالمعروف الآية مبين لقوله تعالى كنتم خير أمة الخ ووضع اهل الكتاب موضع الضمير العائد اليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين والإيذان بأن تلك الأمة ممن أوتى نصيبا وافرا من الكتاب لا من أرذالهم والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام بمعنى استقام وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد وأضرابهم وقيل هم أربعون رجلا من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمدا عليهما الصلاة والسلام وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبى عليه السلام منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد ابن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه وقوله تعالى ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فى محل الرفع على أنه صفة أخرى لأمة وقيل فى محل النصب على أنه حال منها لتخصصها بالنعت والعامل فيه الاستقرار الذى يتضمنه الجار أو من ضميرها فى قائمة أو من المستكن فى الجار لوقوعه خبراً لأمة والمراد بآيات الله القرآن وقوله تعالى ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ظرف ليتلون أى فى ساعاته جمع أنى بزنة عصا أو انى بزنة معى أو أنى بزنة ظبى أو أنى بزنة نحى أو انو بزنة جرو ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أى يصلون إذ لا تلاوة فى السجود قال عليه الصلاة والسلام ألا انى نهيت أن أقرأ راكعا وساجدا وتخصيص السجود بالذكر من بين سائر أركان الصلاة لكونه أدل على كمال الخضوع والتصريح بتلاوتهم آيات الله فى الصلاة مع أنها مشتملة عليها قطعا لزيادة تحقيق المخالفة وتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفوا آنفا بالكفر بها وهو السر فى تقديم هذا النعت على نعت الإيمان والمراد بصلاتهم التهجد اذ هو أدخل فى مدحهم وفيه يتسنى لهم التلاوة فانها فى المكتوبة وظيفة الإمام واعتبار حالهم عند الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح وهو الأنسب بالعدول عن إيرادها باسم الجنس المتبادر منه الصلاة المكتوبة وبالتعبير عن وقتها بالآناء المبهمة وقيل صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرها ليلة ثم خرج فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وقرأ هذه الآية وايراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار وتكرير الاسناد لتقوية الحكم وتأكيده وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والجملة حال من فاعل يتلون وقيل هى مستأنفة والمعنى أنهم يقومون تارة ويسجدون أخرى يبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون فى الصلاة من الخضوع لله عز وجل كما فى قوله تعالى والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما وقيل المراد بالسجود هو الخضوع كما فى قوله تعالى ولله يسجد ما فى السموات والأرض ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ صفة أخرى لأمة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى أى يؤمنون بهما على الوجه الذى نطق به الشرع والاطلاق للايذان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذى يطلق عليه الإيمان بهما لا يذهب الوهم الى غيره وللتعرض بأن ايمان اليهود بهما مع قولهم عزير ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان بهما فى شىء أصلا ولو قيد بما ذكر لربما توهم أن المنتفى عنهم هو القيد المذكور مع جواز اطلاق الإيمان على ايمانهم بالأصل وهيهات ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ صفتان أخريان لأمة أجريتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود فى الفضائل المتعلقة بتكميل الغير اثر بيان مباينتهم لهم فى الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم فى الاحتساب بل

بتعكيسهم فى الأمر باضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فانه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف (وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ) صفة أخرى لأمة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب فى الأمر سارع فى توليه والقيام به وآثر الفور على التراخى أى يبادرون مع كمال الرغبة فى فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادرتهم إلى الشرور وإيثار كلمة فى على ما وقع فى قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة الخ للايذان بأنهم مستقرون فى اصل الخير متقلبون فى فنونه المترتبة فى طبقات الفضل لا أنهم خارجون عنها منتهون اليها (وَأُوْلَٰٓئِكَ) إشارة إلى الأمة باعتبار اتصافهم بما فصل من النعوت الجليلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل وإيثاره على الضمير للاشعار بعلة الحكم والمدح أى أولئك المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها (مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ) أى من جملة من صلحت أحوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثناءه (وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ) كائناما كان مماذكر أولم يذكر (فَلَن يُكْفَرُوهُ) أى لن يعدموا ثوابه البتة عبر عنه بذلك كما عبر عن توفية الثواب بالشكر اظهارا لكمال تنزهه سبحانه وتعالى عن ترك اثابتهم بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وتعديته إلى مفعولين بتضمين معنى الحرمان وإيثار صيغة البناء للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرىء الفعلان على صيغة الخطاب (وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ) تذييل مقرر لمضمون ماقبله فان علمه تعالى بأحوالهم يستدعى توفية أجورهم لامحالة والمراد بالمتقين اما الأمة المعهودة وضع موضع الضمير العائد اليهم مدحا لهم وتعيينا لعنوان تعلق العلم بهم وإشعارا بمناط اثابتهم وهو التقوى المنطوى على الخصائص السالفة واما جنس المتقين عموما وهم مندرجون تحت حكمه اندراجا أوليا (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) أى بما يجب أن يؤمن به . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو قريظة والنضير فان معاندتهم كانت لأجل المال وقيل هم مشركو قريش فان أباجهل كان كثير الافتخار بماله وقيل أبو سفيان واصحابه فانه أنفق مالا كثيرا على الكفار يوم بدر وأحد وقيل هم الكفار كافة فانهم فاخروا بالأموال والأولاد وحيث قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين فرد الله عز وجل عليهم وقال (لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ) أى لن تدفع عنهم (أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ) أى من عذابه تعالى (شَيْـًٔا) أى شيئا يسيرا منه أو شيئا من الاغناء (وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ) أى مصاحبوها على الدوام وملازموها (هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) أبدا (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) بيان لكيفية عدم اغناء أموالهم التى كانوا يعولون عليها فى جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطماعهم الفارغة وماموصولة اسمية حذف عائدها اى حال ماينفقه الكفرة قربة أومفاخرة وسمعة أو المنافقون رياء وخوفا وقصته العجيبة التى تجرى مجرى المثل فى الغرابة (كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ) أى برد شديد فانه فى الأصل مصدر وإن شاع اطلاقه على الريح الباردة كالصرصر وقيل كلمة فى تجريدية كما فى قوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة (أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ) بالكفر والمعاصى فباؤا بغضب من الله وإنما وصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع (فَأَهْلَكَتْهُ) عقوبة لهم ولم تدع منه أثرا ولا عثيرا والمراد تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود اليهم نفع مابحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذى مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى كمثل الذى استوقد نارا ولذلك لم يبال بايلاء كلمة التشبيه الريح دون الحرث ويجوز أن يراد مثل اهلاك ماينفقون كمثل اهلاك ريح أومثل ماينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرىء تنفقون (وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ) بما بين من ضياع ما أنفقوا من الأموال (وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) لما أنهم أضاعوها بانفاقها لا على ماينبغى وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص إذ الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أى ماظلمهم الله

ولكن ظلموا أنفسهم وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقد جوز أن يكون المعنى وما ظلم الله تعالى أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة ويأباه أنه قد مر التعرض له تصريحا وإشعارا وقرىء ولكن بالتشديد على أن أنفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف للفاصلة أى ولكن أنفسهم يظلمونها وأما تقدير ضمير الشأن فلا سبيل إليه لاختصاصه بالشعر ضرورة كما فى قوله :   ولكن من يبصر جفونك يعشق

(يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً) بطانة الرجل ووليجته من يعرفه أسراره ثقة به شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام الأنصار شعار والناس دثار قال ابن عباس رضى الله عنهما كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنهوا عن ذلك ويؤيده قوله تعالى وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ وهى صفة المنافق وأياما كان فالحكم عام للكفرة كافة (مِنْ دُونِكُمْ) أى من دون المسلمين وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف وقع صفة لبطانة أى كائنة من دونكم مجاوزة لكم (لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا) جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى الاجتناب عنهم أو صفة بطانة يقال ألا فى الأمر إذا قصر فيه ثم استعمل معدى إلى مفعولين فى قولهم لا آلوك نصحا ولا آلوك جهدا على تضمين معنى المنع والنقص والخبال الفساد أى لا يقصرون لكم فى الفساد (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ) أى تمنوا عنتكم أى مشقتكم وشدة ضرركم وهو أيضا استئناف مؤكد للنهى موجب لزيادة الاجتناب عن المنهى عنه (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) استئناف آخر مفيد لمزيد الاجتناب عن المنهى عنه أى قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لما أنهم لا يتمالكون مع مبالغتهم فى ضبط أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين وقرىء قد بدا البغضاء والأفواه جمع فم وأصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه وتصغيره على فويه والنسبة إليه فوهى (وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ) الدالة على وجوب الإخلاص فى الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) أى إن كنتم من أهل العقل أو إن كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه (هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ) جملة من مبتدإ وخبر صدرت بحرف التنبيه إظهارا لكمال العناية بمضمونها أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاتهم وقوله تعالى (تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ) بيان لخطئهم فى ذلك وهو خبر ثان لأنتم أو خبر لأولاء والجملة خبر لأنتم كقولك أنت زيد تحبه أو صلة له أو حال والعامل معنى الإشارة ويجوز أن ينتصب أولاء بفعل يفسره ما بعده وتكون الجملة خبرا (وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ) أى بجنس الكتب جميعا وهو حال من ضمير المفعول فى لا يحبونكم والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم (وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا) نفاقا (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) أى من أجله تأسفا وتحسرا حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا (قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ) دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا به أو باشتداده إلى أن يهلكهم (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) فيعلم ما فى صدوركم من العداوة والبغضاء والحنق وهو يحتمل أن يكون من المقول أى وقل لهم إن الله تعالى عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظا وأن يكون خارجا عنه بمعنى لا تتعجب من اطلاعى إياك على أسرارهم فإنى عليم بذات الصدور وقيل هو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظا بإعزاز الإسلام وإذلالهم به من غير أن يكون ثمة قول كأنه قيل حدث نفسك بذلك (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا) بيان

لتناهى عداوتهم إلى حد حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة وشمتوا بما أصابهم من ضر وشدة وذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة اما للايذان بان مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة واما لأن المس مستعار لمعنى الإصابة (وَإِنْ تَصْبِرُوا) أى على عداوتهم أو على مشاق التكاليف (وَتَتَّقُوا) ما حرم الله تعالى عليكم ونهاكم عنه (لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ) مكرهم وحيلتهم التى دبروها لأجلكم وقرىء لا يضركم بكسر الضاد وجزم الراء على جواب الشرط من ضاره يضيره بمعنى ضره يضره وضمة الراء فى القراءة المشهورة للاتباع كضمة مد (شَيْئاً) نصب على المصدرية أى لا يضركم شيئا من الضرر بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولأن المجد فى الأمر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون جريئا على الخصم (إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ) فى عداوتكم من الكيد (مُحِيطٌ) علما فيعاقبهم على ذلك وقرىء بالتاء الفوقانية أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم أهله (وَإِذْ غَدَوْتَ) كلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة من مضرة كيد الأعداء وإذ نصب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم خاصة مع عموم الخطاب فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين لاختصاص مضمون الكلام به عليه السلام أى واذكر لهم وقت غدوك ليتذكروا ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنهم ان لزموا الصبر والتقوى لا يضرهم كيد الكفرة وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها كما سلف بيانه فى تفسير قوله تعالى وإذ قال ربك للملائكة الخ والمراد به خروجه عليه السلام إلى أحد وكان ذلك من منزل عائشة رضى الله عنها وهو المراد بقوله تعالى (مِنْ أَهْلِكَ) أى من عند أهلك (تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ) أى تنزلهم أى تهيىء وتسوى لهم (مَقاعِدَ) ويؤيده قراءة من قرأ تبوىء للمؤمنين والجملة حال من فاعل غدوت لكن لا على أنها حال مقدرة أى ناويا أو قاصدا للتبوئة كما قيل بل على أن المقصود تذكير الزمان الممتد المتسع لابتداء الخروج والتبوئة وما يترتب عليها إذ هو المذكر للقصة وإنما عبر عنه بالغدو الذى هو الخروج غدوة مع كون خروجه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه إذ حينئذ وقعت التبوئة التى هى العمدة فى الباب إذ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبى صلى الله عليه وسلم وتزايلهم عن أحيازهم المعينة لهم عند التبوئة وعدم صبرهم وبهذا يتبين خلل رأى من احتج به على جواز أداء صلاة الجمعة قبل الزوال واللام فى قوله تعالى (لِلْقِتالِ) إما متعلقة بتبوىء أى لأجل القتال واما بمحذوف وقع صفة لمقاعد أى كائنة ومقاعد القتال اماكنه ومواقفه فان استعمال المقعد والمقام بمعنى المكان اتساعا شائع ذائع كما فى قوله تعالى فى مقعد صدق وقوله تعالى قبل أن تقوم من مقامك. روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن أبى بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فان أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنا قد جبنا عنهم فقال عليه الصلاة والسلام إنى قد رأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فأولتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة فتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ اخرج بنا إلى أعدائنا وقال النعمان بن مالك الأنصارى رضى الله عنه يا رسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة ثم قال

بقولى أشهد أن لا إله إلا الله و أنى لا أفر من الزحف فلم يزل الوابه عليه السلام حتى دخل فلبس لأمته فلما رأوه كذلك ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحى يأتيه وقالوا اصنع يا رسول الله ما رأيت فقال ما ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة و أصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال لسنة ثلاث من الهجرة فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال فكأنما يقوم بهم القدح ان رأى صدرا خارجا قال تأخر وكان نزوله فى عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمر عبدالله بن جبير على الرماة وقال لهم انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا من مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم (وَاللهُ سَمِيعٌ) لأقوالكم (عَلِيمٌ) بضمائركم والجملة اعتراض للايذان بأنه قد صدر عنهم هناك من الأقوال والأفعال ما لا ينبغى صدوره عنهم (إِذْ هَمَّتْ) بدل من إذ غدوت مبين لما هو المقصود بالتذكير أو ظرف لسميع عليم على معنى أنه تعالى جامع بين سماع الأقوال والعلم بالضمائر فى ذلك الوقت إذ لا وجه لتقييد كونه تعالى سميعا عليما بذلك الوقت . قال الفراء معنى قولك ضربت وأكرمت زيدا أن زيدا منصوب بهما وأنهما تسلطا عليه معا (طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا) متعلق بهمت والباء محذوفة أى بأن تفشلا أى تجبنا و تضعفا وهما حيان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج و بنو حارثة من الأوس وهما الجناحان من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ألف رجل وقيل تسعمائة وخمسين وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتح إن صبروا فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبى بثلث الناس فقال يا قوم علام نقتل أنفسنا و أولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الأنصارى فقال أنشدكم الله فى نبيكم و أنفسكم فقال عبدالله لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهم الحيان باتباع عبدالله فعصمهم الله تعالى فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس قلما تخلو النفس عنه عند الشدائد (وَاللهُ وَلِيُّهُمَا) أى عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة والجملة اعتراض ويجوز أن تكون حالا من فاعل همت أو من ضميره فى تفشلا مفيدة لاستبعاد فشلهما أو همهما به مع كونهما فى ولاية الله تعالى وقرىء والله وليهم كما فى قوله تعالى وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (وَعَلَى اللهِ) وحده دون ما عداه مطلقا استقلالا أو اشتراكا (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) فى جميع أمورهم فانه حسبهم وإظهار الاسم الجليل للتبرك والتعليل فان الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى واللام فى المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعى التوكل وموجباته (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ) جملة مستأنفة سيقت لإيجاب الصبر والتقوى بتذكير ما ترتب عليهما من النصر اثر تذكير ما ترتب على عدمهما من الضرر وقيل لإيجاب التوكل على الله تعالى بتذكير ما يوجبه وبدر اسم ماء بين مكة والمدينة كان لرجل اسمه بدر بن كلدة فسمى باسمه وقيل سمى به لصفائه كالبدر واستدارته وقيل هو اسم الموضع أو الوادى وكانت وقعة بدر فى السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة (وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ) حال من مفعول نصركم وأذلة جمع ذليل وإنما جمع جمع قلة للايذان باتصافهم حينئذ بوصفى القلة والذلة إذ كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وكان ضعف حالهم فى الغاية خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ولم يكن فى العسكر إلا فرس واحد وقيل فرسان للمقداد ومرثد وتسعون بعيرا وست أدرع وثمانية سيوف وكان العدو زهاء ألف ومعهم مائة فرس وشكة وشوكة (فَاتَّقُوا اللهَ) اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعا بالصبر فيما سبق وما لحق للاشعار باصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له ولذلك قدم عليه فى الذكر وفى ترتيب الأمر بالتقوى على الاخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم أى إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أى راجين أن تشكروا ماينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل أو لعلكم ينعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك من قبل فوضع الشكر موضع سببه الذى هو الانعام (إِذْ تَقُولُ) تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والايذان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام وإذ ظرف لنصركم قدم عليه الأمر بالتقوى لاظهار كمال العناية به والمراد به الوقت الممتد الذى وقع فيه ماذكر بعده وما طوى ذكره تعويلا على شهادة الحال مما يتعلق به وجود النصر وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أى نصركم وقت قولك (لِلْمُؤْمِنِينَ) حين أظهروا العجز عن المقاتلة قال الشعبى بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ثم حكى ههنا (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ) الكفاية سد الخلة والقيام بالأمر والامداد فى الأصل اعطاء الشىء حالا بعد حال . قال المفضل ما كان منه بطريق التقوية والاعانة يقال فيه أمده يمده امداداً وما كان بطريق الزيادة يقال فيه مده يمده مدا ومنه والبحر يمده من بعده سبعة أبحر وقيل المد فى الشر كما فى قوله تعالى ويمدهم فى طغيانهم يعمهون وقوله ونمد له من العذاب مدا والامداد فى الخير كما فى قوله تعالى وأمددناكم بأموال وبنين والتعرض لعنوان الربوبية ههنا وفيما سيأتى مع الاضافة إلى ضمير المخاطبين لاظهار العناية بهم والاشعار بعلة الامداد والمعنى إنكار عدم كفاية الامداد بذلك المقدار ونفيه وكلمة لن للاشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم (مِنَ الْمَلَائِكَةِ) بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف اليه أى كائنين من الملائكة (مُنْزَلِينَ) صفة لثلاثة آلاف وقيل حال من الملائكة وقرىء منزلين بالتشديد للتكثير أو للتدريج قيل أمدهم الله تعالى أولا بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف وقرىء مبنيا للفاعل من الصيغتين أى منزلين النصر (بَلَى) ايجاب لما بعد لن وتحقيق له أى بلى يكفيكم ذلك ثم وعدلهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثا لهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال (إِنْ تَصْبِرُوا) على لقاء العدو ومناهضتهم (وَتَتَّقُوا) معصية الله ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام (وَيَأْتُوكُمْ) أى المشركون (مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا) أى من ساعتهم هذه وهو فى الأصل مصدر فارت القدر أى اشتد غليانها ثم استعير للسرعة ثم أطلق على كل حالة لاريث فيها أصلا ووصفه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينه وتقريبه ونظم اتيانهم بسرعة فى سلك شرطى الامداد المستتبعين له وجودا وعدما أعنى الصبر والتقوى مع تحقق الامداد لامحالة سواء أسرعوا أو أبطؤا لتحقيق سرعة الامداد لالتحقيق أصله أو لبيان تحققه على أى حال فرض على أبلغ وجه وآكده بتعليقه بأبعد التقادير ليعلم تحققه على سائرها بالطريق الأولى فان هجوم الأعداء واتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة فعلق به تحقق الامداد ايذانا بأنه حيث تحقق مع ما ينافيه عادة فلأن يتحقق بدونه أولى وأحرى كما إذا أردت وصف درع بغاية الحصانة تقول ان لبستها وبارزت بها الأعداء فضربوك بأيد شداد وسيوف حداد لم تتأثر منها قطعا (يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) من التسويم الذى هو اظهار سيما الشىء أى معلمين أنفسهم أو خيلهم فقدروى أنهم كانوا بعمائم بيض الاجبريل عليه السلام فانه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام وروى أنهم كانوا على خيل بلق قال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة عمائم صفر وقال قتادة والضحاك كانوا قد أعلموا بالعهن فى نواصي الخيل وأذنابها روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه تسوموا فان الملائكة قد تسومت وقرىء مسومين على البناء للمفعول ومعناه معلمين من جهته سبحانه وقيل مرسلين من التسويم بمعنى الاسامة (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ) كلام مبتدأ غير داخل فى حيز القول مسوق من جنابه تعالى لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وأن حقيقة النصر مختص بعز

وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته معطوف على فعل مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فان الاخبار بوقوع النصر على الاطلاق وتذكير وقته وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص هو الامداد بالملائكة مرة بعد أخرى وتعيين وقته فيما مضى يقضى بوقوعه حينئذ قضاء قطعيا لكن لم يصرح به تعويلا على تعاضد الدلائل وتآخذ الامارات والمخايل وايذانا بكمال الغنى عنه بل احترازا عن شائبة التكرير أو عن ايهام احتمال الخلف فى الوعد المحتوم كأنه قيل عقيب قوله تعالى يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين فأمدكم بهم وما جعله الله الخ والجعل متعدد الى واحد هو الضمير العائد إلى مصدر ذلك الفعل المقدر وأما عوده إلى المصدر المذكور أعنى قوله تعالى أن يمدكم أو إلى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى يمددكم كما قيل فغير حقيق بجزالة التنزيل لأن الهيئة البسيطة متقدمة على المركبة فبيان العلة الغائية لوجود الامداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقه أن يكون بعد بيان وجوده فى نفسه ولا ريب فى أن المصدرين المذكورين غير معتبرين من حيث الوجود والوقوع كمصدر الفعل المقدر حتى يتصدى لبيان أحكام وجودهما بل الأول معتبر من حيث الكفاية والثانى من حيث الوعد على أن الاول هو الامداد بثلاثة آلاف والواقع هو الامداد بخمسة آلاف وقوله تعالى (إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ) استثناء مفرغ من أعم العلل وتلوين الخطاب لتشريف المؤمنين وللايذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غنى عنه بماله من التأييد الروحانى أى وما جعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشىء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تنصرون (وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ) أى بالامداد وتسكن اليه كما كانت السكينة لبنى اسرائيل كذلك فكلاهما علة غائية للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه من اتحاد الفاعل والزمان وكونه مصدرا مسوقا للتعليل وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للاشارة أيضا إلى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفى قصر الامداد عليهما اشعار بأن الملائكة عليهم السلام لم يباشروا يومئذ القتال وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوه كما هو رأى بعض السلف رضى الله عنه وقيل الجعل متعد إلى اثنين وقوله عز وجل إلا بشرى لكم استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله تعالى شيئا من الأشياء الا بشارة لكم فاللام فى قوله تعالى ولتطمئن متعلقة بمحذوف تقديره ولتطمئن قلوبكم به فعل ذلك (وَمَا النَّصْرُ) أى حقيقة النصر على الاطلاق فيندرج فى حكمه النصر المعهود اندراجا أوليا (إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) أى الا كائن من عنده تعالى من غير أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد وإنما هى مظاهر له بطريق جريان سنته تعالى أو وما النصر المعهود الا من عنده تعالى لا من عند الملائكة فانهم بمعزل من التأثير وانما قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب (الْعَزِيزِ) أى الذى لا يغالب فى حكمه وأقضيته واجراء هذا الوصف عليه تعالى للاشعار بعلة اختصاص النصر به تعالى كما أن وصفه بقوله (الْحَكِيمِ) أى الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة للايذان بعلة جعل النصر بانزال الملائكة فان ذلك من مقتضيات الحكم البالغة (لِيَقْطَعَ) متعلق بقوله تعالى ولقد نصركم وما بينهما تحقيق لحقيقته وبيان لكيفية وقوعه والمقصور على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان انما هو الإمداد بالملائكة على الوجه المذكور فلا يقدح ذلك فى تعليل أصل النصر بالقطع وما عطف عليه أو بما تعلق به الخبر فى قوله عز وعلا وما النصر إلا من عند الله على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود وقد أشير إلى أن المعلل بالبشارة والاطمئنان انما هو الامداد الصورى لا ما فى ضمنه من النصر المعنوى الذى هو ملاك الأمر وأما تعلقه بنفس النصر كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبى هو الخبر مخل بسداد المعنى كيف لا ومعناه قصر النصر المخصوص المعلل بعلل معينة على الحصول من جهته تعالى وليس المراد الا قصر

حقيقة النصر أو النصر المعهود على ذلك والمعنى لقد نصركم الله يومئذ أو وما النصر الظاهر عند امداد الملائكة إلا ثابت من عند الله ليقطع أى يهلك وينقص (طَرَفاً مِنَ الذينَ كفروا) أى طائفة منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون (أوْ يَكبِتَهُمْ) أى يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة فان الكبت شدة غيظ أو وهن يقع فى القلب من كبته بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة وقيل الكبت الاصابة بمكروه وقيل هو الصرع للوجه واليدين فالتاء حينئذ غير مبدلة وأو للتنويع (فَيَنقَلِبوا خائِبينَ) أى فينهزموا منقطعى الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشيء كما فى قوله تعالى ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا (لَيسَ لكَ مِنَ الأمْرِ شيءٌ) اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل والمعطوف المتعلق بالآجل لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين اثر بيان أن لا تأثير للناصرين وتخصيص النفى برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الأولى وإنما خص الاعتراض بموقعه لأن ما قبله من القطع والكبت من مظان أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشرى القتال مدخل فى الجملة (أوْ يَتوبَ عَليهِمْ أوْ يعذّبهمْ) عطف على يكبتهم والمعنى أن مالك أمرهم على الاطلاق هو الله عز وجل نصركم عليهم ليهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم ان أسلموا أو يعذبهم ان أصروا وليس لك من أمرهم شيء انما أنت عبد مأمور بانذارهم وجهادهم والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخروى المخصوص بأشد الكفرة كفرا وإلا فطلق التعذيب الأخروى متحقق فى الفريقين الأولين أيضا ونظم التوبة والتعذيب المذكور فى سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه فى الوجود من حيث أن قبول توبتهم فرع تحققها الناشيء من علمهم بحقية الاسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر وأن تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على اصرارهم على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور هذا وقيل ان عتبة بن أبى وقاص شج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته فجعل عليه الصلاة والسلام يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم فنزلت ليس لك من الأمر شيء الآية كأنه نوع معاتبة على انكاره عليه السلام لفلاحهم وقيل أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه بأن منهم من يؤمن فقوله تعالى أو يتوب عليهم حينئذ معطوف على الأمر أو على شيء باضمار أن أى ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء أو ليس لك من أمرهم شيء أو التوبة عليهم أو تعذيبهم ونقل عن الفراء وابن الأنبارى أن أو بمعنى الا أن والمعنى ليس لك من أمرهم شيء الا أن يتوب الله عليهم فتفرح به أو يعذبهم فتتشفى منهم وأياما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد اثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر لان كلا منهما مبنى على اختصاص الامر كله بالله تعالى ومنبيء عن سلبه عمن سواه وأما تعلق كل القصة بغزوة أحد على أن قوله تعالى اذ تقول بدل ثان من اذ غدوت وأن ما حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع يوم أحد وأن الامداد الموعود كان مشروطا بالصبر والتقوى فلما لم يفعلوا لم يتحقق الموعود كما قيل فلا يساعده النظم الكريم اما أولا فلأن المشروط بالصبر والتقوى انما هو الامداد بخمسة آلاف لا بثلاثة آلاف مع أنه لم يقع الامداد يومئذ ولا بملك واحد وأما ثانيا فلأنه كان ينبغى حينئذ أن ينعى عليهم جنايتهم وحرمانهم بسببها تلك النعمة الجليلة ودعوى ظهوره مع عدم دلالة السباق والسياق عليه بل مع دلالتهما على خلافه مما لا يكاد يسمع وأما ثالثا فلأنه لا سبيل إلى جعل الضمير فى قوله تعالى وما جعله الله الخ عائدا إلى الامداد الموعود لانه لم يتحقق فكيف يبين علته الغائية ولا إلى الوعد به على معنى أنه تعالى انما جعل ذلك الوعد لبشارتكم واطمئنان قلوبكم فلم تفعلوا ما شرط عليكم من الصبر والتقوى فلم يقع

انجاز الموعود لما أن قوله تعالى وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم صريح فى أنه قد وقع الامداد الموعود لكن أثره إنما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصلا وأما النصر الحقيقى فليس ذلك إلا من عنده تعالى وجعله استئنافا مقررا لعدم وقوع الامداد على معنى أن النصر الموعود مخصوص به تعالى فلا ينصر من خالف أمره بترك الصبر والتقوى اعتساف بين يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن قوله تعالى ليقطع طرفا الآية متعلق حينئذ بما تعلق به قوله تعالى من عند الله من الثبوت والاستقرار ضرورة أن تعلقه بقوله تعالى نصركم الله ببدر الآية مع كون ما بينهما من التفصيل متعلقا بوقعة أحد من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فلا بد من اعتبار وجود النصر قطعا لأن تفصيل الأحكام المترتبة على وجود شىء بصدد بيان انتفائه مما لم يعهد فى كلام الناس فضلا عن الكلام المجيد فالحق الذى لا محيد عنه أن قوله تعالى إذ تقول ظرف لنصركم وأن ما حكى فى أثنائه إلى قوله تعالى خائبين متعلق بيوم بدر قطعا وما بعده محتمل للوجهين المذكورين وقوله تعالى (فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ) تعليل على كل حال لقوله تعالى أو يعذبهم مبين لكون ذلك من جهتهم وجزاء لظلمهم (وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) كلام مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات به عز وجل اثر بيان اختصاص طرف من ذلك به سبحانه تقريرا لما سبق وتكملة له وتقديم الجار للقصر وكلمة ما شاملة للعقلاء أيضا تغليبا أى له ما فيهما من الموجودات خلقا وملكا لا مدخل فيه لأحد أصلا فله الأمر كله (يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ) أى يغفر له مشيئة مبنية على الحكم والمصالح (وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ) أى يعذبه بعمله مشيئة كذلك وإيثار كلمة من فى الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء وتقديم المغفرة على التعذيب للايذان بسبق رحمته تعالى غضبه وبأنها من مقتضيات الذات دونه فانه من مقتضيات سيئات العصاة وهذا صريح فى نفى وجوب التعذيب والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافى له (وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى يغفر لمن يشاء مع زيادة وفى تخصيص التذييل به دون قرينة من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة ما لا يخفى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟) كلام مبتدأ مشتمل على ما هو ملاك الأمر فى كل باب لا سيما فى باب الجهاد من التقوى والطاعة وما بعدهما من الأمور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب جىء به فى تضاعيف القصة مسارعة إلى إرشاد المخاطبين إلى ما فيه وإيذانا بكمال وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه من الجهاد فان الأمور المذكورة فيه مع كونها مناطا للفوز فى الدارين على الاطلاق عمدة فى أمر الجهاد عليها يدور فلك النصرة والغلبة كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما لقوا ما لقوا ولعل إيراد النهى عن الربا فى أثنائها لما أن الترغيب فى الانفاق فى السراء والضراء الذى عمدته الانفاق فى سبيل الجهاد متضمن للترغيب فى تحصيل المال فكان مظنة مبادرة الناس إلى طرق الاكتساب ومن جملتها الربا فنهوا عن ذلك والمراد بأكله أخذه وإنما عبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد بالأخذ ولشيوعه فى المأكولات مع ما فيه من زيادة تشنيع وقوله عز وجل (أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً) ليس لتقييد النهى به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم بذلك إذ كان الرجل يربى إلى أجل فاذا حل قال للمدين زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل فيفعل وهكذا عند محل كل أجل فيستغرق بالشىء الطفيف ماله بالكلية ومحله النصب على الحالية من الربا وقرىء مضعفة (وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ) فيما نهيتم عنه من الأمور التى من جملتها الربا (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) راجين للفلاح (وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ) بالتحرز عن متابعتهم وتعاطى ما يتعاطونه كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول هى أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه (وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ) فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه (وَٱلرَّسُولَ) الذى يبلغكم أوامره ونواهيه (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) راجين لرحمته . عقب الوعيد بالوعد ترهيبا عن المخالفة وترغيبا فى الطاعة وإيراد

لعل فى الموضعين للاشعار بعزة منال الفلاح والرحمة قال محمد بن اسحق هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد (وَسارِعُوا) عطف على أطيعوا وقرىء بغير واو على وجه الاستئناف أى بادروا وأقبلوا وقرىء وسابقوا (إِلىٰ مَغفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ) أى إلى ما يؤدى اليهما وقيل إلى الاسلام وقيل إلى التوبة وقيل إلى الاخلاص وقيل إلى الجهاد وقيل إلى أداء جميع الواجبات وترك جميع المنهيات فيدخل فيها ما مر من الأمور المأمور بها والمنهى عنها دخولا أوليا وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لمغفرة أى كائنة من ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالى (عَرْضُها السَّمٰوٰاتُ والأَرْضُ) أى كعرضهما صفة لجنة وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة فى وصفها بالسعة والبسطة على طريقة التمثيل فان العرض فى العادة أدنى من الطول وعن ابن عباس رضى الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) فى حيز الجر على أنه صفة أخرى لجنة أو فى محل النصب على الحالية منها لتخصيصها بالصفة أى هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم (الَّذِينَ يُنفِقُونَ) فى محل الجر على أنه نعت للمتقين مادح لهم أو بدل منه أو بيان أو فى حيز النصب أو الرفع على المدح ومفعول ينفقون محذوف ليتناول كل ما يصلح للانفاق أو متروك بالكلية كما فى قولك يعطى ويمنع (فِى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ) فى حالتى الرخاء والشدة واليسر والعسر أو فى الأحوال كلها إذ الانسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة أى لا يخلون فى حال ما بانفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير (والكٰظِمِينَ الغَيْظَ) عطف على الموصول والعدول إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار وأما الانفاق فحيث كان أمرا متجددا عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد والكظم الحبس يقال كظم غيظه أى حبسه قال المبرد تأويله أنه كتمه على امتلائه منه يقال كظمت السقاء إذا ملأته وشددت عليه أى الممسكين عليه الكافين عن امضائه مع القدرة عليه وعن النبى صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو قادر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا (والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) أى التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته روى أنه ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله تعالى فلا يقوم إلا من عفا وعن النبى صلى الله عليه وسلم إن هؤلاء فى أمتى قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت وفى هذين الوصفين إشعار بكمال حسن موقع عفوه عليه الصلاة والسلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره عليه السلام وندب له عليه السلام إلى ترك ما عزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوا بحمزة رضى الله عنه حيث قال حين رآه قد مثل به لأمثلن بسبعين مكانك (واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ) اللام إما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وإما للعهد عبر عنهم بالمحسنين إيذانا بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذى هو الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه السلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها (والَّذِينَ) مرفوع على الابتداء وقيل مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين وقوله تعالى والله يحب المحسنين اعتراض بينهما مشير إلى ما بينهما من التفاوت فان درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أوفى من حظهم أو على نفس المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر (إِذَا فَعَلُوا فٰحِشَةً) أى فعلة بالغة فى القبح كالزنا (أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) بأن أتوا ذنبا أى ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة أو الفاحشة ما يتعدى إلى الغير وظلم النفس ما ليس كذلك قيل قال المؤمنون يا رسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله تعالى منا كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره افعل كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل ان نبهان التمار أتته امرأة حسناء تطلب منه تمرا فقال لها هذا التمر ليس بجيد

وفى البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت وقيل جرى مثل هذا بين أنصارى وامرأة رجل ثقفى كان بينهما مؤاخاة فندم الأنصارى وحثا على رأسه التراب وهام على وجهه وجعل يسيح فى الجبال تائبا مستغفرا ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت وأياما كان فاطلاق اللفظ ينتظم مافعله الزناة انتظاما أوليا (ذكروا الله) تذكروا حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أووعيده أوحكمه وعقابه (فاستغفروا لذنوبهم) بالتوبة والندم والفاء للدلالة عن أن ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لامحالة (ومن يغفر الذنوب) استفهام انكارى والمراد بالذنوب جنسها كمافى قولك فلان يلبس الثياب ويركب الخيل لاكلها حتى يخل بماهو المقصود من استحالة صدور مغفرة فرد منها عن غيره تعالى وقوله تعالى (إلا الله) بدل من الضمير المستكن فى يغفر أى لايغفر جنس الذنوب أحد إلا الله خلا أن دلالة الاستفهام على الانتفاء أقوى وأبلغ لايذانه بأن كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء فيسارع إلى الجواب به والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة والجملة معترضة بين المعطوفين أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه والاشعار بالوعد بالقبول (ولم يصروا) عطف على فاستغفروا وتأخيره عنه مع تقدم عدم الاصرار على الاستغفار رتبة لاظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقه للمسارعة اليه عقيب ذكره تعالى أوحال من فاعله أى ولم يقيموا أو غير مقيمين (على ما فعلوا) أى مافعلوه من الذنوب فاحشة كانت أو ظلما أوعلى فعلهم . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة وأنه لاكبيرة مع الاستغفار ولاصغيرة مع الاصرار (وهم يعلمون) حال من فاعل يصروا أى لم يصروا على مافعلوا وهم عالمون بقبحه والنهى عنه والوعيد عليه والتقييد بذلك لما أنه قد يعذر من لايعلم ذلك اذا لم يكن عن تقصير فى تحصيل العلم به (أولئك) اشارة إلى المذكورين آخرا باعتبار اتصافهم بمامر من الصفات الحميدة ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (جزاؤهم) بدل اشتمال منه وقوله تعالى (مغفرة) خبر له أوجزاؤهم مبتدأ ثان ومغفرة خبر له والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر لقوله تعالى والذين اذا فعلوا الخ على الوجه الاول وهو الاظهر الانسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنب فى سلك الجزاء اذ على الوجهين الاخيرين يكون قوله تعالى أولئك الخ جملة مستأنفة مبينة لما قبلها كاشفة عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ولم يذكر من أوصاف الاولين مافيه شائبة الذنب حتى يذكر فى مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة وتخصيص الاشارة بالآخرين مع اشتراكهما فى حكم اعداد الجنة لهما تعسف ظاهر (من ربهم) متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة من جهته تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم للاشعار بعلة الحكم والتشريف (وجنات تجرى من تحتها الأنهار) عطف على مغفرة والتنكير المشعر بكونها أدنى من الجنة السابقة مما يؤيد رجحان الوجه الاول (خالدين فيها) حال مقدرة من الضمير فى جزاؤهم لانه مفعول به فى المعنى لانه فى قوة يجزيهم الله جنات خالدين فيها ولامساغ لأن يكون حالا من جنات فى اللفظ وهى لاصحابها فى المعنى إذ لو كان كذلك لبرز الضمير (ونعم أجر العاملين) المخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين ذلك أى ماذكر من المغفرة والجنات والتعبير عنهما بالاجر المشعر بأنهما يستحقان بمقابلة العمل وان كان بطريق التفضل لمزيد الترغيب فى الطاعات والزجر عن المعاصى والجملة تذييل مختص بالتائبين حسب اختصاص التذييل السابق بالأولين وناهيك مضمونهما دليلا على ما بين الفريقين من التفاوت النير والتباين البين شتان بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عزوجل وبين العاملين الحائزين لاجرتهم

وعمالتهم (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ) رجوع إلى تفصيل بقية القصة بعد تمهيد مبادى الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح والخلو المضى والسنن الوقائع وقيل الامم والظرف اما متعلق بخلت أو بمحذوف وقع حالا من سنن أى قد مضت من قبل زمانكم أو كائنة من قبلكم وقائع سنها الله تعالى فى الأمم المكذبة كما فى قوله تعالى وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا الخ والفاء فى قوله تعالى (فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) للدلالة على سببية خلوها للسير والنظر أو للامر بهما وقيل المعنى على الشرط أى ان شككتم فسيروا الخ وكيف خبر مقدم لكان معلق لفعل النظر والجلة فى محل النصب بعد نزع الخافض لان الأصل استعماله بالجار (هَـٰذَا) إشارة إلى ماسلف من قوله تعالى قد خلت إلى آخره (بَيَانٌ لِّلنَّاسِ) أى تبيين لهم على أن اللام متعلقة بالمصدر أو كائن لهم على أنها متعلقة بمحذوف وقع صفة له وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون أى هذا ايضاح لسوء عاقبة ماهم عليه من التكذيب فان الأمر بالسير والنظر وان كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضا على أن ينظروا فى عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا بما يعاينون من اثار دمارهم وان لم يكن الكلام مسوقا لهم (وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ) أى وزيادة بصيرة وموعظة لكم وانما قيل (لِّلْمُتَّقِينَ) للايذان بعلة الحكم فان مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين الى التقوى والهدى والموعظة على ظاهرهما أى هذا بيان لمآل أمر الناس وسوء مغبته وهداية لمن اتقى منهم وزجر لهم عماهم عليه من التكذيب وأن يراد به مايعمهم وغيرهم من المتقين بالفعل ويراد بالهدى والموعظة أيضا مايعم ابتداءهما والزيادة فيهما وإنما قدم كونه بيانا للمكذبين مع أنه غير مسوق له على كونه هدى وموعظة للمتقين مع أنه المقصود بالسياق لأن أول مايترتب على مشاهدة آثار هلاك أسلافهم ظهور حال أخلافهم وأما زيادة الهدى أو أصله فامر مترتب عليه وتخصيص البيان للناس مع شموله للمتقين أيضا لما أن المراد به مجرد البيان العارى عن الهدى والعظة والاقتصار عليهما فى جانب المتقين مع ترتبهما على البيان لما أنهما المقصد الاصلى ويجوز أن يكون تعريف الناس للجنس أى هذا بيان للناس كافة وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة وقيل كلمة هذا اشارة إلى مالخص من أمر المتقين والتائبين والمصرين وقوله تعالى قد خلت الآية اعتراض للبعث على الإيمان ومايستحق به ماذكر من أجر العاملين وأنت خبير بأن الاعتراض لابد أن يكون مقررا لمضمون ماوقع فى خلاله ومعاينة آثار هلاك المكذبين بمالاتعلق له بحال أحد الأصناف الثلاثة للمؤمنين وان كان باعثا على الإيمان زاجرا عن التكذيب وقيل اشارة الى القرآن ولايخفى بعده (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا) تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسلية عما أصابهم يوم أحد من القتل والقرح وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جحش ابن عمة النبى صلى الله عليه وسلم وعثمان بن شماس وسعد مولى عتبة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن الأنصار سبعون رجلا رضى الله عنهم أى لاتضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ولاتحزنوا على من قتل منكم (وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ) جملة حالية من فاعل الفعلين أى والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم فان مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من أحوال أسلافهم فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الاشعار به فيما سبق أو وأنتم المعهودون بغاية علو الشأن لما أنكم على الحق وقتالكم لله عز وجل وقتلاكم فى الجنة وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار وقيل وأنتم الأعلون حالا منهم حيث أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) متعلق بالنهى أو بالأعلون وجوابه محذوف لدلالة ماتعلق به عليه أى ان كنتم مؤمنين فلاتهنوا ولاتحزنوا فان الايمان يوجب قوة القلب والثقة

بصنع الله تعالى وعدم المبالاة بأعدائه أو ان كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون فان الإيمان يقتضى العلو لامحالة أو ان كنتم مصدقين بوعدالله تعالى فأنتم الأعلون وأياما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به كما فى قول الأجير إن كنت عملت لك فاعطنى أجرى ولذلك قيل معناه إذ كنتم مؤمنين وقيل معناه إن بقيتم على الإيمان (إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) القرح بالفتح والضم لغتان كالضعف والضعف وقد قرىء بهما وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها وقرىء بفتحتين وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أحق بأن لاتضعفوا فانكم ترجون من الله مالا يرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فان المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا منهم صاحب لوائهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل (وَتِلْكَ الأيامُ) إشارة إلى الأيام الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة لا إلى الأيام المعهودة خاصة من يوم بدر ويوم أحد بل هى داخلة فيها دخولا أوليا والمراد بها أوقات الظفر والغلبة (نُداوِلها بَينَ النّاسِ) نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقول من قال:

فيوما علينا ويوما لنا ويوما نساء ويوما نسر

والمداولة كالمعاورة يقال داولته بينهم فتداولوه أى عاورته فتعاوروه واسم الإشارة مبتدأ والايام إما صفة له أو بدل منه أو عطف بيان له فنداولها خبره أو خبر فنداولها حال من الأيام والعامل معنى اسم الإشارة أو خبر بعد خبر وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للايذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها وفيه ضرب من التسلية وقوله عز وجل (وَلِيَعلَمَ اللهُ الذِينَ ءامَنوا) إما من باب التمثيل أى ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الإيمان من غيرهم أو العلم فيه مجاز عن التميز بطريق اطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الايمان من غيرهم كما فى قوله تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب أو هو على حقيقته معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث أنه موجود بالفعل إذ هو الذى يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث أنه موجود بالقوة وإطلاق الإيمان مع أن المراد هو الرسوخ والإخلاص فيه للايذان بأن اسم الإيمان لا ينطلق على غيره والالتفات إلى الغيبة باسناده إلى اسم الذات المستجمع للصفات لتربية المهابة والاشعار بأن صدور كل واحد مما ذكر بصدد التعليل من أفعاله تعالى باعتبار منشأ معين من صفاته تعالى مغاير لمنشأ الآخر والجملة علة لما هو فرد من أفراد مطلق المداولة التى نطق بها قوله تعالى نداولها بين الناس من المداولة المعهودة الجارية بين فريقى المؤمنين والكافرين واللام متعلقة بما دل عليه المطلق من الفعل المقيد بالوقوع بين الفريقين المذكورين أو بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما والجملة معطوفة على علة أخرى لها معتبرة اما على الخصوص والتعيين محذوفة لدلالة المذكورة عليها لكونها من مباديها كأنه قيل نداولها بينكم وبين عدوكم ليظهر أمركم وليعلم الخ فان ظهور أعمالهم وخروجها من القوة إلى الفعل من مبادىء تميزهم عن غيرهم ومواجب تعلق العلم الأزلى بها من تلك الحيثية وكذا الحال فى باب التمثيل فتأمل واما على العموم والابهام للتنبيه على أن العلل غير منحصرة فيما عدد من الأمور وأن العبد يسوءه ما يجرى عليه من النوائب ولا يشعر بأن الله تعالى جعل له فى ذلك من الالطاف الخفية مالا يخطر بالبال كأنه قيل نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الخ وفيه من تأكيد التسلية ومزيد التبصرة مالا يخفى وتخصيص البيان بعلة هذا الفرد من مطلق المداولة دون سائر أفرادها الجارية فيما بين بقية الامم تعيينا أو إبهاما لعدم تعلق الغرض العلمى ببيانها ولك أن تجعل المحذوف المبهم عبارة عن علل سائر أفرادها للاشارة إجمالا إلى أن كل فرد من أفرادها له علة داعية اليه كأنه قيل نداولها بين الناس

كافة ليكون كيت وكيت من الحكم الداعية إلى تلك الافرادو ليعلم الخ فاللام الأولى متعلقة بالفعل المطلق باعتبار تقيده بتلك الافرادو الثانية باعتبار تقيده بالفرد المعهود وقيل هى متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره و ليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك (ويتخذ منكم شهداء) جمع شهيد أى ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم شهداء أحد فمن ابتدائية أو تبعيضية متعلقة بيتخذ أو بمحذوف وقع حالا من شهداء أو جمع شاهد أى ويتخذ منكم شهودا معدلين بما ظهر منهم من الثبات عن الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق ليشهدوا على الأمم يوم القيامة فمن بيانية لأن تلك الشهادة وظيفة الكل دون المستشهدين فقط وأياما كان ففى لفظ الاتخاذ المنبىء عن الاصطفاء والتقريب من تشريفهم وتفخيم شأنهم مالا يخفى وقوله تعالى (والله لا يحب الظالمين) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله ونفى المحبة كناية عن البغض وفى إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم والمراد بهم اماغير الثابتين على الإيمان فالتقرير من حيث أن بغضه تعالى لهم من دواعى إخراج المخلصين المصطفين للشهادة من بينهم وأما الكفرة الذين أديل لهم فالتقرير من حيث أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم فانها مختصة بأوليائه تعالى بل لما ذكر من الفوائد العائدة إلى المؤمنين وقوله تعالى (وليمحص الله الذين آمنوا) أى ليصفيهم ويطهرهم من الذنوب عطف على يتخذ وتكرير اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض وإظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص وهذه الأمور الثلاثة علل للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قدمت فى الذكر لأنها المحتاجة إلى البيان ولعل تأخير العلة الأخيرة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين أو ليقترن بقوله عز وجل (ويمحق الكافرين) فان التمحيص فيه محو الآثار وإزالة الاوضار كما أن المحق عبارة عن النقص والاذهاب قال المفضل هو أن يذهب الشىء بالكلية حتى لا يرى منه شىء ومنه قوله تعالى يمحق الله الربا أى يستأصله وهذه علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأصروا على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعا (أم حسبتم) كلام مستأنف سيق لبيان ما هى الغاية القصوى من المداولة والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء وإظهار عزة منالها والخطاب للذين انهزموا يوم أحد وأم منقطعة ومافيها من كلمة بل للاضراب عن التسلية ببيان العلل فيما لقوا من الشدة إلى تحقيق أنها من مبادى الفوز بالمطلب الاسنى والهمزة للانكار والاستبعاد أى بل أحسبتم (أن تدخلوا الجنة) وتفوزوا بنعيمها وقوله تعالى (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للانكار فان رجاء الأجر بغير عمل ممن يعلم أنه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما بينهما من اللزوم المبنى على لزوم تحقق الأول لتحقق الثانى ضرورة استحالة تحقق شىء بدون علمه تعالى به وإيثارها على التصريح للمبالغة فى تحقيق المعنى المراد فانها اثبات لعدم جهادهم بالبرهان وللايذان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى بها كأنه قيل والحال أنه لم يوجد الذين جاهدوا منكم وإنما وجه النفى إلى الموصوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط وكان يكفى أن يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة فى بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلا وفى كلمة لما ايذان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل إلا أنه غير معتبر فى تأكيد الانكار وقرىء يعلم بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون أو على طريقة اتباع الميم لما قبلها فى الحركة لابقاء تفخيم اسم الله تعالى ومنكم حال من الذين (ويعلم الصابرين) منصوب باضمار أن على أن الواو للجمع كما فى قولك لا تأكل السمك وتشرب اللبن أى لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما وإيثار اسم الفاعل على الموصول للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة

على الفواصل وقيل مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حرك لالتقاء الساكنين بالفتح للخفة والاتباع كما مر ويؤيده القراءة بالكسر على ما هو الاصل فى تحريك الساكن وقرىء يعلم بالرفع على أن الواو للحال وصاحبها الموصول والمبتدأ محذوف أى وهو يعلم الصابرين كأنه قيل ولما تجاهدوا وأنتم صابرون (وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ) أى تتمنون الحرب فانها من مبادى الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك (مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ) متعلق بتمنون مبين لسبب اقدامهم على التمنى أى من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرىء تلاقوه (فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ) أى ما تتمنونه من أسباب الموت أو الموت بمشاهدة أسبابه وقوله تعالى (وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) حال من ضمير المخاطبين وفى ايثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة فى مشاهدتهم له والفاء فصيحة كأنه قيل ان كنتم صادقين فى تمنيكم ذلك فقد رأيتموه معاينين له حين قتل بين أيديكم من قتل من اخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا فلم فعلتم ما فعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمنى الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شىء غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجهة (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) مبتدأ وخبر ولا عمل لما بالاتفاق لانتقاض نفيه بالا وقوله تعالى (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ) صفة لرسول منبئة عن كونه شرف الخلو فان خلو مشاركيه فى منصب الرسالة من شواهد خلوه عليه الصلاة والسلام لا محالة كأنه قيل قد خلت من قبله أمثاله فسيخلو كما خلوا والقصر قلبي فانهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا كسائر الرسل فى أنه يخلو كما خلوا ويجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بأنه ليس الا رسولا كسائر الرسل فسيخلو كما خلوا ويجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم وقيل هو قصر افراد فانهم لما استعظموا عدم بقائه عليه الصلاة والسلام لهم نزلوا منزلة المستبعدين لهلاكه كأنهم يعتقدون فيه عليه الصلاة والسلام وصفين الرسالة والبعد عن الهلاك فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى قد خلت الخ كلاما مبتدأ مسوقا لتقرير عدم براءته عليه الصلاة والسلام من الهلاك وبيان كونه أسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام وأيا ما كان فالكلام يخرج على خلاف مقتضى الظاهر (أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ) انكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين بخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به وقيل الفاء للسببية والهمزة لانكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم بعد وفاته مع كونه سببا فى الحقيقة لثباتهم على الدين وايراد الموت بكلمة ان مع علمهم به البتة لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لما ذكر من استعظامهم اياه وهكذا الحال فى سائر الموارد فان كلمة ان فى كلام الله تعالى لا تجرى على ظاهرها قط ضرورة علمه تعالى بالوقوع أو اللاوقوع بل تحمل على اعتبار حال السامع أو أمر آخر يناسب المقام وتقديم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذى ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت فى شرف الوقوع فزجر الناس عن الانقلاب عنده وحملهم على التثبت هناك أهم ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل. روى أنه لما التقى الفئتان حمل أبو دجانة فى نفر من المسلمين على المشركين فقاتل قتالا شديدا وقاتل على بن أبى طالب رضى الله عنه قتالا عظيما حتى التوى سيفه وكذا سعد بن أبى وقاص فقتلوا جماعة من المشركين وهزموهم فلما نظر الرماة اليهم ورأوا أنهم قد انهزموا أقبلوا على النهب ولم يلتفتوا إلى نهى أميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق منهم عنده إلا ثمانية نفر فلما رآهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمة حمل عليهم فى مائتين وخمسين

فارسا من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقى من الرماة ودخلوا خلاف أقفية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلوهم حتى أصيب هناك نحو ثلاثين رجلا كل منهم يجثو بين يديه ويقول وجهى لوجهك وقاء ونفسى لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع ورمى عبد الله بن قمئة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضى الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قمئة وهو يزعم أنه قتل النبى صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمدا وصرخ صارخ قيل إنه ابليس ألا أن محمدا قد قتل فانكفأ الناس وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى عباد الله قال كعب بن مالك كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين فناديت بأعلى صوتى يا معشر المسلمين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانحاز اليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون وقال بعضهم ليت بن أبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان وقال ناس من المنافقين لو كان نبيا لما قتل ارجعوا إلى اخوانكم وإلى دينكم فقال أنس بن النضر وهو عم أنس بن مالك يا قوم إن كان قتل محمد فان رب محمد حى لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا كراما على ما مات عليه ثم قال اللهم إنى أعتذر اليك مما يقول هؤلاء وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل وتجويزهم لقتله عليه الصلاة والسلام مع قوله تعالى والله يعصمك من الناس لما أن كل آية ليس يسمعها كل أحد ولا كل من يسمعها يستحضرها فى كل مقام لاسيما فى مثل ذلك المقام الهائل وقد غفل عمر رضى الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته عليه الصلاة والسلام وقام فى الناس فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى وان رسول الله مامات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يزل يكرر ذلك إلى أن قام أبو بكر رضى الله عنه فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ثم تلا وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية قال الراوى والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر وقال عمر رضى الله عنه والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضى الله عنه يتلو فعقرت حتى ما تحملنى رجلاى وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات (وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ) بادباره عما كان يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الجهاد وغيره وقيل بارتداده عن الاسلام وما ارتد يومئذ أحد من المسلمين إلا ما كان من المنافقين (فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ) بما فعل من الانقلاب (شَيْئًا) أى شيأ من الضرر وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب (وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ) أى الثابتين على دين الاسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف سموا بذلك لأن الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بهم الطائعون لله تعالى من المهاجرين والأنصار وعن على رضى الله عنه أبو بكر وأصحابه رضى الله عنهم وعنه رضى الله عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين ومن أحباء الله تعالى وإظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ) كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذرا من قتلهم وبناء على الارجاف بقتله عليه الصلاة والسلام ببيان أن موت كل نفس منوط بمشيئة الله عز وجل لا يكاد يقع بدون تعلقها به وإن خاضت موارد الخوف واقتحمت مضايق كل هول مخوف وقد أشير بذلك إلى أنهالم تكن متعلقة بموتهم فى الوقت الذى حذروه فيه ولذلك لم يقتلوا حينئذ لا لاحجامهم عن مباشرة القتال وكلمة كان

ناقصة اسمها أن تموت وخبرها الظرف على أنه متعلق بمحذوف وقوله تعالى (إلا بإذن الله) استثناء مفرغ من أعم الأسباب أي وما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس بسبب من الأسباب إلا بمشيئته تعالى على أن الاذن مجاز منها لكونها من لوازمه أو إلا باذنه لملك الموت فى قبض روحها وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة إلى النفوس بصورة الأفعال الاختيارية التى لا يتسنى للفاعل إيقاعها والإقدام عليها بدون إذنه تعالى أو بتنزيل إقدامها على مبادیه أعنى القتال منزلة الاقدام على نفسه للمبالغة فى تحقيق المرام فان موتها حيث استحال وقوعه عند اقدامها عليه أو على مباديه وسعيها فى ايقاعه فلأن يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر وفيه من التحريض على القتال ما لا يخفى (كتاباً) مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى كتبه الله كتاباً (مؤجلاً) موقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ولو ساعة وقرىء موجلا بالواو بدل الهمزة على قياس التخفيف وبعد تحقيق أن مدار الموت والحياة محض مشيئة الله عز وجل من غير أن يكون فيه مدخل لأحد أصلا أشير إلى أن توفية ثمرات الأعمال دائرة على ارادتهم ليصرفوها عن الأغراض الدنية إلى المطالب السنية فقيل (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الدنيا نؤته) بنون العظمة على طريق الالتفات (منها) أى من ثوابها ما نشاء أن نؤتيه إياه كما فى قوله عزوجل من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وهو تعريض بمن شغلتهم الغنائم يومئذ وقد مر تفصيله (ومن يرد) أى بعمله (ثواب الآخرة نؤته منها) أى من ثوابها ما نشاء من الاضعاف حسبما جرى به الوعد الكريم (وسنجزى الشاكرين) نعمة الاسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر إلى ما خلقت هى لأجله من طاعة الله تعالى لا يلويهم عن ذلك صارف أصلا والمراد بهم اما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم واما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ووعد بالمزيد عليه وفى تصديرها بالسين وابهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء وكونه بحيث يقصر عنه البيان ما لا يخفى وقرىء الأفعال الثلاثة بالياء (وكأين) كلام مبتدأ ناع عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية عليهم السلام وكأى لفظة مركبة من كاف التشبيه وأى حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث فى كذا وكذا والنون تنوين أثبتت فى الخط على غير قياس وفيها خمس لغات هى احداهن والثانية كائن مثل كاعن والثالثة كأين مثل كعين والرابعة كيئن بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهى قلب ما قبلها والخامسة كأن مثل كعن وقد قرىء بكل منها ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى (من نبى) تمييز لها لأنها مثل كم الخبرية وقد جاء تمييزها منصوبا كما فى قوله :

أطرد اليأس بالرجا فكأين آملا حم يسره بعد عسر

وقوله تعالى (قتل معه ربيون كثير) خبر لها على أن الفعل مسند إلى الظاهر والرابط هو الضمير المجرور فى معه وقرىء قتل وقتل على صيغة المبنى للمفعول مخففة ومشددة والربى منسوب إلى الرب كالربانى وكسر الراء من تغييرات النسب وقرىء بضمها وبفتحها أيضا على الأصل وقيل هو منسوب إلى الربة وهى الجماعة أى كثير من الأنبياء قاتل معه لاعلاء كلمة الله واعزاز دينه علماء أتقياء أو عابدون أو جماعات كثيرة فالظرف متعلق بقاتل أو بمحذوف وقع حالا من فاعله كما فى القراءتين الأخيرتين إذ لا احتمال فيهما لتعلقه بالفعل أى قتلوا أو قتلوا كائنين معه فى القتال لا فى القتل قال سعيد بن جبير ما سمعنا بنبى قتل فى القتال وقال الحسن البصرى وجماعة من العظماء لم يقتل نبى فى حرب قط وقيل الفعل مسند إلى ضمير النبى والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا منه والرابط هو الضمير المجرور الراجع اليه وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خلاف أى كم من نبى قاتل كائنا معه فى القتال ربيون كثير وأما على القراءتين الأخيرتين فغير

ظاهر لاسيما على قراءة التشديد وقد جوزه بعضهم وأيده بأن مدار التوبيخ انخذالهم للارجاف بقتله عليه السلام أى كم من نبى قتل كائنا معه فى القتل أو فى القتال ربيون الخ وقوله تعالى (فَمَا وَهَنُوا) عطف على قاتل على أن المراد به عدم الوهن المتوقع من القتال كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشىء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه بحسب الظاهر لكنه بحسب الحقيقة صنع جديد مصحح لدخول الفاء المترتبة له على ما قبله أى فما فتروا وما انكسرت همتهم (لِمَا أَصَابَهُمْ) فى أثناء القتال وهو علة للمنفى دون النفى نعم يشعر بعلته قوله تعالى (فِى سَبِيلِ اللهِ) فان كون ذلك فى سبيله عز وجل مما يقوى قلوبهم ويزيل وهنهم وما موصولة أو موصوفة فان جعل الضميران لجميع الربيين فهى عبارة عما عدا القتل من الجراح وسائر المكاره المعترية للكل وإن جعلا للبعض الباقين بعد ما قتل الآخرون كما هو الأنسب بمقام توبيخ المنخذلين بعد ما استشهد الشهداء فهى عبارة عما ذكر مع ما اعتراهم من قتل اخوانهم من الخوف والحزن وغير ذلك هذا على القراءة المشهورة وأما على القراءتين الأخيرتين فان أسند الفعل إلى الربيين فالضميران للباقين منهم حتما وان أسند إلى ضمير النبى كما هو الأنسب بالتوبيخ على الانخذال بسبب الارجاف بقتله عليه الصلاة والسلام فهما للباقين أيضا ان اعتبر كون الربيين مع النبى فى القتل وللجميع ان اعتبر كونهم معه فى القتال (وَمَا ضَعُفُوا) عن العدو وقيل عن الجهاد وقيل فى الدين (وَمَا اسْتَكَانُوا) أى وما خضعوا للعدو وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده والألف من اشباع الفتحة أو استكون من الكون لأنه يطلب أن يكون لمن يخضع له وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم والارجاف بقتل النبى صلى الله عليه وسلم وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بابن أبى المنافق فى طلب الأمان من أبى سفيان (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) أى على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره فى سبيل الله فينصرهم ويعظم قدرهم والمراد بالصابرين اما المعهودون والاظهار فى موضع الاضمار للثناء عليهم بحسن الصبر والإشعار بعلة الحكم واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة تذييل لما قبلها (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ) كلام مبين لمحاسنهم القولية معطوف على ما قبله من الجمل المبينة لمحاسنهم وقولهم بالنصب الفعلية خبر لكان واسمها أن وما بعدها فى قوله تعالى (إِلَّا أَنْ قَالُوا) والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ما كان قولا لهم عند أى لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب وإصابة ما أصابهم من فنون الشدائد والأهوال شىء من الأشياء إلا أن قالوا (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) أى صغائرنا (وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا) أى تجاوزنا الحد فى ركوب الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط فى جنب الله تعالى هضما لها واستقصارا لهممهم واسنادا لما أصابهم إلى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهم بحسب الأحوال من الدعاء بقولهم (وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا) أى فى مواطن الحرب بالتقوية والتأييد من عندك أو ثبتنا على دينك الحق (وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) تقريبا له إلى حيز القبول فان الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتزلزل فى مواقف الحرب ومراصد الدين وفيه من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم على أنه الاسم والخبر أن وما فى حيزها أى ما كان قولهم حينئذ شيئا من الأشياء إلا هذا القول المنبىء عن أحاسن المحاسن وهذا كما ترى أقعد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما ان الاخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكى عنهم مفصلا كما تفيده قراءتهما أكثر افادة للسامع من الاخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل الخبرية هو الخبر فالأحق بالخبرية ما هو أكثر افادة وأظهر دلالة على

الحدث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا يخفى أن ذلك ههنا فى أن مع مافى حيزها أتم وأكمل وأما ماتفيده الاضافة من النسبة المطلقة الاجمالية فحيث كانت سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة اجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لامقصودا بالذات فى باب البيان وانما اختار الجمهور ما اختاره لقاعدة صناعية هى أنه إذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحق بالاسمية ولاريب فى أعرفية أن قالوا الدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ولأنه يشبه المضمر من حيث أنه لايوصف ولايوصف به وقولهم مضاف إلى مضمر فهو بمنزلة العلم فتأمل (فَـَٔاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ) بسبب دعائهم ذلك (ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا) أى النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل (وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ) أى وثواب الآخرة الحسن وهو الجنة والنعيم المخلد وتخصيص وصف الحسن به للايذان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عنده تعالى (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) تذييل مقرر لمضمون ماقبله فان محبة الله تعالى للعبد عبارة عن رضاه عنه وارادة الخير به فهى مبدأ لكل سعادة واللام للعهد وإنما وضع المظهر موضع ضمير المعهودين للاشعار بأن ماحكى عنهم من الأفعال والأقول من باب الاحسان وأما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وهذا أنسب بمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيل ماحكى عنهم من المناقب الجليلة (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟) شروع فى زجرهم عن متابعة الكفار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والآخرة اثر ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان افضائه إلى فوزهم بسعادة الدارين وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لاظهار الاعتناء بمافى حيزه ووصفهم بالايمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها باظهار مباينتها لحال أعدائهم كما أن وصف المنافقين بالكفر فى قوله تعالى (إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) لذلك قصدا إلى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم قال على رضى الله عنه نزلت فى قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى اخوانكم وادخلوا فى دينهم فوقوع قوله تعالى (يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ) جوابا للشرط مع كونه فى قوة أن يقال ان تطيعوهم فى قولهم ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا فى دينهم بدخولكم فى دينهم باعتبار كونه تمهيدا لقوله تعالى (فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ) أى للدنيا والآخرة غير فائزين بشىء منهما واقعين فى العذاب الخالد على أن الارتداد على العقب علم فى انتكاس الأمر ومثل فى الحور بعد الكور وقيل المراد بهم اليهود والنصارى حيث كانوا يستغوونهم ويوقعون لهم الشبه فى الدين ويقولون لوكان نبيا حقا لماغلب ولما أصابه وأصحابه ماأصابهم وإنما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما عليه ويوما له وقيل أبو سفيان وأصحابه والمراد بطاعتهم استئمانهم والاستكانة لهم وقيل الموصول على عمومه والمعنى نهى المؤمنين عن طاعتهم فى أمر من الأمور حتى لايستجروهم الى الارتداد عن الدين فلاحاجة على هذه التقادير إلى مامر من البيان (بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ) اضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كأنه قيل فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لاغيره فأطيعوه واستغنوا به عن موالاتهم وقرىء بالنصب كأنه قيل فلاتطيعوهم بل أطيعوا الله ومولاكم نصب على أنه صفة له (وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ) فخصوه بالطاعة والاستعانة (سَنُلْقِى) بنون العظمة على طريقة الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وقرىء بالياء والسين لتأكيد الالقاء (فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ) بسكون العين وقرىء بضمها على الأصل وهو ماقذف فى قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ولهم القوة والغلبة وقيل ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا ماصنعنا شيأ قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم فعندذلك ألقى فى قلوبهم الرعب فأمسكوا فلابد من كون نزول الآية فى تضاعيف الحرب أو عقيب انقضائه وقيل هو ماألقى فى قلوبهم من الرعب يوم الأحزاب (بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ) متعلق بنلقى دون الرعب وما مصدرية أى بسبب اشراكهم به تعالى فانه من موجبات خذلانهم ونصر

المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعى الرعب (مَالم يُنزِّلْ به) أى باشراكه (سُلطاناً) أى حجة سميت به لوضوحها وانارتها أو لقوتها أو لحدتها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استحالة تحققها فى نفسها من قبيل قوله : ولا ترى الضب بها ينجحر أى لاضب ولا انجحار وفيه ايذان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوى دون الآراء والاهواء الباطلة (ومَأوٰهمُ) بيان لأحوالهم فى الآخرة اثر بيان أحوالهم فى الدنيا وهى الرعب أى ما يأوون اليه فى الآخرة (النَّارُ) لا ملجأ لهم غيرها (وبئسَ مَثوى الظّـٰلمِينَ) أى مثواهم وانما وضع موضعه المظهر المذكور للتغليظ والتعليل والاشعار بأنهم فى اشراكهم ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أى بئس مثوى الظالمين النار وفى جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز إلى خلودهم فيها فان المثوى مكان الاقامة المنبئة عن المكث وأما المأوى فهو المكان الذى يأوى اليه الانسان (ولَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعدَهُ) نصب على أنه مفعول ثان لصدق صريحا وقيل بنزع الجار أى فى وعده نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر وهو ما وعدهم على لسان نبيه عليه السلام من النصر حيث قال للرماة لا تبرحوا امكانكم فلن نزال غالبين ماثبتم مكانكم وفى رواية أخرى لا تبرحوا عن هذا المكان فانا لا نزال غالبين مادمتم فى هذا المكان وقد كان كذلك فان المشركين لما أقبلوا اجعل الرماة يرشقونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا وذلك قوله تعالى (إذْ تحُسُّونهُمْ) أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا من حسه إذا أبطل حسه وهو ظرف لصدقكم وقوله تعالى (بإذنهِ) أى بتيسيره وتوفيقه لتحقيق أن قتلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر وقيل هو ما وعدهم بقوله تعالى ان تصبروا وتتقوا الآية وقدر تحقيق أن ذلك كان يوم بدر كيف لا والموعود بما ذكر امداده عز وجل بانزال الملائكة عليهم السلام وتقييد صدق وعده تعالى بوقت قتلهم باذنه تعالى صريح فى أن الموعود هو النصر المعنوى والتيسير لا الامداد بالملائكة وقيل هو ما وعد تعالى بقوله سنلقى الخ وأنت خبير بأن القاء الرعب كان عند تركهم القتال ورجوعهم من غير سبب أو بعد ذلك فى الطريق على اختلاف الروايتين وأيا ما كان فلا سبيل إلى كونه مغيا بقوله تعالى (حَتى إذَا فشِلتمْ) أى جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فان الحرص من ضعف القلب (وَتنٰزَعتمْ فى الأمرِ) فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلا وضربا فما موقفنا ههنا بعد هذا وقال أميرهم عبدالله بن جبير رضى الله عنه لا نخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فثبت مكانه فى نفر دون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب وذلك قوله تعالى (وَعصَيتم مِّن بعدِ مَا أرٰيكمْ مَا تحِبُّونَ) أى من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما رأى المشركون ذلك حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه حسبما فصل فى تفسير قوله تعالى أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم وجواب اذا محذوف وهو منعكم نصره وقيل هو امتحنكم ويرده جعل الابتلاء غاية للصرف المترتب على منع النصر وقيل هو انقسمتم إلى قسمين كما ينبىء عنه قوله تعالى (مِنكم مَّن يُرِيدُ الدُّنيا) وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب (ومِنكم مَّن يُريدُ الآخِرةِ) وهم الذين ثبتوا امكانهم حتى نالوا شرف الشهادة هذا على تقدير كون إذا شرطية وحتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية وقيل اذا اسم كما فى قولهم اذا يقوم زيد يقوم عمرو وحتى حرف جر بمعنى الى متعلقة بقوله تعالى صدقكم باعتبار تضمنه لمعنى النصر كانه قيل لقد نصركم الله إلى وقت فشلكم وتنازعكم الخ وعلى هذا فقوله تعالى (ثمَّ صرَفكمْ عَنهمْ) عطف على ذلك وعلى الاول عطف على الجواب المحذوف كما أشير اليه والجملتان الظرفيتان اعتراض بين المتعاطفين أى كفكم عنهم حتى حالت الحال ودالت الدولة وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى (لِيبتليكمْ) أى يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب ليظهر ثباتكم على الايمان عندها (ولَقَدْ عفا عنكمْ) تفضلا ولما علم من ندمكم على المخالفة (وَاللهُ ذُو

فضل على المؤمنين) تذييل مقرر لمضمون ماقبله ومؤذن بأن ذلك العفو بطريق التفضل والاحسان لابطريق الوجوب عليه أى شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال أديل لهم أو أديل عليهم إذ الابتلاء أيضا رحمة والتنكير للتفخيم والمراد بالمؤمنين اما المخاطبون والاظهار فى موقع الاضمار للتشريف والاشعار بعلة الحكم واما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا (إذ تصعدون) متعلق بصرفكم أو بقوله تعالى ليبتليكم أو بمقدر كما ذكروا والاصعاد الذهاب والابعاد فى الأرض وقرىء تصعدون من الثلاثى أى فى الجبل وقرىء تصعدون من التفعل بطرح احدى التاءين وقرىء يصعدون بالالتفات إلى الغيبة (ولا تلوون على أحد) أى لاتلتفتون إلى ماوراءكم ولا يقف واحد منكم لواحد وقرىء تلون بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها تخفيفا وقرىء يلوون كيصعدون (والرسول يدعوكم) كان عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عباد الله إلى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة للايذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه اشباعا فى توبيخ المنهزمين (فى أخراكم) فى ساقتكم وجماعتكم الأخرى (فأثابكم) عطف على صرفكم أى فجازاكم الله تعالى بما صنعتم (غما) موصولا (بغم) من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والارجاف بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وفوت الغنيمة فالتنكير للتكثير أو غما بمقابلة غم أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له (لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم) أى لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا على نفع فات أو ضر آت وقيل لازائدة والمعنى لتتأسفوا على مافاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ماأصابكم من الجراح والهزيمة عقوبة لكم وقيل الضمير فى أثابكم للرسول صلى الله عليه وسلم أى واساكم فى الاغتمام فاغتم بمانزل عليكم كما اغتممتم بمانزل عليه ولم يثربكم على عصيانكم تسلية لكم وتنفيسا عنكم لئلا تحزنوا على مافاتكم من النصر وما أصابكم من الجراح وغير ذلك (والله خبير بما تعملون) أى عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها (ثم أنزل عليكم) عطف على قوله تعالى فأثابكم والخطاب للمؤمنين حقا (من بعد الغم) أى الغم المذكور والتصريح بتأخر الانزال عنه مع دلالة ثم عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان وتذكير عظم النعمة كما فى قوله تعالى ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الآية (أمنة) أى أمنا نصب على المفعولية وقوله تعالى (نعاسا) بدل منها أو عطف بيان وقيل مفعول له أو هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة عليه أو مفعول له أو حال من المخاطبين على تقدير مضاف أى ذوى أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة وقرىء بسكون الميم كانها مرة من الأمن وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالازالة لانه المهم عندهم حينئذ لما أن المشركين لما انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع فلم يأمنوا كرتهم وكانوا تحت الحجف متأهبين للقتال فأنزل الله تعالى عليهم الأمنة فأخذهم النعاس . قال ابن عباس رضى الله عنهما أمنهم يومئذ بنعاس تغشاهم بعد خوف وانما ينعس من أمن والخائف لاينام وقال الزبير رضى الله عنه كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأنزل الله علينا النوم والله انى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ماأسمعه الا كالحلم يقول لوكان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا وقال أبو طلحة رضى الله عنه رفعت رأسى يوم أحد فجعلت لاأرى أحدا من القوم الا وهو يميد تحت حجفته من النعاس . قال وكنت ممن ألقى عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدى فآخذه ثم يسقط السوط من يدى فآخذه وفيه دلالة على أن من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبىء عنه قوله عز وجل (يغشى طائفة منكم) قال ابن عباس هم المهاجرون وعامة الانصار ولا يقدح ذلك فى عموم الانزال للكل والجملة فى محل النصب على أنها صفة لنعاسا وقرىء بالتاء على أنها

صفة لأمنة وفيه أن الصفة حقها أن تتقدم على البدل وعطف البيان وأن لا يفصل بينها وبين الموصوف بالمفعول له وأن المعهود أن يحدث عن البدل دون المبدل منه (وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ) أى أوقعتهم فى الهموم والأحزان أو ما بهم الاهم أنفسهم وقصد خلاصها من قولهم همنى الشىء أى كان من همتى وقصدى والقصر مستفاد بمعونة المقام وطائفة مبتدأ وما بعدها ما خبرها وإنما جاز ذلك مع كونها نكرة لاعتمادها على واو الحال كما فى قوله :

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا محياك أخفى ضوءه كل شارق

أو لوقوعها فى موضع التفصيل كما فى قوله : اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وشق عندنا لم يحول

وأما صفتها والخبر محذوف أى ومعكم طائفة أو وهناك طائفة وقيل تقديره ومنكم طائفة وفيه أنه يقتضى دخول المنافقين فى الخطاب بانزال الأمنة وأيا ما كان فالجملة اما حالية مبينة لفظاعة الهول مؤكدة لعظم النعمة فى الخلاص عنه كما فى قوله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم واما مستأنفة مسوقة لبيان حال المنافقين وقوله عز وجل (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ) حال من ضمير أهمتهم أو من طائفة لتخصصها بالصفة أو صفة أخرى لها أو خبر بعد خبر أو استئناف مبين لما قبله وقوله تعالى (غَيْرَ الْحَقِّ) فى حكم المصدر أى يظنون به تعالى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه وقوله تعالى (ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية والاضافة كما فى حاتم الجود ورجل صدق وقوله تعالى (يَقُولُونَ) بدل من يظنون لما أن مسئلتهم كانت صادرة عن الظن أى يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد (هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ) أى من أمر الله تعالى ووعده من النصر والظفر (مِنْ شَيْءٍ) أى من نصيب قط أو هل لنا من التدبير من شىء وقوله تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) أى الغلبة بالآخرة لله تعالى ولأوليائه فان حزب الله هم الغالبون أو ان التدبير كله لله فانه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مرد له وقرىء كله بالرفع على الابتداء وقوله تعالى (يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ) أى يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية (مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ) استئناف أو حال من ضمير يقولون وقوله تعالى قل إن الأمر الخ اعتراض بين الحال وصاحبها أى يقولون ما يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الانكار والتكذيب وقوله تعالى (يَقُولُونَ) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل أى شىء يخفون فقيل يحدثون أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية (لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام من أن الغلبة لله تعالى ولأوليائه وأن الأمر كله لله أو لو كان لنا من التدبير والرأى شىء (مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا) أى ما غلبنا أو ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة على أن النفى راجع إلى نفس القتل لا إلى وقوعه فيها فقط ولما برحنا من منازلنا كما رآه ابن أبى ويؤيده تعيين مكان القتل وكذا قوله تعالى (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ) أى لولم تخرجوا إلى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون (لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ) اى فى اللوح المحفوظ بسبب من الأسباب الداعية إلى البروز (إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) إلى مصارعهم التى قدر الله تعالى قتلهم فيها وقتلوا هنالك البتة ولم تنفع العزيمة على الاقامة بالمدينة قطعا فان قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما فى قوله عز وجل أينما تكونوا يدرككم الموت بل عين مكانه أيضا ولا ريب فى تعيين زمانه أيضا لقوله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون روى أن ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام فنظر إلى رجل من أهل المجلس نظرة هائلة فلما قام قال الرجل من هذا فقال سليمان عليه السلام ملك الموت قال ارسلنى مع الريح إلى عالم آخر فانى رأيت منه مرأى هائلا فأمرها عليه السلام فألقته فى قطر سحيق من أقطار العالم فما لبث أن

عاد ملك الموت إلى سليمان عليه السلام فقال كنت أمرت بقبض روح ذلك الرجل فى هذه الساعة فى أرض كذا فلما وجدته فى مجلسك قلت متى يصل هذا اليها وقد أرسلته بالريح إلى ذلك المكان فوجدته هناك فقضى أمر الله عز وجل فى زمانه ومكانه من غير إخلال بشىء من ذلك وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القتل وقرىء كتب عليهم القتال وقرىء لبرز بالتشديد على البناء للمفعول (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ) أى ليعاملكم معاملة من يبتلى ما فى صدوركم من الإخلاص والنفاق ويظهر ما فيها من السرائر وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للايذان بكثرتها كأنه قيل فعل ما فعل لمصالح جمة وليبتلى الخ وجعلها علة لابرز يأباه الذوق السليم فان مقتضى المقام بيان حكمة ماوقع يومئذ من الشدة والهول لا بيان حكمة البروز المفروض أو لفعل مقدر بعدها أى وللابتلاء المذكور فعل ما فعل لا لعدم العناية بأمر المؤمنين ونحو ذلك وتقدير الفعل مقدما خال من هذه المزية (وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) من مخفيات الأمور ويكشفها أو يخلصها من الوساوس (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى السرائر والضمائر الخفية التى لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها والجملة إما اعتراض للتنبيه على أن الله تعالى غنى عن الابتلاء وإنما يبرز صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين أو حال من متعلق الفعلين أى فعل ما فعل للابتلاء والتمحيص والحال أنه تعالى غنى عنهما محيط بخفيات الأمور وفيه وعد ووعيد (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) وهم الذين انهزموا يوم أحد حسبما مرت حكايتهم (إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ) أى إنما كان سبب انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل (بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) من الذنوب والمعاصى التى هى مخالفة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وترك المركز والحرص على الغنيمة أو الحياة فحرموا التأييد وقوة القلب وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بذنوب تقدمت لهم فان المعاصى يجر بعضها إلى بعض كالطاعة وقيل استزلهم بذنوب سبقت منهم وكرهوا القتل قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة (وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ) لتوبتهم واعتذارهم (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) للذنوب (حَلِيمٌ) لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق وفى إظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيد للتعليل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا) وهم المنافقون القائلون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا وإنما ذكر فى صدر الصلة كفرهم تصريحا بمباينة حالهم لحال المؤمنين وتنفيرا عن مماثلتهم أثر ذى أثير وقوله تعالى (وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ) تعيين لوجه الشبه والمماثلة التى نهوا عنها أى قالوا لأجلهم وفى حقهم ومعنى إخوتهم اتفاقهم نسبا أو مذهبا (إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ) أى سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها وإيثار اذا المفيدة لمعنى الاستقبال على إذ المفيدة لمعنى المضى لحكاية الحال الماضية إذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم للحال الذى عليه يدور أمر استحضار الصورة قال الزجاج إذا ههنا تنوب عما مضى من الزمان وما يستقبل يعنى أنها لمجرد الوقت أو يقصد بها الاستمرار وظرفيتها لقولهم إنما هى باعتبار ما وقع فيها بل التحقيق أنها ظرف له لا لقولهم كأنه قيل قالوا الاجل ما أصاب إخوانهم حين ضربوا الخ (أَوْ كَانُوا) أى اخوانهم (غُزًّى) جمع غاز كعفى جمع عاف قال:

ومغبرة الآفاق خاشعة الصوى … لها قلب عفى الحياض أجون

وقرىء بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة وافراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب فى الأرض لأنه المقصود بيانه فى المقام وذكر الضرب فى الارض توطئة له وتقديمه لكثرة وقوعه على أنه قد يوجد بدون الضرب فى الارض إذ المراد به السفر البعيد وإنما لم يقل أو غزوا للايذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة أو بانقضاء ذلك أى كانوا غزاة فيما مضى وقوله تعالى (لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا) أى مقيمين (مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) مفعول لقالوا ودليل على أن هناك مضمرا قد حذف ثقة به أى إذا ضربوا فى الارض فماتوا أو كانوا غزاة فقتلوا وليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق

بهذا القول بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه كما أنه المنكر على قائليه ألا يرى إلى قوله عز وجل (لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) فانه الذى جعل حسرة فيها قطعا واليه أشير بذلك كما نقل عن الزجاج انه اشارة إلى ظنهم أنهم لو لم يحضروا القتال لم يقتلوا وتعلقه بقالوا ليس باعتبار نطقهم بذلك القول بل باعتبار ما فيه من الحكم والاعتقاد واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ما على ذلك أصلا وقيل هو تعليل للنهى بمعنى لا تكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله تعالى حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم فذلك كما مر اشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز أن يكون اشارة إلى ما دل عليه النهى أى لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم فان مضادتكم لهم فى القول والاعتقاد مما يغمهم ويغيظهم (وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ) رد لقولهم الباطل اثر بيان غائلته أى هو المؤثر فى الحياة والممات وحده من غير أن يكون للاقامة أو للسفر مدخل فى ذلك فانه تعالى قد يحيى المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لأسباب السلامة (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم وقرىء بالياء على أنه وعيد للذين كفروا وما يعملون عام متناول لقولهم المذكور ولمنشئه الذى هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من الأعمال ولذلك تعرض لعنوان البصر لا لعنوان السمع واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة والقاء الروعة والمبالغة فى التهديد والتشديد فى الوعيد (وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ) شروع فى تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت فى سبيل الله تعالى ليس مما ينبغى أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون اثر ابطال ترتبه عليهما واللام هى الموطئة للقسم وما فى قوله تعالى (لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ) لام الابتداء والتنوين فى الموضعين للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة للمبتدا وقد حذفت صفة رحمة لدلالة المذكور عليها والجملة جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط والمعنى ان السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل أصلا ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كائنتين من الله تعالى بمقابلة ذلك (خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء وقرىء بالتاء أى مما تجمعونه أنتم لو لم تموتوا والاقتصار على بيان خيريتهما من ذلك بلا تعرض للاخبار بحصولهما لهم للايذان بعدم الحاجة اليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد الاطماع وقد قيل لا بد من حذف آخر أى لمغفرة لكم من الله الخ وحينئذ يكون أيضا اخراج المقدر مخرج الصفة دون الخبر لنحو ما ذكر من ادعاء الظهور والغنى عن الاخبار به وتغيير الترتيب الواقع فى قولهم ما ماتوا وما قتلوا المبنى على كثرة الوقوع وقلته للمبالغة فى الترغيب فى الجهاد ببيان زيادة مزية القتل فى سبيل الله وانافته فى استجلاب المغفرة والرحمة وفيه دلالة واضحة على ما مر من أن المقصود بالنهى إنما هو عدم مماثلتهم فى الاعتقاد بمضمون القول المذكور والعمل بموجبه لا فى النطق به واضلال الناس به (وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ) أى على أى وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الارادة الالهية وقرىء متم بكسر الميم من مات يمات (لَإِلَى اللهِ) أى إلى المعبود بالحق العظيم الشأن الواسع الرحمة الجزيل الاحسان (تُحْشَرُونَ) لا إلى غيره فيوفيكم أجوركم ويجزل لكم عطاءكم والكلام فى لامى الجملة كما مر فى أختها (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينبىء عنه السياق من استحقاقهم اللائمة والتعنيف بموجب الجبلة البشرية أو من سعة ساحة مغفرته تعالى ورحمته والباء متعلقة بلنت قدمت عليه للقصر وما مزيدة للتوكيد أو نكرة ورحمة بدل منها مبين لابهامها والتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف

وقع صفة لرحمة أى فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالى وهى ربطه على جأشه وتخصيصه بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بهم حيث اغتممت لهم بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك واسلامك للعدو (وَلَوْ) لم تكن كذلك بل (كُنْتَ فَظًّا) جافيا فى المعاشرة قولا وفعلا وقال الراغب الفظ هو الكريه الخلق وقال الواحدى هو الغليظ الجانب السيء الخلق (غَلِيظَ الْقَلْبِ) قاسيه وقال الكلبى فظا فى القول غليظ القلب فى الفعل (لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا اليك وتردوا فى مهاوى الردى والفاء فى قوله عز وجل (فَاعْفُ عَنْهُمْ) لترتيب العفو أو الأمر به على ماقبله أى اذا كان الأمر كما ذكر فاعف عنهم فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم (وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الله فيما يتعلق بحقوقه تعالى اتماما للشفقة عليهم واكمالا للبر بهم (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) أى فى أمر الحرب إذ هو المعهود أو فيه وفى أمثاله مما تجرى فيه المشاورة عادة استظهارا بآرائهم وتطييبا لقلوبهم وتمهيدا لسنة المشاورة للامة وقرىء وشاورهم فى بعض الأمر (فَإِذَا عَزَمْتَ) أى عقيب المشاورة على شيء واطمأنت به نفسك (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) فى امضاء أمرك على ماهو أرشد لك وأصلح فان علمه مختص به سبحانه وتعالى وقرىء فاذا عزمت على صيغة التكلم أى عزمت لك على شيء وأرشدتك اليه فتوكل على ولا تشاور بعد ذلك أحدا والالتفات لتربية المهابة وتعليل التوكل أو الأمر به فان عنوان الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال مستدع للتوكل عليه تعالى أو الأمر به (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) عليه تعالى فينصرهم ويرشدهم إلى مافيه خير لهم وصلاح والجملة تعليل للتوكل عليه تعالى وقوله تعالى (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ) جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب تشريفا للمؤمنين لإيجاب توكلهم عليه تعالى وحثهم على اللجأ اليه وتحذيرهم عما يفضى إلى خذلانه أى ان ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم على طريق نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد الغالب ذاتا وصفة ولو قيل فلا يغلبكم أحد لدل على نفى الصفة فقط ثم المفهوم من ظاهر النظم الكريم وإن كان نفى مغلوبيتهم من غير تعرض لنفى المساواة أيضا وهو الذى يقتضيه المقام لكن المفهوم منه فهما قطعيا هو نفى المساواة وإثبات الغالبية للمخاطبين فاذا قلت لا أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمعهود منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا أمر مطرد فى جميع اللغات ولا اختصاص له بالنفى الصريح بل هو مطرد فيما ورد على طريق الاستفهام الانكارى كما فى قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا فى مواقع كثيرة من التنزيل ومما هو نص قاطع فيما ذكرنا ماوقع فى سورة هود حيث قيل بعده فى حقهم لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون فان كونهم أخسر من كل خاسر يستدعى قطعا كونهم أظلم من كل ظالم (وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ) كما فعل يوم أحد وقرىء يخذلكم من أخذله اذا جعله مخذولا (فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ) استفهام انكارى مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة (مِنْ بَعْدِهِ) أى من بعد خذلانه تعالى أو من بعد الله تعالى على معنى اذا جاوزتموه (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة قصره عليه تعالى والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به على مامر من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى اياهم فان العلم بذلك مما يقتضى قصر التوكل عليه تعالى لا محالة والمراد بالمؤمنين اما الجنس والمخاطبون داخلون فيه دخولا أوليا واماهم خاصة بطريق الالتفات وأيا ما كان ففيه تشريف لهم بعنوان الايمان اشتراكا أو استقلالا وتعليل لتحتم التوكل عليه تعالى فان وصف الايمان مما يوجبه قطعا (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ) أى وماصح لنبى من الانبياء ولا استقام له (أَنْ يَغُلَّ) أى يخون فى المغنم فان النبوة تنافيه منافاة بينة يقال غل شيأ من المغنم يغل غلولا وأغل اغلالا اذا أخذه خفية والمراد اما تنزيه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز وأفاضوا فى الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله

عليه وسلم من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري فقالوا تركنا بقية إخواننا وقوفاً فقال عليه السلام بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم بينكم وأما المبالغة في النهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روي أنه بعث طلائع فغنم النبي صلى الله عليه وسلم بعدهم غنائم فقسمها بين الحاضر ولم يترك للطلائع شيئاً فنزلت والمعنى ما كان لنبي أن يعطي قوما من العسكر ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بين الكل بالسوية وعبر عن حرمان بعض الغزاة بالغلول تغليظا وأما ما قيل من أن المراد تنزيهه عليه السلام عما تفوه به بعض المنافقين إذ روي أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فبعيد جدا وقرىء على البناء للمفعول والمعنى ما كان له أن يوجد غالا أو ينسب إلى الغلول (وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ) يأت بالذي غله بعينه يحمله على عنقه كما ورد في الحديث الشريف وروي أنه عليه السلام قال ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببعير له رغاء وببقرة لها خوار وبشاة لها ثغاء فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا فقد بلغتك أو يأت بما احتمل من إثمه ووباله (ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ) أي تعطى وافيا جزاء ما كسبت خيرا أو شرا كثيرا أو يسيرا ووضع المكسوب موضع جزائه تحقيقا للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب كما وكيفا كأنهما شيء واحد وفي إسناد التوفية إلى كل كاسب وتعليقها بكل مكسوب مع أن المقصود بيان حال الغال عند إتيانه بما غله يوم القيامة من الدلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطلعه والمبالغة في بيان فظاعة حال الغال ما لا يخفى فإنه حيث وفي كل كاسب جزاء ما كسبه ولم ينقص منه شيء وإن كان جرمه في غاية القلة والحقارة فلأن لا ينقص من جزاء الغال شيء وجرمه من أعظم الجرائم أظهر وأجلى (وَهُمْ) أي كل الناس المدلول عليهم بكل نفس (لَا يُظْلَمُونَ) بزيادة عقاب أو بنقص ثواب (أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَٰنَ اللَّهِ) أي سعى في تحصيله وانتحى نحوه حيثما كان بفعل الطاعات وترك المنكرات كالنبي ومن يسير بسيرته (كَمَنۢ بَآءَ) أي رجع (بِسَخَطٍ) عظيم لا يقادر قدره كائن (مِّنَ اللَّهِ) تعالى بسبب معاصيه كالغال ومن يدين بدينه والمراد تأكيد نفي الغلول عن النبي عليه الصلاة والسلام وتقريره بتحقيق المباينة الكلية بينه وبين الغال حيث وصف كل منهما بنقيض ما وصف به الآخر فقوبل رضوانه تعالى بسخطه والاتباع بالبوء والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتب توهم المماثلة بينهما والحكم بها على ما ذكر من حال الغال كأنه قيل أبعد ظهور حاله يكون من ترقى إلى أعلى عليين كمن تردى إلى أسفل سافلين وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة (وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ) إما كلام مستأنف مسوق لبيان مآل أمر من باء بسخطه تعالى وإما معطوف على قوله تعالى باء بسخط عطف الصلة الاسمية على الفعلية وأيا ما كان فلا محل له من الإعراب (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) اعتراض تذييلي والمخصوص بالذم محذوف أي وبئس المصير جهنم والفرق بينه وبين المرجع أن الأول يعتبر فيه الرجوع على خلاف الحالة الأولى بخلاف الثاني (هُمْ) راجع إلى الموصولين باعتبار المعنى (دَرَجَٰتٌ عِندَ اللَّهِ) أي طبقات متفاوتة في علمه تعالى وحكمه شبهوا في تفاوت الأحوال وتباينها بالدرجات مبالغة وإيذانا بأن بينهم تفاوتا ذاتيا كالدرجات أو ذوو درجات (وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ) من الأعمال ودرجاتها فيجازيهم بحسبها (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ) جواب قسم محذوف أي والله لقد من الله أي أنعم (عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أي من قومه عليه السلام (إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) أي من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به وفي ذلك شرف لهم عظيم قال الله تعالى وإنه لذكر لك ولقومك وقرىء من أنفسهم أي أشرفهم فإنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونها وقرىء لمن من الله على المؤمنين إذ بعث الخ

على أنه خبر لمبتدا محذوف أى منه إذ بعث الخ أو على أن إذ فى محل الرفع على الابتداء بمعنى لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه وتخصيصهم بالامتنان مع عموم نعمة البعثة للأسود والأحمر لما مر من مزيد انتفاعهم بها وقوله تعالى من أنفسهم متعلق بمحذوف وقع صفة لرسولا أى كائنا من أنفسهم وقوله تعالى (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ) صفة أخرى أى يتلو عليهم القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شىء من الوحى (وَيُزَكِّيهِمْ) عطف على يتلو أى يطهرهم من دنس الطبائع وسوء العقائد وأوضار الأوزار (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ) أى القرآن والسنة وهو صفة أخرى لرسولا مترتبة فى الوجود على التلاوة وإنما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم لتبادر إلى الفهم عد الجميع نعمة واحدة وهو السر فى التعبير عن القرآن بالآيات تارة وبالكتاب والحكمة أخرى رمزا إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولا يقدح فى ذلك شمول الحكمة لما فى مطاوى الأحاديث الكريمة من الشرائع كما سلف فى سورة البقرة (وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ) أى من قبل بعثته عليه السلام وتزكيته وتعليمه (لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) أى بين لا ريب فى كونه ضلالا وان هى المخففة من المثقلة وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية والظرف الأول لغو متعلق بكان والثانى خبرها وهى مع خبرها خبر لأن المخففة التى حذف اسمها أعنى ضمير الشأن وقيل هى نافية واللام بمعنى الا أى وما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين وأياما كان فالجملة إما حال من الضمير المنصوب فى يعلمهم أو مستأنفة وعلى التقديرين فهى مبينة لكمال النعمة وتمامها (أَوَلَمَّا أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا) كلام مبتدأ مسوق لإبطال بعض ما صدر عنهم من الظنون الفاسدة والأقاويل الباطلة الناشئة منها اثر ابطال بعض آخر منها والهمزة للتقريع والتقرير والواو عاطفة لمدخولها على محذوف قبلها ولما ظرف لقلتم مضاف إلى ما بعده وقد أصبتم فى محل الرفع على أنه صفة لمصيبة والمراد بها ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم وبمثليها ما أصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين وأنى هذا مقول قلتم وتوسيط الظرف وما يتعلق به بينه وبين الهمزة مع أنه المقصود إنكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع فان فعل القبيح فى غير وقته أقبح والإنكار على فاعله أدخل والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من أين أصابنا هذا وقد تقدم الوعد بالنصر على توجيه الإنكار والتقريع إلى صدور ذلك القول عنهم فى ذلك الوقت خاصة بناء على عدم كونه مظنة له داعيا اليه بل على كونه داعيا إلى عدمه فان كون مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم مما يهون الخطب ويورث السلوة أو أفعلتم ما فعلتم ولما أصابتكم غائلته قلتم أنى هذا على توجيه الإنكار إلى استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها وتذكير اسم الاشارة فى أنى هذا مع كونه إشارة إلى المصيبة ليس لكونها عبارة عن القتل ونحوه بل لما أن اشارتهم ليست إلا الى ما شاهدوه فى المعركة من حيث هو هو من غير أن يخطر ببالهم تسميته باسم ما فضلا عن تسميته باسم المصيبة وإنما هى عند الحكاية وقوله عز وجل (قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن سؤالهم الفاسد اثر تحقيق فساده بالانكار والتقريع ويبكتهم ببيان أن ما نالهم إنما نالهم من جهتهم بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة وقيل باختيارهم الخروج من المدينة ويأباه أن الوعد بالنصر كان بعد ذلك كما ذكر عند قوله تعالى ولقد صدقكم الله وعده الآية وأن عمل النبى صلى الله عليه وسلم بموجبه قد رفع الخطر عنه وخفف جنايتهم فيه على أن اختيار الخروج والاصرار عليه كان ممن أكرمهم الله تعالى بالشهادة

يومئذ وأين هم من التفوه بمثل هذه الكلمة وقيل بأخذهم الفداء يوم بدر قبل أن يؤذن لهم والأول هو الأظهر الأقوى وإنما يعضده توسيط خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بين الخطابين المتوجهين إلى المؤمنين وتفويض التبكيب إليه عليه السلام فان توبيخ الفاعل على الفعل إذا كان ممن نهاه عنه كان أشد تأثيرا (إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ومن جملته النصر عند الطاعة والخذلان عند المخالفة وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ما أصابكم والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها داخل تحت الأمر (وَمَا أَصَابَكُمْ) رجوع إلى خطاب المؤمنين اثر خطابه عليه السلام بسر يقتضيه وارشاد لهم الى طريق الحق فيما سألوا عنه وبيان لبعض مافيه من الحكم والمصالح ودفع لما عسى أن يتوهم من قوله تعالى هو من عند أنفسكم من استقلالهم فى وقوع الحادثة والعدول عن الاضمار الى ماذكر للتهويل وزيادة التقرير ببيان وقته بقوله تعالى (يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) أى جمعكم وجمع المشركين (فَبِإِذْنِ اللهِ) أى فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار سمى ذلك اذناً لكونهما من لوازمه (وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ) عطف على قوله تعالى فباذن الله عطف المسبب على السبب والمراد بالعلم التميز والاظهار فيما بين الناس (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا) عطف على ماقبله من مثله وإعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم على الانتظام فى قرن المنافقين وللايذان باختلاف حال العلم بحسب التعلق بالفريقين فانه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه السابق وبالمنافقين على وجه جديد وهو السر فى إيراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الاستمرار والآخرين بموصول صلته فعل دال على الحدوث والمعنى وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتميز الثابتين على الايمان والذين أظهروا النفاق (وَقِيلَ لَهُمْ) عطف على نافقوا داخل معه فى حيز الصلة أو كلام مبتدأ قال ابن عباس رضى الله عنهما هم عبدالله بن أبى وأصحابه حيث انصرفوا يوم أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عبدالله بن عمرو بن حرام أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ودعاهم إلى القتال وذلك قوله تعالى (تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا) قال السدى ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا وقيل أو ادفعوا عن أهلكم وبلدكم وحريمكم إن لم تقاتلوا فى سبيل الله تعالى وترك العطف بين تعالوا وقاتلوا لما أن المقصود بهما واحد وهو الثانى وذكر الأول توطئة له وترغيب فيه لما فيه الدلالة على التظاهر والتعاون (قَالُوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا حين خيروا بين الخصلتين المذكورتين فقيل قالوا (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ) أى لو نحسن قتالا ونقدر عليه وإنما قالوه دغلا واستهزاء وإنما عبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به لما أن القدرة على الأفعال الاختيارية مستلزمة للعلم بها أولو نعلم مايصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال أصلا وإنما هو إلقاء النفس إلى التهلكة وفى جعلهم التالى مجرد الاتباع دون القتال الذى هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال حيث لاترضى نفوسهم بجعله تاليا لمقدم مستحيل الوقوع (هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ) الضمير مبتدأ وأقرب خبره واللام فى للكفر وللايمان متعلقة به وكذا يومئذ ومنهم وعدم جواز تعلق حرفين متحدين لفظا ومعنى بعامل واحد بلا عطف أو بدلية إنما هو فيما عدا أفعل التفضيل من العوامل لاتحاد حيثية عملها وأما أفعل التفضيل فحيث دل على أصل الفعل وزيادته جرى مجرى عاملين كأنه قيل قربهم للكفر زائد على قربهم للايمان وقيل تعلق الجارين به لشبههما بالظرفين أى هم للكفر يوم إذ قالوا ما قالوا أقرب منهم للايمان فانهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالايمان وما ظهرت منهم أمارة مؤذنة بكفرهم فلما انخذلوا عن عسكر المسلمين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن تقليل سواد المسلمين بالانخذال تقوية المشركين وقوله تعالى (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ) جملة مستأنفة مقررة لمضمون ماقبلها وذكر الأفواه

والقلوب تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم وماعبارة عن القول والمراد به اما نفس الكلام الظاهر فى اللسان تارة وفى القلب أخرى فالمثبت والمنفى متحدان ذاتا وان اختلفا مظهراً وأما القول الملفوظ فقط فالمنفى حينئذ منشأه الذى لاينفك عنه القول أصلا وإنما عبر عنه به إبانة لما بينهما من شدة الاتصال أى يتفوهون بقول لاوجود له أو لمنشئه فى قلوبهم أصلا من الأباطيل التى من جملتها ما حكى عنهم آنفا فانهم أظهروا فيه أمرين ليس فى قلوبهم شىء منهما أحدهما عدم العلم بالقتال والآخر الاتباع على تقدير العلم به وقد كذبوا فيهما كذبا بينا حيث كانوا عالمين به غير ناوين للاتباع بل كانوا مصرين مع ذلك على الانخذال عازمين على الارتداد وقوله عز وجل (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ) زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد اثر بيان خلوها عما يوافقها وصيغة التفضيل لما أن بعض ما يكتمونه من أحكام النفاق وذم المؤمنين وتخطئة آرائهم والشماتة بهم وغير ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الاجمال وأن تفاصيل ذلك وكيفياته مختصة بالعلم الإلهى (الَّذِينَ قَالُوا) مرفوع على أنه بدل من واو يكتمون أو خبر لمبتدا محذوف وقيل مبتدأ خبره قل فادرؤا بحذف العائد تقديره قل لهم الخ أو منصوب على الذم أو على أنه نعت للذين نافقوا أو بدل منه وقيل مجرور على أنه بدل من ضمير أفواههم أو قلوبهم كما فى قوله: على جوده لضن بالماء حاتم والمراد بهم عبدالله بن أبى وأصحابه (لِإِخْوَانِهِمْ) أى لأجلهم وهم من قتل يوم أحد من جنسهم أو من أقاربهم فيندرج فيهم بعض الشهداء (وَقَعَدُوا) حال من ضمير قالوا بتقدير قد أى قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال (لَوْ أَطَاعُونَا) أى فيما أمرناهم به ووافقونا فى ذلك (مَا قُتِلُوا) كما لم نقتل وفيه إيذان بأنهم أمروهم بالانخذال حين انخذلوا وأغووهم كما غووا وحمل القعود على ما استصوبه ابن أبى عند المشاورة من الإقامة بالمدينة ابتداء وجعل الاطاعة عبارة عن قبول رأيه والعمل به يرده كون الجملة حالية فانها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع أن ابن أبى ليس من القاعدين فيها بذلك المعنى على أن تخصيص عدم الطاعة باخوانهم ينادى باختصاص الأمر أيضا بهم فيستحيل أن يحمل على ما خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم عند المشاورة (قُلْ) تبكيتا لهم وإظهارا لكذبهم (فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ) جواب لشرط قد حذف تعويلا على ما بعده من قوله تعالى (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) كما أنه شرط حذف جوابه لدلالة الجواب المذكور عليه أى إن كنتم صادقين فيما ينبىء عنه قولكم من أنكم قادرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم معلقا بسبب خاص موقتا بوقت معين بدفع سببه فان أسباب الموت فى إمكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء وأنفسكم أعز عليكم من إخوانكم وأمرها أهم لديكم من أمرهم والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوبا عليكم لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود مع كتابته عليكم فان ذلك مما لاسبيل إليه بل قد يكون القتال سببا للنجاة والقعود مؤديا إلى الموت . روى أنه مات يوم قالوا ما قالوا سبعون منافقا وقيل أريد إن كنتم صادقين فى مضمون الشرطية والمعنى أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين فقوله تعالى فادرؤا عن أنفسكم الموت حينئذ استهزاء بهم أى إن كنتم رجالا دفاعين لأسباب الموت فادرؤا جميع أسبابه حتى لاتموتوا كما درأتم فى زعمكم هذا السبب الخاص (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا) كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر بل هو من أجل المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون اثر بيان أن الحذر لايجدى ولايغنى وقرىء ولاتحسبن بكسر السين والمراد بهم شهداء أحد وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شهاب وعبدالله بن جحش وباقيهم من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقرىء بالياء على الإسناد إلى ضميره عليه السلام

أوضمير من يحسب وقيل إلى الذين قتلوا والمفعول الأول محذوف لأنه فى الأصل مبتدأ جاز الحذف عند القرينة والتقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتا أى لا يحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا على أن المراد من توجيه النهى إليهم تنبيه السامعين على أنهم أحقاء بأن يسلوا بذلك ويبشروا بالحياة الأبدية والكرامة السنية والنعيم المقيم لكن لا فى جميع أوقاتهم بل عند ابتداء القتل إذ بعد تبين حالهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدة ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجه وقرىء قتلوا بالتشديد لكثرة المقتولين (بَلْ أَحْيَاءٌ) أى بل هم أحياء وقرىء منصوبا أى بل أحسبهم أحياء على أن الحسبان بمعنى اليقين كما فى قوله: حسبت التقى والمجد خير تجارة رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا أو على أنه وارد على طريق المشاكلة (عِندَ رَبِّهِمْ) فى محل الرفع على أنه خبر ثان للمبتدا المقدر أو صفة لأحياء أو فى محل النصب على أنه حال من الضمير فى أحياء وقيل هو ظرف لأحياء أو للفعل بعده والمراد بالعندية التقرب والزلفى وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الاضافة إلى ضميرهم مزيد تكرمة لهم (يُرْزَقُونَ) أى من الجنة وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم قال الامام الواحدى الأصح فى حياة الشهداء ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون. وروى عنه عليه السلام أنه قال لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيور خضر تدور فى أنهار الجنة وروى ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش وفيه دلالة على أن روح الانسان جسم لطيف لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيورا خضرا أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر وقيل المراد أنها تتعلق بالأفلاك والكواكب فتلتذ بذلك وتكتسب زيادة كمال (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ) وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والزلفى من الله عز وجل والتمتع بالنعيم المخلد عاجلا (وَيَسْتَبْشِرُونَ) يسرون بالبشارة (بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ) أى باخوانهم الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله فيلحقوا بهم (مِّنْ خَلْفِهِمْ) متعلق بيلحقوا والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم أو بمحذوف وقع حالا من فاعل يلحقوا أى لم يلحقوا بهم حال كونهم متخلفين عنهم باقين فى الدنيا (أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) بدل من الذين بدل اشتمال مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم وأن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشأن المحذوف وخبرها الجملة المنفية أى يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال اخوانهم الذين تركوهم وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية لا يكدرها خوف وقوع محذور ولا حزن فوات مطلوب أى لا خوف عليهم فى الدنيا من القتل فانه عين الحياة التى يجب أن يرغب فيها فضلا عن أن تخاف وتحذر أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا فان النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ) كرر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها وهى ثواب أعمالهم وقد جوز أن يكون الأول متعلقا بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم بيانا لبعض ما أجمل فى قوله تعالى فرحين بما آتاهم الله من فضله (مِّنَ اللَّهِ) متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة منه تعالى (وَفَضْلٍ) أى زيادة عظيمة كما فى قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) بفتح أن عطف على فضل منتظم معه فى سلك المستبشر به والمراد بالمؤمنين اما الشهداء والتعبير عنهم بالمؤمنين للايذان

بسمو رتبة الإيمان وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة وأما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة فى الدين وقرىء بكسرها على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة لا أجر لها وفيه من الحث على الجهاد والترغيب فى الشهادة والبعث على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح مالا يخفى (الذينَ استجابُوا للهِ والرَّسولِ مِن بَعدِ ما أصابهُمُ القَرحُ) صفة مادحة للمؤمنين لا مخصصة أو نصب على المدح أو رفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (لِلذينَ أحسَنوا مِنهُم واتَّقَوا أجرٌ عظيمٌ) بجملته ومن للبيان والمقصود من الجمع بين الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لأن المستجيبين كلهم محسنون ومتقون. روى أن أباسفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر وألقى الله تعالى الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت (الذينَ قالَ لهمُ النَّاسُ) يعنى الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعى واطلاق الناس عليه لما أنه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله سوى فرس فرد وغير ثوب واحد أو لأنه انضم اليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه (إنَّ النَّاسَ قد جمَعُوا لَكمْ فاخشَوهُم) روى أن أباسفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه السلام إن شاء الله تعالى فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله تعالى فى قلبه الرعب وبدا له أن يرجع فمر به ركب من بنى عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب ان ثبطوا المسلمين وقيل لقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فسأله ذلك والتزم له عشرا من الابل وضمنها منه سهيل بن عمرو فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم أتوكم فى دياركم فلم يفلت منكم أحد الا شريد أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففروا فقال عليه السلام والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل. قيل هى الكلمة التى قالها ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار (فزادَهُمْ إيمـاناً) الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله إن أريد به نعيم وحده والمعنى أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك بل ثبت به يقينهم بالله تعالى وازداد اطمئنانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده وهو دليل على أن الايمان يتفاوت زيادة ونقصانا فان ازدياد اليقين بالألف وكثرة التأمل وتناصر الحجج مما لا ريب فيه ويعضده قول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا يارسول الله الايمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار (وَقالوا حَسبُنا اللهُ) أى محسبنا الله وكافينا من أحسبه إذا كفاه والدليل على أنه بمعنى المحسب انه لا يستفيد بالاضافة تعريفا فى قولك هذا رجل حسبك (ونِعمَ الوكيلُ) أى نعم الموكول اليه والمخصوص بالمدح محذوف أى الله عز وجل (فانقلَبوا) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فخرجوا اليهم ووافوا الموعد. روى أنه عليه الصلاة والسلام وافى بجيشه بدرا وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا والباء فى قوله تعالى (بِنعمةٍ) متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير فى فانقلبوا والتنوين للتفخيم أى فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة لا يقادر قدرها وقوله عز وجل (مِنَ اللهِ) متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لفخامتها الذاتية التى يفيدها التنكير بالفخامة الإضافية أى كائنة من الله تعالى وهى العافية والثبات على الايمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم

(وفضل) أى ربح فى التجارة وتنكيره أيضا للتفخيم (لم يمسسهم سوء) حال أخرى من الضمير فى فانقلبوا أو من المستكن فى الحال كأنه قيل منعمين حال كونهم سالمين عن السوء والحال إذا كان مضارعا منفيا بلم وفيه ضمير ذى الحال جاز فيه دخول الواو كما فى قوله تعالى أو قال أوحى إلى ولم يوح اليه شىء وعدمه كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا (واتبعوا) فى كل ما أتوا من قول وفعل (رضوان الله) الذى هو مناط الفوز بخير الدارين (والله ذو فضل عظيم) حيث تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الايمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلب فى الدين وإظهار الجراءة على العدو وحفظهم عن كل مايسوءهم مع إصابة النفع الجليل وفيه تحسير لمن تخلف عنهم وإظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم مافاز به هؤلاء وروى أنهم قالوا هل يكون هذا غزوا فأعطاهم الله تعالى ثواب الغزو ورضى عنهم (إنما ذلكم) إشارة إلى المثبط أو إلى من حمله على التثبيط والخطاب للمؤمنين وهو مبتدأ وقوله تعالى (الشيطان) اما خبره وقوله تعالى (يخوف أولياءه) جملة مستأنفة مبينة لشيطنته أو حال كما فى قوله تعالى فتلك بيوتهم خاوية الخ واما صفته والجملة خبره ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أى إنما ذلكم قول الشيطان أى ابليس والمستكن فى يخوف اما للمقدر وإما الشيطان بحذف الراجع إلى المقدر أى يخوف به والمراد بأوليائه اما أبو سفيان وأصحابه فالمفعول الأول محذوف أى يخوفكم أولياءه كما هو قراءة ابن عباس وابن مسعود ويؤيده قوله تعالى (فلا تخافوهم) أى أولياءه (وخافون) فى مخالفة أمرى واما القاعدون فالمفعول الثانى محذوف أى يخوفهم الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير البارز فى فلا تخافوهم للناس الثانى أى فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجبنوا وخافونى فجاهدوا مع رسولى وسارعوا إلى ما يأمركم به والخطاب لفريقى الخارجين والقاعدين والفاء لترتيب النهى أو الانتهاء على ماقبلها فان كون المخوف شيطانا مما يوجب عدم الخوف والنهى عنه (إن كنتم مؤمنين) فان الايمان يقتضى ايثار خوف الله تعالى على خوف غيره ويستدعى الأمن من شر الشيطان وأوليائه (ولا يحزنك) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه بتخصيصه بالتسلية والإيذان بأصالته فى تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤنه (الذين يسارعون فى الكفر) أى يقعون فيه سريعا لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه وإيثار كلمة فى على ماوقع فى قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة الآية للاشعار باستقرارهم فى الكفر ودوام ملابستهم له فى مبدأ المسارعة ومنتهاها كما فى قوله تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات فان ذلك مؤذن بملابستهم للخيرات وتقلبهم فى فنونها فى طرق المسارعة وتضاعيفها وأما إيثار كلمة إلى فى قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة الخ فلأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها والمراد بالموصول المنافقون من المتخلفين وطائفة من اليهود حسبما عين فى قوله تعالى يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا وقيل قوم ارتدوا عن الإسلام والتعبير عنهم بذلك للاشارة بما فى حيز الصلة إلى مظنة وجود المنهى عنه واعترائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا يحزنوك بمسارعتهم فى الكفر ومبادرتهم إلى تمشية أحكامه ومظاهرتهم لأهله وتوجيه النهى إلى جهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر منهم للمبالغة فى ذلك لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى إلى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لا أرينك ههنا وقرأ لا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاء والمعنى واحد وقيل معنى حزنه جعل فيه حزنا كما فى دهنه أى جعل فيه دهنا ومعنى أحزنه جعله حزينا وقيل معنى حزنه أحدث له الحزن ومعنى أحزنه عرضه للحزن (إنهم لن يضروا الله) تعليل للنهى وتكميل للتسلية بتحقيق نفى ضررهم أبدا أى لن يضروا بذلك أولياء الله ألبتة

وتعليق نفى الضرر به تعالى لتشريفهم والايذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وفيه مزيد مبالغة فى التسلية وقوله تعالى (شَيْئاً) فى حيز النصب على المصدرية أى شيئاً من الضرر والتنكير لتأكيد ما فيه من القلة والحقارة وقيل على نزع الجار أى بشىء ما أصلا وقيل المعنى لن ينقصوا بذلك من ملكه تعالى وسلطانه شيئاً كما روى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى لو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وانسكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا والأول هو الأنسب بمقام التسلية والتعليل (يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِى الآخِرَةِ) استئناف مبين لسر ابتلائهم بما هم فيه من الانهماك فى الكفر وفى ذكر الارادة من الايذان بكمال خلوص الداعى إلى حرمانهم وتعذيبهم حيث تعلقت بهما ارادة أرحم الراحمين ما لا يخفى وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الارادة واستمرارها أى يريد الله بذلك أن لا يجعل لهم فى الآخرة حظاً ما من الثواب ولذلك تركهم فى طغيانهم يعمهون إلى أن يهلكوا على الكفر (وَلَهُمْ) مع ذلك الحرمان الكلى (عَذَابٌ عَظِيمٌ) لا يقادر قدره لما دلت المسارعة فى الشىء على عظم شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعاية للمناسبة وتنبيها على حقارة ما سارعوا فيه وخساسته فى نفسه والجملة اما مبتدأة مبينة لحظهم من العقاب اثر بيان أن لا شىء لهم من الثواب واما حال من الضمير فى لهم أى يريد الله حرمانهم من الثواب معدا لهم عذاب عظيم (إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ) أى أخذوه بدلا منه رغبة فيما أخذوه واعراضا عما تركوه وقد مر تحقيق القول فى هذه الاستعارة فى تفسير قوله عز وجل أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى مستوفى (لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً) تفسيره كما مر غير أن فيه تعريضا ظاهرا باقتصار الضرر عليهم كأنه قيل وإنما يضرون أنفسهم فان جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثاره عليه اما بأخذه بدلا من الايمان الحاصل بالفعل كما هو حال المرتدين أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله فى التوراة كما هو شأن اليهود ومنافقيهم فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ببيان علته بتغيير عنوان الموضوع فان ما ذكر فى حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح فى لحوق ضرره بأنفسهم وعدم تعديه إلى غيرهم أصلا كيف لا وهو علم فى الخسران الكلى والحرمان الأبدى دال على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ورزانة الرأى ورصانة التدبير من مضارة حزب الله تعالى وهى أعز من الأبلق الفرد وأمنع من عقاب الجو وان أجرى الموصول على عمومه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الإيمان من الاستعداد القريب له الحاصل بمشاهدة الوحى الناطق وملاحظة الدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس كما هو دأب جميع الكفرة فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقريرا لقواعد الكلية لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام هذا وقد جوز كون الموصول الأول عاما للكفار والثانى خاصا بالمعهودين وأنت خبير بأنه مع خلوه عن النكت المذكورة مما لا يليق بفخامة شأن التنزيل لما أن صدور المسارعة فى الكفر بالمعنى المذكور وكونها مظنة لايراث الحزن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفهم من النهى عنه إنما يتصور ممن علم اتصافه بها وأما من لا يعرف حاله من الكفرة الكائنين فى الأماكن البعيدة فاسناد المسارعة المذكورة اليهم باعتبار كونها من مبادى حزنه عليه السلام مما لا وجه له وقوله تعالى (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم بذكر غاية ايلامه بعد ذكر نهاية عظمه. قيل لما جرت العادة باغتباط المشترى بما اشتراه وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة وبتألمه عند كونها خاسرة وصف عذابهم بالايلام مراعاة لذلك (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ)

عطف على قوله تعالى ولا يحزنك الذين الآية والفعل مسند الى الموصول وأن بما فى حيزها سادة مسد مفعوليه عند سيبويه لتمام المقصود بها وهو تعلق الفعل القلبي بالنسبة بين المبتدا والخبر أو مسد أحدهما والآخر محذوف عند الاخفش وما مصدرية أو موصولة حذف عائدها ووصلها فى الكتابة لاتباع الامام أى لا يحسبن الكافرون أن املاءنا لهم أو أن ما نمليه لهم خير لأنفسهم أو لا يحسبن الكافرون خيرية املائنا لهم أو خيرية ما نمليه لهم ثابتة أو واقعة ومآله نهيهم عن السرور بظاهر املائه تعالى بناء على حسبان خيريته لهم وتحسيرهم ببيان أنه شر بحت وضرر محض كما أن مآل المعطوف عليه نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة بناء على توهم الضرر من قبلهم وتسليته عليه السلام ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية والمراد بالموصول اما جنس الكفرة فيندرج تحت حكمه الكلى أحكام المعهودين اندراجا أوليا واما المعهودون خاصة فايثار الاظهار على الاضمار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الاملاء الذى هو عبارة عن امهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرا طويلا فان المقارن له دائما انما هو الكفر المستمر لا المسارعة المذكورة ولا الاشتراء المذكور فانهما من الأحوال المتجددة المنقضية فى تضاعيف الكفر المستمر وقرىء لا تحسبن بالتاء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الانسب بمقام التسلية أو لكل من يتأتى منه الحسبان قصدا إلى اشاعة فظاعة حالهم والموصول مفعول وانما نملى لهم اما بدل منه وحيث كان التعويل على البدل وهو ساد مسد المفعولين كما فى قوله تعالى أم تحسب أن أكثرهم يسمعون اقتصر على مفعول واحد كما فى قولك جعلت المتاع بعضه فوق بعض واما مفعول ثان بتقدير مضاف اما فيه أى لا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الاملاء خير لانفسهم أو فى المفعول الأول أى لا تحسبن حال الذين كفروا أن الاملاء خير لأنفسهم ومعنى التفضيل باعتبار زعمهم (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) استئناف مبين لحكمة الاملاء وما كافة واللام لام الارادة وعند المعتزلة لام العاقبة وقرىء بفتح الهمزة ههنا على ايقاع الفعل عليه وكسرها فيما سبق على أنه اعتراض بين الفعل ومعموله مفيد لمزيد الاعتناء بابطال الحسبان ورده على معنى لا يحسبن الكافرون أن املاءنا لهم لازدياد الاثم حسبما هو شأنهم بل انما هو لتلافى ما فرط منهم بالتوبة والدخول فى الايمان (وَلَهُمْ) فى الآخرة (عَذَابٌ مُهِينٌ) لما تضمن الاملاء التمتيع بطيبات الدنيا وزينتها وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر وصف عذابهم بالاهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقا والجملة اما مبتدأة مبينة لحالهم فى الآخرة اثر بيان حالهم فى الدنيا واما حال من الواو أى ليزدادوا اثما معدا لهم عذاب مهين وهذا متعين على القراءة الأخيرة (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ) كلام مستأنف مسوق لوعد المؤمنين ووعيد المنافقين بالعقوبة الدنيوية التى هى الفضيحة والخزى اثر بيان عقوبتهم الأخروية والمراد بالمؤمنين المخلصون وأما الخطاب فقد قيل انه لجمهور المصدقين من أهل الاخلاص وأهل النفاق ففيه التفات فى ضمن التلوين والمراد بما هم عليه اختلاط بعضهم ببعض واستواؤهم فى اجراء أحكام الإسلام عليهم اذ هو القدر المشترك بين الفريقين وقيل انه للكفار والمنافقين وهو قول ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين ففيه تلوين فقط ولعل المنافقين عطف تفسيرى للكفار والا فلا شركة بين المؤمنين والمنافقين فى أمر من الأمور والمراد بما هم عليه ما مر من القدر المشترك فانه كما يجوز نسبته إلى الفريقين معا يجوز نسبته إلى كل منهما لا لكفر والنفاق كما قيل فان المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم فى ذلك حتى لا يتركوا عليه وقيل انه للمؤمنين خاصة وهو قول أكثر أهل المعانى ففيه تلوين والتفات كما مر والتعرض لايمانهم قبل الخطاب للاشعار بعلة الحكم والمراد بما هم عليه ما مر غير مرة والأول هو الأقرب واليه جنح المحققون من أهل التفسير لكونه صريحا فى كون المراد بما هم عليه ما ذكر من القدر المشترك بين الفريقين من حيث هو مشترك بينهما بخلاف القولين الأخيرين فانهما بمعزل من ذلك كيف لا

والمفهوم بما عليه المنافقون هو الكفر والنفاق وبما عليه المؤمنون هو الإيمان والاخلاص لا القدر المشترك بينهما ولئن فهم ذلك فانما يفهم من حيث الانتساب إلى أحدهما لا من حيث الانتساب اليهما معا وعليه يدور أمر الاختلاط المحوج إلى الافراز واللام فى ليذر اما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريدا أو متصديا لأن يذر المؤمنين الخ ففى توجيه النفى إلى ارادة الفعل تأكيد ومبالغة ليست فى توجيهه إلى نفسه واما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله عز وجل (حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) غاية لما يفيده النفى المذكور كأنه قيل ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط بل يقدر الامور ويرتب الأسباب حتى يعزل المنافق من المؤمن وفى التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيل على كل منهما بما يليق به واشعار بعلة الحكم وافراد الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكثره لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع للايذان بأن مدار افراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما كما فى مثل قوله تعالى ذلك أدنى أن لا تعولوا ونظيره قوله تعالى تذهل كل مرضعة عما أرضعت حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أو غيرهم وتعليق الميز بالخبيث المعبر به عن المنافق مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وافرازهم عن المنافقين لما أن الميز الواقع بين الفريقين إنما بالتصرف فى المنافين وتغييرهم من حال إلى حال مغايرة للاولى مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الإيمان وان ظهر مزيد اخلاصهم لا بالتصرف فيهم وتغييرهم من حال إلى حال أخرى مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير إليه فى قوله تعالى والله يعلم المفسد من المصلح وإنما لم ينسب عدم الترك اليهم لما أنه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب اليه فان المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة كما يشهد به الذوق السليم وقرىء حتى يميز من التمييز وقوله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) تمهيد لبيان الميز الموعود على طريق تجريد الخطاب للمخلصين تشريفا لهم وقوله عز وجل (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ) اشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الاجمال واظهار الاسم الجليل فى الموضعين لتربية المهابة فالمعنى ما كان الله ليترك المخلصين على الاختلاط بالمنافقين بل يرتب المبادىء حتى يخرج المنافقين من دينهم وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق ولكنه تعالى يوحى إلى رسوله عليه السلام فيخبره بذلك وبما ظهر منهم من الأقوال والأفعال حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف فيفضحهم على رؤس الاشهاد ويخلصكم من خسة الشركاء وسوء جوارهم والتعرض للاجتباء للايذان بأن الوقوف على أمثال تلك الاسرار الغيبية لا يتأتى الا لمن رشحه الله تعالى لمنصب جليل تقاصرت عنه همم الأمم واصطفاه على الجماهير لارشادهم وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه السلام فى هذا الباب أمر متين له أصل أصيل جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل الخالية عليهم السلام وتعميم الأمر فى قوله تعالى (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) مع أن سوق النظم الكريم للايمان بالنبى عليه الصلاة والسلام لايجاب الإيمان به بالطريق البرهانى والاشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل وهم شهداء بصحة نبوته عليه الصلاة والسلام والمأمور به الإيمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام فيدخل فيه تصديقه عليه السلام فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولا أوليا هذا هو الذى يقتضيه جزالة النظم الكريم وقد جوز أن يكون المعنى لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التى لا يصبر عليها الا الخلص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم كبذل الأرواح فى الجهاد وانفاق الأموال فى سبيل الله تعالى

فيجعل ذلك عيارا على عقائدكم وشاهدا بضمائركم حتى يعلم بعضكم بما فى قلب بعض بطريق الاستدلال لامن جهة الوقوف على ذات الصدور فان ذلك مما استأثر الله تعالى به وأنت خبير بأن الاستدراك باجتباء الرسل المنبىء عن مزيد مزيتهم وفضل معرفتهم على الخلق اثر بيان قصور رتبتهم عن الوقوف على خفايا السرائر صريح فى أن المراد اظهار تلك السرائر بطريق الوحى لابطريق التكليف بما يؤدى إلى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء وأقرب من ذلك حمل الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة فى املائه تعالى للكفرة اثر بيان شريته لهم فالمعنى ماكان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبدا كما تركهم كذلك إلى الآن لسر يقتضيه بل يفرز عنهم المنافقين ولذلك فعله يومئذ حيث خلى الكفرة وشأنهم فأبرز لهم صورة الغلبة فأظهر من فى قلوبهم مرض مافيها من الخبائث وافتضحوا على رؤس الاشهاد وقيل قال الكافرون ان كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت (وإن تُؤمنوا) أى بما ذكر حق الإيمان (وتتّقوا) أى عدم مراعاة حقوقه أو النفاق (فلكم) بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى (أجرٌ عظيمٌ) لايبلغ كنهه (ولا يحسبنّ الذين يبخلون بمآ ءاتاهمُ اللهُ من فضله هو خيراً لهُم) بيان لحال البخل ووخامة عاقبته وتخطئة لأهله فى توهم خيريته حسب بيان حال الاملاء وايراد مابخلوا به بعنوان ايتاء الله تعالى اياه من فضله للمبالغة فى بيان سوء صنيعتهم فان ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه والفعل مسند إلى الموصول والمفعول الأول محذوف لدلالة الصلة عليه وضمير الفصل راجع اليه أى لايحسبن الباخلون بما آتاهم الله من فضله من غير أن يكون لهم مدخل فيه أو استحقاق له هو خيرا لهم من انفاقه وقيل الفعل مسند إلى ضمير النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى ضمير من يحسب والمفعول الأول هو الموصول بتقدير مضاف والثانى ماذكر كما هو كذلك على قراءة الخطاب أى ولا يحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم (بل هوَ شرٌّ لهُمْ) التنصيص على شريته لهم مع انفهامها من نفى خيريته للمبالغة فى ذلك والتنوين للتفخيم وقوله تعالى (سيُطوّقونَ ما بخلوا به يومَ القيـٰمة) بيان لكيفية شريته أى سيلزمون وبال مابخلوا به الزام الطوق على أنه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه للايذان بكمال المناسبة بينهما وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال مامن رجل لايؤدى زكاة ماله الاجعل الله له شجاعا فى عنقه يوم القيامة وقيل يجعل مابخل به من الزكاة حية فى عنقه تنهشه من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول أنا مالك (ولله) وحده لالأحد غيره استقلالا أو اشتراكا (ميراثُ السّمـٰوٰت والأرض) أى مايتوارثه أهلهما من مال وغيره من الرسالات التى يتوارثها أهل السموات والأرض فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله أو أنه يرث منهم مايمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله تعالى عند هلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والندامة (والله بما تعملونَ) من المنع والبخل (خبيرٌ) فيجازيكم على ذلك واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة والالتفات للمبالغة فى الوعيد والاشعار باشتداد غضب الرحمن الناشىء من ذكر قبائحهم وقرىء بالياء على الظاهر (لقدْ سمعَ الله قولَ الذينَ قالُوا إنّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ) قالته اليهود لما سمعوا قوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا وروى أنه عليه السلام كتب مع أبى بكر رضى الله عنه إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام واقام الصلاة وايتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص ان الله فقير حتى سألنا القرض فلطمه أبو بكر رضى الله عنه فى وجهه وقال لولا الذى بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ماقاله فنزلت والجمع حينئذ مع كون القائل واحدا لرضا الباقين بذلك والمعنى أنه لم يخف عليه تعالى وأعد له من العذاب كفاءه والتعبير عنه بالسماع للايذان بأنه من الشناعة والسماجة

بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع والتوكيد القسمي للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد (سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا) أي سنكتب ما قالوه من العظيمة الشنعاء في صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب والسين للتأكيد أي لن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته لكونه في غاية العظم والهول كيف لا وهو كفر بالله تعالى واستهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ) إيذانا بأنهما في العظم إخوان وتنبيها على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها بل لهم فيه سوابق وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذه العظائم والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم وقوله تعالى (بِغَيْرِ حَقٍّ) متعلق بمحذوف وقع حالا من قتلهم أي كائنا بغير حق في اعتقادهم أيضا كما هو في نفس الأمر وقرىء سيكتب على البناء للفاعل وسيكتب على البناء للمفعول وقتلهم بالرفع (وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أي وننتقم منهم بعد الكتبة بأن نقول لهم ذوقوا عذاب المحرق كما أذقتم المسلمين الغصص وفيه من المبالغات ما لا يخفى وقرىء ويقول بالياء ويقال على البناء للمفعول (ذَٰلِكَ) إشارة الى العذاب المذكور وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأنه وبعد منزلته في الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) أي بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من المعاصي والتعبير عن الأنفس بالأيدي لما أن عامة أفاعيلها تزاول بهن ومحل أن في قوله تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم كما يعبر عن ترك الاثابة على الأعمال باضاعتها مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بابراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم وقيل هي لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على أنها للمبالغة كما لا كيفا هذا وقد قيل محل أن الجر بالعطف على ما قدمت وسببيته للعذاب من حيث أن نفي الظلم مستلزم للعدل المقتضي لاثابة المحسن ومعاقبة المسيء وفساده ظاهر فان ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعا ولا عقلا حتى ينتهض نفي الظلم سببا للتعذيب حسبما ذكره القائل في سورة الأنفال وقيل سببية ذنوبهم لعذابهم مقيدة بانضمام انتفاء ظلمه تعالى اليها إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم وأنت خبير بأن إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافي كون تعذيب هؤلاء الكفرة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه وإنما يحتاج إلى ذلك أن لو كان المدعى أن جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين (الَّذِينَ قَالُوا) نصب أو رفع على الذم وهم كعب بن الأشرف ومالك بن صيفي وحيي بن أخطب وفنحاص بن عازوراء ووهب بن يهوذا (إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا) أي أمرنا في التوراة وأوصانا (أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) كما كان عليه أمر أنبياء بني اسرائيل حيث كان يتقرب بالقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله أي تحيله إلى طبعها بالاحراق وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم فان أكل النار القربان لم يوجب الايمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء ولما كان محصل كلامهم الباطل أن عدم إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم إتيانه بما قالوا ولو تحقق الاتيان به لتحقق الايمان رد عليهم بقوله تعالى (قُلْ) أي تبكيتا لهم وإظهارا لكذبهم (قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ) كثيرة العدد كبيرة المقدار (مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ) أي المعجزات الواضحة (وَبِالَّذِي قُلْتُمْ) بعينه من القربان الذي تأكله النار (فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أي فيما يدل عليه كلامكم من أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه

فان زكرياء ويحيي وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد جاؤكم بما قلتم فى معجزات أخر فما لكم لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم (فإن كذبوك) شروع فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم اثر ما أوحى اليه ما يحزنه عليه الصلاة والسلام من مقالات الكفرة من المشركين واليهود وقوله تعالى (فقد كذب رسل من قبلك) تعليل لجواب الشرط أى فتسل فقد كذب الخ ومن متعلقة بكذب أو بمحذوف وصفة لرسل أى كائنة من قبلك (جاءو بالبينات) أى المعجزات الواضحات صفة لرسل (والزبر) هو جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته إذا حسنته وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته (والكتاب المنير) قيل أى التوراة والانجيل والزبور والكتاب فى عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والاحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين فى عامة المواقع وقرىء بالزبر باعادة الجار دلالة على أنها مغايرة بالذات للبينات (كل نفس ذائقة الموت) وعد ووعيد للمصدق والمكذب وقرىء ذائقة الموت بالتنوين وعدمه كما فى قوله ولا ذاكر الله إلا قليلا (وإنما توفون أجوركم) أى تعطون أجزية أعمالكم على التمام والكمال (يوم القيامة) أى يوم قيامكم من القبور وفى لفظ التوفية إشارة إلى أن بعض أجورهم يصل اليهم قبله كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران (فمن زحزح عن النار) أى بعد عنها يومئذ ونجى والزحزحة فى الاصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة (وأدخل الجنة فقد فاز) بالنجاة ونيل المراد والفوز الظفر بالبغية وعن النبى صلى الله عليه وسلم من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس ما يحب أن يؤتى اليه (وما الحيوة الدنيا) أى لذاتها وزخارفها (إلا متاع الغرور) شبهت بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه وهذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب بها الآخرة فهى له متاع بلاغ والغرور إما مصدر أو جمع غار (لتبلون) شروع فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عما سيلقونه من جهة الكفرة من المكاره اثر تسليتهم عما قد وقع منهم ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ويستعدوا للقائه ويقابلوه بحسن الصبر والثبات فان هجوم الاوجال مما يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للمكروب مما يهون الخطوب وأصل الابتلاء الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لامر يشق عليه غالبا ملابسته ومفارقته وذلك إنما يتصور حقيقة ممن لا وقوف على عواقب الامور وأما من جهة العليم الخبير فلا يكون إلا مجازا عن تمكينه للعبد من اختيار أحد الامرين أو الامور قبل أن يرتب عليه شيئا هو من مباديه العادية كما مر والجملة جواب قسم محذوف أى والله لتبلون أى لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والاعمال الحسنة وفائدة التوكيد إما تحقيق معنى الابتلاء تهوينا للخطب واما تحقيق وقوع المبتلى به مبالغة فى الحث على ما أريد منهم من التبوء والاستعداد (فى أموالكم) بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية الى هلاكها وأما انفاقها فى سبيل الخير مطلقا فلا يليق نظمه فى سلك الابتلاء لما أنه من باب الاضعاف لا من قبيل الاتلاف (وأنفسكم) بالقتل والاسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك وتقديم الاموال لكثرة وقوع الهلكة فيها (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى من قبل ايتائكم القرآن وهم اليهود والنصارى عبر عنهم بذلك للاشعار بمدار الشقاق والايذان بأن بعض ما يسمعونه منهم مستند على زعمهم إلى الكتاب كما فى قوله تعالى ان الله عهد الينا الخ والتصريح بالقبلية لتأكيد الاشعار وتقوية المدار فان قدم نزول كتابهم مما يؤيد تمسكهم به (ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) من الطعن فى الدين الحنيف والقدح فى أحكام الشرع الشريف وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن وما كان من كعب بن الاشرف وأضرابه من هجاء المؤمنين وتحريض المشركين على

مضادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما لاخير فيه (وَإِنْ تَصْبِرُوا) أى على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل (وَتَتَّقُوا) أى تتبتلوا إلى الله تعالى بالكلية معرضين عما سواه بالمرة بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه (فَإِنَّ ذَٰلِكَ) إشارة إلى الصبر والتقوى ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهما وبعد منزلتهما وتوحيد حرف الخطاب اما باعتبار كل واحد من المخاطبين واما لأن المراد بالخطاب مجرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخاطبين (مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) من معزوماتها التى يتنافس فيها المتنافسون أى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد لمافيه من كمال المزية والشرف أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه يعنى أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى لابد أن تصبروا وتتقوا والجملة تعليل لجواب الشرط واقع موقعه كأنه قيل وان تصبروا وتتقوا فهو خير لكم أو فافعلوا أو فقد أحسنتم أو فقد أصبتم فان ذلك الخ ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى صبر المخاطبين وتقواهم فالجملة حينئذ جواب الشرط وفى إبراز الأمر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية من إظهار كمال اللطف بالعباد مالا يخفى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ) كلام مستأنف سيق لبيان بعض أذياتهم وهو كتمانهم مافى كتابهم من شواهد نبوته عليه الصلاة والسلام وغيرها وإذ منصوب على المفعولية بمضمر أمر به النبى صلى الله عليه وسلم خاصة بطريق تجريد الخطاب اثر الخطاب الشامل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين لكون مضمونه من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها على مامر بيانه فى تفسير قوله تعالى وإذقال ربك للملائكة إنى جاعل الخ أى اذكر وقت أخذه تعالى (مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) وهم علماء اليهود والنصارى ذكروا بعنوان ايتاء الكتاب مبالغة فى تقبيح حالهم (لَتُبَيِّنُنَّهُ) حكاية لما خوطبوا به والضمير للكتاب وهو جواب لقسم ينبىء عنه أخذ الميثاق كأنه قيل لهم بالله لتبيننه (لِلنَّاسِ) وتظهرن جميع مافيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها أمر نبوته عليه الصلاة والسلام وهو المقصود بالحكاية وقرىء بالياء لأنهم غيب (وَلَا تَكْتُمُونَهُ) عطف على الجواب وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا كما فى قولك والله لايقوم زيد وقيل اكتفى بالتأكيد فى الأول لأنه تأكيد له وقيل هو حال من ضمير المخاطبين اما على اضمار مبتدا بعد الواو أى وأنتم لا تكتمونه واما على رأى من جوز دخول الواو على المضارع المنفى عند وقوعه حالا أى لتبيننه غير كاتمين والنهى عن الكتمان بعد الأمر بالبيان اما للمبالغة فى إيجاب المأمور به واما لأن المراد بالبيان المأمور به ذكر الآيات الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وبالكتمان المنهى عنه القاء التأويلات الزائغة والشبهات الباطلة وقرىء بالياء كما قبله (فَنَبَذُوهُ) النبذ الرمى والإبعاد أى طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق بفنون التأكيد وألقوه (وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ) ولم يراعوه ولم يلتفتوا اليه أصلا فان نبذ الشىء وراء الظهر مثل فى الاستهانة به والاعراض عنه بالكلية كما أن جعله نصب العين علم فى كمال العناية به وفيه من الدلالة على تحتم بيان الحق على علماء الدين واظهار مامنحوه من العلم للناس أجمعين وحرمة كتمانه لغرض من الأغراض الفاسدة أولطمع فى عرض من الأعراض الفانية الكاسدة مالايخفى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار وعن طاوس أنه قال لوهب بن منبه إنى أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب وقال والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك وعن محمد بن كعب لايحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه ولا يحل لجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل وعن على رضى الله عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا (وَاشْتَرَوْا بِهِ) أى بالكتاب الذى أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه فان ذكر نبذ الميثاق يدل على ذلك دلالة واضحة وإيقاع الفعل على الكل مع أن المراد به كتم بعضه كدلائل نبوته

عليه الصلاة والسلام ونحوها لما أن ذلك كتم للكل إذ به يتم الكتاب كما أن رفض بعض أركان الصلاة رفض لكلها أو بمنزلة كتم الكل من حيث أنهما سيان في الشناعة واستجرار العقاب كما في قوله تعالى وان لم تفعل فما بلغت رسالته والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموه أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله (ثَمَناً قَلِيلاً) أي شيئاً تافها حقيرا من حطام الدنيا وأعراضها وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة لاسيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة في المأخوذ والاعراض عن المعطى والتعبير عن المشترى الذي هو العمدة في العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة اليه وجعل الكتاب الذي حقه أن يتنافس فيه المتنافسون مصحوبا بالباء الداخلة على الآلات والوسائل من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بايثارهم الدنيء الحقير على الشريف الخطير وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة والوسيلة مقصدا ما لا يخفى جلالة شأنه ورفعة مكانه (فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ويشترون صفته والمخصوص بالذم محذوف أي بئس شيئا يشترونه ذلك الثمن (لاتَحْسَبَنَّ) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح له (الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا) أي بما فعلوا كما في قوله تعالى إنه كان وعده مأتيا ويدل عليه قراءة أبي يفرحون بما فعلوا وقرىء بما آتوا بمعنى أعطوا وبما أوتوا أي بما أوتوه من علم التوراة . قال ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود حرفوا التوراة وفرحوا بذلك وأحبوا أن يوصفوا بالديانة والفضل روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدوا اليه وفرحوا بما فعلوا وقيل فرحوا بكتمان النصوص الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وأحبوا أن يحمدوا بأنهم متبعون ملة ابراهيم عليه السلام فالموصول عبارة عن المذكورين أو عن مشاهيرهم وضع موضع ضميرهم والجملة مسوقة لبيان ما تستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الأخروي اثر بيان قباحتها وقد أدمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهو اصرارهم على ما هم عليه من القبائح وفرحهم بذلك ومحبتهم لأن يوصفوا بما ليس فيهم من الأوصاف الجميلة وقد نظم ذلك في سلك الصلة التي حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند المخاطب إيذانا بشهرة اتصافهم بذلك وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة في ذلك واستحمدوا به وقيل هم المنافقون كافة وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى (وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا) لشهرة أنهم كانوا يفرحون بما فعلوا من إظهار الايمان وقلوبهم مطمئنة بالكفر ويستحمدون إلى المسلمين بالايمان وهم عن فعله بألف منزل وكانوا يظهرون محبة المؤمنين وهم في الغاية القاصية من العداوة فالموصول عبارة عن طائفة معهودة من المذكورين وغيرهم فان أكثر المنافقين كانوا من اليهود ولعل الأولى اجراء الموصول على عمومه شاملا لكل من يأتي بشيء من الحسنات فيفرح به فرح اعجاب ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من الفضائل منتظما للمعهودين انتظاما أوليا وأياما كان فهو مفعول أول لتحسبن وقوله تعالى (فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ) تأكيد له والفاء زائدة والمفعول الثاني قوله تعالى (بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ) أي ملتبسين بنجاة منه على أن المفازة مصدر ميمي ولا يضر تأنيثها بالتاء لما أنها مبنية عليها وليست للدلالة على الوحدة كما في قوله :

فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا بالموارد

ولا سبيل إلى جعلها اسم مكان على أن الجار متعلق بمحذوف وقع صفة لها أي بمفازة كائنة من العذاب لأنها ليست من العذاب وتقدير فعل خاص ليصح به المعنى أي بمفازة منجية من العذاب مع كونه خلاف الأصل تعسف مستغنى عنه وقرىء بضم الباء في الفعلين على أن الخطاب شامل للمؤمنين أيضا وقرىء بياء الغيبة وفتح الباء فيهما على أن الفعل له عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يتأتى منه الحسبان ومفعولاه كما ذكر وقرىء بضم الباء في الثاني فقط على أن الفعل

للموصول والمفعول الأول محذوف لكونه عين الفاعل والثانى بمفازة اى لايحسبن الذين يفرحون أنفسهم فائزين وقوله تعالى فلا يحسبنهم تأكيد للاول والفاءزائدة كامر ويجوزأن يحمل الفعل الأول على حذف المفعولين معا اختصارا لدلالة مفعولى الثانى عليهما على عكس ما فى قوله :

بأى كتاب أو بأية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب

حيث حذف فيه مفعولا الثانى لدلالة مفعولى الأول عليهما أو على أن الفعل الأول للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل حاسب ومفعوله الأول الموصول والثانى محذوف لدلالة مفعول الفعل الثانى عليه والفعل الثانى مسند إلى ضمير الموصول والفاء للعطف لظهور تفرع عدم حسبانهم على عدم حسابه عليه السلام ومفعولاه الضمير المنصوب وقوله تعالى بمفازة وتصدير الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة وقطع أطماعهم الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة كانجوا به من المؤاخذة الدنيوية وعليه كان مبنى فرحهم وأما نهيه عليه السلام فللتعريض بحسبانهم المذكور لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه السلام (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) بعد ما أشير إلى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حقق أن لهم فردا منه لاغاية له فى المدة والشدة كما تلوح به الجملة الاسمية والتنكير التفخيمى والوصف (وَلِلَّهِ) أى خاصة (مُلْكُ السَّمَوٰتِ وَالْأَرْضِ) أى السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ويريد ايجادا وإعداما إحياء وإماتة تعذيبا وإثابة من غير أن يكون لغيره شائبة دخل فى شىء من ذلك بوجه من الوجوه فالجملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) تقرير لاختصاص ملك العالم الجسمانى المعبر عنه بقطريه به سبحانه وتعالى فان كونه تعالى قادر على الكل بحيث لايشذ من ملكوته شىء من الأشياء يستدعى كون ماسواه كائنا ماكان مقدورا له ومن ضرورته اختصاص القدرة به تعالى واستحالة أن يشاركه شىء من الأشياء فى القدرة على شىء من الأشياء فضلا عن المشاركة فى ملك السموات والأرض وفيه تقرير لما مر من ثبوت العذاب الأليم لهم وعدم نجاتهم منه اثر تقرير وإظهار الإسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم فان شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية مع مافيه من الإشعار باستقلال كل من الجملتين بالتقرير (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوٰتِ) جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما سبق من اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر والقدرة التامة صدرت بكلمة التأكيد اعتناء بتحقيق مضمونها أى فى انشائها على ماهى عليه فى ذواتها وصفاتها من الأمور التى يحار فى فهم اجلاها العقول (وَالْأَرْضِ) على ماهى عليه ذاتا وصفة (وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) أى فى تعاقبهما فى وجه الأرض وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الأرض أو فى تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الأزمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة اما فى الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها واما فى أنفسها فان كرية الأرض تقتضى أن يكون بعض الأوقات فى بعض الأماكن ليلا وفى مقابله نهارا وفى بعضها صباحا وفى بعضها ظهرا أو عصرا أو غير ذلك والليل قيل انه اسم جنس يفرق بين واحده وجمعه بالتاء كتمر وتمرة والليالى جمع جمع والصحيح أنه مفرد ولا يحفظ له جمع والليالى جمع ليلة وهو جمع غريب كأنهم توهموا أنها ليلاة كما فى كيكة وكياكى كأنها جمع كيكاة والنهار اسم لما بين طلوع الفجر وغروب الشمس قاله الراغب وقال ابن فارس هو ضياء ما بينهما وتقديم الليل على النهار اما لأنه الأصل فان غرر الشهور تظهر فى الليالى واما لتقدمه فى الخلقة حسبما ينبىء عنه قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار أى نزيله

منه فيخلفه (لآيٰتٍ) اسم ان دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة عظيمة لايقادر قدرها دالة على تعاجيب شئونه التى من جملتها مامر من اختصاص الملك العظيم والقدرة التامة به سبحانه وعدم التعرض لما ذكر فى سورة البقرة من الفلك والمطر وتصريف الرياح والسحاب لما أن المقصود ههنا بيان استبداده تعالى بما ذكر من الملك والقدرة فاكتفى بمعظم الشواهد الدالة على ذلك واماهناك فقد قصد فى ضمن بيان اختصاصه تعالى بالالوهية بيان اتصافه تعالى بالرحمة الواسعة فنظمت دلائل الفضل والرحمة فى سلك دلائل التوحيد فان مافصل هناك من آيات رحمته تعالى كما أنه من آيات ألوهيته ووحدته (لِأُولِى الْأَلْبٰبِ) أى لذى العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم المتجردين عن العلائق النفسانية المتخلصين من العوائق الظلمانية المتأملين فى أحوال الحقائق وأحكام النعوت المراقبين فى أطوار الملك وأسرار الملكوت المتفكرين فى بدائع صنائع الملك الخلاق المتدبرين فى روائع حكمه المودعة فى الأنفس والآفاق الناظرين إلى العالم بعين الاعتبار والشهود المتفحصين عن حقيقة سر الحق فى كل موجود المثابرين على مراقبته وذكراه غير ملتفتين إلى شىء مما سواه الا من حيث أنه مرآة لمشاهدة جماله وآلة لملاحظة صفات كماله فان كل ماظهر فى مظاهر الابداع وحضر محاضر التكوين والاختراع سبيل سوى إلى عالم التوحيد ودليل قوى على الصانع المجيد ناطق بآيات قدرته فهل من سامع واع ومخبر بأنباء علمه وحكمته فهل له من داع يكلم الناس على قدر عقولهم ويردجوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة بأوضح عبارة ويلوح أخرى بألطف اشارة مراعيا فى الحوار ابهامهم وتصريحهم وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم فتأمل فى هذه الشئون والاسرار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل لك ياعائشة أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى فقلت يارسول الله انى لأحب قربك وأحب هواك قد أذنت لك فقام إلى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله تعالى واثنى عليه وجعل يبكى ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال له يارسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فقال يابلال أفلا أكون عبدا شكورا ثم قال ومالى لا أبكى وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة ان فى خلق السموات والأرض الخ ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروى ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها وعن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول ان فى خلق السموات والأرض الخ (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ) الموصول اما موصول بأولى الألباب مجرور على أنه نعت كاشف له بما فى حيز الصلة واما مفصول عنه مرفوع أو منصوب على المدح أو مرفوع على أنه خبر لمبتدا محذوف وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر هو القول المقدر قبل قوله تعالى ربنا وفيه من تفكيك النظم الجليل مالا يخفى وأياما كان فقد أشير بما فى حيز صلته أن المراد بهم الذين لايغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم فى مراقبته لما أيقنوا بأن كل ماسواه فائض منه وعائد اليه فلا يشاهدون حالا من الأحوال فى أنفسهم وإليه أشير بقوله عز وجل (قِيٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) ولا فى الآفاق واليه أشير بما بعده الاوهم يعاينون فى ذلك شأنا من شئونه تعالى فالمراد به ذكره تعالى مطلقا سواء كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والافعال وسواء قارنه الذكر اللسانى أولا وأما ما يحكى عن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة رضى الله عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم أما قال الله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا فقاموا يذكرون الله على أقدامهم فليس مرادهم به تفسير الآية وتحقيق مصداقها على التعيين

وإنما أرادوا به التبرك بنوع موافقة لها فى ضمن الاتيان بفرد من أفراد مدلولها وأما حمل الذكر على الصلاة فى هذه الأحوال حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعمران بن الحصين صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب تومىء إيماء فمما لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه والقيام والقعود جمع قائم وقاعد كنيام ورقود جمع نائم وراقد وانتصابهما على الحالية من ضمير يذكرون أى يذكرونه قائمين وقاعدين وقوله تعالى وعلى جنوبهم متعلق بمحذوف معطوف على الحالين أى وكائنين على جنوبهم أى مضطجعين والمراد تعميم الذكر للاوقات كما مر وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الانسان غالبا (وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ) عطف على يذكرون منتظم معه فى حيز الصلة فلا محل له من الاعراب وقيل محله النصب على أنه معطوف على الأحوال السابقة وليس بظاهر وهو بيان لتفكرهم فى أفعاله سبحانه اثر بيان تفكرهم فى ذاته تعالى على الاطلاق واشارة إلى نتيجته التى يؤدى اليها من معرفة أحوال المعاد حسبما نطقت به ألسنة الرسل وآيات الكتب فكما أنها آيات تشريعية هادية للخلق إلى معرفته تعالى ووجوب طاعته كذلك المخلوقات آيات تكوينية مرشدة لهم إلى ذلك فالأولى منبهات لهم على الثانية ودواع إلى الاستشهاد بها كهذه الآية الكريمة ونحوها مما ورد فى مواضع غير محصورة من التنزيل والثانية مؤيدات للأولى وشواهد دالة على صحة مضمونها وحقية مكنونها فان من تأمل فى تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتصاف خالقه تعالى بجميع ما نطقت به الرسل والكتب من الوجوب الذاتى والوحدة الذاتية والملك القاهر والقدرة التامة والعلم الشامل والحكمة البالغة وغير ذلك من صفات الكمال وحكم بأن من قدر على انشائه بلا مثال يحتذيه أو قانون ينتحيه فهو على إعادته بالبعث أقدر وحكم بأن ذلك ليس إلا لحكمة باهرة هى جزاء المكلفين بحسب استحقاقهم المنوط بأعمالهم أى علومهم واعتقاداتهم التابعة لانظارهم فيما نصب لهم من الحجج والدلائل والامارات والمخايل وسائر أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح بل متناول للعمل القلبى بل هو أشرف أفراده لما أن لكل من القلب والقالب عملا خاصا به ومن قضية كون الأول أشرف من الثانى كون عمله أيضا أشرف من عمله وكيف لا ولا عمل بدون معرفته تعالى التى هى أول الواجبات على العباد والغاية القصوى من الخلق على ما نطق به عز وجل وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون أى ليعرفون كما أعرب عنه قوله عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف وإنما طريقها النظر والتفكر فيما ذكر من شؤونه تعالى وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لا تفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وإنما كان ذلك التفكر فى أمر الله تعالى ولذلك قال عليه السلام لا عبادة مثل التفكر وقد عرفت أنه مستتبع لتحقيق ما جاءت به الشريعة الحقة وإلا لما فسر النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا بقوله عليه الصلاة والسلام أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله تعالى فان التورع عن محارمه سبحانه موقوف على معرفة الحلال والحرام المنوطة بالكتاب والسنة فحينئذ تتصادق الآيات التكوينية وتتوافق الأدلة السمعية والعقلية وهو السر فى نظم ما حكى عن المتفكرين من الأمور المستدعية للايمان بالشريعة فى سلك نتيجة تفكرهم كما ستقف عليه واظهار خلق السموات والأرض مع كفاية الاضمار لابراز كمال العناية ببيان حالهم والايذان بكون تفكرهم على وجه التحقيق والتفصيل وعدم التعرض لادراج اختلاف الملوين فى سلك التفكر مع ذكره فيما سلف اما للايذان بظهور اندراجه فيه لما أن ذلك من الأحوال التابعة لأحوال السموات والأرض كما أشير اليه واما للاشعار بمسارعتهم إلى الحكم بالنتيجة بمجرد تفكرهم فى بعض الآيات

من غير حاجة إلى بعض آخر منها فى اثبات المطلوب والخلق مصدر على حاله أى يتفكرون فى انشائهما وابداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات وقيل بمعنى المخلوق على أن الإضافة بمعنى فى أى يتفكرون فيما خلق فيهما من أعم من أن يكون بطريق الجزئية منهما أو بطريق الحلول فيهما أو على أنها بيانية (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا) كلمة هذا إشارة إلى السموات والأرض متضمنة لضرب من التعظيم كما فى قوله تعالى إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والتذكير لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما فى معنى المخلوق أو الى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق وباطلا اما صفة لمصدر مؤكد محذوف أو حال من المفعول به أى ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثا عاريا عن الحكمة خاليا عن المصلحة كما ينبىء عنه أوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكر فيه بل منتظما لحكم جليلة ومصالح عظيمة من جملتها أن يكون مدارا لمعايش العباد ومنارا يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد حسبما أفصحت عنه الرسل والكتب الإلهية كما تحققته مفصلا والجملة بتمامها فى حيز النصب بقول مقدر هو على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الالباب استئناف مبين لنتيجة التفكر ومدلول الآيات ناشىء مما سبق فان النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة فى خلق العالم بأولى الالباب ثم وصفهم بذكر الله تعالى والتفكر فى محال تلك الآيات تبقى مترقبة لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها كأنه قيل فماذا يكون عند تفكرهم فى ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة فقيل يقولون كيت وكيت مما ينبىء عن وقوفهم على سر الخلق المؤدى الى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الأحكام الشرعية على التفصيل الذى وقفت عليه هذا وأما جعله حالا من المستكن فى الفعل كما أطبق عليه الجمهور فمما لا يساعده جزالة النظم الكريم لما أن ما فى حيز الصلة وما هو قيد له حقه أن يكون من مبادى الحكم الذى أجرى على الموصول ودواعى ثبوته له كذكرهم الله عز وجل فى عامة أوقاتهم وتفكرهم فى خلق السموات والأرض فانهما مما يؤدى الى اجتلاء تلك الآيات والاستدلال بها على المطلوب ولا ريب فى أن قولهم ذلك ليس من مبادى الاستدلال المذكور بل من نتائجه المترتبة عليه فاعتباره قيداً لما فى حيز الصلة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل نعم هو حال من ذلك على تقدير كون الموصول مرفوعا أو منصوبا على المدح أو مرفوعا على أنه خبر لمبتدا محذوف اذ لا اشتباه فى أن قولهم ذلك من مبادى مدحهم ومحاسن مناقبهم وفى ابراز هذا القول فى معرض الحال دون الخبر اشعار بمقارنته لتفكرهم من غير تلعثم وتردد فى ذلك وقوله تعالى (سُبْحَانَكَ) أى تنزيها لك عما لا يليق بك من الأمور التى من جملتها خلق ما لا حكمة فيه اعتراض مؤكد لمضمون ما قبله وممد لما بعده من قوله تعالى (فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) فان معرفة سر خلق العالم وما فيه من الحكمة البالغة والغاية الحميدة والقيام بما تقتضيه من الأعمال الصالحة وتنزيه الصانع تعالى عن العبث من دواعى الاستعاذة مما يحيق بالمخلين بذلك من وجهين أحدهما الوقوف على تحقق العذاب فالفاء لترتيب الدعاء على ما ذكر والثانى الاستعداد لقبول الدعاء فالفاء لترتيب المدعو أعنى الوقاية على ذلك كأنه قيل واذ قد عرفنا سرك وأطعنا أمرك ونزهناك عما لا ينبغى فقنا عذاب النار الذى هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ) مبالغة فى استدعاء الوقاية وبيان لسببه وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة فى التضرع والجؤار وتأكيدها لاظهار كمال اليقين بمضمونها والايذان بشدة الخوف واظهار النار فى موضع الاضمار لتهويل أمرها وذكر الادخال فى مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته . قال الواحدى للاخزاء معان متقاربة يقال أخزاه الله أى أبعده وقيل أهانه وقيل أهلكه وقيل فضحه . قال ابن الانبارى الخزى لغة الهلاك بتلف أو بانقطاع حجة أو بوقوع فى بلاء والمعنى فقد أخزيته خزيا لا غاية وراءه كقولهم من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك أى المرعى الذى لا مرعى بعده وفيه من الاشعار بفظاعة العذاب الروحانى ما لا يخفى وقوله تعالى (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)

تذييل لاظهار نهاية فظاعة حالهم ببيان خلود عذابهم بفقدان من ينصرهم ويقوم بتخليصهم وغرضهم تأكيد الاستدعاء ووضع الظالمين موضع ضمير المدخلين لذمهم والإشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم ووضعهم الأشياء فى غير مواضعها وجمع الأنصار بالنظر إلى جمع الظالمين أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر فليس فى الآية دلالة على نفى الشفاعة على أن المراد بالظالمين هم الكفار (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَٰنِ) حكاية لدعاء آخر لهم مبنى على تأملهم فى الدليل السمعى بعد حكاية دعائهم السابق المبنى على التفكر فى الأدلة العقلية وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لإظهار كمال الضراعة والابتهال والتأكيد للايذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمال النشاط والمراد بالنداء الدعاء وتعديتهما بإلى لتضمنهما معنى الانهاء وباللام لاشتمالهما على معنى الاختصاص والمراد بالمنادى الرسول صلى الله عليه وسلم وتنويه للتفخيم وايثاره على الداعى للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الدانى والقاصى لما فيه من الايذان برفع الصوت وينادى صفة لمناديا عند الجمهور كما فى قولك سمعت رجلا يقول كيت وكيت ولو كان معرفة لكان حالا منه كما إذا قلت سمعت زيدا يقول الخ ومفعول ثان لسمعنا عند الفارسى وأتباعه وهذا أسلوب بديع يصار اليه للمبالغة فى تحقيق السماع والايذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم وللتوسل إلى تفصيله واستحضار صورته وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبر عن المسموع منه بالمنادى ثم وصف بالنداء للايمان على طريقة قولك سمعت متكلما يتكلم بالحكمة لما أن التفسير بعد الابهام والتقييد بعد الاطلاق أوقع عند النفس وأجدر بالقبول وقيل المنادى القرآن العظيم (أَنْ ءَامِنُوا) أى آمنوا على أن أن تفسيرية أو بأن آمنوا على أنها مصدرية (بِرَبِّكُمْ) بمالككم ومتولى أموركم ومبلغكم إلى الكمال وفى اطلاق الإيمان ثم تقييده تفخيم لشأنه (فَـَٔامَنَّا) أى فامتثلنا بأمره وأجبنا نداءه (رَبَّنَا) تكرير للتضرع وإظهار لكمال الخضوع وعرض للاعتراف بربوبيته مع الايمان به والفاء فى قوله تعالى (فَاغْفِرْ لَنَا) لترتيب المغفرة او الدعاء بها على الايمان به تعالى والإقرار بربوبيته فان ذلك من دواعى المغفرة والدعاء بها (ذُنُوبَنَا) أى كبائرنا فان الايمان يجب ماقبله (وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا) أى صغائرنا فانها مكفرة عن مجتنب الكبائر (وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ) أى مخصوصين بصحبتهم مغتنمين لجوارهم معدودين من زمرتهم وفيه اشعار بأنهم كانوا يحبون لقاء الله ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والأبرار جمع بار أو بر كأصحاب وأرباب (رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ) حكاية لدعاء آخر لهم مسبوق بماقبله معطوف عليه لتأخر التحلية عن التخلية وتكرير النداء لما مر مكررا والمراد بالموعود الثواب وعلى اما متعلقة بالوعد كما فى قولك وعد الله الجنة على الطاعة أى وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أى وعدتنا وعدا كائنا على ألسنة رسلك وقيل التقدير منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك ولا يخفى أن تقدير الأفعال الخاصة فى مثل هذه المواقع تعسف وجمع الرسل مع أن المنادى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده لما أن دعوته عليه السلام لاسيما فى باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم عليهم السلام كيف لا وقد أخذ منهم الميثاق بالإيمان به عليه السلام لقوله تعالى وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب الآية وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على ألسنة الكل وايثار الجمع لاظهار كمال الثقة بانجاز الموعود بناء على كثرة الشهود (وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ) قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه مظهرين أنهم ممن آمن معه رجاء للانتظام فى سلكهم يومئذ وقوله تعالى (إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) تعليل لتحقيق ما نظموا فى سلك الدعاء وهذه الدعوات وما فى تضاعيفها من كمال الضراعة

والابتهال ليست لخوفهم من إخلاف الميعاد بل لخوفهم من أن لا يكونوا من جملة الموعودين بتغير الحال وسوء الخاتمة والمآل فرجعها إلى الدعاء بالتثبيت أو للمبالغة فى التعبد والخشوع والميعاد الوعد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه البعث بعد الموت وفى الآثار عن جعفر الصادق من حزبه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد وقرأ هذه الآية (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ) الاستجابة بمعنى الإجابة وقال تاج القراء الإجابة عامة والاستجابة خاصة باعطاء المسئول وتتعدى باللام وبنفسها كما فى قوله فلم يستجبه عند ذاك مجيب وهو عطف على الاستئناف المقدر فيما سلف مترتب على ما فى حيزه من الأدعية كما أن قوله عز وجل ثم قيل للذين ظلموا الخ عطف على قيل المقدر قبل آلآن أى قيل لهم آلآن آمنتم به ثم قيل الآية وكما أن قوله تعالى فى سورة الأعراف ونطبع على قلوبهم معطوف على ما دل عليه معنى أو لم يهد لهم الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ ولا ضير فى اختلافهما صيغة لما أن صيغة المستقبل هناك للدلالة على الاستمرار المناسب لمقام الدعاء وصيغة الماضى ههنا للايذان بتحقق الاستجابة وتقررها كما لا ضير فى الاختلاف بين قوله تعالى إذ تستغيثون ربكم وبين ما عطف عليه من قوله تعالى فاستجاب لكم كما سيأتى ويجوز أن يكون معطوفا على مضمر ينساق إليه الذهن أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب الخ وأما على تقدير كون المقدر حالا فهو عطف على يتفكرون باعتبار مقارنته لما وقع حالا من فاعله أعنى قوله تعالى ربنا ربنا الخ فان الاستجابة مترتبة على دعواتهم لا على مجرد تفكرهم وحيث كانت هى من أوصافهم الجميلة المترتبة على أعمالهم بالآخرة استحقت الانتظام فى سلك محاسنهم المعدودة فى أثناء مدحهم وأما على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الألباب فلا مساغ لهذا العطف أصلا لما عرفت من أن حق ما فى حيز الصلة أن يكون من مبادى جريان الحكم على الموصول وقد عرفت أن دعواتهم السابقة ليست كذلك فأين الاستجابة المتأخرة عنها وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الاضافة إلى ضميرهم من تشريفهم وإظهار اللطف بهم ما لا يخفى (أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم) أى بأنى وهكذا قرأ أبى رضى الله عنه والباء للسببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم أى سنته السنية مستمرة على ذلك والالتفات إلى التكلم والخطاب لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب والمراد تأكيدها ببيان سببها والاشعار بأن مدارها أعمالهم التى قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء وتعميم الوعد لسائر العاملين وان لم يبلغوا درجة أولى الألباب لتأكيد استجابة الدعوات المذكورة والتعبير عن ترك الاثابة بالاضاعة مع أنه ليس باضاعة حقيقة اذ الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه وقرىء بكسر الهمزة على ارادة القول أى قائلا انى الخ فلا التفات حينئذ وقرىء لا أضيع بالتشديد ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لعامل أى عامل كائن منكم وقوله تعالى (مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ) بيان لعامل وتأكيد لعمومه وقوله تعالى (بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) جملة معترضة مبينة لسبب انتظام النساء فى سلك الرجال فى الوعد فان كون كل منهما من الآخر لتشعبهما من أصل واحد أو لفرط الاتصال بينهما أو لاتفاقهما فى الدين والعمل مما يستدعى الشركة والاتحاد فى ذلك. روى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أسمع الله تعالى يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا) ضرب تفصيل لما أجمل فى العمل وتعداد لبعض أحاسن أفراده على وجه المدح والتعظيم أى فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين وقوله تعالى (وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ) على الأول عبارة عن نفس الهجرة وعلى الثانى عن كيفيتها وكونها بالقسر والاضطرار (وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى) أى بسبب إيمانهم بالله ومن أجله وهو متناول لكل أذية نالتهم من قبل

المشركين (وَقَـٰتَلُوا) أى الكفار فى سبيل الله تعالى (وَقُتِلُوا) استشهدوا فى القتال وقرىء بالعكس لما أن الواو لا تستدعى الترتيب أو لأن المراد قتل بعضهم وقتال آخرين إذ ليس المعنى على اتصاف كل فرد من أفراد الموصول المذكور بكل واحد مما ذكر فى حيز الصلة بل على اتصاف الكل بالكل فى الجملة سواء كان ذلك باتصاف كل فرد من الموصول بواحد من الأوصاف المذكورة أو باثنين منها أو بأكثر إما بطريق التوزيع أو بطريق حذف بعض الموصولات من البين كما هو رأى الكوفيين كيف لا ولو أدير الحكم على اتصاف كل فرد بالكل لكان قد أضيع عمل من اتصف بالبعض وقرىء وقتلوا بالتشديد (لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ) جواب قسم محذوف أى والله لأكفرن والجملة القسمية خبر للمبتدأ الذى هو الموصول وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه بعد ما وعد ذلك عموما وقوله تعالى (وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ) إشارة إلى ما عبر عنه الداعون فيما قبل بقولهم وآتنا ما وعدتنا على رسلك وتفسير له (ثَوَابًا) مصدر مؤكد لما قبله فان تكفير السيئات وادخال الجنة فى معنى الاثابة وقوله تعالى (مِّنْ عِندِ اللَّهِ) متعلق بمحذوف وهو صفة له مبينة لشرفه أى لأثيبنهم اثابة كائنة أو تثويبا كائنا من عنده تعالى بالغا إلى المرتبة القاصية من الشرف وقوله تعالى (وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله والاسم الجليل مبتدأ خبره عنده وحسن الثواب مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو هو مبتدأ ثان والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول والعندية عبارة عن الاختصاص به تعالى مثل كونه بقدرته تعالى وفضله بحيث لا يقدر عليه غيره بحال شىء يكون بحضرة أحد لا يد عليه لغيره فالاختصاص مستفاد من التمثيل سواء جعل عنده خبرا مقدما لحسن الثواب أو لا وفى تصدير الوعد الكريم بعدم اضاعة العمل ثم تعقيبه بمثل هذا الاحسان الذى لا يقادر قدره من لطف المسلك المنبىء عن عظم شأن المحسن ما لا يخفى (لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلَـٰدِ) بيان لقبح ما أوتى الكفرة من حظوظ الدنيا وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها اثر بيان حسن ما أوتى المؤمنون من الثواب والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على أن المراد تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى فلا تطع المكذبين أو على أن المراد نهى المؤمنين كما يوجه الخطاب إلى مداره القوم ورؤسائهم والمراد أفناؤهم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب من المؤمنين والنهى للمخاطب وإنما جعل للتقلب مبالغة أى لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة ووفور الحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى منهم من التبسط فى المكاسب والمتاجر والمزارع. روى أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش فيقولون ان أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت وقرىء لا يغرنك بالنون الخفيفة (مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ) خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع قليل لا قدر له فى جنب ما ذكر من ثواب الله تعالى قال عليه السلام ما الدنيا فى الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع فاذن لا يجدى وجوده لواجديه ولا يضر فقدانه لفاقديه (ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ) أى مصيرهم الذى يأوون اليه لا يبرحونه (جَهَنَّمُ) التى لا يوصف عذابها وقوله تعالى (وَبِئْسَ الْمِهَادُ) ذم لها وايذان بأن مصيرهم اليها مما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم والمخصوص بالذم محذوف أى بئس ما مهدوا لأنفسهم جهنم (لَـٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا) بيان لكمال حسن حال المؤمنين غب بيان وتكرير له اثر تقرير مع زيادة خلودهم فى الجنات ليتم بذلك سرورهم ويزداد تبجحهم ويتكامل به سوء حال الكفرة وايراد التقوى فى حيز الصلة للاشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الاتقاء من الشرك والمعاصى فالموصول مبتدأ والظرف خبره وجنات مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر لجنات والجملة خبر الموصول وخالدين فيها أى فى الجنات حال مقدرة من الضمير أو من جنات لتخصصها بالوصف والعامل ما فى الظرف

من معنى الاستقرار (نُزُلاً مِنْ عِندِ اللهِ)وقرىء بسكون الزاى وهو مايعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما قال أبو الشعر الضبي : وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا
وانتصابه على الحالية من جنات لتخصصها بالوصف والعامل فيه مافى الظرف من معنى الاستقرار وقيل هو مصدر مؤكد كأنه قيل رزقا أو عطاء من عند الله (وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (لِلأَبْرَارِ) متعلق بمحذوف هو صفة لخير أى ماعنده تعالى من الأمور المذكورة الدائمة خير كائن للابرار أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل والتعبير عنهم بالابرار للاشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر كما أنها من قبيل التقوى والجملة تذييل لماقبلها(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ) جملة مستأنفة سيقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حكيت هناتهم من نبذ الميثاق وتحريف الكتاب وغير ذلك بل منهم من له مناقب جليلة. قيل هم عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم أربعون من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا وقيل المراد به أصحمة النجاشى فانه لما مات نعاه جبريل إلى النبى عليه السلام فقال عليه السلام اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فخرج إلى البقيع فنظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه واستغفر له فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط وليس على دينه فنزلت وانما دخلت لام الابتداء على اسم ان لفصل الظرف بينهما كما فى قوله تعالى وان منكم لمن ليبطئن (وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ) من القرآن (وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ) من الكتابين وتأخير ايمانهم بهما عن ايمانهم بالقرآن فى الذكر مع أن الأمر بالعكس فى الوجود لما أنه عيار ومهيمن عليهما فان ايمانهم بهما انما يعتبر بتبعية ايمانهم به إذ لاعبرة بأحكامهما المنسوخة ومالم ينسخ منها إنما يعتبر من حيث ثبوته بالقرآن ولتعلق مابعده بهما والمراد بايمانهم بهما ايمانهم بهما من غير تحريف ولا كتم كما هو ديدن المحرفين وأتباعهم من العامة (خَٰشِعِينَ لِلَّهِ) حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار المعنى(لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) تصريح بمخالفتهم للمحرفين والجملة حال كما قبله ونظمها فى سلك محاسنهم ليس من حيث عدم الاشتراء فقط بل لتضمن ذلك لاظهار مافى الكتابين من شواهد نبوته عليه السلام(أُولَٰٓئِكَ)اشارة اليهم من حيث اتصافهم بما عد من صفاتهم الحميدة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضيلة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (لَهُمْ) وقوله(أَجْرُهُمْ) أى المختص بهم الموعود لهم بقوله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين وقوله تعالى يؤتكم كفلين من رحمته مرتفع بالظرف على الفاعلية أو على الابتداء والظرف خبره والجملة خبر لأولئك وقوله تعالى (عِندَ رَبِّهِمْ)نصب على الحالية من أجرهم والمراد به التشريف كالصفة(إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ) لنفوذ علمه بجميع الأشياء فهو عالم بما يستحقه كل عامل من الأجر من غير حاجة إلى تأمل والمراد بيان سرعة وصول الأجر الموعود اليهم (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا)اثر مابين فى تضاعيف السورة الكريمة فنون الحكم والأحكام ختمت بما يوجب المحافظة عليها فقيل (اصْبِرُوا) أى على مشاق الطاعات وغير ذلك من المكاره والشدائد (وَصَابِرُوا) أى غالبوا أعداء الله تعالى بالصبر فى مواطن الحروب وأعدى عدوكم بالصبر على مخالفة الهوى وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد منه وأشق(وَرَابِطُوا) أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين للغزو مستعدين له قال تعالى ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وعن النبى صلى الله عليه وسلم من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته الا لحاجة (وَاتَّقُوا اللهَ) فى مخالفة أمره على الاطلاق فيندرج فيه ماذكر فى تضاعيف السورة الكريمة اندراجا أوليا(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) كى تنتظموا فى زمرة المفلحين الفائزين

بكل مطلوب الناجين من كل الكروب . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا على جسر جهنم . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس والله أعلم .

سورة النساء مدنية وهي مائة وخمس وسبعون آية

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(يٰأَيُّها النَّاسُ) خطاب يعم حكمه جميع المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم من الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة عند انتظامهم فيه لكن لا بطريق الحقيقة فان خطاب المشافهة لا يتناول القاصرين على درجة التكليف الا عند الحنابلة بل اما بطريق تغليب الفريق الأول على الأخيرين واما بطريق تعميم حكمه لهما بدليل خارجي فان الإجماع منعقد على أن آخر الأمة مكلف بما كلف به أولها كما ينبئ عنه قوله عليه السلام الحلال ما جرى على لساني إلى يوم القيامة والحرام ما جرى على لساني إلى يوم القيامة وقد فصل في موضعه وأما الأمم الدارجة قبل النزول فلا حظ لهم في الخطاب لاختصاص الأوامر والنواهي بمن يتصور منه الامتثال وأما اندراجهم في خطاب ما عداهما فله دخل في تأكيد التكليف وتقوية الايجاب فستعرف حاله ولفظ الناس ينتظم الذكور والاناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكر في قوله تعالى (اتَّقُوا رَبَّكُمْ) فواردة على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقة للاناث عند غير الحنابلة واما ادخالهن في الأمر بالتقوى بما ذكر من الدليل الخارجي وان كان فيه مراعاة جانب الصيغة لكنه يستدعي تخصيص لفظ الناس ببعض أفراده والمأمور به اما مطلق التقوى التي هي التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك واما التقوى فيما يتعلق بحقوق أبناء الجنس أي اتقوه في مخالفة أوامره ونواهيه على الاطلاق أو في مخالفة تكاليفه الواردة ههنا وأيا ما كان فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الاضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد ايجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب وكذا وصف الرب بقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰحِدَةٍ) فان خلقه تعالى إياهم على هذا النمط البديع لانبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التي من جملتها عقابهم على معاصيهم وعن نعمة كاملة لا يقادر قدرها من أقوى الدواعي إلى الاتقاء من موجبات نقمته وأتم الزواجر عن كفران نعمته وكذا جعله تعالى إياهم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة هي نفس آدم عليه السلام من موجبات الاحتراز عن الاخلال بمراعاة ما بينهم من حقوق الأخوة وتعميم الخطاب في ربكم وخلقكم للأمم السالفة أيضا مع اختصاصه فيما قبل بالمأمورين بناء على أن تذكير شمول ربوبيته تعالى وخلقه للكل من مؤكدات الأمر بالتقوى وموجبات الامتثال به تفكيك للنظم الكريم مع الاستغناء عنه لأن خلقه تعالى للمأمورين من نفس آدم عليه السلام حيث كان بواسطة ما بينهم وبينه عليه السلام من الآباء والأمهات كان التعرض لخلقهم متضمنا للتعرض لخلق الوسايط جميعا وكذا التعرض لربوبيته تعالى لهم متضمن للتعرض لربوبيته تعالى لأصولهم قاطبة لا سيما وقد نطق بذلك قوله عز وجل (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) فانه مع ما عطف عليه صريح في ذلك وهو معطوف اما على مقدر ينبئ عنه سوق الكلام لأن تفريع الفروع من أصل واحد يستدعي إنشاء ذلك الأصل لا محالة كأنه قيل خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا وخلق منها زوجها الخ وهو استئناف مسوق لتقرير وحدة المبدأ وبيان كيفية خلقهم منه وتفصيل ما أجمل أولا أو صفة لنفس مفيدة لذلك واما على خلقكم داخل معه في حيز الصلة مقرر ومبين لما ذكر وإعادة الفعل مع جواز عطف مفعوله على مفعول الفعل الأول كما في قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من

قبلكم الخ لاظهار ما بين الخلقين من التفاوت فان الأول بطريق التفريع من الأصل والثانى بطريق الانشاء من المادة فانه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام . روى أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده وتأخير ذكر خلقها عن ذكر خلقهم لما أن تذكير خلقهم أدخل فى تحقيق ما هو المقصود من حملهم على الامتثال بالأمر بالتقوى من تذكير خلقها وتقديم الجار والمجرور للاعتناء ببيان مبدئيته عليه السلام لها مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر كما مر مرارا وإيرادها بعنوان الزوجية تمهيدا لما بعده من التناسل (وَبَثَّ مِنْهُمَا) أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل (رِجَالًا كَثِيرًا) نعت لرجالا مؤكد لما أفاده التنكير من الكثرة والافراد باعتبار معنى الجمع أو العدد وقيل هو نعت لمصدر مؤكد للفعل أى بثا كثيرا (وَنِسَاءً) أى كثيرة وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور وإيثارهما على ذكورا واناثا لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئية غيره وقرىء وخالق وباث على حذف المبتدا أى وهو خالق وباث (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ) تكرير للأمر وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال به فان سؤال بعضهم بعضا بالله تعالى بأن يقولوا أسألك بالله وأنشدك الله على سبيل الاستعطاف يقتضى الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بتربية المهابة وإدخال الروعة ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته وتساءلون أصله تتساءلون فطرحت إحدى التاءين تخفيفا وقرىء بادغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس وقرىء تسألون من الثلاثى أى تسألون به غيركم وقد فسر به القراءة الأولى والثانية وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع كما فى قولك رأيت الهلال وتراءيناه وبه فسر عم يتساءلون على وجه وقرىء تسلون بنقل حركة الهمزة إلى السين (وَالْأَرْحَامَ) بالنصب عطفا على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وينصره قراءة تساءلون به وبالأرحام فانهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عز وجل ويقولون أسألك بالله وبالرحم أو عطفا على الاسم الجليل أى اتقوا الله والأرحام وصلوها ولا تقطعوها فان قطيعتها مما يجب أن يتقى وهو قول مجاهد وقتادة والسدى والضحاك والفراء والزجاج وقد جوز الواحدى نصبه على الاغراء أى والزموا الأرحام وصلوها وقرىء بالجر عطفا على الضمير المجرور وبالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والأرحام كذلك أى مما يتقى أو يتساءل به ولقد نبه سبحانه وتعالى حيث قرنها باسمه الجليل على أن صلتها بمكان منه كما فى قوله تعالى أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا وعنه عليه السلام الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) أى مراقبا وهى صيغة مبالغة من رقب يرقب رقبا ورقوبا ورقبانا إذا أحد النظر لأمر يريد تحققه أى حافظا مطلعا على جميع ما يصدر عنكم من الأفعال والأقوال وعلى ما فى ضمائركم من النيات مريدا لمجازاتكم بذلك وهو تعليل للامر ووجوب الامتثال به وإظهار الاسم الجليل لتأكيده وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ) شروع فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف ما يقابلها أمرا ونهيا عقيب الأمر بنفسه مرة بعد أخرى وتقديم ما يتعلق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم ولملابستهم بالارحام إذ الخطاب للاولياء والاوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب . واليتيم من مات أبوه من اليتم وهو الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وجمعه على يتامى اما لانه لما جرى مجرى الأسماء جمع على يتائم ثم قلب فقيل يتامى أولانه لما كان من وادى الآفات جمع على يتمى ثم جمع يتمى على يتامى والاشتقاق يقتضى صحة اطلاقه على الكبار أيضا واختصاصه بالصغار مبنى على العرف وأما قوله عليه السلام لا يتم بعد الحلم فتعليم للشريعة لا تعيين لمعنى اللفظ أى لا يجرى على اليتيم بعده حكم الايتام والمراد بايتاء

أموالهم قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها وكف أكفهم الخاطفة عن اختزالها وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء حتى تأتيهم وتصل إليهم سالمة كما ينبىء عنه ما بعده من النهى عن التبدل والأكل لا الاعطاء بالفعل فانه مشروط بالبلوغ وإيناس الرشد على ما ينطق به قوله تعالى حتى إذا بلغوا الآية وإنما عبر عما ذكر بالايتاء مجازا للايذان بأنه ينبغى أن يكون مرادهم بذلك إيصالها إليهم لا مجرد ترك التعرض لها فالمراد بهم إما الصغار على ما هو المتبادر والأمر خاص بمن يتولى أمرهم من الأولياء والأوصياء وشمول حكمه لأولياء من كان بالغا عند نزول الآية بطريق الدلالة دون العبارة وأما من جرى عليه اليتم فى الجملة مجازا أعم من أن يكون كذلك عند النزول أو بالغا فالأمر شامل لأولياء الفريقين صيغة موجب عليهم ما ذكر من حفظ أموالهم والتحفظ عن إضاعتها مطلقا وأما وجوب الدفع إلى الكبار فمستفاد مما سيأتى من الأمر به وقيل المراد بهم الصغار وبالايتاء الاعطاء فى الزمان المستقبل وقيل أطلق اسمهم على الكبار بطريق الاتساع لقرب عهدهم باليتم حثا للأولياء على المسارعة إلى دفع أموالهم إليهم أول ما بلغوا قبل أن يزول عنهم اسمهم المعهود فالايتاء بمعنى الاعطاء بالفعل ويأباهما ما سيأتى من قوله تعالى وابتلوا اليتامى الخ فان ما فيه من الأمر بالدفع وارد على وجه التكليف الابتدائى لا على وجه تعيين وقته أو بيان شرطه فقط كما هو مقتضى القولين وأما تعميم الاسم للصغار والكبار مجازا بطريق التغليب مع تعميم الايتاء للايتاء حالا وللايتاء مآلا وتعميم الخطاب لأولياء كلا الفريقين على أن من بلغ منهم فوليه مأمور بالدفع إليه بالفعل وأن من لم يبلغ بعد فوليه مأمور بالدفع إليه عند بلوغه رشيدا فمع ما سبق تكلف لا يخفى فالأنسب ما تقدم من حمل إيتاء أموالهم إليهم على ما يؤدى إليه من ترك التعرض لها بسوء كما يلوح به التعبير عن الاعطاء بالفعل بالدفع سواء أريد باليتامى الصغار أو ما يعم الصغار والكبار حسبما ذكر آنفا وأما ما روى من أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له فلما بلغ طلب منه ماله فمنعه فنزلت فلما سمعها قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فغير قادح فى ذلك لما أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب (وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ) نهى عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهى الضمنى عن أخذه على الاطلاق وتبدل الشىء بالشىء واستبداله به أخذ الأول بدل الثانى بعد أن كان حاصلا له أو فى شرف الحصول يستعملان أبدا بافضائهما إلى الحاصل بأنفسهما وإلى الزائل بالباء كما فى قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان الخ وقوله تعالى أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وأما التبديل فيستعمل تارة كذلك كما فى قوله تعالى وبدلناهم بجنتيهم جنتين الخ وأخرى بالعكس كما فى قولك بدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها وجعلتها خاتما نص عليه الأزهرى وتارة أخرى بافضائه إلى مفعوليه بنفسه كما فى قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات والمراد بالخبيث والطيب إن كان هو الحرام والحلال فالمنهى عنه استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقا كما قاله الفراء والزجاج وقيل معناه لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالمنهى عنه أكل ماله مكان مالهم المحقق أو المقدر وقيل هو اختزال ماله مكان حفظه وأيا ما كان فانما عبر عنهما بهما تنفيرا عما أخذوه وترغيبا فيما أعطوه وتصويرا المعاملتهم بصورة ما لا يصدر عن العاقل وإن كان هو الردىء والجيد فمورد النهى ما كانوا عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم وإعطاء الردىء من مال أنفسهم وبه قال سعيد ابن المسيب والنخعى والزهرى والسدى وتخصيص هذه المعاملة بالنهى لخروجها مخرج العادة لا لاباحة ما عداها وأما التعبير عنها بتبدل الخبيث بالطيب مع أنها تبديله به أو تبدل الطيب بالخبيث فللايذان بأن الأولياء حقهم أن يكونوا فى المعاوضات عاملين لليتيم لا لأنفسهم مراعين لجانبه قاصدين لجلب المجلوب إليه مشترى كان أو ثمنا لا لسلب المسلوب عنه (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ) نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه أى لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم

ولا تسووا بينهما وهذا حلال وذاك حرام وقد خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولى فقيرا (إنه) أى الأكل المفهوم من النهى (كانَ حُوباً) أى ذنبا عظيما وقرىء بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا وقرىء حابا وهو أيضا مصدر كقال قولا وقالا (كَبِيراً) مبالغة فى بيان عظم ذنب الاكل المذكور كأنه قيل من كبار الذنوب العظيمة لا من أفنائها (وإن خِفتمْ ألاَّ تُقسِطوا فى اليتَٰمى) الاقساط العدل وقرىء بفتح التاء فقيل هو من قسط أى جار ولا مزيدة كما فى قوله تعالى لئلا يعلم وقيل هو بمعنى أقسط فان الزجاج حكى أن قسط يستعمل استعمال أقسط والمراد بالخوف العلم كما فى قوله تعالى فمن خاف من موص جنفا عبر عنه بذلك إيذانا بكون المعلوم مخوفا محذورا لا معناه الحقيقى لأن الذى علق به الجواب هو العلم بوقوع الجور المخوف لا الخوف منه وإلا لم يكن الامر شاملا لمن يصر على الجور ولا يخافه وهذا شروع فى النهى عن منكر آخر كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة وبأموالهم تبعا عقيب النهى عما يتعلق بأموالهم خاصة وتأخيره عنه لقلة وقوع المنهى عنه بالنسبة إلى الاول ونزوله منه بمنزلة المركب من المفرد وذلك أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من اليتامى اللاتى يلونهن لكن لا لرغبة فيهن بل فى مالهن ويسيئون فى الصحبة والمعاشرة ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن وهذا قول الحسن وقيل هى اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء وهذا قول الزهرى رواية عن عروة عن عائشة رضى الله عنها وأما اعتبار اجتماع عدد كثير منهن كما أطبق عليه أكثر أهل التفسير حيث قالوا كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال ويكون وليها فيتزوجها ضنا بها عن غيره فربما اجتمعت عنده عشر منهن الخ فلا يساعده الامر بنكاح غيرهن فان المحذور حينئذ يندفع بتقليل عددهن أى وإن خفتم أن لا تعدلوا فى حق اليتامى إذا تزوجتم بهن باساءة العشرة أو بنقص الصداق (فانكِحُوا مَا طابَ لَكُم) ما موصولة أو موصوفة ما بعدها صلتها أو صفتها أوثرت على من ذهابا إلى الوصف وإيذانا بأنه المقصود بالذات والغالب فى الاعتبار لا بناء على أن الاناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء لاخلاله بمقام الترغيب فيهن وقرأ ابن أبى عبلة من طاب ومن فى قوله تعالى (مِّنَ النِّسَآءِ) بيانية وقيل تبعيضية والمراد بهن غير اليتامى بشهادة قرينة المقام أى فانكحوا من استطابتها نفوسكم من الاجنبيات وفى إيثار الامر بنكاحهن على النهى عن نكاح اليتامى مع أنه المقصود بالذات مزيد لطف فى استنزالهم عن ذلك فان النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه كما أن وصف النساء بالطيب على الوجه الذى أشير اليه فيه مبالغة فى الاستمالة اليهن والترغيب فيهن وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى وهو السر فى توجيه النهى الضمنى الى النكاح المترقب مع أن سبب النزول هو النكاح المحقق لما فيه من المسارعة الى دفع الشر قبل وقوعه فرب واقع لا يرفع والمبالغة فى بيان حال النكاح المحقق فان محظورية المترقب حيث كانت للجور المترقب فيه فمحظورية المحقق مع تحقق الجور فيه أولى وقيل المراد بالطيب الحل أى ما حل لكم شرعا لان ما استطابوه شامل للمحرمات ولا مخصص له بمن عداهن وفيه فرار من محذور ووقوع فيما هو أفظع منه لان ما حل لهم مجمل وقد تقرر أن النص اذا تردد بين الاجمال والتخصيص يحمل على الثانى لان العام المخصوص حجة فى غير محل التخصيص والمجمل ليس بحجة قبل ورود البيان أصلا ولئن جعل قوله تعالى حرمت عليكم الخ دالا على التفصيل بناء على ادعاء تقدمه فى التنزيل فليجعل دالا على التخصيص (مَثنىٰ وثُلٰثَ ورُبٰعَ) معدولة عن أعداد مكررة غير منصرفة لما فيها من العدلين عدلها عن صيغها وعدلها عن تكررها وقيل للعدل والصفة فانها بنيت صفات وان لم تكن أصولها كذلك وقرىء وثلث وربع على القصر من ثلاث ورباع ومحلهن النصب على أنها حال من فاعل طاب مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن والاستمالة اليهن

بتوسيع دائرة الاذن أى فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا حسبما تريدون على معنى أن لكل واحد منهم أن يختار أى عدد شاء من الأعداد المذكورة لا أن بعضها لبعض منهم وبعضها لبعض آخر كما فى قولك اقتسموا هذه البدرة درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لفهم منه تجويز الجمع بين تلك الاعداد دون التوزيع ولو ذكرت بكلمة أو لفات تجويز الاختلاف فى العدد . هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة لما نزلت الآية فى اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير أخذ الأولياء يتحرجون من ولايتهم خوفا من لحوق الحوب بترك الاقساط مع أنهم كانوا لا يتحرجون من ترك العدل فى حقوق النساء حيث كان تحت الرجل منهم عشر منهن فقيل لهم ان خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات لأن من تحرج من ذنب أوتاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب عنه وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنى وهم يتحرجون من ولاية اليتامى فقيل ان خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنى فانكحوا ما حل لكم من النساء ولا تحوموا حول المحرمات ولا يخفى أنه لا يساعدهما جزالة النظم الكريم لا بتنائهما على تقدم نزول الآية الأولى وشيوعها بين الناس مع ظهور توقف حكمها على ما بعدها من قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم إلى قوله تعالى وكفى بالله حسيبا (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا) أى فيما بينهن ولو فى أقل الاعداد المذكورة كما خفتموه فى حق اليتامى أو كما لم تعدلوا فى حقهن أو كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الاعداد (فَوَاحِدَةً) أى فالزموا أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع بالكلية وقرىء بالرفع أى فالمقنع واحدة أو فحسبكم واحدة (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أى من السرارى بالغة ما بلغت من مراتب العدد وهو عطف على واحدة على أن اللزوم والاختيار فيه بطريق التسرى لا بطريق النكاح كما فيما عطف عليه لاستلزامه ورود ملك النكاح على ملك اليمين بموجب اتحاد المخاطبين فى الموضعين بخلاف ما سيأتى من قوله تعالى ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم فان المأمور بالنكاح هناك غير المخاطبين بملك اليمين وانما سوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة وبين السرارى من غير حصر فى عدد لقلة تبعتهن وخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم فيهن وقرىء أو من ملكت أيمانكم وما فى القراءة المشهورة للايذان بقصور رتبتهن عن رتبة العقلاء (ذَٰلِكَ) اشارة إلى اختيار الواحدة والتسرى (أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا) العول الميل من قولهم عال الميزان عولا إذا مال وعال فى الحكم أى جار والمراد ههنا الميل المحظور المقابل للعدل أى ما ذكر من اختيار الواحدة والتسرى أقرب بالنسبة إلى ما عداهما من أن لا تميلوا ميلا محظورا لانتفائه رأسا بانتفاء محله فى الأول وانتفاء خطره فى الثانى بخلاف اختيار العدد فى المهائر فان الميل المحظور متوقع فيه لتحقق المحل والخطر ومن ههنا تبين أن مدار الأمر هو عدم العول لا تحقق العدل كما قيل وقد فسر بأن لا يكثر عيالكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم أى مانهم فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤنة على طريقة الكناية ويؤيده قراءة أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله ووجه كون التسرى مظنة قلة العيال مع جواز الاستكثار من السرارى أنه يجوز العزل عنهن بغير رضاهن ولا كذلك المهائر والجملة مستأنفة جارية مما قبلها مجرى التعليل (وَءَاتُوا النِّسَاءَ) أى اللاتى أمر بنكاحهن (صَدُقَٰتِهِنَّ) جمع صدقة كسمرة وهى المهر وقرىء بسكون الدال على التخفيف وبضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة كغرفة وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة كظلمة فى ظلمة (نِحْلَةً) قال ابن عباس وقتادة وابن جريج وابن زيد فريضة من الله تعالى لأنها مما فرضه الله فى النحلة أى الملة والشرعة والديانة فانتصابها على الحالية من الصدقات أى أعطوهن مهورهن حال كونها فريضة منه تعالى وقال الزجاج تدينا فانتصابها على أنها مفعول له أى أعطوهن ديانة وشرعة وقال الكلبى نحلة أى هبة وعطية من الله تعالى وتفضلا

منه عليهن فانتصابه على الحالية منها أيضا رقيل عطية من جهة الأزواج من نحله كذا إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلا والتعبير عن ايتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الأزواج لافادة معنى الايتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر وانتصابها على المصدرية لأن الايتاء والنحلة بمعنى الاعطاء كأنه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أى أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم أو على الحالية من ضمير آتوا أى آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبى النفوس بالاعطاء أو من الصدقات أى منحولة معطاة عن طيبة الأنفس فالخطاب للازواج وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم وكانوا يقولون هنيئا لك النافجة لمن يولد له بنت يعنون تأخذ مهرها فتنفج به مالك أى تعظمه (فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ) الضمير للصدقات وتذكيره لاجرائه مجرى ذلك فانه قد يشار به إلى المتعدد كما فى قوله عز وجل قل أؤنبئكم بخير من ذلكم بعد ذكر الشهوات المعدودة وقد روى عن رؤبة أنه حين قيل له فى قوله :

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه فى الجلد توليع البهق

ان أردت الخطوط ينبغى أن تقول كأنها وان أردت السواد والبلق ينبغى أن تقول كأنهما قال لكنى أردت كأن ذلك أو للصداق الواقع موقعه صدقاتهن كأنه قيل وآتوا النساء صداقهن كما فى قوله تعالى فأصدق وأكن حيث عطف أكن على مادل عليه المذكور ووقع موقعه كأنه قيل ان أخرتنى أصدق وأكن واللام متعلقة بالفعل وكذا عن لكن بتضمينه معنى التجافى والتجاوز ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لشىء أى كائن من الصداق وفيه بعث لهن على تقليل الموهوب (نَفْساً) تمييز والتوحيد لما أن المقصود بيان الجنس أى ان وهبن لكم شيئا من الصداق متجافيا عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم لكن عدل عن لفظ الهبة والسماحة إلى ماعليه النظم الكريم ايذانا بأن العمدة فى الأمر انما هو طيب النفس وتجافيها عن الموهوب بالمرة (فَكُلُوهُ) أى فخذوا ذلك الشىء الذى طابت به نفوسهن وتصرفوا فيه تملكا وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية (هَنِيئاً مَّرِيئاً) صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ اذا كان سائغا لاتنغيص فيه وقيل الهنىء الذى يلذه الآكل والمرىء مايحمد عاقبته وقيل ماينساغ فى مجراه الذى هو المرىء وهو مابين الحلقوم إلى فم المعدة سمى بذلك لمروء الطعام فيه أى انسياغه ونصبهما على أنهما صفتان للمصدر أى أكلا هنيئا مريئا أو على أنهما حالان من الضمير المنصوب أى كلوه وهو هنىء مرىء وقد يوقف على كلوه ويبتدأ هنيئا مريئا على الدعاء وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين كأنه قيل هنأ ومرأ وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة فى الاباحة وازالة التبعة . روى أن ناسا كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئا مما ساقه اليها فنزلت (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ) رجوع إلى بيان بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى وتفصيل ما أجمل فيما سبق من شرط ايتائها ووقته وكيفيته اثر بيان بعض الأحكام المتعلقة بأنفسهن أعنى نكاحهن وبيان بعض الحقوق المتعلقة بغيرهن من الأجنبيات من حيث النفس ومن حيث المال استطرادا والخطاب للأولياء نهوا أن يأتوا المبذرين من اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها وانما أضيفت اليهم وهى لليتامى لانظرا إلى كونها تحت ولايتهم كما قيل فانه غير مصحح لاتصافها بالوصف الآتى بل تنزيلا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء فكأن أموالهم عين أموالهم لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسى والنسبى مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها كما فى قوله تعالى ولاتقتلوا أنفسكم أى لايقتل بعضكم بعضا حيث عبر عن بنى نوعهم بأنفسهم مبالغة فى زجرهم عن قتلهم فكأن قتلهم قتل أنفسهم وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناط المعاش أصحابها بجعلها مناط المعاش الأولياء فقيل (الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَٰماً) أى جعلها الله شيئا تقومون به وتنتعشون على حذف المفعول الأول فلو ضيعتموه لضعتم ثم زيد فى المبالغة حتى جعل مابه

القيام قياما فكأنها فى أنفسها قيامكم وانتعاشكم وقيل إنما أضيفت إلى الأولياء لأنها من جنس مايقيم به الناس معايشهم حيث لم يقصد بها الخصوصية الشخصية بل الجنسية التى هى معنى مايقام به المعاش وتميل اليه القلوب ويدخر لأوقات الاحتياج وهى بهذا الاعتبار لاتختص باليتامى وأنت خبير بأن ذلك بمعزل من حمل الأولياء على المحافظة المذكورة كيف لاوالوحدة الجنسية المالية ليست مختصة بما بين أموال اليتامى وأموال الاولياء بل هى متحققة بين أموالهم وأموال الاجانب فاذن لاوجه لاعتبارها أصلا وقرىء اللاتى واللواتى وقرىء قيما بمعنى قياما كما جاء عوذا بمعنى عياذا وقرىء قواما بكسر القاف وهو مايقام به الشىء أو مصدر قاوم وقرىء بفتحها (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ) أى واجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا وتتربحوا حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لامن صلب المال وقيل الخطاب لكل أحد كائنا من كان والمراد نهيه عن أن يفوض أمر ماله إلى من لارشد له من نسائه وأولاده ووكلائه وغير ذلك ولايخفى أن ذلك مخل بجزالة النظم الكريم (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) أى كلاما لينا تطيب به نفوسهم وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج عدوهم عدة جميلة بأن تقولوا إذا صلحتم ورشدتم سلمنا اليكم أموالكم وكل ماسكنت اليه النفس لحسنه شرعا أو عقلا من قول أو عمل فهو معروف وما أنكرته لقبحه شرعا أو عقلا فهو منكر (وَابْتَلُوا الْيَتَامَى) شروع فى تعيين وقت تسليم أموال اليتامى اليهم وبيان شرطه بعد الامر بايتائها على الاطلاق والنهى عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السفه قبل البلوغ بتتبع أحوالهم فى صلاح الدين والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بمايليق بحالهم فان كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال مايتصرفون فيه بيعا وابتياعا وإن كانوا ممن له ضياع وأهل وخدم فبأن تعطوهم منه مايصرفونه إلى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى تتبين لكم كيفية أحوالهم (حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) بأن يحتلموا لانهم يصلحون عنده للنكاح (فَإِنْ آنَسْتُمْ) أى شاهدتم وتبينتم وقرىء أحستم بمعنى أحسستم كما فى قول من قال:

خلا ان العتاق من المطايا   أحسن به وهن اليه شوس

(مِنْهُمْ رُشْدًا) أى اهتداء إلى وجوه التصرفات من غير عجز وتبذير وتقديم الجار والمجرور على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو للاعتداء بمبدئيته له والتنوين للدلالة على كفاية رشد فى الجملة وقرىء بفتح الراء والشين وبضمهما (فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) من غير تأخير عن حد البلوغ وفى إيثار الدفع على الايتاء الوارد فى أول الامر ايذان بتفاوتهما بحسب المعنى كما أشير اليه فيما سلف ونظم الآية الكريمة أن حتى هى التى تقع بعدها الجمل كالتى فى قوله:

فما زالت القتلى تمج دماءها   بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وما بعدها جملة شرطية جعلت غاية للابتلاء وفعل الشرط بلغوا وجوابه الشرطية الثانية كأنه قيل وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم اليهم بشرط ايناس الرشد منهم وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد اما بالتبذير أو بالعجز لايدفع اليه ماله أبدا وبه أخذ أبو يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة ينتظر إلى خمس وعشرين سنة لان البلوغ بالسن ثمانى عشرة سنة فاذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الإنسان لما قاله عليه الصلاة السلام مروهم بالصلاة لسبع دفع اليه ماله أونس منه رشد أو لم يونس (وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا) أى مسرفين ومبادرين كبرهم أو لاسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون فى انفاقها وتقولون ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا والجملة تأكيد للأمر بالدفع وتقرير لها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى (وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ) الخ أى من كان من الاولياء والاوصياء غنيا فليتنزه عن أكلها وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغنى والرزق

اشفاقا على اليتيم وإبقاء على ماله (وَمَن كانَ) من الاولياء والاوصياء (فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ) بقدر حاجته الضرورية وأجرة سعيه وخدمته وفى لفظ الاستعفاف والاكل بالمعروف ما يدل على أن للوصى حقا لقيامه عليها . عن النبى عليه الصلاة والسلام أن رجلا قال له إن فى حجرى يتيما أفآكل من ماله قال بالمعروف غير متأثل مالا ولا واق مالك بماله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ولى يتيم قال له أفأشرب من لبن إبله قال إن كنت تبغى ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها وتسقيها يوم ورودها فاشرب غير مضر بنسل ولا ناهك فى الحلب وعن محمد بن كعب يتقرم كما تتقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الاجير فيما لا بد منه وعن الشعبى يأكل من ماله بقدر ما يعين فيه وعنه كالميتة يتناول عند الضرورة ويقضى وعن مجاهد يستسلف فاذا أيسر أدى وعن سعيد بن جبير ان شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس ما يستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فان أيسر قضاه وإن أعسر فهو فى حل وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنى أنزلت نفسى من مال الله تعالى منزلة ولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف وإذا أيسرت قضيت. واستعف أبلغ من عف كأنه يطلب زيادة العفة (فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ) بعد ما راعيتم الشرائط المذكورة وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاهتمام به (فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ) بأنهم تسلموها وقبضوها وبرئت عنها ذممكم لما أن ذلك أبعد من التهمة وأنفى للخصومة وأدخل فى الامانة وبراءة الساحة وإن لم يكن ذلك واجبا عند أصحابنا فان الوصى مصدق فى الدفع مع اليمين خلافا لمالك والشافعى رحمهما الله (وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً) أى محاسبا فلا تخالفوا ما أمركم به ولا تجاوزوا ما حد لكم (لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ) شروع فى بيان أحكام المواريث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقلة اليهم بالإرث والمراد بالاقربين المتوارثون منهم ومن فى مما متعلقة بمحذوف وقع صفة لنصيب اى لهم نصيب كائن مما ترك وقد جوز تعلقها بنصيب (وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالْأَقْرَبُونَ) إيراد حكمهن على الاستقلال دون الدرج فى تضاعيف أحكامهم بأن يقال للرجال والنساء الخ للاعتناء بأمرهن والايذان بأصالتهن فى استحقاق الارث والاشارة من أول الامر إلى تفاوت ما بين نصيبى الفريقين والمبالغة فى ابطال حكم الجاهلية فانهم ما كانوا يورثون النساء والاطفال ويقولون انما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة روى أن أوس بن ثابت الانصارى خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات فزوى ابن عمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت اليه فقال ارجعى حتى أنظر ما يحدثه الله تعالى فنزلت فأرسل اليهما أن الله قد جعل لهن نصيبا ولم يبين فلا تفرقا من مال أوس شيئا حتى يبين فنزل يوصيكم الله الخ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى لابنى العم وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب وقوله تعالى (مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ) بدل من ما الاخيرة بإعادة الجار واليها يعود الضمير المجرور وهذا البدل مراد فى الجملة الأولى أيضا محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الاموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال وتحقيق أن لكل من الفريقين حقا من كل ما جل ودق (نَصِيباً مَفْرُوضاً) نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى فريضة من الله كأنه قيل قسمة مفروضة أو على الحالية إذ المعنى ثبت لهم نصيب كائن مما ترك الوالدان والاقربون حال كونه مفروضا او على الاختصاص أى أعنى نصيبا مقطوعا مفروضا واجبا لهم وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه (وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ) أى قسمة التركة وإنما قدمت مع كونها مفعولا لأنها المبحوث عنها ولأن فى الفاعل تعددا فلو روعى الترتيب يفوت تجاوب أطراف الكلام (أُولُوا الْقُرْبى) ممن لا يرث (وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ) من الأجانب (فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ) أى اعطوهم شيأ من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة وقيل

الضمير لما وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة تطيبا لقلوب الطوائف المذكورة وتصدقا عليهم وقيل أمر وجوب ثم اختلف فى نسخه (وقولوا لهم قولا معروفا) وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ويعتذروا من ذلك ولا يمنوا عليهم (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم أو لمن حضر المريض من العواد عند الايصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضر بهم بصرف المال عنهم أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافا مثلهم هل يجوزون حرمانهم أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا فى الوصية ولو بما فى حيزها صلة للذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ورثة ضعافا خافوا عليهم الضياع وفى ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه وبعث على الترحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاد نفسه وتهديد للمخالف بحال أولاده وقرىء ضعفاء وضعافى وضعافى (فليتقوا الله) فى ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها (وليقولوا قولا سديدا) أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للمبدأ أو المنتهى إذ لا نفع للأول بدون الثانى ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب أو للمريض ما يصده عن الاسراف فى الوصية وتضييع الورثة ويذكره التوبة وكلمة الشهادة أو لحاضرى القسمة عذرا ووعدا حسنا أو يقولوا فى الوصية ما لا يؤدى إلى تجاوز الثلث وقوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) أى على وجه الظلم أو ظالمين استئناف جىء به لتقرير مضمون ما فصل من الأوامر والنواهى (إنما يأكلون فى بطونهم) أى ملء بطونهم (نارا) أى ما يجر إلى النار ويؤدى إليها وعن أبى بردة أنه صلى الله عليه وسلم قال يبعث الله تعالى قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا فقيل من هم فقال عليه السلام ألم تر أن الله يقول إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا (وسيصلون سعيرا) أى سيدخلون نارا هائلة مبهمة الوصف وقرىء بضم الياء مخففا ومشددا من الاصلاء والتصلية يقال صلى النار قاسى حرها وصليته شويته وأصليته وصليته ألقيته فيها والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار إذا ألهبتها . روى أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا وروى أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية فصعب الأمر على اليتامى فنزل قوله تعالى وان تخالطوهم الآية (يوصيكم الله) شروع فى تفصيل أحكام المواريث المجملة فى قوله تعالى للرجال نصيب الخ وأقسام الورثة ثلاثة قسم لا يسقط بحال وهم الآباء والأولاد والأزواج فهؤلاء قسمان والثالث الكلالة أى يأمركم ويعهد اليكم (فى أولادكم) أولاد كل واحد منكم أى فى شأن ميراثهم بدىء بهم لأنهم أقرب الورثة إلى الميت وأكثرهم بقاء بعد المورث (للذكر مثل حظ الأنثيين) جملة مستأنفة جىء بها لتبيين الوصية وتفسيرها وقيل محلها النصب بيوصيكم على أن المعنى يفرض عليكم ويشرع لكم هذا الحكم وهذا قريب بما رآه الفراء فانه يجرى ما كان بمعنى القول من الأفعال مجراه فى حكاية الجملة بعده ونظيره قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة الآية وقوله تعالى للذكر لابد له من ضمير عائد إلى الأولاد محذوف ثقة بظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم أى للذكر منهم وقيل الألف واللام قائم مقامه والأصل لذكرهم ومثل صفة لموصوف محذوف أى للذكر منهم حظ مثل حظ الانثيين والبداءة ببيان حكم الذكر لاظهار مزيته على الأنثى كما أنها المناط فى تضعيف حظه وإيثار اسمى الذكر والأنثى على ما ذكر أولا من الرجال والنساء للتنصيص على استواء

الكبار والصغار من الفريقين فى الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر فى ذلك أصلا كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الأطفال كالنساء (فإن كنّ) أى الأولاد والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى (نساءً) أى خاصا ليس معهن ذكر (فوقَ اثنتينِ) خبر ثان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين (فلهنّ ثلثا ما ترك) أى المتوفى المدلول عليه بقرينة المقام (وإن كانت) أى المولودة (واحدةً) أى امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت وعدم التعرض للموصوف لظهوره مما سبق (فلها النّصفُ) مما ترك وقرىء واحدة على كان التامة واختلف فى الثنتين فقال ابن عباس حكمهما حكم الواحدة لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الجمهور حكمهما حكم ما فوقهما لانه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الانثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى فان كن نساء فوق اثنتين ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها الاقوى منها فى الاستحقاق فلان تستحقه مع مثلها أولى وأحرى وأن البنتين أمس رحما من الاختين وقد فرض الله لهما الثلثين حيث قال تعالى فلهما الثلثان مما ترك (ولأبويهِ) أى لابوى الميت. غير النظم الكريم لعدم اختصاص حكمه بما قبله من الصور (لِكلِّ واحدٍ مّنهما) بدل منه بتكرير العامل وسط بين المبتدا الذى هو قوله تعالى (السّدسُ) وبين خبره الذى هو لأبويه ونقل الخبرية اليه تنصيصا على استحقاق كل منهما السدس وتأكيدا له بالتفصيل بعد الاجمال وقرىء السدس بسكون الدال تخفيفا وكذلك الثلث والربع والثمن (مما تركَ) متعلق بمحذوف وقع حالا من السدس والعامل الاستقرار المعتبر فى الخبر أى كائنا مما ترك المتوفى (إن كانَ لهُ ولدٌ) أو ولد ابن ذكرا كان أو أنثى واحدا أو متعددا غير أن الاب فى صورة الانوثة بعد ما أخذ فرضه المذكور يأخذ ما بقى من ذوى الفروض بالعصوبة (فإن لم يكن لهُ ولدٌ) ولا ولد ابن (وورثهُ أبواهُ) فحسب (فلِأمّهِ الثّلثُ) مما ترك والباقى للأب وإنما لم يذكر لعدم الحاجة اليه لانه لما فرض انحصار الوارث فى أبويه وعين نصيب الأم علم أن الباقى للأب وتخصيص جانب الأم بالذكر وإحالة جانب الاب على دلالة الحال مع حصول البيان بالعكس أيضا لما أن حظها أخصر واستحقاقه أتم وأوفر أو لان استحقاقه بطريق العصوبة دون الفرض هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين أما إذا كان معهما ذلك فللأم ثلث ما بقى بعد فرض أحدهما لا ثلث الكل كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما فانه يفضى إلى تفضيل الام على الأب مع كونه أقوى منها فى الإرث بدليل إضعافه عليها عند انفرادهما عن أحد الزوجين وكونه صاحب فرض وعصبة وذلك خلاف وضع الشرع (فإن كانَ لهُ إخوةٌ) أى عدد ممن له اخوة من غير اعتبار التثليث سواء كانت من جهة الابوين أو من جهة أحدهما وسواء كانوا ذكورا أو اناثا أو مختلطين وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب (فلِأمّهِ السّدسُ) وأما السدس الذى حجبوها عنه فهو للاب عند وجوده ولهم عند عدمه وعليه الجمهور وعند ابن عباس رضى الله عنهما أنه لهم على كل حال خلا أن هذا الحجب عنده لا يتحقق بما دون الثلاث وبالاخوات الخلص وقرىء فلامه بكسر الهمزة اتباعا لما قبلها (من بعدِ وصيّةٍ) خبر مبتدا محذوف والجملة متعلقة بما تقدم جميعا لا بما يليها وحده أى هذه الانصباء للورثة من بعد إخراج وصية (يُوصِى بهآ) أى الميت وقرىء مبنيا للمفعول مخففا ومبنيا للفاعل مشددا وفائدة الوصف الترغيب فى الوصية والندب اليها (أو دَينٍ) عطف على وصية إلا أنه غير مقيد بما قيدت به من الوصف بل هو مطلق يتناول ما ثبت بالبينة أو الاقرار فى الصحة وإيثار أو المفيدة للاباحة على الواو للدلالة على تساويهما فى الوجوب وتقدمهما على القسمة مجموعين أو منفردين وتقديم الوصية على الدين ذكرا مع تأخرها عنه حكما لاظهار كمال العناية بتنفيذها لكونها مظنة للتفريط

فى أدائها ولا طرادها بخلاف الدين (ءاباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا) الخطاب للورثة فآباؤكم مبتدأ وأبناؤكم عطف عليه ولا تدرون خبره وأيهم مبتدأ وأقرب خبره ونفعا نصب على التمييز منه وهو منقول من الفاعلية كأنه قيل أيهم أقرب لكم نفعه والجملة فى حيز النصب بلاتدرون والجملة الكبيرة اعتراضية مؤكدة لوجوب تنفيذ الوصية أى أصولكم وفروعكم الذين يتوفون لاتدرون أيهم أنفع لكم أمن يوصى ببعض ماله فيعرضكم لثواب الآخرة بتنفيذ وصيته أم من لايوصى بشىء فيوفر عليكم عرض الدنيا وليس المراد بنفى الدراية عنهم بيان اشتباه الأمر عليهم وكون أنفعية كل من الأول والثانى فى حيز الاحتمال عندهم من غير رجحان أحدهما على الآخر كما فى قوله عليه الصلاة والسلام مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره فان ذلك بمعزل من افادة التأكيد المذكور والترغيب فى تنفيذ الوصية بل تحقيق أنفعية الأول فى ضمن التعريض بأن لهم اعتقادا بأنفعية الثانى مبنيا على عدم الدراية وقد أشير إلى ذلك حيث عبر عن الأنفعية بأقربية النفع تذكيرا لمناط زعمهم وتعيينا لمنشأ خطئهم ومبالغة فى الترغيب المذكور بتصوير الثواب الآجل بصورة العاجل لما أن الطباع مجبولة على حب الخير الحاضر كأنه قيل لاتدرون أيهم أنفع لكم فتحكمون نظرا إلى ظاهر الحال وقرب المنال بأنفعية الثانى مع أن الأمر بخلافه فان ثواب الآخرة لتحقق وصوله إلى صاحبه ودوام تمتعه به مع غاية قصر مدة ما بينهما من الحياة الدنيا أقرب وأحضر وعرض الدنيا لسرعة نفاده وفنائه أبعد وأقصى وقيل الخطاب للمورثين والمعنى لاتعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم عاجلا وآجلا فتحروا فى شأنهم ما أوصاكم الله تعالى به ولا تعتمدوا إلى تفضيل بعض وحرمان بعض روى أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخر فى الجنة سأل الله تعالى أن يرفع اليه صاحبه فيرفع اليه بشفاعته قبل فالجملة الاعتراضية حينئذ مؤكدة لأمر القسمة وأنت خبير بأنه مشعر بأن مدار الارث ماذكر من أقربية النفع مع أنه العلاقة النسبية (فريضة من الله) نصبت نصب مصدر مؤكد لفعل محذوف أى فرض الله ذلك فرضا أو لقوله تعالى يوصيكم الله فانه فى معنى يأمركم ويفرض عليكم (إن الله كان عليما) أى بالمصالح والرتب (حكيما) فى كل ماقضى وقدر فيدخل فيه الأحكام المذكورة دخولا أوليا (ولكم نصف ما ترك أزوٰجكم) من المال شروع فى بيان أحكام القسم الثانى من الورثة ووجه تقديم حكم ميراث الرجال بما لاحاجة إلى ذكره (إن لم يكن لهن ولد) أى ولد وارث من بطنها أو من صلب بنيها أو بنى بنيها وان سفل ذكرا كان أو أنثى واحدا كان أو متعددا لأن لفظ الولد ينتظم الجميع منكم أو من غيركم والباقى لورثتهن من ذوى الفروض والعصبات أو غيرهم ولبيت المال ان لم يكن لهن وارث آخر أصلا (فإن كان لهن ولد) على نحو ما فصل والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ذكر تقدير عدم الولد وبيان حكمه مستتبع لتقدير وجوده وبيان حكمه (فلكم الربع مما تركن) من المال والباقى لباقى الورثة (من بعد وصية) متعلق بكلتا الصورتين لا بما يليه وحده (يوصين بها) فى محل الجر على أنه صفة لوصية وفائدتها مامر من ترغيب الميت فى الوصية وحث الورثة على تنفيذها (أو دين) عطف على وصية سواء كان ثبوته بالبينة أو بالاقرار وايثار أو على الواو لما مر من الدلالة على تساويهما فى الوجوب والتقدم على القسمة وكذا تقديم الوصية على الدين ذكرا لما ذكر من ابراز كمال العناية بتنفيذها (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد) على التفصيل المذكور آنفا والباقى لبقية ورثتكم من أصحاب الفروض والعصبات أو ذوى الأرحام أو لبيت المال ان لم يكن لكم وارث آخر أصلا (فإن كان لكم ولد) على النحو الذى فصل (فلهن الثمن مما تركتم) من المال والباقى للباقين (من بعد وصية توصون بها أو دين) الكلام فيه كما فصل فى نظيريه فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما فرض للمرأة كما فى النسب

لمزيته عليها وشرفه الظاهر ولذلك اختص بتشريف الخطاب وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا فى الجهة والقرب
ولا يستثنى منه الا أولاد الام والمعتق والمعتقة وتستوى الواحدة والعدد منهن فى الربع والثمن (وإن كانَ رَجلٌ)
شروع فى بيان أحكام القسم الثالث من الورثة المحتمل للسقوط ووجه تأخيره عن الأولين بين والمراد بالرجل الميت
وقوله تعالى (يُورَثُ) على البناء للمفعول من ورث لا من أورث خبر كان أى يورث منه (كلَالَةً) الكلالة فى
الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الاعياء استعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لضعفها بالاضافة
إلى قرابتهما وتطلق على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بوالد ولا ولد من المخلفين بمعنى ذى كلالة كما تطلق
القرابة على ذوى القرابة وقد جوز كونها صفة كالهجاجة والفقاقة للاحمق فنصبها اما على أنها مفعول له أى يورث منه
لأجل القرابة المذكورة أو على أنها حال من ضمير يورث أى حال كونه ذا كلالة أو على أنها خبر لكان ويورث صفة
لرجل أى ان كان رجل موروث ذا كلالة ليس له والد ولا ولد وقرىء يورث على البناء للفاعل مخففا ومشددا فانتصاب
كلالة اما على أنها حال من ضمير الفعل والمفعول محذوف أى يورث وارثه حال كونه ذا كلالة واما على أنها مفعول به أى
يورث ذا كلالة واما على أنه مفعول له أى يورث لأجل الكلالة (أو امْرَأَةٌ) عطف على رجل مقيد بما قيد به أى
أو امرأة تورث كذلك ولعل فصل ذكرها عن ذكره للايذان بشرفه وأصالته فى الأحكام (ولَهُ) أى للرجل ففيه
تأكيد للايذان المذكور حيث لم يتعرض لها بعد جريان ذكرها أيضا وقيل الضمير لكل منهما (أخٌ أوْ أختٌ) أى
من الأم فحسب وقد قرىء كذلك فان أحكام بنى الأعيان والعلات هى التى ذكرت فى آخر السورة الكريمة والجملة
فى محل النصب على أنها حال من ضمير يورث أو من رجل على تقدير كون يورث صفة له ومساقها لتصوير المسئلة وذكر
الكلالة لتحقيق جريان الحكم المذكور وان كان مع من ذكر ورثة أخرى بطريق الكلالة وأما جريانه فى صورة وجود
الام أو الجدة مع أن قرابتهما ليست بطريق الكلالة فبالاجماع (فَلِكلِّ واحِدٍ مِنْهُما) من الأخ والاخت (السُّدُسُ)
من غير تفضيل للذكر على الانثى لأن الادلاء إلى الميت بمحض الانوثة (فإن كانُوا أكْثَرَ مِن ذلكَ) أى أكثر من
الأخ أو الاخت المنفردين بواحد أو بأكثر والفاء لما مر من أن ذكر احتمال الانفراد مستتبع لذكر احتمال التعدد
(فهم شُرَكاءُ فى الثُّلُث) يقتسمونه بالسوية والباقى لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات . هذا وأما تجويز أن
يكون يورث فى القراءة المشهورة مبنيا للمفعول من أورث على أن المراد به الوارث والمعنى وان كان رجل يجعل وارثا
لأجل الكلالة أو ذا كلالة أى غير والد أو ولد ولذلك الوارث أخ أو أخت فلكل واحد من ذلك الوارث وأخيه أو أخته
السدس فان كانوا أكثر من ذلك أى من الاثنين بأن كانوا ثلاثة أو أكثر فهم شركاء فى الثلث الموزع للاثنين لا يزاد
عليه شىء فبمعزل من السداد أما أولا فلان المعتبر على ذلك التقدير انما هى الاخوة بين الوارث وبين شريكه فى
الارث من أخيه أو أخته لا ما بينه وبين مورثه من الاخوة التى عليها يترتب حكم الارث وبها يتم تصوير المسئلة وانما
المعتبر بينهما الوراثة بطريق الكلالة وهى عامة لجميع صور القرابات التى لا تكون بالولادة فلا يكون نصيبه ولا نصيب
شريكه مما ذكر بعينه ومن ادعى اختصاصها بالاخوة لام متمسكا بالاجماع على أن المراد بالكلالة ههنا أولاد الام
فقد اعترف ببطلان رأيه من حيث لا يحتسب كيف لا ومبناه انما هو الاجماع على أن المراد بالاخوة فى قوله تعالى وله
أخ أو أخت هو الاخوة لام خاصة حسبما شهدت به القراءة المحكية والآية الآتية فى آخر السورة الكريمة ولولا أن
الرجل عبارة عن الميت والاخوة معتبرة بينه وبين ورثته لما أمكن كون الكل أولاد الام ثم أن الكلالة كما نبهت عليه
باقية على اطلاقها ليس فيها شائبة اختصاص بأولاد الام فضلا عن الاجماع على ذلك والا لاقتصر البيان على حكم

صورة انحصار الورثة فيهم وإنما الاجماع فيماذكر من أن المراد بالأخ والأخت من كان لام خاصة وأنت خبير بأن ذلك في قوة الاجماع على أن يورث من ورث لا من أورث فتدبر وأماثانيا فلانه يقتضي أن يكون المعتبر في استحقاق الورثة في الفرض المذكور اخوة بعضهم لبعض من جهة الأم فقط لما ذكر من الاجماع مع ثبوت الاستحقاق على تقدير الاخوة من الجهتين وأماثالثا فلأن حكم صورة انفراد الوارث عن الأخ والأخت يبقى حينئذ غير مبين وليس من ضرورة كون حظ كل منهما السدس عند الإجماع كونه كذلك عند الانفراد ألايرى أن حظ كل من الأختين الثلث عند الاجتماع والنصف عند الانفراد وأما رابعا فلأن تخصيص أحد الورثة بالتوريث وجعل غيره تبعا له فيه مع اتحاد الكل في الإدلاء إلى المورث مما لاعهد به (مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ) الكلام فيه كالذي مر في نظائره خلا أن الدين ههنا موصوف بوصف الوصية جريا على قاعدة تقييد المعطوف بما قيد به المعطوف عليه لاتفاق الجمهور على اعتبار عدم المضارة فيه أيضا وذلك انما يتحقق فيما يكون ثبوته بالاقرار في المرض كأنه قيل أودين يوصى به (غَيْرَ مُضَآرٍّ) حال من فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور وما حذف من المعطوف اعتمادا عليه كما أن رجال في قوله تعالى يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال على قراءة المبني للمفعول فاعل لفعل ينبيء عنه المذكور ومن فاعل الفعل المذكور والمحذوف اكتفاء به على قراءة البناء للفاعل أي يوصي بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مضار للورثة أي بأن يوصي بمازاد على الثلث أو تكون الوصية لقصد الإضرار بهم دون القربة وبأن يقر في المرض بدين كاذبا وتخصيص هذا القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت في حقهم (وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ) مصدر مؤكد لفعل محذوف وتنوينه للتفخيم ومن متعلقة بمضمر وقع صفة له مؤكد لفخامته الذاتية بالفخامة الاضافية أي يوصيكم بذلك وصية كائنة من الله كقوله تعالى فريضة من الله ولعل السر في تخصيص كل منهما بمحله الاشعار بما بين الأحكام المتعلقة بالأصول والفروع وبين الأحكام المتعلقة بغيرهم من التفاوت حسب تفاوت الفريضة والوصية وإن كانتا كلتاهما واجبة المراعاة أو منصوب بغير مضار على أنه مفعول به فانه اسم فاعل معتمد على ذي الحال أو منفي معنى فيعمل في المفعول الصريح ويعضده القراءة بالإضافة أي غير مضار لوصية الله وعهده لا في شأن الأولاد فقط كما قيل إذ لاتعلق لهم بالمقام بل في شأن الورثة المذكورة ههنا فان الأحكام المفصلة كلها مندرجة تحت قوله تعالى يوصيكم الله جارية مجرى تفسيره وبيانه ومضارتها الإخلال بحقوقهم ونقصها بماذكر من الوصية بمازاد على الثلث والوصية لقصد الاضرار دون القربة والإقرار بالدين كاذبا وإيقاعها على الوصية مع أنها واقعة على الورثة حقيقة كما في قوله: ياسارق الليلة أهل الدار للمبالغة في الزجر عنها باخراجها مخرج مضارة أمر الله تعالى ومضادته وجعل الوصية عبارة عن الوصية بالثلث فمادونه يقتضي أن يكون غير مضار حالا عن ضمير الفعل المتعلق بالوصية فقط وذلك يؤدي إلى الفصل بين الحال وعاملها بأجنبي هو المعطوف على وصية مع أنه لاتنحسم به مادة المضارة لبقاء الإقرار بالدين على اطلاقه (وَٱللَّهُ عَلِيمٌ) بالمضار وغيره (حَلِيمٌ) لايعاجل بالعقوبة فلايغتر بالإمهال وإيراد الاسم الجليل مع كفاية الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة (تِلْكَ) اشارة إلى الأحكام التي تقدمت في شئون اليتامى والمواريث وغير ذلك (حُدُودُ ٱللَّهِ) أي شرائعه المحدودة التي لاتجوز مجاوزتها (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) في جميع الأوامر والنواهي التي من جملتها مافصل ههنا وإظهار الاسم الجليل لما ذكر آنفا (يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ) نصب على الظرفية عند الجمهور وعلى المفعولية عند الأخفش (تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ) صفة لجنات منصوبة حسب انتصابها (خَٰلِدِينَ فِيهَا) حال مقدرة من مفعول يدخله وصيغة الجمع بالنظر إلى جمعية من بحسب المعنى كما أن افراد الضمير بالنظر إلى افراده لفظا (وَذَٰلِكَ) إشارة إلى مامر من دخول الجنات

الموصوفة بماذكر على وجه الخلود ومافيه من معنى البعد للايذان بكمال علو درجته (الفوزُ العظيمُ) الذى لافوز وراءه وصف الفوز وهو الظفر بالخير بالعظم إما باعتبار متعلقه أو باعتبار ذاته فان الفوز بالعظيم عظيم والجملة اعتراض (ومَن يَعصِ اللهَ ورَسولهُ) ولو فى بعض الأوامر والنواهى قال مجاهد فيما اقتص من المواريث وقال عكرمة عن ابن عباس من لم يرض بقسم الله تعالى ويتعد ماقال الله تعالى وقال الكلبى يعنى ومن يكفر بقسمة الله المواريث ويتعد حدوده استحلالا والإظهار فى موقع الإضمار للمبالغة فى الزجر بتهويل الأمر وتربية المهابة (ويَتعدَّ حُدودَهُ) شرائعه المحدودة فى جميع الاحكام فيدخل فيها مانحن فيه دخولا أوليا (يدخِلهُ) وقرىء بنون العظمة فى الموضعين (نارًا) أى عظيمة هائلة لايقادر قدرها (خَـلِدًا فيها) حال كما سبق ولعل ايثار الإفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للايذان بأن الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للانس كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة (ولهُ عذابٌ مُّهينٌ) أى وله مع عذاب الحريق الجسمانى عذاب آخر مبهم لايعرف كنهه وهو العذاب الروحانى كما يؤذن به وصفه والجملة حالية (والَّتى يأتينَ الفَـحِشَةَ مِن نِّسائِكُمْ) شروع فى بيان بعض آخر من الاحكام المتعلقة بالنساء اثر بيان أحكام المواريث واللاتى جمع التى بحسب المعنى دون اللفظ وقيل جمع على غير قياس والفاحشة الفعلة القبيحة أريد بها الزنا لزيادة قبحه والاتيان الفعل والمباشرة يقال أتى الفاحشة أى فعلها وباشرها وكذا جاءها ورهقها وغشيها وقرىء بالفاحشة فالاتيان بمعناه المشهور ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل يأتين أى اللاتى يفعلن الزنا كائنات من نسائكم أى من أزواجكم كما فى قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم وقوله تعالى من نسائكم اللاتى دخلتم بهن وبه قال السدى (فاستَشهِدوا عَليهِنَّ أربَعةً مِّنكُمْ) خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما فى حيز الصلة للحكم أى فاطلبوا أن يشهد عليهن باتيانها أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم (فإن شهِدُوا) عليهن بذلك (فأمسِكوهُنَّ فى البُيوتِ) أى فاحبسوهن فيها واجعلوها سجنا عليهن (حَتّى يَتوفّـهُنَّ) أى إلى أن يستوفى أرواحهن (المَوتُ) وفيه تهويل للموت وإبرازه فى صورة من يتولى قبض الارواح وتوفيها أو يتوفاهن ملائكة الموت (أو يجعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلاً) أى يشرع لهن حكما خاصا بهن ولعل التعبير عنه بالسبيل للايذان بكونه طريقا مسلوكا فليس فيه دلالة على كونه أخف من الحبس كما قاله أبو مسلم (والّذانِ يأتِيـنِها مِنكُمْ) هما الزانى والزانية بطريق التغليب قال السدى أريد بهما البكران منهما كما ينبىء عنه كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد وبذلك يندفع التكرار خلا أنه يبقى حكم الزانى المحصن مبهما لاختصاص العقوبة الاولى بالمحصنات وعدم ظهور إلحاقه بأحد الحكمين دلالة لخفاء الشركة فى المناط (فئاذُوهُما) أى بالتوبيخ والتقريع وقيل بالضرب بالنعال أيضا وظاهر أن إجراء هذا الحكم أيضا إنما يكون بعد الثبوت لكن ترك ذكره تعويلا على ماذكر آنفا (فإن تابَا) عما فعلا من الفاحشة بسبب مالقيا من زواجر الاذية وقوارع التوبيخ كما ينبىء عنه الفاء (وأصلَحا) أى أعمالهما (فأعرِضُوا عَنهُما) بقطع الأذية والتوبيخ فان التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب وقد جوز أن يكون الخطاب للشهود الواقفين على هناتهما ويراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الولاة وبالإعراض عنهما ترك التعرض لهما بالرفع اليهم قيل كانت عقوبة الفريقين المذكورين فى أوائل الإسلام على مامر من التفصيل ثم نسخ بالحد لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم والبكر تجلد وقيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولا وكانت عقوبة الزناة مطلقا الأذى ثم الحبس ثم الجلد ثم الرجم وقد جوز أن يكون الأمر بالحبس غير منسوخ بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة ويوصى بامساكهن فى

البيوت بعد إقامة الحد صيانة لهن مثل ماجرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال ولايخفى أنه مما لايساعده النظم الكريم وقال أبو مسلم وقد عزاه إلى مجاهد ان الأول فى السحاقات وهذه فى اللواطين ومافى سورة النور فى الزناة والزوانى متمسكا بأن المذكور فى الأولى صيغة الأناث خاصة وفى الثانية صيغة الذكور ولا ضرورة إلى المصير إلى التغلب على أنه لا امكان له فى الأول ويأباه الأمر باستشهاد الأربعة فانه غير معهود فى الشرع فيما عدا الزنا (إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا) مبالغا فى قبول التوبة (رَحِيمًا) واسع الرحمة وهو تعليل للامر بالاعراض (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ) استئناف مسوق لبيان أن قبول التوبة من الله تعالى ليس على إطلاقه كما ينبىء عنه وصفه تعالى بكونه توابا رحيما بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم فقوله تعالى التوبة مبتدأ وقوله تعالى (لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ) خبره وقوله تعالى على الله متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار فان تقديم الجار والمجرور على عامله المعنوى مما لانزاع فى جوازه وكذا الظرف أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المبتدأ المستكن فيما تعلق به الخبر على رأى من جوز تقديم الحال على عاملها المعنوى عند كونها ظرفا أو حرف جر كما سبق فى تفسير قوله تعالى ولله على الناس حج البيت وأياما كان فمعنى كون التوبة عليه سبحانه صدور القبول عنه تعالى وكلمة على للدلالة على التحقق البتة بحكم جرى العادة وسبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه وهذا مراد من قال كلمة على بمعنى من وقيل هى بمعنى عند وعن الحسن يعنى التوبة التى يقبلها الله تعالى وقيل هى التوبة التى أوجب الله تعالى على نفسه بفضله قبولها وهذا يشير إلى أن قوله تعالى على الله صفة للتوبة بتقدير متعلقه معرفة على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى إنما التوبة الكائنة على الله والمراد بالسوء المعصية صغيرة كانت أو كبيرة وقيل الخبر على الله وقوله تعالى للذين متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى متعلق الخبر وليس فيه ما فى الوجه الأول من تقديم الحال على العامل المعنوى إلا أن الذى يقتضيه المقام ويستدعيه النظام هو الأول لما أن ماقبله من وصفه تعالى بكونه توابا رحيما إنما يقتضى بيان اختصاص قبول التوبة منه تعالى بالمذكورين وذلك إنما يكون بجعل قوله تعالى للذين الخ خبرا ألا ترى إلى قوله عز وجل وليست التوبة الذين يعملون السيئات الخ فانه ناطق بما قلنا كأنه قيل إنما التوبة لهؤلاء لا لهؤلاء (بِجَهَالَةٍ) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يعملون أى يعملون السوء ملتبسين بها أى جاهلين سفهاء أو بيعملون على أن الباء سببية أى يعملونه بسبب الجهالة لأن ارتكاب الذنب مما يدعو اليه الجهل وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءا بل عدم التفكر فى العاقبة كما يفعله الجاهل قال قتادة اجتمع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فرأوا أن كل شىء عصى به ربه فهو جهالة عمدا كان أو خطأ وعن مجاهد من عصى الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقال الزجاج يعنى بقوله بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ) أى من زمان قريب وهو ماقبل حضور الموت كما ينبىء عنه ماسيأتى من قوله تعالى حتى إذا حضر أحدهم الموت الخ فانه صريح فى أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لاتقبل فيه التوبة فبقى ماوراءه فى حيز القبول وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبل أن ينزل به سلطان الموت وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب وعن ابراهيم النخعى مالم يؤخذ بكظمه وهو مجرى النفس وروى أبو أيوب عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر وعن عطاء ولو قبل موته بفواق ناقة وعن الحسن ان ابليس قال حين أهبط إلى الأرض وعزتك لا أفارق ابن آدم مادام روحه فى جسده فقال تعالى وعزتى لا أغلق عليه باب التوبة مالم يغرغر ومن تبعيضية أى يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى مابين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانا قريبا ففى أى جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب (فَأُولَٰئِكَ) إشارة إلى المذكورين من

حيث اتصافهم بما ذكر ومافيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ) ومافيه من تكرير الاسناد لتقوية الحكم وهذا وعد بقبول توبتهم اثر بيان أن التوبة لهم والفاء للدلالة على سببيتها للقبول (وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) مبالغاً فى العلم والحكمة فيبنى أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة والجملة اعتراضية مقررة لمضمون ماقبلها وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الألوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات الكمال (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) تصريح بما فهم من قصر القبول على توبة من تاب من قريب وزيادة تعيين له ببيان أن توبة من عداهم بمنزلة العدم وجمع السيئات باعتبار تكرر وقوعها فى الزمان المديد لا لأن المراد بها جميع أنواعها وبما مر من السوء نوع منها (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) حتى حرف ابتداء والجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها أى ليس قبول التوبة للذين يعملون السيئات إلى حضور موتهم وقولهم حينئذ إنى تبت الآن وذكر الآن لمزيد تعيين الوقت وإيثار قال على تاب لاسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشى عن تسميته توبة (وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) عطف على الموصول الذى قبله أى ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء وإنما ذكر هؤلاء مع أنه لا توبة لهم رأساً مبالغة فى بيان عدم قبول توبة المسوفين وإيذانا بأن وجودها كعدمها بل فى تكرير حرف النفى فى المعطوف إشعار خفى بكون حال المسوفين فى عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الذين يموتون على الكفر والمراد بالموصولين إما الكفار خاصة وإما الفساق وحدهم وتسميتهم فى الجملة الحالية كفاراً للتغليظ كما فى قوله تعالى ومن كفر فان الله غنى عن العالمين وأما ما يعم الفريقين جميعاً فالتسمية حينئذ للتغليب ويجوز أن يراد بالأول الفسقة وبالثانى الكفرة ففيه مبالغة أخرى (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى الفريقين ومافيه من معنى البعد للايذان بترامى حالهم فى الفظاعة وبعد منزلتهم فى السوء وهو مبتدأ خبره (أَعْتَدْنَا لَهُمْ) أى هيأنا لهم (عَذَاباً أَلِيماً) تكرير الاسناد لما مر من تقوية الحكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بكون العذاب معداً لهم وتنكير العذاب ووصفه للتفخيم الذاتى والوصفى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) كان الرجل إذا مات قريبه يلقى ثوبه على امرأته أو على خبائها ويقول أرث امرأته كما أرث ماله فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ثم ان شاء تزوجها بلا صداق غير الصداق الأول وان شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئاً وإن شاء عضلها لتفتدى بما ورثت من زوجها وإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل القاء الثوب فهى أحق بنفسها فنهوا عن ذلك وقيل لهم لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الارث على زعمكم كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكروهات عليه وقيل كانوا يمسكونهن حتى يمتن ويرثوا منهن فقيل لهم لا يحل لكم ذلك وهن غير راضيات بامساككم وقرىء لا تحل بالتاء الفوقانية على أن ترثوا بمعنى الوراثة وقرىء كرهاً بضم الكاف وهى لغة كالضعف والضعف وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر وضيق عليها لتفتدى منه بمالها وتختلع فقيل لهم (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) عطفا على ترثوا ولا لتأكيد النفى والخطاب للازواج والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت المرأة بولدها إذا اختنقت رحمها فخرج بعضه وبقى بعضه أى ولا أن تضيقوا عليهن (لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) أى من الصداق بأن يدفعن اليكم بعضه اضطراراً فتأخذوه منهن وإنما لم يتعرض لفعلهن إيذانا بكونه بمنزلة العدم لصدوره عنهن اضطراراً وإنما عبر عن ذلك بالذهاب به لا بالاخذ ولا بالاذهاب للمبالغة فى تقبيحه ببيان تضمنه لامرين كل منهما محظور شنيع الاخذ والاذهاب منهن لانه عبارة عن الذهاب مستصحبا به (إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) على صيغة الفاعل من بين بمعنى تبين وقرىء على صيغة المفعول وعلى صيغة الفاعل

من أبان بمعنى تبين أى بينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وايذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة ويعضده قراءة أبى الا أن يفحشن عليكم وقيل الفاحشة الزنا وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أو أعم العلل أى ولا يحل لكم عضلهن فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات أو لعلة من العلل إلا فى حال اتيانهن بفاحشة أو الا فى وقت اتيانهن أو الا لاتيانهن بها فان السبب حينئذ يكون من جهتهن وأنتم معذورون فى طلب الخلع (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) خطاب للذين يسيئون العشرة معهن والمعروف مالا ينكره الشرع والمروءة والمراد ههنا النصفة فى المبيت والنفقة والاجمال فى المقال ونحو ذلك (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ) وسئمتم صحبتهن بمقتضى الطبيعة من غير أن يكون من قبلهن مايوجب ذلك من الأمور المذكورة فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس واصبروا على معاشرتهن (فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) علة للجزاء أقيمت مقامه للايذان بقوة استلزامها إياه كأنه قيل فان كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تكرهونه خيرا كثيرا ليس فيما تحبونه وعسى تامة رافعة لما بعدها مستغنية عن تقدير الخبر أى فقد قربت كراهتكم شيئا وجعل الله فيه خيرا كثيرا فان النفس ربما تكره ماهو أصلح فى الدين وأحمد عاقبة وأدنى إلى الخير وتحب ماهو بخلافه فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسكم وذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه وانحصار العلية فى الثانى للتوسل إلى تعميم مفعوله ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصا بمكروه دون مكروه بل هو سنة إلهية جارية على الاطلاق حسب اقتضاء الحكمة وأن ما نحن فيه مادة من موادها وفيه من المبالغة فى الحمل على ترك المفارقة وتعميم الارشاد مالا يخفى وقرىء ويجعل مرفوعا على أنه خبر لمبتدا محذوف والجملة حالية تقديره وهو أى ذلك الشىء يجعل الله فيه خيرا كثيرا وقيل تقديره والله يجعل بوضع المظهر موضع المضمر وتنوين خيرا لتفخيمه الذاتى ووصفه بالكثرة لبيان فخامته الوصفية والمراد به ههنا الولد الصالح وقيل الألفة والمحبة (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ) أى تزوج امرأة ترغبون فيها (مَكَانَ زَوْجٍ) ترغبون عنها بأن تطلقوها (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ) أى إحدى الزوجات فان المراد بالزوج هو الجنس والجملة حالية باضمار قد لا معطوفة على الشرط أى وقد آتيتم التى تريدون أن تطلقوها (قِنْطَارًا) أى مالا كثيرا (فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ) أى من ذلك القنطار (شَيْئًا) يسيرا فضلا عن الكثير (أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) استئناف مسوق لتقرير النهى والتنفير عن المنهى عنه والاستفهام للانكار والتوبيخ أى أتأخذونه باهتين وآثمين أو للبهتان والاثم فان أحدهم كان إذا تزوج امرأة بهت التى تحته بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة فنهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذى يبهت المكذوب عليه ويدهشه وقد يستعمل فى الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم وقوله عز وجل (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ) انكار لأخذه اثر انكار وتنفير عنه غب تنفير وقد بولغ فيه حيث وجه الانكار إلى كيفية الأخذ ايذانا بأنه مما لا سبيل له إلى التحقق والوقوع أصلا لأن ما يدخل تحت الوجود لابد أن يكون على حال من الأحوال فاذا لم يكن لشىء حال أصلا لم يكن له حظ من الوجود قطعا وقوله عز وجل (وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ) حال من فاعل تأخذونه مفيدة لتأكيد النكير وتقرير الاستبعاد أى على أى حال أو فى أى حال تأخذونه والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية له من الخلوة وتقرر المهر وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) عطف على ما قبله داخل فى حكمه أى أخذن منكم عهدا وثيقا وهو حق الصحبة والمعاشرة أو ما أوثق الله تعالى عليهم فى شأنهن بقوله تعالى فامساك بمعروف أو تسريح باحسان أو ما أشار اليه النبى عليه الصلاة والسلام أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله تعالى (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ) شروع فى بيان من يحرم نكاحها من النساء ومن

لايحرم وإنماخص هذا النكاح بالنهى ولم ينظم فى سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغة فى الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه قال ابن عباس وجمهور المفسرين كان أهل الجاهلية يتزوجون بأزواج آبائهم فنهوا عن ذلك واسم الآباء ينتظم الأجداد مجازا فتثبت حرمة مانكحوها نصا وإجماعا ويستقل فى إثبات هذه الحرمة نفس النكاح إذا كان صحيحا وأما إذا كان فاسدا فلابد فى إثباتها من الوطء أو مايجرى مجراه من التقبيل والمس بشهوة ونحوهما بل هو المثبت لها فى الحقيقة حتى لو وقع شىء من ذلك بحكم ملك اليمين أو بالوجه المحرم تثبت به الحرمة عندنا خلافا للشافعى فى المحرم أى لاتنكحوا التى نكحها آباؤكم وإيثار ما على من للذهاب إلى الوصف وقيل ما مصدرية على إرادة المفعول من المصدر (مِّنَ ٱلنِّسَآءِ) بيان لما نكح على الوجهين (إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) استثناء مما نكح مفيد للمبالغة فى التحريم باخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال على طريقة قوله: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

والمعنى لاتنكحوا حلائل آبائكم إلا من ماتت منهن والمقصود سد طريق الإباحة بالكلية ونظيره قوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط وقيل هو استثناء مما يستلزمه النهى ويستوجبه مباشرة المنهى عنه كأنه قيل لاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء فانه موجب للعقاب إلا ما قد مضى فانه معفو عنه وقيل هو استثناء منقطع معناه لكن ما قد سلف لامؤاخذة عليه لأنه مقرر وياباها قوله تعالى (إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا) فانه تعليل للنهى وبيان لكون المنهى عنه فى غاية القبح مبغوضا أشد البغض وأنه لم يزل فى حكم الله تعالى وعلمه موصوفا بذلك مارخص فيه لأمة من الأمم فلا يلائم أن يوسط بينهما مايهون أمره من ترك المؤاخذة على ماسلف منه (وَسَآءَ سَبِيلًا) فى كلمة ساء قولان أحدهما أنها جارية مجرى بئس فى الذم والعمل ففيها ضمير مبهم يفسره مابعده والمخصوص بالذم محذوف تقديره وساء سبيلا سبيل ذلك النكاح كقوله تعالى بئس الشراب أى ذلك الماء وثانيهما أنها كسائر الأفعال وفيها ضمير يعود إلى ماعاد إليه ضمير أنه وسبيلا تمييز والجملة اما مستأنفة لامحل لها من الإعراب أو معطوفة على خبر كان محكية بقول مضمر هو المعطوف فى الحقيقة تقديره ومقولا فى حقه ساء سبيلا فان ألسنة الأمم كافة لم تزل ناطقة بذلك فى الأعصار والأمصار. قيل مراتب القبح ثلاث القبح الشرعى والقبح العقلى والقبح العادى وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك فقوله تعالى فاحشة مرتبة قبحه العقلى وقوله تعالى ومقتا مرتبة قبحه الشرعى وقوله تعالى وساء سبيلا مرتبة قبحه العادى وما اجتمع فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح (حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ) ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن ومايقصد به من التمتع بهن وبيان امتناع ورود ملك النكاح عليهن وانتفاء محليتهن له رأسا وأما حرمة التمتع بهن بملك اليمين فى المواد التى يتصور فيها قرار الملك كما فى بعض المعطوفات على تقدير رقهن فثابتة بدلالة النص لاتحاد المدار الذى هو عدم محلية أبضاعهن للملك لابعبارته بشهادة سباق النظم الكريم وسياقه وإنما لم يوجب المدار المذكور امتناع ورود ملك اليمين عليهن رأسا ولا حرمة سببه الذى هو العقد أو مايجرى مجراه كما أوجب حرمة عقد النكاح وامتناع ورود حكمه عليهن لأن مورد ملك اليمين ليس هو البضع الذى هو مورد ملك النكاح حتى يفوت بفوات محليته له كملك النكاح فانه حيث كان مورده ذلك فات بفوات محليته له قطعا وإنما مورده الرقبة الموجودة فى كل رقيق فيتحقق بتحقق محله حتما ثم يزول بوقوع العتق فى المواد التى سبب حرمتها محض القرابة النسبية كالمذكورات ويبقى فى البواقى على حاله مستتبعا لجميع أحكامه المقصودة منه شرعا وأما حل الوطء فليس من تلك الأحكام فلا ضير فى تخلفه عنه كما فى المجوسية. والأمهات تعم الجدات وان علون والبنات تتناول بناتهن وان سفلن والأخوات ينتظمن الأخوات من الجهات الثلاث وكذا الباقيات والعمة كل أنثى ولدها من ولد والدك والخالة كل أنثى ولدها من

ولد والدتك قريبا أو بعيدا وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القربى والبعدى (وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ) نزل الله تعالى الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أما للرضيع والمراضعة أختا وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه وأخته عمته وكل ولد ولده من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم اخوته وأخواته لأبيه وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من ولدها من هذا الزوج فهم اخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولد لها من غيره فهم اخوته وأخواته لأمه ومنه قوله عليه السلام يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهو حكم كلى جار على عمومه وأما أم أخيه لأب وأخت ابنه لأم وأم أم ابنه وأم عمه وأم خاله لأب فليست حرمتهن من جهة النسب حتى يحل بعمومه ضرورة حلهن فى صور الرضاع بل من جهة المصاهرة ألا يرى أن الأولى موطوءة أبيه والثانية بنت موطوءته والثالثة أم موطوءته والرابعة موطوءة جده الصحيح والخامسة موطوءة جده الفاسد (وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ) شروع فى بيان المحرمات من جهة المصاهرة اثر بيان المحرمات من جهة الرضاعة التى لها لحمة كلحمة النسب والمراد بالنساء المنكوحات على الاطلاق سواء كن مدخولا بهن أولا وعليه جمهور العلماء. روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال فى رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها انه لا بأس بأن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها وعن عمر وعمران بن الحصين رضى الله عنهما أن الأم تحرم بنفس العقد وعن مسروق هى مرسلة فأرسلوا ما أرسل الله وعن ابن عباس أبهموا ما أبهم الله خلا أنه روى عنه وعن على وزيد وابن عمر وابن الزبير رضى الله عنهم أنهم قرؤوا وأمهات نسائكم اللاتى دخلتم بهن وعن جابر روايتان وعن سعيد بن المسيب عن زيد أنه إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها وإذا طلقها قبل أن يدخل بها فان شاء فعل أقام الموت فى ذلك مقام الدخول كما قام مقامه فى باب المهر والعدة ويلحق بهن الموطوءات بوجه من الوجوه المعدودة فيما سبق والممسوسات ونظائرهن والأمهات تعم المرضعات كما تعم الجدات حسبما ذكر (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم) الربائب جمع ربيبة فعيل بمعنى مفعول والتاء للنقل إلى الإسمية والربيب ولد المرأة من آخر سمى به لأنه يربه غالبا كما يرب ولده وإن لم يكن ذلك أمرا مطردا وهو المعنى بكونهن فى الحجور فان شأنهن الغالب المعتاد أن يكن فى حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن لا كونهن كذلك بالفعل وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكميلها كما أنها النكتة فى إيرادهن باسم الربائب دون بنات النساء فان كونهن بصدد احتضانهم لهن وفى شرف التقلب فى حجورهم وتحت حمايتهم وتربيتهم مما يقوى الملابسة والشبه بينهن وبين أولادهم ويستدعى اجراءهن مجرى بناتهم لا تقييد الحرمة بكونهن فى حجورهم بالفعل كما روى عن على رضى الله عنه وبه أخذ داود ومذهب جمهور العلماء ماذكر أولا بخلاف ما فى قوله تعالى (مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ) فانه لتقييدها به قطعا فان كلمة من متعلقة بمحذوف وقع حالا من ربائبكم أو من ضميرها المستكن فى الظرف لأنه لما وقع صلة تحمل ضميرا أى وربائبكم اللاتى استقررن فى حجوركم كائنات من نسائكم الخ ولا مساغ لجعله حالا من أمهات أو مما أضيفت هى اليه خاصة وهو بين لا سترة به ولا مع ما ذكر أولا ضرورة أن حاليته من ربائبكم أو من ضمير ما تقتضى كون كلمة من ابتدائية وحاليته من أمهات أو من نسائكم تستدعى كونها بيانية وادعاء كونها اتصالية منتظمة لمعنى الابتداء والبيان أو جعل الموصول صفة للنساءين مع اختلاف عامليهما مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله مع أنه سعى فى اسكات ما نطق به النبى عليه الصلاة والسلام واتفق عليه الجمهور حسبما ذكر فيما قبل وأما ما نقل من القراءة فضعيفة الرواية وعلى تقدير الصحة محمولة على النسخ ومعنى الدخول بهن ادخالهن الستر والباء للتعدية وهى كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب وفى حكمه اللمس ونظائره كما مر (فَإِن لَّمْ تَكُونُوا) أى فيما قبل (دَخَلْتُم بِهِنَّ) أصلا (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) أى فى نكاح

الربائب وهو تصريح بما أشعر به ماقبله والفاء الأولى لترتيب مابعدها على ماقبلها فان بيان حكم الدخول مستتبع لبيان حكم عدمه (وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ) أى زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لحلها للزوج أو لحلو لها فى محله وقيل لحل كل منهما إزار صاحبه وفى حكمهن من نياتهم ومن يجرين مجراهن من الممسوسات ونظائرهن وقوله تعالى (الَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ) لاخراج الادعياء دون أبناء الأولاد والأبناء من الرضاع فانهم وإن سفلوا فى حكم الأبناء الصلبية (وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ) فى حيز الرفع عطفا على ماقبله من المحرمات والمراد به جمعهما فى النكاح لا فى ملك اليمين وأما جمعهما فى الوطء بملك اليمين فملحق به بطريق الدلالة لاتحادهما فى المدار ولقوله عليه الصلاة والسلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمعن ماءه فى رحم أختين بخلاف نفس ملك اليمين فانه ليس فى معنى النكاح فى الافضاء إلى الوطء ولا مستلزما له ولذلك يصح شراء المجوسية دون نكاحها حتى لو وطئها لايحل له وطء احداهما حتى يحرم عليه وطء الأخرى بسبب من الأسباب وكذا لو تزوج أخت أمته الموطوءة لايحل له وطء إحداهما حتى يحرم عليه الأخرى لأن المنكوحة موطوءة حكما فكأنه جمعهما وطأ وإسناد الحرمة إلى جمعهما لا إلى الثانية منهما بأن يقال وأخوات نسائكم للاحتراز عن إفادة الحرمة المؤبدة كما فى المحرمات السابقة ولكونه بمعزل من الدلالة على حرمة الجمع بينهما على سبيل المعية ويشترك فى هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرها فان مدار حرمة الجمع بين الأختين افضاؤه إلى قطع ما أمر الله بوصله وذلك متحقق فى الجمع بين هؤلاء بل أولى فان العمة والخالة بمنزلة الأم فقوله عليه السلام لاتنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها من قبيل بيان التفسير لا بيان التغيير وقيل هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب (إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ) استثناء منقطع أى لكن ماقد مضى لاتؤاخذون به ولا سبيل إلى جعله متصلا بقصد التأكيد والمبالغة كما مر فيما سلف لأن قوله تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا) تعليل لما أفاده الاستثناء فيتحتم الانقطاع وقال عطاء والسدى معناه إلا ما كان من يعقوب عليه السلام فانه قد جمع بين ليا أم يهوذا وبين راحيل أم يوسف عليه الصلاة والسلام ولا يساعده التعليل لأن مافعله يعقوب عليه السلام كان حلالا فى شريعته وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله تعالى إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين وروى هشام بن عبدالله عن محمد بن الحسن أنه قال كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات إلا اثنتين نكاح امرأة الاب والجمع بين الاختين ألا يرى أنه قد عقب النهى عن كل منهما بقوله تعالى إلا ما قد سلف وهذا يشير إلى كون الاستثناء فيهما على سنن واحد ويأباه اختلاف التعليلين (وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ) بفتح الصاد وهن ذوات الازواج أحصنهن التزوج أو الازواج أو الاولياء أى أعفهن عن الوقوع فى الحرام وقرىء على صيغة اسم الفاعل فانهن أحصن فروجهن عن غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن وقيل الصيغة للفاعل على القراءة الأولى أيضا وفتح الصاد محمول على الشذوذ كما فى نظيريه ملقح ومسهب من ألقح وأسهب قيل قد ورد الاحصان فى القرآن بازاء أربعة معان الاول التزوج كما فى هذه الآية الكريمة الثانى العفة كما فى قوله تعالى محصنين غير مسافحين الثالث الحرية كما فى قوله تعالى ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات والرابع الإسلام كما فى قوله تعالى فاذا أحصن قيل فى تفسيره أى أسلمن وهى معطوفة على المحرمات السابقة وقوله تعالى (مِنَ ٱلنِّسَآءِ) متعلق بمحذوف وقع حالا منها أى كائنات من النساء وفائدته تأكيد عمومها لادفع توهم شمولها للرجال بناء على كونها صفة للانفس كما توهم (إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ) استثناء من المحصنات استثناء النوع من الجنس أى ملكتموه وإسناد الملك إلى الأيمان لما أن سببه الغالب هو الصفة الواقعة بها وقد اشتهر ذلك فى الارقاء لاسيما فى اناثهم وهن المرادات ههنا رعاية للمقابلة بينه وبين ملك النكاح الوارد على الحرائر والتعبير عنهن بما لاسقاطهن بما فيهن من قصور الرق عن رتبة العقلاء وهى إما عامة حسب عموم

صلتها فالاستثناء حينئذ ليس لاخراج جميع أفرادها من حكم التحريم بطريق شمول النفي بل بطريق نفي الشمول المستلزم لاخراج بعضها أي حرمت عليكم المحصنات على الاطلاق إلا المحصنات اللاتي ملكتموهن فانهن لسن من المحرمات على الاطلاق بل فيهن من لا يحرم نكاحهن في الجملة وهن المسبيات بغير أزواجهن أو مطلقا حسب اختلاف الرأيين وأما خاصة بالمذكورات فالمعنى حرمت عليكم المحصنات إلا اللاتي سبين فان نكاحهن مشروع في الجملة أي لغير ملاكهن وأما حلهن لهم بحكم ملك اليمين فمفهوم بدلالة النص لاتحاد المناط لا بعبارته لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان حرمة التمتع بالمحرمات المعدودة بحكم ملك النكاح وإنما ثبوت حرمة التمتع بهن بحكم ملك اليمين بطريق دلالة النص وذلك مما لا يجري فيه الاستثناء قطعا وأما عدهن من ذوات الأزواج مع تحقق الفرقة بينهن وبين أزواجهن قطعا بالتباين أو بالسبي على اختلاف الرأيين فمبني على اعتقاد الناس حيث كانوا حينئذ غافلين عن الفرقة ألا يرى إلى ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من أنه قال أصبنا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي عليه السلام وفي رواية عنه قلنا يا رسول الله كيف نقع على نساء قد عرفن أنسابهن وأزواجهن فنزلت والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم فاستحللناهن وفي رواية أخرى عنه ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض فأباح وطأهن بعد الاستبراء وليس في ترتيب هذا الحكم على نزول الآية الكريمة ما يدل على كونها مسوقة له فان ذلك إنما يتوقف على افادتها له بوجه من وجوه الدلالة لا على افادتها بطريق العبارة أو نحوها . هذا وقد روي عن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال انها نزلت في نساء كن يهاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فيتزوجهن بعض المسلمين ثم يقدم أزواجهن مهاجرين فنهى عن نكاحهن فالمحصنات حينئذ عبارة عن مهاجرات يتحقق أو يتوقع من أزواجهن الاسلام والمهاجرة ولذلك لم يزل عنهن اسم الاحصان والنهي لتحريم المحقق وتعرف حال المتوقع وإلا فما عداهن بمعزل من الحرمة واستحقاق اطلاق الاسم عليهن كيف لا وحين انقطعت العلاقة بين المسبية وزوجها مع اتحادهما في الدين فلأن تنقطع ما بين المهاجرة وزوجها أحق وأولى كما يفصح عنه قوله عز وجل فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن الآية (كِتَٰبَ ٱللَّهِ) مصدر مؤكد أي كتب الله (عَلَيۡكُمۡ) تحريم هؤلاء كتابا وفرضه فرضا وقيل منصوب على الاغراء بفعل مضمر أي الزموا كتاب الله وعليكم متعلق اما بالمصدر وإما بمحذوف وقع حالا منه وقيل هو اغراء آخر مؤكد لما قبله قد حذف مفعوله لدلالة المذكور عليه أو بنفس عليكم على رأي من جوز تقديم المنصوب في باب الاغراء كما في قوله :

يا أيها المائح دلوي دونكا إني رأيت الناس يحمدونكا

وقرئ كتب الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم وقرئ كتب الله بلفظ الفعل (وَأُحِلَّ لَكُم) عطف على حرمت عليكم الخ وتوسيط قوله تعالى كتاب الله عليكم بينهما للمبالغة في الحمل على المحافظة على المحرمات المذكورة وقرئ على صيغة المبني للفاعل فيكون معطوفا على الفعل المقدر وقيل بل على حرمت الخ فانهما جملتان متقابلتان مؤسستان للتحريم والتحليل المنوطين بأمر الله تعالى ولا ضير في اختلاف المسند اليه بحسب الظاهر لا سيما بعد ما أكدت الأولى بما يدل على أن المحرم هو الله تعالى (مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ) إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة أي أحل لكم نكاح ما سواهن انفرادا وجمعا ولعل إيثار اسم الإشارة المتعرض لوصف المشار اليه وعنوانه على الضمير المتعرض للذات فقط لتذكير ما في كل واحدة منهن من العنوان الذي عليه يدور حكم الحرمة فيفهم مشاركة من في معناهن لهن فيها بطريق الدلالة فان حرمة الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها ليست بطريق العبارة بل بطريق الدلالة كما سلف وقيل

ليس المراد بالاحلال الاحلال مطلقا أى على جميع الأحوال حتى يرد أنه يلزم منه حل الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها بل إنما هو احلالهن فى الجملة أى على بعض الأحوال ولا ريب فى حل نكاحهن بطريق الانفراد ولا يقدح فى ذلك حرمته بطريق الجمع ألا يرى أن حرمة نكاح المعتدة والمطلقة ثلاثا والخامسة ونكاح الامة على الحرة ونكاح الملاعنة لا تقدح فى حل نكاحهن بعد العدة وبعد التحليل وبعد تطليق الرابعة وانقضاء العدة وبعد تطليق الحرة وبعد اكذاب الملاعن نفسه وأنت خبير بأن الحل يجب أن يتعلق ههنا بما تعلق به الحرمة فيما سلف وقد تعلق هناك بالجمع فلا بد أن يتعلق الحل ههنا به أيضاً (أَنْ تَبْتَغُوا) متعلق بالفعلين المذكورين على أنه مفعول له لكن لا باعتبار ذاتهما بل باعتبار بيانهما وإظهارهما أى بين لكم تحريم المحرمات المعدودة واحلال ما سواهن ارادة أن تبتغوا بأموالكم والمفعول محذوف أى تبتغوا النساء أو متروك أى تفعلوا الابتغاء (بِأَمْوَالِكُمْ) بصرفها إلى مهورهن أو بدل اشتمال مما وراء ذلكم بتقدير ضمير المفعول (مُحْصِنِينَ) حال من فاعل تبتغوا والاحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب (غَيْرَ مُسَافِحِينَ) حال ثانية منه أو حال من الضمير فى محصنين والسفاح الزنا والفجور من السفح الذى هو صب المنى سمى به لأنه الغرض منه ومفعول الفعلين محذوف أى محصنين فروجكم غير مسافحين الزوانى وهى فى الحقيقة حال مؤكدة لأن المحصن غير مسافح البتة وما فى قوله تعالى (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ) اما عبارة عن النساء أو عما يتعلق بهن من الأفعال وعلى التقديرين فهى اما شرطية ما بعدها شرطها واما موصولة ما بعدها صلتها وأيا ما كان فهى مبتدأ خبرها على تقدير كونها شرطية اما فعل الشرط أو جوابه أو كلاهما على الخلاف المعروف وعلى تقدير كونها موصولة قوله تعالى (فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ثم على تقدير كونها عبارة عن النساء فالعائد إلى المبتدا هو الضمير المنصوب فى فآتوهن سواء كانت شرطية أو موصولة ومن بيانية أو تبعيضية محلها النصب على الحالية من الضمير المجرور فى به والمعنى فأى فرد استمتعتم به أو فالفرد الذى استمتعتم به حال كونه من جنس النساء أو بعضهن فآتوهن أجورهن وقد روعى تارة بجانب اللفظ فأفرد الضمير أولا وأخرى جانب المعنى فجمع ثانيا وثالثا وأما على تقدير كونها عبارة عما يتعلق بهن فمن ابتدائية متعلقة بالاستمتاع والعائد إلى المبتدا محذوف والمعنى أى فعل استمتعتم به من جهتهن من نكاح أو خلوة أو نحوهما أو فالفعل الذى استمتعتم به من قبلهن من الأفعال المذكورة فآتوهن أجورهن لأجله أو بمقابلته والمراد بالأجور المهور فانها أجور أبضاعهن (فَرِيضَةً) حال من الأجور بمعنى مفروضة أو نعت لمصدر محذوف أى ايتاء مفروضا أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة أى لهن عليكم (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ) أى لا اثم عليكم فيما تراضيتم به من الحط عن المهر أو الابراء منه على طريقة قوله تعالى فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه اثر قوله تعالى وآتوا النساء صدقاتهن وقوله تعالى الا أن يعفون وتعميمه للزيادة على المسمى لا يساعده رفع الجناح عن الرجال لأنها ليست مظنة الجناح إلا أن يجعل الخطاب للأزواج تغليبا فان أخذ الزيادة على المسمى مظنة الجناح على الزوجة وقيل فيما تراضيتم به من نفقة ونحوها وقيل من مقام أو فراق ولا يساعده قوله تعالى (مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ) إذ لا تعلق لهما بالفريضة إلا أن يكون الفراق بطريق المخالعة وقيل نزلت فى المتعة التى هى النكاح إلى وقت معلوم من يوم أو أكثر سميت بذلك لأن الغرض منها مجرد الاستمتاع بالمرأة واستمتاعها بما يعطى وقد أبيحت ثلاثة أيام حين فتحت مكة شرفها الله تعالى ثم نسخت لما روى أنه عليه السلام أباحها ثم أصبح يقول يا أيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا ان الله حرم ذلك إلى يوم القيامة وقيل أبيح مرتين وحرم مرتين وروي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رجع عن القول بجوازه عند

موته وقال اللهم إنى أتوب اليك من قولى بالمتعة وقولى فى الصرف (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا) بمصالح العباد (حَكِيمًا) فيما شرع لهم من الأحكام ولذلك شرع لكم هذه الأحكام اللائقة بحالكم (وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ) من إما شرطية مابعدها شرطها أو موصولة مابعدها صلتها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يستطع أى حال كونه منكم وقوله تعالى (طَوْلًا) أوغنى وسعة أى اعتلاء ونيلا وأصله الزيادة والفضل مفعول ليستطع وقوله عز وجل (أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) امامفعول صريح لطولا فان أعمال المصدر المنون شائع ذائع كما فى قوله تعالى أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة كأنه قيل ومن لم يستطع منكم أن ينال نكاحهن واما بتقدير حرف الجر أى ومن لم يستطع منكم غنى إلى نكاحهن أولنكاحهن فالجار فى محل النصب صفة لطولا أى طولا موصلا اليه أو كائنا له أو على نكاحهن على أن الطول بمعنى القدرة . فى القاموس الطول والطائل والطائلة الفضل والقدرة والغنى والسعة ومحل أن بعد حذف الجار نصب عند سيبويه والفراء وجر عند الكسائى والأخفش وإما بدل من طولا لأن الطول فضل والنكاح قدرة وإما مفعول ليستطع وطولا مصدر مؤكد له لأنه بمعناه إذ الاستطاعة هى الطول أو تمييز أى ومن لم يستطع منكم نكاحهن استطاعة أو من جهة الطول والغنى أى لا من جهة الطبيعة والمزاج فان عدم الاستطاعة من تلك الجهة لا تعلق له بالمقام والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل مقابلتهن بالمملوكات فان حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال وغيرهما من صفات القصور والنقصان وقوله عز وجل (فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم) إما جواب للشرط أو خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط والجار متعلق بفعل مقدر حذف مفعوله وما موصولة أى فلينكح امرأة أو أمة من النوع الذى ملكته ايمانكم وهو فى الحقيقة متعلق بمحذوف وقع صفة لذلك المفعول المحذوف ومن تبعيضية أى فلينكح امرأة كائنة من ذلك النوع وقيل من زائدة والموصول مفعول للفعل المقدر أى فلينكح ماملكته أيمانكم وقوله تعالى (مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) فى محل النصب على الحالية من الضمير المقدر فى ملكت الراجع إلى ما وقيل هو المفعول للفعل المقدر على زيادة من ومما ملكت متعلق بنفس الفعل ومن لابتداء الغاية أو بمحذوف وقع حالا من فتياتكم ومن للتبعيض أى فلينكح فتياتكم كائنات بعض ما ملكت أيمانكم والمؤمنات صفة لفتياتكم على كل تقدير وقيل هو المفعول للفعل المقدر ومما ملكت على ماتقدم آنفا ومن فتياتكم حال من العائد المحذوف وظاهر النظم الكريم يفيد عدم جواز نكاح الأمة للمستطيع كما ذهب اليه الشافعى رحمه الله تعالى وعدم جواز نكاح الأمة الكتابية أصلا كما هو رأى أهل الحجاز وقد جوزهما أبو حنيفة رحمه الله تعالى متمسكا بالعمومات فحمل الشرط والوصف هو الأفضلية ولا نزاع فيها لأحد وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسرا وقوله تعالى (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم) جملة معترضة جىء بها لتأنيسهم بنكاح الاماء واستنزالهم من رتبة الاستنكاف منه ببيان أن مناط التفاضل ومدار التفاخر هو الايمان دون الأحساب والأنساب على مانطق به قوله عز قائلا ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم والمعنى أنه تعالى أعلم منكم بمراتبكم فى الايمان الذى به تنتظم أحوال العباد وعليه يدور فلك المصالح فى المعاش والمعاد ولا تعلق له بخصوص الحرية والرق فرب أمة يفوق ايمانها ايمان الحرائر وقوله تعالى (بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) ان أريد به الاتصال من حيث الدين فهو بيان لتناسبهم من تلك الحيثية اثر بيان تفاوتهم فى ذلك وان أريد به الاتصال من حيث النسب فهو اعتراض آخر مؤكد للتأنيس من جهة أخرى والخطاب فى الموضعين اما لمن كما فى الخطاب الذى يعقبه قد روعى فيما سبق جانب اللفظ وههنا جانب المعنى والالتفات للاهتمام بالترغيب والتأنيس واما لغيرهم من المسلمين

كالخطابات السابقة لحصول الترغيب بخطابهم أيضا وأياما كان فاعادة الامر بالنكاح على وجه الخطاب فى قوله تعالى (فَانْكِحُوهُنَّ) مع انفهامه من قوله تعالى فمما ملكت أيمانكم حسبما ذكر لزيادة الترغيب فى نكاحهن وتقييده بقوله تعالى (بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ) وتصديره بالفاء للايذان بترتبه على ماقبله أى واذ قد وقفتم على جلية الامر فانكحوهن باذن مواليهن ولا تترفعوا عنهن وفى اشتراط اذن الموالى دون مباشرتهن للعقد اشعار بجواز مباشرتهن له (وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أى مهورهن (بِالْمَعْرُوفِ) متعلق بآتوهن أى أدوا اليهن مهورهن بغير مطل وضرار والجاء الى الاقتضاء واللز حسبما يقتضيه الشرع والعادة ومن ضرورته أن يكون الاداء اليهن باذن الموالى فيكون ذكر ايتائهن لبيان جواز الاداء اليهن لا لكون المهور لهن وقيل أصله آتوا مواليهن فحذف المضاف وأوصل الفعل الى المضاف اليه (مُحْصَنَٰتٍ) حال من مفعول فانكحوهن أى حال كونهن عفائف عن الزنا (غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ) حال مؤكدة أى غير مجاهرات به (وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ) عطف على مسافحات ولا لتأكيد ما فى غير من معنى النفى والخدن الصاحب قال أبو زيد الاخدان الاصدقاء على الفاحشة والواحد خدن وخدين والجمع للمقابلة بالانقسام على معنى أن لا يكون لواحدة منهن خدن لا على معنى أن لا يكون لها أخدان أى غير مجاهرات بالزنا ولا مسرات له وكان الزنا فى الجاهلية منقسما إلى هذين القسمين (فَإِذَآ أُحْصِنَّ) أى بالتزويج وقرىء على البناء للفاعل أى أحصن فروجهن أو أزواجهن (فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ) أى فعلن فاحشة وهى الزنا (فَعَلَيْهِنَّ) فثابت عليهن شرعا (نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَٰتِ) أى الحرائر الابكار (مِنَ الْعَذَابِ) من الحد الذى هو جلد مائة فنصفه خمسون كما هو كذلك قبل الاحصان فالمراد بيان عدم تفاوت حدهن بالاحصان كتفاوت حد الحرائر فالفاء فى فان اتين جواب إذا والثانية جواب ان والشرط الثانى مع جوابه مترتب على وجود الاول كما فى قولك إذا أتيتنى فان لم أكرمك فعبدى حر (ذَٰلِكَ) أى نكاح الاماء (لِمَنْ خَشِىَ الْعَنَتَ مِنكُمْ) أى لمن خاف وقوعه فى الإثم الذى تؤدى اليه غلبة الشهوة وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر يعترى الإنسان بعد صلاح حاله ولا ضرر أعظم من مواقعة المآثم بارتكاب أفحش القبائح وقيل أريد به الحد لانه إذا هويها يخشى أن يواقعها فيحد والاول هو اللائق بحال المؤمن دون الثانى لإيهامه أن المحذور عنده الحد لا ما يوجبه (وَأَن تَصْبِرُوا) أى عن نكاحهن متعففين كافين أنفسكم عما تشتهيه من المعاصى (خَيْرٌ لَّكُمْ) من نكاحهن وإن سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق قال عمر رضى الله عنه أيما حر تزوج بأمة فقد أرق نصفه وقال سعيد ابن جبير ما نكاح الامة من الزنا إلا قريب ولأن حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولأن المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد فى السفر والحضر وعلى بيعها للحاضر والبادى وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده مالا مزيد عليه ولأنها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله ذل ومهانة سارية إلى الناكح والعزة هى اللائقة بالمؤمنين ولأن مهرها لمولاها فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج فلا ينتظم أمر المنزل وقد قال عليه السلام الحرائر صلاح البيت والإماء هلاك البيت (وَاللَّهُ غَفُورٌ) مبالغ فى المغفرة فيغفر لمن لم يصبر عن نكاحهن ما فى ذلك من الامور المنافية لحال المؤمنين (رَّحِيمٌ) مبالغ فى الرحمة ولذلك رخص لكم فى نكاحهن (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ) استئناف مسوق لتقرير ماسبق من الاحكام وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الانبياء والصالحين قبل أصل النظم الكريم يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للارادة ومفعول يبين محذوف ثقة بشهادة السباق والسياق أى يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم أو ما تعبدكم به من الحلال والحرام وقيل مفعول يريد محذوف تقديره يريد الله تشريع ما شرع من التحريم

والتحليل لأجل التبيين لكم وهذا مذهب البصريين ويعزى إلى سيبويه وقيل ان اللام بنفسها ناصبة للفعل
من غير اضمار أن وهى وما بعدها مفعول للفعل المتقدم فان اللام قد تقام مقام أن فى فعل الارادة والأمر فيقال
أردت لأذهب وأن أذهب وأمرتك لتقوم وأن تقوم قال تعالى يريدون ليطفئوا نور الله وفى موضع يريدون
أن يطفئوا وقال تعالى وأمرنا لنسلم وفى موضع وأمرت أن أسلم وفى آخر وأمرت لأعدل بينكم أى أن أعدل بينكم
وهذا مذهب الكوفيين ومنعه البصريون وقالوا ان وظيفة اللام هى الجر والنصب فيما قالوا باضمار أن أى أمرنا بما
أمرنا لنسلم ويريدون ما يريدون ليطفئوا وقيل يؤول الفعل الذى قبل اللام بمصدر مرفوع بالابتداء ويجعل ما بعده
خبرا له كما فى تسمع بالمعيدى خير من أن تراه أى أن تسمع به ويعزى هذا الرأى إلى بعض البصريين (وَيَهْدِيَكُمْ
سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم (وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ) إذا تبتم اليه تعالى عما يقع منكم
من التقصير والتفريط فى مراعاة ما كلفتموه من الشرائع فان المكلف قلما يخلو من تقصير يستدعى تلافيه بالتوبة ويغفر
لكم ذنوبكم أو يرشدكم إلى ما يردعكم عن المعاصى ويحثكم على التوبة أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم وليس الخطاب
لجميع المكلفين حتى يتخلف مراده تعالى عن ارادته فيمن لم يتب منهم بل لطائفة معينة حصلت لهم هذه التوبة (وَاللَّهُ
عَلِيمٌ) مبالغ فى العلم بالأشياء التى من جملتها ما شرع لكم من الأحكام (حَكِيمٌ) مراع فى جميع أفعاله الحكمة
والمصلحة (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) جملة مبتدأة مسوقة لبيان كمال منفعة ما أراده الله تعالى وكمال مضرة ما يريد
الفجرة لا لبيان ارادته تعالى لتوبته عليهم حتى يكون من باب التكرير للتقرير ولذلك غير الأسلوب الى الجملة الاسمية
دلالة على دوام الارادة ولم يفعل ذلك فى قوله تعالى (وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ) للاشارة إلى الحدوث وللايماء
إلى كمال المباينة بين مضمونى الجملتين كما مر فى قوله تعالى والله ولى الذين آمنوا الآية والمراد بمتبعى الشهوات الفجرة
فان اتباعها الائتمار بها وأما المتعاطى لما سوغه الشرع من المشتهيات دون غيره فهو متبع له لا لها وقيل هم اليهود
والنصارى وقيل هم المجوس حيث كانوا يحلون الاخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الاخت فلما حرمهن
الله تعالى قالوا فانكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة مع أن العمة والخالة عليكم حرام فانكحوا بنات الأخ والأخت
فنزلت (أَنْ تَمِيلُوا) عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات وتكونوا زناة مثلهم وقرىء بالياء
التحتانية والضمير للذين يتبعون الشهوات (مَيْلًا عَظِيمًا) أى بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندرة بلا
استحلال (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) بما مر من الرخص ما فى عهدتكم من مشاق التكاليف والجملة مستأنفة لا محل
لها من الاعراب (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) عاجزا عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه حيث لا يصبر
عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه فى مشاق الطاعات وعن الحسن ان المراد ضعف الخلقة ولا يساعده المقام فان
الجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقرير ما قبله من التخفيف بالرخصة فى نكاح الاماء وليس لضعف البنية مدخل فى ذلك
وانما الذى يتعلق به التخفيف فى العبادات الشاقة وقيل المراد به ضعفه فى أمر النساء خاصة حيث لا يصبر عنهن وعن
سعيد ابن المسيب ما أيس الشيطان من بنى آدم قط الا أتاهم من قبل النساء فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت إحدى عينى
وأنا أعشو بالأخرى وان أخوف ما أخاف على فتنة النساء وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما وخلق الانسان على البناء
للفاعل والضمير لله عز وجل وعنه رضى الله عنه ثمانى آيات فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس
وغربت يريد الله ليبين لكم والله يريد أن يتوب عليكم يريد الله أن يخفف عنكم ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ان الله
لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ومن يعمل سوءا

أو يظلم نفسه مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم (يٰأَيُّها الذين ءامنوا لاتأكلوا أموٰلكم بينكم بالبٰطل) شروع فى بيان بعض الحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس اثر بيان الحرمات المتعلقة بالابضاع وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لاظهار كمال العناية بمضمونه والمراد بالباطل مايخالف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وغير ذلك مما لم يبحه الشرع أى لا يأكل بعضكم أموال بعض بغير طريق شرعى (إلا أن تكون تجٰرة عن تراض منكم) استثناء منقطع وعن متعلقة بمحذوف وقع صفة لتجارة أى إلا أن تكون التجارة تجارة صادرة عن تراض كما فى قوله :

إذا كان يوما ذا كواكب أشنعا أى إذا كان اليوم يوما الخ أو إلا أن تكون الأموال أموال تجارة وقرىء تجارة بالرفع على أن كان تامة أى ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض أى وقوعها أو ولكن وجود تجارة عن تراض غير منهى عنه وتخصيصها بالذكر من بين سائر أسباب الملك لكونها معظمها وأغلبها وقوعا وأوفقها لذوى المروءات والمراد بالتراضى مراضاة المتبايعين فيما تعاقدا عليه فى حال المبايعة وقت الايجاب والقبول عندنا وعند الشافعى رحمه الله حالة الافتراق عن مجلس العقد (ولا تقتلوا أنفسكم) أى من كان من جنسكم من المؤمنين فان كلهم كنفس واحدة وعن الحسن لاتقتلوا إخوانكم والتعبير عنهم بالأنفس للمبالغة فى الزجر عن قتلهم بتصويره بصورة مالا يكاد يفعله عاقل أو لاتهلكوا أنفسكم بتعريضها للعقاب باقتراف مايفضى اليه فانه القتل الحقيقى لها كما يشعر به إيراده عقيب النهى عن أكل الحرام فيكون مقررا للنهى السابق وقيل لاتقتلوا أنفسكم بالبخع كما يفعله بعض الجهلة أو بارتكاب مايؤدى إلى القتل من الجنايات وقيل بالقائها فى التهلكة وأيد بماروى عن عمرو بن العاص أنه تأوله بالتيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبى عليه الصلاة والسلام وقرىء ولاتقتلوا بالتشديد للتكثير وقد جمع فى التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لما أنه شقيقها من حيث أنه سبب لقوامها وتحصيل كمالاتها واستيفاء فضائلها وتقديم النهى عن التعرض له لكثرة وقوعه (إن الله كان بكم رحيما) تعليل للنهى بطريق الاستئناف أى مبالغا فى الرحمة والرأفة ولذلك نهاكم عما نهى فان فى ذلك رحمة عظيمة لكم بالزجر عن المعاصى وللذين هم فى معرض التعرض لهم بحفظ أموالهم وأنفسهم وقيل معناه انه كان بكم يا أمة محمد رحيما حيث أمر بنى اسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصا لخطاياهم ولم يكلفهم تلك التكاليف الشاقة (ومن يفعل ذٰلك) إشارة إلى القتل خاصة أو لماقبله من أكل الأموال ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهما فى الفساد (عدوٰنا وظلما) أى إفراطا فى التجاوز عن الحد وإتيانا بما لا يستحقه وقيل أريد بالعدوان التعدى على الغير وبالظلم الظلم على النفس بتعريضها للعقاب ومحلهما النصب على الحالية أو على العلية أى معتديا وظالما أو للعدوان والظلم وقرىء عدوانا بكسر العين (فسوف نصليه) جواب للشرط أى ندخله وقرىء بالتشديد من صلى وبفتح النون من صلاه يصليه ومنه شاة مصلية ويصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث أنه سبب للصلى (نارا) أى نارا مخصوصة هائلة شديدة العذاب (وكان ذٰلك) أى اصلاؤه النار (على الله يسيرا) لتحقق الداعى وعدم الصارف وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) أى كبائر الذنوب التى نهاكم الشرع عنها مما ذكر ههنا ومالم يذكر وقرىء كبير على إرادة الجنس (نكفر عنكم) بنون العظمة على طريقة الالتفات وقرىء بالياء بالاسناد اليه تعالى والتكفير إماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة أى نغفر لكم (سيئاتكم) صغائركم ونمحها عنكم. قال المفسرون الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لمابينهن من الصغائر إذا اجتنبت الكبائر واختلف فى الكبائر والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه وقيل ما علم حرمته بقاطع وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنها سبع الاشراك

بالله تعالى وقتل النفس التى حرمها الله تعالى وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف وعقوق الوالدين وعن على رضى الله عنه التعقب بعد الهجرة مكان عقوق الوالدين وزاد ابن عمر رضى الله عنهما السحر واستحلال البيت الحرام وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال له الكبائر سبع قال هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع وروى عنه إلى سبعين إذ لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار وقيل أريد به أنواع الشرك لقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقيل صغر الذنوب وكبرها بالاضافة إلى مافوقها وماتحتها وبحسب فاعلها بل بحسب الأوقات والأماكن أيضا فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس وما بينهما وسايط يصدق عليه الأمران فمن عن له أمران منها ودعت نفسه اليهما بحيث لا يتمالك فكفها عن أكبرهما كفر عنه ما ارتكبه لما استحق على اجتناب الأكبر من الثواب (وَنُدخِلكُم مُّدخَلا) بضم الميم اسم مكان هو الجنة (كَرِيماً) أى حسنا مرضيا أو مصدر ميمى أى ادخالا مع كرامة وقرىء بفتح الميم وهو أيضا يحتمل المكان والمصدر ونصبه على الثانى بفعل مقدر مطاوع للمذكور أى ندخلكم فتدخلون مدخلا أو دخولا كريما كما فى قوله :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال الا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق إلا مسحت الخ (وَلَا تَتَمَنَّوا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعضَكُم عَلى بَعضٍ) أى عليكم ولعل ايثار الابهام عليه للتفادى عن المواجهة بمايشق عليهم . قال القفال لما نهاهم الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس عقبه بالنهى عما يؤدى اليه من الطمع فى أموالهم وتمنيها وقيل نهاهم أولا عن التعرض لأموالهم بالجوارح ثم عن التعرض لها بالقلب على سبيل الحسد لتطهير أعمالهم الظاهرة والباطنة فالمعنى لا تتمنوا ما أعطاه الله تعالى بعضكم من الأمور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك مما يجرى فيه التنافس دونكم فان ذلك قسمة من الله تعالى صادرة عن تدبير لائق بأحوال العباد مترتب على الإحاطة بجلائل شئونهم ودقائقها فعلى كل أحد من المفضل عليهم أن يرضى بما قسم الله له ولا يتمنى حظ المفضل ولا يحسده عليه لما أنه معارضة لحكم القدر المؤسس على الحكم البالغة لا لأن عدمه خير له ولا لأنه لو كان خلافه لكان مفسدة له كما قيل اذ لا يساعده ماسيأتى من الأمر بالسؤال من فضله تعالى فانه ناطق بأن المنهى عنه تمنى نصيب الغير لا تمنى مازاد على نصيبه مطلقا هذا وقد قيل لما جعل الله تعالى فى الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين قالت النساء نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد لأنا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر على طلب المعاش منا فنزلت وهذا هو الانسب بتعليل النهى بقوله عز وجل (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكتَسَبنَ) فانه صريح فى جريان التمنى بين فريق الرجال والنساء ولعل صيغة المذكر فى النهى لما عبر عنهن بالبعض والمعنى لكل من الفريقين فى الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه إياه تأكيدا لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه إلى غيره فان ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمنى المذكور وقوله تعالى (وَسئَلُوا اللهَ مِن فَضلِهِ) عطف على النهى وتوسيط التعليل بينهما لتقرير الانتهاء مع مافيه من الترغيب فى الامتثال بالأمر كأنه قيل لا تتمنوا ما يختص بغيركم من نصيبه المكتسب له واسألوا الله تعالى من خزائن نعمه التى لا نفاد لها وحذف المفعول الثانى للتعميم أى واسألوه ماتريدون فانه تعالى يعطيكموه أو لكونه معلوما من السياق أى واسألوه مثله وقيل من زائدة والتقدير واسألوه فضله وقد جاء فى الحديث لا يتمنين أحدكم مال أخيه ولكن ليقل اللهم ارزقنى اللهم اعطنى مثله وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سلوا الله من فضله فانه يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج وحمل النصيب

على الأجر الأخروى وابقاء الاكتساب على حقيقته بجعل سبب النزول ماروى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل مالهم على أن المعنى لكل من الفريقين نصيب خاص به من الأجر مترتب على عمله فللرجال أجر بمقابلة مايليق بهم من الأعمال كالجهاد ونحوه وللنساء أجر بمقابلة مايليق بهن من الأعمال كحفظ حقوق الأزواج ونحوه فلاتتمن النساء خصوصية أجر الرجال وليسألن من خزائن رحمته تعالى مايليق بحالهن من الأجر لايساعده سياق النظم الكريم المتعلق بالمواريث وفضائل الرجال (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) ولذلك جعل الناس على طبقات ورفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) جملة مبتدأة مقررة لمضمون ماقبلها ولكل مفعول ثان لجعلنا قدم عليه لتأكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل بالبعض دون البعض كما فى قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا أى ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة فى الدرجة يلونها ويحرزون منها أنصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين المورث من العلاقة ومماترك بيان لكل قد فصل بينهما بما عمل فيه كما فصل فى قوله تعالى قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض بين لفظ الجلالة وبين صفته بالعامل فيما أضيف اليه أعنى غير أو ولكل قوم جعلناهم موالى أى وراثا نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين مماترك الولدان والأقربون على أن جعلنا موالى صفة لكل والضمير الراجع اليه محذوف والكلام مبتدأ وخبر على طريقة قولك لكل من خلقه الله إنسانا من رزق الله أى حظ منه وأما ماقيل من أن المعنى لكل أحد جعلنا موالى مما ترك أى وراثا منه على أن من صلة موالى لأنه فى معنى الوارث وفى ترك ضمير مستكن عائد إلى كل وقوله تعالى الوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالى كأنه قيل من هم فقيل الوالدان الخ ففيه تفكيك للنظم الكريم لأن بيان الموالى بماذكر يفوت الابهام المصحح لاعتبار التفاوت بينهم وبه يتحقق الانتظام كما أشير اليه فى تقرير الوجهين الأولين مع مافيه من خروج الأولاد من الموالى إذ لايتناولهم الأقربون كمالايتناول الوالدين (وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) هم موالى الموالاة كان الحليف يورث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض وعند أبى حنيفة رحمه الله إذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح وعليه عقله وله ارثه إن لم يكن له وارث أصلا واسناد العقد إلى الإيمان لأن المعتاد هو المماسحة بها عند العقد والمعنى عقدت أيمانكم عهودهم فحذف العهود وأقيم المضاف اليه مقامه ثم حذف وقرىء عقدت بالتشديد وعاقدت بمعنى عاقدتهم أيمانكم وماسحتموهم وهو مبتدأ متضمن لمعنى الشرط ولذلك صدر الخبر أعنى قوله تعالى (فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ) بالفاء أو منصوب بمضمر يفسره مابعده كقولك زيدا فاضربه أو مرفوع معطوف على الوالدان والأقربون وقوله تعالى فآتوهم الخ جملة مبينة للجملة قبلها ومؤكدة لها والضمير للموالى (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ) من الأشياء التى من جملتها الإيتاء والمنع (شَهِيداً) ففيه وعد ووعيد (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) كلام مستأنف مسوق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة فى الميراث تفصيلا اثر بيان تفاوت استحقاقهم اجمالا وإيراد الجملة اسمية والخبر على صيغة المبالغة للايذان بعراقتهم فى الاتصاف بما أسند اليهم ورسوخهم فيه أى شأنهم القيام عليهن بالأمر والنهى قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي فقيل (بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) الباء سببية متعلقة بقوامون أو بمحذوف وقع حالا من ضميره وما مصدرية والضمير البارز لكلا الفريقين تغليبا أى قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى اياهم عليهن أو ملتبسين بتفضيله تعالى الخ ووضع البعض موضع الضميرين للاشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة إلى التصريح بالمفضل والمفضل عليه أصلا ولمثل ذلك لم يصرح بما به التفضيل من

صفات كماله التى هى كمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأى ومزيد القوة فى الأعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والامامة والولاية واقامة الشعائر والشهادة فى جميع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك (وبما أنفقوا من أموالهم) الباء متعلقة بما تعلقت به الأولى وما مصدرية أو موصولة حذف عائدها من الصلة ومن تبعيضية أو ابتدائية متعلقة بأنفقوا أو بمحذوف وقع حالا من العائد المحذوف أى وبسبب انفاقهم من أموالهم أو بسبب ما أنفقوه من أموالهم أو كائنا من أموالهم وهو ما أنفقوه من المهر والنفقة . روى أن سعد بن الربيع أحد نقباء الانصار رضى الله عنهم نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا فقال عليه السلام لتقتص منه فنزلت فقال عليه السلام أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذى أراده الله خير (فالصالحات) شروع فى تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن أى فالصالحات منهن (قانتات) أى مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج (حافظات للغيب) أى لمواجب الغيب أى لما يجب عليهن حفظه فى حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال . عن النبى صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة ان نظرت اليها سرتك وان أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها وتلا الآية وقيل لأسرارهم واضافة المال اليها للاشعار بأن ماله فى حق التصرف فى حكم مالها كما فى قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية (بما حفظ الله) ما مصدرية أى بحفظه تعالى اياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له أو موصولة أى بالذى حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن وقرىء بما حفظ الله بالنصب على حذف المضاف أى بالأمر الذى حفظ حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال (واللاتى تخافون نشوزهن) خطاب للأزواج وارشاد لهم إلى طريق القيام عليهن والخوف حالة تحصل فى القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند الظن أو العلم بحدوثه وقد يراد به أحدهما أى تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم من النشز وهو المرتفع من الأرض (فعظوهن) فانصحوهن بالترغيب والترهيب (واهجروهن) بعد ذلك ان لم ينفع الوعظ والنصيحة (فى المضاجع) أى فى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع وقيل المضاجع المبايت أى لا تبايتوهن وقرىء فى المضجع وفى المضطجع (واضربوهن) ان لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران ضربا غير مبرح ولا شائن (فإن أطعنكم) بذلك كما هو الظاهر لأنه منتهى ما يعد زاجرا (فلا تبغوا عليهن سبيلا) بالتوبيخ والاذية أى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له (إن الله كان عليا كبيرا) فاحذروه فانه تعالى أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم أو أنه تعالى على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم عند توبتكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند اطاعتهن لكم أو أنه يتعالى ويتكبر أن يظلم أحدا أو ينقص حقه وعدم التعرض لعدم اطاعتهن لهم للايذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يتحقق أو يفرض تحققه وأن الذى يتوقع منهن ويليق بشأنهن لا سيما بعدما كان ما كان من الزواجر هو الاطاعة ولذلك صدرت الشرطية بالفاء المنبئة عن سببية ما قبلها لما بعدها (وإن خفتم شقاق بينهما) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الحكام وارد على بناء الأمر على التقدير المسكوت عنه أعنى عدم الاطاعة المؤدى إلى المخاصمة والمرافعة اليهم والشقاق المخالفة اما لان كلا منهما يريد ما يشق على الآخر واما لان كلا منهما فى شق أى جانب غير شق الآخر والخوف ههنا بمعنى العلم قاله ابن عباس والجزم بوجود الشقاق لا ينافى بعث الحكمين لانه لرجاء ازالته لا لتعرف وجوده بالفعل وقيل بمعنى الظن وضمير التثنية للزوجين وان لم يجر لهما ذكر لجرى ما يدل عليهما واضافة الشقاق إلى الظرف اما على اجرائه مجرى المفعول به كما فى قوله يا سارق الليلة أو مجرى الفاعل كما فى قولك نهاره صائم أى أن علمتم أو ظننتم تأكد المخالفة

بحيث لايقدر الزوج على ازالتها (فابعثوا) أى إلى الزوجين لاصلاح ذات البين (حكما) رجلا وسطا صالحا للحكومة والاصلاح (من أهله) من أهل الزوج (وحكما) آخر على صفة الأول (من أهلها) فان الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح وهذا على وجه الاستحباب فلو نصبا من الأجانب جاز واختلف فى أنهما هل يليان الجمع والتفريق ان رأيا ذلك فقيل لهما ذلك وهو المروى عن على رضى الله عنه وبه قال الشعبى وعن الحسن يجمعان ولا يفرقان وقال مالك لهما أن يتخالعا ان كان الصلاح فيه (إن يريدا) أى الحكمان (إصلاحا) أى ان قصدا اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى (يوفق الله بينهما) يوقع بين الزوجين الموافقة والألفة وألقى فى نفوسهما المودة والرأفة وعدم التعرض لذكر عدم ارادتهما الاصلاح لما ذكر من الايذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يفرض صدوره عنهما وأن الذى يليق بشأنهما ويتوقع صدوره عنهما هو ارادة الاصلاح وفيه مزيد ترغيب للحكمين فى الاصلاح وتحذير عن المساهلة كيلا ينسب اختلال الأمر إلى عدم ارادتهما فان الشرطية الناطقة بدوران وجود التوفيق على وجود الارادة منبئة عن دوران عدمه على عدمها وقيل كلا الضميرين للحكمين أى ان قصدا الاصلاح يوفق الله بينهما فتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل كلاهما للزوجين أى ان أراد اصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله تعالى بينهما الألفة والوفاق وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتوخاه وفقه الله تعالى لمبتغاه (إن الله كان عليما خبيرا) بالظواهر والبواطن فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) كلام مبتدأ مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب ونحوهم اثر بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج صدر بما يتعلق بحقوق الله عز وجل التى هى آكد الحقوق وأعظمها تنبيها على جلالة شأن حقوق الوالدين بنظمها فى سلكها كما فى سائر المواقع وشيئا نصب على أنه مفعول أى لاتشركوا به شيئا من الأشياء صنما أو غيره أو على أنه مصدر أى لاتشركوا به شيئا من الاشراك جليا أو خفيا (وبالوالدين إحسانا) أى أحسنوا بهما احسانا (وبذى القربى) أى بصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك (واليتامى والمساكين) من الأجانب (والجار ذى القربى) أى الذى قرب جواره وقيل الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين وقرىء بالنصب على الاختصاص تعظيما لحق الجار ذى القربى (والجار الجنب) أى البعيد أو الذى لاقرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام وجار له حق واحد وهو حق الجوار وهو الجار من أهل الكتاب وقرىء والجار الجنب (والصاحب بالجنب) أى الرفيق فى أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فانه صحبك وحصل بجانبك ومنهم من قعد بجنبك فى مسجد أو مجلس أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه وقيل هى المرأة (وابن السبيل) هو المسافر المنقطع به أو الضيف (وما ملكت أيمانكم) من العبيد والاماء (إن الله لايحب من كان مختالا) أى متكبرا يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت اليهم (فخورا) يتفاخر عليهم والجملة تعليل للأمر السابق (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) بضم الباء وسكون الخاء وقرىء بفتح الأول وبفتحهما وبضمهما والموصول بدل من قوله تعالى من كان أو نصب على الذم أو رفع عليه أى هم الذين أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) أى من المال والغنى أو من نعوته عليه السلام التى بينها لهم فى التوراة وهو أنسب بأمرهم للناس بالبخل فان أحبارهم كانوا يكتمونها ويأمرون أعقابهم بكتمها (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) وضع الظاهر موضع المضمر اشعارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى ومن كان كافرا بنعمة الله تعالى فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل

والاخفاء والآية نزلت فى طائفة من اليهود كانوا يقولون للانصار بطريق النصيحة لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر وقيل فى الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ) أى للفخار وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا لابتغاء وجه الله تعالى وهو عطف على الذين يبخلون أو على الكافرين وإنما شاركوهم فى الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذى هو الانفاق فيما لا ينبغى من حيث أنهما طرفا تفريط وإفراط سواء فى القبح واستتباع اللائمة والذم ويجوز أن يكون العطف بناء على اجراء التغاير الوصفى مجرى التغاير الذاتى كما فى قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام … وليث الكتائب فى المزدحم

أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى ومن يكن الخ كأنه قيل والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس (وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) ليتحروا بالانفاق مراضيه تعالى وثوابه وهم مشركو مكة المنفقون أموالهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المنافقون (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا) أى فقرينهم الشيطان وإنما حذف للايذان بظهوره واستغنائه عن التصريح به والمراد به إبليس وأعوانه حيث حملوهم على تلك القبائح وزينوها لهم كما فى قوله تعالى إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ويجوز أن يكون وعيدا لهم بان الشيطان يقرن بهم فى النار (وَمَاذَا عَلَيْهِمْ) أى على من ذكر من الطوائف (لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ) أى ابتغاء لوجه الله تعالى وانما لم يصرح به تعويلا على التفصيل السابق واكتفاء بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر فانه يقتضى أن يكون الانفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه البتة أى وما الذى عليهم أو وأى تبعة ووبال عليهم فى الإيمان بالله والانفاق فى سبيله وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد فى الشىء بخلاف ما هو عليه وتحريض على التفكر لطلب الجواب لعله يؤدى بهم الى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة وتنبيه على أن المدعو الى أمر لا ضرر فيه ينبغى أن يجيب اليه احتياطا فكيف اذا كان فيه منافع لا تحصى وتقديم الإيمان بهما لاهميته فى نفسه ولعدم الاعتداد بالانفاق بدونه وأما تقديم انفاقهم رئاء الناس على عدم ايمانهم بهما مع كون المؤخر أقبح من المقدم فلرعاية المناسبة بين انفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به (وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ) وبأحوالهم المحققة (عَلِيمًا) فهو وعيد لهم بالعقاب أو بأعمالهم المفروضة فهو بيان لاثابته تعالى اياهم لو كانوا قد آمنوا وأنفقوا كما ينبىء عنه قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) المثقال مفعال من الثقل كالمقدار من القدر وانتصابه على أنه نعت للمفعول قائم مقامه سواء كان الظلم بمعنى النقص أو بمعنى وضع الشىء فى غير موضعه أى لا ينقص من الاجر ولا يزيد فى العقاب شيئاً مقدار ذرة أو على أنه نعت للمصدر المحذوف نائب منابه أى لا يظلم ظلما مقدار ذرة وهى النملة الصغيرة أو كل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة وهو الانسب بمقام المبالغة فان قلته فى الثقل أظهر من قلة النملة فيه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً) أى وان تك مثقال ذرة حسنة أنث لتأنيث الخبر أو لاضافته الى الذرة وحذف النون من غير قياس تشبيها بحروف العلة وتخفيفا لكثرة الاستعمال وقرىء حسنة بالرفع على أن كان تامة (يُضَاعِفْهَا) أى يضاعف ثوابها جعل ذلك مضاعفة لنفس الحسنة تنبيها على كمال الاتصال بينهما كأنهما شىء واحد وقرىء يضعفها وكلاهما بمعنى واحد وقرىء نضاعفها بنون العظمة على طريقة الالتفات. عن عثمان النهدى أنه قال لابى هريرة رضى الله عنه بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى يعطى عبده المؤمن بالحسنة الف الف حسنة قال ابو هريرة لا بل سمعته صلى الله عليه وسلم يقول يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا هذه الآية الكريمة والمراد الكثرة لا التحديد (وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ) ويعط صاحبها من عنده على نهج التفضل زائدا على

ماوعد فى مقابلة العمل (أجرًا عظيمًا) عطاء جزيلا وإنما سماه أجرًا لكونه تابعا للاجر مزيدا عليه (فكيف) محلها اما الرفع على أنها خبر لمبتدا محذوف واما النصب بفعل محذوف على التشبيه بالحال كما هو رأى سيبويه أو على التشبيه بالظرف كما هو رأى الاخفش أى فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم أو كيف يصنعون (إذا جئنا) يوم القيامة (من كل أمة) من الأمم (بشهيد) يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الأعمال وهو نبيهم كما فى قوله تعالى وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم والعامل فى الظرف مضمون المبتدا والخبر من هول الأمر وعظم الشأن أو الفعل المقدر ومن متعلقة بجئنا (وجئنا بك) يا محمد (على هؤلاء) إشارة الى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر (شهيدا) تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لمجامع قواعدهم وقيل إلى المكذبين المستفهم عن حالهم تشهد عليهم بالكفر والعصيان كما يشهد سائر الانبياء على أممهم وقيل إلى المؤمنين كما فى قوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول) استئناف لبيان حالهم التى أشير إلى شدتها وفظاعتها بقوله تعالى فكيف فان أريد بهم المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتعبير عنهم بالموصول لاسيما بعد الاشارة اليهم بهؤلاء لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه فان حق الرسول أن يؤمن به ويطاع لاأن يكفر به ويعصى وان أريد بهم جنس الكفرة فهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا والمراد بالرسول حينئذ الجنس المنتظم للنبى عليه السلام انتظاما أوليا وأياما كان ففيه من تهويل الأمر وتفظيع الحال مالايقادر قدره وقوله تعالى وعصوا عطف على كفروا داخل معه فى الصلة والمراد معاصيهم المغايرة لكفرهم ففيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع فى حق المؤاخذة وقيل حال من ضمير كفروا وقيل صلة لموصول آخر أى يود فى ذلك اليوم الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول أو الذين كفروا وقد عصوا الرسول أو الذين كفروا والذين عصوا الرسول ولو فى قوله تعالى (لو تسوى بهم الأرض) ان جعلت مصدرية فالجملة مفعول ليود أى يودون أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى وقيل يودون أنهم لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكأنهم والأرض سواء وقيل تصير البهائم ترابا فيودون حالها وان جعلت جارية على بابها فالمفعول محذوف لدلالة الجملة عليه أى يودون تسوية الارض بهم وجواب لو أيضا محذوف إيذانا بغاية ظهوره أى لسروا بذلك وقوله تعالى (ولا يكتمون الله حديثا) عطف على يود أى ولا يقدرون على كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم وقيل الواو للحال اى يودون أن يدفنوا فى الارض وهم لا يكتمون منه تعالى حديثا ولا يكذبونه بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين اذ روى أنهم اذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الأرض وقرىء تسوى على أن أصله تتسوى فأدغم التاء فى السين وقرىء تسوى بحذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى (يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلوة وأنتم سكرى حتى تعلموا ما تقولون) لما نهوا فيما سلف عن الإشراك به تعالى نهوا ههنا عما يؤدى اليه من حيث لايحتسبون فانه روى أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه صنع طعاما وشرابا حين كانت الخمر مباحة فدعا نفرا من الصحابة رضى الله عنهم فأكلوا وشربوا حتى ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلى بهم فقرأ أعبد ما تعبدون فنزلت وتصدير الكلام بحرف النداء والتنبيه للمبالغة فى حملهم على العمل بموجب النهى وتوجيه النهى إلى قربان الصلاة مع أن المراد هو النهى عن إقامتها للمبالغة فى ذلك وقيل المراد النهى عن قربان المساجد لقوله عليه السلام جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ويأباه قوله تعالى حتى تعلموا ما تقولون فالمعنى لاتقيموها فى حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه اذ بتلك التجربة يظهر

أنهم يعلمون ماسيقرؤنه فى الصلاة وحمل ماتقولون على مافى الصلاة يستدعى تقدم الشروع فيها على غاية النهى وحمل العلم على ما بالقوة على معنى حتى تكونوا بحيث تعلمون ماستقرؤنه فى الصلاة تطويل بلاطائل لأن تلك الحيثية إنما تظهر بماذكر من التجربة على أن إيثار ماتقولون على ماتقرؤن حينئذ يكون عاريا عن الداعى وقيل المراد بالسكر سكر النعاس وغلبة النوم وأيا ما كان فليس مرجع النهى هو المقيد مع بقاء القيد مرخصا بحاله بل إنما هو القيد مع بقاء المقيد على حاله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا كأنه قيل يا أيها الذين آمنوا لاتسكروا فى أوقات الصلاة وقد روى أنهم كانوا بعد مانزلت الآية لايشربون الخمر فى أوقات الصلاة فاذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا مايقولون (وَلَا جُنُبًا) عطف على قوله تعالى وأنتم سكارى فانه فى حيز النصب كأنه قيل لاتقربوا الصلاة سكارى ولا جنبا والجنب من أصابه الجنابة يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر (إلا عابِرِى سَبِيلٍ) استثناء مفرغ من أعم الأحوال محله النصب على أنه حال من ضمير لاتقربوا باعتبار تقييده بالحال الثانية دون الأولى والعامل فيه فعل النهى أى لاتقربوا الصلاة جنبا فى حال من الأحوال إلا حال كونكم مسافرين على معنى أن فى حالة السفر ينتهى حكم النهى لكن لا بطريق شمول النفى لجميع صورها بل بطريق نفى الشمول فى الجملة من غير دلالة على انتفاء خصوصية البعض المنتفى ولا على بقاء خصوصية البعض الباقى ولا على ثبوت نقيضه لا كليا ولا جزئيا فان الاستثناء لايدل على ذلك عبارة نعم يشير إلى مخالفة حكم مابعده لما قبله إشارة إجمالية يكتفى بها فى المقامات الخطابية لا فى إثبات الأحكام الشرعية فان ملاك الأمر فى ذلك إنما هو الدليل وقد ورد عقيبه على طريقة البيان وقيل هو صفة لجنبا على أن إلا بمعنى غير أى ولا جنبا غير عابرى سبيل ومن حمل الصلاة على مواضعها فسر العبور بالاجتياز بها وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الشافعى رحمه الله وعندنا لايجوز ذلك إلا أن يكون الماء أو الطريق فيه وقيل ان رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرا إلا فى المسجد فرخص لهم ذلك (حَتَّى تَغْتَسِلُوا) غاية للنهى عن قربان الصلاة حالة الجنابة ولعل تقديم الاستثناء عليه للايذان من أول الأمر بأن حكم النهى فى هذه الصورة ليس على الاطلاق كما فى صورة السكر تشويقا إلى البيان وروما لزيادة تقرره فى الأذهان وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلى حقه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه وأن يزكى نفسه عما يدنسها ولا يكتفى بأدنى مراتب التزكية عند امكان أعاليها (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى) شروع فى تفصيل ما أجمل فى الاستثناء وبيان ما هو فى حكم المستثنى من الاعذار والاقتصار فيما قبل على استثناء السفر مع مشاركة الباقى له فى حكم الترخيص للاشعار بأنه العذر الغالب المنبىء عن الضرورة التى عليها يدور أمر الرخصة كأنه قيل ولا جنبا إلا مضطرين واليه مرجع ماقيل من أنه جعل عابرى سبيل كناية عن مطلق المعذورين والمراد بالمرض مايمنع من استعمال الماء مطلقا سواء كان ذلك بتعذر الوصول اليه أو بتعذر استعماله (أَوْ عَلَى سَفَرٍ) عطف على مرضى أى أو كنتم على سفر ماطال أو قصر وإيراده صريحا مع سبق ذكره بطريق الاستثناء لبناء الحكم الشرعى عليه وبيان كيفيته فان الاستثناء كما أشير اليه بمعزل من الدلالة على ثبوته فضلا عن الدلالة على كيفيته وتقديم المرض عليه للايذان بأصالته واستقلاله بأحكام لاتوجد فى غيره كالاشتداد باستعمال الماء ونحوه (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ) هو المكان الغائر المطمئن والمجىء منه كناية عن الحدث لأن المعتاد أن من يريده يذهب اليه ليوارى شخصه عن أعين الناس وإسناد المجىء منه إلى واحد مبهم من المخاطبين دونهم للتفادى عن التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا منه أو يستهجن التصريح به وكذلك إيثار الكناية فيما عطف عليه من قوله عز وجل (أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) على التصريح بالجماع ونظمهما فى سلك سببى سقوط الطهارة والمصير إلى التيمم مع كونهما سببى وجوبها ليس باعتبار أنفسهما بل باعتبار قيدهما

المستفاد من قوله تعالى (فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً) بل هو السبب فى الحقيقة وإنما ذكرا تمهيدا له وتنبيها على أنه سبب للرخصة بعد انعقاد سبب الطهارة الصغرى والكبرى كأنه قيل أولم تكونوا مرضى أو مسافرين بل كنتم فاقدين الماء بسبب من الأسباب مع تحقق مايوجب استعماله وتخصيص ذكره بهذه الصورة مع أنه معتبر فى صورة المرض والسفر أيضا لندرة وقوعه فيهما واستغنائهما عن ذكره اما لأن الجنابة معتبرة فيهما قطعا فيعلم من حكمها حكم الحدث الأصغر بدلالة النص لأن تقدير النظم لاتقربوا الصلاة فى حال الجنابة إلا حال كونكم مسافرين فان كنتم كذلك أوكنتم مرضى الخ واما لما قيل من أن عموم اعواز الماء فى حق المسافر غالب والعجز عن استعمال الماء القائم مقام عدمه فى حق المريض مغن عن ذكره لفظا وماقيل من أن هذا القيد راجع إلى الكل وأن قيد وجوب التطهر المكنى عنه بالمجيء من الغائط والملامسة معتبر فى الكل مما لايساعده النظم الكريم (فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً) فتعمدوا شيأ من وجه الأرض طاهرا قال الزجاج الصعيد وجه الأرض ترابا أو غيره وإن كان صخرا لاتراب عليه لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله وعند الشافعى رحمه الله لابد أن يعلق باليد شيء من التراب (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ) أى الى المرافقين لما روى أنه عليه السلام تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه ولأنه بدل من الوضوء فيتقدر بقدره (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُوراً) تعليل للترخيص والتيسير وتقرير لهما فان من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين لابد أن يكون ميسرا لامعسرا وقيل هو كناية عنهما فان الترفيه والمسامحة من روادف العفو وتوابع الغفران (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ) كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين وتوجيهه اليه ههنا مع توجيهه فيما بعد إلى الكل معا للايذان بكمال شهرة شناعة حالهم وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها والرؤية بصرية أى ألم تنظر اليهم فانهم أحقاء بأن تشاهدهم وتتعجب من أحوالهم وتجويز كونها قلبية على أن إلى لتضمنها معنى الانتهاء لمافعلوه يأباه مقام تشهير شنائعهم ونظمها فى سلك الأمور المشاهدة والمراد بهم أحبار اليهود. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى حبرين من أحبار اليهود كانا يأتيان رأس المنافقين عبدالله بن أبي ورهطه يثبطانهم عن الإسلام وعنه رضى الله عنه أيضا أنها نزلت فى رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم كانا إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لويا لسانهما وعاباه والمراد بالكتاب هو التوراة وحمله على جنس الكتاب المنتظم لها انتظاما أوليا تطويل للمسافة وبالذى أوتوه مابين لهم فيها من الأحكام والعلوم التى من جملتها ماعلموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الإسلام والتعبير عنه بالنصيب المنبيء عن كونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والمحافظة عليها للايذان بكمال ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضييعا وتنوينه تفخيمى مؤيد للتشنيع عليهم والتعجيب من حالهم فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على كمال شناعتهم والإشعار بمكان ماطوى ذكره فى المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذى هو أحد العوضين وكلمة من متعلقة إما بأوتوا أو بمحذوف وقع صفة لنصيبا مبينة لفخامته الإضافية اثر بيان فخامته الذاتية أى نصيبا كائنا من الكتاب وقوله تعالى (يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ) قيل هو حال مقدرة من واو أوتوا ولاريب فى أن اعتبار تقدير اشترائهم المذكور فى الايتاء مما لايليق بالمقام وقيل هو حال من الموصول أى ألم تنظر اليهم حال اشترائهم وأنت خبير بأنه خال عن إفادة أن مادة التشنيع والتعجيب هو الاشتراء المذكور وماعطف عليه والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أنه استئناف مبين لمناط التشنيع ومدار التعجيب المفهومين من صدر الكلام على وجه الاجمال والابهام مبنى على سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر اليهم فقيل يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهداية وانما طوى ذكر المتروك لغاية ظهوره

الأمر لاسيما بعد الإشعار المذكور والتعبير عن ذلك بالاشتراء الذى هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه أخذا ناشئا عن الرغبة فيها والإعراض عنه للايذان بكمال رغبتهم فى الضلالة التى حقها أن يعرض عنها كل الاعراض واعراضهم عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية ركاكة آرائهم مالا يخفى حيث صورت حالهم بصورة مالا يكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تميز وليس المراد بالضلالة جنسها الحاصل لهم من قبل حتى يخل بمعنى الاشتراء المنبىء عن تأخرها عنه بل هو فردها الكامل وهو عنادهم وتماديهم فى الكفر بعد ما علموا بشأن النبى عليه السلام وتيقنوا بحقية دينه وأنه هو النبى العربى المبشر به فى التوراة ولا ريب فى أن هذه الرتبة لم تكن حاصلة لهم قبل ذلك وقد مر فى أوائل سورة البقرة (وَيُرِيدُونَ) عطف على يشترون شريك له فى بيان محل التشنيع والتعجيب وصيغة المضارع فيهما الدلالة على الاستمرار التجددى فان تجدد حكم اشترائهم المذكور وتكرر العمل بموجبه فى قوة تجدد نفسه وتكرره أى لا يكتفون بضلال انفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان نعوته عليه السلام (أَنْ تَضِلُّوا) أنتم أيضا أيها المؤمنون (السَّبِيلَ) المستقيم الموصل إلى الحق (وَاللَّهُ أَعْلَمُ) أى منكم (بِأَعْدَائِكُمْ) جميعا ومن جملتهم هؤلاء وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون بكم لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم والجملة معترضة لتقرير ارادتهم المذكورة (وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا) فى جميع أموركم ومصالحكم (وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) فى كل المواطن فثقوا به واكتفوا بولايته ونصرته ولا تتولوا غيره أو لا تبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء فانه تعالى يكفيكم مكرهم وشرهم ففيه وعد ووعيد والباء مزيدة فى فاعل كفى لتأكيد الاتصال الاسنادى بالاتصال الاضافى وتكرير الفعل فى الجملتين مع اظهار الجلالة فى مقام الاضمار لاسيما فى الثانى لتقوية استقلالهما المناسب للاعتراض وتأكيد كفايته عز وجل فى كل من الولاية والنصرة والاشعار بعليتهما فان الألوهية من موجباتهما لا محالة (مِنَ الَّذِينَ هَادُوا) قيل هو بيان لاعدائكم وما بينهما اعتراض وفيه أنه لا وجه لتخصيص علمه سبحانه بطائفة من أعدائهم لاسيما فى معرض الاعتراض الذى حقه العموم والاطلاق وانتظام ماهو المقصود فى المقام انتظاما أوليا كما أشير اليه وقيل هو صلة لنصيرا أى ينصركم من الذين هادوا كما فى قوله تعالى فمن ينصرنى من الله وفيه مافيه من تحجير واسع نصرته عز وجل مع أنه لا داعى إلى وضع الموصول موضع ضمير الأعداء لأن مافى حيز الصلة ليس بوصف ملائم للنصر وقيل هو خبر مبتدأ محذوف وقع قوله تعالى (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) صفة له أى من الذين هادوا قوم أو فريق يحرفون الخ وفيه أنه يقتضى كون الفريق السابق بمعزل من التحريف الذى هو المصداق لاشترائهم فى الحقيقة فالذى يليق بشأن التنزيل الجليل أنه بيان للموصول الأول المتناول بحسب المفهوم لأهل الكتابين قد وسط بينهما ما وسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة إلى تنفير المؤمنين منهم وتحذيرهم عن مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل والاكتفاء بولايته ونصرته وان قوله تعالى يحرفون وما عطف عليه بيان لاشترائهم المذكور وتفصيل لفنون ضلالتهم وقد روعيت فى النظم الكريم طريقة التفسير بعد الابهام والتفصيل اثر الاجمال روما لزيادة تقرير يقتضيه الحال والكلم اسم جنس واحده كلمة كتمر وتمرة وتذكير ضميره باعتبار افراده لفظا وجمعية مواضعه باعتبار تعدده معنى وقرىء بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة وقرىء يحرفون الكلام والمراد به ههنا إما مافى التوراة خاصة وإما ما هو أعم منه ومما سيحكى عنهم من الكلمات المعهودة الصادرة عنهم فى أثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مساغ لإرادة تلك الكلمات خاصة بأن يجعل عطف قوله تعالى (وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) الخ على ماقبله عطفا تفسيريا لما ستقف على سره فان أريد به

الأول كما هو رأى الجمهور فتحريفه إزالته عن مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها من التوراة كتحريفهم في نعت النبي عليه السلام أسمر ربعة عن موضعه في التوراة بأن وضعوا مكانه آدم طوال وكتحريفهم الرجم بوضعهم بدله الحد أو صرفه عن المعنى الذي أنزله الله تعالى فيه إلى ما لا صحة له بالتأويلات الزائغة الملائمة لشهواتهم الباطلة وإن أريد به الثاني فلابد من أن يراد بمواضعه ما يليق به مطلقا سواء كان ذلك بتعيينه تعالى صريحا كمواضع ما في التوراة أو بتعيين العقل أو الدين كمواضع غيره وأيا ما كان فقولهم سمعنا وعصينا ينبغي أن يجرى على إطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة بل وأن يحمل على ما هو أعم من القول الحقيقي ومما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم ليندرج فيه ما نطقت به ألسنة حالهم عند تحريف التوراة فان من لا يتفوه بتلك العظيمة لا يكاد يتجاسر على مثل هذه الجناية وإلا لحمله على ما قالوه في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم من القبائح خاصة يستدعي اختصاص حكم الشرطية الآتية وما بعدها بهن من غير تعرض لتحريفهم التوراة مع أنه معظم جناياتهم المعدودة ومن ههنا انكشف لك السر الموعود فتأمل أي يقولون في كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحضر النبي صلى الله عليه وسلم أولا بلسان المقال أو الحال سمعنا وعصينا عنادا وتحقيقا للمخالفة وقوله تعالى (وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ) عطف على سمعنا وعصينا داخل تحت القول أي ويقولون ذلك في أثناء مخاطبته عليه السلام خاصة وهو كلام ذو وجهين محتمل للشر بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاما أصلا بصمم أو موت أي مدعوا عليك بلا سمعت أو غير مسمع كلاما ترضاه فحينئذ يجوز أن يكون نصبه على المفعولية وللخير بأن يحمل على اسمع منا غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين له عليه السلام ارادة المعنى الأخير وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأول مطمئنون به (وَرَاعِنَا) عطف على اسمع غير مسمع أي ويقولون في أثناء خطابهم له عليه السلام هذا أيضا يوردون كلا من العظائم الثلاث في مواقعها وهي أيضا كلمة ذات وجهين محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وانظرنا نكلمك وللشر بحملها على السب بالرعونة أي الحمق أو بإجرائها مجرى ما يشبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهي راعينا كانوا يخاطبونه عليه السلام بذلك ينوون الشتيمة والاهانة ويظهرون التوقير والاحترام ومصيرهم إلى مسلك النفاق في القولين الأخيرين مع تصريحهم بالعصيان في الأول لما قالوا من أن جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء وقيل كانوا يقولون الأول فيما بينهم وقيل يجوز أن لا ينطقوا بذلك ولكنهم لما لم يؤمنوا به جعلوا كأنهم نطقوا به (لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ) أي فتلا بها وصرفا للكلام عن نهجه إلى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع موضع لا أسمعت مكروها وأجروا راعنا المشابهة لراعينا مجرى انظرنا أو فتلا بها وضما لما يظهرونه من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرونه من السب والتحقير (وَطَعْنًا فِي الدِّينِ) أي قدحا فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصابهما على العلية ليقولون باعتبار تعلقه بالقولين الأخيرين أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن في الدين أو على الحالية أي لاوين وطاعنين في الدين (وَلَوْ أَنَّهُمْ) عندما سمعوا شيئا من أوامر الله تعالى ونواهيه (قَالُوا) بلسان المقال أو بلسان الحال مكان قولهم سمعنا وعصينا (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) إنما أعيد سمعنا مع أنه متحقق في كلامهم وإنما الحاجة إلى وضع أطعنا مكان عصينا لا للتنبيه على عدم اعتباره بل على اعتبار عدمه كيف لا وسماعهم سماع الرد ومرادهم بحكايته اعلام أن عصيانهم للامر بعد سماعه والوقوف عليه فلابد من إزالته وإقامة سماع القبول مقامه (وَاسْمَعْ) أي لو قالوا عند مخاطبة النبي عليه الصلاة السلام بدل قولهم اسمع غير مسمع اسمع (وَانْظُرْنَا) أي ولو قالوا ذلك بدل قولهم راعنا ولم يدسوا تحت كلامهم شرا وفسادا أي لو ثبت

أنهم قالوا هذا مكان ماقالوا من الاقوال (لكانَ) قولهم ذلك (خيراً لهُم) مما قالوا (وأقومَ) أى أعدل وأسد فى نفسه وصيغة التفضيل اماعلى بابها واعتبار أصل الفضل فى المفضل عليه بناء على اعتقادهم أوبطريق التهكم واما بمعنى اسم الفاعل وإنما قدم فى البيان حاله بالنسبة اليهم على حاله فى نفسه لأن هممهم مقصورة على ماينفعهم (ولـكن لعنَهُمُ اللهُ بكُفرِهم) أى ولـكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فخذلهم الله تعالى وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم بذلك (فلا يؤمِنونَ) بعدذلك (إلاّ قليلاً) قيل أى إلا إيمانا قليلا لايعبأ به وهو الإيمان ببعض الـكتب والرسل أوالازمانا قليلا وهوزمان الاحتضار فانهم يؤمنون حين لاينفعهم الإيمان قال تعالى وإن من أهل الـكتاب إلاليؤمنن به قبل موته وكلاهما ليس بإيمان قطعاوقد يجوز أن يراد بالقلة العدم بالكلية على طريقة قوله تعالى لايذوقون فيها الموت إلاالموتة الأولى أى إن كان الإيمان المعدوم إيمانا فهم يحدثون شيئا من الإيمان فهو فى المعنى تعليق بالمحال وأنت خبير بأن الكل يأباه مايعقبه من الامر بالإيمان بالقرآن الناطق بهذا لافضائه إلى التكليف بالمحال الذى هو إيمانهم بعدم إيمانهم المستمر أما على الوجه الأخير فظاهر وأما على الأولين فلأن أمرهم بالإيمان المنجز بجميع الـكتب والرسل تكليف لهم بإيمانهم بعدم إيمانهم ببعض الـكتب والرسل وبعدم إيمانهم إلى وقت الاحتضار فالوجه أن يحمل القليل على من يؤمن بعد ذلك لـكن لايجعل المستثنى منه ضمير الفاعل فى لايؤمنون لافضائه إلى وقوع إيمان من لعنه الله تعالى وخذله مع مافيه من نسبة القراء إلى الاتفاق على غير المختار بل يجعله ضمير المفعول فى لعنهم أى ولـكن لعنهم الله إلافريقا قليلا فانه تعالى لم يلعنهم فلم ينسد عليهم باب الإيمان وقد آمن بعدذلك فريق من الاحبار كعبدالله بن سلام وكعب وأضرابهما كماسيأتى (يأيُّها الذينَ أوتُوا الـكِتَـٰبَ) تلوين للخطاب وتوجيه له إما إلى من حكيت أحوالهم وأقوالهم خاصة بطريق الالتفات ووصفهم تارة بإيتاء الـكتاب أى التوراة وأخرى بإيتاء نصيب منها لتوفية كل من المقامين حقه فان المقصود فيماسبق بيان أخذهم الضلالة وإزالة ماأتوه بمقابلتها بالتحريف وليس ماأزالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بإيتائه بل هو بعضها فوصفوا بإيتائه وأماههنا فالمقصود تأكيد إيجاب الامتثال بالأمر الذى يعقبه والتحذير عن مخالفته من حيث أن الإيمان بالمصدق موجب للإيمان بما يصدقه والـكفر بالثانى مقتض للـكفر بالأول قطعا ولاريب فى أن المحذور عندهم إنما هو لزوم الـكفر بالتوراة نفسها لابعضها وذلك إنما يتحقق بجعل القرآن مصدقا لكلها وإن كان مناط التصديق بعضامنها ضرورة أن مصدق البعض مصدق للكل المتضمن له حتما وإما اليهم وإلى غيرهم قاطبة وهو الاظهر وأياما كان فتفصيل ما فصل لما كان من مظان اقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة عقب ذلك بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهداية مشفوعا بالوعيد الشديد على المخالفة فقيل (ءَامِنوا بمَا نزَّلنَا) من القرآن عبر عنه بالموصول تشريفا له بما فى حيز الصلة وتحقيقا لـكونه من عنده عز وجل (مُصَدِّقاً لِمَا مَعكُم) من التوراة عبر عنها بذلك للايذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال فان المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتـكرر المراجعة اليها من موجبات العثور على مافى تضاعيفها المؤدى إلى العلم بكون القرآن مصدقا لها ومعنى تصديقه إياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أوكونه موافقا لها فى القصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما مايتراءى من مخالفته لها فى جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأمم والاعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى عين الموافقة من حيث أن كلامنها حق بالإضافة إلى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لوكان موسى حيا لماوسعه إلااتباعى (مِّن قَبلِ أن نَّطمِسَ وُجوهاً) متعلق

بالأمر مفيد للمسارعة إلى الامتثال به والجد فى الانتهاء عن مخالفته بما فيه من الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وآكده حيث لم يعلق وقوع المتوعد به بالمخالفة ولم يصرح بوقوعه عندها تنبيها على أن ذلك أمر محقق غنى عن الاخبار به وأنه على شرف الوقوع متوجه نحو المخاطبين وفى تنكير الوجوه المفيد للتكثير تهويل للخطب وفى ابهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الايمان وأصل الطمس محو الآثار وإزالة الاعلام أى آمنوا من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونزيل آثارها قال ابن عباس رضى الله عنهما نجعلها كخف البعير أو كحافر الدابة وقال قتادة والضحاك نعميها كقوله تعالى فطمسنا أعينهم وقيل نجعلها منابت الشعر كوجوه القردة (فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا) فنجعلها على هيئة أدبارها وأقفائها مطموسة مثلها فالفاء للتسبيب أو ننكسها بعد الطمس فنردها إلى موضع الاقفاء والاقفاء إلى موضعها وقد اكتفى بذكر أشدهما فالفاء للتعقيب وقيل المراد بالوجوه الوجهاء على ان الطمس بمعنى مطلق التغيير أى من قبل أن نغير أحوال وجهائهم فنسلب اقبالهم ووجاهتهم ونكسوهم صغارا وادبارا أو نردهم من حيث جاؤا منه وهى أذرعات الشام فالمراد بذلك اجلاء بنى النضير ولا يخفى أنه لا يساعده مقام تشديد الوعيد وتعميم التهديد للجميع فالوجه ما سبق من الوجود وقد اختلف فى أن الوعيد هل كان بوقوعه فى الدنيا أو فى الآخرة فقيل كان بوقوعه فى الدنيا ويؤيده ماروى أن عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه لما قدم من الشام وقد سمع هذه الآية أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله فأسلم وقال يارسول الله ما كنت أرى أن أصل اليك حتى يتحول وجهى إلى قفاى وفى رواية جاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام ويده على وجهه وأسلم وقال ما قال وكذا ماروى أن عمر رضى الله عنه قرأ هذه الآية على كعب الاحبار فقال كعب يارب آمنت يارب أسلمت مخافة أن يصيبه وعيدها ثم اختلفوا فقيل انه منتظر بعد ولا بد من طمس فى اليهود ومسخ وهو قول المبرد وفيه أن انصراف العذاب الموعود عن أوائلهم وهم الذين باشروا أسباب نزوله وموجبات حلوله حيث شاهدوا شواهد النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبوها وفى التوراة فحرفوها وأصروا على الكفر والضلالة وتعلق بهم خطاب المشافهة بالوعيد ثم نزوله على من وجد بعد مئات من السنين من أعقابهم الضالين باضلالهم العالمين بما مهدوا من قوانين الغواية بعيد من حكمة الله تعالى العزيز الحكيم وقيل ان وقوعه كان مشروطا بعدم الإيمان وقد آمن من أحبارهم المذكوران وأضرابهما فلم يقع وفيه أن اسلام بعضهم إن لم يكن سببا لتأكد نزول العذاب على الباقين لتشديدهم النكير والعناد بعد ازدياد الحق وضوحا وقيام الحجة عليهم بشهادة أماثلهم العدول فلا أقل من أن لا يكون سببا لرفعه عنهم وقيل كان الوعيد بوقوع أحد الأمرين كما ينطق به قوله تعالى (أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ) فان لم يقع الأمر الأول فلا نزاع فى وقوع الثانى كيف لا وهم ملعونون بكل لسان فى كل زمان وتفسير اللعن بالمسخ ليس بمقرر البتة وأنت خبير بأن المتبادر من اللعن المشبه بلعن أصحاب السبت هو المسخ وليس فى عطفه على الطمس والرد على الادبار شائبة دلالة على عدم إرادة المسخ ضرورة أنه تغيير مغاير لما عطف عليه على أن المتوعد به لابد أن يكون أمرا حادثا مترتبا على الوعيد محذورا عندهم ليكون مزجرة عن مخالفة الأمر ولم يعهد أنه وقع عليهم لعن بهذا الوصف إنما الواقع عليهم ما تداولته الألسنة من اللعن المستمر الذى ألفوه وهو بمعزل من صلاحية أن يكون حكما لهذا الوعيد أو مزجرة للعنيد وقيل إنما كان الوعيد بوقوع ما ذكر فى الآخرة عند الحشر وسيقع فيها لامحالة أحد الأمرين أو كلاهما على سبيل التوزيع وأما ماروى عن عبد الله بن سلام وكعب فبنى على الاحتياط اللائق بشأنهما والحق أن النظم الكريم ليس بنص فى أحد الوجهين بل المتبادر منه بحسب المقام هو الأول لأنه أدخل فى الزجر وعليه مبنى ماروى عن الحبرين لكن لما لم يتضح وقوعه علم أن المراد هو الثانى والله تعالى أعلم وأياما كان فلعل السر فى تخصيصهم بهذه العقوبة

من بين العقوبات مراعاة المشاكلة بينهما وبين ما أوجبها من جنايتهم التى هى التحريف والتغيير والله هو العليم الخبير (وكانَ أمرُ اللهِ) أى ما أمر به كائنا ما كان أو أمره بإيقاع شىء ما من الأشياء (مَفعُولاً) نافذا كائنا لا محالة فيدخل فيه ما أوعدتم به دخولا أوليا فالجملة اعتراض تذييل مقرر لما سبق ووضع الاسم الجليل موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية ما فى الاعتراض من الاستقلال (إنّ اللهَ لا يَغفِرُ أن يُشرَكَ بهِ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونه فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطمعون فى المغفرة كما فى قوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى أى على التحريف ويقولون سيغفر لنا والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاما أوليا فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة وقضى بخلود أصناف الكفرة فى النار ونزوله فى حق اليهود كما قال مقاتل وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه لا يقتضى اختصاصه بكفرهم بل يكفى اندراجه فيه قطعا بل لا وجه له أصلا لاقتضائه جواز مغفرة ما دون كفرهم فى الشدة من أنواع الكفر أى لا يغفر الكفر لمن اتصف به بلا توبة وإيمان لأن الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر وجواز مغفرته بلا إيمان مما يؤدى إلى فتحه ولأن ظلمات الكفر والمعاصى إنما يسترها نور الإيمان فمن لم يكن له إيمان لم يغفر له شىء من الكفر والمعاصى (ويَغفِرُ مَا دُونَ ذلكَ) عطف على خبر إن وذلك إشارة إلى الشرك وما فيه من معنى البعد مع قربه فى الذكر للإيذان ببعد درجته وكونه فى أقصى مراتب القبح أى ويغفر ما دونه فى القبح من المعاصى صغيرة كانت أو كبيرة تفضلا من لدنه وإحسانا من غير توبة عنها لكن لا لكل أحد بل (لِمَن يَشاءُ) أى لمن يشاء أن يغفر له ممن اتصف به فقط لا بما فوقه فإن مغفرتهما لمن اتصف بهما سواء فى استحالة الدخول تحت المشيئة المبنية على الحكمة التشريعية فإن اختصاص مغفرة المعاصى من غير توبة بأهل الإيمان من متممات الترغيب فيه والزجر عن الكفر ومن علق المشيئة بكلا الفعلين وجعل الموصول الأول عبارة عمن لم يتب والثانى عمن تاب فقد ضل سواء الصواب كيف لا وإن مساق النظم الكريم لإظهار كمال عظم جريمة الكفر وامتيازه عن سائر المعاصى ببيان استحالة مغفرته وجواز مغفرتها فلو كان الجواز على تقدير التوبة لم يظهر بينهما فرق للاجماع على مغفرتهما بالتوبة ولم يحصل ما هو المقصود من الزجر البليغ عن الكفر والطغيان والحمل على التوبة والإيمان (ومَن يُشرِكْ باللهِ) اظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لزيادة تقبيح الاشراك وتفظيع حال من يتصف به (فقَدِ افتَرَى إثماً عظيماً) أى افترى واختلق مرتكبا اثما لا يقادر قدره ويستحقر دونه جميع الآثام فلا تتعلق به المغفرة قطعا (ألمْ تَرَ إلى الذينَ يزَكُّونَ أنفُسَهمْ) تعجيب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان والمراد بهم اليهود الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل ناس من اليهود جاؤا بأطفالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هل على هؤلاء ذنب فقال عليه الصلاة والسلام لا قالوا ما نحن إلا كهيئتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار أى انظر اليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ما هم عليه من الكفر والاثم العظيم أو من ادعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شىء من كفره أو معاصيه وفيه تحذير من إعجاب المرء بنفسه وبعمله (بَلِ اللهُ يزَكِّى مَن يَشاءُ) عطف على مقدر ينساق اليه الكلام كأنه قيل هم لا يزكونها فى الحقيقة لكذبهم وبطلان اعتقادهم بل الله يزكى من يشاء تزكيته ممن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين إذ هو العليم الخبير بما ينطوى عليه البشر من المحاسن والمساوى وقد وصفهم الله بما هم متصفون به من القبائح وأصل التزكية نفى ما يستقبح بالفعل أو بالقول (ولا يُظلَمُونَ) عطف على جملة قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها

وإيذانا بأنها غنية عن الذكر أى يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون فى ذلك العقاب (فَتِيلاً) أى أدنى ظلم وأصغره وهو الخيط الذى فى شق النواة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقيل التقدير يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شىء أصلا ولا يساعده مقام الوعيد (انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ) كيف نصب إما على التشبيه بالظرف أو بالحال على الخلاف المشهور بين سيبويه والأخفش والعامل يفترون وبه تتعلق على أى فى أى حال أو على أى حال يفترون عليه تعالى الكذب والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض والنظر متعلق بهما وهو تعجيب إثر تعجيب وتنبيه على أن ما ارتكبوه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجيب ادعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه وافتراؤهم على الله سبحانه فان ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه اياهم تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولكون هذا أشنع من الأول جرما وأعظم قبحا لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى إلى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه وجه النظر إلى كيفيته تشديدا للتشنيع وتأكيدا للتعجيب والتصريح بالكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا للمبالغة فى تقبيح حالهم (وَكَفَى بِهِ) أى بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام (إِثْماً مُبِيناً) ظاهرا بينا كونه إثما والمعنى كفى ذلك وحده فى كونهم أشد إثما من كل كفار أثيم أو فى استحقاقهم لاشد العقوبات لما مر سره وجعل الضمير لزعمهم مما لا مساغ له لاخلاله بتهويل أمر الافتراء فتدبر (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ) تعجيب من حال أخرى لهم ووصفهم بما ذكر من إيتاء النصيب لما مر من منافاته لما صدر عنهم من القبائح وقوله عز وجل (يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ) استئناف مبين لمادة التعجيب مبنى على سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون حين ينظر اليهم فقيل يؤمنون الخ والجبت الاصنام وكل ما عبد من دون الله تعالى فقيل أصله الجبس وهو الذى لا خير عنده فأبدل السين تاء وقيل الجبت الساحر بلغة الحبشة والطاغوت الشيطان قيل هو فى الاصل كل ما يطغى الإنسان . روى أن حيى بن أخطب وكعب بن الاشرف اليهوديين خرجا إلى مكة فى سبعين راكبا من اليهود ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم الينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت لانهم سجدوا للاصنام وأطاعوا ابليس فيما فعلوا وقال أبو سفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا نحن أم محمد فقال ماذا يقول محمد قال يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال وما دينكم قالوا نحن ولاة البيت نسقى الحاج ونقرى الضيف ونفك العانى وذكروا افعالهم فقال أنتم أهدى سبيلا وذلك قوله تعالى (وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أى لاجلهم وفى حقهم (هَؤُلاَءِ) يعنونهم (أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً) أى أقوم دينا وأرشد طريقة وايرادهم بعنوان الإيمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالى تعريفا لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح (أُولَئِكَ) إشارة الى القائلين ومافيه من معنى البعد مع قربهم فى الذكر للاشعار ببعد منزلتهم فى الضلال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ) أى أبعدهم عن رحمته وطردهم والجملة مستأنفة لبيان حالهم واظهار مصيرهم ومآلهم (وَمَن يَلْعَنِ اللهُ) أى يبعده عن رحمته (فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً) يدفع عنه العذاب دنيويا كان أو أخرويا لا بشفاعة ولا بغيرها وفيه تنصيص على حرمانهم مما طلبوا من قريش وفى كلمة لن وتوجيه الخطاب الى كل أحد ممن يتسنى له الخطاب وتوحيد النصير منكرا والتعبير عن عدمه بعدم الوجدان المنبىء عن سبق الطلب مسندا الى المخاطب

العام من الدلالة على حرمانهم الأبدى بالكلية مالايخفى (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ) شروع فى تفصيل بعض آخر من قبائحهم وأم منقطعة وما فيها من بل للاضراب والانتقال من ذمهم بتزكيتهم أنفسهم وغيرها مما حكى عنهم إلى ذمهم بادعائهم نصيبا من الملك وبخلهم المفرط وشحهم البالغ والهمزة لانكار أن يكون لهم مايدعونه وابطال مازعموا أن الملك سيصير اليهم وقوله تعالى (فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا) بيان لعدم استحقاقهم له بل لاستحقاقهم الحرمان منه بسبب أنهم من البخل والدناءة بحيث لو أوتوا شيئاً من ذلك لما أعطوا الناس منه أقل قليل ومن حق من أوتى الملك أن يؤثر الغير بشىء منه فالفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أى ان جعل لهم نصيب منه فاذن لايؤتون الناس مقدار نقير وهو ما فى ظهر النواة من النقرة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفاقرون ويجوز أن لاتكون الهمزة لانكار الوقوع بل لانكار الواقع والتوبيخ عليه أى لعده منكرا غير لائق بالوقوع على أن الفاء للعطف والانكار متوجه إلى مجموع المعطوفين على معنى ألهم نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك نقيرا كما تقول لغنى لايراعى أباه ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أبيك شيئاً وفائدة اذن تأكيد الانكار والتوبيخ حيث يجعلون ثبوت النصيب سبباً للمنع مع كونه سببا للاعطاء وهى ملغاة عن العمل كأنه قيل فلا يأتون الناس اذن وقرىء فاذن لايؤتوا بالنصب على أعمالها (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ) منقطعة أيضا مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذى هو شر الرذائل وأقبحها لاسيما على ماهم بمعزل من استحقاقه واللام فى الناس للعهد والاشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وحمله على الجنس إيذانا بحيازتهم للكمالات البشرية قاطبة فكأنهم هم الناس لاغير لايلائمه ذكر حديث آل ابراهيم فان ذلك لتذكير مابين الفريقين من العلاقة الموجبة لاشتراكهما فى استحقاق الفضل والهمزة لانكار الواقع واستقباحه فانهم كانوا يطمعون أن يكون النبى الموعود منهم فلما خص الله تعالى بتلك الكرامة غيرهم حسدوهم أى بل أيحسدونهم (عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ) يعنى النبوة والكتاب وازدياد العز والنصر يوما فيوما وقوله تعالى (فَقَدْ آتَيْنَا) تعليل للانكار والاستقباح والزام لهم بما هو مسلم عندهم وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرا عن كابر واجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لاظهار كمال العناية بالأمر والمعنى أن حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان فانا قد آتينا من قبل هذا (آلَ إِبْرَاهِيمَ) الذين هم أسلاف محمد عليه الصلاة والسلام وأبناء أعمامه (الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) أى النبوة (وَآتَيْنَاهُم) مع ذلك (مُّلْكًا عَظِيمًا) لايقادر قدره فكيف يستبعدون نبوته عليه الصلاة والسلام ويحسدونه على ايتائها وتكرير الايتاء لما يقتضيه مقام التفضيل مع الاشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة فان أريد به الايتاء بالذات فالمراد بآل ابراهيم أنبياؤهم خاصة والضمير المنصوب فى الفعل الثانى لبعضهم اما بحذف المضاف أو بطريق الاستخدام لما أن الملك لم يؤت كلهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما الملك فى آل ابراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ان أريد به ما يعمه وغيره من الايتاء بالوساطة وهو اللائق بالمقام والأوفق لما قبله من نسبة ايتاء الفضل إلى الناس فالمراد بآل ابراهيم كلهم فان تشريف البعض بما ذكر من ايتاء النبوة والملك تشريف للكل لاعتنائهم بآثاره واقتباسهم من أنواره وفى تفصيل ما أوتوه وتكرير الفعل ووصف الملك بالعظم وتنكيره التفخيمى من تأكيد الالزام وتشديد الانكار مالايخفى هذا هو المتبادر من النظم الكريم واليه جنح جمهور أئمة التفسير لكن الظاهر حينئذ أن يكون قوله تعالى (فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم

مّن صَدّ عنه) حكاية لما صدر عن أسلافهم عقيب وقوع المحكي من غير أن يكون له دخل فى الالزام الذى سيق له الكلام أى فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما أوتى آل ابراهيم ومنهم من أعرض عنه وأما جعل الضميرين لما ذكر من حديث آل ابراهيم فيستدعى تراخى الآية الكريمة عما قبلها نزولا كيف لا وحكاية ايمانهم بالحديث المذكور وإعراضهم عنه بصيغة الماضى إنما يتصور بعد وقوع الايمان والاعراض المتأخرين عن سماع الحديث المتأخر عن نزوله وكذا جعلهم الرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ الظاهر بيان حالهم بعد هذا الالزام وحمله على حكاية حالهم السابقة لا تساعده الفاء المرتبة لما بعدها على ما قبلها ولا يبعد كل البعد أن تكون الهمزة لتقرير حسدهم وتوبيخهم بذلك ويكون قوله تعالى فقد آتينا الآية تعليلا له بدلالته على اعراضهم عما أوتى آل ابراهيم وإن لم يذكر كونه بطريق الحسد كأنه قيل بل أيحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يؤمنون به وذلك ديدنهم المستمر فانا قد آتينا آل ابراهيم ما آتيناهم فمنهم أى من جنسهم من آمن بما آتيناهم ومنهم من أعرض عنه ولم يؤمن والله سبحانه أعلم وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (وكفى بجهنم سعيراً) نارا مسعرة يعذبون بها والجملة تذييل لما قبلها (إن الذين كفروا بآياتنا) ان أريد بهم الذين كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد بالآيات اما القرآن أو ما يعم كله وبعضه أو ما يعم سائر معجزاته أيضا وان أريد بهم الجنس المتناول لهم تناولا أوليا فالمراد بالآيات ما يعم المذكورات وسائر الشواهد التى أوتيها الأنبياء عليهم السلام (سوف نصليهم ناراً) قال سيبويه سوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد وينوب عنها السين وقد يذكران فى الوعد فيفيدان التأكيد أى ندخلهم نارا عظيمة هائلة (كلما نضجت جلودهم) أى احترقت وكلما ظرف زمان والعامل فيه (بدلناهم جلوداً غيرها) من قبيل بدله بخوفه أمنا لا من قبيل يبدل الله سيئاتهم حسنات أى أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلدا جديدا مغايرا للمحترق صورة وان كان عينه مادة بأن يزال عنه الاحتراق ليعود احساسه للعذاب والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير نصليهم وقد جوز كونها صفة لنارا على حذف العائد أى كلما نضجت فيها جلودهم فمعنى قوله تعالى (ليذوقوا العذاب) ليدوم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله وقيل يخلق مكانه جلدا آخر والعذاب للنفس العاصية لا لآلة ادراكها كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يبدلون جلودا بيضاء كأمثال القراطيس وروى أن هذه الآية قرئت عند عمر رضى الله تعالى عنه فقال للقارىء أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدل فى ساعة مائة مرة فقال عمر رضى الله عنه هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع وعن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام والتعبير عن ادراك العذاب بالذوق ليس لبيان قلته بل لبيان أن احساسهم بالعذاب فى كل مرة كاحساس الذائق بالمذوق من حيث أنه لا يدخله نقصان بدوام الملابسة أو للاشعار بمرارة العذاب مع ايلامه أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث أن القوة الذائقة أشد الحواس تأثرا أو على سرايته للباطن ولعل السر فى تبديل الجلود مع قدرته تعالى على ابقاء إدراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق أو مع ابقاء أبدانهم على حالها مصونة عن الاحتراق أن النفس ربما تتوهم زوال الادراك بالاحتراق ولا تستبعد كل الاستبعاد أن تكون مصونة عن التألم والعذاب صيانة بدنها عن الاحتراق (إن الله كان عزيزاً) لا يمتنع عليه ما يريده ولا يمانعه أحد (حكيماً) يعاقب من يعاقبه على وفق حكمته والجملة تعليل لما قبلها من الاصلاء والتبديل واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتهويل الأمر وتربية

المهابة وتعليل الحكم فان عنوان الألوهية مناط لجميع صفات كماله تعالى (والذين ءامنوا وعملوا الصالحات) عقب بيان سوء حال الكفرة ببيان حسن حال المؤمنين تكميلا لمساءة الأولين ومسرة الآخرين أى الذين آمنوا بآياتنا وعملوا بمقتضياتها وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وقرىء سيدخلهم بالياء ردا على الاسم الجليل وفى السين تأكيد للوعد (خالدين فيها أبدا) حال مقدرة من الضمير المنصوب فى سندخلهم وقوله عز وعلا (لهم فيها أزواج مطهرة) أى مما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة البدنية والأدناس الطبيعية فى محل النصب على أنه حال من جنات أو حال ثانية من الضمير المنصوب أو على أنه صفة لجنات بعد صفة أو فى محل الرفع على أنه خبر للموصول بعد خبر (وندخلهم ظلا ظليلا) أى فينانا لاجوب فيه دائما لا تنسخه شمس اللهم ارزقنا ذلك بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل للتأكيد كما فى ليل أليل ويوم أيوم وقرىء يدخلهم بالياء وهو عطف على سيدخلهم لا على أنه غير الادخال الأول بالذات بل بالعنوان كما فى قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فى تصدير الكلام بكلمة التحقيق واظهار الاسم الجليل وايراد الأمر على صورة الاخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه مالا مزيد عليه وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة كما أن الامانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية وان ورد فى شان عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان رضى الله عنه باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح اليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى على ابن أبى طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل النبى صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزلت فأمر عليا أن يرده إلى عثمان ويعتذر اليه فقال عثمان لعلى أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال لقد أنزل الله تعالى فى شأنك قرآنا فقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة فى أولاد عثمان أبدا وقرىء الامانة على التوحيد والمراد الجنس لا المعهود وقيل هو أمر للولاة باداء الحقوق المتعلقة بذممهم من المناصب وغيرها إلى مستحقيها كما أن قوله تعالى (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أمر لهم بايصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها وحيث كان المأمور به ههنا مختصا بوقت المرافعة قيد به بخلاف المأمور به أولا فانه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق اطلاقا فقوله تعالى أن تحكموا عطف على أن تؤدوا وقد فصل بين العاطف والمعطوف بالظرف المعمول له عند الكوفيين والمقدر يدل هو عليه عند البصريين لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها عندهم أى وأن تحكموا إذا حكمتم الخ وقوله تعالى بالعدل متعلق بتحكموا أو بمقدر وقع حالا من فاعله أى ملتبسين بالعدل والانصاف (إن الله نعما يعظكم به) ما اما منصوبة موصوفة بيعظكم به أو مرفوعة موصولة به كأنه قيل نعم شيئا يعظكم به أو نعم الشىء الذى يعظكم به والمخصوص بالمدح محذوف أى نعما يعظكم به ذلك هو المأمور به من أداء الأمانات والعدل فى الحكومات وقرىء نعما بفتح النون والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة لمزيد لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الامتثال بالأمر واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة (إن الله كان سميعا) لأقوالكم (بصيرا) بأفعالكم فهو وعد ووعيد واظهار الجلالة لما ذكر آنفا فان فيه تأكيدا لكل من الوعد والوعيد (يا أيها الذين ءامنوا) بعدما أمر الولاة بطريق العموم أو بطريق الخصوص بأداء الأمانات والعدل فى الحكومات

أمر سائر الناس بطاعتهم لكن لا مطلقا بل فى ضمن طاعة الله تعالى وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل (أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ) وهم امراء الحق وولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام فى وجوب الطاعة لهم وقيل هم علماء الشرع لقوله تعالى ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ويأباه قوله تعالى (فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله) إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد فى حكمه الا أن يجعل الخطاب لأولى الأمر بطريق الالتفات وفيه بعد وتصدير الشرطية بالفاء لترتبها على ماقبلها فان بيان حكم طاعة أولى الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول عليه السلام يستدعى بيان حكمها عند المخالفة أى ان اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم فى أمر من أمور الدين فراجعوا فيه إلى كتاب الله (والرسول) أى إلى سنته وقد استدل به منكر والقياس وهو فى الحقيقة دليل على حجيته كيف لا ورد المختلف فيه إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو المعنى بالقياس ويؤيده الأمر به بعد الأمر بطاعة الله تعالى وبطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فانه يدل على أن الأحكام ثلاثة ثابت بالكتاب وثابت بالسنة وثابت بالرد اليهما بالقياس (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) متعلق بالأمر الأخير الوارد فى محل النزاع اذ هو المحتاج الى التحذير من المخالفة وجواب الشرط محذوف عند جمهور البصريين ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوه الخ فان الايمان بهما يوجب ذلك أما الايمان بالله تعالى فظاهر وأما الايمان باليوم الآخر فلما فيه من العقاب على المخالفة (ذلك) أى الرد المأمور به (خير) لكم وأصلح (وأحسن) فى نفسه (تأويلا) أى عاقبة ومآلا وتقديم خيريته لهم على احسنيته فى نفسه لما مر من تعلق أنظارهم بما ينفعهم والمراد بيان اتصافه فى نفسه بالخيرية الكاملة والحسن الكامل فى حد ذاته من غير اعتبار فضله على شئ يشاركه فى أصل الخيرية والحسن كما ينبئ عنه التحذير السابق (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجيبا له من حال الذين يخالفون ما مر من الأمر المحتوم ولا يطيعون الله ولا رسوله ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن وبما أنزل من قبله أعنى التوراة لتأكيد التعجيب وتشديد التوبيخ والاستقباح ببيان كمال المباينة بين دعواهم وبين ماصدر عنهم وقرئ الفعلان على البناء للفاعل وقوله عز وجل (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) استئناف سيق لبيان محل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون فقيل يريدون الخ . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى كعب بن الاشرف ثم أنهما احتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودى فلم يرض به المنافق فدعاه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال اليهودى قضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق أهكذا قال نعم فقال عمر مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وقال ان عمر فرق بين الحق والباطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق فالطاغوت كعب بن الاشرف سمى به لافراطه فى الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه أو جعل اختيار التحاكم إلى غير النبى صلى الله عليه وسلم على التحاكم اليه تحاكما إلى الشيطان وقال الضحاك المراد بالطاغوت كهنة اليهود وسحرتهم وعن الشعبى أن المنافق دعا خصمه إلى كاهن فى جهينة فتحاكما اليه وعن السدى أن الحادثة وقعت فى قتيل بين بنى قريظة والنضير فتحاكم المسلمون من الفريقين إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى المنافقون

منهما الا التحاكم إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي فتحاكموا اليه فيكون الاقتصار حينئذ فى معرض التعجب والاستقباح على ذكر إرادة التحاكم دون نفسه مع وقوعه أيضا للتنبيه على أن ارادته مما يقضى منه العجب ولا ينبغي أن يدخل تحت الوقوع فما ظنك بنفسه وهذا أنسب بوصف المنافقين بادعاء الايمان بالتوراة فانه كما يقتضى كونهم من منافقى اليهود يقتضى كون ماصدر عنهم من التحاكم ظاهر المنافاة لادعاء الايمان بالتوراة وليس التحاكم إلى كعب بن الأشرف بهذه المثابة من الظهور وأيضا فالمتبادر من قوله تعالى (وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ) كونهم مأمورين بكفره فى الكتابين وماذاك إلا الشيطان وأولياؤه المشهورون بولايته كالكهنة ونظائرهم لامن عداهم ممن لم يشتهر بذلك وقرىء أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمع كما فى قوله تعالى أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم والجملة حال من ضمير يريدون مفيدة لتأكيد التعجب وتشديد الاستقباح كالوصف السابق وقوله عز وعلا (وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا) عطف على يريدون داخل فى حكم التعجب فان اتباعهم لمن يريد اضلالهم واعراضهم عمن يريد هدايتهم أعجب من كل عجيب وضلالا امامصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد كما فى قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا أى اضلالا بعيدا وامامصدر مؤكد لفعله المدلول عليه بالفعل المذكور أى فيضلوا ضلالا وأياما كان فوصفه بالبعد الذى هو نعت موصوفه للمبالغة وقوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ) تكملة لمادة التعجب ببيان اعراضهم صريحا عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله اثر بيان اعراضهم عن ذلك فى ضمن التحاكم إلى الطاغوت وقرىء تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل تخفيفا كما فى قولهم ماباليت بالة أصلها بالية كعافية وكما قالوا فى آية أن أصلها أيية فحذفت اللام ووقعت واو الجمع بعد اللام فى تعالى فضمت فصار تعالوا ومنه قول أهل مكة للمرأة تعالى بكسر اللام وعليه قول أبى فراس الحمدانى : أياجارتى ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى

(رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ) اظهار المنافقين فى مقام الاضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والاشعار بعلة الحكم والرؤية بصرية وقوله تعالى (يَصُدُّونَ عَنْكَ) حال من المنافقين وقيل الرؤية قلبية والجملة مفعول ثان لها والأول هو الانسب بظهور حالهم وقوله تعالى (صُدُودًا) مصدر مؤكد لفعله أى يعرضون عنك اعراضا وأى اعراض وقيل هو اسم للمصدر الذى هو الصد والأظهر أنه مصدر لصد اللازم والصد مصدر للمتعدى يقال صد عنه صدودا أى أعرض عنه وصده عنه صدا أى منعه منه وقوله تعالى (فَكَيْفَ) شروع فى بيان غائلة جناياتهم المحكية ووخامة عاقبتها أى كيف يكون حالهم (إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ) أى وقت اصابة المصيبة اياهم بافتضاحهم بظهور نفاقهم (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) بسبب ماعملوا من الجنايات التى من جملتها التحاكم إلى الطاغوت والاعراض عن حكمك (ثُمَّ جَاءُوكَ) للاعتذار عما صنعوا من القبائح وهو عطف على أصابتهم والمراد تفظيع حالهم وتهويل مادهمهم من الخطب واعتراهم من شدة الأمر عند إصابة المصيبة وعند المجىء للاعتذار (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ) حال من فاعل جاؤك (إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) أى ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك الا الفصل بالوجه الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا لحكمك فلا تؤاخذنا بما فعلنا وهذا وعيد لهم على مافعلوا وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ولا يغنى عنهم الاعتذار وقيل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله تعالى فقالوا ما أردنا أى ما أراد صاحبنا المقتول بالتحاكم الى عمر رضى الله تعالى عنه الا أن يحسن اليه ويوفق بينه وبين خصمه (أُولَئِكَ) اشارة الى المنافقين ومافيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والنفاق وهو مبتدأ خبره (الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) أى من فنون الشرور والفسادات المنافية لما أظهروا لك من الاكاذيب (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) جواب شرط محذوف أى إذا كان حالهم كذلك فأعرض عن قبول معذرتهم وقيل عن عقابهم لمصلحة فى

استبقائهم ولا تظهر لهم علمك بما فى بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر (وَعِظْهُمْ) أى ازجرهم عن النفاق والكيد (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ) فى حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على الشرور التى يعلمها الله تعالى أو فى أنفسهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا بالنصيحة لانها فى السر أنجع (قَوْلاً بَلِيغاً) مؤثرا واصلا الى كنه المراد مطابقا لما سيق له من المقصود فالظرف على التقديرين متعلق بالامر وقيل متعلق ببليغا على رأى من يجيز تقديم معمول الصفة على الموصوف أى قل لهم قولا بليغا فى أنفسهم مؤثرا فى قلوبهم يغتمون به اغتماما ويستشعرون منه الخوف استشعارا وهو التوعد بالقتل والاستئصال والايذان بأن مافى قلوبهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى وأن ذلك مستوجب لأشد العقوبات وانما هذه المكافأة والتأخير لاظهارهم الايمان والطاعة واضمارهم الكفر ولئن أظهروا الشقاق وبرزوا بأشخاصهم من نفق النفاق ليمسنهم العذاب ان الله شديد العقاب (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) كلام مبتدأ جىء به تمهيدا لبيان خطئهم فى الاشتغال بستر جناياتهم بالاعتذار بالاباطيل وعدم تلافيها بالتوبة أى وما أرسلنا رسولا من الرسل لشىء من الاشياء الا ليطاع بسبب اذنه تعالى فى طاعته وأمره المرسل اليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لأنه مؤدعنه تعالى فطاعته طاعة الله تعالى ومعصيته معصيته تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه فى طاعته (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) وعرضوها لعذاب على عذاب النفاق بترك طاعتك والتحاكم الى غيرك (جَاءُوكَ) من غير تأخير كما يفصح عنه تقديم الظرف متوسلين بك فى التنصل عن جناياتهم القديمة والحادثة ولم يزدادوا جناية على جناية بالقصد الى سترها بالاعتذار الباطل والايمان الفاجرة (فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ) بالتوبة والاخلاص وبالغوا فى التضرع اليك حتى انتصبت شفيعا لهم الى الله تعالى واستغفرت لهم وانما قيل (وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ) على طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعته فى حيز القبول (لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) لعلموه مبالغا فى قبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة وان فسر الوجدان بالمصادفة كان قوله تعالى توابا حالا ورحيما بدلا منه أو حالا من الضمير فيه وأياما كان ففيه فضل ترغيب للسامعين فى المسارعة الى التوبة والاستغفار ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على ماصنعوا لما أن ظهور تباشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارهما نعمة زائدة عليهما موجبة لكمال الرغبة فى تحصيلها وتمام الحسرة على فواتها (فَلَا وَرَبِّكَ) أى فوربك ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد النفى فى جوابه أعنى قوله (لَا يُؤْمِنُونَ) لأنها تزاد فى الاثبات أيضا كما فى قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم ونظائره (حَتَّى يُحَكِّمُوكَ) أى يتحاكموا اليك ويترافعوا اليك وانما جىء بصيغة التحكيم مع أنه عليه الصلاة والسلام حاكم بأمر الله سبحانه ايذانا بأن حقهم أن يجعلوه حكما فيما بينهم ويرضوا بحكمه وان قطع النظر عن كونه حاكما على الاطلاق (فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) أى فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه (ثُمَّ لَا يَجِدُوا) عطف على مقدر ينساق اليه الكلام أى فتقضى بينهم ثم لايجدوا (فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً) ضيقا (مِمَّا قَضَيْتَ) أى مما قضيت به أو من قضائك وقيل شكا من أجله إذ الشاك فى ضيق من أمره (وَيُسَلِّمُوا) أى ينقادوا لأمرك ويذعنوا له (تَسْلِيماً) تأكيد للفعل بمنزلة تكريره أى تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم يقال سلم لأمر الله وأسلم له بمعنى وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها اذا جعلها سالمة له خالصة أى ينقادوا لحكمك انقيادا لاشبهة فيه بظاهرهم وباطنهم قيل نزلت فى شأن المنافق واليهودى وقيل فى شأن الزبير ورجل من الانصار حين اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل فقال عليه الصلاة والسلام اسق يازبير ثم ارسل الماء إلى جارك فغضب الانصارى وقال لأن كان ابن عمتك فتغير وجه رسول الله صلى

الله عليه وسلم ثم قال اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر واستوف حقك ثم أرسله إلى جارك كان قد أشار على الزبير برأى فيه سعة له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعب للزبير حقه فى صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد بن الأسود فقال لمن القضاء فقال الأنصارى قضى لابن عمته ولوى شدقه ففطن يهودى كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فى قضاء يقضى بينهم وأيم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى فدعانا إلى التوبة منه وقال اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله ان الله ليعلم منى الصدق لو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لقتلتها وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار ابن ياسر رضى الله عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ان من أمتى رجالا الايمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى فنزلت فى شأن هؤلاء (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم) أى لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى اسرائيل من قتلهم أنفسهم أوخروجهم من ديارهم حين استتابتهم من عبادة العجل وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا فى معنى أمرنا (مَّا فَعَلُوهُ) أى المكتوب المدلول عليه بكتبنا أو أحد مصدرى الفعلين (إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ) أى إلا أناس قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال والله لو أمرنا ربنا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك وقيل معنى اقتلوا أنفسكم تعرضوا بها للقتل بالجهاد وهو بعيد وقرىء إلا قليلا بالنصب على الاستثناء أو الافعلا قليلا (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ) من متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهرا وباطنا وسميت أوامر الله تعالى ونواهيه مواعظ لاقترانها بالوعد والوعيد (لَكَانَ) أى فعلهم ذلك (خَيْرًا لَّهُمْ) عاجلا وآجلا (وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا) لهم على الايمان وأبعد من الاضطراب فيه وأشد تثبيتا لثواب أعمالهم (وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا) جواب لسؤال مقدر كأنه قيل وماذا يكون لهم بعد التثبيت فقيل واذن لو ثبتوا لآتيناهم فان اذن جواب وجزاء (وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) يصلون بسلوكه إلى عالم القدس ويفتح لهم أبواب الغيب قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم مالم يعلم (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ) كلام مستأنف فيه فضل ترغيب فى الطاعة ومزيد تشويق اليها ببيان أن نتيجتها أقصى ماينتهى اليه هم الأمم وأرفع مايمتد اليه أعناق عزائمهم من مجاورة أعظم الخلائق مقدارا وأرفعهم منارا متضمن لتفسير ما أبهم فى جواب الشرطية السابقة وتفصيل ما أجمل فيه والمراد بالطاعة هو الانقياد التام والامتثال الكامل لجميع الأوامر والنواهى (فَأُولَٰئِكَ) إشارة إلى المطيعين والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى فعل الشرط باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد مع القرب فى الذكر للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف وهو مبتدأ خبره (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم) والجملة جواب الشرط وترك ذكر المنعم به للاشعار بقصور العبارة عن تفصيله وبيانه (مِّنَ النَّبِيِّينَ) بيان للمنعم عليهم والتعرض لمعية سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أن الكلام فى بيان حكم طاعة نبينا عليه الصلاة والسلام لجريان ذكرهم فى سبب النزول مع مافيه من الاشارة إلى أن طاعته عليه الصلاة والسلام متضمنة لطاعتهم لاشتمال شريعته على شرائعهم التى لاتتغير بتغير الأعصار روى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يانبى الله ان صرنا إلى الجنة تفضلنا بدرجات النبوة فلانراك وقال الشعبى جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال مايبكيك يافلان فقال يارسول الله بالله الذى لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من نفسى وأهلى ومالى وولدى وإنى لأذكرك وأنا فى أهلى فيأخذنى مثل الجنون حتى أراك وذكرت موتى وأنك ترفع مع النبيين وإنى ان أدخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك فلم

يرد النبي عليه الصلاة والسلام فنزلت وروى أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له عليه الصلاة والسلام قليل الصبر عنه فأتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال يارسول الله مابي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت اليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وان أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك وان لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى أكون أحب اليه من نفسه وأبويه وأهله وولده والناس أجمعين وحكى ذلك عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وروى أن أنسا قال يارسول الله الرجل يحب قوما ولما يلحق بهم قال عليه الصلاة والسلام المرء مع من أحب (وَٱلصِّدِّيقِينَ) أى المتقدمين فى تصديقهم المبالغين فى الصدق والإخلاص فى الأقوال والأفعال وهم أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأماثل خواصهم المقربين كأبي بكر الصديق رضى الله عنه (وَٱلشُّهَدَاءِ) الذين بذلوا أرواحهم فى طاعة الله تعالى واعلاء كلمته (وَٱلصَّٰلِحِينَ) الصارفين أعمارهم فى طاعته وأموالهم فى مرضاته وليس المراد بالمعية الاتحاد فى الدرجة ولا مطلق الاشتراك فى دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وزيارته متى أرادوان بعد ما بينهما من المسافة (وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقاً) الرفيق الصاحب مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب واللطافة فى المعاشرة قولا وفعلا فان جعل أولئك إشارة إلى النبيين ومن بعدهم على أن مافيه من معنى البعد لما مر مرارا فرفيقا اما تمييز أوحال على معنى أنهم وصفوا بالحسن من جهة كونهم رفقاء للمطيعين أوحال كونهم رفقاء لهم وافراده لما أنه كالصديق والخليط والرسول يستوى فيه الواحد والمتعدد أو لأنه أريد حسن كل واحد منهم رفيقا وان جعل إشارة إلى المطيعين فهو تمييز على معنى أنهم وصفوا بحسن الرفيق من النبيين ومن بعدهم لا بنفس الحسن فلا يجوز دخول من عليه كما يجوز فى الوجه الأول والجملة تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب والتشويق قيل فيه معنى التعجب كأنه قيل وما أحسن أولئك رفيقا ولاستقلاله بمعنى التعجب قرىء وحسن بسكون السين (ذَٰلِكَ) اشارة إلى ما للمطيعين من عظيم الأجر ومزيد الهداية ومرافقة هؤلاء المنعم عليهم أو إلى فضلهم ومزيتهم ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى (الفَضْلُ) صفته وقوله تعالى (مِنَ ٱللَّهِ) خبره أى ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره أو الفضل خبره ومن الله متعلق بمحذوف وقع حالا منه والعامل فيه معنى الإشارة أى ذلك الذى ذكر فضل كائنا من الله تعالى لا أن أعمال المكلفين توجبه (وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيماً) بجزاء من أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ) الحذر والحذر واحد كالاثر والأثر والشبه والشبه أى تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم يقال أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف كأنه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه وقيل هو مايحذر به من السلاح والحزم أى استعدوا للعدو (فَٱنفِرُواْ) بكسر الفاء وقرىء بضمها أى اخرجوا الى الجهاد عند خروجكم (ثُبَاتٍ) جمع ثبة وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة ووزنها فى الأصل فعلة كحطمة حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث وهل هى واو أوياء فيه قولان قيل أنها مشتقة من ثبا يثبو كحلا يحلو أى اجتمع وقيل من ثبيت على الرجل إذا أثنيت عليه كأنك جمعت محاسنه ويجمع أيضا على ثبين جبرا لما حذف من عجزه ومحلها النصب على الحالية أى انفروا جماعات متفرقة سرية بعد سرية (أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعاً) أى مجتمعين كوكبة واحدة ولا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم إلى التهلكة (وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ) أى ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد من بطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى أعتم والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم المؤمنين منهم والمنافقين

والمبطئون منافقوهم الذين تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد أو ليبطئن غيره ويثبطنه من بطأ منقولا من بطؤ كثقل من ثقل كما بطأ ابن أبي ناسا يوم أحد والأول أنسب لما بعده واللام الأولى للابتداء دخلت على اسم إن للفصل بالخبر والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن فى ليبطئن والتقدير وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن (فإن أصابتكم مصيبة) كقتل وهزيمة (قال) أى المبطئ فرحا بصنعه وحامدا لرأيه (قد أنعم الله على) أى بالقعود (إذ لم أكن معهم شهيدا) أى حاضرا فى المعركة فيصيبنى ما أصابهم والفاء فى الشرطية لترتيب مضمونها على ما قبلها فان ذكر التبطئة مستتبع لذكر ما يترتب عليها كما أن نفس التبطئة مستدعية لشىء ينتظر المبطئ وقوعه (ولئن أصابكم فضل) كفتح وغنيمة (من الله) متعلق بأصابكم أو بمحذوف وقع صفة لفضل أى فضل كائن من الله تعالى ونسبة إصابة الفضل إلى جناب الله تعالى دون إصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية كما فى قوله سبحانه وإذا مرضت فهو يشفين وتقديم الشرطية الأولى لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق وأثر نفاقهم فيها أظهر (ليقولن) ندامة على تثبطه وقعوده وتهالكا على حطام الدنيا وتحسرا على فواته وقرئ ليقولن بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى من وقوله تعالى (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) اعتراض وسط بين الفعل ومفعوله الذى هو (يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) لئلا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم حسبما يقتضيه ما فى البين من المودة بل هو للحرص على المال كما ينطق به آخره وليس إثبات المودة فى البين بطريق التحقيق بل بطريق التهكم قيل الجملة التشبيهية حال من ضمير ليقولن أى ليقولن مشبها بمن لا مودة بينكم وبينه وقيل هى داخلة فى المقول أى ليقول ان المثبط لمن يثبطه من المنافقين وضعفة المؤمنين كأن لم تكن بينكم وبين محمد مودة حيث لم يستصحبكم فى الغزو حتى تفوزوا بما فاز يا ليتنى كنت معهم وغرضه القاء العداوة بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وتأكيدها وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف وقرئ لم يكن بالياء والمنادى فى يا ليتنى محذوف أى يا قوم وقيل يا أطلق للتنبيه على الاتساع وقوله تعالى فأفوز نصب على جواب التمنى وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى فأنا أفوز فى ذلك الوقت أو على أنه معطوف على كنت داخل معه تحت التمنى (فليقاتل فى سبيل الله) قدم الظرف على الفاعل للاهتمام به (الذين يشرون الحيوة الدنيا بالآخرة) أى يبيعونها بها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر أى ان بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون فالفاء للتعقيب أى ليتركوا ما كانوا عليه من التثبط والنفاق وليعقبوه بالقتال فى سبيل الله (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه) بنون العظمة التفاتا (أجرا عظيما) لا يقادر قدره وتعقيب القتال بأحد الأمرين للاشعار بأن المجاهد حقه أن يوطن نفسه باحدى الحسنيين ولا يخطر بباله القسم الثالث أصلا وتقديم القتل للايذان بتقدمه فى استتباع الأجر. روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله تعالى لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة (وما لكم) خطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة فى التحريض عليه وتأكيدا لوجوبه وهو مبتدأ وخبر وقوله عز وجل (لا تقاتلون فى سبيل الله) حال عاملها ما فى الظرف من معنى الفعل والاستفهام للانكار والنفى أى أى شىء لكم غير مقاتلين أى لا عذر لكم فى ترك المقاتلة (والمستضعفين) عطف على اسم الله أى فى سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو أو على السبيل بحذف المضاف أى فى خلاص المستضعفين ويجوز نصبه على الاختصاص فان سبيل الله يعم أبواب الخير وتخليص ضعفة المؤمنين من أيدى الكفرة

أعظمها وأخصها (مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلدَانِ) بيان للمستضعفين أو حال منهم وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصد المشركين أو لضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتهنين وانما ذكر الولدان معهم تكميلا للاستعطاف واستجلاب المرحمة وتنبيها على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان لارغام آبائهم وأمهاتهم وايذانا باجابة الدعاء الآتى واقتراب زمان الخلاص ببيان شركتهم فى التضرع إلى الله تعالى كل ذلك للمبالغة فى الحث على القتال وقيل المراد بالولدان العبيد والاماء اذيقال لهما الوليد والوليدة وقد غلب الذكور على الاناث فأطلق الولدان على الولائد أيضا (الذينَ) محله الجر على أنه صفة للمستضعفين أو لما فى حيز البيان أو النصب على الاختصاص (يَقولونَ رَبَّنا أخرِجنا مِنْ هٰذهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أهلُها) بالشرك الذى هو ظلم عظيم وبأذية المسلمين وهى مكة والظالم صفتها وتذكيره لتذكير ما أسند اليه فان اسم الفاعل والمفعول إذا أجرى على غير من هو له كان كالفعل فى التذكير والتأنيث بحسب ما عمل فيه (وَاجعَل لَنا مِنْ لَدُنكَ وليًا) كلا الجارين متعلق باجعل لاختلاف معنييهما وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع إلى وروده ينبىء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لامحالة وتقديم اللام على من للمسارعة إلى ابراز كون المسئول نافعا لهم مرغوبا فيه لديهم ويجوز أن تتعلق كلمة من بمحذوف وقع حالا من وليا قدمت عليه لكونه نكرة وكذا الكلام فى قوله تعالى (وَاجعَل لَنا مِنْ لَدُنكَ نَصيرًا) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى ول علينا واليا من المؤمنين يوالينا ويقوم بمصالحنا ويحفظ علينا ديننا وشرعنا وينصرنا على أعدائنا ولقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقى منهم خير ولى وأعز ناصر ففتح مكة على يدى نبيه عليه الصلاة والسلام فتولاهم أى تولى ونصرهم أية نصرة ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها وقيل المراد واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة أى كن أنت ولينا وناصرنا وتكرير الفعل ومتعلقه للمبالغة فى التضرع والابتهال (الذينَ آمَنوا يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ) كلام مبتدأ سيق لترغيب المؤمنين فى القتال وتشجيعهم ببيان كمال قوتهم بامداد الله تعالى ونصرته وغاية ضعف أعدائهم أى المؤمنون إنما يقاتلون فى دين الله الحق الموصل لهم إلى الله عز وجل وفى إعلاء كلمته فهو وليهم وناصرهم لامحالة (وَالذينَ كَفَروا يُقاتِلونَ في سَبيلِ الطّاغوتِ) أى فيما يوصلهم إلى الشيطان فلا ناصر لهم سواه والفاء فى قوله تعالى (فَقاتِلوا أولِياءَ الشَّيطانِ) لبيان استتباع ماقبلها لما بعدها وذكرهم بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم فى سبيل الشيطان والاشعار بأن المؤمنين أولياء الله تعالى لما أن قتالهم فى سبيله وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين فى القتال وتقوية عزائمهم عليه فان ولاية الله تعالى علم فى العزة والقوة كما أن ولاية الشيطان مثل فى الذلة والضعف كأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا ياأولياء الله أولياء الشيطان ثم صرح بالتعليل فقيل (إنَّ كَيدَ الشَّيطانِ كانَ ضَعيفًا) أى فى حد ذاته فكيف بالقياس إلى قدرة الله تعالى ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى إيذانا بظهورها قالوا فائدة إدخال كان فى أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان كان كذلك فالمعنى ان كيد الشيطان منذ كان كان موصوفا بالضعف (ألَمْ تَرَ إلى الذينَ قيلَ لَهُمْ كُفّوا أيدِيَكُمْ) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من إحجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حراصا عليه بحيث كادوا يباشرونه كما ينبىء عنه الأمر بكف الأيدى فان ذلك مشعر بكونهم بصدد بسطها إلى العدو بحيث يكادون يسطون بهم قال الكلبى ان جماعة من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام منهم عبد الرحمن بن عوف الزهرى والمقداد ابن الأسود الكندى وقدامة بن مظعون الجمحى وسعد بن أبى وقاص الزهرى رضى الله تعالى عنهم كانوا يلقون من

مشركى مكة قبل الهجرة أذى شديدا فيشكون ذلك إلى النبى عليه الصلاة والسلام ويقولون ائذن لنا فى قتالهم ويقول لهم النبى عليه الصلاة والسلام كفوا أيديكم (وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ) فانى لم أومر بقتالهم وبناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبى عليه الصلاة والسلام للايذان بكون ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى ولان المقصود بالذات والمعتبر فى التعجيب انما هو كمال رغبتهم فى القتال وكونهم بحيث احتاجوا إلى النهى عنه وانما ذكر فى حيز الصلة الأمر بكف الأيدى لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية فلا يتعلق ببيان خصوصية الآمر غرض وكانوا فى مدة إقامتهم بمكة مستمرين على تلك الحالة فلما هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأمروا بالقتال فى وقعة بدر كرهه بعضهم وشق ذلك عليه لكن لا شكا فى الدين ولا رغبة عنه بل نفورا عن الاخطار بالأرواح وخوفا من الموت بموجب الجبلة البشرية وذلك قوله تعالى (فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ) الخ وهو عطف على قيل لهم كفوا أيديكم باعتبار مدلوله الكنائى اذ حينئذ يتحقق التباين بين مدلولى المعطوفين وعليه يدور أمر التعجيب كأنه قيل ألم تر الى الذين كانوا حراصا على القتال فلما كتب عليهم كرهه بعضهم وقوله تعالى (إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ) جواب لما على أن فريق مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة له ويخشون خبره وتصديره باذا المفاجأة لبيان مسارعتهم الى الخشية آثر ذى أثير من غير تلعثم وترددأى فاجأ فريق منهم أن يخشوا الكفار أن يقتلوهم ولعل توجيه التعجيب الى الكل مع صدور الخشية عن بعضهم للايذان بأنه ما كان ينبغى أن يصدر عن أحدهم ما ينافى حالتهم الأولى وقوله تعالى (كَخَشْيَةِ اللَّهِ) مصدر مضاف الى المفعول محله النصب على أنه حال من فاعل يخشون أى يخشونهم مشبهين لأهل خشية الله تعالى وقوله تعالى (أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) عطف عليه بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله أو على أنه مصدر مؤكد على جعل الخشية ذات خشية مبالغة كما فى جد جده أى يخشونهم خشية مثل خشية الله أو خشية أشد خشية من خشية الله وأيا ما كان فكلمة أو اما للتنويع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها واما للابهام على السامع وهو قريب مما فى قوله تعالى وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون يعنى أن من يبصرهم يقول انهم مائة ألف أو يزيدون (وَقَالُوا) عطف على جواب لما أى فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس وقالوا (رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ) فى هذا الوقت لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى والانكار لايجابه بل على طريق تمنى التخفيف (لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ) استزادة فى مدة الكف واستمهال الى وقت آخر حذرا من الموت وقد جوز أن يكون هذا مما نطقت به ألسنة حالهم من غير أن يتفوهوا به صريحا (قُلْ) أى تزهيدا لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفانى وترغيبا فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقى (مَتَاعُ الدُّنْيَا) أى ما يتمتع وينتفع به فى الدنيا (قَلِيلٌ) سريع التقضى وشيك الانصرام وان أخرتم الى ذلك الأجل (وَالْآخِرَةُ) أى ثوابها الذى من جملته الثواب المنوط بالقتال (خَيْرٌ) أى لكم من ذلك المتاع القليل لكثرته وعدم انقطاعه وصفائه عن الكدورات وإنما قيل (لِّمَنِ اتَّقَىٰ) حثا لهم على اتقاء العصيان والاخلال بمواجب التكليف (وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى تجزون فيها ولا تنقصون أدنى شىء من أجور أعمالكم التى من جملتها مسعاكم فى شأن القتال فلا ترغبوا عنه والفتيل ما فى شق النواة من الخيط يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقرىء يظلمون بالياء اعادة للضمير الى ظاهر من (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ) كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المخاطبين اعتناء بالزامهم اثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه الصلاة والسلام فلا محل له من الاعراب أو فى محل النصب داخل تحت القول المأمور به أى أينما تكونوا فى الحضر والسفر يدرككم الموت الذى لأجله تكرهون القتال

زعما منكم أنه من مظانه وتحبون القعود عنه على زعم أنه مناجاة منه وفى لفظ الادراك اشعار بأنهم فى الهرب من الموت وهو مجد فى طلبهم وقرىء بالرفع على حذف الفاء كما فى قوله : من يفعل الحسنات الله يشكرها أو على اعتبار وقوع أينما كنتم فى موقع أينما تكونوا أو على أنه كلام مبتدأ و أينما تكونوا متصل بلا تظلمون أى لا تنقصون شيئا مما كتب من آجالكم أينما تكونوا فى ملاحم الحروب ومعارك الخطوب (وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) فى حصون رفيعة أو قصور محصنة وقال السدى و قتادة بروج السماء يقال شاد البناء و أشاده و شيده رفعه وقرىء مشيدة بكسر الياء وصفا لها بفعل فاعلها مجازا كما فى قصيدة شاعرة ومشيدة من شاد القصر اذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص وجواب لو محذوف اعتمادا على دلالة ماقبله عليه أى ولو كنتم فى بروج مشيدة يدرككم الموت والجملة معطوفة على أخرى مثلها أى لو لم تكونوا فى بروج مشيدة ولو كنتم الخ وقد اطرد حذفها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة فان الشىء اذا تحقق عند وجود المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى لو الوصلية من التأكيد والمبالغة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) كلام مبتدأ جىء به عقيب ما حكى عن المسلمين لما بينهما من المناسبة فى اشتمالهما على اسناد ما يكرهونه الى بعض الأمور وكراهتهم له بسبب ذلك والضمير لليهود والمنافقين. روى أنه كان قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فدعاهم الى الايمان فكفروا وأمسك عنهم بعض الامساك فقالوا ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه وذلك قوله تعالى (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ) أى وان تصبهم نعمة ورخاء نسبوها الى الله تعالى وان تصبهم بلية من جدب وغلاء أضافوها اليك كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه فأمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم الى الحق ويلقمهم الحجر ببيان اسناد الكل اليه تعالى على الاجمال اذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقا وإيجادا من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شىء منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلا ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة كما سيأتى بيانه فهذا الجواب المجمل فى معنى ما قيل ردا على أسلافهم من قوله تعالى ألا إنما طائرهم عند الله أى إنما سبب خيرهم وشرهم أو سبب اصابة السيئة التى هى ذنوبهم عند الله تعالى لا عند غيره حتى يسندوها اليه ويطيروا به وقوله تعالى (فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ) الخ كلام معترض بين المبين وبيانه مسوق من جهته تعالى لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجيب من كمال غباوتهم والفاء لترتيبه على ماقبله وقوله تعالى (لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) حال من هؤلاء والعامل فيها ما فى الظرف من معنى الاستقرار أى وحيث كان الامر كذلك فأى شىء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثا أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاستفهام كأنه قيل ما بالهم وماذا يصنعون حتى يتعجب منه أو يسأل عن سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثا من الاحاديث أصلا فيقولون ما يقولون اذ لو فقهوا شيئا من ذلك لفهموا هذا النص وما فى معناه وما هو أوضح منه من النصوص القرآنية الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والاحسان والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد لا سيما النص الوارد عليهم فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولم يسندوا جناية أنفسهم إلى غيرهم وقوله تعالى (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ) الخ بيان للجواب المجمل المأمور به واجراؤه على لسان النبى عليه الصلاة والسلام ثم سوق البيان من جهته عز وجل بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى كل واحد من الناس والالتفات لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقالتهم الباطلة والايذان بأن مضمونه مبنى على حكمة دقيقة حقيقة بأن يتولى

بيانها علام الغيوب وتوجيه الخطاب إلى كل واحد منهم دون كلهم كما فى قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم للمبالغة فى التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين أى ما أصابك من نعمة من النعم (فمن الله) أى فهى منه تعالى بالذات تفضلا وإحسانا من غير استيجاب لها من قبلك كيف لا وأن كل ما يفعله المرء من الطاعات التى بفرض كونها ذريعة إلى إصابة نعمة ما فهى بحيث لا تكاد تكافىء نعمة حياته المقارنة لأدائها ولا نعمة اقداره تعالى إياه على أدائها فضلا عن استيجابها لنعمة أخرى ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا (وما أصابك من سيئة) أى بلية من البلايا (فمن نفسك) أى فهى منها بسبب اقترافها المعاصى الموجبة لها وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة اليه تعالى نازلة من عنده عقوبة كقوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وعن عائشة رضى الله عنها مامن مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب ومايعفو الله عنه أكثر. وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبله وما بعده لكن لا لبيان حاله عليه الصلاة والسلام بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم والاشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل من استحقاق الخطاب لاسيما بمثل هذه الحكمة الأنيقة (وأرسلناك للناس رسولا) بيان لجلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ومكانته عند الله عز وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد فى حقه عليه الصلاة والسلام بناء على جهلهم بشأنه الجليل وتعريف الناس للاستغراق والجار إما متعلق برسولا قدم عليه للاختصاص الناظر إلى قيد العموم أى مرسلا لكل الناس لا لبعضهم فقط كما فى قوله تعالى وما أرسلناك إلا كافة للناس وإما بالفعل فرسولا حال مؤكدة وقد جوز أن يكون مصدرا مؤكدا كما فى قوله: لقد كذب الواشون مافهمت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى بارسال بمعنى رسالة (وكفى بالله شهيدا) أى على رسالتك بنصب المعجزات التى من جملتها هذا النص الناطق والوحى الصادق والالتفات لتربية المهابة وتقوية الشهادة والجملة اعتراض تذييلى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بيان لأحكام رسالته عليه الصلاة والسلام اثر بيان تحققها وثبوتها وإنما كان كذلك لأن الآمر والناهى فى الحقيقة هو الله تعالى وإنما هو عليه الصلاة والسلام مبلغ لأمره ونهيه فرجع الطاعة وعدمها هو لله سبحانه . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال من أحبنى فقد أحب الله ومن أطاعنى فقد أطاع الله فقال المنافقون ألا تسمعون إلى مايقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله مايريد إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى فنزلت . والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالرسول دون الخطاب للايذان بأن مناط كون طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة له تعالى ليس خصوصية ذاته عليه الصلاة والسلام بل من حيثية رسالته وإظهار الجلالة لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة بذكر عنوان الألوهية وحمل الرسول على الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام انتظاما أوليا يأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام فى قوله تعالى (ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) وجواب الشرط محذوف والمذكور تعليل له أى ومن أعرض عن الطاعة فأعرض عنه إنما أرسلناك رسولا مبلغا لا حفيظا مهيمنا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها وحفيظا حال من الكاف وعليهم متعلق به قدم عليه رعاية للفاصلة وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الافراد فى تولى باعتبار لفظه (ويقولون) شروع فى بيان معاملتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيان وجوب طاعته أى يقولون إذا أمرتهم بشىء (طاعة) أى أمرنا وشأننا طاعة أو منا طاعة والأصل النصب على المصدر والرفع للدلالة على الثبات كسلام (فإذا برزوا من عندك) أى خرجوا من مجلسك (بيت طائفة منهم) أى من القائلين

المذكورين وهم رؤساؤهم (غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ) أي زورت طائفة منهم وسوت خلاف ماقالت لك من القبول وضمان الطاعة لأنهم مصرون على الرد والعصيان وإنما يظهرون مايظهرون على وجه النفاق أو خلاف ماقلت لها والتبييت اما من البيتوتة لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل يقال هذا أمر بيت بليل وأما من بيت الشعر لأن الشاعر يدبره ويسويه وتذكير الفعل لأن تأنيث الطائفة غير حقيقي وقرىء بادغام التاء فى الطاء لقرب المخرج وإسناده إلى طائفة منهم لبيان أنهم المتصدون له بالذات والباقون أتباع لهم فى ذلك لا لأن الباقين ثابتون على الطاعة (وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ) أى يكتبه فى جملة مايوحى اليك فيطلعك على أسرارهم فلا يحسبوا أن مكرهم يخفى عليكم فيجدون بذلك إلى الاضرار بكم سبيلا أو يثبته فى صحائفهم فيجازيهم عليه وأياما كان فالجملة اعتراضية (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) أى لاتبال بهم وبما صنعوا أو تجاف عنهم ولا تتصد للانتقام منهم والفاء لسببية ماقبلها لمابعدها (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) فى كل ماتأتى وماتذر لاسيما فى شأنهم وإظهار الجلالة فى مقام الإضمار للاشعار بعلة الحكم (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) فيكفيك معرتهم وينتقم لك منهم والاظهار ههنا أيضا لما مر وللتنبيه على استقلال الجملة واستغنائها عما عداها من كل وجه (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) انكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عن التأمل فيما فيه عن موجبات الإيمان وتدبر الشىء تأمله والنظر فى إدباره وما يؤول اليه فى عاقبته ومنتهاه ثم استعمل فى كل تفكر ونظر والفاء للعطف على مقدر أى أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى بمشاهدة مافيه من الشواهد التى من جملتها هذا الوحى الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحكى على ماهو عليه (وَلَوْ كَانَ) أى القرآن (مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ) كما يزعمون (لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع إذ لا علم بالأمور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلة لغيره سبحانه وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عنده تعالى. قال الزجاج ولولا أنه من عند الله تعالى لكان مافيه من الاخبار بالغيب بما يسره المنافقون ومايبيتونه مختلفا بعضه حق وبعضه باطل لأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى وقال أبو بكر الأصم ان هؤلاء المنافقين كانوا يتواطؤون فى السر على أنواع كثيرة من الكيد والمكر وكان الله تعالى يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك ويخبره بها مفصلة فقيل لهم إن ذلك لو لم يحصل باخبار الله تعالى لما اطرد الصدق فيه ولوقع فيه الاختلاف فلما لم يقع ذلك قط علم أنه باعلامه تعالى هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وأما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم فى البلاغة بأن كان بعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى وبعضه على معنى فاسد غير ملتئم وبعضه بالغا حد الاعجاز وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته كما جنح اليه الجمهور فمما لا يساعده السباق ولا السياق ومن رام التقريب وقال لعل ذكره ههنا للتنبيه على أن اختلاف ماسبق من الأحكام ليس لتناقض فى الحكم بل لاختلاف فى الحكم والمصالح المقتضية لذلك فقد أبعد عن الحق بمراحل (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ) يقال أذاع السر وأذاع به أى أشاعه وأفشاه وقيل معنى أذاعوا به فعلوا به الاذاعة وهو أبلغ من أذاعوه وهو كلام مسوق لدفع ماعسى يتوهم فى بعض المواد من شائبة الاختلاف بناء على عدم فهم المراد ببيان أن ذلك لعدم وقوفهم على معنى الكلام لا لتخلف مدلوله عنه وذلك أن ناسا من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالأحوال كانوا إذا أخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بما أوحى اليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة يذيعونه من غير فهم لمعناه ولا ضبط لفحواه على حسب ماكانوا يفهمونه ويحملونه عليه من المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطا بأمور تفوت بالاذاعة فلا يظهر أثره المتوقع فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف فنعى عليهم ذلك وقيل (وَلَوْ رَدُّوهُ) أى ذلك الأمر الذى جاءهم (إِلَى الرَّسُولِ) أى عرضوه على رأيه عليه الصلاة والسلام مستكشفين لمعناه ومايبنغى له من التدبير والالتفات لما ان عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة

الى رأيه عليه الصلاة والسلام (وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ) وهم كبراء الصحابة البصراء فى الأمور رضى الله تعالى عنهم (لَعَلِمَهُ) أى لعلم الرادون معناه وتدبيره وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول نقيل (ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ) للايذان بأنه ينبغى أن يكون قصدهم برده اليهم استكشاف معناه واستيضاح فحواه أى لعلمه أولئك الرادون الذين يستنبطونه أى يتلقونه ويستخرجون علمه وتدبيره منهم أى من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام وأولى الأمر من صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ولما فعلوا فى حقه ما فعلوا فلم يقع فيه ما وقع من الاشتباه وتوهم الاختلاف وقيل لعلمه الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها فكلمة من فى منهم بيانية وقيل انهم كانوا اذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به وكانت إذاعتهم مفسدة ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وإلى أولى الأمر لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستنبطونه أى يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها وقيل كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء فتعود اذاعتهم مفسدة ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وفوضوه اليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون وما يذرون فيه وقيل كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئا من الخبر عن السرايا مظنونا غير معلوم الصحة فيذيعونه فيعود ذلك وبالا على المؤمنين ولو ردوه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وإلى أولى الأمر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هؤلاء المذيعون وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر أى يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم فمساق النظم الكريم حينئذ لبيان جناية تلك الطائفة وسوء تدبيرهم إثر بيان جناية المنافقين ومكرهم والخطاب فى قوله تعالى (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ) للطائفة المذكورة على طريقة الالتفات اى لولا فضله تعالى عليكم ورحمته بارشادكم إلى طريق الحق الذى هو المراجعة فى مظان الاشتباه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر (لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ) وعملتم بآراء المنافقين فيما تأتون وما تذرون ولم تهتدوا إلى سنن الصواب (إِلَّا قَلِيلًا) وهم أولو الأمر الواقفون على أسرار الكتاب الراسخون فى معرفة أحكامه فالاستثناء منقطع وقيل ولولا فضله تعالى عليكم ورحمته بارسال الرسول وانزال الكتاب لاتبعتم الشيطان وبقيتم على الكفر والضلالة إلا قليلا منكم قد تفضل عليه بعقل راجح اهتدى به إلى طريق الحق والصواب وعصمه من متابعة الشيطان كقس بن ساعدة الايادى وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وأضرابهم فالخطاب للكل والاستثناء متصل وقيل المراد بالفضل والرحمة النصرة والظفر بالأعداء أى ولولا حصول النصر والظفر على التواتر والتتابع لاتبعتم الشيطان وتركتم الدين إلا قليلا منكم وهم أولوا البصائر الناقدة والنيات القوية والعزائم الماضية من أفاضل المؤمنين الواقفين على حقية الدين البالغين إلى درجة حق اليقين المستغنين عن مشاهدة آثار حقيته من الفتح والظفر وقيل الا اتباعا قليلا (فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الالتفات وهو جواب شرط محذوف ينساق اليه النظم الكريم أى إذا كان الأمر كما حكى من عدم طاعة المنافقين وكيدهم وتقصير الآخرين فى مراعاة أحكام الإسلام فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا وقوله تعالى (لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ) أى إلا فعل نفسك استئناف مقرر لما قبله فان اختصاص تكليفه عليه الصلاة والسلام بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده وفيه دلالة على أن ما فعلوا من التثبط لا يضره عليه الصلاة والسلام ولا يؤاخذ به وقيل هو حال من فاعل قاتل أى فقاتل غير مكلف إلا نفسك وقرىء لا تكلف بالجزم على النهى وقيل على جواب الأمر وقرىء بنون العظمة

أى لا نكلفك إلا فعل نفسك لا على معنى لا نكلف أحدا إلا نفسك (وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ) عطف على الأمر السابق داخل فى حكمه فان كون حال الطائفتين كما حكى سبب للامر بالقتال وحده وبتحريض خلص المؤمنين والتحريض على الشيء الحث عليه والترغيب فيه قال الراغب كأنه فى الأصل ازالة الحرض وهو ما لاخير فيه ولا يعتد به أى رغبهم فى القتال ولا تعنف بهم وإنما لم يذكر المحرض عليه لغاية ظهوره وقوله تعالى (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا) عدة منه سبحانه وتعالى محققة الانجاز بكف شدة الكفرة ومكروههم فان ما صدر بلعل وعسى مقرر الوقوع من جهته عز وجل وقد كان كذلك حيث روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين راكبا ووافوا الموعد وألقى الله تعالى فى قلوب الذين كفروا الرعب فرجعوا من مر الظهران وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وافى بجيشه بدرا وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا وقد مر فى سورة آل عمران (وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا) أى من قريش (وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا) أى تعذيبا وعقوبة تنكل من يشاهدها عن مباشرة ما يؤدى إليها والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة وتكرير الخبر لتأكيد التشديد وقوله تعالى (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا) أى من ثوابها جملة مستأنفة سيقت لبيان أن له عليه الصلاة والسلام فيما أمر به من تحريض المؤمنين حظا موفورا فان الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول شخص إلى منفعة من المنافع الدنيوية أو الأخروية أو خلاصه من مضرة ما كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والحسنة منها ما كانت فى أمر مشروع روعى بها حق مسلم ابتغاء لوجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضا من الأغراض الدنيوية وأى منفعة أجل مما قد حصل للمؤمنين بتحريضه عليه الصلاة والسلام على الجهاد من المنافع الدنيوية والأخروية وأى مضرة أعظم مما تخلصوا منه بذلك من التثبط عنه ويندرج فيها الدعاء للمسلم فانه شفاعة إلى الله سبحانه وعليه مساق آية التحية الآتية روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود (وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً) وهى ما كانت بخلاف الحسنة (يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا) أى نصيب من وزرها مساو لها فى المقدار من غير أن تنقص منه شيء (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا) أى مقتدرا من أقات على الشيء إذا اقتدر عليه أو شهيدا حفيظا واشتقاقه من القوت فانه يقوى البدن ويحفظه والجملة تذييل مقرر لما قبلها على كلا المعنيين (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ) ترغيب فى فرد شائع من أفراد الشفاعة الحسنة اثر ما رغب فيها على الاطلاق وحذر عما يقابلها من الشفاعة السيئة وإرشاد إلى توفية حق الشفيع وكيفية أدائه فان تحية الإسلام من المسلم شفاعة منه لأخيه إلى الله تعالى والتحية مصدر حيى أصلها تحيية كتسمية من سمى وأصل الأصل تحيى بثلاث ياءات فحذفت الأخيرة وعوض عنها تاء التأنيث وأدغمت الأولى فى الثانية بعد نقل حركتها إلى الحاء قال الراغب أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت فى كل دعاء وكانت العرب إذا لقى بعضهم بعضا يقول حياك الله ثم استعملها الشرع فى السلام وهى تحية الإسلام قال تعالى تحيتهم فيها سلام وقال تحيتهم يوم يلقونه سلام وقال فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله قالوا فى السلام مزية على التحية لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية وهى مستلزمة لطول الحياة وليس فى الدعاء بطول الحياة ذلك ولأن السلام من أسمائه تعالى فالبداءة بذكره مما لا ريب فى فضله ومزيته أى إذا سلم عليكم من جهة المؤمنين (فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا) أى بتحية أحسن منها بأن تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله ان اقتصر المسلم على الأول وبأن تزيدوا وبركاته

ان جمعهما المسلم وهى النهاية لانتظامها لجميع فنون المطالب التى هى السلامة عن المضار ونيل المنافع ودوامها ونماؤها (أَوْ رُدُّوهَا) أى أجيبوها بمثلها . روى أن رجالا قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك فقال الرجل نقصتنى فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية فقال عليه الصلاة والسلام انك لم تترك لى فضلا فرددت عليك مثله وجواب التسليم واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها وعن النخعى أن السلام سنة والرد فريضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الرد واجب وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه إلا نزع الله منهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد فى الخطبة وتلاوة القرآن جهرا ورواية الحديث وعند دراسة العلم والاذان والاقامة ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج والمغنى والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعارى فى الحمام وغيره قالوا ويسلم الرجل على امرأته لا على الأجنبية والسنة أن يسلم الماشى على القاعد والراكب على الماشى وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير وإذا التقيا ابتدرا وعن أبى حنيفة رضى الله عنه لا يجهر بالرد يعنى الجهر الكثير وعن النبى عليه الصلاة والسلام إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم أى وعليكم ما قلتم حيث كان يقول بعضهم السام عليكم وروى لا تبدأ اليهودى بالسلام وإذا بدأك فقل وعليك وعن الحسن أنه يجوز أن يقول للكافر وعليك السلام دون الزيادة وقيل التحية بالأحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند كونه كافرا (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا) فيحاسبكم على كل شىء من أعمالكم التى من جملتها ما أمرتم به من التحية فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) جواب قسم محذوف أى والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة وقيل إلى بمعنى فى والجملة القسمية إما مستأنفة لا محل لها من الاعراب أو خبر ثان للمبتدا أو هى الخبر ولا إله إلا هو اعتراض وقوله تعالى (لَا رَيْبَ فِيهِ) أى فى يوم القيامة أو فى الجمع حال من اليوم أو صفة للمصدر أى جمعا لا ريب فيه (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) انكار لان يكون أحد أصدق منه تعالى فى وعده وسائر أخباره وبيان لاستحالته كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره (فَمَا لَكُمْ) مبتدأ وخبر والاستفهام للانكار والنفى والخطاب لجميع المؤمنين لكن ما فيه من معنى التوبيخ متوجه إلى بعضهم وقوله تعالى (فِي الْمُنَافِقِينَ) متعلق إما بما تعلق به الخبر أى أى شىء كائن لكم فيهم أى فى أمرهم وشأنهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وإما بما يدل عليه قوله تعالى (فِئَتَيْنِ) من معنى الافتراق أى فما لكم تفترقون فى المنافقين اما بمحذوف وقع حالا من فئتين أى كائنتين فى المنافقين لأنه فى الأصل صفة فلما قدمت انتصبت حالا كما هو شأن صفات النكرات على الاطلاق أو من الضمير فى تفترقون وانتصاب فئتين عند البصريين على الحالية من المخاطبين والعامل ما فى لكم من معنى الفعل كما فى قوله تعالى فما لهم عن التذكرة معرضين وعند الكوفيين على خبرية كان مضمرة أى فما لكم فى المنافقين كنتم فئتين والمراد انكار أن يكون للمخاطبين شىء مصحح لاختلافهم فى أمر المنافقين وبيان وجوب بت القول بكفرهم واجرائهم مجرى المجاهرين بالكفر فى جميع الأحكام وذكرهم بعنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق . روى أنهم قوم من المنافقين استأذنوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون فى أمرهم وقيل هم قوم هاجروا من مكة إلى المدينة ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انا على دينك وما أخرجنا الا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا وقيل هم ناس أظهروا الاسلام وقعدوا عن الهجرة وقيل هم قوم خرجوا مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا ويأباه ما سيأتى من جعل هجرتهم غاية للنهى عن توليهم وقيل هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرده ما سيأتى من الآيات الناطقة بكيفية المعاملة معهم من السلم والحرب وهؤلاء قد أخذوا وفعل بهم ما فعل من المثلة والقتل ولم ينقل فى أمرهم اختلاف المؤمنين (وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ) حال من المنافقين مفيدة لتأكيد الانكار السابق واستبعاد وقوع المنكر ببيان وجود النافى بعد بيان عدم الداعى وقيل من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو أى أى شىء يدعوكم إلى الاختلاف فى كفرهم مع تحقق ما يوجب اتفاقكم على كفرهم وهو أن الله تعالى قد ردهم فى الكفر كما كانوا (بِمَا كَسَبُوا) بسبب ما كسبوه من الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيال على رسول الله صلى الله عليه وسلم والعائد إلى الموصول محذوف وقيل ما مصدرية أى بكسبهم وقيل معنى أركسهم نكسهم بأن صيرهم للنار وأصل الركس رد الشىء مقلوبا وقرىء ركسهم مشددا وركسهم أيضا مخففا (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ) تجريد للخطاب وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم من الفئتين وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك وإشعار بأنه يؤدى إلى محاولة المحال الذى هو هداية من أضله الله تعالى وذلك لأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل من ذلك سعى فى هدايتهم وإرادة لها ووضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الانكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر فى حيز الصلة وتوجيه الانكار إلى الارادة لا إلى متعلقها بأن يقال أتهدون الخ للمبالغة فى انكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته فضلا عن امكان نفسه وحمل الهداية والاضلال على الحكم بهما يأباه قوله تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) أى ومن يخلق فيه الضلال كائنا من كان فلن تجد له سبيلا من السبل فضلا عن أن تهديه اليه وفيه من الافصاح عن كمال الاستحالة ما ليس فى قوله تعالى ومن يضلل الله فماله من هاد ونظائره وحمل اضلاله تعالى على حكمه وقضائه بالضلال مخل بحسن المقابلة بين الشرط والجزاء وتوجيه الخطاب إلى كل واحد من المخاطبين للاشعار بشمول عدم الوجدان للكل على طريق التفصيل والجملة اما حال من فاعل تريدون أو تهدوا والرابط هو الواو أو اعتراض تذييلى مقرر للانكار السابق ومؤكد لاستحالة الهداية فحينئذ يجوز أن يكون الخطاب لكل أحد ممن يصلح له من المخاطبين أولا ومن غيرهم (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم وتماديهم فى الكفر وتصديهم لاضلال غيرهم إثر بيان كفرهم وضلالهم فى أنفسهم وكلمة لو مصدرية غنية عن الجواب وهى مع ما بعدها نصب على المفعولية أى ودوا أن تكفروا وقوله تعالى (كَمَا كَفَرُوا) نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى كفرا مثل كفرهم وحال من ضمير ذلك المصدر كما هو رأى سيبويه وقوله تعالى (فَتَكُونُونَ سَوَاءً) عطف على تكفرون داخل فى حكمه أى ودوا أن تكفروا فتكونوا سواء مستوين فى الكفر والضلال وقيل كلمة لو على بابها وجوابها محذوف كمفعول ودوا التقدير ودوا كفركم لو تكفرون كما كفروا لسروا بذلك (فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ) الفاء جواب شرط محذوف وجمع أولياء لمراعاة جمع المخاطبين فان المراد نهى أن يتخذ واحد من المخاطبين وليا واحدا منهم أى إذا كان حالهم ماذكر من ودادة كفركم فلا توالوهم (حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أى حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام لا لغرض من أغراض الدنيا (فَإِنْ تَوَلَّوْا) أى عن الايمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة (فَخُذُوهُمْ) أى إذا قدرتم عليهم (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) من الحل والحرم فان حكمهم حكم سائر المشركين أسرا وقتلا (وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) أى جانبوهم مجانبة كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبدا (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ) استثناء من قوله تعالى فخذوهم واقتلوهم أى إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم وهم الاسلميون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت خروجه من مكة قد

وادع هلال بن عويمر الاسلمى على أنه لا يعينه ولا يعين عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ اليه فله من الجوار مثل الذى لهلال وقيل هم بنو بكر بن زيد مناة وقيل هم خزاعة (أَوْ جَآءُوكُمْ) عطف على الصلة أى أو الذين جاءوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين أو على صفة قوم كأنه قيل إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين أو إلى قوم كافين عن القتال لكم والقتال عليكم والأول هو الأظهر لما سيأتى من قوله تعالى فان اعتزلوكم الخ فانه صريح فى أن كفهم عن القتال أحد سببى استحقاقهم لنفى التعرض لهم وقرىء جاءوكم بغير عاطف على أنه صفة بعد صفة أو بيان ليصلون أو استئناف (حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) حال باضمار قد بدليل أنه قرىء حصرة صدورهم وحصرات صدورهم وحاصرات صدورهم وقيل صفة لموصوف محذوف هو حال من فاعل جاءوا أى جاءوكم قوما حصرت صدورهم وقيل هو بيان لجاءوكم وهم بنو مدلج جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين والحصر الضيق والانقباض (أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ) أى من أن يقاتلوكم أو لأن يقاتلوكم أو كراهة أن يقاتلوكم الخ (وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ) جملة مبتدأة جارية مجرى التعليل لاستثناء الطائفة الأخيرة من حكم الأخذ والقتل ونظمهم فى سلك الطائفة الأولى الجارية مجرى المعاهدين مع عدم تعلقهم بنا ولا بمن عاهدونا كالطائفة الأولى أى ولو شاء الله لسلطهم عليكم ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وإزالة الرعب عنها (فَلَقَاتَلُوكُمْ) عقيب ذلك ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير أو الابدال من الأولى وقرىء فلقتلوكم بالتخفيف والتشديد (فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ) ولم يتعرضوا لكم (فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ) مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله عز وجل (وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ) أى الانقياد والاستسلام وقرىء بسكون اللام (فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) طريقا بالاسر أو بالقتل فان مكافتهم عن قتالكم وأن يقاتلوا قومهم أيضا والقاءهم اليكم السلم وان لم يعاهدوكم كافية فى استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم (سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ) هم قوم من أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين فاذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم وقيل هم بنو عبد الدار وكان ديدنهم ما ذكر (كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ) أى دعوا إلى الكفر وقتال المسلمين (أُرْكِسُوا فِيهَا) قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه وكانوا فيها شرا من كل عدو شرير (فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ) بالكف عن التعرض لكم بوجه ما (وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ) أى لم يلقوا اليكم الصلح والعهد بل نبذوه اليكم (وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ) أى لم يكفوها عن قتالكم (فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) أى تمكنتم منهم (وَأُولَٰئِكُمْ) الموصوفون بما عدد من الصفات القبيحة (جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) حجة واضحة فى الايقاع بهم قتلا وسبيا لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر واضرارهم بأهل الاسلام أو تسلطا ظاهرا حيث أذنا لكم فى أخذهم وقتلهم (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) أى وما صح له ولا لاق بحاله (أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا) بغير حق فان الايمان زاجر عن ذلك (إِلَّا خَطَأً) فانه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية وانتصابه اما على أنه حال أى وما كان له أن يقتل مؤمنا فى حال من الأحوال إلا فى حال الخطأ أو على أنه مفعول له أى وما كان له أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ أو على أنه صفة للمصدر أى الاقتلا خطأ وقيل إلا بمعنى ولا والتقدير وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا عمدا ولا خطأ وقيل ما كان نفى فى معنى النهى والاستثناء منقطع أى لكن ان قتله خطأ فجزاؤه ما يذكر والخطأ ما لا يقارنه القصد إلى الفعل أو إلى الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالبا أو لا يقصد به محظور كرمى مسلم فى صف الكفار مع الجهل باسلامه وقرىء خطاء بالمد وخطا كعصا بتخفيف الهمزة . روى أن عياش بن أبى ربيعة وكان أخا أبى جهل لأمه أسلم وهاجر

إلى المدينة خوفا من أهله وذلك قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يأويها سقف حتى يرجع فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبي أنيسة فأتياه وهو في أطم ففتل منه أبو جهل في الذروة والغارب وقال أليس محمد يحثك على صلة الرحم انصرف وبر أمك وأنت على دينك حتى نزل وذهب معهما فلما فسحا من المدينة كتفاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة فقال للحرث هذا أخي فمن أنت ياحرث لله علي ان وجدتك خاليا أن أقتلك وقدما به على أمه فحلفت لا يحل كتافه أو يرتد ففعل بلسانه ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحرث وهاجر فلقيه عياش بظهر قباء ولم يشعر باسلامه فأنحى عليه فقتله ثم أخبر باسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلته ولم أشعر باسلامه فنزلت (وَمَن قَتَلَ مُؤمِناً خَطَئاً فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ) أي فعليه أو فوجبه تحرير رقبة أي اعتاق نسمة عبر عنها بها كما يعبر عنها بالرأس (مُؤمِنَةٍ) أي محكوم باسلامها وإن كانت صغيرة (وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهلِهِ) مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث لقول ضحاك بن سفيان الكلابي كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها (إلا أن يَصَّدَّقوا) أي الا أن يتصدق أهله عليه سمي العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبيها على فضله وعن النبي عليه الصلاة والسلام كل معروف صدقة وقرىء الا أن يتصدقوا وهو متعلق بعليه أو بمسلمة أي تجب الدية أو يسلمها إلى أهله الا وقت تصدقهم عليه فهو في محل النصب على الظرفية أو الا حال كونهم متصدقين عليه فهو حال من الأهل أو القاتل (فإن كانَ) أي المقتول (مِن قَومٍ عَدُوٍّ لَكُم) كفار محاربين (وَهُوَ مُؤمِنٌ) ولم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم أو بأن أتاهم بعد ما فارقهم لمهم من المهمات (فَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ) أي فعلى قاتله الكفارة دون الدية اذ لا وراثة بينه وبين أهله لأنهم محاربون (وإن كانَ) أي المقتول المؤمن (مِن قَومٍ) كفرة (بَينَكُم وَبَينَهُم مِيثاقٌ) أي عهد موقت أو مؤبد (فَدِيَةٌ) أي فعلى قاتله دية (مُسَلَّمَةٌ إلى أهلِهِ) من أهل الاسلام ان وجدوا ولعل تقديم هذا الحكم ههنا مع تأخيره فيما سلف للاشعار بالمسارعة إلى تسليم الدية تحاشيا عن توهم نقض الميثاق (وَتَحرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ) كما هو حكم سائر المسلمين ولعل افراده بالذكر مع اندراجه في حكم ما سبق من قوله تعالى ومن قتل مؤمنا خطأ الخ لبيان أن كونه فيما بين المعاهدين لا يمنع وجوب الدية كما منعه كونه فيما بين المحاربين وقيل المراد بالمقتول الذمي أو المعاهد لئلا يلزم التكرار بلا فائدة ولا التوريث بين المسلم والكافر وقد عرفت عدم لزومهما (فَمَن لَم يَجِد) أي رقبة ليحررها بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به اليها من الثمن (فَصِيامُ)أي فعليه صيام (شَهرَينِ مُتَتابِعَينِ) لم يتخلل بين يومين من أيامهما افطار (تَوبَةً) نصب على أنه مفعول له أي شرع لكم ذلك توبة أي قبولا لها من تاب الله عليه إذا قبل توبته أو مصدر مؤكد لفعل محذوف أي تاب عليكم توبة وقيل على أنه حال من الضمير المجرور في عليه بحذف المضاف أي فعليه صيام شهرين ذا توبة وقوله تعالى (مِنَ اللهِ) متعلق بمحذوف وقع صفة لتوبة أي كائنة منه تعالى (وَكانَ اللهُ عَلِيماً) بجميع الأشياء التي من جملتها حاله (حَكِيماً)في كل ما شرع وقضى من الشرائع والأحكام التي من جملتها ما شرعه في شأنه (وَمَن يَقتُل مُؤمِناً مُتَعَمِّداً) لما بين حكم القتل خطأ وفصل أقسامه الثلاثة عقب ذلك ببيان القتل عمدا خلا أن حكمه الدنيوي لما بين في سورة البقرة اقتصر ههنا على حكمه الأخروي . روي أن مقيس بن ضبابة الكناني وكان قد أسلم هو وأخوه هشام وجد أخاه قتيلا في بني النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له القصة فأرسل عليه السلام معه زبير بن عياض الفهري وكان من أصحاب بدر إلى بني النجار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مقيس ليقتص منه ان علموه وبأداء الدية ان لم

يعلموه فقالوا سمعا وطاعة لله تعالى ولرسوله عليه السلام مانعلم له قاتلا ولكننا نؤدى ديته فأتوه بمائة من الابل فانصرفا راجعين إلى المدينة حتى إذا كانا ببعض الطريق أتى الشيطان مقيسا فوسوس اليه فقال أتقبل دية أخيك فيكون مسبة عليك اقتل الذى معك فيكون نفسا بنفس وفضل الدية فتغفل الفهرى فرماه بصخرة فشدخه ثم ركب بعيرا من الابل واستاق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا وهو يقول:

قتلت به فهرا وحملت عقله ... سراة بنى النجار أصحاب قارع
وأدركت ثأرى واضطجعت موسدا ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

فنزلت وهو الذى استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ممن أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة وقوله تعالى متعمدا حال من فاعل يقتل وروى عن الكسائى سكون التاء كأنه فر من توالى الحركات (فَجَزَآؤُهُ) الذى يستحقه بجنايته (جَهَنَّمُ) وقوله تعالى (خَٰلِدًا فِيهَا) حال مقدرة من فاعل فعل مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل يجزاوه أن يدخل جهنم خالدا فيها وقيل هو حال من ضمير يجزاها وقيل من مفعول جازاه وأيد ذلك بأنه أنسب بعطف مابعده عليه لموافقته له صيغة ولا يخفى أن مايقدر للحال أو للعطف عليه حقه أن يكون مما يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا ويدل عليه الكلام دلالة بينة وظاهر أن كون جزائه ماذكر لايقتضى وقوع الجزاء البتة كما ستقف عليه حتى يقدر يجزاها أوجازاه بطريق الاخبار عن وقوعه وأما قوله تعالى (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ) فعطف على مقدر يدل عليه الشرطية دلالة واضحة كأنه قيل بطريق الاستئناف تقريرا وتأكيدا لمضمونها حكم الله بأن جزاءه ذلك وغضب عليه أى انتقم منه (وَلَعَنَهُ) أى أبعده عن الرحمة بجعل جزائه ماذكر وقيل هو ومابعده معطوف على الخبر بتقدير أن وحمل الماضى على معنى المستقبل كما فى قوله تعالى ونفخ فى الصور ونظائره أى فجزاؤه جهنم وأن يغضب الله عليه الخ (وَأَعَدَّ لَهُ) فى جهنم (عَذَابًا عَظِيمًا) لايقادر قدره ولما ترى فى الآية الكريمة من التهديد الشديد والوعيد الاكيد وفنون الابراق والارعاد وقد تأيدت بما روى من الاخبار الشداد كقوله عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن وقوله عليه الصلاة والسلام لو أن رجلا قتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك فى دمه وقوله عليه الصلاة والسلام من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى بنحو ذلك من القوارع تمسكت الخوارج والمعتزلة بها فى خلود من قتل المؤمن عمدا فى النار ولا متمسك لهم فيها الا لما قيل من أنها فى حق المستحل كما هو رأى عكرمة وأضرابه بدليل أنها نزلت فى مقيس بن ضبابة الكنانى المرتد حسبما مرت حكايته فان العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب بل لأن المراد بالخلود هو المكث الطويل لاالدوام لتظاهر النصوص الناطقة بأن عصاة المؤمنين لايدوم عذابهم وماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه لاتوبة لقاتل المؤمن عمدا وكذا ماروى عن سفيان أن أهل العلم كانوا اذا سئلوا قالوا لاتوبة له محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى فى التشديد والتغليظ وعليه يحمل ماروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال أبى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة. كيف لا وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا سأله القاتل المؤمن توبة قال لا وسأله آخر القاتل المؤمن توبة فقال نعم فقيل له قلت لذلك كذا ولهذا كذا قال كان الأول لم يقتل بعد فقلت ماقلت كيلا يقتل وكان هذا قد قتل فقلت له ماقلت لئلا ييأس وقد روى عنه جواز المغفرة بلاتوبة أيضا حيث قال فى قوله تعالى فجزاؤه جهنم الآية هى جزاؤه فان شاء عذبه وان شاء غفر له وروى مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال هو جزاؤه ان جازاه وبه قال عون بن عبد الله وبكر بن عبد الله وأبو صالح قالوا

قد يقول الانسان لمن يزجره عن أمر ان فعلته فجزاؤك القتل والضرب ثم ان لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذبا قال الواحدى والأصل فى ذلك أن الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد وان امتنع أن يخلف الوعد. بهذا وردت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من وعده الله تعالى على عمله ثوابا فهو منجزه له ومن أوعده على عمله عقابا فهو بالخيار والتحقيق انه لا ضرورة إلى تفريع ما نحن فيه على الأصل المذكور لأنه اخبار منه تعالى بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه بذلك .كيف لا وقد قال الله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ولو كان هذا اخبارا بأنه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى ويعفو عن كثير (يا أيها الذين آمنوا) اثر ما بين حكم القتل بقسميه وأن ما يتصور صدوره عن المؤمن انما هو القتل خطأ شرع فى التحذير عما يؤدى اليه من قلة المبالاة فى الأمور (إذا ضربتم فى سبيل الله) أى سافرتم فى الغزو ولما فى اذا من معنى الشرط صدر قوله تعالى (فتبينوا) بالفاء أى فاطلبوا بيان الأمر فى كل ما تأتون وما تذرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية وقرىء فتثبتوا أى اطلبوا اثباته وقوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام) نهى عما هو نتيجة لترك المأمور به وتعيين لمادة مهمة من المواد التى يجب فيها التبيين وقرىء السلم بغير ألف وبكسر السين وسكون اللام أى لا تقولوا بغير تأمل لمن حياكم بتحية الإسلام أو لمن ألقى اليكم مقاليد الاستسلام والانقياد (لست مؤمنا) وانما أظهرت ما أظهرت متعوذا بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه وقرىء مؤمنا بالفتح أى مبذولا لك الأمان وهذا أنسب بالقراءتين الأخيرتين والاقتصار على ذكر تحية الإسلام فى القراءة الأولى مع كونها مقرونة بكلمتى الشهادة كما سيأتى فى سبب النزول للمبالغة فى النهى والزجر والتنبيه على كمال ظهور خطئهم ببيان أن تحية الإسلام كانت كافية فى المكافة والانزجار عن التعرض لصاحبها فكيف وهى مقرونة بهما وقوله تعالى (تبتغون عرض الحيوة الدنيا) حال من فاعل لا تقولوا منبىء عما يحملهم على العجلة وترك التأنى لكن لا على أن يكون النهى راجعا إلى القيد فقط كما فى قولك لا تطلب العلم تبتغى به الجاه بل إليهما جميعا أى لا تقولوا له ذلك حال كونكم طالبين لماله الذى هو حطام سريع النفاد وقوله تعالى (فعند الله مغانم كثيرة) تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمنى كأنه قيل لا تبتغوا ماله فعند الله مغانم كثيرة يغنمكموها فيغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه وقوله تعالى (كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم) تعليل للنهى عن القول المذكور ولعل تأخيره لما فيه من نوع تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم مع ما فيه من مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ما علل به كما فى قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم الخ وتقديم خبر كان للقصر المفيد لتأكيد المشابهة بين طرفى التشبيه وذلك اشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والفاء فى فمن للعطف على كنتم أى مثل ذلك الذى ألقى اليكم السلام كنتم أنتم أيضا فى مبادى اسلامكم لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها فمن الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم والفاء فى قوله تعالى (فتبينوا) فصيحة أى إذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البين وقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به ما فعل بكم فى أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وتستدعيه فخامة شأنه الجليل ومن حسب أن المعنى أول ما دخلتم فى الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم فمن الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدم فيه وان صرتم أعلاما فيه فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الإسلام فى المكافة ولا تقولوا الخ فقد أبعد عن الحق لأن المراد كما عرفت بيان أن تحصين الدماء والأموال حكم

مترتب على مافيه المماثلة بينه وبينهم من مجرد التفوه بكلمة الشهادة واظهار أن ترتبه عليه فى حقهم يقتضى ترتبه عليه فى حقه أيضا الزاما لهم واظهارا لخطئهم ولايخفى أن ذلك انما يتأتى بتفسير منه تعالى عليهم المترتب على كونهم مثله بتحصين دمائهم وأموالهم حسبما ذكر حتى يظهر عندهم وجوب تحصين دمه وماله أيضا بحكم المشاركة فيما يوجبه وحيث لم يفعل ذلك بل فسره بما فسره به لم يبق فى النظم الكريم مايدل على ترتب تحصين دمائهم وأموالهم على ما ذكر فمن أين له أن يقول فحصنت دماءكم وأموالكم حتى يتأتى البيان وارتكاب تقديره بناء على اقتضاء ماذكر فى تفسير المن اياه بناء على أساس واه كيف لا وإنما ذكره بصدد التفسير وان كان أمرا متفرعا على مافيه المماثلة مبنيا عليه فى حقهم لكنه ليس بحكم أريد اثباته فى حقه بناء على ثبوته فى حقهم كالتحصين المذكور حتى يستحق أن يتعرض له ولا بأمر له دخل فى وجوب اعتبار ظاهر الاسلام من الداخلين فيه حتى يصح نظمه فى سلك مافرع عليه قوله فعليكم أن تفعلوا الخ وحمل الكلام على معنى انكم فى أول الأمر كنتم مثله فى قصور الرتبة فى الاسلام فمن الله عليكم وبلغتم هذه الرتبة العالية منه فلا تستقصروا حالته نظرا الى حالتكم هذه بل اعتدوا بها نظرا الى حالتكم السابقة يرده أن قتله لم يكن لاستقصار اسلامه بل لتوهم عدم مطابقة قلبه للسانه فان الآية الكريمة نزلت فى شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك وكان قد أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم غالب بن فضالة الليثى فهربوا وبقى مرداس لثقته باسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدا شديدا وقال قتلتموه ارادة مامعه فقال أسامة انه قال بلسانه دون قلبه وفى رواية انما قالها خوفا من السلاح فقال عليه الصلاة والسلام هلا شققت عن قلبه وفى رواية أفلا شققت عن قلبه ثم قرأ الآية على أسامة فقال يارسول الله استغفر لى فقال كيف بلا اله الا الله قال أسامة فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت الا يومئذ ثم استغفر لى وقال اعتق رقبة وقيل نزلت فى رجل قال يارسول الله كنا نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى فقصدت رجلا فلما أحس بالسيف قال إنى مسلم فقتلته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلت مسلما قال انه كان متعوذا فقال عليه الصلاة والسلام أفلا شققت عن قلبه (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ) من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفياتها (خَبِيرًا) فيجازيكم بحسبها ان خيرا فخير وان شرا فشر فلا تتهاونوا فى القتل واحتاطوا فيه والجملة تعليل لما قبلها بطريق الاستئناف وقرىء بفتح أن على أنها معمولة لتبينوا أو على حذف لام التعليل (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ) بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم فى الجهاد بعدما مر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعد منه ويترفع بنفسه عن انحطاط رتبته فيهتز له رغبة فى ارتفاع طبقته والمراد بهم الذين أذن لهم فى القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم القاعدون عن بدر والخارجون اليها وهو الظاهر الموافق لتاريخ النزول لا ماروى عن مقاتل من أنهم الخارجون الى تبوك فانه مما لا يوافقه التاريخ ولا يساعده الحال اذ لم يكن للمتخلفين يومئذ هذه الرخصة وقوله تعالى (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) متعلق بمحذوف وقع حالا من القاعدين أى كائنين من المؤمنين وفائدتها الايذان من أول الأمر بعدم اخلال وصف القعود بايمانهم والاشعار بعلة استحقاقهم لما سيأتى من الحسنى (غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ) صفة للقاعدون لجريانه مجرى النكرة حيث لم يقصد به قوم بأعيانهم أو بدل منه وقرىء بالنصب على أنه حال منه أو استثناء وبالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه والضرر المرض أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها وفى معناه العجز عن الأهبة. عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه أنه قال كنت إلى جنب رسول الله صلى الله

عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن ترضها ثم سرى عنه فقال اكتب فكتبت لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى يارسول الله وكيف بمن لايستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيته السكينه كذلك ثم سرى عنه فقال اكتب لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر (وَالْمُجَاهِدُونَ) ايرادهم بهذا العنوان دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه كما وقع فى عبارة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكذا تقييد المجاهدة بكونها (فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) لمدحهم بذلك والاشعار بعلة استحقاقهم لعلو المرتبة مع مافيه من حسن موقع السبيل فى مقابلة القعود وتقديم القاعدين فى الذكر والايذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر وعليه قوله تعالى هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور الى غير ذلك وأما قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون فلعل تقديم الفاضل فيه لأن صلته ملكة لصلة المفضول وقوله عز وجل (فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً) استئناف مسوق لتفصيل مابين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم استوائهما اجمالا ببيان كيفيته وكميته مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل كيف وقع ذلك فقيل فضل الله الخ وأما تقدير ماهم لايستوون فانما يليق بجعل الاستئناف تعليلا لعدم الاستواء مسوقا لاثباته وفيه تعكيس ظاهر فان الذى يحق أن يكون مقصودا بالذات انما هو بيان تفاضل الفريقين على درجات متفاوته وأما عدم استوائهما فقصارى أمره أن يكون توطئة لذكره ولام المجاهدين والقاعدين للعهد فقيد كون الجهاد فى سبيل الله معتبر فى الأول كما أن قيد عدم الضرر معتبر فى الثانى ودرجة نصب على المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل أى فضل الله تفضيلة أو على نزع الخافض أى بدرجة وقيل على التميز وقيل على الحالية من المجاهدين أى ذوى درجة وتنوينها للتفخيم وقوله تعالى (وَكُلًّا) مفعول أول لما يعقبه قدم عليه لافادة القصر تأكيدا للوعد أى كل واحد من المجاهدين والقاعدين (وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة لا أحدهما فقط كما فى قوله تعالى وأرسلناك للناس رسولا على أن اللام متعلقة برسولا والجملة اعتراض جىء به تداركا لما عسى يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول وقوله عز وجل (وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ) عطف على قوله تعالى فضل الله الخ واللام فى الفريقين مغنية لهما عن ذكر القيود التى تركت على سبيل التدريج وقوله تعالى (أَجْرًا عَظِيمًا) مصدر مؤكد لفضل على أنه بمعنى أجر وايثاره على ماهو مصدر من فعله للاشعار بكون ذلك التفضيل أجر الاعمالهم أو مفعول ثان له بتضمينه معنى الاعطاء أى أعطاهم زيادة على القاعدين أجرا عظيما وقيل هو منصوب بنزع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم وقوله تعالى (دَرَجَاتٍ) بدل من أجرا بدل الكل مبين لكمية التفضيل وقوله تعالى (مِنْهُ) متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها أى درجات كائنة منه تعالى قال ابن محيريز هى سبعون درجة مابين كل درجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين خريفا وقال السدى هى سبعمائة درجة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيله مابين الدرجتين كما بين السماء والارض ويجوز أن يكون انتصاب درجات على المصدرية كما فى قولك ضربه أسواطا أى ضربات كأنه قيل فضلهم تفضيلات وقوله تعالى (وَمَغْفِرَةً) بدل من أجرا بدل البعض لان بعض الاجر ليس من باب المغفرة أى مغفرة لما يفرط منهم من الذنوب التى لا يكفرها سائر الحسنات التى يأتى بها القاعدون أيضا حتى تعد من خصائصهم وقوله تعالى (وَرَحْمَةً) بدل الكل من أجرا مثل درجات ويجوز

أن يكون انتصابهما باضمار فعلهما أى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة هذا ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبىء
عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه
حسن النظام اما لتنزيل الاختلاف العنوانى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتى تمهيدا لسلوك
طريق الابهام ثم التفسير روما لمزيد التحقيق والتقرير كما فى قوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة
منا ونجيناهم من عذاب غليظ كأنه قيل فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها وحيث
كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين قيل وكلا وعد الله الحسنى ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير
بطريق الابهام بحيث يقطع إحتمال كونه للوحدة فقيل ما قيل ولله در شأن التنزيل واما للاختلاف بالذات بين التفضيلين
وبين الدرجة والدرجات على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر
الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة وبالتفضيل الثانى ما أنعم به فى الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر كما ينبىء عنه
تقديم الأول وتأخير الثانى وتوسيط الوعد بالجنة بينهما كأنه قيل وفضلهم عليهم فى الدنيا درجة واحدة وفى الآخرة
درجات لا تحصى وقد وسط بينهما فى الذكر ما هو متوسط بينهما فى الوجود أعنى الوعد بالجنة توضيحا لحالها
ومسارعة إلى تسلية المفضول والله سبحانه أعلم . هذا ما بين المجاهدين وبين القاعدين غير أولى الضرر وأما أولو الضرر
فهم مساوون للمجاهدين عند القائلين بمفهوم الصفة وبأن الاستثناء من النفى اثبات وأما عند من لا يقول بذلك فلا دلالة
لعبارة النص عليه وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خلفتم فى المدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم
واديا إلا كانوا معكم وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد وبهم ما يمنعهم من
المسير من ضرر أو غيره وبعبارة أخرى ان فى المدينة لأقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه قالوا
يا رسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر قالوا هذه المساواة مشروطة بشريطة أخرى سوى الضرر
قد ذكرت فى قوله تعالى ليس على الضعفاء ولا على المرضى إلى قوله إذا نصحوا لله ورسوله وقيل القاعدون الأول هم
الاضراء والثانى غيرهم وفيه من تفكيك النظم الكريم ما لا يخفى ولا ريب فى أن الاضراء أفضل من غيرهم درجة كما لا ريب
فى أنهم دون المجاهدين بحسب الدرجة الدنيوية (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) تذييل مقرر لما وعد من المغفرة
والرحمة (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) بيان لحال القاعدين عن الهجرة اثر بيان حال القاعدين عن الجهاد وتوفاهم
يحتمل أن يكون ماضيا ويؤيده قراءة من قرأ توفتهم وأن يكون مضارعا قد حذف منه إحدى التاءين واصله تتوفاهم
على حكاية الحال الماضية والقصد إلى استحضار صورتها ويعضده قراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت بمعنى إن
الله تعالى يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها أى يمكنهم من استيفائها فيستوفونها (ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) حال من ضمير
توفاهم فانه وإن كان مضافا إلى المعرفة الا أنه نكرة فى الحقيقة لأن المعنى على الانفصال وان كان موصولا فى اللفظ
كما فى قوله تعالى غير محلى الصيد وهديا بالغ الكعبة وثانى عطفه أى محلين الصيد وبالغا الكعبة وثانيا عطفه كأنه قيل
ظالمين أنفسهم وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفرة الموجبة للاخلال بأمور الدين فانها نزلت فى ناس من مكة
قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة (قَالُوا) أى الملائكة للمتوفين تقريرا لهم بتقصيرهم فى اظهار اسلامهم
وإقامة أحكامه من الصلاة ونحوها وتوبيخا لهم بذلك (فِيمَ كُنْتُمْ) أى فى أى شىء كنتم من أمور دينكم (قَالُوا)
استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا متجانفين عن الاقرار
الصريح بما هم فيه من التقصير متعللين بما يوجب على زعمهم (كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ) أى فى أرض مكة

عاجزين عن القيام بمواجب الدين فيما بين أهلها (قالوا) ابطالا لتعللهم وتبكيتا لهم (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) إلى قطر آخر منها تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة وأما حمل تعللهم على إظهار العجز عن الهجرة وجعل جواب الملائكة تكذيبا لهم فى ذلك فيرده أن سبب العجز عنها لا ينحصر فى فقدان دار الهجرة بل قد يكون لعدم الاستطاعة للخروج بسبب الفقر أو لعدم تمكين الكفرة منه فلا يكون بيان سعة الأرض تكذيبا لهم وردا عليهم بل لابد من بيان استطاعتهم أيضا حتى يتم التبكيت وقيل كانت الطائفة المذكورة قد خرجوا مع المشركين إلى بدر منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما فقتلوا فيها فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالوا لهم ما قالوا فيكون ذلك منهم تقريعا وتوبيخا لهم بما كانوا فيه من مساعدة الكفرة وانتظامهم فى عسكرهم ويكون جوابهم بالاستضعاف تعللا بأنهم كانوا مقهورين تحت أيديهم وأنهم أخرجوهم كارهين فردعليهم بأنهم كانوا بسبيل من الخلاص عن قهرهم متمكنين من المهاجرة (فأولئك) الذين حكيت أحوالهم الفظيعة (مأواهم) أى فى الآخرة (جهنم) كما أن مأواهم فى الدنيا دار الكفر لتركهم الفريضة المحتومة فمأواهم مبتدأ وجهنم خبره والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر ان والفاء فيه لتضمن اسمها معنى الشرط وقوله تعالى قالوا فيم كنتم حال من الملائكة باضمار قد عند من يشترطه أو هو الخبر والعائد منه محذوف أى قالوا لهم والجملة المصدرة بالفاء معطوفة عليه مستنتجة منه ومما فى حيزه (وساءت مصيرا) أى مصيرهم أى جهنم وفى الآية الكريمة ارشاد إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل من إقامة أمور دينه بأى سبب كان وعن النبى صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض إلى أرض وان كان شبرا من الأرض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام (إلا المستضعفين) استثناء منقطع لعدم دخولهم فى الموصول وضميره والاشارة اليه ومن فى قوله تعالى (من الرجال والنساء والولدان) متعلقة بمحذوف وقع حالا من المستضعفين اى كائنين منهم وذكر الولدان ان أريد بهم المماليك أو المراهقون ظاهر وأما إن اريد بهم الأطفال فللمبالغة فى أمر الهجرة وايهام أنها بحيث لو استطاعها غير المكلفين لوجبت عليهم والاشعار بأنهم لا محيص لهم عنها البتة تجب عليهم كما بلغوا حتى كأنها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا وأن قومهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت وقوله تعالى (لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) صفة للمستضعفين فان ما فيه من اللام ليس للتعريف أو حال منه أو من الضمير المستكن فيه وقيل تفسير لنفس المستضعفين لكثرة وجوه الاستضعاف واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة ومباديها واهتداء السبيل معرفة طريق الموضع المهاجر اليه بنفسه أو بدليل (فأولئك) إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز (عسى الله أن يعفو عنهم) جىء بكلمة الاطماع ولفظ العفو ايذانا بأن الهجرة من تأكد الوجوب بحيث ينبغى أن يعد تركها ممن تحقق عدم وجوبها عليه ذنبا يجب طلب العفو عنه رجاء وطمعا لا جزما وقطعا (وكان الله عفوا غفورا) تذييل مقرر لما قبله (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا) ترغيب فى المهاجرة وتأنيس لها أى يجد فيها متحولا ومهاجرا وإنما عبر عنه بذلك تأكيدا للترغيب لما فيه من الاشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة إلى ما يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هاجرهم والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب وقيل يجد فيه طريقا يراغم بسلوكه قومه أى يفارقهم على رغم أنوفهم (وسعة) أى من الرزق (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت) أى قبل أن يصل إلى المقصود إن كان ذلك خارج بابه كما ينبىء عنه ايثار الخروج من بيته على المهاجرة وهو عطف على فعل الشرط وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقيل هو حركة الهاء نقلت إلى الكاف على نية الوقف

كما فى قوله : من عنزى سبنى لم أضربه عجبت والدهر كثير عجبه

وقرىء بالنصب على إضمار أن كما فى قوله : وألحق بالحجاز فأستريحا (فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ) أى ثبت ذلك عنده تعالى ثبوت الأمر الواجب . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث بالآيات المتقدمة إلى مسلمى مكة قال جندب بن ضمرة لبنيه وكان شيخا كبيرا احملونى فانى لست من المستضعفين وإنى لأهتدى الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك رسولك فمات حميدا فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو توفى بالمدينة لكان أتم أجرا فنزلت . قالوا كل هجرة فى غرض دينى من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهى هجرة إلى الله عز وجل وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام (وَكَانَ اللهُ غَفُورًا) مبالغا فى المغفرة فيغفر له ما فرط منه من الذنوب التى من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج (رَحِيمًا) مبالغا فى الرحمة فيرحمه باكمال ثواب هجرته (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ) شروع فى بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمرض والمطر وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على المهاجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة أى إذا سافرتم أى مسافرة كانت ولذلك لم يقيد بما قيد به المهاجرة (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) أى حرج ومأثم (أَنْ تَقْصُرُوا) أى فى أن تقصروا والقصر خلاف المد يقال قصرت الشىء أى جعلته قصيرا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه فمتعلق القصر حقيقة إنما هو ذلك الشىء لا بعضه فانه متعلق الحذف دون القصر وعلى هذا فقوله تعالى (مِنَ الصَّلَوٰةِ) ينبغى أن يكون مفعولا لتقصروا على زيادة من حسبما رآه الأخفش وأما على تقدير أن تكون تبعيضية ويكون المفعول محذوفا كما هو رأى سيبويه أى شيئا من الصلاة فينبغى أن يصار إلى وصف الجزء بصفة الكل أو يراد بالقصر معنى الحبس يقال قصرت الشىء إذا حبسته أو يراد بالصلاة الجنس ليكون المقصور بعضا منها وهى الرباعيات أى فليس عليكم جناح فى أن تقصروا بعض الصلاة بتنصيفها وقرىء تقصروا من الإقصار وتقصروا من التقصير والكل بمعنى وأدنى مدة السفر الذى يتعلق به القصر عند أبى حنيفة مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الابل ومشى الأقدام بالاقتصاد وعند الشافعى مسيرة يومين وظاهر الآية الكريمة التخيير وأفضلية الاتمام وبه تعلق الشافعى وبما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه أتم فى السفر وعن عائشة رضى الله عنها أنها أتمت تارة وقصرت أخرى وعن عثمان رضى الله عنه أنه كان يتم ويقصر وعندنا يجب القصر لا محالة خلا أن بعض مشايخنا سماه عزيمة وبعضهم رخصة إسقاط بحيث لا مساغ للاتمام لا رخصة ترفيه إذ لا معنى للتخيير بين الأخف والأثقل وهو قول عمر وعلى وابن عباس وابن عمر وجابر رضوان الله عليهم وبه قال الحسن وعمر ابن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وقد روى عن عمر رضى الله عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه السلام وعن أنس رضى الله عنه خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة وعن عمران بن حصين رضى الله عنه ما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى السفر إلا ركعتين وصلى بمكة ركعتين ثم قال أتموا فانا قوم سفر وحين سمع ابن مسعود أن عثمان رضى الله عنه صلى بمنى أربع ركعات استرجع ثم قال صليت مع رسول الله عليه الصلاة والسلام بمنى ركعتين وصليت مع أبى بكر رضى الله عنه بمنى ركعتين وصليت مع عمر رضى الله عنه بمنى ركعتين فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبلتان وقد اعتذر عثمان رضى الله عنه عن اتمامه بأنه تأهل بمكة وعن الزهرى أنه إنما أتم لأنه أزمع الاقامة بمكة وعن عائشة رضى الله عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت فى السفر وزيدت فى الحضر وفى صحيح البخارى أنها قالت فرض الله الصلاة حين

فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر وأما ماروى عنها من الاتمام فقد اعتذرت عنه وقالت أنا أم المؤمنين فحيث حللت فهى دارى وإنما ورد ذلك بنفى الجناح لما أنهم ألفوا الاتمام فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا فى القصر فصرح بنفى الجناح عنهم لتطيب به نفوسهم ويطمئنوا اليه كما فى قوله تعالى فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما مع أن ذلك الطواف واجب عندنا ركن عند الشافعى وقوله تعالى (إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) جوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه أى إن خفتم أن يتعرضوا لكم بما تكرهونه من القتال وغيره فليس عليكم جناح الخ وهو شرط معتبر فى شرعية مايذكر بعده من صلاة الخوف المؤداة بالجماعة وأما فى حق مطلق القصر فلا اعتبار له اتفاقا لتظاهر السنن على مشروعيته حسبما وقفت على تفاصيلها وقد ذكر الطحاوى فى شرح الآثار مسندا إلى يعلى بن أمية أنه قال قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إنما قال الله فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة وإن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا وقد أمن الناس فقال عمر رضى الله عنه عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته وفيه دليل على عدم جواز الاكمال لأن التصدق بما لا يحتمل التمليك إسقاط محض لايحتمل الرد كما حقق فى موضعه ولا يتوهمن أنه مخالف للكتاب لأن التقييد بالشرط عندنا إنما يدل على ثبوت الحكم عند وجود الشرط وأما عدمه عند عدمه فساكت عنه فان وجد له دليل ثبت عنده أيضا والا يبقى على حاله لعدم تحقق دليله لا لتحقيق دليل عدمه وناهيك بما سمعت من الأدلة الواضحة وأما عند القائلين بالمفهوم فلأنه إنما يدل على نفى الحكم عند عدم الشرط إذا لم يكن له فائدة أخرى وقد خرج الشرط ههنا مخرج الأغلب كما فى قوله تعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا بل نقول إن الآية الكريمة مجملة فى حق مقدار القصر وكيفيته وفى حق مايتعلق به من الصلوات وفى مقدار مدة الضرب الذى نيط به القصر فكل ماورد عنه صلى الله عليه وسلم من القصر فى حال الامن وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف وبالضرب فى المدة المعينة بيان لاجمال الكتاب وقد قيل إن قوله تعالى إن خفتم الخ متعلق بما بعده من صلاة الخوف منفصل عما قبله فانه روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال نزل قوله تعالى وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حول فنزل إن خفتم الخ أى ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فليس عليكم جناح الخ وقد قرىء من الصلاة أن يفتنكم بغير إن خفتم على أنه مفعول لما دل عليه الكلام كأنه قيل شرع لكم ذلك كراهة أن يفتنكم الخ فان استمرار الاشتغال بالصلاة مظنة لاقتدارهم على إيقاع الفتنة وقوله تعالى (إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا) تعليل لذلك باعتبار تعلله بما ذكر أو لما يفهم من الكلام من كون فتنتهم متوقعة فان كمال عداوتهم للمؤمنين من موجبات التعرض لهم بسوء وقوله تعالى (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ) بيان لما قبله من النص المجمل الوارد فى مشروعية القصر بطريق التفريع وتصوير لكيفيته عند الضرورة التامة وتخصيص البيان بهذه الصورة مع الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنة لمزيد حاجتها اليه لما فيها من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية ومن ههنا ظهر لك أن مورد النص الشريف على المقصورة وحكم ماعداها مستفاد من حكمها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد وبظاهره يتعلق من لايرى صلاة الخوف بعده عليه السلام ولا يخفى أن الأئمة بعده نوابه عليه السلام قوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه السلام كما فى قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة وقد روى أن سعيد بن العاص لما أراد أن يصلى بطبرستان صلاة الخوف قال من شهد منكم صلاة الخوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فوصف له ذلك فصلى بهم كما وصف وكان ذلك بحضرة الصحابة رضى الله عنهم فلم ينكره أحد فحل محل الاجماع وروى

فى السنن أنهم غزوا مع عبد الرحمن بن سمرة بابل فصلى بهم صلاة الخوف (فأقمت لهم الصلوة) أى أردت أن تقيم بهم الصلاة (فلتقم طائفة منهم معك) بعد أن جعلتهم طائفتين ولتقف الطائفة الأخرى بازاء العدو ليحرسوكم منهم وإنما لم يصرح به لظهوره (وليأخذوا) أى الطائفة القائمة معك (أسلحتهم) أى لا يضعوها ولا يلقوها وإنما عبر عن ذلك بالأخذ للايذان بالاعتناء لاستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء (فإذا سجدوا) أى القائمون معك وأتموا الركعة (فليكونوا من ورائكم) أى فلينصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا) بعد وهى الطائفة الواقفة تجاه العدو للحراسة وإنما لم تعرف لما أنها لم تذكر فيما قبل (فليصلوا معك) الركعة الباقية ولم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين وقد بين ذلك بالنسبة حيث روى عن ابن عمر وابن مسعود رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الأولى ركعة وبالطائفة الأخرى ركعة كما فى الآية الكريمة ثم جاءت الطائفة الأولى وذهبت هذه إلى مقابلة العدو حتى قضت الأولى الركعة الأخيرة بلا قراءة وسلموا ثم جاءت الطائفة الأخرى وقضوا الركعة الأولى بقراءة حتى صار لكل طائفة ركعتان (وليأخذوا) أى هذه الطائفة (حذرهم وأسلحتهم) لعل زيادة الأمر بالحذر فى هذه المرة لكونها مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبى صلى الله عليه وسلم فى شغل شاغل وأما قبلها فربما يظنونهم قائمين للحرب وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لالقاء السلاح والاعراض عن غيرها ومئنة لهجوم العدو كما ينطق به قوله تعالى (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة وحدة) فانه استئناف مسوق لتعليل الأمر المذكور والخطاب للفريقين بطريق الالتفات أى تمنوا أن ينالوا منكم غرة وينتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة والمراد بالأمتعة ما يتمتع به فى الحرب لا مطلقا وهذا الأمر للوجوب لقوله تعالى (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) حيث رخص لهم فى وضعها إذا ثقل عليهم استصحابها بسبب مطر أو مرض وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل (وخذوا حذركم) لئلا يهجم العدو عليكم غيلة روى الكلبى عن أبى صالح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا محاربا وبنى أنمار فنزلوا ولا يرون من العدو أحدا فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادى والسماء ترش فحال الوادى بينه عليه السلام وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به غورث بن الحرث المحاربى فقال قتلنى الله إن لم أقتلك ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده فقال يا محمد من يعصمك منى الآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عز وجل ثم قال اللهم اكفنى غورث بن الحرث بما شئت ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب لوجهه من زلخة زلخها بين كتفيه فبدر سيفه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم قال يا غورث من يمنعك منى الآن قال لا أحد قال عليه الصلاة والسلام تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك قال لا ولكن أشهد أن لا أقاتلك أبدا ولا أعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث والله لأنت خير منى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحق بذلك منك فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فآمن بعضهم قال وسكن الوادى فقطع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر وقوله تعالى (إن الله أعد للكفرين عذابا مهينا) تعليل للامر بأخذ الحذر أى أعد لهم عذابا مهينا بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم ولا تهملوا فى مباشرة الأسباب كى يحل بهم عذابه بأيديكم وقيل لما كان الأمر بالحذر من العدو موهما لتوقع غلبته واعتزازه نفى

ذلك الايهام بأن الله تعالى ينصرهم ويهين عدوهم لتقوى قلوبهم (فإذا قضيتم الصلوة) أى صلاة الخوف أى أديتموها على الوجه المبين وفرغتم منها (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى فداوموا على ذكر الله تعالى وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه فى جميع الأحوال حتى فى حال المسايفة والقتال كما فى قوله تعالى إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (فإذا اطمأننتم) سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعدما وضعت الحرب أوزارها (فأقيموا الصلوة) أى الصلاة التى دخل وقتها حينئذ أى أدوها بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها وقيل المراد بالذكر فى الأحوال الثلاثة الصلاة فيها أى فاذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قياما عند المسايفة وقعودا جاثين على الركب عند المراماة وعلى جنوبكم مثخنين بالجراح فاذا اطمأننتم فى الجملة فاقضوا ما صليتم فى تلك الأحوال التى هى أحوال القلق والانزعاج وهو رأى الشافعى رحمه الله وفيه من البعد ما لا يخفى (إن الصلوة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) أى فرضا موقتا قال مجاهد وقته الله عليهم فلابد من إقامتها فى حالة الخوف أيضا على الوجه المشروح وقيل مفروضا مقدرا فى الحضر أربع ركعات وفى السفر ركعتين فلابد أن تؤدى فى كل وقت حسبما قدر فيه (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) أى لا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار بالقتال والتعرض لهم بالحراب وقوله تعالى (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) تعليل للنهى وتشجيع لهم أى ليس ما تقاسونه من الآلام مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم أنهم يصبرون على ذلك فما لكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب فى الآخرة ما لا يخطر ببالهم وقرىء أن تكونوا بفتح الهمزة أى لا تهنوا لأن تكونوا تألمون وقوله تعالى فانهم تعليل للنهى عن الوهن لأجله والآية نزلت فى بدر الصغرى (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم فيعلم أعمالكم وضمائركم (حكيما) فيما يأمر وينهى فجدوا فى الامتثال بذلك فان فيه عواقب حميدة (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) روى أن رجلا من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بنى ظفر سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان فى جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودى فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها فقال دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل فنزلت وروى أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله وقيل نزل على رجل من بنى سليم من أهل مكة يقال له الحجاج بن علاط فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع الدخول ولا الخروج فأخذ ليقتل فقيل دعه فانه قد لجأ اليك فتركوه وأخرجوه من مكة فالتحق بتجار من قضاعة نحو الشام فنزلوا منزلا فسرق بعض متاعهم وهرب فأخذوه ورجموه بالحجارة حتى قتلوه وقيل انه ركب سفينة إلى جدة فسرق فيها كيسا فيه دنانير فأخذ فألقى فى البحر (لتحكم بين الناس بما أريك الله) أى بما عرفك وأوحى به اليك (ولا تكن للخائنين) أى لأجلهم والذب عنهم وهم طعمة ومن يعينه من قومه أو هو ومن يسير بسيرته (خصيما) مخاصما للبرآء أى لا تخاصم اليهود لأجلهم والنهى معطوف على أمر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فاحكم به ولا تكن الخ (واستغفر الله) مما هممت به تعويلا على شهادتهم (إن الله كان غفورا رحيما) مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يستغفره (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) أى يخونونها بالمعصية كقوله تعالى علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلما لها لرجوع ضررها اليهم والمراد بالموصول اما طعمة وأمثاله واما هو ومن عاونه

وشهد ببراءته من قومه فانهم شركاء له فى الاثم والخيانة (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا) مفرطا فى الخيانة مصرا عليها (أَثِيمًا) منهمكا فيه وتعليق عدم المحبة الذى هو كناية عن البغض والسخط بالمبالغ فى الخيانة والاثم ليس لتخصيصه به بل لبيان افراط طعمة وقومه فيهما (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ) يستترون منهم حياء وخوفا من ضررهم (وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ) أى لا يستحيون منه سبحانه وتعالى وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه (وَهُوَ مَعَهُمْ) عالم بهم وبأحوالهم فلا طريق إلى الاستخفاء منه سوى ترك ما يستقبحه ويؤاخذ به (إِذْ يُبَيِّتُونَ) يدبرون ويزورون (مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ) من رمى البرىء والحلف الكاذب وشهادة الزور (وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ) من الأعمال الظاهرة والخافية (مُحِيطًا) لا يعزب عنه شىء منها ولا يفوت (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ) تلوين للخطاب وتوجيه له اليهم بطريق الالتفات ايذانا بأن تعديد جناياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع والجملة مبتدأ وخبر وقوله تعالى (جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) جملة مبينة لوقوع أولاء خبرا ويجوز أن يكون أولاء اسما موصولا بمعنى الذين وجادلتم الخ صلة له والمجادلة أشد المخاصمة والمعنى هبوا انكم خاصمتم عن طعمة وأمثاله فى الدنيا (فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فمن يخاصم عنهم يومئذ عند تعذيبهم وعقابهم (أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى وانتقامه (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا) قبيحا يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودى (أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ) بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل السوء ما دون الشرك والظلم الشرك وقيل هما الصغيرة والكبيرة (ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ) بالتوبة الصادقة (يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا) لذنوبه كائنة ما كانت (رَحِيمًا) متفضلا عليه وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة كما مر (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا) من الآثام (فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ) حيث لا يتعدى ضرره ووباله إلى غيره فليحترز عن تعريضها للعقاب والعذاب عاجلا وآجلا (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا) مبالغا فى العلم (حَكِيمًا) مراعيا للحكمة فى كل ما قدر وقضى ولذلك لا يحمل وازرة وزر أخرى (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً) صغيرة أو ما لا عمد فيه من الذنوب وقرىء ومن يكسب بكسر الكاف وتشديد السين وأصله يكتسب (أَوْ إِثْمًا) كبيرة أو ما كان من عمد (ثُمَّ يَرْمِ بِهِ) أى يقذف به ويسنده وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان أو وتذكيره لتغليب الاثم على الخطيئة كأنه قيل ثم يرم بأحدهما وقرىء يرم بهما وقيل الضمير للكسب المدلول عليه بقوله تعالى يكسب وثم للتراخى فى الرتبة (بَرِيئًا) أى بما رماه به ليحمله عقوبته العاجلة كما فعله طعمة بزيد (فَقَدِ احْتَمَلَ) أى بما فعل من تحميل جريرته على البرىء (بُهْتَانًا) وهو الكذب على الغير بما يبهت منه ويتحير عند سماعه لفظاعته وهوله وقيل هو الكذب الذى يتحير فى عظمه (وَإِثْمًا مُبِينًا) أى بينا فاحشا وهو صفة لاثما وقد اكتفى فى بيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمى كأنه قيل بهتانا لا يقادر قدره واثما مبينا على أن وصف الاثم بما ذكر بمنزلة وصف البهتان به لأنهما عبارة عن أمر واحد هو رمى البرىء بجناية نفسه قد عبر عنه بهما تهويلا لأمره وتفظيعا لحاله فمدار العظم والفخامة كون المرمى به للرامى فان رمى البرىء بجناية ما خطيئة كانت أو اثما بهتان واثم فى نفسه أما كونه بهتانا فظاهر وأما كونه اثما فلان كون الذنب بالنسبة إلى من فعله خطيئة لا يلزم منه كونه بالنسبة إلى من نسبه إلى البرىء منه أيضا كذلك بل لا يجوز ذلك قطعا كيف لا وهو كذب محرم فى جميع الاديان فهو فى نفسه بهتان واثم لا محالة وبكون تلك الجناية للرامى يتضاعف ذلك شدة ويزداد قبحا لكن لا لانضمام جنايته المكسوبة إلى رمى البرىء والا لكان الرمى بغير جناية مثله فى العظم ولا لمجرد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة والا لكان الرمى بغير جناية مع تبرئة نفسه كذلك فى العظم بل لاشتماله على قصد تحميل جنايته على البرىء

واجراء عقوبتها عليه كما ينبىء عنه إيثار الاحتمال على الاكتساب ونحوه لمافيه من الايذان بانعكاس تقديره مع مافيه من الاشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر نعم بماذكر من انضمام كسبه وتبرئة نفسه إلى رمى البرىء تزداد الجناية قبحا لكن تلك الزيادة وصف للمجموع لا للاثم (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ) باعلامك ماهم عليه بالوحى وتنبيهك على الحق وقيل بالنبوة والعصمة (لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ) أى من بنى ظفر وهم الذابون عن طعمة وقد جوز أن يكون المراد بالطائفة كلهم ويكون الضمير راجعا إلى الناس وقيل هم وفد بنى ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا اجئناك لنبايعك على أن لاتكسر أصنامنا ولا تعشرنا فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (أَنْ يُضِلُّوكَ) أى بأن يضلوك عن القضاء بالحق مع علمهم بكنه الأمر والجملة جواب لولا وإنما نفى همهم مع أن المنفى إنماهو تأثيره فقط ايذانا بانتفاء تأثيره بالكلية وقيل المراد هو الهم المؤثر ولاريب فى انتفائه حقيقة وقيل الجواب محذوف أى لأضلوك وقوله تعالى لهمت جملة مستأنفة أى لقد همت طائفة الخ (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ) لاقتصار وبال مكرهم عليهم من غير أن يصيبك منه شىء والجملة اعتراض وقوله تعالى (وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ) عطف عليه ومحل الجار والمجرور النصب على المصدرية أى ومايضرونك شيئا من الضرر لما أنه تعالى عاصمك وأماماخطر ببالك فكان عملا منك بظاهر الحال ثقة بأقوال القائلين من غير أن يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك (وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) أى القرآن الجامع بين العنوانين وقيل المراد بالحكمة السنة (وَعَلَّمَكَ) بالوحى من خفيات الأمور التى من جملتها وجوه ابطال كيد المنافقين أو من أمور الدين وأحكام الشرع (مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) ذلك إلى وقت التعليم (وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) إذ لافضل أعظم من النبوة العامة والرياسة التامة (لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ) أى فى كثير من تناجى الناس (إِلَّا مَنْ أَمَرَ) أى الافى نجوى من أمر (بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ) وقيل المراد بالنجوى المتناجون بطريق المجاز وقيل النجوى جمع نجى نقله الكرمانى وأياما كان فالاستثناء متصل ويجوز الانقطاع أيضا على معنى لكن من أمر بصدقة الخ ففى نجواه الخير . والمعروف كل مايستحسنه الشرع ولا ينكره العقل فينتظم أصناف الجميل وفنون أعمال البر وقد فسر ههنا بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع على أن المراد بالصدقة الصدقة الواجبة (أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) عند وقوع المشاقة والمعاداة بينهم من غير أن يجاوز فى ذلك حدود الشرع الشريف وبين اما متعلق بنفس اصلاح يقال أصلحت بين القوم أو بمحذوف هو صفة له أى كائن بين الناس عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم فقال بلى يارسول الله قال تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا قالوا ولعل السر فى افراده هذه الأقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدى إلى الناس إما لإيصال المنفعة أو لدفع المضرة والمنفعة اما جسمانية كاعطاء المال واليه الإشارة بقوله تعالى إلامن أمر بصدقة وامار وحانية واليه الإشارة بالأمر المعروف وأمادفع الضرر فقد أشير اليه بقوله تعالى أواصلاح بين الناس (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) إشارة إلى الأمور المذكورة أعنى الصدقة والمعروف والاصلاح فانه يشاربه إلى متعدد ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بها للايذان ببعد منزلتها ورفعة شأنها وترتيب الوعد على فعلها اثر بيان خيرية الأمر بها لما أن المقصود الأصلى هو الترغيب فى الفعل وبيان خيرية الأمر به للدلالة على خيريته بالطريق الأولى لما أن مدار حسن الأمر وقبحه حسن المأمور به وقبحه فحيث ثبت خيرية الأمر بالامور المذكورة فخيرية فعلها أثبت وفيه تحريض للآمر بها على فعلها أو إشارة إلى الأمر بها كأنه قيل ومن يأمر بها والكلام فى ترتيب الوعد على فعلها كالذى مر فى الخيرية فان استتباع الأمر بها للاجر العظيم إنما هو لكونه ذريعة إلى فعلها فاستتباعه له

أولى وأحق (ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ) علة للفعل والتقييد به لأن الأعمال بالنيات وأن من فعل خير آلغير ذلك لم يستحق به غير الحرمان (فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ) بنون العظمة على الالتفات وقرىء بالياء (أَجْراً عَظِيماً) يقصر عنه الوصف (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ) التعرض لعنوان الرسالة لاظهار كمال شناعة ما اجترؤا عليه من المشاقة والمخالفة وتعليل الحكم الآتى بذلك (مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى) ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات الدالة على نبوته (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ) أى غير ما هم مستمرون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم (نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى) أى نجعله واليا لما تولاه من الضلال ونخذله بأن نخلى بينه وبين ما اختاره (وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ) أى ندخله اياها وقرىء بفتح النون من صلاه (وَسَاءَتْ مَصِيراً) أى جهنم وفيها دلالة على حجية الاجماع وحرمة مخالفته (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) قدمر تفسيره فيما سبق وهو تكرير للتأكيد والتشديد أو لقصة طعمة وقدمر موته كافرا. وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن شيخا من العرب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى شيخ منهمك فى الذنوب إلا أنى لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصى جراءة على الله تعالى وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا وانى لنادم تائب مستغفر فما ترى حالى عند الله تعالى فنزلت (وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً) عن الحق فان الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة كما أنه افتراء وإثم عظيم ولذلك جعل الجزاء فى هذه الشرطية فقد ضل الخ وفيما سبق فقد افترى اثما عظيما حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ) أى ما يعبدون من دونه عز وجل (إِلَّا إِنَاثاً) يعنى اللات والعزى ومناة ونحوها. عن الحسن أنه لم يكن من أحياء العرب حى الا كان لهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان قيل لأنهم كانوا يقولون فى أصنامهم هن بنات الله وقيل لأنهم كانوا يلبسونها أنواع الحلى ويزينونها على هيآت النسوان وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله وقيل تسميتها اناثا لتأنيث أسمائها أو لأنها فى الأصل جماد والجمادات تؤنث من حيث أنها ضاهت الاناث لانفعالها وإيرادها بهذا الاسم للتنبيه على فرط حماقة عبدتها وتناهى جهلهم والاناث جمع أنثى كرباب وربى وقرىء على التوحيد وأنثا أيضا على أنه جمع أنيث كقليب وقلب أو جمع إناث كثمار وثمر وقرىء وثنا واثنا بالتخفيف والتثقيل جمع وثن كقولك أسد وأسد وآسد على الأصل وقلب الواو ألفا نحو أجوه فى وجوه (وَإِن يَدْعُونَ) وما يعبدون بعبادتها (إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً) إذ هو الذى أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها فكانت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو الذى لا يعلق بخير وأصل التركيب للملابسة ومنه صرح ممرد وشجرة مرداء للتى تناثر ورقها (لَعَنَهُ اللهُ) صفة ثانية لشيطانا (وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً) عطف على الجملة المتقدمة أى شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله وهذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن ولقد برهن على أن عبادة الأصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن ما يعبدونها ينفعل ولا يفعل فعلا اختياريا وذلك ينافى الألوهية غاية المنافاة ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان وهو أفظع الضلال من وجوه ثلاثة الأول أنه منهمك فى الغى لا يكاد يعلق بشىء من الخير والهدى فتكون طاعته ضلالا بعيدا عن الحق والثانى أنه ملعون لضلاله فلا تستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال والثالث أنه فى غاية السعى فى اهلاكهم واضلالهم فموالاة من هذا شأنه غاية الضلال فضلا عن عبادته والمفروض المقطوع أى نصيبا قدر لى وفرض من قولهم فرض له فى العطاء (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ) الأمانى الباطلة كطول الحياة وأن لا بعث ولا عقاب ونحو ذلك (وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ) أى فليقطعنها بموجب أمرى ويشقنها من غير تلعثم فى ذلك ولا تأخير وذلك ما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب (وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ) ممتثلين به (خَلْقَ اللهِ)

عن نهجه صورة أو صفة ويندرج فيه ماقيل من فقء عين الحامي وخصاء العبيد والوشم والوشر ونحو ذلك وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا لكن الفقهاء رخصوا في البهائم لمكان الحاجة وهذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالا أو حالا ومافيها من اللامات كلها للقسم والمأمور به في الموضعين محذوف ثقة بدلالة النظم عليه (وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ) بايثار مايدعو اليه على ماأمر الله تعالى به ومجاوزته عن طاعة الله تعالى إلى طاعته (فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا) لأنه ضيع رأس ماله بالكلية واستبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار (يَعِدُهُمْ) أي مالا يكاد ينجزه (وَيُمَنِّيهِمْ) أي الأماني الفارغة أو يفعل لهم الوعد والتمنية على طريقة فلان يعطي ويمنع والضميران لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد في يتخذ وخسر باعتبار لفظها (وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا) وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد إما بالقاء الخواطر الفاسدة أو بألسنة أوليائه وغرورا إما مفعول ثان للوعد أو مفعول لأجله أو نعت لمصدر محذوف أي وعدا ذا غرور أو مصدر على غير لفظ المصدر لأن يعدهم في قوة يغرهم بوعده والجملة اعتراض وعدم التعرض للتمنية لأنها باب من الوعد (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى أولياء الشيطان ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم في الخسران وهو مبتدأ وقوله تعالى (مَأْوَاهُمْ) مبتدأ ثان وقوله تعالى (جَهَنَّمُ) خبر للثاني والجملة خبر للأول (وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا) أي معدلا ومهربا من حاص الحمار إذا عدل وقيل خلص ونجا وقيل الحيص هو الروغان بنفور وعنها متعلق بمحذوف وقع حالا من محيصا أي كائنا عنها ولا مساغ لتعلقه بمحيصا أما إذا كان اسم مكان فظاهر وأما إذا كان مصدرا فلأنه لايعمل فيما قبله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) مبتدأ خبره قوله تعالى (سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) قرن وعيد الكفرة بوعد المؤمنين زيادة لمسرة هؤلاء ومساءة أولئك (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا) أي وعده وعدا وحق ذلك حقا فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الاسمية وعد والثاني مؤكد لغيره ويجوز أن ينتصب الموصول بمضمر يفسره مابعده وينتصب وعد الله بقوله تعالى سندخلهم لأنه في معنى نعدهم ادخال جنات الخ وحقا على أنه حال من المصدر (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) جملة مؤكدة بليغة والمقصود من الآية معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه والمبالغة في تأكيده ترغيبا للعباد في تحصيله والقيل مصدر كالقول والقال وقال ابن السكيت القيل والقال اسمان لا مصدران ونصبه على التمييز وقرىء باشمام الصاد وكذا كل صاد ساكنة بعدها دال (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ) أي ليس ماوعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالايمان والعمل الصالح ولعل نظم أماني أهل الكتاب في سلك أماني المسلمين مع ظهور حالها للايذان بعدم اجداء أماني المسلمين أصلا كما في قوله تعالى ولا الذين يموتون وهم كفار كما سلف وعن الحسن ليس الايمان بالتمني ولكن ماوقر في القلب وصدقه العمل إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل وقيل إن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله تعالى منكم فقال المسلمون نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب المتقدمة فنزلت وقيل الخطاب للمشركين ويؤيده تقدم ذكرهم أي ليس الأمر بأماني المشركين وهو قولهم لا جنة ولا نار وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيرا منهم وأحسن حالا وقولهم لأوتين مالا وولدا ولا أماني أهل الكتاب وهو قولهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى وقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ثم قرر ذلك بقوله تعالى (مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) عاجلا أو آجلا لما روي أنه لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه فمن ينجو مع هذا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تحزن

أو تمرض أو يصيبك البلاء قال بلى يا رسول الله قال هو ذاك (وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ) أى مجاوز الموالاة الله ونصرته (وَلِيًّا) يواليه (وَلَا نَصِيرًا) ينصره فى دفع العذاب عنه (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) أى بعضها أو شيأ منها فان كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفا بها (مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى) فى موضع الحال من المستكن فى يعمل ومن للبيان أو من الصالحات فمن للابتداء أى كائنة من ذكر الخ (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) حال شرط اقتران العمل بها فى استدعاء الثواب المذكور تنبيها على أنه لا اعتداء به دونه (فأولئك) إشارة إلى من بعنوان اتصافه بالإيمان والعمل الصالح والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة من الإشعار بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته فى الشرف (يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) وقرىء يدخلون مبنيا للمفعول من الادخال (وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) أى لا ينقصون شيأ حقيرا من ثواب أعمالهم فان النقير علم فى القلة والحقارة وإذا لم ينقص ثواب المطيع فلأن لا يزاد عقاب العاصى أولى وأحرى كيف لا والمجازى أرحم الراحمين وهو السر فى الاقتصار على ذكره عقيب الثواب (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) أى أخلص نفسه له تعالى لا يعرف له ربا سواه وقيل بذل وجهه فى السجود وقيل أخلص عمله له عز وجل وقيل فوض أمره اليه تعالى وهذا انكار واستبعاد لأن يكون أحد أحسن دينا ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن لم يكن سبك التركيب متعرضا لإنكار المساواة ونفيها يرشدك اليه العرف المطرد والاستعمال الفاشى فانه إذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وعليه مساق قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى ونظائره ودينا نصب على التميز من أحسن منقول من المبتدا والتقدير ومن دينه أحسن من دين من أسلم الخ فالتفضيل فى الحقيقة جار بين الدينين لا بين صاحبيهما ففيه تنبيه على أن ذلك أقصى ما تنتهى اليه القوة البشرية (وَهُوَ مُحْسِنٌ) أى آت بالحسنات تارك للسيئات أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة حال من فاعل أسلم (وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها وقبولها (حَنِيفًا) مائلا عن الأديان الزائغة وهو حال من فاعل اتبع أو من ابراهيم (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) اصطفاه وخصه بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله وإظهاره عليه الصلاة والسلام فى موقع الاضمار لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه الممدوح وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية والخلة من الخلال فانه ود تخلل النفس وخالطها وقيل من الخلل فان كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر أو من الخل وهو الطريق فى الرمل فانهما يتوافقان فى الطريقة أو من الخلة بمعنى الخصلة فانهما يتوافقان فى الخصال وفائدة الاعتراض جمة من جملتها الترغيب فى اتباع ملته عليه السلام فان من بلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغا مصححا التسمية خليلا حقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم ما يمتد اليه أعناق الهمم وأشرف ما يرمق نحوه أحداق الأمم قيل إنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر فى أزمة أصابت الناس يمتار منه فقال خليله لو كان ابراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ولكنه يريدها للاضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع غلمانه عليه الصلاة والسلام فاجتازوا ببطحاء لينة فملؤا منها الغرائر حياء من الناس وجاؤا بها إلى منزل ابراهيم عليه الصلاة والسلام وألقوها فيه وتفرقوا وجاء أحدهم فأخبر ابراهيم بالقصة فاغتم لذلك غما شديدا ولا سيما لاجتماع الناس ببابه رجاء الطعام فغلبه عيناه وعمدت سارة إلى الغرائر فاذا فيها أجود ما يكون من الحوارى فاختبزت وفى رواية فأطعمت الناس وانتبه ابراهيم عليه السلام فاشتم رائحة الخبز فقال من أين لكم قالت سارة من خليلك المصرى فقال بل من عند خليلى الله عز وجل فسماه الله تعالى خليلا (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) جملة مبتدأة سيقت لتقرير وجوب طاعة الله

تعالى على أهل السموات والأرض بيان أن جميع مافيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا لايخرج عن ملكوته شيء منها فيجازى كلا بموجب أعماله خيرا وشرا وقيل لبيان أن اتخاذه عزوجل لابراهيم عليه السلام خليلا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك فى شأن من شئونه كما هو دأب الآدميين فان مدار خلتهم افتقار بعضهم إلى بعض فى مصالحهم بل لمجرد تكرمته وتشريفه عليه السلام وقيل لبيان أن الخلة لاتخرجه عن رتبة العبودية وقيل لبيان أن اصطفاءه عليه السلام للخلة بمحض مشيئته تعالى أى له تعالى مافيهما جميعا يختار منهما مايشاء لمن يشاء وقوله عزوجل ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله على الوجوه المذكورة فان احاطته تعالى علما وقدرة بجميع الأشياء التى من جملتها مافيهما من المكلفين وأعمالهم بما يقرر ذلك أكمل تقرير ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ﴾ أى فى حقهن على الاطلاق كما ينبىء عنه الأحكام الآتية لا فى حق ميراثهن خاصة فانه صلى الله عليه وسلم قد سئل عن أحوال كثيرة مما يتعلق بهن فما بين حكمه فيما سلف أحيل بيانه على ماورد فى ذلك من الكتاب ومالم يبين حكمه بعد بين ههنا وذلك قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ﴾ باسناد الافتاء الذى هو تبيين المبهم وتوضيح المشكل اليه تعالى والى مايتلى من الكتاب فيما سبق باعتبارين على طريقة قولك أغنانى زيد وعطاؤه بعطف ماعلى المبتدا أو ضميره فى الخبر لمكان الفصل بالمفعول والجار والمجرور وإيثار صيغة المضارع للايذان باستمرار التلاوة ودوامها فى الكتاب اما متعلق بيتلى أو بمحذوف وقع حالا من المستكن فيه أى يتلى كائنا فيه ويجوز أن يكون مايتلى عليكم مبتدأ وفى الكتاب خبره على أن المراد به اللوح المحفوظ والجملة معترضة مسوقة لبيان عظم شأن المتلو عليهم وأن العدل فى الحقوق المبينة فيه من عظائم الأمور التى تجب مراعاتها والمحافظة عليها فما يتلى حينئذ متناول لماتلى وماسيتلى ويجوز أن يكون مجرورا على القسم المنبىء عن تعظيم المقسم به وتفخيمه كأنه قيل قل الله يفتيكم فيهن وأقسم بمايتلى عليكم فى الكتاب فالمراد بقوله تعالى يفتيكم بيانه السابق واللاحق ولامساغ لعطفه على المجرور من فيهن لاختلاله لفظا ومعنى وقوله تعالى ﴿فِى يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ على الوجه الأول وهو الأظهر متعلق بيتلى أى مايتلى عليكم فى شأنهن وعلى الأخيرين بدل من فيهن وهذه الاضافة بمعنى من لأنها اضافة الشىء إلى جنسه وقرىء ييامى على قلب همزة أيامى ياء ﴿الَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أى مافرض لهن من الميراث وغيره ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ عطف على الصلة عطف جملة مثبتة على جملة منفية وقيل حال من فاعل تؤتونهن بتأويل وأنتم ترغبون ولاريب فى أنه لايظهر لتقييد عدم الايتاء بذلك فائدة الا اذا أريد بما كتب لهن صداقهن ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أى فى أن تنكحوهن لالأجل التمتع بهن بل لأكل مالهن أو فى أن تنكحوهن بغير اكمال الصداق وذلك ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها من أنها اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن فى اكمال الصداق أوعن أن تنكحوهن وذلك ماروى عنها رضى الله عنها أنها يتيمة يرغب وليها عن نكاحها ولاينكحها فيعضلها طمعا فى ميراثها وفى رواية عنها رضى الله عنها هو الرجل يكون عنده يتيمة هو وليها ووارثها وشريكها فى المال حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فالمراد بما كتب لهن على الوجه الأول والاخير ميراثهن وبمايتلى فى حقهن قوله تعالى وآتوا اليتامى أموالهم وقوله تعالى ولا تأكلوها ونحوهما من النصوص الدالة على عدم التعرض لأموالهم وعلى الوجه الثانى صداقهن وبما يتلى فيهن قوله تعالى وان خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى الآية ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ عطف على يتامى النساء ومايتلى فى حقهم قوله تعالى يوصيكم الله الخ وقد كانوا فى الجاهلية لايورثونهم كما لايورثون النساء وانما يورثون الرجال القوام بالأمور روى أن عيينة بن حصن الفزارى جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنا بأنك تعطى الابنة النصف

والأخت النصف وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه الصلاة والسلام كذلك أمرت (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) بالجر عطف على ماقبله ومايتلى فى حقهم قوله تعالى ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ونحو ذلك مما لا يكاد يحصر هذا على تقدير كون فى يتامى النساء متعلقا بيتلى وأما على تقدير كونه بدلا من فيهن فالوجه نصبه عطفا على موضع فيهن أى يفتيكم أن تقوموا ويجوز نصبه باضمار فعل أى ويأمركم وهو خطاب للولاة أو للأولياء والأوصياء (وما تفعلوا) فى حقوق المذكورين (من خير) حسبما أمرتم به أو ماتفعلوه من خير على الاطلاق فيندرج فيه مايتعلق بهم اندراجا أوليا (فإن الله كان به عليما) فيجازيكم بحسبه (وإن امرأة خافت) شروع فى بيان مالم يبين فيما سلف من الأحكام أى ان توقعت امرأة (من بعلها نشوزا) أى تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها (أو إعراضا) بأن يقل محادثتها ومؤانستها لمايقتضى ذلك من الدواعى والأسباب (فلا جناح عليهما) حينئذ (أن يصلحا بينهما صلحا) أى فى أن يصلحا بينهما بأن تحط له المهر أو بعضه أو القسم كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبت يومها لعائشة رضى الله عنها أو بأن تهب له شيأ تستميله وقرىء يصالحا من يتصالحا ويصلحا من يصطلحا ويصالحا من المفاعلة وصلحا إما منصوب بالفعل المذكور على كل تقدير على أنه مصدر منه بحذف الزوائد وقد يعبر عنه باسم المصدر كأنه قيل اصلاحا أو تصالحا أو اصطلاحا حسبما قرىء الفعل أو بفعل مترتب على المذكور أى فيصلح حالهما صلحا وبينهما ظرف للفعل أو حال من صلحا والتعرض لنفى الجناح عنهما مع أنه ليس من جانبها الأخذ الذى هو المظنة للجناح لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطى والآخذ (والصلح خير) أى من الفرقة أو من سوء العشرة أو من الخصومة فاللام للعهد أو هو خير من الخيور فاللام للجنس والجملة اعتراض مقرر لماقبله وكذا قوله تعالى (وأحضرت الأنفس الشح) أى جعلت حاضرة له مطبوعة عليه لاتنفك عنه أبدا فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ولا الرجل يجود بحسن المعاشرة مع دمامتها فان فيه تحقيقا للصلح وتقريرا له بحث كل منهما عليه لكن لا بالنظر إلى حال نفسه فان ذلك يستدعى التمادى فى المماكسة والشقاق بل بالنظر إلى حال صاحبه فان شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلية بغير استمالة مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها إليه لاستمالته وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على أن يقتنع من قبلها بشىء يسير ولا يكلفها بذل الكثير فيتحقق بذلك الصلح (وإن تحسنوا) فى العشرة (وتتقوا) النشوز والإعراض وان تعاضدت الأسباب الداعية إليهما وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة ولم تضطروهن إلى بذل شىء من حقوقهن (فإن الله كان بما تعملون) أى من الإحسان والتقوى أو بما تعملون جميعا فيدخل ذلك فيه دخولا أوليا (خبيرا) فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتة لاستحالة أن يضيع أجر المحسنين وفى خطاب الأزواج بطريق الالتفات والتعبير عن رعاية حقوقهن بالاحسان ولفظ التقوى المنبىء عن كون النشوز والاعراض مما يتوقى منه وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب فى حسن المعاملة مالا يخفى . روى أنها نزلت فى عمرة بنت محمد بن مسلمة وزوجها سعد بن الربيع تزوجها وهى شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة وآثرها عليها وجفاها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكت إليه ذلك وقيل نزلت فى أبى السائب كانت له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لاتطلقنى ودعنى على أولادى فاقسم لى من كل شهرين ان شئت وإن شئت فلا تقسم لى فقال إن كان يصلح ذلك فهو أحب إلى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) أى محال أن تقدروا على أن تعدلوا بينهن بحيث لايقع ميل ما إلى جانب إحداهن فى شأن من الشئون

البتة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما
تملك ولا أملك وفي رواية وأنت أعلم بما لا أملك يعني فرط محبته لعائشة رضي الله عنها (وَلَوْ حَرَصْتُمْ) أي على إقامة
العدل وبالغتم في ذلك (فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ) أي فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور واعدلوا ما استطعتم فإن
عجزكم عن حقيقة العدل إنما يصحح عدم تكليفكم بها لا بما دونها من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم (فَتَذَرُوهَا) أي
التي ملتم عنها (كَالْمُعَلَّقَةِ) التي ليست ذات بعل أو مطلقة وقرئ كالمسجونة وفي الحديث من كانت له امرأتان يميل
مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل (وَإِنْ تُصْلِحُوا) ما كنتم تفسدون من أمورهن (وَتَتَّقُوا) الميل
فيما يستقبل (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا) يغفر لكم ما فرط منكم من الميل (رَحِيمًا) يتفضل عليكم برحمته (وَإِنْ
يَتَفَرَّقَا) وقرئ يتفارقا أي وإن يتفارق كل منهما صاحبه بأن لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما من الصلح وغيره (يُغْنِ
اللَّهُ كُلًّا) منهما أي يجعله مستغنيا عن الآخر ويكفه مهماته (مِنْ سَعَتِهِ) من غناه وقدرته وفيه زجر لهما عن
المفارقة رغما لصاحبه (وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا) مقتدرا متقنا في أفعاله وأحكامه وقوله تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ) أي من الموجودات كائنا ما كان من الخلائق وأرزاقهم وغير ذلك جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته
وعظم قدرته (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ) أي أمرناهم في كتابهم وهم اليهود والنصارى
ومن قبلهم من الأمم واللام في الكتاب للجنس ومن متعلقة بوصينا أو بأوتوا (وَإِيَّاكُمْ) عطف على الموصول (أَنِ اتَّقُوا
اللَّهَ) أي وصينا كلا منكم ومنهم بأن اتقوا الله على أن أن مصدرية حذف عنها الجار ويجوز أن تكون مفسرة لأن التوصية
في معنى القول فقوله تعالى (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) حينئذ من تتمة القول المحكي أي
ولقد قلنا لهم ولكم اتقوا الله وإن تكفروا إلى آخر الآية وعلى تقدير كون أن مصدرية مبنى الكلام إرادة القول أي أمرناهم
وإياكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم إن تكفروا الآية وقيل هي جملة مستأنفة خوطب بها هذه الأمة وأيا ما كان فالمترتب على
كفرهم ليس مضمون قوله تعالى فإن لله الآية بل هو الأمر بعلمه كأنه قيل وإن تكفروا فاعلموا أن لله ما في السموات
وما في الأرض من الخلائق قاطبة مفتقرون إليه في الوجود وسائر النعم المتفرعة عليه لا يستغنون عن فيضه طرفة عين
فحقه أن يطاع ولا يعصى ويتقى عقابه ويرجى ثوابه وقد قرر ذلك بقوله تعالى (وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا) أي عن الخلق وعبادتهم
(حَمِيدًا) محمودا في ذاته حمدوه أو لم يحمدوه فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم وإنما وصاهم
بالتقوى لرحمته لا لحاجته (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) كلام مبتدأ مسوق للمخاطبين توطئة لما بعده من
الشرطية غير داخل تحت القول المحكي أي له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقا وملكا يتصرف فيهم كيفما يشاء إيجادا وإعداما
وإحياء وإماتة (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) في تدبير أمور الكل وكل الأمور فلا بد من أن يتوكل عليه لا على أحد سواه
(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ) أي يفنكم ويستأصلكم بالمرة (وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) أي ويوجد دفعة مكانكم قوما
آخرين من البشر أو خلقا آخرين مكان الإنس ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أي إن يشأ إفناءكم وإيجاد
آخرين يذهبكم الخ يعني أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق مشيئته المبنية
على الحكم البالغة بإفنائكم لا لعجزه سبحانه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ) أي على إفنائكم بالمرة
وإيجاد آخرين دفعة مكانكم (قَدِيرًا) بليغ القدرة وفيه لا سيما في توسيط الخطاب بين الجزاء وما عطف عليه من تشديد
التهديد ما لا يخفى وقيل هو خطاب لمن عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب أي إن يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين
يوالونه فمعناه هو معنى قوله تعالى وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول

الله صلى الله عليه وسلم يده على ظهر سلمان وقال انهم قوم هذا يريد أبناء فارس (مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنيا) كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة (فعِندَ اللهِ ثَوابُ الدُّنيا والآخرةِ) أى فعنده تعالى ثوابهما له ان أراده فماله يطلب أخسهما فليطلبهما كمن يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب أشرفهما فان من جاهد خالصا لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة وله فى الآخرة ماهى فى جنبه كلاشىء أى فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلا مايريده كقوله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه الآية (وكانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً) عالما بجميع المسموعات والمبصرات فيندرج فيها ماصدر عنهم من الأقوال والأعمال المتعلقة بمراداتهم اندراجا أوليا (يا أيُّها الذينَ آمَنوا كونُوا قوّامِينَ بالقِسْطِ) مبالغين فى العدل واقامة القسط فى جميع الأمور مجتهدين فى ذلك حق الاجتهاد (شُهَداءَ للهِ) بالحق تقيمون شهاداتكم لوجه الله تعالى وهو خبر ثان وقيل حال (ولوْ على أنفسِكُمْ) أى ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقروا عليها على أن الشهادة عبارة عن الاخبار بحق الغير سواء كان ذلك عليه أو على ثالث بان تكون الشهادة مستتبعة لضرر ينالكم من جهة المشهود عليه (أوِ الوالِدَيْنِ والأقرَبِينَ) أى ولو كانت على والديكم وأقاربكم (ان يَكُنْ) أى المشهود عليه (غَنِيّاً) يبتغى فى العادة رضاه ويتقى سخطه (أوْ فَقِيراً) يترحم عليه غالبا وقرىء ان يكن غنى أو فقير على أن كان تامة وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى (فاللهُ أوْلَى بِهِمَا) عليه أى فلا تمتنعوا عنها طلبا لرضا الغنى أو ترحما على الفقير فان الله تعالى أولى بجنسى الغنى والفقير المدلول عليهما بما ذكر ولولا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها وقرىء أولى بهم (فَلا تَتَّبِعوا الهَوَى أنْ تَعْدِلوا) أى مخافة أن تعدلوا عن الحق فان اتباع الهوى من مظان الجور الذى حقه أن يخاف ويحذر وقيل كراهة أن تعدلوا بين الناس أو ارادة أن تعدلوا عن الحق (وإن تَلْوُوا) أى ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل بأن تأتوا بها لا على وجهها وقرىء وان تلوا من الولاية والتصدى أى وان وليتم اقامة الشهادة (أوْ تُعرِضُوا) أى عن اقامتها رأسا (فإنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلونَ) من لى الالسنة والاعراض بالكلية أو من جميع الأعمال التى من جملتها ماذكر (خَبِيراً) فيجازيكم لامحالة على ذلك فهو على القراءة المشهورة وعيد محض وعلى القراءة الأخيرة متضمن للوعيد (يا أيُّها الذينَ آمَنوا) خطاب لكافة المسلمين فمعنى قوله تعالى (آمِنوا باللهِ ورَسُولِهِ والكِتابِ الذِى نَزَّلَ على رَسُولِهِ والكِتابِ الذِى أنزَلَ مِن قَبْلُ) اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه وازدادوا فيه طمأنينة ويقينا أو آمنوا بما ذكر مفصلا بناء على أن إيمان بعضهم اجمالى والمراد بالكتاب الثانى الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية لقوله تعالى وكتبه وبالإيمان به الإيمان بأن كل كتاب من تلك الكتب منزل منه تعالى على رسول معين لارشاد امته إلى ماشرع لهم من الدين بالأوامر والنواهى لكن لاعلى أن مدار الإيمان بكل واحد من تلك الكتب خصوصية ذلك الكتاب ولا على أن أحكام تلك الكتب وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقى منها معتبر بالاضافة اليها بل على أن الإيمان بالكل مندرج تحت الإيمان بالكتاب المنزل على رسوله وأن أحكام كل منها كانت حقة ثابتة إلى ورود مانسخها وأن مالم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل كما مر فى تفسير خاتمة سورة البقرة وقرىء نزل وأنزل على البناء للمفعول وقيل هو خطاب لمؤمنى أهل الكتاب لما أن عبد الله بن سلام وابن أخته سلامة وابن أخيه سلمة وأسدا وأسيدا ابنى كعب وثعلبة بن قيس ويامين بن يامين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال عليه السلام بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فقالوا لانفعل فنزلت فآمنوا كلهم فأمرهم بالإيمان بالكتاب المتناول للتوراة مع أنهم مؤمنون بها من قبل

ليس لكون المراد بالإيمان مايعم انشاءه والثبات عليه ولا لأن متعلق الأمر حقيقة هو الإيمان بماعداها كأنه قيل آمنوا بالكل ولا تخصوه بالبعض بل لأن المأمور به إنما هو الإيمان بها فى ضمن الإيمان بالقرآن على الوجه الذى أشير اليه آنفا لا إيمانهم السابق ولان فيه حملا لهم على التسوية بينها وبين سائر الكتب فى التصديق لاشتراك الكل فيما يوجبه وهو النزول من عند الله تعالى وقيل خطاب لأهل الكتابين فالمعنى آمنوا بالكل لا ببعض دون بعض وأمر كل طائفة بالإيمان بكتابه فى ضمن الأمر بالإيمان بجنس الكتاب لما ذكر وقيل هو للمنافقين فالمعنى آمنوا بقلوبكم لا بألسنتكم فقط (وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) أى بشىء من ذلك (فَقَدْ ضَلَّ ضَلٰلًا بَعِيدًا) عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه وزيادة الملائكة واليوم الآخر فى جانب الكفر لما أن بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلا وجمع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل وتقديم الرسول فيما سبق لذكر الكتاب بعنوان كونه منزلا عليه وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لإنهم وسايط بين الله عز وجل وبين الرسل فى انزال الكتب (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسى (ثُمَّ كَفَرُوا) بعبادتهم العجل (ثُمَّ ءَامَنُوا) عند عوده اليهم (ثُمَّ كَفَرُوا) بعيسى والإنجيل (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم قوم تكرر منهم الارتداد وأصروا على الكفر وازدادوا تماديا فى الغى (لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا) لما أنه يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان فان قلوبهم قد ضربت بالكفر وتمرنت على الردة وكان الإيمان عندهم أهون شىء وأدونه لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم وخبر كان محذوف أى مريدا ليغفر لهم وقوله عز وجل (بَشِّرِ الْمُنٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) يدل على أن المراد بالمذكورين الذين آمنوا فى الظاهر نفاقا وكفروا فى السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا كفرا ونفاقا ووضع بشر موضع أنذر تهكما بهم (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ) فى محل النصب أو الرفع على الذم بمعنى أريد بهم الذين أو هم الذين وقيل نصب على أنه صفة للمنافقين وقوله تعالى (مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) حال من فاعل يتخذون أى يتخذون الكفرة أنصارا متجاوزين ولاية المؤمنين وكانوا يوالونهم ويقول بعضهم لبعض لا يتم أمر محمد عليه الصلاة والسلام فتولوا اليهود (أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ) انكار لرأيهم وابطال له وبيان لخيبة رجائهم وقطع لأطماعهم الفارغة والجملة معترضة مقررة لما قبلها أى أيطلبون بموالاة الكفرة القوة والغلبة. قال الواحدى أصل العزة الشدة ومنه قيل للأرض الشديدة الصلبة عزاز وقوله تعالى (فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا) تعليل لما يفيده الاستفهام الانكارى من بطلان رأيهم وخيبة رجائهم فان انحصار جميع أفراد العزة فى جنابه عز وعلا بحيث لا ينالها الا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة قال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين يقضى ببطلان التعزز بغيره سبحانه وتعالى واستحالة الانتفاع به وقيل هو جواب شرط محذوف كأنه قيل ان يبتغوا عندهم عزة فان العزة لله وجميعا حال من المستكن فى قوله تعالى لله لاعتماده على المبتدا (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ) خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ الذى يستدعيه تعداد جناياتهم وقرىء مبنيا للمفعول من التنزيل والانزال ونزل أيضا مخففا والجملة حال من ضمير يتخذون أيضا مفيدة لكمال قباحة حالهم ونهاية استعصائهم عليه سبحانه ببيان أنهم فعلوا ما فعلوا من موالاة الكفرة مع تحقق ما يمنعهم من ذلك وهو ورود النهى الصريح عن مجالستهم المستلزم للنهى عن موالاتهم على أبلغ وجه وآكده اثر بيان انتفاء ما يدعوهم اليه بالجملة المعترضة كأنه قيل تتخذونهم أولياء والحال أنه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا بمكة (فِى الْكِتٰبِ) أى القرآن الكريم (أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايٰتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّٰى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ) وذلك قوله تعالى وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض

عنهم الآية وهذا يقتضى الانزجار عن مجالستهم فى تلك الحالة القبيحة فكيف بمو الاتهم والاعتزاز بهم وأن هى المخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف والجملة الشرطية خبرها وقوله تعالى يكفر بها حال من آيات الله وقوله تعالى ويستهزأ بها عطف عليه داخل فى حكم الحالية وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها أى نزل عليكم فى الكتاب أنه إذا سمعتم آية الله مكفورا بها ومستهزأ بها وفيه دلالة على أن المنزل على النبى عليه السلام وان خوطب به خاصة منزل على الأمة وأن مدار الاعراض عنهم هو العلم بخوضهم فى الآيات ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسماع وأن المراد بالاعراض اظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الاعراض بالقلب أو بالوجه فقط والضمير فى معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله تعالى يكفر بها ويستهزأ بها (إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ) جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهى غير داخلة تحت التنزيل وإذن ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدا والخبر أى لا تقعدوا معهم فى ذلك الوقت انكم ان فعلتموه كنتم مثلهم فى الكفر واستتباع العذاب وافراد المثل لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالاضافة إلى الجمع وقرىء شاذا مثلهم بالفتح لاضافته إلى غير متمكن كما فى قوله تعالى مثل ما أنكم تنطقون وقيل هو منصوب على الظرفية أى فى مثل حالهم وقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً) تعليل لكونهم مثلهم فى الكفر ببيان مايستلزمه من شركتهم لهم فى العذاب والمراد بالمنافقين اما المخاطبون وقد وضع موضع ضميرهم المظهر تسجيلا بنفاقهم وتعليلا للحكم بمأخذ الاشتقاق واما الجنس وهم داخلون تحته دخولا أوليا وتقديم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين ونصب جميعا مثل ماقبله (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين بتعديد بعض آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم وهو إما بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين فقط إذهم المتربصون دون الكافرين أو مرفوع أو منصوب على الذم أى ينتظرون أمركم ومايحدث لكم من ظفر أو اخفاق والفاء فى قوله تعالى (فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ) لترتيب مضمونه على ماقبلها فان حكاية تربصهم مستتبعة لحكاية مايقع بعد ذلك كما أن نفس التربص يستدعى شيئا ينتظر المتربص وقوعه (قَالُوا) أى لكم (أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ) أى مظاهرين لكم فأسهموا لنا فى الغنيمة (وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ) من الحرب فانها سجال (قَالُوا) أى للكفرة (أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ) أى ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم (وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ماضعفت به قلوبهم ومرضوا فى قتالكم وتوانينا فى مظاهرتهم وإلا لكنتم نهبة للنوائب فهاتوا نصيبا لنا بما أصبتم وتسمية ظفر المسلمين فتحا وما للكافرين نصيبا لتعظيم شأن المسلمين وتخسيس حظ الكافرين وقرىء ونمنعكم باضمار أن (فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) حكما يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب وأما فى الدنيا فقد أجرى على من تفوه بكلمة الاسلام حكمه ولم يضع السيف على من تكلم بها نفاقا (وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) حينئذ كما قد يجعل ذلك فى الدنيا بطريق الابتلاء والاستدراج أو فى الدنيا على أن المراد بالسبيل الحجة (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) كلام مبتدأ سيق لبيان طرف آخر من قبائح أعمالهم أى يفعلون مايفعل المخادع من اظهار الايمان وابطان نقيضه والله فاعل بهم مايفعل الغالب فى الخداع حيث تركهم فى الدنيا معصومى الدماء والأموال وأعدلهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار وقدمر التحقيق فى صدر سورة البقرة وقيل يعطون على الصراط نورا كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين فينادون انظرونا نقتبس من نوركم (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَى) متثاقلين كالمكره على الفعل وقرىء بفتح الكاف وهما جمعا كسلان (يُرَاءُونَ النَّاسَ) ليحسبوهم مؤمنين والمراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم أو للمقابلة فان المرائى يرى غيره

عمله وهو يريه استحسانه والجملة اما استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يريدون بقيامهم اليها كسالى فقيل يراءون الخ أو حال من ضمير قاموا (وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) عطف على يراءون أى لا يذكرونه سبحانه إلا ذكرا قليلا وهو ذكرهم باللسان فانه بالاضافة إلى الذكر بالقلب قليل أو إلا زمانا قليلا أو لا يصلون إلا قليلا لأنهم لا يصلون إلا بمرأى من الناس وذلك قليل وقيل لا يذكرونه تعالى فى الصلاة إلا قليلا عند التكبير والتسليم (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ) حال من فاعل يراءون أو منصوب على الذم وذلك إشارة إلى الايمان والكفر المدلول عليهما بمعونة المقام أى مرددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان وحقيقة المذبذب ما يذب ويدفع عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى وقرىء بكسر الذال أى مذبذبين قلوبهم أو رأيهم أو دينهم أو هو بمعنى متذبذبين كما جاء صلصل بمعنى تصلصل وفى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه متذبذبين وقرىء مدبدبين بالدال غير المعجمة وكأن المعنى أخذ بهم تارة فى دبة أى طريقة وأخرى فى أخرى (لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ) أى لا منسوبين إلى المؤمنين ولا منسوبين إلى الكافرين أو لا صائرين إلى الأولين ولا إلى الآخرين فمحله النصب على أنه حال من ضمير مذبذبين أو على أنه بدل منه أو بيان وتفسير له (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ) لعدم استعداده للهداية والتوفيق (فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) موصلا إلى الحق والصواب فضلا عن أن تهديه اليه والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) نهوا عن موالاة الكفرة صريحا وإن كان فى بيان حال المنافقين مزجرة عن ذلك مبالغة فى الزجر والتحذير (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) أى أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون فان موالاتهم أوضح أدلة النفاق أو سلطانا يسلط عليكم عقابه وتوجيه الانكار إلى الارادة دون متعلقها بأن يقال أتجعلون الخ للمبالغة فى انكاره وتهويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلا عن صدور نفسه كما فى قوله عز وجل أم تريدون أن تسألوا رسولكم (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) وهو الطبقة التى فى قعر جهنم وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة حيث ضموا إلى الكفر الاستهزاء بالاسلام وأهله وخداعهم وأما قوله عليه السلام ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ونحوه فمن باب التشديد والتهديد والتغليظ مبالغة فى الزجر وتسمية طبقاتها السبع دركات لكونها متداركة متتابعة بعضها تحت بعض وقرىء بفتح الراء وهو لغة كالسطر والسطر ويعضده أن جمعه أدراك (وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) يخلصهم منه والخطاب كما سبق (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) أى عن النفاق وهو استثناء من المنافقين بل من ضميرهم فى الخبر (وَأَصْلَحُوا) ما أفسدوا من أحوالهم فى حال النفاق (وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ) أى وثقوا به وتمسكوا بدينه (وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ) أى جعلوه خالصا (لِلَّهِ) لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه (فَأُولَٰئِكَ) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد المنزلة وعلو الطبقة (مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) أى المؤمنين المعهودين الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلا منذ آمنوا والا فهم أيضا مؤمنون أى معهم فى الدرجات العالية من الجنة وقد بين ذلك بقوله تعالى (وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) لا يقادر قدره فيساهمونهم فيه (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ) استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم وجودا وعدما إنما هو كفرهم لا شىء آخر فيكون مقررا لما قبله من اثابتهم عند توبتهم وما استفهامية مفيدة للنفى على أبلغ وجه وآكده أى أى شىء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم أيتشفى به من الغيظ أم يدرك به الثأر أم يستجلب به نفعا أم يستدفع به ضررا كما هو شأن الملوك وهو الغنى المتعالى عن أمثال ذلك وإنما هو أمر يقتضيه كفركم فاذا زال ذلك بالايمان والشكر انتفى التعذيب لا محالة وتقديم الشكر على الايمان لما أنه طريق موصل

اليه فان الناظر يدرك أولا ماعليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شكرا مبهما ثم يترقى إلى معرفة المنعم فيؤمن به وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه (وكانَ اللهُ شاكِراً) الشكر من الله سبحانه هو الرضا باليسير من طاعة عباده وإضعاف الثواب بمقابلته (عَليماً) مبالغا فى العلم بجميع المعلومات التى من جملتها شكركم وإيمانكم فيستحيل أن لايوفيكم أجوركم (لايحبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ منَ القَوْلِ) عدم محبته تعالى لشىء كناية عن سخطه والباء متعلقة بالجهر ومن بمحذوف وقع حالا من السوء أى لايحب الله تعالى أن يجهر أحد بالسوء كائنا من القول (إلاَّ مَن ظُلِمَ) أى الاجهر من ظلم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ويذكره بما فيه من السوء فان ذلك غير مسخوط عنده سبحانه وقيل هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم ولمن انتصر بعد ظلمه الآية وقيل ضاف رجل قوما فلم يطعموه فاشتكاهم فعوتب على الشكاية فنزلت وقرىء الامن ظلم على البناء للفاعل فالاستثناء منقطع أى ولكن الظالم يرتكب مالايحبه الله تعالى فيجهر بالسوء (وكانَ اللهُ سَميعاً) لجميع المسموعات فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم (عَليماً) بجميع المعلومات التى من جملتها حال المظلوم والظالم فالجملة تذييل مقرر لمايفيده الاستثناء (إنْ تُبْدُوا خَيْراً) أى خير كان من الأقوال والأفعال (أوْ تُخْفُوهُ أوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ) مع ما سوغ لكم من مؤاخذة المسىء والتنصيص عليه مع اندراجه فى ابداء الخير وإخفائه لما أنه الحقيق بالبيان وإنما ذكر ابداء الخير وإخفاؤه بطريق التسبيب له كما ينبىء عنه قوله عز وجل (فإنَّ اللهَ كانَ عفُوّاً قدِيراً) فان إيراده فى معرض جواب الشرط يدل على أن العمدة هو العفو مع القدرة أى كان مبالغا فى العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة وقال الحسن يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى وقال الكلبى هو أقدر على عفو ذنوبكم منكم على عفو ذنوب من ظلمكم وقيل عفوا عمن عفا قديرا على ايصال الثواب اليه (إنَّ الذينَ يَكفُرُونَ باللهِ ورُسُلهِ) أى يؤدى اليه مذهبهم ويقتضيه رأيهم لا لأنهم يصرحون بذلك كما ينبىء عنه قوله تعالى (ويُريدُونَ أنْ يُفرِّقوا بَينَ اللهِ ورُسُلهِ) أى بأن يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم لكن لابأن يصرحوا بالايمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبة بل بطريق الاستلزام كما يحكيه قوله تعالى (ويَقولونَ نُؤمِنُ ببَعضٍ ونَكفُرُ ببَعْضٍ) أى نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم كما قالت اليهود نؤمن بموسى والتوراة وعزير ونكفر بماوراء ذلك وماذاك الا كفر بالله تعالى ورسله وتفريق بين الله تعالى ورسله فى الايمان لأنه تعالى قد أمرهم بالايمان بجميع الأنبياء عليهم السلام وما من نبى من الأنبياء الا وقد أخبر قومه بحقية دين نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل وبالله تعالى من حيث لايحتسب (ويُريدُونَ) بقولهم ذلك (أنْ يتَّخِذوا بَينَ ذلِكَ) أى بين الايمان والكفر (سَبيلاً) يسلكونه مع أنه لاواسطة بينهما قطعا إذ الحق لايختلف وماذا بعد الحق الا الضلال (أولئكَ) الموصوفون بالصفات القبيحة (همُ الكٰفِرُونَ) الكاملون فى الكفر لاعبرة بمايدعونه ويسمونه إيمانا أصلا (حَقاً) مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى حق ذلك أى كونهم كاملين فى الكفر حقا أو صفة لمصدر الكافرين أى هم الذين كفروا كفرا حقا أى ثابتا يقينا لاريب فيه (وأعْتَدْنا لِلكٰفِرينَ) أى لهم وانما وضع المظهر مكان المضمر ذما لهم وتذكير الوصفهم أو لجميع الكافرين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا (عَذاباً مُهيناً) سيذوقونه عند حلوله (والذينَ ءامَنوا باللهِ ورُسُلهِ) أى على الوجه الذى بين فى تفسير قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله الآية (ولمْ يُفرِّقوا بَينَ أحَدٍ مِّنهُمْ) بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين كما فعله الكفرة ودخول بين على أحد قد مر تحقيقه فى سورة البقرة بمالامزيد عليه (أولٰئكَ) المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (سَوْفَ يُؤْتيهِمْ أجُورَهُمْ) الموعودة لهم وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لامحالة

وان تراخى وقرىء نؤتيهم بنون العظمة (وَكَانَ اللهُ غَفُوراً) لما فرط منهم (رَحِيماً) مبالغا فى الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم (يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰباً مِّنَ السَّمَاءِ) نزلت فى أحبار اليهود حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا فائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كتابا محررا بخط سماوى على اللوح كما نزلت التوراة أو كتابا نعاينه حين ينزل أو كتابا إلينا بأعياننا بأنك رسول الله وما كان مقصدهم بهذه العظيمة إلا التحكم والتعنت قال الحسن ولو سألوه لكى يتبينوا الحق لأعطاهم وفيما آتاهم كفاية (فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ) جواب شرط مقدر أى ان استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى شيأ أكبر منه وقيل تعليل للجواب أى فلا تبال بسؤالهم فقد سألوا موسى أكبر منه وهذه المسئلة وان صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم فى كل ما يأتون وما يذرون أسندت اليهم والمعنى أن لهم فى ذلك عرقا راسخا وأن ما اقترحوا عليك ليس أول جهالاتهم (فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً) أى أرناه نره جهرة أى عيانا أو مجاهرين معاينين له والفاء تفسيرية (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّـٰعِقَةُ) أى النار التى جاءت من السماء فأهلكتهم وقرىء الصعقة (بِظُلْمِهِمْ) أى بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى تلك الحالة التى كانوا عليها وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا (ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ) أى المعجزات التى أظهرها لفرعون من العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم بعد (فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ) ولم نستأصلهم وكانوا أحقاء به قيل هذا استدعاء لهم إلى التوبة كأنه قيل إن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم فتوبوا أنتم أيضا حتى نعفو عنكم (وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰناً مُّبِيناً) سلطانا ظاهرا عليهم حيث أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ) أى بسبب ميثاقهم ليعطوه على ما روى أنهم امتنعوا عن قبول شريعة التوراة فرفع الله تعالى عليهم الطور فقبلوها أو ليخافوا فلا ينقضوه على ما روى أنهم هموا بنقضه فرفع الله تعالى عليهم الجبل فخافوا وأقلعوا عن النقض وهو الأنسب بما سيأتى من قوله عز وجل وأخذنا منهم ميثاقا غليظا (وَقُلْنَا لَهُمُ) على لسان موسى عليه السلام والطور مظل عليهم (ادْخُلُوا الْبَابَ) قال قتادة كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس وقيل هو أيليا وقيل هو أريحا وقيل هو اسم قرية وقيل باب القبة التى كانوا يصلون اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام (سُجَّداً) أى متطامنين خاضعين (وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا) أى لا تظلموا باصطياد الحيتان (فِى السَّبْتِ) وقرىء لا تعتدوا ولا تعدوا بفتح العين وتشديد الدال على أن أصله تعتدوا فادغمت التاء فى الدال لتقاربهما فى المخرج بعد نقل حركتها الى العين (وَأَخَذْنَا مِنْهُم) على الامتثال بما كلفوه (مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً) مؤكدا وهو العهد الذى أخذه الله عليهم فى التوراة قيل انهم أعطوا الميثاق على أنهم ان هموا بالرجوع عن الدين فالله تعالى يعذبهم بأى أنواع العذاب أراد (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ) ما مزيدة للتأكيد أو نكرة تامة ونقضهم بدل منها والباء متعلقة بفعل محذوف أى فبسبب نقضهم ميثاقهم ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم أو على أعقابهم . روى أنهم اعتدوا فى السبت فى عهد داود عليه السلام فلعنوا ومسخوا قردة وقيل متعلقة بحرمنا على أن قوله تعالى فبظلم بدل من قوله تعالى فبما ماعطف عليه فيكون التحريم معللا بالكل ولا يخفى أن قولهم انا قتلنا المسيح وقولهم على مريم البهتان متأخر عن التحريم ولا مساغ لتعلقها بما دل عليه قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم لأنه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون من صلة قوله تعالى وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل فى جاره (وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ اللهِ) أى بالقرآن أو بما فى كتابهم (وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) كزكريا ويحيى عليهما السلام (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ) جمع أغلف أى هى مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل اليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

أو هو تخفيف غلف جمع غلاف أى هى أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبي يعنون ان قلوبنا بحيث لا يصل اليها حديث إلا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضا (بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) كلام معترض بين المعطوفين جىء به على وجه الاستطراد مسارعة إلى رد زعمهم الفاسد أى ليس كفرهم وعدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غلفا بحسب الجبلة بل الأمر بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم او ليست قلوبهم كما زعموا بل هى مطبوع عليها بسبب كفرهم (فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً) منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه أو الا ايمانا قليلا لا يعبأ به (وَبِكُفْرِهِمْ) أى بعيسى عليه السلام وهو عطف على قولهم وإعادة الجار لطول ما بينهما بالاستطراد وقد جوز عطفه على بكفرهم فيكون هو وما عطف عليه من أسباب الطبع وقيل هذا المجموع معطوف على مجموع ما قبله وتكرير ذكر الكفر للايذان بتكرر كفرهم حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام (وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا) لا يقادر قدره حيث نسبوها إلى ما هى عنه بألف منزل (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ) نظم قولهم هذا فى سلك سائر جناياتهم التى نعيت عليهم ليس لمجرد كونه كذبا بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبى عليه السلام والاستهزاء به فان وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة انما هو بطريق التهكم به عليه السلام كما فى قوله تعالى يا أيها الذى نزل عليه الذكر الخ ولإنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى مكان ذكرهم القبيح وقيل هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى مدحا له ورفعا لمحله عليه السلام وإظهارا لغاية جراءتهم فى تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم فى افتخارهم بذلك (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ) حال أو اعتراض (وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) روى أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير فأجمعت اليهود على قتله فأخبره تعالى بأنه يرفعه إلى السماء فقال لأصحابه أيكم يرضى بأن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فألقى الله تعالى عليه شبهه فقتل وصلب وقيل كان رجل ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عيسى عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام وقيل ان ططيانوس اليهودى دخل بيتا كان هو فيه فلم يجده وألقى الله تعالى عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى عليه السلام فأخذ وقتل وأمثال هذه الخوارق لا تستبعد فى عصر النبوة وقيل إن اليهود لما هموا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى إلى السماء خاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة بين عوامهم فاخذوا إنسانا وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس وأظهروا لهم أنه هو المسيح وما كانوا يعرفونه إلا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام لهم إلا قليلا وشبه مسند إلى الجار والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول أو فى الأمر على قول من قال لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثمة مقتولا (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ) أى فى شأن عيسى عليه السلام فانه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود إنه كان كاذبا فقتلناه حتما وتردد آخرون فقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وقال من سمع منه عليه السلام ان الله يرفعنى إلى السماء إنه رفع إلى السماء وقال قوم صلب الناسوت وصعد اللاهوت (لَفِي شَكٍّ مِنْهُ) لفى تردد والشك كما يطلق على ما لم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكد بقوله تعالى (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ) استثناء منقطع أى لكنهم يتبعون الظن ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن اليه النفس جزما كان أو غيره فالاستثناء حينئذ متصل (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) أى قتلا يقينا كما زعموا بقولهم إنا قتلنا المسيح وقيل معناه وما علموه يقينا

كما فى قول من قال : كذاك تخبر عنها العالمات بها وقد قتلت بعلمى ذلكم يقنا
من قولهم قتلت الشىء علما ونحرته علما إذا تبالغ علمك فيه وفيه تهكم بهم لإشعاره بعلمهم فى الجملة وقد نفى ذلك عنهم بالكلية (بل رفعه الله إليه) رد وإنكار لقتله وإثبات لرفعه (وكان الله عزيزا) لا يغالب فيما يريده (حكيما) فى جميع أفعاله فيدخل فيها تدبيراته تعالى فى أمر عيسى عليه السلام دخولا أوليا (وإن من أهل الكتاب) أى من اليهود والنصارى وقوله تعالى (إلا ليؤمنن به قبل موته) جملة قسمية وقعت صفة لموصوف محذوف اليه يرجع الضمير الثانى والأول لعيسى عليه السلام أى وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهق روحه بأنه عبدالله ورسوله ولات حين إيمان لانقطاع وقت التكليف ويعضده أنه قرىء ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون لما أن أحدا فى معنى الجمع وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه فسره كذلك فقال له عكرمة فان أتاه رجل فضرب عنقه قال لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه قال فان خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به وعن شهر بن حوشب قال لى الحجاج آية ما قرأتها إلا تخالج فى نفسى شىء منها يعنى هذه الآية وقال انى أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك فقلت ان اليهودى اذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدو الله أتاك عيسى عليه السلام نبيا فكذبت به فيقول آمنت أنه عبد نبى وتقول للنصرانى أتاك عيسى عليه السلام نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله فيؤمن أنه عبدالله ورسوله حيث لا ينفعه ايمانه قال وكان متكئا فاستوى جالسا فنظر إلى وقال ممن سمعت هذا قلت حدثنى محمد بن على بن الحنفية فأخذ ينكت الأرض بقضيبه ثم قال لقد أخذتها من عين صافية والاخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض على المسارعة إلى الايمان به قبل أن يضطروا اليه مع انتفاء جدواه وقيل كلا الضميرين لعيسى والمعنى وما من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . روى أنه عليه السلام ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ويهلك الله فى زمانه الدجال وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الابل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات ويلبث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه وقيل الضمير الأول يرجع إلى الله تعالى وقيل الى محمد صلى الله عليه وسلم (ويوم القيمة يكون) أى عيسى عليه السلام (عليهم) على أهل الكتاب (شهيدا) فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (فبظلم من الذين هادوا) لعل ذكرهم بهذا العنوان للايذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعد ما هادوا أى تابوا من عبادة العجل مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخع النفوس اثر بيان عظمه فى حد ذاته بالتنوين التفخيمى أى بسبب ظلم عظيم خارج عن حدود الاشباه والاشكال صادر عنهم (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) ولمن قبلهم لا بشىء غيره كما زعموا فانهم كانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها يحرم عليهم نوع من الطيبات التى كانت محللة لهم ولمن تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم وكانوا مع ذلك يفترون على الله سبحانه ويقولون لسنا بأول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر الينا فكذبهم الله عز وجل فى مواقع كثيرة وبكتهم بقوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين أى فى ادعائكم أنه تحريم قديم . روى أنه عليه السلام لما كلفهم اخراج التوراة لم يجسر أحد على اخراجها لما أن كون التحريم بظلمهم كان مسطورا فيها فبهتوا وانقلبوا صاغرين (وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) أى ناسا كثيرا أو صدا كثيرا (وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه) فان

الرباكان محرما عليهم كما هو محرم علينا وفيه دليل على أن النهى يدل على حرمة المنهى عنه (وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ) أى للمصرين على الكفر لا لمن تاب وآمن من بينهم (عَذَاباً أَلِيماً) سيذوقونه فى الآخرة كما ذاقوا فى الدنيا عقوبة التحريم (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ) استدراك من قوله تعالى وأعتدنا الخ وبيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلا وآجلا أى لكن الثابتون فى العلم منهم المتقنون المستبصرون فيه غير التابعين للظن كأولئك الجهلة والمراد بهم عبد الله بن سلام وأصحابه (وَالْمُؤْمِنُونَ) أى منهم وصفوا بالايمان بعدما وصفوا بما يوجبه من الرسوخ فى العلم بطريق العطف المنبىء عن المغايرة بين المعطوفين تنزيلا للاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى وقوله تعالى (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) حال من المؤمنون مبينة لكيفية إيمانهم وقيل اعتراض مؤكد لما قبله وقوله عز وجل (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ) قيل نصب باضمار فعل تقديره وأعنى المقيمين الصلاة على أن الجملة معترضة بين المبتدا والخبر وقيل هو عطف على ما أنزل اليك على أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام أى يؤمنون بالكتب وبالأنبياء أو الملائكة قال مكى أى ويؤمنون بالملائكة الذين صفتهم إقامة الصلاة لقوله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقيل عطف على الكاف فى اليك أى يؤمنون بما أنزل اليك وإلى المقيمين الصلاة وهم الأنبياء وقيل على الضمير المجرور فى منهم أى لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة وقرىء بالرفع على أنه معطوف على المؤمنون بناء على ما مر من تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى وكذا الحال فيما سيأتى من المعطوفين فان قوله تعالى (وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) عطف على المؤمنون مع اتحاد الكل ذاتا وكذا الكلام فى قوله تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) فان المراد بالكل مؤمنو أهل الكتاب قد وصفوا أولا بكونهم راسخين فى علم الكتاب ايذانا بأن ذلك موجب للايمان حتما وأن من عداهم إنما بقوا مصرين على الكفر لعدم رسوخهم فيه ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع والاحكام واكتفى من بينها بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المستتبعين لسائر العبادات البدنية والمالية ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد تحقيقا لحيازتهم الايمان بقطريه وإحاطتهم به من طرفيه وتعريضا بأن من عداهم من أهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقة فانهم بقولهم عزير ابن الله مشركون بالله سبحانه وبقولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة كافرون باليوم الآخر وقوله تعالى (أُولَئِكَ) إشارة اليهم باعتبار اتصافهم بما عدد من الصفات الجليلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً) خبره والجملة خبر للمبتدا الذى هو الراسخون وما عطف عليه والسين لتأكيد الوعد وتنكير الاجر للتفخيم وهذا أنسب بتجاوب طرفى الاستدراك حيث أوعد الأولون بالعذاب الاليم ووعد الآخرون بالاجر العظيم كأنه قيل إثر قوله تعالى وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما لكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجرا عظيما وأما ما جنح اليه الجمهور من جعل قوله تعالى يؤمنون بما أنزل اليك الخ خبرا للمبتدا ففى كمال السداد خلا أنه غير متعرض لتقابل الطرفين وقرىء سيؤتيهم بالياء مراعاة لظاهر قوله تعالى والمؤمنون بالله (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بأنه ليس بدعا من الرسل وإنما شأنه فى حقيقة الارسال وأصل الوحى كشأن سائر مشاهير الأنبياء الذين لا ريب لأحد فى نبوتهم والكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى إيحاء مثل ايحائنا إلى نوح أو على أنه حال من ذلك المصدر المقدر معرفا كما هو رأى سيبويه أى أوحينا الايحاء حال كونه مشبها بايحائنا الخ ومن بعده متعلق بأوحينا وإنما بدىء بذكر نوح

لأنه أبو البشر وأول نبي شرع الله تعالى على لسانه الشرائع والأحكام وأول نبي عذبت أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض (وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ) عطف على أوحينا إلى نوح داخل معه فى حكم التشبيه أى وكما أوحينا إلى ابراهيم (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) وهم أولاد يعقوب عليهم السلام (وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ) خصوا بالذكر مع ظهور انتظامهم فى سلك النبيين تشريفا لهم واظهارا لفضلهم كما فى قوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال وتصريحا بمن ينتمى اليهم اليهود من الأنبياء وتكرير الفعل لمزيد تقرير الايحاء والتنبيه على أنهم طائفة خاصة مستقلة بنوع مخصوص من الوحى (وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) قال القرطبي كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما هى حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى وقرىء بضم الزاء وهو جمع زبر بمعنى مزبور والجملة عطف على أوحينا داخل فى حكمه لأن ايتاء الزبور من باب الإيحاء أى وكما آتينا داود زبورا وإيثاره على وأوحينا إلى داود لتحقيق المماثلة فى أمر خاص هو إيتاء الكتاب بعد تحقيقها فى مطلق الايحاء ثم أشير إلى تحقيقها فى أمر لازم لهما لزوما كليا وهو الارسال فان قوله تعالى (وَرُسُلًا) نصب بمضمر يدل عليه أوحينا معطوف عليه داخل معه فى حكم التشبيه كما قبله أى وكما أرسلنا رسلا لا بما يفسره قوله تعالى (قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ) أى وقصصنا رسلا كما قالوا وفرعوا عليه أن قوله تعالى قد قصصناهم على الوجه الأول منصوب على أنه صفة لرسلا وعلى الوجه الثانى لا محل له من الاعراب فانه مما لا سبيل اليه كما ستقف عليه وقرىء برفع رسل وقوله تعالى (مِنْ قَبْلُ) متعلق بقصصنا أى قصصنا من قبل هذه السورة أو اليوم (وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) عطف على رسلا منصوب بناصبه وقيل كلاهما منصوب بنزع الخافض والتقدير كما أوحينا إلى نوح وإلى رسل الخ والحق أن يكون انتصابهما بأرسلنا فان فيه تحقيقا للمماثلة بين شأنه عليه الصلاة والسلام وبين شؤون من يعترفون بنبوته من الأنبياء عليهم السلام فى مطلق الايحاء ثم فى إيتاء الكتاب ثم فى الارسال فان قوله تعالى إنا أوحينا اليك منتظم لمعنى آتيناك وأرسلناك حتما كأنه قيل إنا أوحينا اليك ايحاء مثل ما أوحينا إلى نوح ومثل ما أوحينا إلى ابراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان إيتاء مثل ما آتينا داود زبورا وأرسلناك إرسالا مثل ما أرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم فى حقيقة الايحاء وأصل الارسال فما للكفرة يسألونك شيئا لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام ومن ههنا اتضح أن رسلا لا يمكن نصبه بقصصنا فان ناصبه يجب أن يكون معطوفا على أوحينا داخلا معه فى حكم التشبيه الذى عليه يدور فلك الاحتجاج على الكفرة ولا ريب فى أن قصصنا لا تعلق له بشىء من الايحاء والايتاء حتى يمكن اعتباره فى ضمن قوله تعالى إنا أوحينا اليك ثم يعتبر بينه وبين المذكور مماثلة مصححة للتشبيه على أن تقديره فى رسلا الاول يقتضى تقدير نفيه فى الثانى وذلك أشد استحالة وأظهر بطلانا (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى) برفع الجلالة ونصب موسى وقرىء على القلب وقوله تعالى (تَكْلِيمًا) مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز قال الفراء العرب تسمى ما وصل إلى الانسان كلاما بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فاذا أكد به لم يكن الا حقيقة الكلام والجملة اما معطوفة على قوله تعالى انا أوحينا اليك عطف القصة على القصة لا على آتينا وما عطف عليه واما حال بتقدير قد كما ينبىء عنه تغيير الاسلوب بالالتفات والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحى خص به موسى من بينهم فلم يكن ذلك قادحا فى نبوة سائر الأنبياء عليهم السلام فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه عليه السلام جملة قادحا فى صحة نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضية لذلك من جملتها أن بنى اسرائيل كانوا فى العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها ومع ذلك ما آمنوا بها الا بعد اللتيا واللتى وقد

فضل الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا أو على الحال بأن يكون رسلا موطئا لما بعده أو على البدلية من رسلا الأول أى مبشرين لأهل الطاعة بالجنة ومنذرين للعصاة بالنار (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ) أى معذرة يعتذرون بها قائلين لولا أرسلت إلينا رسولا فيبين لنا شرائعك ويعلمنا مالم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشرية عن إدراك جزئيات المصالح وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها كما فى قوله عز وجل ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك الآية وإنما سميت حجة مع استحالة أن يكون لاحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة التى لامرد لها ولذلك قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أحد أغير من الله تعالى ولذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن وما أحد أحب اليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه وما أحد أحب اليه العذر من الله تعالى ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب فاللام متعلقة بأرسلنا وقيل بقوله تعالى مبشرين ومنذرين وحجة اسم كان وللناس خبرها وعلى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من حجة أى كائنة على الله أو هو الخبر وللناس حال على الوجه المذكور ويجوز أن يتعلق كل منهما بما تعلق به الآخر الذى هو الخبر ولا يجوز التعلق بحجة لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه وقوله تعالى (بَعْدَ الرُّسُلِ) أى بعد إرسالهم وتبليغ الشرائع الى الأمم على ألسنتهم متعلق بحجة أو بمحذوف وقع صفة لها لأن الظروف يوصف بها الاحداث كما يخبر بها عنها نحو القتال يوم الجمعة (وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً) لا يغالب فى أمر من أموره ومن قضيته الامتناع عن الاجابة إلى مسئلة المتعنتين (حَكِيماً) فى جميع أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل وانزال الكتب فان تعدد الرسل والكتب واختلافها فى كيفية النزول وتغايرها فى بعض الشرائع والأحكام إنما هو لتفاوت طبقات الأمم فى الأحوال التى عليها يدور فلك التكليف فكما أنه سبحانه وتعالى برأهم على أنحاء شتى وأطوار متباينة حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية كذلك تعبدهم بما يليق بشأنهم وتقتضيه أحوالهم المتخالفة واستعداداتهم المتغايرة من الشرائع والأحكام حسبما تستدعيه الحكمة التشريعية وراعى فى إرسال الرسل وانزال الكتب وغير ذلك من الأمور المتعلقة بمعاشهم ومعادهم ما فيه مصلحتهم فسؤال تنزيل الكتاب جملة اقتراح فاسد إذ حينئذ تتعاقم التكاليف فيثقل على المكلف قبولها والخروج عن عهدتها وأما التنزيل المنجم الواقع حسب الأمور الداعية اليه فهو أيسر قبولا وأسهل امتثالا (لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ) بتخفيف النون ورفع الجلالة وقرىء بتشديد النون ونصب الجلالة وهو استدراك عما يفهم مما قبله كأنهم لما تعنتوا عليه بما سبق من السؤال واحتج عليهم بقوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا الخ قيل انهم لا يشهدون بذلك لكن الله يشهد (بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ) على البناء للفاعل وقرىء على البناء للمفعول والباء صلة للشهادة أى يشهد لك بحقية ما أنزل اليك من القرآن المعجز الناطق بنبوتك وقيل لما نزل قوله تعالى انا أوحينا اليك قالوا ما نشهد لك بهذا فنزل لكن الله يشهد (أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ) أى ملتبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره وهو تأليفه على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ أو بعلمه بحال من أنزله عليه واستعداده لاقتباس الأنوار القدسية أو بعلمه الذى يحتاج اليه الناس فى معاشهم ومعادهم فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث من المفعول والجملة فى موقع التفسير لما قبلها وقرىء نزله وقوله تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ) أى بذلك مبتدأ وخبر والجملة عطف على ما قبلها وقيل حال من مفعول أنزله أى أنزله والملائكة يشهدون بصدقه وحقيته (وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً) على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججا

ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى بما أنزل الله تعالى وشهد به أو بكل ما يجب الايمان به وهو داخل فيه دخولا أوليا والمراد بهم اليهود حيث كفروا به (وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ) وهو دين الإسلام من أراد سلوكه بقولهم مانعرف صفة محمد فى كتابنا وقرىء صدوا مبنيا للمفعول (قَدْ ضَلُّوا) بما فعلوا من الكفر والصد عن طريق الحق (ضَلَالًا بَعِيدًا) لأنهم جمعوا بين الضلال والاضلال ولأن المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الإقلاع عنه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى بما ذكر آنفا (وَظَلَمُوا) أى محمدا صلى الله عليه وسلم بانكار نبوته وكتمان نعوته الجليلة ووضع غيرها مكانها أو الناس بصدهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد (لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ) لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر (وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ) لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق والأعمال الصالحة التى هى طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة من الاستثناء بطريق الاشارة خلقه تعالى لأعمالهم السيئة المؤدية بهم إلى جهنم عند صرف قدرتهم واختيارهم إلى اكتسابها أو سوقهم إليها يوم القيامة بواسطة الملائكة والطريق على عمومه والاستثناء متصل وقيل خاص بطريق الحق والاستثناء منقطع (خَالِدِينَ فِيهَا) حال مقدرة من الضمير المنصوب والعامل فيها مادل عليه الاستثناء دلالة واضحة كأنه قيل يدخلهم جهنم خالدين فيها الخ وقوله تعالى (أَبَدًا) نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على المكث الطويل (وَكَانَ ذَٰلِكَ) أى جعلهم خالدين فى جهنم (عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) لاستحالة أن يتعذر عليه شىء من مراداته تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) بعد ماحكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعلل اليهود بالأباطيل واقتراحهم الباطل تعنتا ورد عليهم ذلك بتحقيق نبوته عليه الصلاة والسلام وتقرير رسالته ببيان أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى أمر الوحى والارسال كشئون من يعترفون بنبوته من مشاهير الأنبياء عليهم السلام وأكد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة أمر المكلفون كافة على طريق تلوين الخطاب بالايمان بذلك أمرا مشفوعا بالوعد بالإجابة والوعيد على الرد تنبيها على أن الحجة قد لزمت ولم يبق بعد ذلك لأحد عذر فى عدم القبول وقوله عز وجل (قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ) تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الأمر بالايمان وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته والمراد بالحق هو القرآن الكريم والباء متعلقة بجاءكم فهى للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من الرسول أى ملتبسا بالحق ومن أيضا متعلقة إما بالفعل وإما بمحذوف هو حال من الحق أى جاءكم به من عنده تعالى أو جاءكم بالحق كائنا من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضمير المخاطبين للايذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم ترغيبا لهم فى الامتثال بما بعده من الأمر والفاء فى قوله عز وجل (فَآمِنُوا) للدلالة على إيجاب ماقبلها لما بعدها أى فآمنوا به وبما جاء به من الحق وقوله تعالى (خَيْرًا لَّكُمْ) منصوب على أنه مفعول لفعل واجب الاضمار كما هو رأى الخليل وسيبويه أى اقصدوا أو ائتوا أمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر أو على أنه نعت لمصدر محذوف كما هو رأى الفراء أى آمنوا إيمانا خيرا لكم أو على أنه خبر كان المضمرة الواقعة جوابا للامر لا جزاء للشرط الصناعى وهو رأى الكسائى وأبى عبيدة أى يكن الايمان خيرا لكم (وَإِن تَكْفُرُوا) أى ان تصروا وتستمروا على الكفر به (فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من الموجودات سواء كانت داخلة فى حقيقتهما وبذلك يعلم حال أنفسهما على أبلغ وجه وآكده أو خارجة عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل فى جملتهم المخاطبون دخولا أوليا أى كلها له عز وجل خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره شىء منها فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالة أو فمن كان كذلك فهو غنى عنكم وعن غيركم لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بايمانكم وقيل فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا)

مبالغا فى العلم فهو عالم بأحوال الكل فيدخل فى ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولا أوليا (حَكِيماً) مراعيا للحكمة فى جميع أفعاله التى من جملتها تعذيبه تعالى إياهم بكفرهم (يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ) تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى زجرا لهم عماهم عليه من الكفر والضلال (لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ) بالافراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء ألوهيته وأماغلو اليهود فى حط رتبته عليه السلام ورميهم له بأنه ولد لغير رشدة فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق (وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ) أى لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد بل نزهوه عن جميع ذلك (إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ) قدمر تفسيره فى سورة آل عمران وقرىء بكسر الميم وتشديد السين كالسكيت على صيغة المبالغة وهو مبتدأ وقوله تعالى (عِيسَى) بدل منه أو عطف بيان له وقوله تعالى (ٱبْنُ مَرْيَمَ) صفة له مفيدة لبطلان ما وصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى وقوله تعالى (رَسُولُ ٱللَّهِ) خبر للمبتدا والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى عن القول الباطل المستلزم للامر بضده أعنى الحق أى انه مقصور على رتبة الرسالة لا يتخطاها (وَكَلِمَتُهُۥ) عطف على رسول الله أى مكون بكلمته وأمره الذى هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة (أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ) أى أوصلها اليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل أعلمها إياها وأخبرها بها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وقيل الجملة حال من ضميره عليه السلام المستكن فيما دل عليه وكلمته من معنى المشتق الذى هو العامل فيها وقد مقدرة معها (وَرُوحٌ مِّنْهُ) قيل هو الذى نفخ جبريل عليه السلام فى درع مريم فحملت باذن الله تعالى سمى النفخ روحا لأنه ريح تخرج من الروح ومن لابتداء الغاية مجازا لا تبعيضية كما زعمت النصارى يحكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيد ناظر على بن حسين الواقدى المروزى ذات يوم فقال له ان فى كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدى وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه فقال اذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءا منه تعالى علوا كبيرا فانقطع النصرانى فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل الواقدى بصلة فاخرة . وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح أى كائنة من جهته تعالى جعلت منه تعالى وان كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بأمره سبحانه وقيل سمى روحا لاحيائه الأموات وقيل لاحيائه القلوب كما سمى به القرآن لذلك فى قوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا وقيل أريد بالروح الوحى الذى أوحى إلى مريم بالبشارة وقيل جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شىء بغاية الطهارة والنظافة قالوا انه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونا من النفخ لا من النطفة وصف بالروح وتقديم كونه عليه السلام رسول الله فى الذكر مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحا منه فى الوجود لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل وتعيين مآل ما يحتمله وسد باب التأويل الزائغ (فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ) وخصوه بالألوهية (وَرُسُلِهِۦ) أجمعين وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية (وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ) أى الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم كما ينبىء عنه قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله أو الله ثلاثة ان صح أنهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود وبالثانى العلم وبالثالث الحياة (ٱنتَهُوا) أى عن التثليث (خَيْرًا لَّكُمْ) قدمر وجوه انتصابه (إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) أى بالذات منزه عن التعدد بوجه من الوجوه فالله مبتدأ وإله خبره وواحد نعت أى منفرد فى ألوهيته (سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ) أى أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولد أو سبحوه تسبيحاً من ذلك فانه إنما يتصور فيمن يماثله شىء ويتطرق اليه فناء والله سبحانه منزه عن أمثاله وقرىء أن يكون أى سبحانه ما يكون له ولد وقوله تعالى (لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

الأرض) جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه وتقريره أى له مافيهما من الموجودات خلقا وملكا وتصرفا لايخرج عن ملكوته شيء من الأشياء التي من جملتها عيسى عليه السلام فكيف يتوهم كونه ولدا له تعالى (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا) اليه يكل كل الخلق أمورهم وهو غنى عن العالمين فأنى يتصور فى حقه اتخاذ الولد الذى هو شأن العجزة المحتاجين فى تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ) استئناف مقرر لماسبق من التنزيه والاستنكاف الانفة والترفع من نكفت الدمع إذا نحيته عن وجهك بالأصبع أى لن يأنف ولن يترفع (أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ) أى عن أن يكون عبدا له تعالى مستمرا على عبادته وطاعته حسبما هو وظيفة العبودية كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه مع أن شأنه عليه السلام المباهاة به كما يدل عليه أحواله ويفصح عنه أقواله أو لا يرى أن أول مقالة قالها للناس قوله انى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا لوقوعه فى موقع الجواب عما قاله الكفرة . روى أن وفد نجران قالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأى شىء أقول قالوا تقول انه عبدالله قال انه ليس بعار أن يكون عبدالله قالوا بلى فنزلت وهو السر فى جعل المستنكف عنه كونه عليه السلام عبدا له تعالى دون أن يقال عن عبادة الله ونحو ذلك مع افادة فائدة جليلة هى كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية فان كونه عبدا له تعالى حالة مستمرة مستتبعة لدوام العبادة قطعا فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما أشير اليه بخلاف عبادته تعالى فانها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام يكفى فى اتصاف موصوفها بها تحققها مرة فعدم الاستنكاف لايستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها (وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) عطف على المسيح أى ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله تعالى وقيل أن أريد بالملائكة كل واحد منهم لم يحتج إلى التقدير واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وقال مساقه لرد النصارى فى رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضى أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم مستلزما لعدم استنكافه عليه السلام وأجيب بأن مناط كفر النصارى ورفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازه عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب وبالعلم بالمغيبات وبالرفع إلى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته تعالى عدم استنكاف من هو أعلى درجة منه فيما ذكر فان الملائكة مخلوقون من غير أب ولا أم وعالمون بما لايعلمه البشر من المغيبات ومقارهم السموات العلا ولا نزاع لأحد فى علو درجتهم من هذه الحيثية وانما النزاع فى علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات وبأن الآية ليست للرد على النصارى فقط بل على عبدة الملائكة أيضا فلا اتجاه لما قالوا حينئذ وان سلم اختصاصها بالرد على النصارى فلعله أريد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفصيل لاباعتبار التكبير والتفضيل كما فى قولك أصبح الأمير لايخالفه رئيس ولا مرؤس ولئن سلم ارادة التفضيل فغاية الأمر الدلالة على أفضلية المقربين منهم وهم الكروبيون الذين حول العرش أو من هو أعلى منهم رتبة من الملائكة عليهم السلام على المسيح من الأنبياء عليهم السلام وليس يلزم من ذلك فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقا وهل التشاجر الافيه (وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ) أى عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى وانما جعل المستنكف عنه ههنا عبادته تعالى لاماسبق لتعليق الوعيد بوصف ظاهر الثبوت للكفرة فان عدم طاعتهم له تعالى مما لاسبيل لهم إلى انكار اتصافهم به ان قيل لم عبر عن عدم طاعتهم له تعالى بالاستنكاف عنها مع أن ذلك منهم كان بطريق انكار كون الأمر من جهته تعالى لابطريق الاستنكاف قلنا لأنهم كانوا يستنكفون عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل هو الاستنكاف عن طاعة الله تعالى إذ لا أمر له عليه الصلاة

والسلام سوى أمره تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله (وَيَسْتَكْبِرْ) الاستكبار الانفة عما لا ينبغى أن يؤنف عنه وأصله طلب الكبر لنفسه بغير استحقاق له لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه بل بمعنى عد نفسه كبيرا واعتقاده كذلك وإنما عبر عنه بما يدل على الطلب للايذان بأن ماله محض الطلب بدون حصول المطلوب وقد عبر عن مثل ذلك بنفس الطلب فى قوله تعالى يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا فانهم ما كانوا يطلبون ثبوت العوج لسبيل الله مع اعتقادهم لاستقامتها بل كانوا يعدونها ويعتقدونها معوجة ويحكمون بذلك ولكن عبر عن ذلك بالطلب لما ذكر من الإشعار بأن ليس هناك شىء سوى الطلب والاستكبار دون الاستنكاف المنبىء عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه (فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً) أى المستنكفين ومقابليهم المدلول عليهم بذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام وقد ترك ذكر أحد الفريقين فى المفصل تعويلا على أنباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد الفريقين فى التفصيل عند قوله تعالى فأما الذين آمنوا بالله الآية مع عموم الخطاب لهما اعتمادا على ظهور اقتضاء اثابة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمول الجزاء للكل وقيل الضمير للمستنكفين وهناك مقدر معطوف عليه والتقدير فسيحشرهم وغيرهم وقيل المعنى فسيحشرهم اليه يوم يحشر العباد لمجازاتهم وفيه أن الأنسب بالتفصيل الآتى اعتبار حشر الكل فى الإجمال على نهج واحد وقرىء فسيحشرهم بكسر السين وهى لغة وقرىء فسنحشرهم بنون العظمة بطريق الالتفات (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) بيان لحال الفريق المطوى ذكره فى الاجمال قدم على بيان حال ما يقابله إبانة لفضله ومسارعة إلى بيان كون حشره أيضا معتبرا فى الإجمال وإيراده بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات (فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ) من غير أن ينقص منها شيأ أصلا (وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ) بتضعيفها أضعافا مضاعفة وباعطاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا) أى عن عبادته عز وجل (وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ) بسبب استنكافهم واستكبارهم (عَذَاباً أَلِيماً) لا يحيط به الوصف (وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً) يلى أمورهم ويدبر مصالحهم (وَلَا نَصِيراً) ينصرهم من بأسه تعالى وينجيهم من عذابه (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة المكلفين اثر بيان بطلان ما عليه الكفرة من فنون الكفر والضلال والزامهم بالبراهين القاطعة التى تخر لها صم الجبال وإزاحة شبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبيه لهم على أن الحجة قد تمت فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل ولا عذر لمعتذر (قَدْ جَاءَكُمْ) أى وصل اليكم وتقرر فى قلوبكم بحيث لا سبيل لكم إلى الإنكار (بُرْهَانٌ) البرهان ما يبرهن به على المطلوب والمراد به القرآن الدال على صحة نبوة النبى عليه الصلاة والسلام المثبت لما فيه من الأحكام التى من جملتها ما أشير اليه مما أثبتته الآيات الكريمة من حقية الحق وبطلان الباطل. وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى عليه الصلاة والسلام عبر عنه به لما معه من المعجزات التى تشهد بصدقه وقيل هو المعجزات التى أظهرها وقيل هو دين الحق الذى أتى به وقوله تعالى (مِّن رَّبِّكُمْ) إما متعلق بجاءكم أو بمحذوف وقع صفة مشرفة لبرهان مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائن منه تعالى على أن من لابتداء الغاية مجازا وقد جوز على الثانى كونها تبعيضية بحذف المضاف أى كائن من براهين ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه اليهم لتربيتهم وتكميلهم (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً) أريد به أيضا القرآن الكريم عبر عنه تارة بالبرهان لما أشير اليه آنفا وأخرى بالنور النير بنفسه المنور لغيره ايذانا بأنه بين بنفسه مستغن فى ثبوت حقيته وكونه من عند الله تعالى باعجازه غير محتاج إلى غيره مبين لغيره

من الأمور المذكورة وإشعار بهدايته للخلق وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الايمان وقد سلك به مسلك العطف المبنى على تغاير الطرفين تنزيلا للمغايرة العنوانية منزلة المغايرة الذاتية وعبر عن ملابسته للمخاطبين تارة بالمجىء المسند اليه المنبىء عن كمال قوته فى البرهانية كأنه يجىء بنفسه فيثبت أحكامه من غير أن يجىء به أحد ويجىء على شبه الكفرة بالإبطال وأخرى بالإنزال الموقع عليه الملائم لحيثية كونه نورا توفيرا له باعتبار كل واحد من عنوانيه حظه اللائق به وإسناد انزاله اليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه هذا على تقدير كون البرهان عبارة عن القرآن العظيم وأما على تقدير كونه عبارة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن المعجزات الظاهرة على يده أو عن الدين الحق فالأمر هين وقوله تعالى اليكم متعلق بأنزلنا فان انزاله بالذات وان كان إلى النبى صلى الله عليه وسلم لكنه منزل اليهم أيضا بواسطته عليه الصلاة والسلام وإنما اعتبر حاله بالواسطة دون حاله بالذات كما فى قوله تعالى إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس ونظائره لاظهار كمال اللطف بهم والتصريح بوصوله اليهم مبالغة فى الاعذار وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر غير مرة من الاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر وللمحافظة على فواصل الآى الكريمة (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ) حسبما يوجبه البرهان الذى أتاهم (وَاعْتَصَمُوا بِهِ) أى عصموا به أنفسهم مما يرديها من زيغ الشيطان وغيره (فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الجنة وما يتفضل عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وعبر عن إفاضة الفضل بالادخال على طريقة قوله: علفتها تبنا وماء باردا وتنوين رحمة وفضل تفخيمى ومنه متعلق بمحذوف وقع صفة مشرفة لرحمة (وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ) أى إلى الله عز وجل وقيل إلى الموعود وقيل إلى عبادته (صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا) هو الاسلام والطاعة فى الدنيا وطريق الجنة فى الآخرة وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنة على الوعد بالهداية اليها على خلاف الترتيب فى الوجود بين الموعودين المسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصلى قيل انتصاب صراطا على أنه مفعول لفعل محذوف ينبىء عنه يهديهم أى يعرفهم صراطا مستقيما (يَسْتَفْتُونَكَ) أى فى الكلالة استغنى عن ذكره بوروده فى قوله تعالى (قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَٰلَةِ) وقد مر تفسيرها فى مطلع السورة الكريمة والمستفتى جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه يروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق مكة عام حجة الوداع فقال ان لى أختا فكم آخذ من ميراثها إن ماتت وقيل كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى كلالة فكيف أصنع فى مالى. وروى عنه رضى الله عنه أنه قال عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب من وضوئه على فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث وإنما يرثنى كلالة فنزلت وقوله تعالى (إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ) استئناف مبين للفتيا وارتفع امرؤ بفعل يفسره المذكور وقوله تعالى (لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ) صفة له وقيل حال من الضمير فى هلك ورد بأنه مفسر للمحذوف غير مقصود فى الكلام أى إن هلك امرؤ غير ذى ولد ذكرا كان أو أنثى واقتصر على ذكر عدم الولد مع أن عدم الولد أيضا معتبر فى الكلالة ثقة بظهور الأمر ودلالة تفصيل الورثة عليه وقوله تعالى (وَلَهُ أُخْتٌ) عطف على قوله تعالى ليس له ولد أو حال والمراد بالأخت من ليست لأم فقط فان فرضها السدس وقد مر بيانه فى صدر السورة الكريمة (فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ) أى بالفرض والباقى للعصبة أولها بالرد ان لم يكن له عصبة (وَهُوَ) أى المرء المفروض (يَرِثُهَا) أى أخته المفروضة ان فرض هلاكها مع بقائه (إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ) ذكرا كان أو أنثى فالمراد بارثه لها احراز جميع مالها إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية لا ارثه لها فى الجملة فانه يتحقق مع وجود بنتها وليس فى الآية ما يدل على سقوط الأخوة بغير الولد ولا على عدم سقوطهم وإنما دلت على سقوطهم مع الأب السنة الشريفة (فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ)

عطف على الشرطية الأولى أى اثنتين فصاعدا (فلهما الثلثان مما ترك) الضمير لمن يرث بالاخوة والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى قيل وفائدة الاخبار عنها باثنتين مع دلالة ألف التثنية على الاثنينية التنبيه على أن المعتبر فى اختلاف الحكم هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما (وإن كانوا) أى من يرث بطريق الأخوة (إخوة) أى مختلطة (رجالا ونساء) بدل من اخوة والأصل وإن كانوا اخوة وأخوات فغلب المذكر على المؤنث (فللذكر) أى فللذكر منهم (مثل حظ الأنثيين) يقتسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ما أنزل من كتاب الله تعالى فى الأحكام . روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال فى خطبته ألا ان الآية التى أنزلها الله تعالى فى سورة النساء فى الفرائض فأولها فى الولد والوالد وثانيها فى الزوج والزوجة والاخوة من الام والآية التى ختم بها السورة فى الاخوة والأخوات لأبوين أو لأب والآية التى ختم بها سورة الأنفال أنزلها فى أولى الأرحام (يبين الله لكم) أى حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه التى من جملتها حكمها (أن تضلوا) أى كراهة أن تضلوا فى ذلك وهذا رأى البصريين صرح به المبرد وذهب الكسائى والفراء وغيرهما من الكوفيين إلى تقدير اللام ولا فى طرفى أن أى لئلا تضلوا وقال الزجاج هو مثل قوله تعالى ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا أى لئلا تزولا وقال أبو عبيد رويت للكسائى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وهو لايدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله إجابة أى لئلا يوافق فاستحسنه وليس ماذكر من الآية والحديث نصا فيما ذهب اليه الكسائى وأضرابه فان التقدير فيهما عند البصريين كراهة أن تزولا وكراهة أن يوافق الخ وقيل ليس هناك حذف ولا تقدير وإنما هو مفعول يبين أى يبين لكم ضلالكم الذى هو من شأنكم إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه وأنت خبير بأن ذلك إنما يليق بما إذا كان بيانه تعالى تعيين على طريقة مواقع الخطأ والضلال من غير تصريح بما هو الحق والصواب وليس كذلك (والله بكل شىء) من الأشياء التى من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم (عليم) مبالغ فى العلم فيبين لكم مافيه مصلحتكم ومنفعتكم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة ورث ميراثا وأعطى من الأجر كمن اشترى محررا وبرىء من الشرك وكان فى مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم والله أعلم .

تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الأول من تفسير العلامة أبى السعود

ويليه الجزء الثانى وأوله سورة المائدة

صحيفة

٢ خطبة الكتاب

٥ ﴿سورة فاتحة الكتاب﴾

١٥ ﴿سورة البقرة﴾

٥٧ تفسير قوله تعالى (ان الله لايستحي أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها)

٧٧ تفسير قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)

٨٣ تفسير قوله تعالى (واذ استسقى موسى لقومه)

٩١ تفسير قوله تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه)

١٠٢ تفسير قوله تعالى (ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون)

١١١ تفسير قوله تعالى (ماننسخ من آية أوننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير)

١٢٠ تفسير قوله تعالى (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن)

١٣٢ ﴿الجـزء الثاني﴾

١٣٢ تفسير قوله تعالى (سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها)

١٤٠ تفسير قوله تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما)

١٤٨ تفسير قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر)

١٥٦ تفسير قوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل مواقيت هي للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها)

١٦١ تفسير قوله تعالى (واذكروا الله في أيام معدودات)

١٦٦ تفسير قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما)

١٧٥ تفسير قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة)

١٨٠ تفسير قوله تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت)

١٨٦ ﴿الجزء الثالث﴾

١٨٦ تفسير قوله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)

١٩٦ تفسير قوله تعالى (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم)

٢٠٠ تفسير قوله تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء)

٢٠٥ تفسير قوله تعالى (وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة)

٢١٠ ﴿سورة آل عمران﴾

٢٢١ تفسير قوله تعالى (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها)

٢٢٨ تفسير قوله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين)

٢٣٩ تفسير قوله تعالى (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله)

٢٤٦ تفسير قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك)

صحيفة

٢٥٢ ﴿ الجزء الرابع ﴾
٢٥٢ تفسير قوله تعالى (كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة)
٢٦٣ تفسير قوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون)
٢٧٢ تفسير قوله تعالى (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين)
٢٨٣ تفسير قوله تعالى (اذ تصعدون ولاتلوون على أحد والرسول يدعوكم)
٢٩٢ تفسير قوله تعالى (يستبشرون بنعمة من الله وفضل)
٣٠٠ تفسير قوله تعالى (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم)
٣١٠ ﴿ سورة النساء ﴾
٣٢١ تفسير قوله تعالى (ولكم نصف ماترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد)
٣٣٠ ﴿ الجزء الخامس ﴾
٣٣٠ تفسير قوله تعالى (والمحصنات من النساء الا ماملكت أيمانكم)
٣٤٠ تفسير قوله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً)
٣٥٣ تفسير قوله تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها)
٣٥٩ تفسير قوله تعالى (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة)
٣٦٧ تفسير قوله تعالى (فمالكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا)
٣٧٦ تفسير قوله تعالى (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة)
٣٨٢ تفسير قوله تعالى (لاخير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس)
٣٨٩ تفسير قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط)
٣٩٣ ﴿ الجزء السادس ﴾
٣٩٣ تفسير قوله تعالى (لايحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم)
٣٩٧ تفسير قوله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده)

تم فهرس الجزء الأول من تفسير أبي السعود

297207
A162tA
V.1
JAFET LIB.
12 DEC 1994
Oct 72
JAFET LIB.
13 NOV 1990
J. Lib.
1 JUN 1989
J. Lib.
1 OCT 1984
JAFET LIB.
20 NOV 2001
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
15 APR 2002
Circulation Dept. 1

297.207:A162tA:v.1:c.1
ابو السعود ،محمد بن محمد بن مصطف
تفسير ابى السعود المسمى ارشاد العق
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010374

207
EA